حقائق ورقائق
(١)

الباحثون عن الله

رواية حول أدلة وجود الله وصفات جماله وجلاله

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

هذا الكتاب

هـذه الروايــة تحــاول أن تنشــر في قلب المــؤمن وغــير المؤمن أهمية معرفة الله وضرورتها، وأن الحياة لا تستقيم من دونها، وأن القلب لا يدرك ضالته من دونها.. وهي تتوسل لـذلك بكل أنواع الحجج العقلية والعاطفية وغيرها..

وتدور أحداثها حول رجل دين مسـيحي يـزور المؤلـف، ثم يحكي له قصة اهتدائـه للـه، والـتي بـدأت من خلال تكليفـه من طرف الكنيسة بالذهاب صـحبة هيئـة علميـة أرسـلها الفاتيكـان لحضور مؤتمر علمي حـول اللـه في الأديـان المختلفـة.. وقبـل الوصول إلى المؤتمر نزلت الطائرة الـتي تقلهم اضـطراريا في مكـان مجهـول، وحين ييأسـس الركـاب من أن ينقـذهم أحـد يقفون مواقـف مختلفـة.. أمـا الملاحـدة واللاديـنين، فمنهم من ينتحر، ومنهم من يصاب بالجنون.. وأما غيرهم، فيتضرعون إلى الله.. كل حسب دينه الذي يعتقده.. لكن شخصا منهم خـاطبهم بقوله: (نحن من بلاد مختلفة.. منا من يؤمن باللـه.. ومنـا من لا يؤمن به.. ونحن نختلف فيمـا بيننـا اختلافـا شـديدا في معارفنـا المرتبطة بالله.. ولا يمكن لـدعواتنا أن ترتفـع للآلهـة المزيفـة.. فلـذلك لا منـاص لنـا من البحث عن الإلـه الحقيقي حـتى نرفـع أكفنا بالضراعة إليه)

وهنـا يبـدأ كـل بـاحث من الهيئـة العلميـة يـدلي بشـهادته الصـادقة عن معارفـه الـتي وصـل إليهـا من خلال زيارتـه لبلاد المسلمين..

وفي الأخير.. وبعد اهتدائهم لله.. ودعـائهم لـه، قيض اللـه لهم من ينقذهم..

حقائق ورقائق

(1)

الباحثون عن الله

رواية

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثالثة

1437-2016

دار الأنوار للنشر والتوزيع

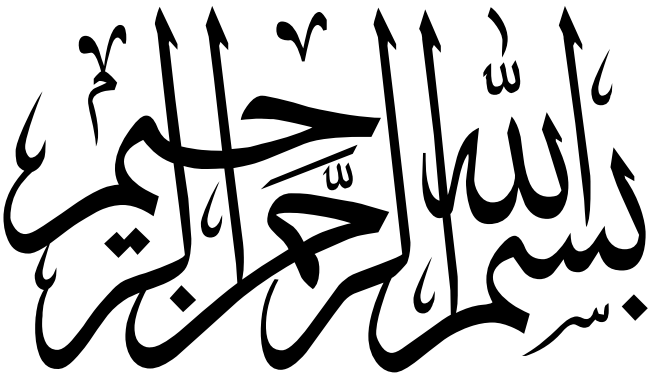

فهرس المحتويات

هذه السلسلة **9**
المقدمة **12**
البداية **14**
أولا ـ الله **28**
1 ـ العلم 30
المادة: 31
العقل: 33
الإنسان: 38
الكون: 40
2 ـ العقل 43
المناظرة الأولى: 44
المناظرة الثانية: 53
المناظرة الثالثة: 59
المناظرة الرابعة: 61
المناظرة الخامسة: 66
المناظرة السادسة: 70
المناظرة السابعة: 78
المناظرة الثامنة: 87
المناظرة التاسعة: 105
المناظرة العاشرة: 111
ثانيا ـ الواحد **114**
التكامل: 116
التناسق: 118
التمانع: 120
الوحدة: 122
الهداية: 123
الحقيقة: 124
التعين: 125
التركيب: 125
الفرجة: 126
الكلية: 127
ثالثا ـ القدوس **129**

1 ـ قداسة الذات الإلهية 149
الشبيه: 155
الحاجة: 161
الجهل: 162
العجز: 162
الجسمية: 163
الزمان: 168
المكان: 168
2 ـ قداسة الأفعال الإلهية 173
المكر: 174
الظلم: 177
البخل: 179
الخلف: 180
الإهمال: 181
العبث: 183
الضرر: 184
رابعا ـ الحميد 190
1 ـ الحق 197
2 ـ الحي 199
3 ـ القيوم 201
4 ـ العليم 202
5 ـ السميع 209
6 ـ البصير 210
7 ـ المريد 213
8 ـ القادر 217
9 ـ المتكلم 222
10 ـ النور 230
خامسا ـ البديع 236
1 ـ الخالق 248
2 ـ الخلاق 258
3 ـ البارئ 262
4 ـ المصور 266
5 ـ المغني 269
6 ـ الحافظ 275

7 ـ الفاطر 282
سادسا ـ الملك 287
1 ـ الكبير المتعال 291
2 ـ العزيز الحكيم 293
3 ـ المولى النصير 296
4 ـ المعطي المعين 297
5 ـ الرزاق الطبيب 299
6 ـ المؤمن الرقيب 300
7 ـ الحكم العدل 302
8 ـ الصبور الستير 305
9 ـ القابض الباسط 307
10 ـ الغفور الغيور 308
سابعا ـ العدل 311
1 ـ البراءة 318
2 ـ التكليف 322
3 ـ المدد 332
4 ـ المجازاة 345
ثامنا ـ الرحيم 370
1 ـ الرب 379
2 ـ الهادي 382
تاسعا ـ الودود 398
عاشرا ـ الصمد 419
الخاتمة 426
هذا الكتاب 430

هذه السلسلة

تهدف هذه السلسلة (حقائق ورقائق) إلى أمرين:

الأول: البحث عن الحقائق التي يهتم لها العقل الإنساني، والتي جاءت الأديان والإسلام خصوصا للدلالة عليها، ولكنها - للأسف- صادفت الكثير من التشويه من طرف الذين خلطوا بين المقدس والمدنس، وبين الدين والأهواء، وبين الإلهي والبشري.

وهي لذلك تحاول أن تقوم بالاستعانة بالمصدرين المقدسين: العقل والنقل، أن تصل إلى الحقائق السامية التي تجتمع على قبولها الفطر السليمة التي هي الحصن الحصين الذي يلجأ إليه عند الخلاف.

الثاني: هو الصياغة الرقيقة الجميلة المسالمة لتلك الحقائق.. فلا تلقى بعنف ولا بشدة، ولا بألفاظ تجرحها، ولا بجدل يبعدها عن غايتها.. بل تلقى برقة ولطف وعذوبة حتى تستمتع بها النفس.. وحتى تسري إليها من غير أن تخدش مشاعرها أو تفرض أي وصاية عليها.

وانطلاقا من هذين الهدفين جاءت أكثر أجزاء هذه السلسلة في شكل روايات بسيطة ممتلئة بالحوار الذي يخاطب العقل والعاطفة وكل اللطائف الإنسانية.

وننبه في هذه الطبعة كما نبهنا في الطبعة السابقة إلى أن هدف هذه السلسلة هو أن تكون مدرسة تعلم فنون الحوار الإيماني، والجدال بالتي هي أحسن، ولذلك اهتممنا في أصل كل جزء منها بما يحقق هذا الغرض، ولم ننشغل عنه بأي شاغل.. ولكن الكثير من المعلومات التفصيلية أو التوثيقية قد يحتاج إليها لتحقيق هذا الغرض، وهي مما لا يمكن إدراجه في الأصل.. فلذلك اكتفينا بإيرادها في الهوامش، أو بالدلالة على المراجع التي يمكن أن يستفاد منها لتحقيق ذلك..

وننبه كذلك إلى أننا لم نهتم كثيرا بتوثيق كل ما نرجع إليه من مصادر، لأن توثيقها يستهلك صفحات كثيرة، وقد يشغل القارئ عن المهمة التي تهدف إليها الرواية.. بالإضافة إلى أن أكثر ما نورده مما توزع وجوده في الكتب الكثيرة.. ولهذا نكتفي بذكر المراجع العامة التي لجأنا إليها دون التدقيق في التوثيق في كل محل.

وننبـه أخـيرا إلى أننـا من منطلـق الحـرص على الوحـدة الإسلامية، واعتقادنا بحرية الرأي والخلاف بين المسلمين، جعلنا أبطال هذه الروايات من مختلف المـدارس الفكريـة المنتشـرة في العــالم الإســلامي، وهــذا لا يعــني تأييــدنا الكلي لكــل الشخصيات التي نختارها، بـل أردنـا فقـط تعريـف القـارئ بهـا، وخدمـة بعض الجـوانب الفنيـة الـتي يتطلبهـا أي عمـل يحـاول الجمع بين العلم والفن.

وبما أن الكثير من أجزاء هذه السلسلة لـه علاقـة بـالحوار الإسلامي المسيحي، أو الحوار مع الآخر، فقد حاولنا أن نصـيغها صـياغة خاصـة تمثـل المنهج الإسـلامي المحمـدي الأصـيل في التعامل مع الآخر والحـوار معـه، ولهـذا حاولنـا نجمـع فيهـا بين المزايا التالية:

الأدب: فقد حاولنا صياغتها بلغة مهذبة عالية الأدب، حرصا على تنفيذ قوله تعالى: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَـابِ إِلَّا بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: من الآية46)، فليس في جميع هذه الأجزاء إهانة أو أي لفظ قد يجرح أي مسـيحي، أو غـير مسـيحي... لأن أكثرهـا عبـارة عن ذكريـات يسـوقها رجـال دين مسـيحيين عن رحلاتهم التي تعرفوا من خلالها على الإسلام، ونبي الإسلام.

الشمول: فقد حاولنا الرجوع في كتابة هذه السلسلة إلى مراجع كثيرة جدا مسيحية وإسلامية، حتى نحصي أكبر عـدد من الشبهات، وأن نجيب عنها بكل مـا يمكن الإجابـة عنـه بمـا يقنـع المسيحي المتدين، وغيره من اللادينيين والعلمانيين.

المتعة: فقد حاولنا صياغة كل تلك المعلومات والشــبهات في قــالب روائي جــذاب، مليء بالأحــداث المشــوقة، ليجمــع القارئ بين العلم والتسلية.

التبسيط: فقد حاولت هذه السلسلة أن تخرج بالمعـارف المرتبطـة بهـذا البـاب من مـدرجات الجامعـات إلى الشـوارع والطرقات في لغة بسيطة تمكن الكل من فهمها...

التعليم: فهذه السلسلة تعلم كل محب لرسـول اللـه ﷺ، وكل حريص على دينه، كيف يجيب المخالف، بل كيـف يقنعـه... فهي تــبين لهم منهج الحــوار مــع المخــالفين، وتعطيهم من القدرات العلمية، والطرق المنهجية ما لا يملك معه المخالف إلا التسليم... وهدفها من كل ذلك أن تجعل من كـل مسـلم داعيـة إلى الله، ومحاميا يذب عن دينه، ويحمي حمى رسوله، ومناظرا

ينتصر به الحق، وينهزم به الباطل، وتدفع به الشبهات.

المقدمة

هـذه الروايـة تحـاول أن تنشـر في قلب المـؤمن وغـير المؤمن أهمية معرفة الله وضرورتها، وأن الحياة لا تسـتقيم من دونها، وأن القلب لا يدرك ضالته من دونها.

وهي تتوسـل لـذلك بكـل أنـواع الحجج العقليـة والعاطفيـة وغيرها..

وتدور أحداثها حول رجـل دين مسـيحي يـزور المؤلـف، ثم يحكي له قصة اهتدائـه للـه، والـتي بـدأت من خلال تكليفـه من طرف الكنيسة بالذهاب صـحبة هيئـة علميـة أرسـلها الفاتيكـان لحضور مؤتمر علمي حول الله في الأديان المختلفة.. وكل هذه الهيئة من العلماء الراسـخين في العلم ممن تثـق الكنيسـة في قدراتهم.

وقبـل الوصـول إلى المـؤتمر نـزلت الطـائرة الـتي تقلهم اضـطراريا في مكـان مجهـول، وحين ييأسـس الركـاب من أن ينقذهم أحد يقفون مواقف مختلفة.. أمـا الملاحـدة واللاديـنيون، فمنهم من ينتحـر، ومنهم من يصـاب بـالجنون.. وأمـا غـيرهم، فيتضـرعون إلى اللـه.. كـل حسـب دينـه الـذي يعتقـده.. لكن شخصـا منهم خـاطبهم بقولـه: (نحن من بلاد مختلفـة.. منـا من يـؤمن باللـه.. ومنـا من لا يـؤمن بـه.. ونحن نختلـف فيمـا بيننـا اختلافا شديدا في معارفنـا المرتبطـة باللـه.. ولا يمكن لـدعواتنا أن ترتفع للآلهـة المزيفـة.. فلـذلك لا منـاص لنـا من البحث عن الإله الحقيقي حتى نرفع أكفنا بالضراعة إليه)

وهنـا يبـدأ كـل بـاحث من الهيئـة العلميـة يـدلي بشـهادته الصادقة عن معارفه التي وصل إليها من خلال أحداث وحوارات ومناظرات يمر بها هو أيضا.

وقـد جمعت تلـك الشـهادات كـل القضـايا الكـبرى الـتي تدرسها العقيدة الإسلامية في هذا الجـانب، ابتـداء من الوجـود، والوحدانية والتقديس وانتهاء بغيرها من الأسماء الحسنى.

وفي الأخير.. وبعد اهتدائهم للـه.. ودعـائهم لـه، قيض اللـه لهم من ينقذهم..

وتهدف هذه الرواية من خلال هذا الطرح المبسط إلى:

1. التعريف باللـه من خلال العقـل والعلم والمصـادر المقدسـة بعيدا عن الجدل والترف الفكري الذي يخوض فيما لا يستفاد

منه.

2. جمع أكبر عدد من الأدلة والبراهين المرتبطة بالحقائق العقدية المتعلقة بالله.
3. الاستفادة من منتجات العلم الحديث في تغذية العقائد الإسلامية بأكبر عدد من البراهين والأدلة.
4. البعد عن الصراع المذهبي الذي حال بين الكثير، وبين طرح العقيدة الإسلامية صافية نقية.
5. تيسير المعارف العقدية وتبسيطها بحيث يستفيد منها المتخصص وغير المتخصص.

وفي الأخير نعتذر للصعوبة قد تعترض البعض في فهم بعض ما نطرحه في الرواية من براهين، ذلك أننا قصدنا من الرواية خطاب الجميع من المتخصصين وغير المتخصصين، وهم أصحاب مناهج فكرية مختلفة.. ولهذا اعتمدنا الأدلة بأنواعها المختلفة.

ولا حرج على من لم يفهم دليلا من الأدلة أو مناظرة من المناظرات أن ينتقل إلى غيرها، فالقصد من التنويع هو خطاب العقول بمناهج تفكيرها المختلفة.

البداية

في تلك اللحظات المؤلمة التي لم يمر عليها مثلها في حياتي، سمعت بعض أهل البيت يردد بصوت مرتفع (الله!!)، يقولها متعجبا أو مستحسنا كما تعودنا أن نقولها، من غير أن نشعر بها أو نلتفت لها.

لكني في تلك اللحظة شعرت بها شعورا لم أشعر بمثله في حياتي..

لقد رحت أبحث عن تلك الكلمة، وعلى من تطلق.. فكدت أسقط..

إن (الله) هو اسم صاحب الوجود الحقيقي في هذا الكون جميعا.. أما ما عداه فليس إلا ظلال أو آثار أو مظاهر، ليس لها من هدف إلا الدلالة عليه والتعريف به..

و(الله) هو اسم أكبر غني في هذا الوجود.. فهو اسم الملك الذي يملك هذا الكون جميعا بأرضه وشمسه وأقماره ونجومه ومجراته وأفلاكه الواسعة ما نرى منها، وما لا نرى..

و(الله) هو اسم القادر على كل شيء.. والذي يستوي عنده كل شيء.. وليس عنده أي مستحيل.. فبإمكانه أن يحول من الأرض جنة ونعيما مقيما.. وبإمكانه أن يحول منها نارا تلظى..

وبإمكانه أن يشفي من عجز جميع الأطباء عن شفائه..

وبإمكانه أن يعلم من عجز جميع المعلمين عن تعليمه..

وبإمكانه أن يحول من الشقي الذي امتلأ كدورة وألما سعيدا يمتلئ فرحا وسرورا..

و(الله) هو اسم العليم بكل شيء.. والذي لا محل عنده للجهل.. فهو يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون لو كان كيف يكون.

و(الله) يعلم ــ لذلك ــ كل الأسرار التي حار فيها العلماء والمفكرون والفلاسفة وجميع العقول..

الله يعلم أسرار الحياة والموت.. وأسرار السعادة والشقاء.. وأسرار الصحة والمرض.. وأسرار الوجود والمصير.. وجميع الأسرار التي نقدم أرواحنا فداء لأجل كشف بعض حروفها.. ومع ذلك لا ننال منها إلا الهباء..

و(الله) هو اسم الحي السميع البصير المتكلم.. الذي له من القدرات الذاتية ما لا تطيق العقول والأوهام تخيله.

و(الله) هو اسم القدوس الذي لا يعرف الموت ولا المـرض ولا المكان ولا الزمان.. فهو الغني بذاته عن كـل شـيء.. وكـل شـيء مفتقر إليه، متواضع بين يديه، لا يملك لنفسـه من الضـر والنفـع إلا ما أعطاه الله.

و(الله) هو اسم القيـوم الـذي لا قيـام لوجودنـا ولا لحياتنـا.. ولا لوجود كل شيء وحياته إلا به.. فكل شيء بـه يقـوم.. وكـل شـيء إليه يفتقر.

و(اللـه) هـو اسـم الـرحيم الـرحمن الـذي ملأ الكـون بمظـاهر رحمته..

و(الله) هو اسم الودود الذي تودد لكل شيء.. وتـودد إليـه كـل شيء.

وهو اسم الحنان الذي حن على كل شيء..

وهو اسم البديع الجميل الذي ملأ الكون إبداعا وجمالا.

وهـو اسـم السـلام الـذي لا يعـرف الصـراع.. فليس لـه من يصـارعه، وليس مـا يصـارع من أجلـه.. فهـو الواحـد الأحـد الفـرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

***

بقيت لحظات طويلة وأنا واقف في مكـاني أحـاول أن أختصـر في ذهـني المعـاني العظيمـة الجليلـة الكثـيرة الـتي يحملهـا اسـم (اللــه).. إلى أن كـدت أغيب عن بيـتي وعن نفسـي وعن الكـون جميعا..

في تلـك اللحظـات المقدسـة قلت لنفسـي، وأنـا ممتلئ همـة وعزيمة: أليس من الهمة الدنية يا نفس أن ترغبي عن صـحبة هـذا الملــك الجليــل.. لتبحــثي في القمامــات والمزابــل عن الأصــنام لتطأطئي رأسك لها خاضعة ذليلة.. وتأبى الأصنام إلا أن تذيقك من الهوان ما يذيقه كل مستبد بكل ضعيف؟

أليس من الهوان أن تصحبي العجـزة وأنت قـادرة على صـحبة القادر الذي لا يعجزه شيء؟

أليس من الجهل أن تصحبي الجهلة الممتلـئين خرافـة وأوهامـا وترغبي عن صحبة العليم الذي بيده خزائن علوم كل شيء؟

أليس من الضعة أن تصحبي الفقـراء الـذين لا يملكـون شـيئا.. حتى أنفسهم لا يملكونها.. وترغبي عن صـحبة الغـني المالـك لكـل شيء.. ابتداء منك وانتهاء بأصغر ذرة في هذا الوجود؟

لكن الكـدورة الـتي تعـودت أن تغـير بجحافـل جيوشـها على

مشاعر سعادتي، فتحولها إلى ألم وشقاء.. أبت إلا أن تـزورني في تلك اللحظات الممتلئة بالسعادة:

لقد قالت لي نفسي، وكأنها تسـخر مـني: من أنت أيهـا القـزم الحقير، وصحبة الملك الجليل الذي تنقطع العقول والقلوب دونه؟

من أنت ـ أيها الممتلئ بالحظوظ الدنية ــ حـتى تتخطى رقـاب الصـديقين الـذين سـلكوا المفـاوز والقفـار وبـاعوا كـل الحظـوظ، ليشتروا بذلك نعمة المعرفة بالله، ونعمة المصاحبة له؟

من أنت أيهــا الملطخ بــالأوزار، الممتلئ بالأقــذار، المــدنس بأرجاس الليل والنهار.. والتطلع لصحبة الملك الجليل الجبار؟

ألا تستحيي من نفسك؟

أنت لا تليق لصحبة ملك ولا وزير.. بـل ولا شـرطي ولا خفـير.. فكيف تتطلع لصحبة من الأمر كله بيده، منه يبدأ، وإليه ينتهي..؟

من أنت أيها..

قاطعتهـا، وأنـا ممتلئ بـالألم، قـائلا: كفي عـني أيتهـا النفس.. فلطالما كدرت سعادتي.. أنا إن لم أصحبه، فمن أصـحب.. وأنـا إن لم أبحث عنـــه فعلى من أبحث.. أليس من الـــدناءة أن أتركـــه لغيره؟.. أليس من الغبن أن أربح كل شـيء، ثم أخسـره؟.. أليس من العجز أن أستعمل جميع قدراتي من أجل تحقيق أتفه الأشـياء، ثم لا أستعملها من أجله وأجل البحث عنه؟.. أليس من..؟

قاطعتني نفسي.. نفسي الأمارة بالسـوء.. وقـالت: وأنـا.. لمن تتركني.. إن انشغلت عني به.. فمن يشتغل بمطالبي.. من يشتغل بمصالحي.. من يشتغل بأهوائي..؟

رفعت يـدي، وكـأني أريـد أن أبطش بشـيء.. لكـني لم أجـد سواي.. فارتخت يدي.. وامتلأت بالعجز عند ارتخائها.. وخرجت من كل تلك العوالم الجميلة بعد أن ملأتني نفسي إحباطا وكآبة.

لم أجد بعـدها إلا أن أسـير إلى ذلـك الضـيف الغـريب الممتلئ بأنوار القداسة، والذي لم أعرف إلى ذلـك الحين من أين جـاء، ولا أين يقصد..

عندما اقتربت من غرفته سمعته يـردد بصـوت خاشـع مـا ورد في الآثار القدسية من حديث الله لعباده.. لقد سمعته يقول:

(عبدي.. متى جئتني قبلتك..

إن أتيتني ليلا قبلتك.. وإن أتيتني نهارا قبلتك.

إن تقربت مني شـبرا تقـربت منـك ذراعـا.. وإن تقـربت مـني ذراعا تقربت منك باعا.. وإن مشيت إلى هرولت إليك.

لا تحجبك الخطايا عني، فلـو لقيتـني بقـراب الأرض خطايـا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا أتيتك بقرابها مغفرة..

ولو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك.

هل هناك من هو أعظم مني جودا وكرما..

عبادي يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلؤهم على فرشهم.

إني والجن والإنس في نبـإ عظيم: أخلـق ويعبـد غـيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نـازل وشـرهم إلى صـاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ويتبغضون إلي بالمعاصـي وهم أفقـر شيء إلي.

من أقبـل إلي تلقيتـه من بعيـد، ومن أعـرض عـني ناديتـه من قـريب، ومن تـرك لأجلي أعطيتـه فـوق المزيـد، ومن أراد رضـاي أردت ما يريد، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد.

أهل ذكري أهل مجالستي، وأهـل شـكري أهـل زيـادتي، وأهـل طاعتي أهـل كرامـتي، وأهـل معصـيتي لا أقنطهم من رحمـتي، إن تابوا إلي فأنا حبيبهم فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا إلي فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب.

من آثرني على سواي آثرته على سواه، الحسنة عنـدي بعشـر أمثالهـا إلى سـبعمائة ضـعف إلى أضـعاف كثـيرة، والسـيئة عنـدي بواحدة، فإن ندم عليها واستغفرني غفرتها له.

أشكر اليسير من العمل وأغفر الكثير من الزلل.

رحمتي سبقت غضبي وحلمي سـبق مؤاخـذتي وعفـوي سـبق عقوبتي، أنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها..)(1)

***

لست أدري كيف دخلت عليه، وأنا ممتلئ فرحا وسعادة بعد أن سمعت منه هذا الحديث الرباني الجميل.

لقد دخلت، وأنا أردد بصوت مرتفع ممتلئ فخـرا وزهـوا: لكـأن الله يخاطبني بهذا.. أنا العبد الضعيف.. لقـد كـانت نفسـي تثبطـني عن السلوك إليه وطلبه.

التفت إلي الشيخ الصالح مبتسما، وقـال: النفس هي الحجـاب الأكبر الـذي يحـول بينـك وبين ربـك.. فمـتى سـمعتها لم تسـمعه.. ومتى رأيتها لم تره.. ومتى صحبتها لم تصـحبه.. ومـتى عشـت من أجلها لم تعش من أجله.

قلت: ولكني لست سوى نفسي.. فكيف أصـفعها صـفعة تعيـد

---

1) وردت هذه العبارات في أحاديث قدسية متفرقة.

إليها وعيها؟.. إني أراها كالمخـدر الـذي يـرتمي في المزابـل، وهـو يحسب نفسه في القصور..

قال: عندما تنشغل به عنهـا ستنشـغل عنـك بمـا كلفت بـه من خدمتك.

قلت: لكنها لا تحول بيني وبينه فقط.. بل إنهـا تسـرب إلي من الأوهام ما تنهد الجبال دون سماعه.

قال: ذلـك سـلاح من أسـلحتها.. فهي إن لم تطـق أن تشـغلك عنه.. شغلتك بالأوهام والشبهات التي تحول بينك وبينه.

قلت: فأين المصير؟

قال: إليه..

قلت: ولكني أخاف أن يكون مصـيري إلى الآلهـة الـتي تصـنعها الأوهـام.. ألا تـرى أن كـل ملـة من الملـل، وكـل نحلـة من النحـل تحسب أنها على الحق.. وأن الحـق لن يتجاوزهـا إلى غيرهـا.. فمـا أدراني لعلي مثلهـا.. وأني عنـدما أضـحك عليهـا لا أضـحك إلا على نفسي؟

قـال: لقـد جعـل ربـك للحقـائق علامـات وشـروطا وقـوانين يستحيل أن تتخلف..

قلت: أي قوانين؟

قال: لقـد خلـق اللـه لنـا العقـول.. وبرمجهـا بـالبرامج المهيـأة لإدراك الحقائق.. فمن سار على ضـوئها يسـتحيل أن يصـل إلا إلى الحقائق.

قلت: أليس للبشر جميعا عقول يفكرون بها؟

قال: بلى..

قلت: فلم يختلفون إذن؟

قال: لأن فيهم من يغلب عقله.. وفيهم من يغلب هواه.. وفيهم من يمزج عقله بهواه.. وفيهم من يسخر عقله لهواه.

قلت: فكيف نميز بين ما يقوله العقل، وما يقوله الهوى؟

قال: لقد جعل الله في قدرة العقول هذا التمييز.

قلت: لا يزال عقلي كليلا دون إدراك صدق ما تقول.

قـال: أرأيت لـو أن رجلا من النـاس زعم لـك اسـتحالة تحـول الماء إلى بخار.. كيف تخلصه من هذا الوهم؟

قلت: ما أسهل ذلك.. سأحضر نارا وماءا.. فما تلبث النار حـتى تتغلب على الماء، وتحوله إلى بخار.. وحينها سيتبخر وهمه.

قال: فهكذا من سـرب إليـك وهمـه.. أحضـر لـه مـا يتبخـر بـه

وهمه.
قلت: الأمـر مختلـف تمامـا.. ذلـك مـاء ونـار.. وكلاهمـا تدركـه حواسي.. ولكن الحقائق التي نتحدث عنها تختلف تماما.
قال: هي تختلف من حيث الصورة فقط.. لكنها في الحقيقـة لا تختلف.. لقد جعل الله لكل حقيقـة السـلم الـذي يصـعد إليهـا بـه.. والباب الذي يدخل إليها منه.
قلت: ما دام الأمر بهذه البساطة.. فلم كانت أعقـد قضـية في هذا الوجود هي معرفة الله؟
قال: لقد عرفت أن النفس هي أكبر حجـاب بين الإنسـان وبين ربـه.. ولـذلك فإنهـا إن لم تطـق أن تملأ القلـوب والعقـول غفلـة أسرعت فملأتها أوهاما.
قلت: لم تسرع إلى الأوهام؟
قال: لتعبد من خلالها.. فالنفس في طغيانها لا تردد إلا مـا ردده فرعون عندما قال:﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (النازعـات: من الآية24).. بل إنها لا ترضى بالشرك، ولذلك، فهي تردد مع فرعون قوله:﴿ يَـا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْـرِي ﴾ (القصـص: من الآية38).. ولذلك فهي تلبس من الألبسة المختلفة ما تعبد به من خلالها.
قلت: أكل أولئك الذين لم يعبدوا الله كانوا يعبدون أنفسهم؟
قال: أجل.. فكل من لم يعبد الله لابد أن يقع في عبادة هـواه.. وقد قال ﷺ: (ما تحت ظل سماء من إله يعبد من دون اللـه أعظم عند الله من هوى متبع)(1)
قلت: المسيحيون واليهود والبوذيون.. وكل أولئك الجموع..
قاطعني وقال: كل أولئك الجموع.. حتى الكثير من المسـلمين ممن امتلأت عقـولهم بـالأهواء.. هم لا يعبـدون إلا الأوهـام.. ولا يركعون إلا للأوهام.. وإذا سجدوا لا يسجدون إلا للأوهام.
قلت: أراك تملؤني مخافة.
قال: من لم يخف في هذا الباب لن يصل إلى شـيء.. ومن لم يحرص في هذا الباب فلن يطمع في شيء.
قلت: ما تعني؟
قـال: ألا تـرى الخلـق كيـف يحرصـون من أجـل مصـالحهم المحـدودة.. فيتحـرون ويـدققون في التحـري حـتى لا يقعـوا في أحبولة أي محتال؟
قلت: أجل.. وقد اخترعوا لذلك القوانين الكثـيرة الـتي تحميهم

1() رواه الطبراني وأبو نعيم.

من دجل الدجالين واحتيال المحتالين وزيف المزيفين.
قال: ولكنهم في هذا الباب تجدهم.. أو تجد أكثرهم يصم أذنيه، ويغلق عينيه.. ولا يكاد يتساءل عن الحقيقة.
قلت: لم أفهم ما الذي ترمي إليه؟
قال: لو أن البشر.. جميع البشر.. تعاملوا مع اللـه كمـا تعـاملوا مع الأطباء.. لصاروا كلهم مسلمين لله خاشعين لله ظافرين بالله.
قلت: كيف ذلك؟
قال: ألا تـراهم لا يسـلمون أجسـادهم إلا لمن يثقـون فيهم من الأطباء ممن تـبين لهم أنهم قـد حصـلوا من العلـوم مـا يصـلح لأن يسلموا أجسادهم لهم؟
قلت: أرى ذلــك.. بــل إنهم أحيانــا يحتــاطون لــذلك أعظم الاحتياط، فيختارون أكثرهم خبرة وتجربة.
قال: فلو أن هؤلاء تعاملوا مع ربهم على هذا الأساس.. فراحـوا يتحرون عن إلههم..
انتفضت غاضبا، وأنا أقول: التحري لا يكون إلا عن المجرمين.
رد علي بهدوء: صدقت.. ولذلك لابد من التحري.
قلت: كيــف يتحــرى عن اللــه.. التحــري لا يكــون إلا على المجرمين؟
قال: لأن هناك كثـير من المجـرمين ملأوا هـذا البـاب خرافـات وأباطيل راحت تزاحم الله.. فلـذلك لن تسـلم لأحـد معرفتـه باللـه حتى يخلص عقله من الأوهام التي يسربها المجرمون.
قلت: التحري يكون بين جمع من الأطباء.. فكيف يكون التحري في معرفة الله؟
قال: مثل التحري بين الأطباء.. فهنـاك (اللـه) الحقيقي.. الـذي خلق هذا الكون ودبره.. وهناك آلهة كثيرة مزيفة أنشـأتها النفـوس المدنسة تريد أن يمنح لهـا من القداسـة مـا يمنح للـه.. ولا ترضـى بدون ذلك.
قلت: ومـا أدرانـا أن يكـون (اللـه) الحقيقي بين هـذه الآلهـة الكثيرة المزيفة.. ألا يمكن أن لا يكون لأي أحد من الناس الحقيقـة المرتبطة بهذا؟
قال: ذلك مستحيل.. فالله الذي خلق هـذا الكـون ودبـره.. بـل دبر أبسط ذراته يستحيل أن يترك هـذا الكـون من غـير أن يعرفـه بنفسه.
قلت: فكيف نصل إلى تلك المعرفة؟

قـال: بالسـيرين.. السـير العقلي.. والسـير الحسـي.. بكليهمـا تستطيع هذه البشرية التائهـة أن تصـل إلى ربهـا الحقيقي وتمـيزه عن الآلهة الكثيرة المزيفة..

قلت: فهل سرت مثل هذا السير؟

قـال: لقـد رزقـني اللـه في رحلـة من رحلاتي من اختصـر لي الكثير من الأسفار.. وقد رزقني اللـه في تلـك الرحلـة من الأشـعة الهادية إلى شمس محمد ﷺ ما لا يمكن للعقل وصفه.

قلت: فهل ستحدثني عنها؟

قال: أجل.. فلا يمكن لمن لم يتنعم بهـذا النـوع من الأشـعة أن يعـرف محمـدا ﷺ.. فلا يعـرف محمـدا ﷺ من لا يعـرف اللـه.. فلا يعرف الرسول من لم يعرف مرسله.

***

اعتدل الشيخ الصالح في جلسـته، وحمـد اللـه، وصـلى وسـلم على نبيه ﷺ مستغرقا في كل ذلك.. ثم قال: في يوم من أيام الله المملـوءة بالنفحـات والبركـات.. شـعرت فجـأة بمشـاعر ملحـة تدعوني للبحث عن الله..

وقد بدأني ذلك الشعور، وأنا أنظر إلى المرآة.. وقد أرعبني مـا رأيته من شيب يشتعل في رأسي كما يشتعل النار في الهشيم..

لم أحزن في ذلك الحين على دنيا فاتتني.. فقد بـدأ الزهـد يملأ قلبي أنفة من الدنيا ورغبة عنها.

ولم أحزن على لـذات أو شـهوات تتحـرك لهـا النفـوس.. فقـد امتلأت بالعفة التي جعلت بيني وبينهـا من الحـواجز مـا نغصـها في عيني.

لم أحـزن على أي شـيء.. فكـل شـيء لا يسـتحق أن يحـزن عليه.

ولكني عندما تذكرت (الله) امتلأت هما وغما..

لقـد قلت لنفسـي: هـا هـو قطـار العمـر يمضـي إلى محطتـه النهائية.. وقد ركب الكل في عربات قطاري.. الكل ما عـدا (اللـه) (1)

لقد جلست مع الكل، ولكني لم أجلس مع الله لحظة واحدة.

واتصلت بالكل، ولكني لم أتصل بالله.

وبحثت عن الكل، ولكني لم أبحث عن الله.

أصابني ألم عظيم، وأنا أردد في ذهـني المقولـة الـتي سـمعتها

---

1) لا يخفى ما في هذا التعبير من المعـاني.. فـالمراد بـ (اللـه) هنـا هـو معرفـة اللـه والاتصال به لا ذات الله..

كثيرا في جميع ديار الإسلام (إلهي ماذا وجد من فقدك.. وماذا فقد من وجدك)

في تلك الأيام كنت أردد هـذه العبـارة كثـيرا.. إلى أن سـمعني مرة أخي، وكـان رجلا من كبـار رجـال الكنيسـة.. فاسـتدعاني إلى مكتبه، وقال: أعرف المشاعر التي تشعر بهـا.. لقـد مـررت مثلـك بهذه المرحلة.. ولم يعالجني منها إلا مؤتمر كبير لعلمـاء اللاهـوت.. حضرته.. وهناك عرفت الله، واتصلت به، وسمعته..

قلت: أنت!؟.. كيف لم تخبرني؟

قال: ألست إنسـانا؟.. إن كـل إنسـان يحن إلى مصـدره.. كـل إنسان يحن إلى ربه..

لست أدري كيف قلت من حيث لا أشعر: أنت مسلم إذن؟

غضب أخي غضبا شديدا، وقال: مسلم!؟.. وما علاقـة الإسـلام بهذا؟

تداركت الموقف، وقلت: لا أعني بالإسلام دين الإسـلام.. وإنمـا أعني به الاستسلام لله والركون إليه والخضوع بين يديه.

قال: صدقت في هذا.. فليس هناك ما يعبر عن تلـك الروحانيـة مثل هذه اللفظة.. لولا أن شوهها الإسلام.

قلت: كيف شوهها؟

قال: ألا تعلم الصـورة المشـوهة الـتي يحملهـا المسـلمون عن ربهم؟

قلت: كنت أتصور أن ربنا وربهم واحد.. وأننا لا نختلف كثيرا في تصورنا لله، وإنما نختلف فيما عدا ذلك.

قــال: أنت لا تعــرف عقيــدة المســلمين في اللــه إذن.. إن المسلمين يحملون صورة من أخطر صور الانحراف عن الله..

إن ربهم الذي يدينون له بالعبودية ليس إلا إفرازا من إفــرازات الحقد التي تمتلئ بها نفوسهم..

إن إلههم مـاكر ومخـادع ومسـتهزئ.. وهـو منتقم جبـار.. وهـو ينسى ويمل.. وهو..

قاطعته وأنا أقول: أهذه عقيدة المسلمين في الله؟

قـال: هـذه بعض عقيـدة المسـلمين في اللـه.. ليتـك كنت قـد حضرت معنـا ذلـك المـؤتمر لتسـمع بأذنيـك من التشـويهات مـا لا يتحمله عقلك وقلبك.

قلت: ألا يمكن أن تكرر مثل هذه المؤتمرات؟

قال: من حسن حظك أن هناك مؤتمرا سينعقد في هذه الأيـام

في البلاد التي كانت مقرا للشيوعية في يوم من الأيام.. نحن نريد أن نعيد إحياء الإله الذي قام الشيوعيون بقتله هناك.. وقد أرسلت إليك لأجل ذلك.

قلت: وما دوري في هذا المؤتمر؟

ضحك، ثم قال: أريد أن أرسلك لتقوم بعملية غسيل لدماغك الذي ملأه المسلمون بالشبهات.

قلت: إن كان الأمر كذلك.. فسأكتفي بغسل دماغي هنا ولا حاجة بي للسفر الطويل من أجل هذه المهمة؟

ابتسم، وقال: كنت أمزح فقط.. أنا أعلم صعوبة إقناع أي شخص لك.. عداي..

قلت: ما دام الأمر كذلك.. فما الوظيفة التي تريد إسنادها لي في هذه الرحلة؟

قال: سأرسلك مرافقا للهيئة العلمية التي يرسلها الفاتيكان لحضور هذا المؤتمر.. وكل هذه الهيئة من العلماء الراسخين في العلم ممن تثق الكنيسة في قدراتهم.

قلت: ما أعظم سروري بهذه الوظيفة..

قال: فحضر نفسك لحضور هذا المؤتمر، فليس بيننا وبينه إلا أيام معدودات.

***

كانت تلك الأيام التي انتظرت فيها تلك الرحلة الموعودة طويلة ثقيلة مملة.. لقد كنت أعد ساعاتها ساعة ساعة، ودقيقة دقيقة، وثانية ثانية..

كنت أرقب قرص الشمس كل يوم في انتظار تلك اللحظات التي أسمع فيها الحديث عن الله.. لأزيد من خلالها معرفتي بالله.. لأني علمت علم اليقين أنه لا يمكن أن أتصل بالله إلا من خلال معرفتي به.

في عشية تلك الرحلة قدر الله لي أن ألتقي بمعلمك معلم السلام.

قبل غروب الشمس بلحظات كنت بجانب بيتي أسير.. فإذا بي ألمحه من بعيد.. فأسرعت إليه.. وأمسكت بيده، وقلت: ها أنت أخيرا بجانب بيتي.. لابد أن تدخله.. لا بد أن أتشرف باستضافتك اليوم.. لطالما حلمت بهذا.

نظر إلي مبتسما، ثم قال: أترى أن دخولي بيتك سيسرك؟

قلت: لا يسرني شيء مثل دخولك بيتي.

قال: لم؟
قلت: أراك رجلا ممتلئـا حكمـة.. وليس هنـاك أشـرف من أن تدخل الحكمة بيتك.
ابتسم، وقال: وكيف تدخل الحكمة إلى البيوت؟
قلت: بدخول أهلها.. إذا دخل الحكماء دخلت الحكمة معهم.
قال: ألا أدلك على من هو أشرف مني وأكرم.. وهو أولى مـني بالدخول إلى بيتك؟
قلت: من هو؟
قال: لقد ذكرت لك أن مهمتي هي الدلالة لا التعريـف.. فلـذلك سأصفه لـك.. لتبحث عنـه.. ثم لتدخلـه بيتـك.. بيتـك الـذي لا تنهـد جدرانه.
قلت: أهناك بيت لا تنهد جدرانه؟
قال: أجل.. هو بيتـك الحقيقي الـذي يسـير معـك حيث رحلت، ويأوي معك حيث أويت.
قلت: أراك تقصد قلبي؟
قال: أقصد قلبك وعقلك وروحك وحقيقتك.. فهذه المحـال هي بيتك الحقيقي الذي لا تفارقه ولا يفارقك.
قلت: فصف لي من تراه أهلا ليسكن فيه.
قال: لا تدخل بيتك معدوما.. فالعدم هباء.. ولن تنـال من الهبـاء إلا ما يناله الظمآن من السراب.
قلت: وهـل يمكن لأحـد عـاقلا كـان أو مغفلا أن يـدخل بيتـه معدوما؟
قال: ما أكثرهم.. إنهم ينتشرون في الأرض.. ويملأون قاراتهـا.. وليس في بيوت قلوبهم وعقولهم إلا الهباء.
قلت: هذه الأولى.. فما الثانية؟
قال: إن اجتمعت الحكمة في واحـد.. فـاكتف بـه.. فلن يفيـدك التعدد إلا التشتت.. ولن يفيدك التشتت إلا التمزق والضياع.
قلت: فما الثالثة؟
قـال: لا تـدخل بيتـك مدنسـا.. فالمـدنس يوشـك أن يدنسـك، ويدنس حقيقتك..
قلت: فما الرابعة؟
قال: لا تدخل بيتك إلا كاملا اجتمع له الكمال بجميع معانيه.
قلت: فما الخامسة؟
قال: لا تدخل بيتك إلا بديعا اجتمع له الجمال بجميع معانيه.

قلت: فما السادسة؟
قال: لا تدخل بيتك إلا من لا ملك لأحـد عليـه.. وهـو فـوق ذلـك ملك الملوك.
قلت: فما السابعة؟
قال: لا تدخل بيتك إلا عدلا اجتمع له العدل بجميع معانيه.
قلت: فما الثامنة؟
قال: لا تدخل بيتك إلا رحيما اجتمعت له الرحمة بجميع معانيها.
قلت: فما التاسعة؟
قال: لا تدخل بيتك إلا الودود المحب الذي لا يريد لـك ولا يريـد منك إلا الخير.
قلت: فما العاشرة؟
قال: لا تدخل بيتك إلا المقصـود في كـل الحـوائج.. فمن الغبن أن تدخل من يردك أحوج ما تكون إليه.
قلت: أراك تشير إلى الله.
قال: إن كان (الله) هو اسـم الـذي ذكـرت أوصـافه.. فلا يصـح للعاقل أن يغفل عن البحث عنه، أو يغفل عن الاتصال به.
قال ذلك، ثم سار، وتركني كعهدي به.

***

في صباح اليوم التالي قصـدت المطـار.. وهنـاك رأيت عشـرة من الرجال.. كلهم قد امتلأ شعره بالشيب الـذي ملأ شـعري.. بـل إن بعضهم أحنت ظهره الأيام، فطأطأ رأسه لها.
ذهبت إليهم وسلمت عليهم واحدا واحـدا.. ثم ركبنـا الطـائرة.. وقد قدر الله أن لا نصل إلى مبتغانا..
لقد حصل للطائرة ـ ونحن في وسط الطريق ـ من العطب مـا كاد يقضي على حياتنا.. ولولا مهارة السـائق لكنـا جميعـا في عـداد الموتى.
لكن السـائق بعـد جهـد جهيـد اسـتطاع أن يحـط بهـا في غابـة موحشة ممتلئة بالظلمات والبرد الشديد..
وقد ملأنا السائق والطاقم الذي معه حزنـا حين أخبرنـا أن كـل أجهزة الطائرة قد حصل لهـا من العطب مـا يحـول بينهـا وبين أي تحرك.. بل حصل لكل أجهزة الطائرة من العطب مـا يحـول بينهـا وبين الاتصال بأي جهة من الجهات.
ثم عاد وأخبرنا بأننا في مكان يستحيل على أي جهاز في الـدنيا أن يرقبه.. فالباحث في تلـك الغابـة كالبـاحث عن إبـرة في كومـة

عظيمة من القش.
قـالوا لنـا ذلـك.. ثم راحـوا يوزعـون علينـا مـا بقي من الـزاد القليل..
بقينا في تلك الغابة شهرا كاملا إلى أن أدركنا الله بفرجه..
قلت: كيف حصل ذلك، وقد أخبركم السـائق أنكم في مكـان لا يمكن أن يتعرف عليه أحد من الناس؟
قال: لا تعجل.. فإن لذلك قصة كانت هي المفتـاح الأكـبر الـذي اهتديت به إلى الإسلام.. بل إني في نهاية رحلتي هذه أعلنت لربي استسلامي له، وإسلامي بين يديه..
امتلأت سرورا، وقلت: كيف كان ذلك؟
قـال: سـأحكي لـك الحكايـة من البدايـة.. فلا يمكن أن تفهم النهاية من دون العروج على البداية.
قلت: لقد ذكـرت لي أن الطـائرة نـزلت بكم في ذلـك المحـل الموحش الذي لا يمكن أن يعرفه أحد من الناس.
قـال: أجـل.. وقـد تقلبت بنـا الأحـوال في تلـك الأيـام تقلبـات عجيبة.
أما في الأيـام الأولى.. حيث كـان الـزاد مـوفرا، فقـد انشـغلنا، وانشغل الكثير منا باللهو واللعب.. وكأن الموت لا ينتظرنـا، بـل إن بعضنا عندما عوتب في لهوه ولعبه، قال ما قال قبله امرؤ القيس: اليوم خمر، وغد أمر.. وقال آخـر: دعـني.. لأن أمـوت وأنـا أضـحك خير من أن أموت وأنا أبكي.
هذا في الأيام الأولى..
أمـا عنـدما بـدأ الـزاد ينفـذ، وبـدأت الحقيقـة تنجلي.. فقـد بـدأ الإحباط ينشر أشعته على أكثر من امتطوا معنا الطـائرة مـع كـون الكثـير منهم من المثقفين.. بـل إن الأمـر وصـل ببعضـهم إلى حـد الانتحار، ووصل بآخرين إلى حد الجنون..
ففي يوم من تلك الأيام الممتلئة بالغفلة سمعنا صـوتا مزعجـا، فأسرعنا إلى مصدره، فوجدنا أحد رفاقنـا قـد طعن نفسـه بخنجـر قاتــل.. بحثنــا في ثيابــه عن هويتــه، فتعجبت إذ رأيت أن اســمه عربي.. كان اسمه (إسـماعيل أدهم)(1).. ولكن عجـبي زال عنـدما

1) أشـير بـه إلى إسـماعيل بن أحمـد بن إسـماعيل بن إبـراهيم باشـا أدهم: عرفـه صاحب الأعلام بأنه عارف بالرياضيات، وله اشتغال بالتاريخ، ولـد بالإسـكندرية وتعلم بهـا، ثم أحرز الدكتوراه في العلوم من جامعة موسكو عـام 1931، وعين مدرسـاً للرياضـيات في جامعـة سـان بطرنسـبرج، ثم انتقـل إلى تركيـا فكـان مدرسـاً للرياضـيات في معهـد أتاتورك بأنقرة ، وعاد إلى مصر سنة 1936 فنشـر كتابـاً وضـعه في (الإلحـاد) وكتب في مجلاتها، أغرق نفسه بالإسكندرية منتحراً.

رأيته في جواز سفرته رحلاته الكثيرة إلى روسيا في الـوقت الـذي تـزعمت فيـه الإلحـاد في العـالم.. وزال عجـبي أكـثر عنـدما رأيت عضويته في جمعية اسمها (المجمع الشرقي لنشر الإلحـاد).. وزال عجبي أكثر من ذلك كله عنـدما رأيت في حقيبتـه كتابـا من تأليفـه سماه (لماذا أنا ملحد؟)

وفي يوم آخر.. بل في اليوم التـالي لـذلك اليـوم، أصـيب آخـر بالجنون، وكان في جنونه كثيرا ما يردد، وكأنه يخطب في المجـامع قولـــه: (الجـــداول الرياضـــية) و(الطاقـــة الذريـــة) و(الطاقـــة الهيدروجينيـة) و(طـائرات الميـغ) و(الأقمـار الصـناعية) و(حضـارة القرن العشرين) و(موسكو) و(نهر الراين) و(جبال هيمالايا)

ثم يصيح بصوت عال، وبهستيرية: (إن الله قد مات، أو هـو في طريقه إلى الموت)..

ثم يسير كما يسير في الجنازات.. وهو ممتلئ حزنا وهما، وهـو يقول:(إن كان من شأن فكرة الله أن تسقط ضلال الخطيئة على بـراءة الأرض، فإنـه لابـد للمؤمـنين بـالحس الأرضـي أن يهـووا بمعاولهم على تلك الفكرة)

ويقول: (طوبى لأتقياء القلب، لأنهم لا يعاينون الله.. لقـد صـرنا بشراً، ولهذا فإننا لا نريـد إلا ملكـوت الأرض، إلى أين مضـى اللـه؟ سأقول لكم إلى أين مضى؟ لقد قتلناه، أنتم وأنا.. أجل، نحن الذين قتلنـاه، نحن جميعـاً قـاتلوه، ألا تشـمون رائحـة العفن الإلهي؟ إن الآلهة أيضاً تتعفن، لقد مات الله وسيظل ميتاً)

سألت صـاحبا لـه عن سـر الرجـل، وسـر كلماتـه، فقـال: هـذا

وقد وجدت الشرطة في مساء الثالث والعشـرين من شـهر يوليـو عـام 1940م جثتـه طافية على مياه البحـر المتوسـط، وقـد عـثرت في معطفـه على كتـاب منـه إلى رئيس النيابة يخبره بأنه انتحر لزهده في الحياة وكراهيته لها، وأنـه يوصـي بعـدم دفن جثتـه في مقبرة المسلمين ويطلب إحراقها.

قال في رسالته التي سماها (لماذا أنـا ملحـد؟) متحـدثا عن نفسـه: (أسسـت جماعـة لنشر الإلحاد بتركيا، وكانت لنا مطبوعات صغيرة أذكر منهـا: ماهيـة الـدين، وقصـة تطـور الدين ونشأته... وبعد هذا فكرنا في الاتصال بجمعية نشر الإلحاد الأمريكيـة، وكـانت نتيجـة ذلك تحويل اسم جماعتنا إلى المجمع الشرقي لنشر الإلحاد)

وقد رد على رسالته هذه: الدكتور أحمـد زكي أبـو شـادي برسـالة عنوانهـا: (لمـاذا أنـا مؤمن؟)، ورد عليها محمد فريد وجدي بمقالة عنوانها (لماذا هو ملحد؟)

وقد كان له من العمر عند انتحاره تسعة وعشرون سنة؛ فكانت نهايته نهايـة مأسـاوية لشاب موهوب، قال عنه الأستاذ أحمد حسن الزيات: (كان شديد الذكاء.. واسع الثقافة)، وقال عنه الأستاذ محمد عبد الغني حسن بأنه صاحب (ذهن متوقد لامع)، كـان الأول على دفعتـه في البكالوريـا، ثم حـاز الـدكتوراه وألّـف مؤلفـات كثـيرة، ودرّس، وكـان يحسـن التحدث بسـت لغـات، كـل هـذا وهـو في هـذا العمـر.. (انظـر: الأعلام للـزركلي (1/310 بتصرف). وله ترجمـة في الأعلام الشـرقية لـزكي مجاهـد (ص 858-860)، وفي تـراجم عربية، لمحمد عبد الغني حسن)

نيتشة.. وهو رجل كـان في أصـله مؤمنـا.. ولكنـه كـان ضـعيفا في إيمانه.. وقد بلغ به الانبهار بالحضـارة الحديثـة إلى أن أسـلم كيانـه كله لها.. وقد سقط بين يدي جماعة كـانوا كـل حين يحشـرون لـه الإلحاد تحت هذه العبارات.. وها أنت ترى المسكين قـد نسـي كـل علومه، ولم يبق له منها إلا هذه الألفاظ يرطن بها.

في يوم آخر بعد ذينك اليومين المشؤمين، جن رجل آخر.. كان اسمه (أوجست كونت)(1).. كان اسمه يشبه اسم ذلك الفيلسـوف الفرنسي المعـروف.. وكـان في مظهـره ومخـبره لا يكـاد يختلـف عنه.. وقد عجبت له في جنونه إذ كان يقف كهيئة المصلي.. ولكنـه لا يردد في صلاته إلا اسم امرأة لست أدري من كانت بالنسبة له.

أهمني أمـر هـذا الرجـل.. فـرحت أسـأل عنـه إلى أن ظفـرت برجل من أهل بلده كان صديقا له.. وقد أخبرني أن هذه النوبة من نوبات الجنون كانت تعرض له كل مرة يتعرض فيها لأي أزمة..

وأخبرني أنه في صغره لما بلغ سنّ الرابعـة عشـرة من عمـره نبذ الإيمان بمبادئ الدين.. وأنـه حينهـا عكـف على كتب الفلسـفة، معتمـداً على قراءتـه الخاصـة لا سـيما كتب (هيـوم) و(دي مسـتر) و(دي بونالد)

وأخبرني أنه تعرّف بعد ذلك على كـاتب من أهـل بلـده يسـمى (سان سيمون)، وأن هذا الكاتب كان من رواد المذهب الاشـتراكي في ذلك الحين..

وأخبرني أنهما اتفقا على الإشتغال معاً بـالعلم والسياسـة، أمـا (سان سيمون) فقد كان شغوفاً بالسياسة وذا بصر نافذ فيها، وأمـا (أوجسـت كـونت) فقـد كـان شـغوفاً بـالعلم، وغـير مهتم بـالأمور السياسية.

وأخبرني أنه افترق بعد ذلك عن أستاذه، لأنه كان يختلـف معـه في الاتجاه.. وانصرف بعدها للمطالعة والبحث طلبا لأن يصير مثل

---

1) أشير به إلى (أوجست كونت) (1798-1857) عالم اجتماع وفيلسـوف اجتمـاعي فرنسي ، أعطى لعلم الاجتماع الاسم الذي يعرف بـه الآن ، أكـد ضـرورة بنـاء النظريـات العلمية المبنية على الملاحظة.

أسس المذهب الوضعي القائل ان لا سبيل إلى المعرفة إلا بالملاحظة و الخـبرة، وهـو يرى أن تاريخ البشرية ينقسم إلى ثلاث مراحـل من التقـدم الشـامل: المرحلـة الدينيـة ؛ والمرحلة الميتافزيقية، ثم المرحلة العلمية.

وقد قدم مقترحات على جـانب كبـير من التعقيـد لإقامـة دولـة وضـعية تقـوم على صفوة من علمـاء الاجتمـاع لإدارة المجتمـع وتوجيهـه.. من أهم أعمالـه كتـاب (الفلسـفة الوضعية) الذي ظهر لأول مرة في ستة أجزاء (1830- 1842)

وننبه إلى أن كل ما ذكرنا في الرواية عن سميه كان قد حصل لـه مـع بعض التصـرف الذي اقتضاه المقام.

سميه الفيلسوف الفرنسي..
لكن المسكين ما إن ألقى ثلاث محاضرات إلحادية حتى انتابته أزمة عقلية، فعُنِيَتْ بِهِ زَوجته، حتى عاد إليه اتزانه العقلي، فاستأنف محاضراته بعدها.
ولم يطل به الوقت حتى تعرض لأزمة عقلية أخرى، كان من أسبابها هيامه بسيدة تعرَّف عليها، ثم توفاها الأجل بعد سنتين فقط من تعرفه عليها، فأخذ منها دينا سماه (الإنسانية)، وكان يتوجه لها كل حين بالفكر والصلاة كل يوم.
في يوم آخر.. انتحر رجل آخر عرفت بعد انتحاره أن اسمه (فان جوخ)(1).. وأنه من هولندا.. وكان كسميه الرسام المشهور مستغرقا طول الوقت في لوحاته.. وتنتابه بين الحين والحين نوبات صرع كان يصيح فيها صياحا لا يزيدنا إلا أسى ومرارة..
لم يكن ملحدا.. ولكنه كان يحمل صورة مشوهة عن الإله.. وكان تصوره للحياة لذلك مملوءا بالكدورة.. فقد كان يتصور أن الله يتسلى بتعذيب عباده.. وأنه لم يخلقهم إلا ليعذبهم بأصناف العذاب..
لم يكن راضيا عن هذا التصور الذي كان يصرخ به كل حين.. ولكن المسكين لم يجد من يصحح له هذا التصور..
في ذلك اليوم وجدناه مشنوقا.. وأمامه لوحة من لوحاته كلها سواد.. وقد كتب فيها عبارة فيها من التهجم على الله والاعتراض عليه ما لا يطيق لساني التعبير عنه.
وبجانبها عبارة أخرى لا تقل عنها بذاءة.. ولكنه وجهها لرجال الدين..
قال لي صاحبه: لقد كتب في لوحته هذه ما ظل طول عمره يحلم بأن يقوله لكنه لم يطق.
قلت له: لم؟
قال: لقد شعر ذات يوم بحاجته إلى الله.. فراح يبحث عنه.. لكنه اصطدم برجال صوروا له صورة مشوهة عن الله.. ولم يكن للمسكين القدرة على أن يعارضهم، فكتم ذلك في نفسه إلى أن باح به في هذا الموقف.
قلت: فلم لم يبحث عند غيرهم؟
قال: لقد ذكرت لك عجزه.. لقد قعد به العجز عن البحث..

---

1) أشير به إلى (فان جوخ، فينسنت) (1853 -ـ 1890م).. وهو واحد من أكثر الرسامين شهرة في فن التصوير التشكيلي.. وقد انتحرعام 1890م.

فلذلك استسلم.. وتعذب باستسلامه.. وقد كانت نهايته ما رأيت.

***

بعد هذه الحوادث وغيرها رأيت خوفا كبيرا بدأ يدب إلى قلوب المسافرين معنا.. وقد استحث ذلك بعض المسافرين معنا، وكان – على ما يبدو رجلا حكيما – لكني لم أعرف سره إلى الآن.. لقد استحثه ذلك على أن يجمع من بقي من المسافرين عدانا، ثم ينفرد بهم، ويناجيهم ويناجونه بما لم نتمكن من سماعه..

وبعد تلك المناجاة أتوا إلينا، وقالوا: لقد علمنا أنكم رجال عارفون بالله.. وأنكم ما خرجتم من بلادكم إلا لتعرفوا الخلق بالله.. فهيا عرفونا بربنا لندعوه لينقذنا مما نحن فيه..

قال رجل منهم: نحن من بلاد مختلفة.. منا من يؤمن بالله.. ومنا من لا يؤمن به.. ونحن نختلف فيما بيننا اختلافا شديدا في معارفنا المرتبطة بالله.. ولا يمكن لدعواتنا أن ترتفع للآلهة المزيفة.. فلذلك لا مناص لنا من البحث عن الإله الحقيقي حتى نرفع أكفنا بالضراعة إليه.

قال آخر: نحن كمرضى نحتاج إلى طبيب.. ولذلك نحتاج إلى التعرف على الطبيب قبل أن نطلب منه أن يعالجنا.. حتى لا نسلم أجسادنا للدجالين.

قال آخر: في موقفنا هذا لا تجدينا إلا الحقائق.. فحدثونا بالحقائق لا بالرسوم.. فقد فنيت في موقفنا هذا كل الرسوم.

طأطأنا رؤوسنا جميعا.. ثم ركنا إلى صمت طويل.. قطعه أحدنا بقوله: اسمحوا لي أيها الجمع أن أعترف الآن بين أيديكم في هذه اللحظات ـ التي ربما تكون آخر لحظات حياتي ـ بأني لم أكن مسافرا للتعريف بالله.. وإنما كنت مسافرا للتجارة بالله..

سرت ضوضاء في الجمع الملتف بنا، قطعها بقوله: لا تتعجبوا.. هذه هي الحقيقة التي كنت أتفنن في سترها بأنواع الطلاء.. نعم أنا مكلف بأن أقدم محاضرة تحاول أن تعرف بالله.. ولكنها في الحقيقة محاضرة لم تؤسس إلا على مطامعي وأهوائي، لا على الحقائق التي تفرضها العقول، ويدعو إليها المنطق.

قال آخر: مثلك أنا في هذا.. فلم أخرج من بلدي إلا لأنصر مذهبي وطائفتي سواء كان الحق معها أو لم يكن.. ولا يمكن لمن هذا حاله أن يمسك إلا بالسراب.

قال آخر: ومثلكما أنا في ذلك.. لقد صنعت صنما لإلهي، وعجنته بجميع أهوائي.. وقد حملته معي لأقدم له من الإشهار ما

تخدم به مصالحي، وتنتصر به أهوائي.

ردد أصحابي البـاقون مـا ردد هـؤلاء.. فقـال رجـل من الجمـع: فماذا نفعل إذن.. كيف نبحث عن ربنا.. فلا يمكن لدعواتنا أن تصل إلا إلى الله الحقيقي.. هكذا أخبرنا الحكيم؟

أولا ـ الله

بعد صمت طويل ممتلئ بالألم، قام أحدنا، وكان – على ما يبدو – أكبرنا سنا، وقال: سأحدثكم أنا عن بعض لحظات الصدق التي عشتها عساها تكون مقدمة لبحثنا عن الله.. بل لا يمكن لمعرفتنا بالله إلا أن تؤسس عليها.

في البداية أعرفكم بأن اسمي (آرثر شوبنهاور)(1).. كنت في يوم من الأيام تلميذا من تلاميذ أكبر الملاحدة الذين عرفهم العالم.. فلذلك لم أكن أعرف الله، ولم أكن أؤمن بوجوده.

لقد امتدت بي هذه الحال أعواما طوالا.. كنت حينها أصيح بملء في ساخرا من المتدينين، أقول لهم عابثا أو ماجنا(2): (أنتم تقولون إن الله خلق الدنيا لأنه لا بد لكل مخلوق من خالق.. ولا بد لكل صنعة من صانع.. ولا بد لكل موجود من موجد.. صدقت وآمنت.. ولكن أخبروني من خلق الله.. أم أنه جاء بذاته.. فإذا كان قد جاء بذاته، وصحّ في تصوركم أن يتم هذا الأمر.. فلماذا لا يصح في تصوركم ـ أيضاً ـ أن الدنيا جاءت بذاتها بلا خالق، وينتهي بذلك الإشكال الذي تطرحونه)

كنت أقول هذا وأنا ممتلئ زهوا وفخرا، فتصفر من حولي الوجوه، وتنطلق الألسنة تمطرني باللعنات، وتتسابق إليّ أحيانا

---

1) نشير به إلى (آرثر شوبنهاور) (1788-1860م)، وهو فيلسوف ألماني، ولد في دانزيج (غدانسك ببولندا).. أهم أعماله: العالم رغبة وعَرَض (عام 1819م، الطبعة الثانية عام 1844م). إضافة إلى مجموعة مقالات بعنوان باريرجا وبارالبيومينا عام (1851م) جلبت له شهرة عالمية حتى نهاية حياته.

وقد اخترناه هنا بسبب كون آرائه من الدعائم التي اعتمد عليها الإلحاد في العصر الحديث، فقد كان فكره يدور حول (أن الدين هو من صنيعة البشر ابتكروها لتفسير ما هو مجهول لديهم من ظواهر طبيعية أو نفسية أو اجتماعية، وكان الغرض منه تنظيم حياة مجموعة من الناس حسب ما يراه مؤسس الدين مناسبا وليس حسب الحاجات الحقيقية للناس الذين عن جهل قرروا بالالتزام بمجموعة من القيم البالية وأنه من المستحيل أن تكون كل هذه الديانات من مصدر واحد فالاله الشديد البطش الذي أنزل 12 مصيبة على المصريين القدماء وقتل كل مولود أول ليخرج اليهود من أرض مصر هو ليس نفس الإله الذي ينصحك بأن تعطي خدك الآخر ليتعرض للصفع دون أن تعمل شيئا)

وقد تزامنت هذه الأفكار مع أبحاث تشارلز داروين الذي كان مناقضا تماما لنظرية نشوء الكون في الكتاب المقدس وأعلن فريدريك نيتشه من جانبه موت الخالق الأعظم وقال: إن الدين فكرة عبثية وجريمة ضد الحياة إذ أنه من غير المعقول أن يعطيك الخالق مجموعة من الغرائز والتطلعات وفي نفس الوقت يصدر تعاليم بحرمانك منها في الحياة ليعطيك إياها مرة اخرى بعد الموت.

2) بعض الحكاية المذكورة هنا منقولة بتصرف من كتاب (رحلتي من الشك إلى الإيمان...) لمصطفى محمود، وهو كتاب يؤرخ فيه المؤلف للطريق الذي سلكه للإيمان.

اللكمات.. أما أصحاب القلوب التقية فيكتفون بأن يستغفروا لي ويطلبون لي الهداية.. أما المتمردون، فيجدوني فرصتهم السانحة، فيجتمعون معي ويتزلفون إلي.

لست أدري هل كان ما أتفوه به هو حقيقة ما كان يملأ وجداني، أم أن زهوي بعقلي الذي بدأ يتفتح، وإعجابي بموهبة الكلام ومقارعة الحجج التي انفردت بها كان هو الحافز والمشجع والدافع.. لست أدري.. وإلى الآن لا أزال لا أدري.

لكن الذي أدريه هو أني رفضت التسليم بوجود الله لسبب واحد هو أني استغرقت في عبادة نفسي، وأعجبت بومضة النور التي بدأت تومض في فكري مع انفتاح الوعي وبداية الصحوة من مهد الطفولة.

كانت هذه هي الحالة النفسية وراء المشهد الجدلي الذي كان يتكرر كل يوم..

لقد غاب عني حينها المنطق الذي كنت أدعيه.. فلم أدرك ـ بسبب عبوديتي لنفسي ـ أني أتناقض مع نفسي إذ كيف أعترف بالخالق، ثم أقول: ومن خلق الخالق، فأجعل منه مخلوقاً في الوقت الذي أسميه خالقاً، وهي السفسطة بعينها..

هذه بدايتي.. وقد احتاج الأمر مني بعدها سنين طويلة من الغرق في الكتب، والغرق في التأمل، والحوار مع النفس، وإعادة النظر وتقليب الفكر على كل وجه لأقطع الطريق الشائكة التي أيقنت من خلالها بوجود الله.

لم يكن الأمر سهلاً.. لأني لم أشأ أن آخذ الأمر مأخذاً سهلاً.. فلو أني أصغيت إلى صوت الفطرة، وتركت البداهة تقودني لأعفيت نفسي من عناء الجدل.. ولقادتني الفطرة إلى الله.. ولكنني جئت في زمن تعقد فيه كل شيء، وضعف صوت الفطرة حتى صار همساً، وارتفع صوت العقل حتى صار لجاجة وغروراً واعتداداً..

لقد كنت أردد في تلك الفترة مع سميي (آرثر شوبنهاور) دعواه بأن الدين بما يحمله من العقيدة في الله هو من صنيعة البشر ابتكروه لتفسير ما هو مجهول لديهم من ظواهر طبيعية أو نفسية أو اجتماعية.. وأن الغرض منه لا يعدو تنظيم حياة مجموعة من الناس حسب مايراه مؤسس الدين مناسبا، وليس حسب الحاجات الحقيقية للناس الذين عن جهل قرروا بالالتزام بمجموعة من القيم البالية.

وكنت أردد مع كارل ماركس بأن الدين أفيون الشعوب.. فهو يجعل الشعب كسولا وغير مؤمن بقدراته في تغيير الواقع، وأن الدين تم استغلاله من قبل الطبقة البورجوازية لسحق طبقة البسطاء.

وكنت أردد مع سيغموند فرويد دعواه بأن الإله وهم كانت البشرية بحاجة إليه في بداياتها، وان فكرة وجود الاله هي محاولة من اللاوعي للوصول إلى الكمال في شخص مثل أعلى بديل لشخصية الأب.

كانت الصيحة التي غمرت العالم حينها هي.. العلم.. وليس إلا العلم.. ولا شيء غير العلم.

كان أكثر المثقفين يصيح: (لنرفض الغيبيات، ولنكف عن إطلاق البخور، وترديد الخرافات)

وكان كثير من العامة يردد: (من يعطينا الدبابات والطائرات ويأخذ منا الأديان والعبادات)

قام رجل من الجمع، وقال: لكأنك تتحدث عن الكثير منا.. كلنا ذلك الرجل.. كلنا قد بهرنا العلم.. وكلنا قد بهرتنا منجزات هذه الحضارة حتى انصرفنا انصرافا كليا عن الله..

والشأن ليس في أن تحدثنا عن هذا.. وإنما الشأن أن تحدثنا في كيفية خروجك منه.

قال آرثر: صدقت.. فما يجديكم أن تعرفوا ذلك الماضي المر الذي عشته.. ولذلك سأمر بكم إلى المسلك الذي أخرجني الله به من تلك الدوامة العنيفة التي كنت أتقلب فيها.

في يوم من الأيام.. ولست أدري السبب.. شعرت بنور يقذف في قلبي يدعوني إلى البحث عن الله(1)..

---

1) نشير بهذا النور إلى ما وضعه الله في فطرة الإنسان من المطالبة كل الحين بالبحث عن الله واللجوء إليه، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (لأعراف:172)

وقد ورد في الحديث ما يدل على هذا، فقد سئل النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ (الأنعام: من الآية125) قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟ قال: (نور يُقْذَف فيه، فينشرح له وينفسح)، قالوا: فهل لذلك من أمارة يُعرف بها؟ قال: (الإنابة إلى دار الخُلُود، والتَّجَافِي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت) (تفسير عبد الرزاق (1/210) ورواه الطبري في تفسيره (12/99) من طريق عبد الرزاق به)

وقد أشار الغزالي إلى تأثير هذا النور في إخراجه من حالة الشك التي عرضت له، فقال في (المنقذ من الضلال): (لما خطر لي هذه الخواطر، وانقدحت في النفس حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية. فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الدليل. فأعضل الداء، ودام

وقد ارتبط ذلك بظروف كثيرة جعلتني أراجع نفسي، وأراجع كل الأفكار التي كنت أحملها..

وقد رأيت بعد بحث طويل ومراجعات كثيرة أن وجود الله قضية يقينية لا تختلف في قوتها عن كل القضايا التي نسلم لها.. بل نرمي بالجنون والسفسطة من ينكرها.

لقد رأيت العلم والعقل جميعا يتظافران على الدلالة على وجود الله.. بل على الدلالة على أن وجود الله هو أعظم حقيقة في هذا الوجود.

1 ـ العلم

قال رجل منا: أليس العلم هو الذي صرفك عن الله.. فكيف تزعم أن العلم هو الذي دلك على الله؟

قال آرثر: لقد ذكرت لكم أني في الفترة التي تخليت فيها عن زهوي وكبريائي راجعت كل ما كنت أعرفه من معلومات كانت تحجبني عن الله.. فوجدت من يدلني على العلم الصحيح البديل الذي لا يدل إلا على الله(1).

سأضرب لكم أمثلة على التطورات الكثيرة المتلاحقة التي قضت على كل ذلك الزهو الذي كان يملأ أقطار نفسي بسبب العلم الذي نلته من أساتذتي القدماء:

المادة:

وسأبدأ لكم حديثي بالنظريات المرتبطة بالمادة..

قريباً من شهرين، أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة)

1) استفدنا الكثير من المعلومات حول التطور العلمي هنا من كتاب (العلم فى منظوره الجديد)، وهو كتاب من سلسلة (عالم المعرفة) التى كان يصدرها المجلس الوطنى للثقافة بالكويت، وعنوان الكتاب الأصلي هو (The New Story of Science) من تأليف Robert M. Augros وGeorge N. Stanciu.

وقد قام بترجمة الكتاب الأستاذ (كمال خلايلى) الذى عرف الهدف من الكتاب بقوله في (ص7): (صنف هذا الكتاب اثنان من الأساتذة المعروفين فى أمريكا الشمالية أحدهما متخصص فى فلسفة العلوم والآخر فى الفيزياء النظرية، والهدف الذى يرمى إليه المؤلفان هو هدم أركان المادية العلمية، تلك النظرية الكونية التى استهلها فرانسيس بيكون وجاليلو فى مطلع القرن السابع عشر، واستمرت إلى العقود الأولى من القرن العشرين، ثم إثبات وجود الله تعالى، وبيان الحكمة والغاية من إبداع الكون وخلق الإنسان، وذلك بالاستناد إلى النتائج التى انتهى إليها أقطاب العلماء والباحثين المعاصرين فى مجالات الفيزياء والكوزمولوجيا ومبحث الأعصاب وجراحة الدماغ وعلم النفس الإنسانى.

لقد كان النظام الذي تعلمته في الفيزياء هـو نظـام نيـوتن(1).. وقــد تعلمت من هــذا النظــام ثلاث حقــائق: المــادة، والمكــان، والزمان.

أمـا المـادة، فقـد رأيتهـا ــ حسـب نظـر نيـوتن ــ مكونـة من جسيمات كبيرة وصلبة ومتحركة وغير قابلة للاختراق وذات أحجـام وأشكال مختلفـة.. أمـا خـواص المـادة فقـد عـدد لي نيـوتن منهـا: التمدد، والصلابة، واللااختراقية، والقصور الذاتى..

وكنت أوقن إلى جانب هذا ـ على حسب ما تعلمت من نيوتن ـ أن طبيعة هذه الجسيمات ـ أى الذرات ـ وخواصها ثابتة إلى الأبــد.. وأن الذرة هي أصغر جسيم يمكن تصوره.

أما الزمان والمكـان فكلاهمـا ــ ــ على حسـب مـا تعلمت من نيوتن ـ حقيقتان مطلقتان، وأنهما سيظلان كوجودين حتى لو فنيت كل الأشياء المادية فى الكون..

أما التغيرات الحاصلة للمادة، فقد قصرها لي نيوتن على مجرد عمليات انفصال هـذه الجسـيمات الثابتـة، وعلى عمليـات اتحادهـا وحركاتها الجديدة.

وفسر لي كيفية طروء التغيرات بـأن القــوانين الطبيعيــة تنظم حركة المادة في إطار الزمان والمكان المطلقين.

ووصف لي الهدف المثالي لنظامه قائلاً: (إن استخلاص مبدأين عامين أو ثلاثة مبادئ عامة للحركة من الظـواهر، ثم إظهـار كيفيـة انبثاق خواص ونشاط جميع الأشياء المادية من هذه المبـادئ الــتي يكــون قــد تم اســتجلاؤها، ســيمثلان خطــوة كبــيرة في ميــدان الفلسفة)

لقد كنت شديد الإعجاب بكل هـذه الحقـائق الـتي تعلمتهـا من نيوتن.. ولم أكن فريدا في ذلك.. فقد حقق نظام نيوتن نجاحــاً في العديد من المجالات، ولاسيما في مجالي الفيزياء والكيمياء، وتمت له الغلبة بشرحه ظواهر الحركة والحرارة والضوء والكهرباء.

ولكن هـذا الإعجـاب لم يتوقــف عنــد المعــاني الــتي طرحهــا نيوتن(2).. فقد ولدت في تلـك المعـارف كمـا ولـدت في كثـير من

---

1) هـو السِّـير إسـحق نيـوتُن، (1642-1727م). عـالم رياضـيات ووفلكي إنجلـيزي، اكتشف كيفية تماسك مكونات الكون بعضـها ببعض من خلال نظريتـه عن الجاذبيـة، كمـا اكتشف أسرار الضـوء والألـوان، وابتكـر فرعًـا من الرياضـيات يسـمى حسـاب التفاضـل والتكامل.

2) نحب أن ننبه هنا إلى أن نيوتن لم يكن ملحدا، بل حاول أن يحتفظ بمكان للألوهية في نظامه الميكانيكي الخاص بالسماوات، ففي رسالة وجهها إلى الدكتور ريتشـارد بنتلي في عام 1692 أكد له فيها على أن الله ضروري لإحداث حركـة الكـواكب وإرسـاء البنيـة

العلماء الذين تتلمذت عليهم رغبة في توسيع نطاق هـذا الأسـلوب في الشـرح بحيث يشـمل جميـع حقـول المعرفـة بمـا فيهـا علـوم الأحياء والنفس والتاريخ والإقتصاد.

وقد أسفرت إمكانية الكشف عن أسرار جـزء كبـير من العـالم الطـبيعي، بـافتراض وجـود المـادة وحـدها عن دفـع بعض العلمـاء تدريجيا إلى اعتبـار المـادة جـزءا من الأسـلوب العلمي ذاتـه، على نحو جعل الباحث العلمي، بصرف النظر عن معتقداتـه الشخصـية، يمضي في حججه العلمية على أساس افتراض كون المادة وحـدها هي الحقيقة، أو أنهـا، على الأقـل، كـل مـا يمكن معرفتـه بطريقـة علمية.

وقد كتب لهذا البرنامج البقاء وحقق بالفعل آمالاً كبيرة.. وكـان لدى العلماء في القرن التاسع عشر كل مـا يـدعوهم إلى الإعتقـاد بأن القرن العشرين سيكمل بنـاء هـذا النظـام، بـل كـان كثـير من علمـاء الفيزيـاء يعتقـدون أن دورهم في تقـديم هـذا التفسـير قـد اكتمل أساساً.

قال رجل منا: فهل خيب القرن العشرون ما كان يأملـه علمـاء القرن التاسع عشر؟

قال آرثر: أجل.. فالاكتشافات الجديدة لم تكمل فيزيـاء نيـوتن، بل أطاحت بها:

فقد هدم أينشتاين في عام 1905 ركنين أساسيين من أركـان النظام القديم.. فنظرية النسـبية الخاصـة قـادت علم الفيزيـاء إلى التخلى إلى الأبد عن فكرتي المكـان المطلـق والزمـان المطلـق.. ذلك أن أينشتاين أثبت أن علاقات المكان والزمان وقوانين الحركة لا يمكن تعريفها إلا بوصفها الموقف الشخصي للمراقب ولظروفـه المادية..

أما السمات الأخرى لنظريـة النسـبية الخاصـة، كتكـافؤ المـادة والطاقـة، فهي في الواقـع نتـائج مترتبـة على محوريـة المـراقب.. وبفضل النسبية الخاصة أضحى المراقب ـ فجـأة ــ جـزءا أساسـياً من عالم الفيزيـاء، ولم يعـد في مقـدور البـاحث العلمي أن يعتـبر نفسه متفرجاً حيادياً كما في نظام نيوتن.

ثم حـدثت ثـورة متشـابهة في فيزيـاء الجسـيمات، فقـد أثبت إيرنست رزرفورد عـام 1911 أن الـذرة تتكـون من نـواة متناهيـة

الأصلية للمجموعة الشمسية قائلاً: (إن حركـات الكـواكب الراهنـة لا يمكن أن تكـون قـد انبثقت من أي علة طبيعية فحسب، بل كانت مفروضة بفعل قوة عاقلة)

الصغر يحيط بها حشد من الإلكترونيات.

لقد حاول الفيزيائيون ـ حينها ـ أن يفسروا تركيب الذرة استناداً إلى فيزياء نيوتن، غير أن كل محاولة من محاولاتهم كانت تسفر عن تناقضات تبعث على الإحباط.. وقد أدى هذا الفشل إلى التخلى كلياً عن نظام نيوتن على المستوى الذري، وإلى التعجيل بتطوير (ميكانيكا الكم)(1) في العشرينات من هذا القرن على أيدي علماء من أمثال نيلزبور وفيرنر هابزنبرغ، وبمجيء ميكانيكا الكم تضاعفت أهمية دور المراقب في النظرية الفيزيائية..

لقد قال الفيزيائي ماكس بورن(2) يعبر عن ذلك: (لا يمكن وصف أي ظاهرة طبيعية في مجال الذرات إلا بالرجوع إلى المراقب رجوعاً لا إلى سرعته فحسب كما في حالة النسبية، بل إلى جميع أنشطته لدى قيامه بالمراقبة وبتركيب الآلات وما إلى ذلك)

وهكذا أصبحت أصغر جسيمات المادة غير قابلة للتعريف بمعزل عن خيارات وأفعال المراقب الذى هو ضرورى لا كشاهد فحسب، بل كمشارك أساسي.

وقد وصف فيغنر وجهة نظر النظام القديم فقال: (كان جل العلماء الطبيعيين إلى عهد غير بعيد، ينكرون بشدة وجود العقل أو الروح على أن النجاح الباهر الذي حققه علم الفيزياء الميكانيكية والعيانية بصورة أعم، وكذلك علم الكيمياء، قد حجب الواقع الجلي، ذلك الذي يقول أن الأفكار والرغبات والعواطف ليست من صنع المادة، وكان مقبولاً عند العلماء الطبيعيين على نحو يشبه الإجماع إن لاشيء هناك سوى المادة)

ونتيجة لهذا، فإن نظرية النسبية وميكانيكا الكم تمثلان خروجا مشتركاً بينهما على تفسير نيوتن بإدخالهما العقل في المعادلة.

وهكذا حلت الفيزياء في القرن العشرين تدريجياً محل

---

1) ميكانيكا الكم: هي ميدانٌ من ميادين علم الفيزياء، يصف تركيب الذرّة وحركة الجسيمات الذرية، ويوضح كيف تمتص الذرات الطاقة في شكل ضوء، وكيف تطلقها، ويوضح طبيعة الضوء.. وهي تتجاوز الحدود القصوى للفيزياء التقليدية، التي تقوم على أساس القوانين التي صاغها نيوتن.. وهي تُعد من المُنجَزَات العلمية الكبرى التي تحققت في القرن العشرين.. وبالإضافة إلى أهميتها النظرية، فقد ساهمت في تطوير أجهزة عملية مثل أجهزة الليزر والترانزستور، كما مكنت العلماء من تحقيق فهم أفضل للروابط والتفاعلات الكيميائية.

2) هو مَاكْس بُورن (1882 ـ 1970م) فيزيائي ألماني أدى دوراً كبيراً في تطوير ميكانيكا الكم.. في عام 1954م نال جائزة نوبل للفيزياء مناصفة مع فالتربوتا تقديرًا لأعماله.. ساهم بورن أيضاً في مجالات علم البلورات والبصريات. وحصل على شهادة دكتوراه من جامعة جتجين عام 1907م. وُلد في برسلو، بألمانيا (حالياً روكلاو في بولندا)

المذاهب المادية بتأكيدها أن الفكر يقوم بدور جوهري في الكــون، وأنه لأمر مثير حقاً أن يصدر هذا التأكيد عن علم الفيزياء.. فلو قدر للمادة أن تصادف نجاحاً في أي مكان لتوقع لها المرء أن تنجح في مجال دراسة المادة ذاتها.

العقل:

بعد أن انهار كل ذلك البنيان الذي كنت أبنيه على المادة.. وبعد أن عرفت حاجة المادة إلى العقل رحت أبحث عنه (1)..

لقــد كــانت نظــرتي البدائيــة إلى العقــل في غايــة البســاطة والتفاهة.. وكانت مرتكـزة على ذلـك الأسـاس المـادي الـذي كنت أفسر به الكون جميعا..

لقــد كنت أرى بــأن جميــع الأشــياء الطبيعيــة تنشــأ في نهايــة المطاف عن تفـاعلات بين جسـيمات تتكـون منهـا هـذه الأشـياء.. فالماء سـائل لأن جزيئاتـه تـنزلق بجـانب بعضـها بعضـا بقليـل من الاحتكاك.. والمطاط متمغط لأن جزيئاته بحكم مرونتها تغير شكلها بسهولة.. وهكذا قست الأمر على العقل.

وقـد أكـد لي هـذا النظـر أسـاتذتي الكبـار الـذي تتلمـذت على أيديهم..

منهم عالم الأحياء الشهير توماس هـ. هكسلي(2).. لقد علمــني هذا الأستاذ أن الأفكار التي أعبر عنها بالنطق، إنمـا هي عبـارة عن تغيرات جزيئية.. فخير طريقة للبحث في العقـل هي إظهـار كيفيـة انبثاق العقل من المادة.

لقد كنت أحمل مع هذه التصورات مفـاهيم خاطئـة عن العقـل الإنساني.. فقد كنت أتصور أن العقل البشري لايسـتطيع أن يختـار بحرية، لأن المـادة لا تتصـرف إلا بضـرورة ميكانيكيـة.. ولهـذا فقـد كنت أميـل إلى تفسـير تصـرفات الإنسـان بلغـة الغريـزة، و(علم وظائف الأعضاء)، والكيمياء والفيزياء، لأنه لا مجال لحرية الاختيار.. فالتغيرات المادية هي التي تسبب الأفكار، لا العكس.

ومن المستلزمات التي نتجت عن هذه التصورات.. والتي كنت أوقن بها يقينـا لا شـك فيـه هـو أن لاشـيء في الإنسـان يمكن أن يبقى بعد الموت.. فإذا كان التفكـير والإرادة نشـاطين من أنشـطة الـدماغ، فليس هنـاك سـبب يجعلنـا نفـترض أن هـذين النشـاطين

1() انظر: (العلم فى منظوره الجديد)

2) هو تُومَاس هِنرِي هَكْسِلِي (1825 -ـ 1895م). عـالم حيـوان ومحاضـر ومؤلـف.. وكان من الذين مالوا إلى نظرية تشارلز داروين التحليلية الخاصة بالتطور العضـوي، كمـا أنه توسّع في هذه النظرية ودافع عنها.

يمكن أن يستمرا بعد فناء الـدماغ.. وإذا كـان كـل جـزء من أجـزاء الإنسان مادة فلابد من أن يكون كل جـزء منـه عرضـه للفنـاء.. فلا خلود إلا للمادة.

ومـع كـل هـذا اليقين لم يكن لـدي ولا لأي أحـد من أسـاتذتي الكبار الذين لقنوني هذه التعاليم أي تفسـير لكيفيـة انبثـاق العقـل من المادة..

لقد كان أساتذتي الكبـار من علمـاء الفسـيولوجيا يتوقعـون أن يأتي المستقبل بالجواب.. ولكن الأيام والمراجعات لم تثبت صــدق تبؤاتهم..

لقــد جــاءت البحــوث الجديــدة الكثـيرة بكشــوف رائعــة عن الفسيولوجيا، ولكنها لم تكن بأي حال من النوع المتوقع.

لقد بـدأت المراجعـات بالسـير تشـارلز سـرنغتون الـذي يعتـبر مؤسس فسيولوجيا الأعصاب الحديثة.. ونتيجـة بحوثـه الرائـدة في الجهاز العصبي والدماغ خلص شرنغتون إلى هذه النتيجة التي عـبر عنها بقوله: (هكذا ظهر فـرق جـذري بين الحيـاة والعقـل، فالحيـاة هي مسألة كيمياء وفيزياء، أما العقل فهو يستعصـي على الكيميـاء والفيزياء)

لقــد قصــد شــرنغتون بالحيــاة الإشــارة إلى التغذيــة الذاتيــة، واستقلاب الخلايا والنمو، فهو يذكر أن هـذه الظـواهر تتم بواسـطة قوانين الفيزياء والكيمياء، ويمكن تفسيرها بلغة هذين العلمين، أمـا أنشطة العقل فهي تتجاوز آليات الفيزياء والكيمياء.

وعلى هـذا المنهج سـار السـير جـون اكلس، المتخصـص في مبحث الأعصاب، الذي عبر عن نتيجة أبحاثه بقوله: (التجارب الـتي تنم عن الوعي تختلف في نوعها كل الاختلاف عما يحدث في آليــة الأعصاب، ومع ذلك فإن مايحدث في آلية الأعصاب شرط ضروري للتجربة، وإن كان هذا شرطاً غير كاف)

سأورد لكم مثالا يقرب ما يريد أن يقوله اكلس وشرنغتون..

أجيبوني.. ماذا يحدث، مثلا، عندما يرى أحدنا شجرة؟

قال رجل منا: تدخل أشـعة الشـمس المنعكسـة من الشـجرة في بؤبؤ العين، وتمر من خلال العدسة الـتي تركـز صـورة مقلوبـة ومصغرة للشجرة على شبكة العين، فتحدث فيها تغيرات فيزيائيــة وكيميائية.

قال آرثر: فهل ترون هذا هو الإبصار؟

قال الرجل: هذا ما نعرفه عن الإبصار.

قال آرثر: لا.. ليس هذا هو الإبصار.. فلو سلطنا هذه الصورة على عين فاقد الوعي، فإنها ستحدث نفس التغيرات الفيزيائية والكيمائية، ومع ذلك لايبصر شيئا.. وبالمثل، تركز آلة التصوير على صورة ما، فيتعرض الفيلم الموجود في الآلة لتغيرات فيزيائية وكيميائية، ولكن آلة التصوير لاتبصر بالمعنى الحرفي في الألوان والأشكال التي تسجلها.

قال الرجل: فكيف تفسر الإبصار؟

قال آرثر: إذا أردنا أن نفسر الإبصار فنحن بحاجة إلى أكثر من ذلك.. فالشبكية - وهي صفحة من المستقبلات شديدة التراص - تبدأ حين ينشطها الضوء المنبعث من الشجرة بإرسال نبضات الى العصب البصري الذي ينقلها بدوره إلى قشرة الدماغ البصرية..

قاطعه الرجل، وقال: إن ما تذكره أيضا يفسر بلغة الفيزياء والكيمياء..

قال آرثر: أجل.. ولكن أين مكان اللون الأخضر من كل هذا؟ فالدماغ نفسه رمادي اللون أبيضه.. فكيف يستطيع أن يتلقى لونا جديداً دون أن يفقد لونه السابق؟.. وكيف يستطيع الدماغ أن يبصر الضوء إذا كان مغلقاً ومعزولاً تماما عن أي ضوء؟

إن الأمر يكون معقولا لو أننا حين نوجه أبصرنا نحو الشجرة، لم نحس إلا بأزيز الكهرباء في أدمغتنا.. ولكن النشاط الكهربائي والكيميائي لأدمغتنا الذي يمكننا من الإبصار بطريقة ما لا نراه، وبدلا من ذلك نرى الألوان والأشكال والحركات والضوء، وكلها بأبعادها الثلاثة.. بل من العسير أن نتخيل كيف يمكن لأي من هذه الأشياء أن تنشأ عن المواد الكيميائية والكهرباء.

لقد عرفت من خلال هذا وغيره أن عالم الإحساس لا يتوقف على عالم الفيزياء والكيمياء.. بل يتوقف على عوالم أخر أكبر من أن نحيط بها..

سأقربها لكم بمثال.. أنتم تعلمون أن وجود كتاب ما يتوقف على عناصر الورق والصمغ والحبر التي يتكون منها، ومن دونها لا يمكن أن يوجد الكتاب.. ومع ذلك، فالكتاب لا يُفهم فهماً كافياً بمجرد إجراء تحليل كيميائي للحبر ولألياف الورق.. حتى لو عرفنا طبيعة كل جزء من جزيئات الورق والحبر معرفة كاملة، فإن ذلك لايكشف لنا شيئا عن محتوى الكتاب.. فمحتوى الكتاب يشكل نظاماً أسمى يتجاوز عالم الفيزياء والكيمياء.

على هذا النهج يؤكد العلم في آخر تطوراته أن أحاسيسنا لا

تتوقــف على أعضــاء الجســم، فلا يمكن حصــر الأحاســيس في الخواص الفيزيائية والكيميائية للمادة.

بعد أن اقتنعت بكل هـذا.. وبعـد أن علمت أن الإدراك الحسـى ليس هـو المـادة، ولا هـو من خـواص المـادة، وليس فى مقـدور المادة أن تفسره، رحت أبحث عن حقيقة العقل..

لقـد بـدأت ذلـك بـالبحث عن سـائر الطاقـات الحسـية الـتي يستخدمها العقل..

أنتم تعلمون أن الإدراك الذي يعـني (المعرفـة أو الـوعى) يبـدأ بـالإدراك الحسـى.. فـالحواس الخارجيـة هى الأسـاس الأول لكـل المعارف الإنسانية ومصدرها.. ومن دون المعلومات الآتية من هذه الحواس لا يكـون لـدى الـذاكرة أى شـىء تتـذكره، ولا للخيـال أى شيء يتصوره، ولا للعقل أى شىء يفهمه.

وإلى جـانب الحـواس الخارجيـة نجـد تحت تصـرفنا مجموعـة كبيرة من ملكات الإحساس الـداخلى.. يـدل على ذلـك أننـا نملـك القدرة على المقارنـة بين الإحسـاس بالبيـاض وبحلاوة الطعم مـع عظم الفـارق بينهمـا.. فـالعين تـدرك البيـاض، ولا تـدرك الحلاوة، واللسـان يـدرك الحلاوة، ولا يـدرك البيـاض، فلا اللسـان ولا العين يسـتطيعان التميـيز بين البيـاض والحلاوة، لأن أيـا منهمـا لا يـدرك الاثنين معا، وما من حاسة خارجية تستطيع أن تؤدى هذه المهمـة.. فلذلك لا بد من أن تكون فينا حاسة داخلية تستطيع أن تدرك جميع الصفات التى تدركها الحواس الخارجية، وأن تميز بينها.

ونحن كـذلك نملـك القـدرة على أن نسـتدعى أمـورا لم تعـد حاضرة، فعملية التذكر شىء حاضـر بالفعـل، ولكن الشـىء الـذى نتذكره ليس كذلك، إذ أن إدراكنا الحسى الأصلى قد زال على نحو ما، ولكنـه مـع ذلـك تحت تصـرفنا، فالـذاكرة لا تستحضـر التجربـة الماضية فحسب، بل تستحضرها بوصـفها حـدثا ماضـيا، وتسـتطيع ترتيبها من حيث صلتها بتجارب أخرى ماضية.. بل إن المدهش هـو قدرتنا على أن نجعل أنفسنا نتذكر الشىء المنسى.

بالإضـافة إلى كـل هـذا.. فالخيـال ملكـة حسـية داخليـة أخـرى نستطيع بواسطتها أن نتصور لا الأشياء المدركة بالحواس فحسب، بل الأشياء الـتى لا تـدركها هـذه الحـواس كجبـل من ذهب أو فيـل بحجم الـبرغوث، فالخيـال، بخلاف الـذاكرة، يسـتخدم المعلومـات الواردة من الحواس الخارجية بحرية وبطريقة إبداعية.

بالإضــافة إلى كــل هــذا، فلــدينا على قــدرات عجيبــة على

الإحساس بالعواطف، كـالحب والغضـب والفـرح والخـوف والأمـل والرغبة والحزن، تربطنـا بالعـالم بطريقـة أخـرى مختلفـة كـذلك.. فكل عاطفة تنشأ من فعل ملكة حسية، سواء كانت حاسة خارجية كالخيال، أو الذاكرة.

بعد أن وصلت إلى كل هذا عرفت أني لم أصل بعـد إلى عقـل الإنسان.. فأكثر الحيوانات تمارس معظم القدرات المذكورة حـتى الآن..

لقد قلت لنفسـي: (إذا كـان الإنسـان أكـثر من مجـرد حيـوان، فمن المحتـوم أن تكـون هنـاك قـدرة خاصـة تمـيزه من سـائر الحيوانات الأخرى)

لقد دلني على هذا نظري في مراتب الأحياء:

لقد عرفت أن النباتات تحرك نفسـها، ولكنهـا لا تـدرى إلى أين تمضـى.. وأن الحيوانـات تـدرك إلى أين تمضـى، ولكنهـا لا تعـرف السبب..

وقد دلني هذا على أنه ـ لإكمال مراتب الأحياء ـ لا بد من وجـود مخلوقات لا تعرف فقط إلى أين تمضى، ولكن لماذا تمضى أيضا..

وقد عرفت من خلال تأمـل بسـيط أننـا نحن البشـر هم الـذين نشكل هذه المخلوقات، والملكة التى تمكننا من فهم علل الأشـياء تسمى العقل أو الفكر، وهى تسـمى كـذلك سـلطان العقـل، لأننـا بواسطتها نتعرف على علل الأشياء، وما من قـوة حسـية تسـتطيع أن تؤدى هذه الوظيفة.. فاللسان، مثلا، يدلنا على أن البحـر مـالح، ولكنه لا يفسر لنا علة ملوحته.

والعقـل كـذلك يمكننـا من إدراك ماهيـة الأشـياء.. وهـو أمـر لا تستطيع الحواس القيام به، ولا ملكة الخيال ذاتها، فـإذا حاولنـا مثلا أن نتخيل ما هو الحيوان، فالصورة التى ترتسم فى أخيلتنا الحسية تختص بحيوان بعينه لـه صـفات محـددة من حيث الحجم والشـكل واللون، ومن المستحيل تكوين صورة حسية لما يشترك فيه جميـع الحيوانات، ومع ذلك فليس من المستحيل على العقل أن يفهم مـا هو الحيوان.

بالإضافة إلى هذا الرقي الذي يتميز بـه الإنسـان عن الحيـوان.. فإن هناك شيئا آخر لا يقل عن هذا أهميـة.. إنـه الإرادة.. فـالحيوان يتبع حكم الإحسـاس والعاطفـة، ولكن الإنسـان يتمتـع بقـدرة على الاختيار وفقا لما يفهمه عقلـه.. فالأعمـال الجريئـة الـتي يقـوم بهـا الإنسان تبرهن على أن الإرادة تفـرض نفسـها حـتى على الخـوف

من الموت، فالعواطف تثيرها الحواس، ولكن الإرادة تختار وفقا لما يراه العقل.. بل إننا كثيرا ما نقول إن فلانا من الناس قد تغلب على عاطفته، لأنه كان عنده سبب وجيه للقيام بذلك.

بعد كل هذا.. وبعد أن ألغيت من عقلي كل تلك المفاهيم التي كانت تقيده، وتحمل صورة مشوهة عنه.. يسر الله لي أن أؤكد كل هذا بدليل حسي من خلال عمليات جراحية أجراها صديقي ويلدر بنفيلد(1) على أدمغة ما يربو على ألف مريض فى حالة الوعى.

لقد كانت ملاحظات بنفيلد حول وظيفة الدماغ تفوق فى حجيتها وكمالها جميع الأدلة السابقة غير المباشرة المستفادة من بحوث أجريت على حيوانات، ومن عمليات جراحية أجريت على أدمغة أشخاص مبنجين.

لقد اكتشف بنفيلد عام 1993 بمحض الصدفة أن تنبيه مناطق معينه فى الدماغ بالكهرباء تنبيها خفيفا يحدث استرجاعا فجائيا للذاكرة عند المريض الواعى.

لقد ساورت بنفيلد الشكوك أول الأمر، ثم أخذته الدهشة، فعندما لامس القطب الكهربائى قشرة مخ شاب تذكر هذا الشاب أنه كان جالسا يشاهد لعبة (بيسبول) فى مدينة صغيرة، ويراقب ولدا صغير يزحف تحت السياج، ليلحق بجمهور المتفرجين، وهناك مريضة أخرى سمعت آلات موسيقية تعزف لحنا من الألحان.. لقد حدثني بنفيلد عن هذا الخبر، فقال:(أعدت تنبيه الموضع نفسه ثلاثين مرة محاولا تضليلها، وأمليت كل استجابة على كاتبه الاختزال، وكلما أعدت تنبيه الموضع كانت المريضة تسمع اللحن من جديد، وكان اللحن يبدأ فى المكان نفسه، ويستمر من اللازمة إلى مقطع الأغنية، وعندما دندنت، مصاحبة الموسيقا، كان إيقاعها يسير بالسرعة المتوقعة له)

لقد كان المرضى يحسون دائما بالدهشة لتذكر الماضى بمثل هذه التفاصيل الحية، ويفترضون على الفور أن الجراح هو المسؤول عن تنبيه الذاكرة التى ما كانت تتاح لولاه، وكان كل مريض يدرك أن التفاصيل هى من واقع تجاربه الماضية، وكان من الواضح أن الأشياء التى كان قد أولاها عنايته هى وحدها التى أودعها فى محفوظات دماغه.

وكان بنفيلد من وقت لآخر يحذر المريض أنه سينبه دماغه، ولكنه لا يفعل ذلك، وفى مثل هذه الحالات لم يكن المريض يذكر

1) هو بنفيلد، وايلدر جريفز (1891-1976م). اختصاصي أعصاب كندي.

أى ردود فعل إطلاقا.

ونتيجة مراقبة مئات المرضى بهـذه الطريقـة انتهى بنفيلـد إلى أن عقل المريض الذى يراقب الموقف بمثل هذه العزلة والطريقة النقدية لا بد من أن يكون شيئا آخر يختلف كليا عن فعل الأعصـاب اللاإرادي، ومـع أن مضـمون الـوعى يتوقـف إلى حـد كبـير على النشاط، فالإدراك نفسه لا يتوقف على ذلك.

وباستخدام هذه الأساليب المراقبـة اسـتطاع بنفيلـد أن يرسـم خريطة كاملة تبين مناطق الدماغ المسـؤولة عن النطـق والحركـة وجميع الحواس الداخلية والخارجية غير أنه لم يكن فى المسـتطاع تحديد موقع العقل أو الإرادة فى أى جزء من الدماغ، فالـدماغ هـو مقر الإحساس والذاكرة والعواطف والقـدرة على الحركـة، ولكنـه ليس مقر العقل أو الإرادة.

لقد أعلن بنفيلد عن نتائج أبحاثه قائلا: (ليس فى قشرة الـدماغ أى مكان يستطيع التنبيه الكهربائى فيه أن يجعل المريض يعتقـد أو يقــرر شــيئا، والقطب الكهربــائي يســتطيع أن يثــير الأحاســيس والـذكريات غـير أنـه لا يقـدر أن يجعـل المـريض يصـطنع القيـاس المنطقى، أو يحل مسائل فى الجبر، بل إنـه لا يسـتطيع أن يحـدث فى الـذهن أبسـط عناصـر الفكـر المنطقى، والقطب الكهربـائي يستطيع أن يجعـل جسـم المـريض يتحـرك، ولكنـه لا يسـتطيع أن يجعله يريد تحريكه، إنه لا يستطيع أن يكـره الإرادة، فواضـح أذا أن العقل البشرى والإرادة البشرية ليس لها أعضاء جسدية)

قال رجل منا: لقد قدم بنفيلد بهذه الكشوف البرهـان الحسـي على شيء كان من المستحيل أن يبرهن عليه بالحس.

قال آرثر: عندما يتخلى العلم عن كبريائه لابد أن يصل إلى هذه النتائج.. لقد كان بنفيلد كمـا ذكـرت لكم صـديقا لي.. وكـان يـؤمن بكل مـا كنت أؤمن بـه من النظريـة الماديـة.. وعنـدما انطلـق في أبحاثـه لم يكن لـه من غـرض إلا إثباتهـا.. لكن الحقيقـة الـتي أراد محوهـا أبت إلا أن تظهـر على يـده.. لقـد قـال معـبرا عن ذلـك: (طوال حياتى العلمية سعيت جاهدا كغيرى من العلمـاء إلى إثبـات أن الدماغ يفسر العقل)

الإنسان:

بعد أن عاد إلي عقلي الحقيقي.. عقلي الذي حجبني عنه العلم المغرور.. رحت أراجع تلك الأفكـار الكثـيرة الـتي كنت أحملهـا عن الإنسان.. والتي كانت تملؤه بالتشويه..

لقد كنت ـ قبل أن اكتشف عقلي ــ أعتقـد أن المـادة أساسـية والعقل ثانوي.. ولذلك، فقد كنت أنظر نظرة زراية للعقل البشـري في مقابل إعلاء لشأن الكون المادي اللامحدود واللاشخصي.. لقـد كنت أقول كـل حين: (من هـو الإنسـان.. إنـه ليس شـيئا إذا قيس بالأرض أو الشمس أو المجـرة.. إنـه تافـه من حيث الحجم.. وغـير ذي شأن من حيث القوة)

وكنت أقـول كـل حين: إن كوبرنيكـوس(1) قـد خلـع الإنسـان المغـرور عن عرشـه في مركـز الكـون، وأن عليـه أن يـدرك أنـه مخلوق بالغ الصغر يسكن كوكباً تافهاً يدور حول نجم لا شأن له.

لكـني بعـد أن راجعت مـا تعلمتـه من علم متخلصـا من رداء الكبرياء الذي كنت أتوشح به رأيت الإنسان أعظم بكثـيرة من تلـك الصورة المزرية الحقـيرة الـتي كنت أحملهـا عنـه، ويشـاركني في حملها أولئك الذين انبهروا بالعلم ولم يتثبتوا فيه.

لقد تحدث ويلر عن جملة الأكـوان، ولكنـه يشـير إلى أن عـدداً صغيراً جداً منهـا كـان يمكن أن يصـلح للحيـاة، وبعـد أن اسـتعرض دايسـن هـذا النمـط العـريض ينتهي إلى أن ذلـك يـدل على غايـة مسـتهدفة، لا على الصـدفة، قـائلاً: (كلمـا ازددت دراسـة للكـون وفحصاً لتفاصيل هندسية وجـدت مزيـداً من الأدلـة على أن الكـون كان يعرف بطريقة مـا أننـا قـادمون). فبعض الظـروف الضـرورية للحياة كان قد ركب تركيباً في الانفجار العظيم منذ بداية البداية.

ويؤكد ويلر أنه (لم يظهر سبب واحد يفسر لمـاذا يكـون لبعض الثوابت والظروف الأولية ما لها من القيم سوى أنه لـولا ذلـك لمـا تيسرت المراقبة كلما نعرفها)

وهو تبعاً لذلك، يتساءل قـائلا: (أليس من الأرجح أن نقـول إنـه ما من كون يمكن أن يبرز إلى حيز الوجود ما لم يكن مضـموناً لـه أن ينتج لحياة والوعي والشـهود في مكـان مـا ولمـدة قصـيرة من الزمن في تاريخه المقبل؟)

ويؤكد ويلر أن (ميكانيكا الكم قادتنا إلى أن نأخذ بجدية ونفحص وجهة النظر المعاكسة تماماً، وهي أن المراقب لازم لخلـق الكـون لزوم الكون نفسه لخلق المراقب)

---

1) كوبرنيكوس، نيكولاس (1473 -ـ 1543م) عالم فلك بولندي، طور نظريـة دوران الأرض، ويعتـبر مؤسـس علم الفلـك الحـديث.. ونحب أن ننبـه هنـا إلى أن ديفيـد كينج اكتشـف عـام 1970م أن كثـيرًا من النظريـات المنسـوبة لـنيكولاس كوبرنيكـوس هي للفلكي العربي ابن الشاطر (ت 777هـ، 1375م)، وبعـد ذلـك بثلاث سـنوات (1973م) عثر على مخطوطات عربية في بولندا اتضح منها أن كوبرنيكوس قد اطلع عليها. (انظـر: الموسوعة العربية العالمية).

ومـع أن الإنسـان ليس ماديـاً فى مركـز الكـون فهـو علي مـا يظهر في مركز الغاية من خلقه(2)، وكما يقول إيرون شـرود نفـر، فالكون من دون الإنسان يكـون أشـبه بمسـرحية تمثـل في قاعـة تخلو مقاعدها من جمهور المشاهدين.

والكون الذي يسـتهدف ظهـور الإنسـان يسـتلزم بداهـة وجـود عقل يوجهه، لأن المادة لا تستطيع من تلقاء نفسـها أن تهـدف إلى أي شيء..

ولهـذا، فـإن النظـرة العلميـة الدقيقـة تقـود مـرة أخـرى إلى الاعتقاد بوجود عقل يوجه الكون بأكمله وجميـع نـواميس الطبيعـة وجميع خواص المادة إلى غاية..

وهذا يناقض تمامـا مـا كنـا ندعيـه في ميكانيكـا نيـوتن وجميـع الأجزاء الأخرى من الفيزياء الكلاسيكية الـتي صـيغت على نسـقها، والتي انطلقت من الافتراض القائل بأن المـرء يسـتطيع أن يصـف العالم من غير التحدث عن الله أو عن أنفسـنا، أي عن عـالم ليس وراءه عقل يدبره.. ولكن النظرة العلمية الدقيقـة بينت أن العكس هو الصحيح في كلتا الحالتين.. فالانفجار العظيم والمبـدأ الإنسـاني كلاهما يشير إلى وجود عقلين في كلا طرفي الكون.

الكون:

بعد أن عرفت الإنسان وقيمته.. رحت أبحث عن تصـوراتي عن الكون.. فلا شك أن الأخطاء المنهجية التي كنت أحملها أثناء بحـثي فيه قد تسربت إلى نظرتي إليه..

لقد وجدت تصوري البدائي للكـون هـو أنـه مجـرد كـائن مـادي عملاق لا غاية له..

وقد دعاني إلى هذه النظرة مـا كـان يسـيطر علي من منطـق الماديـة الـتي تنكـر الغائيـة.. ولـذلك فـإن الكـون في نظرهـا ليس سوى مـادة، وبالتـالي لا يمكن أن يكـون في الأشـياء الطبيعيـة أي هدف، لأن المادة لا تستطيع أن تقصد هدفاً أو ترسم خطة، بل هي تتصرف بضرورة ميكانيكية داخلية فحسب.

ولهذا، فإن التفسيرات العلمية تفرض على البـاحث أن يقتصـر

---

2) مما يشير إلى هذا ما ورد في الأثر الإلهي: (لـولاك لمـا خلقت الأفلاك)، وهـو وإن جزم العلماء بوضعه إلا أن الشيخ القاري قال فيه: (لكن معناه صحيح فقد روى الديلمي عن ابن عباس مرفوعاً: أتاني جبريل فقال: يا محمد لولاك مـا خلقت الـدنيا ، ولـولاك مـا خلقت النار)، وفي رواية ابن عساكر: (لولاك ما خلقت الدنيا)

ووجه الإشارة في هذا أن رسول الله ﷺ هـو المثـل الأعلى للإنسـان.. وبالتـالي تكـون غاية الكون هي الإنسان.. وغاية الإنسان هو المثـل الأعلى فيـه.. والمثـل الأعلى فيـه هـو رسول الله ﷺ كما قال ﷺ: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر)

على الأسباب المادية والميكانيكية فحسب.. فبيكون وديكارت كلاهما يستبعد من العلوم الطبيعية أي دعوة إلى الغائية(1).. يقول بيكون: (إن مطلب الغائية يفسد العلوم بدلا من أن يرقى بها).. ويقول ديكارت: (كل ضروب الغائية لا قيمة لها في الأشياء المادية أو الطبيعية)

وانطلاقا من هذه النظرة.. فإنه لا مكان لله في مثل هذا الكون..

لقد سأل نابليون الرياضي والفلكي الشهير بيير سيموت لابلاس(2) عن مكان الله في نظامه الميكانيكي الخاص بالأجرام السماوية، فأجابه بقوله: (يا سيدي لست بحاجة إلى هذا الافتراض)

لقد كان العلماء في ذلك الحين يحتجون لهذا بأن الكون آلة تدير نفسها بنفسها، وبالتالي لا تحتاج إلى أي سبب فوق الطبيعة.. وإذا كانت المادة أزلية فلا يبدو أن هناك حاجة إلى خالق.. وهكذا اعتبر الكثيرون أن الإلحاد أدنى إلى الصدق وأكثر اتساقاً مع العلم.

وفرويد كان أحد ممثلي هذا الموقف من الدين(3)، فهو يعلن أن (أديان البشر يجب أن تصنف باعتبارها وهماً من أوهام الجماهير، فالإنسان في الأديان إنما يبحث عن مهرب من الواقع)

ويتابع فرويد حديثه قائلاً: (إن الأفكار الدينية نشأت من ضرورة حماية الإنسان لنفسه من قوة الطبيعة المتفوقة والساحقة)

والناس في رأي فرويد يميلون إلى الاعتقاد بوجود أب وراء هذا الكون لأنهم، بوصفهم أطفالاً، بحاجة ماسة إلى رعاية أب، وهكذا فإن الإنسان هو الذي يخلق الله، لا العكس.

وانطلاقا من هذا تنبأ فرويد بأن هذه الطفولية مقدور لها أن تتجاوز بالتأكيد، ويتحتم على الإنسان أن يتحلى بالشجاعة للاعتراف بأنه وحيد في هذا الكون الفسيح واللاشخصي.

لم يدل على هذه النظرة ما ذكرته لكم من تصريحات فقط.. بل كانت نظرة سائدة لها ما ينشرها ويؤكدها في أذهان الجماهير.. ففي سنة 1875 كتب جون و. دريبر ــ وهو أول رئيس للجمعية الأمريكية لعلوم الكيمياء ـ كتابه الذي يحمل عنوان (تاريخ الصراع

---

1) هذا الرفض ـ كما هو معلوم ـ يستند إلى أسباب منهجية، لأن بيكون وديكارت لم يكونا من المؤمنين بالمذهب المادي أو من الملاحدة.

2) بيير سيمون لابلاس (1749 -ـ 1827م). فلكي ورياضي فرنسي اشتهر بنظريته حول أصل النظام الشمسي.

3) وهذا لا ينفي تشبثه بيهوديته كما ذكرنا ذلك في مواضع مختلفة من هذه السلسلة.. فاليهودية تتقبل مثل هذا النوع من الأفكار.

بين الدين والعلم).. وبعد ذلك بعشرين عاماً، أي في 1895، ألف أندرو د. وايت ــ وهو أول رئيس لجامعة كورنيل ــ كتابه (تاريخ المعركة بين العلم واللاهوت في المسيحية).. ويكفي عنوانا الكتابين دليلاً على الاتجاه السائد آنذاك.

في ذلك الحين كان أكثر الناس اعتدالا من ينتسبون إلى اللاأدرية (أو الغنوصية).. بل إن لفظة (لا أدرية) كانت من ابتكار عالم الأحياء توماس هكسلي في عام 1869.

كانت هذه هي نظرتي عندما كنت مزهوا بالعلم فانيا فيه..

لكني بعد أن ارتد إلي وعيي وصحوت من سكرتي رأيت أن الأمر مختلف تماما.. وأن الكون لا يحمل تلك الصورة المشوهة التي حملها العلماء الذين سكروا بما اكتشفوه من اكتشافات عن حقيقة العلم.

لقد قال عالم الفيزياء الفلكية دنيس شياماً يعبر عن النظرة الجديدة: (لعل أهم اكتشاف علمي من اكتشافات القرن العشرين هو أن الكون بأكمله، بوصفه كلية واحدة، قابل للبحث العقلاني باستخدام أساليب علمي الفيزياء الفلك)

لقد تيسرت هذا بمجيء نظرية النسبية العامة لأينشتاين، فهي ـ خلافاً لنظرية نيوتن في الفيزياء ـ قد جمعت بين الجاذبية والمكان والزمان.. يقول ويلر: (لقد علمنا أينشتاين أن المكان عنصر مشارك في الفيزياء، لا ميدان للفيزياء فحسب).. والأمر نفسه ينطبق على الزمان.

وعملية التوحيد هذه زودت الفيزيائيين للمرة الأولى بأدوات البحث المفصل في بنية الكون بأكمله وفي أصله ومآله.. فبعد نشر النسبية العامة رأينا الفلكي ويلم دي سيتر، والرياضي ألكساندر فريدمان يستنتجان كل على حدة، أن الكون آخذ في التمدد.

ثم جاءت إشارة ثانية من مجال الفيزياء النووية.. فقد كان كيميائيو القرن التاسع عشر يعرفون أن الشمس لا يمكن أن تحرق وقوداً تقليدياً.. فالاحتراق الكيميائي العادي لم يكن يصلح تفسيراً لطاقة الشمس، إذ لو كانت كتلة الشمس كلها فحماً لأحرقت نفسها في غضون ثلاثمائة عام..

وظلت الشمس لغزاً إلى حين اكتشاف الطاقة النووية في السنوات الأولى من القرن العشرين عندما تمكن الفيزيائيان هانز بيته، وكارل فون فايتزساكر في عام 1938 من تقديم تفسير

كامـل لكيفيـة إنتـاج الشـمس للطاقـة من خلال تحـول العناصـر النووية.

وأخيراً، تقدم الفيزيائي جورج غاموف في عام 1948، بعـد أن جمع الأدلة المستمدة من تباعد المجرات ومن دورة حياة النجـوم، برأي مفاده أن الكون نفسه نشأ من تمدد بدئي للمادة أطلق عليه اسم (الانفجار العظيم)

لقد زودنا العلم من خلال هذه الكشوف الكثيرة أن عالمنا تولد في أعقاب تمدد هائل في المادة، وفي جزء من السكستليون (أي 6 على مليون) من الثانية.. بعد البداية كانت كل المـادة الموجـودة في الكون معبأة في مساحة أصغر كثـيراً من الحـيز الـذي يشـغله بروتون واحـد.. وكـانت الكثافـة في تلـك المرحلـة تهـول الخيـال.. تصـوروا أن الكـواكب والنجـوم والمجـرات بكاملهـا، وكـل المـادة والطاقة في الكون كانت جميعهـا محتـواة في حـيز لا يكـاد حجمـه يعادل شيئاً.. وفي لحظة الصفر من بداية الزمن كانت الكثافة غـير متناهيـة دون حـدوث أي تمـدد في المكـان على الإطلاق.. وكـانت تلك اللحظة لحظة بداية المكان والزمان والمادة..

لا ينبغي أن تتصــوروا أن الانفجــار العظيم أحــدث تمــدداً في المادة في مكان قائم بالفعل.. فالانفجـار العظيم هـو نفسـه تمـدد المكان.. وهذا يمكن أن يفهمـه العقـل، ولكن لا يمكن أن يتصـوره الخيال.

عندما ظهرت هذه النظريات هب الكثير ممن لا زالـوا سـكارى العلم المتكبر.. ليتداركوا ما لقنـه لهم أسـاتذتهم.. فراحـوا يضـعون نظريات بديلة في أصل الكون لاستنقاذ أزلية المادة..

لكن كل تلك النظريات باءت بالفشل.. وثبت علميـا أن المـادة ليسـت أزليـة بـالرغم من كـل شـيء.. هكـذا أعلن عـالم الفيزيـاء الفلكية جوزف سلك حين قال: (إن بداية الزمن أمر لا مناص منه)

وهكــذا أعلن الفلكي روبــرت جاســترو حين قــال: (سلســلة الحـوادث الـتي أدت إلى ظهـور الإنسـان بـدأت فجـأة وبعنـف في لحظة محددة من الزمن، وفي ومضة ضوء وطاقة)

لقد جعلني هذا أبحث عن إله يحكم هذا الكون.. فقد كانت كـل الدلائل تدل عليه.. وصار كـل العلمـاء الـذين لقحـوا أنفسـهم ضـد فيروس الكبر يعترفون به..

يقول الفيزيائي ادمونـد ويـتيكر: (ليس هنـاك مـا يـدعو إلى أن نفترض أن المادة والطاقة كانتا موجـودتين قبـل الانفجـار العظيم،

وأنه حدث بينهما تفاعل فجائي، فما الـذي يمـيز تلـك اللحظـة عن غيرهـا من اللحظـات في الأزليـة؟ والأبسـط أن نفـترض خلقـاً من العدم، أي إبداع الإرادة الإلهية للكون من العدم)

وينتهي الفيزيائي إدوارد ميلن بعد تفكـره في الكـون المتمـدد، إلى هذه النتيجة: (أما العلة الأولى للكـون في سـباق التمـدد فـأمر إضافتها متروك للقارئ، ولكن الصورة التي لدينا لا تكتمل من غـير الله)

2 ـ العقل

بعد أن عجزت معارفي العلمية أن تقاوم الأدلـة الكثـير الـتي لا تدل إلا على الله.. وبعـد أن شـعرت بحلاوة وجـود اللـه.. وشـعرت بأن البحث عنه لا يقل عن البحث عن أي حقيقة من حقائق الوجود التي نتفانى في البحث عنها مع أنه قد لا توجد بيننا وبينها أي صلة.. تحركت في عزيمة شديدة إلى خوض غمار البحث عن الله..

لكني بعد أن علمت هذا.. وشعرت بهـذا.. وعـزمت على هـذا.. جاءت جحافل الشياطين تريد أن تعترضني بالوساوس والشبهات..

في ذلك الحين شعرت بآلام كثيرة.. ولم تطل تلك الآلام إذ أني ومن غير أن أقصد سمعت رجلا يقول، وأنا في السـوق: (في بلـدة من البلاد.. يقـال لهـا (الله أباد)(1) يـذوب الإلحـاد، وتنتفي وسـاوس العباد)

أسرعت إلى الرجل أسأله عن هذه البلدة العجيبة الـتي يـذوب فيها الإلحاد، فابتسم الرجـل، وذكـر لي أنـه لم يقـل شـيئا، وأن مـا سمعته منه قد لا يكون سوى بعض تلك الأحاديث التي نسمعها من غير أن نعرف مصدرها.

لكني صممت أن أبحث عن مدينة تحمل ذلك الاسم.. فسـألت عنها.. إلى أن وجدت من يدلني عليها..

عندما دخلت إليهـا تعجبت من نظامهـا البـديع وجمالهـا البـاهر، فقلت لنفسي: أيمكن لمن يعيش في مثل هـذه البلـدة المتطـورة أن ينشغل بالله؟

فأمسك بيميني رجل منهم، وقال: لاشك أنك تبحث عن الله..

---

1) الله أباد، اسم فارسي يعني (مدينة اللـه)، وأقصـد بهـا مدينـة رمزيـة، وهي في الواقع إحدى مدن ولاية أوتار براديش الـتي تقـع في شـمال الهنـد، وهي المركـز الإداري لمقاطعة الله أباد.

قلت: وما أدراك؟
قال: لا يقصدنا هذه الأيام أحد إلا لأجل هذا.
ضحكت، وقلت: وهل حل (الله) ببلادكم حتى تأتي الخلائق لتزوره(1)؟
تغير وجهه تغيرا شديدا، وقال: الله أعظم من أن يحل ببلدة، فالله لا يحيط به المكان ولا الزمان.. وكيف يحيط به، وهو الذي خلق المكان والزمان.
قلت: فما الذي تقصد بزيارة الخلق لبلادكم بحثا عن الله؟
قال: أنت تعلم أن للإلحاد سوقا في هذا الزمان، وأنه ينتشر في بلاد الله كما ينتشر النار في الهشيم..
قلت: أعلم ذلك.
قال: لقد تعذب الخلق بهذا.. ولهذا تراهم يبحثون عن الله.. ويبحثون عن الأدلة على وجوده وكماله ليقضوا بها على تلك الوساوس التي ملأهم بها الشياطين.
قلت: أعلم كل ذلك.. ولكني أتساءل عن علاقة ذلك ببلدتكم.
قال: عندما رأى رجال من أهل الله من هذه البلاد ما حل بالخلق راحوا يبحثون في موازين العقول عن الأدلة التي تنفي كل شبهة، وتقمع كل وسواس.. ونحن نسميهم هنا (المتكلمون).. وهم حقيقة (متكلمون)، فلديهم من القدرات العقلية.. ولديهم من طرائق الإقناع الحقيقي لا الوهمي ما يملؤك بالعجب.. وهم فوق ذلك نذروا أنفسهم لله، فلا تراهم يحامون إلا عنه، ولا تراهم ينتصرون إلا له.
قلت: لقد شوقتني إليهم.. فدلني عليهم.
قال: سر فقط في هذه البلاد.. سر في شوارعها شارعا شارعا.. فلن تعدم في أي شارع من أي متكلم.
قلت: وكيف أعرفهم والخلق كثير؟
قال: يسير ذلك.. حيثما رأيت الخلق مجتمعين، فثمة متكلمون.
قال لي ذلك، ثم انصرف.. وقد رأيت كل ما ذكره لي.. فلم أسر في شارع من الشوارع، إلا ورأيت فيه من ينتصر لوجود الله، وينفي كل الشبه التي تقذفها الشياطين.
لن أحدثكم بكل ما سمعت.. سأكتفي بعشر مناظرات فقط.. لعل فيها ما يقنع أي عاقل..

---

1) لم نذكر مثل هذه التعابير في هذا المحل إلا للضرورة التي استدعته، وإلا فلا يجوز الحديث عن الله بمثل هذا..

وقد اخترت لكم ما يتناسب مع العقول المختلفة.. فالمتكلمون نهجوا مناهج مختلفة، لأنهم يخاطبون عقولا مختلفة.

المناظرة الأولى:

قال الجمع: فحدثنا عن المناظرة الأولى.

قال: في شارع من شوارع (اللـه أبـاد) رأيت قومـا من النـاس يلتفون حول رجلين(1)..

أما أحدهما، فيلبس ما يلبسه علماء الأزهر من ثياب.. وقد كانوا يطلقون عليه لقب (الباقلاني)(2).. ويظهـر من خلال حديثـه أن لـه براعة وخبرة طويلة في المناظرة.

وأما الثاني.. فهو ــ على مـا يبـدو ــ يونـاني الأصـل، فقـد كـان الناس يطلقون عليه لقب (ديموقريطس)(3)، ولست أدري هل هـو لقبه.. أم أنه تسـمى بـه تـأثرا بـذلك العـالم اليونـاني الكبـير الـذي ينسب إليه (المذهب الذري)(4)

سأنقل لكم بعض ما وصل إلي سمعي من حديثهما:

قال الباقلاني لديموقريطس: أنت الآن تريـد أن تحـيي بيننـا مـا ذهب إليه ديموقريطس من أفكـار.. ولا ألومـك في ذلـك.. ولكـني

---

1) تعمدنا في هذا المبحث أن نذكر في كل مناظرة حقيقيـة أو افتراضـية رجلين: أمـا أحدهما فيكون من المتكلمين وقد حاولنـا أن نختـار متكلمين من مـدارس مختلفـة لنـبين أنهم جميعا ـ مهما اختلفت مدارسهم ـ لا يقصدون إلا خدمة الحقيقة.

وأما الثاني، فهو من الملاحدة، باختلاف مدارسهم كذلك.. وذلـك لأن من مقاصـد هـذه الرسالة التأريخ للإلحاد والتعريف بالملحدين وشبههم.. وننبه هنـا كمـا نبهنـا مـرات كثـيرة إلى أن أكثر ما نذكره من مناظرات هي مناظرات افتراضية، وذلك حتى لا يرمينا أحد من الناس بالكذب والدجل.

2) نشير به إلى القاضي أبي بكر البـاقلاّني(338-403هـ)، وهـو محمّـد بن الطيّب بن محمّد بن جعفر، قاضٍ من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرياسـة في مـذهب الأشـاعرة، ولد في البصرة، وسكن بغداد فتوفيّ فيها. وقد قيـل: إنـه صـنف سـبعين ألـف ورقـة في الدفاع عن الدين.. كل ليلـة خمسـة وثلاثين ورقـة.. بيـد أن أشـهر كتبـه على الإطلاق هـو كتابه (إعجاز القرآن) الذي حدّد فيه مفهومه للإعجاز القرآني. (انظر: الأعلام وغيره)

3) نشـير بـه إلى ديمـوقريطَسْ (460؟ ق.م -370؟ ق.م)، هـو فيلسـوف مـادّي يوناني ، حاول أن يبرهن أنَّ العالم مكوَّن من عدد غـير محـدود من الـذَّرات، يتحـرك في فراغ لا حدود له. وهذه الذَّرات جُسَيمات من المادَّة غير المرئية، وغير القابلـة للانقسـام، وغير المولّدة أو القابلة للإتلاف. وتختلف عن بعضـها في الحجم والشَّـكل والوضـع. وكـل شيء في هذا العالم مكوّن من مجموعة مختلفة عن غيرهـا من هـذه الـذَّرات، وقـد جـاء عالمنا من تركيب عَرَضي لهذه الذَّرات. وبسبب وجود عدد غير محدود من الـذَّرات، فقـد وجدت عوالم أخرى أيضًا.

4) المذهب الذرّي هـو عبـارة عن فكـرة فلسـفية تطـوّرت في اليونـان خلال القـرن الخامس قبل الميلاد.. وهي ترى أن العناصر الأساسـية للحقيقـة تتشـكّل من الـذرة غـير القابلة للانقسام والإتلاف، وهي مادة سابحة في الفضاء.. ويظنّـون أن الـذرّة لهـا حركـة، ولكنها تنعدم وترتدُّ بعد ارتطامها. وقد تكوّنت الدنيا نتيجة هذه الحركـات. ووجـدت لفـترة من الزمن ثم اختفت. وهذه العوالم والأشياء الظاهرية التي وجـدت عليهـا تختلـف فقـط في الحجم والشكل وموضع ذراتها.

أريـد أن أسـألك: هـل دعـاك لـذلك المنهج العلمي الـذي تفرضـه العقـول السـليمة، أم أنـه مجـرد تعصـب لرجـل تـزعم أنـه من أجدادك؟

قال ديموقريطس: بكليهما أنا أحتج.. ولكليهما أنا أجنح.

قال الباقلاني: لا أستطيع أن أنـاظرك في الثـاني.. فقـد علمنـا قرآننا أن المنهج الذي يعتمد على الآباء والأجداد منهج خاطئ، قـال تعالى يعاتب من استعمله:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ قَـالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَـا أَلْفَيْنَـا عَلَيْـهِ آبَاءَنَـا أَوَلَـوْ كَـانَ آبَـاؤُهُمْ لا يَعْقِلُـونَ شَـيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة:170)

قال ديموقريطس: وما يمنعك أن تناظرني، وقد ذكرت لك أني أجمع بين المنهجين.. ناظرني بالمنهج الذي تشاء منهما.

قال الباقلاني: أرى أن هذا لن يصل بنا إلى أي نتيجـة.. لأني إن أقنعتك بالأول عدلت إلى الثاني، ولا طاقة لأحد في الدنيا أن يغلبك في الثاني إلا إذا كانت لـه طاقـة إحيـاء المـوتى.. فيحـيي لـك هـذا الديموقريطس الذي حجب عقلك عن رؤية الحق والإذعان له.

قـال ديمـوقريطس: لا بـأس.. سأضـحي بآبـائي.. وأكتفي في المناظرة معك بما يراه عقلي.. عقلي المحرر من كل سلطة.

قال الباقلاني: الآن يمكن أن نتحاور.. فاعرض علي ما تراه من آراء لأناقشك فيها واحدا واحدا.

قال ديموقريطس: آرائي لا يمكن أن تفهمها إلا وهي في سـلة واحدة.. فلذلك سأعرضـها عليـك جميعـا.. ثم ناقشـني بعـدها كمـا تشاء.. أم أنك تعترض على هذا أيضا؟

قال الباقلاني: لا.. لك ذلك.. فلن أقاطعك حتى تنتهي من جميع حديثك.

قال ديمـوقريطس: مـذهبي الـذي أراه والـذي رآه قبلي جـدي المبجل ديموقريطس وأستاذه (لوقيبوس) وعنهما أخـذ أخـذ جميـع أساتدتنا المادّيين بعـدهما، حـتى فريـق المـادّيين المعاصـرين.. في تفسير الوجود هو أن الوجود واحد.. وأنه ينقسم إلى عدد غير متناهٍ من الوحدات غير المتجانسة وغير المدركة بـالحسّ، والواحـد منهـا هو الجوهر الفرد، أو الجزء الذي لا يتجزأ.

وهـذه الوحـدات غـير المتجانسـة قديمـة أزليـة، نظـراً إلى أن الوجـود لا يمكن أن يخـرج من العـدم الكلي المحض، وهي دائمـة أبديـة، إذْ لا ينتهي الوجـود إلى العـدم الكلي المحض (اللاوجـود مطلقاً)

والنفس عند جدي مادّيـة أيضـاً، وهي مؤلفـة من أدقّ الجـواهر وأسرعها حركة..

وكلّ ظواهر الوجود الكوني تتحكم بوجودها آلية الحركة الذاتيـة للوحدات غير المتجانسة التي يتألف منها الوجود كله.

لقـد مضـى جـدي ديمـوقريطس بالمـذهب الـذري إلى حـده الأقصى، ووضعه في صيغته النهائية، فقال: (إن كـلّ شـيء امتـداد وحركة فقط)

ولم يستثن في ذلك أي شيء.. لا النفس الإنسـانية.. ولا الآلهـة التي كان يعتقد بها أجدادنا اليونـانيّون.. فالآلهـة مركبـة من جـواهر كالبشر، إلا أن تركيبهم أدقّ، فهم لذلك أحكم وأقدر، وأطول عمـراً بكثير، ولكنهم لا يخلدون.

ابتسـم البـاقلاني، وقـال: أنت عرضـت علي مـا يـراه جـدك وأساتذتك من أطروحات تفسر الوجود.. ولم تـذكر لي دليلا واحـدا يدل عليها.

قال ديموقريطس: هي بمنطقيتها وبساطتها تفسر الوجـود بمـا لا تحتاج معه إلى أي برهان.. فهي نفسها برهان على نفسها.

قال الباقلاني: فأذن لي أن أناقشك فيما ذكرته.. لأبين لك أنهـا مجرد هرطقات لا تستند إلى أي منطق، ولا إلى أي عقل.

لقد ذكـرت لي أن جـدك ذهب إلى أن العـدم الكلي المحض لا يمكن أن يتحول إلى الوجود بنفسه، وأن ما هو أزلي لا بد أن يكون أبـدياً.. وهـذا حـق لا يمكنـني أن أجادلـك فيـه.. لأن العـدم الكلي المحض لا يمكن ــ عقلاً وبداهـة ــ أن يتحـوّل بنفسـه إلى الوجـود، فالعدم لا شيء، ويستحيل عقلاً أن يتحول اللاشيء إلى شيء.

ومـا هـو أزلي – أي: واجب الوجـود – لا يمكن أن تأتيـه حالـة يكون فيها ممكناً حتى يقبل فيها العدم.

انفـرجت أسـارير ديمـوقريطس عن ابتسـامة عريضـة، فقـال الباقلاني: لقد صدق جدك في هذا.. ولكنه لم يأت فيه بجديد، فكل العقول توقن بهذا..

قال ديموقريطس: ولكن جدي استنتج من هذا أزلية المادة.

ابتسم البـاقلاني، وقـال: مـا ذكرتـه هـو قـانون.. وإثبـات أزليـة المادة يحتاج إلى أدلة خاصـة تثبتهـا.. ولا توجـد مثـل هـذه الأدلـة.. فالمادّة بطبيعتها المتغيّرة والمتحوّلة القابلـة للتحليـل والـتركيب، لا تصلح أن تكون أزلية، وما ليس أزلياً فهو حادث، وما هو حادث لا بدّ له من مُحْدث.

قال ديموقريطس: فما أدلة الحدوث(1)؟

ابتسم الباقلاني، وقال: كما اعتمدت على جدك في آرائه.. فأنا أيضا كان لي جد.. وكان له نفس لقبي.. وقد ذكر مع جميع أساتذته أربعة دعاوى، لكل دعوى برهانها، وهي تشكل جميعا البرهان الدال على حدوث الكون(2).

قال ديموقريطس: فما **الدعوى الأولى**، وما برهانها؟

قال الباقلاني: نحن ندعي أن العالم مكون من أجسام وأعراض.. فالأجسام هي ما قامت بنفسها.. والأعراض ما قامت بغيرها وهي الأجسام ومثالها الحركة والسكون والافتراق والاجتماع.

ولا أظن أنك تجادلني في هذا.. فالإنسان ـ مثلا ـ يبدأ نطفة، ثم يتحول علقة، فمضغة، ثم يكتمل خلقه فى رحم أمه، ثم يولد فيصير طفلا، فشابا، فكهلا، فشيخا، حتى يدركه الموت.. فكلها تغيرات مرتبطة بالزمن.. ويقاس على ذلك كل ما فى الكون من جزئيات.. فكل ما فى الكون متغير.

قال ديموقريطس: لا أجادلك في هذا.. فما **الدعوى الثانية**؟

قال الباقلاني: نحن ندعي أن الأعراض محدثة..

قال ديموقريطس: فما دليك على ذلك؟

قال الباقلاني: الدليل على ذلك أنها تعدم.. والقديم لا يعدم..

قال ديموقريطس: فما الدليل على عدمها؟

قال الباقلاني: الحس هو دليلي على ذلك.. فنحن نشاهد كل ما هو متحرك ينعدم، فيسكن، وهكذا في الباقي.

---

1) ذكرنا هنا أدلة المتكلمين.. والعلماء المحدثون يستدلون على الحدوث بأن الكون لو كان قديما لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود، وهذا ما يؤكده العلم التجريبي في (القانون الثاني للحرارة الديناميكية)، والذي ينص على أن الطاقة في الكون تقل تدريجياً بصورة مطردة.

2) هذا الدليل هو متمسك المتكلمين على اثبات حدوث العالم ، وهو مذكور في أكثر كتب الكلام كالتمهيد للباقلانى، وأصول الدين لعبد القاهر البغدادى، وشرح المقاصد للتفتازانى وشرح العضدية للجرجانى.. وقد عبر الباقلاني عنه باختصار في الإنصاف مستدلا له بالنقل، فقال: (يجب أن يعلم: أن العالم محدث؛ وهو عبارة عن كل موجود سوى الله تعالى، والدليل على حدوثه: تغيره من حال إلى حال، ومن صفة إلى صفة، وما كان هذا سبيله ووصفه كان محدثاً، وقد بين نبينا ﷺ هذا بأحسن بيان يتضمن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة، لما قالوا له: يا رسول الله: أخبرنا عن بدء هذا الأمر ؟ فقال: نعم. كان الله تعالى ولم يكن شيء، ثم خلق الله الأشياء فأثبت أن كل موجود سواه محدث مخلوق. وكذلك الخليل ﷺ ، إنما استدل على حدوث الموجودات بتغيرها وانتقالها من حالة إلى حالة؛ لأنه لما رأى الكوكب قال: هَـذَا رَبِّي)(الأنعام: من الآية76) ، إلى آخر الآيات، فعلم أن هذه لما تغيرت وانتقلت من حال إلى حال دلت على أنها محدثة مفطورة مخلوقة، وأن لها خالقاً، فقال عند ذلك وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض)

قال ديموقريطس: فما الدليل على عدم انعدام القديم؟

قال الباقلاني: الدليل على أن القديم لا ينعدم هو أن القديم إما أن يكون لذاته أو لغيره.. وليس من الجائز أن يكون القديم لغيره.. لأنه لو كان كذلك فمن حق هذا الغير الذي هو علته تقدم هذا القديم فيكون حادثا.

وليس من الجائز أن يكون قدمها لذاتها، فإذا كان كذلك فإن ذاتها باقية، فيستحيل عدمها لكنها عدمت، فيلزم أنها حادثة.

قال ديموقريطس: فما **الدعوى الثالثة**؟

قال الباقلاني: الدعوى الثالثة، هي أن الأجسام لم تخل من الأعراض المحدثة، ولم تتقدمها في الوجود.

والدليل على ذلك أنها لو خلت من الأعراض المحدثة أو تقدمتها في الوجود لجاز أن يكون الجسم لا متحركا ولا ساكنا.. وهذا لا يمكن فإنه إن كان غير متحرك فمعناه أن يكون ساكنا.. أما أن يكون الجسم ساكنا وغير ساكن في آن واحد فهذا مستحيل.

قال ديموقريطس: فما **الدعوى الرابعة**؟

قال الباقلاني: الدعوى الرابعة هي أن مالم يخل من الحوادث ولم يتقدمها في الوجود فهو حادث مثله.

والدليل على ذلك هو أن الحادث هو ما له أول، وكان معدوما قبلها، فلو كانت الأجسام قديمة، وهي غير منفكة عن الأعراض لكانت الأجسام موجودة قبل وجود الأعراض، وبالتالي انفكت عن وجود الاعراض، وهذا خلف فتعين أنها حادثة.

قال ديموقريطس: فما ترد على من من يجيز حوادث لا أول لها؟

قال الباقلاني: إن إثبات حوادث لا أول لها يلزم عنه ثلاثة محالات(1)..

أما **الأول**، فإنه لو ثبت ذلك لكان قد انقضى ما لا نهاية له، ووقع الفراغ منه وانتهى، ولا فرق بين قولنا انقضى ولا بين قولنا انتهى، ولا بين قولنا تناهى، فيلزم أن يقال قد تناهى ما لا يتناهى، ومن المحال البين أن يتناهى ما لا يتناهى وأن ينتهي وينقضي ما لا يتناهي.

وأما **الثاني**، فهو أن دورات الفلك إن لم تكن متناهية، فهي إما شفع وإما وتر، وإما لا شفع ولا وتر، وإما شفع ووتر معاً.. وهذه الأقسام الأربعة كلها محال؛ والمفضي إليها لا شك أنه

1) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي.

محال..

إذ يستحيل عدد لا هو شفع ولا هـو وتـر، أو لا هـو شـفع ووتـر.. فإن الشفع هو الذي ينقسم إلى متسـاويين كالعشـرة مثلاً، والـوتر هو أحد الذي لا ينقسم إلى متساويين كالتسعة، وكـل عـدد مـركب من آحاد إما أن ينقسم بمتساويين، أو لا ينقسـم بمتسـاويين، وأمـا أن يتصف بالانقسام وعدم الانقسـام، أو ينفـك عنهمـا جميعـاً فهـو محال.. وباطل أن يكون شفعاً لأن الشـفع إنمـا لا يكـون وتـراً لأنـه يعوزه واحد، فإذا انضاف إليه واحد صار وتراً، فكيف أعـوز الـذي لا يتناهى واحداً؟.. ومحال أن يكون وتراً، لأن الوتر يصير شفعاً بواحد، فيبقى وتراً لأنه يعوزه ذلـك الواحـد، فكيـف أعـوز الـذي لا يتنـاهى واحداً؟

وأما **الثالث**، فإنه لو ثبت ذلك للزم عليه أن يكون عددان، كل واحد منهمـا لا يتنـاهى، ثم أن أحـدهما أقـل من الآخـر، ومحـال أن يكون ما لا يتناهى أقل مما لا يتنـاهى، لأن الأقـل هـو الـذي يعـوزه شيء لو أضـيف إليـه لصـار متسـاوياً، ومـا لا يتنـاهى كيـف يعـوزه شيء؟

قال ديموقريطس: دعنا من هذا.. وأجبني على ما ذكـره جـدي من أنّ هذا الوجود نشأ صدفة.

قال الباقلاني: سأجيبك بمـا ذكـره أحفـاد جـدك ممن هم أوفـر علما، وأقدر على البحث في هذا باعتبار تخصصهم فيه(1).

انتفض ديمــوقريطس غاضــبا، وقــال: أحفــاد جــدي!؟.. من تقصـد؟.. لا.. يسـتحيل أن يقـول أحفـاد جـدي هـذا.. لقـد قـال (هكسلى) ضاربا المثـل على إمكانيـة الصـدفة: (لـو جلسـت سـتة قردة أمام آلات كاتبة، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين، فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخـيرة الـتي كتبوهـا قصـيدة من قصـائد شكسـبير! فكـذلك كـان الكـون الموجـود الآن نتيجـة لعمليات عمياء، ظلت تدور في (المادة) لبلايين السنين)

قال الباقلاني: وما أدرى (هكسلى) بمثـل هـذا.. إن كلامـه هـذا يناقض ما أثبته كل الرياضـيين والعلمـاء الـذين يحـترمون أنفسـهم وبحوثهم.

قال ديموقريطس: فأخبرني بما قالوا.

قال البـاقلاني: لقـد قـال البروفيسـور (ايـدوين كـونكلين): (إن القول بأن الحياة وجدت نتيجـة (حـادث اتفـاقي) شـبيه في مغـزاه

1) استفدنا المعلومات الواردة هنا من كتاب (الإسلام يتحدى) لوحيد الدين خان.

بأن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار صدفي يقع في مطبعة)

ويقـول أحـد العلمـاء الأمريكـيين: (إن نظريـة الصـدفة ليسـت افتراضا وإنما هي نظرية رياضية عليا، وهى تطلق على الأمور التي لا تتوفر في بحثها معلومات قطعية، وهى تتضـمن قـوانين صـارمة للتمييز بين الباطل والحق، وللتدقيق في إمكـان وقـوع حـادث من نوع معين وللوصول إلى نتيجة هي معرفة مدى إمكان وقـوع ذلـك الحادث عن طريق الصدفة)

وقال أحد العلماء..

قال ديموقريطس: دعنـا من آراء الرجـال.. وأقنعـني بالحقيقـة التي تدل عليها العقول.

قال الباقلاني: صدقت.. فآراء الرجال لن تزيدنا إلى تيها..

ولهذا سأحاول إقناعك **بعدم إمكانية الصدفة** علميا بتصـوير ما تحتاجه الصـدفة لتحقيـق أي عمـل.. لـو تنـاولت عشـرة دراهم، وكتبت عليها الأعداد من1 إلى 10، ثم رميتهـا في جيبـك وخلطتهـا جيـدا، ثم حـاولت أن تخرجهـا من الواحـد إلى العاشـر بـالترتيب العددي، بحيث تلقى كل درهم في جيبك بعـد تناولـه مـرة أخـرى.. فإمكان أن نتنـاول الـدرهم المكتـوب عليـه في المحاولـة الأولى ه واحد على عشرة ؛ وإمكـان أن تتنـاول الـدرهمين (2،1) بـالترتيب واحد في المائة وإمكان أن تخرج الدراهم (4،3،2،1) بالترتيب هـو واحد في العشرة آلاف.. حـتى إن الإمكـان في أن تنجح في تنـاول الـــدراهم 1إلى 10 بـــالترتيب واحـــد في عشـــرة بلايين من المحاولات!!

لقـد ضـرب هـذا المثـال العـالم الأمـريكي الشـهير (كريسـى موريسن)، ثم استطرد قائلا: (إن الهدف من إثارة مسـألة بسـيطة كهذه، ليس إلا أن نوضح كيف تتعقد (الوقائع) بنسبة كبيرة جدا في مقابل (الصدفة)

قال ديموقريطس: فكيف تطبق هذا المثـال على مـا نحن فيـه من محاولة تفسير وجود الكون؟

قال الباقلاني: لو افترضنا أن المادة وجدت بنفسها في الكون.. وافترضنا أن تجمعها وتفاعلها كان من تلقاء نفسـها ــ وليس هنـاك أي دليل على هذا ـ ففي هـذه الحـال أيضـا لن نظفـر بـأي تفسـير الكون، فإن (صدفة) أخرى تحول دون طريقنا.. فالرياضـيات الـتي تعطينـا نكتـة (الصـدفة) الثمينـة هي نفسـها الـتي تنفى أي إمكـان رياضي في وجود الكون الحالي بفعل قانون الصدفة.

لقد استطاع العلم الكشف عن عمـر الكـون وضـخامة حجمـه، والعمر والحجم اللذان كشف عنهما العلم الحديث غير كـافيين في أي حال من الأحوال لتسويغ إيجاد هذا الكـون عن قـانون الصـدفة الرياضي.

سأضرب لك مثا يقرب لك ذلك..

أنت تعلم أن الأجسام الحية تتركب من (خلايا حية).. و(الخليـة) ـ كما تعلم ـ مركب صغير جدا، ومعقـد غايـة التعقيـد، وهى تـدرس تحت علم خـاص يسـمى (علم الخلايـا) ومن الأجـزاء الـتي تحتـوى عليها هذه الخلايا: البروتين وهو مركب كيماوي من خمسة عناصـر هي الكربـون والهيـدروجين والنـتروجين والأوكسـجين والكـبريت.. ويشـمل الجـزيء البروتيـني الواحـد أربعين ألفـا من ذرات هـذه العناصر.

وفي الكـون أكـثر من مائـة عنصـر كيمـاوي كلهـا منتشـرة في أرجائه، فأية نسـبة في تـركيب هـذه العناصـر يمكن أن تكـون في صالح قانون (الصدفة)؟

أيمكن أن تتركب خمسة عناصـر من هـذا العـدد الكبـير لإيجـاد (الجزيء البروتيني) بصدفة واتفاق محض؟

إننـا نسـتطيع أن نسـتخرج من قـانون الصـدفة الرياضـي ذلـك القـدر الهائـل من (المـادة) الـذي سـنحتاجه لنحـدث فيـه الحركـة اللازمـة على الـدوام؛ كمـا نسـتطيع أن نتصـور شـيئا عن المـدة السحيقة التي سوف تستغرقها هذه العملية.

لقد حاول رياضي سويسري شهير هو الأستاذ (تشـارلز يـوجين جواي) أن يستخرج هذه المدة عن طريق الرياضـيات، فـانتهى في أبحاثه إلى أن (الإمكان المحض) في وقوع الحادث الاتفـاقي الـذي من شأنه أن يؤدى إلى خلق كون، إذا ما توفرت المـادة هـو واحـد على 60/10 (أي 10×10 مائـــة وســـتين مـــرة)، وبعبـــارة أخرى:نضيف مائة وستين صفرا إلى جانب عشرة.. وهو عدد هائل وصفه في اللغة.

إن إمكان حدوث الجزيء البروتيني عن (صـدفة) يتطلب مـادة يزيـد مقـدارها بليـون مـرة عن المـادة الموجـودة الآن في سـائر الكون، حتى يمكن تحريكها وضخها، وأما المـدة الـتي يمكن ظهـور نتيجة ناجحة لهذه العملية فهي أكثر من 243/10 سنة.

إن جزيء البروتين يتكون من (سلاسـل) طويلـة من الأحمـاض الأمينية، وأخطر ما في هذه العملية هو الطريقـة الـتي تختلـط بهـا

هذه السلاسل بعضها مع بعض فإنها لو اجتمعت في صورة غير صحيحة سما قاتلا، بدل أن تصبح موجدة للحياة.

لقد توصل البروفيسور ج. ب. ليتز إلى أنه لا يمكن تجميع هذه السلاسل فيما يقرب من 48/10 صورة وطريقة.. وهو يقول: إنه من المستحيل تماما أن تجتمع هذه السلاسل بمحض الصدفة في صورة مخصوصة من هذه الصور التي لا حصر لها، حتى يوجد الجزيء البروتيني الذي يحتوى أربعين ألفا من أجزاء العناصر الخمسة التي سبق ذكرها.

ولابد أن يكون واضحا أن القول بالإمكان في قانون الصدفة الرياضي لا يعنى أنه لابد من وقوع الحادث الذي ننتظره بعد تمام العمليات السابق ذكرها، في تلك المدة السحيقة ؛ وإنما معناه أن حدوثه في تلك المدة محتمل لا بالضرورة، فمن الممكن على الجانب الآخر من المسألة ألا يحدث شيء ما بعد تسلسل العملية إلى الأبد.

وهذا الجزيء البروتيني ذو وجود (كيماوي) لا يتمتع بالحياة إلا عندما يصبح جزءا من الخلية، فهنا تبدأ الحياة، وهذا الواقع يطرح سؤالا مهما علينا هو: من أين تأتى الحرارة عندما يندمج الجزيء بالخلية؟.. ولا جواب عن هذا السؤال في أي سفر من أسفار العلم.

إن من الواضح الجلي أن التفسير الذي يزعمه هؤلاء المعارضون، متسترين وراء قانون الصدفة الرياضي لا ينطبق على الخلية نفسها وإنما على جزء صغير منها هو الجزيء البروتيني وهو ذرة لا يمكن مشاهدتها بأقوى منظار بينما نعيش، وفي جسد كل فرد منا ما يربو على أكثر من مئات البلايين من هذه الخلايا.

لقد أعد العالم الفرنسي (الكونت دى نواي) بحثا وافيا حول هذا الموضوع وخلاصة البحث:أن مقادير (الوقت، وكمية المادة ،والفضاء اللانهائي) التي يتطلبها حدوث مثل هذا الإمكان هي أكثر بكثير من المادة والفضاء الموجودين الآن، وأكثر من الوقت الذي استغرقه نمو الحياة على ظهر الأرض، وهو يرى: أن حجم هذه المقادير الذي سنحتاج إليه في عمليتنا لا يمكن تخيله أو تخطيطه في حدود العقل الذي يتمتع به الإنسان المعاصر، فلأجل وقوع حادث- علي وجه الصدفة- من النوع الذي ندعيه، سوف نحتاج كونا يسير الضوء في دائرته82/10 سنة ضوئية (أي:82 صفرا إلى جانب عشرة سنين ضوئية) وهذا الحجم أكبر بكثير جدا

من حجم الضوء الموجود فعلا في كوننا الحـالي ؛ فـإن ضـوء أبعـد مجموعـة للنجـوم في الكـون يصـل إلينـا في بضـعة (ملايين) من السنين الضوئية فقط.. وبنـاءا على هـذا، فـإن فكـرة أينشـتين عن اتساع هذا الكون لا تكفى أبدا لهذه العملية المفترضة.

أما فيما يتعلـق بهـذه العمليـة المفترضـة نفسـها، فإننـا سـوف نحرك المادة المفترضة في الكـون المفـترض بسـرعة خمسـمائة (تريليون) حركة في الثانية الواحـدة، لمـدة243/10 بليـون سـنة (243 صفرا أمام عشرة بلايين)، حتى يتسنى لنا حدوث إمكـان في إيجاد جزيء بروتيني يمنح الحياة.

ويقول (دى نواي) في هذا الصدد: (لابد ألا ننسـى أن الأرض لم توجد إلا منـذ بليـونين من السـنين وأن الحيـاة- في أي صـورة من الصور- لم توجد إلا قبل بليون سنة عندما بردت الأرض)

هذا وقد حاول العلماء معرفة عمر الكون نفسه، وما ذكــروه لا يكفي على أي حال من الأحوال خلـق إمكـان، يوجـد فيـه الجـزيء البروتيني، بناء على قانون الصدفة الرياضي.

وأما ما يتعلق بأرضـنا الـتي ظهـرت عليهـا الحيـاة، فقـد عرفنـا عمرها بصورة قاطعـة، فهـذه الأرض كمـا يعتقـد العلمـاء جـزء من الشمس انفصل عنها نتيجة لصدام عنيف وقع بين الشمس وسـيار عملاق آخر، ومنذ ذلك الزمان أخـذ هـذا الجـزء يـدور في الفضـاء، شــعلة من نــار رهيبــة، ولم يكن من الممكن ظهـور الحيـاة على ظهره حينئذ لشدة الحرارة، وبعد مرور زمن طويـل أخـذت الأرض تبرد ثم تجمـدت وتماسـكت، حـتى ظهـر إمكـان بـدء الحيـاة على سطحها.

ونستطيع معرفة عمر الكون بشـتى الطـرق.. ومنهـا الطريقـة الـتي توصـلنا إليهـا بعـد كشـف (العناصـر المشـعة)، فـإن الـذرات الكهربية تخرج من هذه العناصر بنسبة معلومة بصفة دائمة ؛ وهـذا (التحلل) يقل الـذرات الكهربيـة في هـذه العناصـر، لتصـبح تلقائيـا عناصر غـير مشـعة عـبر الزمـان، واليورانيـوم أحـد هـذه العناصـر المشعة، وهو يتحـول إلى معـدن (الرصـاص) بنسـبة معينـة نتيجـة لتحلل الذرات الكهربية، وهذه النسبة في الانتشار لا تتغير تحت أي ظـروف من أدنى أو أقصـى درجـات الحـرارة أو الضـغط، ولهـذا سنكون على صـواب لـو اعتبرنـا أن سـرعة تحـول اليورانيـوم إلى (الرصاص) محددة وثابتة لا تتغير.

إن قطع اليورانيوم توجد في كثير من الهضبات والجبال منذ أن

تجمـد في شـكله الأخـير، عنـد تجميـد الأرض.. وإلى جـانب هـذا اليورانيوم نجد قطعا من الرصاص، ولا نسـتطيع أن نـدعى أن كـل هـذا الرصـاص نتج عن تحلـل اليورانيـوم، والسـبب في هـذا أن الرصاص الـذي يتكـون من تحلـل اليورانيـوم يكـون أقـل وزنـا من الرصاص العادي، وبناء على هذه القاعـدة الثابتـة يمكننـا أن نجـزم بما إذا كانت أية قطعة من الرصاص من اليورانيوم، أو أنهـا قطعـة رصاص عادى ونحن هنا نستطيع أن نحتسب المدة التي استغرقتها عملية تحلل اليورانيوم بدقـة، فهـو يوجـد في الجبـل من أول يـوم تجمد فيه ونستطيع بذلك معرفة مدة تجمد الجبل نفسه!

لقد أثبتت التجارب أنه قد مر ألف وأربعمائة مليـون سـنة على تجمد تلك الجبال التي تعتبر- علميا- أقدم جبـال الأرض، وقـد يظن البعض منا أن عمـر الأرض يزيـد ضـعفا أو ضـعفين عن عمـر هـذه الجبال ولكن التجارب العلميـة تنفي بشـدة هـذه الظنـون الشـاذة، ويذهب البروفيسور (سوليفان) إلى أن (المعـدل المعقـول) لعمـر الأرض هو ألفا مليون سنة(1).

انظر.. فبعدما تبين لنا أن المادة العادية غير ذات الـروح تحتـاج إلى بلايين البلايين من السنين، حتى يتسنى مجرد إمكـان الحـدوث لجزيء بروتيني فيها بالصدفة، فكيف ـ إذن ـ جاءت في هذه المدة القصـيرة في شـكل مليـون من أنـواع الحيوانـات، وأكـثر من 200.000 نوع من النبـات؟ وكيـف انتشـرت هـذه الكميـة الهائلـة على سـطح الأرض في كـل مكـان؟ ثم كيـف جـاء من خلال هـذه الأنواع الحيانية ذلك المخلوق الأعلى الذي نسميه (الإنسان)؟

لقد قال عالم الأعضاء الأمريكي مارلين ب. كريدر ملخصـا كـل هذا:(إن الإمكـان الرياضـي في تـوفر العلـل اللازمـة للخلـق- عن طريق الصدفة - في نسبها الصحيحة هو ما يقرب من (لا شيء)

وقال الأستاذ (كريسـى موريسـن) ــ ردا على مقولـة (هيكـل): (إيتـونى بـالهواء وبالمـاء وبـالأجزاء الكيماويـة وبـالوقت وسـأخلق الإنسان) ـ: (إن هيكل يتجاهل في دعواه: الجينات الوراثية ومسألة الحياة نفسها فإن أول شيء سيحتاج إليه عنـد خلـق الإنسـان، هـو الـذرات الـتي لا سـبيل إلى مشـاهدتها، ثم سـيخلق (الجينـات)، أو حملة الاستعدادات الوراثية بعد ترتيب هـذه الـذرات، حـتى يعطيهـا ثوب الحياة.. ولكن إمكان الخلق في هذه المحولة بعـد كـل هـذا لا

1) المعلومات العلمية المحضة هنا ـ والتي اسـتفدناها من كتـاب (الإسـلام يتحـدى) ــ ربما تكون قد تغيرت بفعل التطور العلمي، ولكنها مع ذلك تبقى صالحة للاستدلال.

يعـدو واحـدا على عـدة بلايين، ولـو افترضـنا أن (هيكـل) نجح في محاولته فإنه لن يسميها (صدفة)، بل هو حاكمه ومـديره ومـدبره، بل سوف يقررها ويعدها نتيجة لعبقريته)

وقال عالم الطبيعة الأمريكي (جـورج إيـرل ديفيس): (لـو كـان يمكن للكون أن يخلق نفسه فإن معـنى ذلـك أنـه يتمتـع بأوصـاف الخالق، وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن الكون هو الإله.. وهكذا ننتهي إلى التسليم بوجـود (الإلـه) ؛ ولكن إلهنـا هـذا سـوف يكـون عجيبا: إلها غيبيا وماديا في آن واحد!! إننى أفضـل حاكمـه ومـديره ومدبره، بدلا من أن أتبنى مثل هذه الخزعبلات)

ما إن قال البلاقلاني هذا حـتى رأيت (ديمـوقريطس) قـد تغـير وجهـه، ثم نظـر إلى سـاعته وقـال: ائـذنوا لي.. لـدي موعـد.. ولا أستطيع أن أبقى هنا أكثر من هذا.. ربما نلتقي مرة أخرى.

قال ذلك، ثم انصرف مسرعا وعلى وجهه ترتسـم ظلال أنـوار لسـت أدري هـل أنـارت لـه، أم أنهـا وجـدت من الشـياطين من أطفأها.

المناظرة الثانية:

قال الجمع: حدثتنا عن المناظرة الأولى.. فحدثنا عن المنـاظرة الثانية.

قال: في شارع من شوارع تلك المدينة العجيبة رأيت قوما من الناس يلتفون حول رجلين..

أما أحدهما فكان بـادي الصـلاح.. وكـان النـاس يطلقـون عليـه لقب (القاسم الرسي)(1)

---

1) أشـير بـه إلى (أبي محمـد الرسـي) وهـو القاسـم بن إبـراهيم بن إسـماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهو منسـوب إلى ضـيعة كـانت لـه جهة المدينة يقال لها الرس، لم يسمح المنصور له بالإقامـة فيهـا في كفـاف من العيش، بـل طلبـه مـع الطـالبيين ففـر إلى السـند، وأعقب من ولـده ثمانيـة أنبههم الحسـين بن القاسم وكان زاهداً ومن نسله أئمة صعدة، (وأئمة صعدة من اليمن كـانوا زيديـة)، وذكـر ابن خلدون في التاريخ أنه توفي سنة 245 هـ

والمنـاظرة منقولـة من كتابـه (الـدليل الكبـير في الـرد على الزنادقـة والملحـدين)، والكتاب من جزئين: جزء يذكر فيه المؤلف أدلة وجود الله وينقد أدلة المعارضين ثم يبين صحة الإسلام ويتكلم في بعض مسائل العقيدة، والجزء الثـاني عبـارة عن منـاظرة دارت بينـه وبين ملحـد كـان يـدور في البلاد يثـير الشـبهات حـتى تلقفـه الرسـى ودارت بينهمـا مناظرة.

وقـد جـاء في مقدمـة الكتـاب: (هـو كتـاب رد فيـه على رجـل من أربـاب النظـر من الملحدة، وكان يغشى مجامع المسلمين ويـورد عليهم الأسـئلة الصـعبة، في قـدم العـالم وغير ذلك، حتى وافاه المؤلف وأجابه على ما عنده من المشكلات فوضح له الحق وتـاب إلى الله)

ونحب أن ننبه هنا إلى أن ما نذكره من هذه المناظرة هو جزء بسيط فقط منهـا، وقـد أضفنا إليه ما يقتضيه المقام من الأدلة العقلية التي ذكرها المتكلمون.

وأما الثاني، فكـان رجلا لا يختلـف كثـيرا في مظهـره وطريقـة تفكـيره عن (ديمـوقريطس).. وكـان النـاس يطلقـون عليـه لقب (أبيقور)(1)..ولست أدري هل كـان ذلـك هـو لقبـه الحقيقي أم أنـه استعاره من أبيقور التـاريخي.. ولكنـه ــ مهمـا كـان ــ يتبـنى نفس الأفكار التي يتبناها أبيقور التاريخي(2).

سأقص عليكم كيف بدأت المناظرة وإلى ما انتهت..

لقـد كنت أسـير في ذلـك الشـارع، فـرأيت رجلا يسـرع إلى الرسي، ليخبره أن بعض الملحدين تسلل إلى (الله أباد)، وأنه أخـذ ينشـر الإلحـاد بين العامـة والـدهماء.. وأنـه كـان إذا قابلـه العلمـاء والفقهاء أورد عليهم من المسائل ما يعجزهم.

فأسرع القاسم، ومعه الرجل، وأسرعت خلفهمـا، ولم نسـر إلا قليلا حتى رأينا (أبيقور)، فقال لـه القاسـم بعـد أن هش لـه وبش،

---

1) أشير به إلى أبيقور (342 ق.م. - 270 ق.م.)، وهو فيلسوف إغريقي كان لأفكاره حول اللذة، والحرية، والصداقة، تأثير كبير على العالم الروماني ــ اليونـاني.. وكـان يـرى بأن هناك مصدرين يسببان القلق للعقـل البشـري همـا الخـوف من الآلهـة، والخـوف من الموت.. وقد اعتقد أن هـذه المخـاوف مبنيـة على معتقـدات خاطئـة، وأنـه يمكن التغلب عليها، وأعلن أن الآلهة موجودة ولكنها يجب ألاّ تشكل مصدر خوف، لأنها توجـد بعيـدًا عن البشر ولا تُعنى بأمورهم لأن هذا يتعارض مع سعادتها.

وذكر أبيقور أن الموت يجب ألاّ يُخشى، لأن الخير والشر يكمنان في الشعور، والموت بزعمه يُنهي الشعور، وإذا تحـرر الشـخص من هـذه المخـاوف، فبإمكانـه أن يعيش حيـاة سعيدة بالسعي لملذات معتدلة وتجنُّب الألم، وإن أفضل طريقة للحصول على اللـذة هي العيش بتعقل واعتدال وشجاعة وعدل وزرع بذور الصداقة.

وُلِدَ في جزيرة ساموس، وأدار مدرسة للفلسفة في أثينـا منـذ عـام 306 قبـل الميلاد وحتى وفاته.. وكان كاتبًا غزير الإنتاج، ترك ثلاث رسـائل تلخص تعاليمـه، ويمكن الوقـوف على أفكـاره وفلسـفته في مصـادر عديـدة منهـا قصـيدة طويلـة للشـاعر الرومـاني لوكريشيس عنوانها: في طبيعة الأشياء.. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

2) أسـس المـذهب الأبيقـوري ترجـع إلى المـذهب الـذري الـذي قـال بـه (ديمـوقريطس)من قبـل ، لكن (أبيقـور) أضـاف فكـرة الميـل في التحـرّك الآلي في الذرات ، ليحصل التصادم بينها ، فتتكوّن الظاهرات الكونية.

وللأبيقوريين أقوال يهاجمون فيها الدين الوثني المعدد للآلهة ، والذي كان منتشـراً بين اليونـانيين وغـيرهم ، في تلـك العصـور.. فمن أقـوال (لوكرتيـوس) أحـد الأبيقـوريين:(إن الدين شرٌّ ما بعده شـرّ ، وإن الـواجب على الإنسـان ومهمـة الفلسـفة الأولى أن تتخلص نهائياً من كل دين ، لأن الدين هو ينبوع كل شر)

وربما لم يكن في عهدهم ذلـك صـورة صـحيحة عن دين ربـاني صـحيح ، وإنمـا لـديهم أديان وثنية خرافية ، لذلك شجبُوا الدين الذي رأوا نماذجه في عصورهم.

ولذلك نجد في تعبيرات الأبيقوريين: إن الذي يؤمن بالدين الشعبي المألوف ومعتقداته يرتكب خطيئة دينية في الواقع ، بينما الذي لا يؤمن بها هو الذي يسلك سبيل الصواب.

وهجومهم على هذا النوع من الأديان لا شأن لنا به ، وقد يكون لهم في ذلك عذر ، لما عليه هذه الأديان من خرافات وأضاليل وأكاذيب.

ونشـير هنـا إلى أن هـذه المنـاظرة الـتي ذكرناهـا ليسـت متوجهـة للأبيقـوريين على الخصوص.. لأن الرد عليهم ذكرناه في المناظرة السـابقة.. وإنمـا ذكرنـاهم هنـا ليتعـرف القارئ على المواقف المختلفة من (الله)، فهذا من أغراض هذه الرسالة.

وعامله بما طلبه الإسلام من أهله من الأدب: بلغنى أنك تعرضت لنا وسألت أهل نحلتنا عن مسائلك، تريد أن تصيد أغمارهم بحبائلك.

قال أبيقور: أما إذ عبت أولئك وعيرتهم بالجهل، فإنى سائلك وممتحنك.. فإن أنت أجبت وإلا فأنت مثلهم.

قال القاسم: قل ما بدا لك، فسأحسن الاستماع، وعليك بالنصفة، وإياك والظلم ومكابرة العيان، ودفع الضرورات والمعقولات.. أجبك عنه، وبالله استعين وعليه أتوكل وهو حسبى وكفى ونعم الوكيل.

قال أبيقور: خبرنى ما الدلالة على أن الله هو الصانع؟

قال القاسم: الدلالة على ذلك قوله فى كتابه عز وجل:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7)﴾ (الحج)

ضحك أبيقور بصوت عال، وقال: أراك لا تعرف الدور.. ثم تجلس هذا المجلس.

قال القاسم: فكيف تريد أن تبرهن لي على وجود إله من خلال ما تدعي أنها كلماته.. برهن لي أولا على وجوده، ثم برهن لي على أنه متكلم، ثم برهن لي على أن ما قرأته هو كلماته.. ودون كل ذلك خرط القتاد.

قال القاسم: أنا لم أذكر تلك الآيات كبرهان إلا من خلال المعنى الذي تحمله.. فأنا أعلم أن من لم يؤمن بوجود الله يستحيل أن يؤمن بكلام الله.

قال أبيقور: أنت تعلم أني من نسل الفلاسفة.. والفلاسفة قد تواطأوا فيما بينهم على مصطلحات خاصة، وعلى أساليب منتظمة في البرهان.. فاركب مطيتها وخاطبني.. فلا يحسن أن تخاطب الأمراء بلغة السوقة والدهماء.

قال القاسم: لك ذلك.. وسأذكر لك خمسة براهين على

الشرط الذي ذكرت(1).

قال أبيقور: لا بأس بهذا.. فاذكر لي **البرهان الأول**.

قال الرسي: البرهان الأول هو برهان النظم والتدبير.. فالإنسان نراه بأحسن كيفية، والحيوان نراه بالمواهب الفطرية، والنباتات والأشجار والأزهار والأعشاب نراها ذات المناظر البهيّة والخصائص النفعية، وكذلك غيرها من الموجودات الأخرى التي لا تعدّ ولا تحصى فيما بين السماء إلى أطباق الثرى.

نرى أجزاءها وجزئيّاتها مخلوقة بأحسن نظم، وأتقن تدبير، وأحسن صنع، وأبدع تصوير.

ومن المعلوم بالبداهية لكلّ كبير وصغير، ولكلّ ذي عقل وإحساس أنّ الإهمال لا يأتي بالصواب، والخطأ لا يأتي بدقيق الحساب، والإتّفاق لا يأتي بهذا العجب العُجاب.

فيحكم العقل بالصراحة، ويذعن الوجدان بالبداهة أنّه لابدّ لهذا التدبير من مدبّر، ولهذا التنظيم من منظِّم، ولهذا السير الحكيم من محكِّم.

ويدرك جميع أولي الألباب أنّه لابدّ لهذا النظام الدقيق من خالق حكيم، ولابدّ لهذا التدبير العميق من مدبّر عليم خَلَقها وقدّرها وأدام بقاءها، وأحسن خلقها وتدبيرها، وهو الله تعالى شأنه وجلّت قدرته.

فوجود الخالق ممّا يدرك بالبداهة ويُحسّ بكلّ يقين.

قال أبيقور: فما **البرهان الثاني**؟

قال الرسي: البرهان الثاني هو برهان امتناع الصِّدفة.. فإنّا إذا لم نؤمن بوجود الخالق لهذا الكون العظيم بما فيه من الخليقة المنتظمة، فلابدّ وأن نقول بأنّ الصِّدفة هي التي أوجدتها أو أنّ الطبيعة هي التي خلقتها..

بأن تكون هذه المجموعات الكبيرة الدقيقة الضخمة، في هذا العالم الكبير وجدت بنحو الصِّدفة وتحقّقت بنحو المصادفة.

قال أبيقور: فما المانع من هذا؟

قال الرسي: من الواضح أنّه لا يقبل حتّى عقل الصبيان أن تكون هذه المخلوقات اللامتناهية وُجِدَت بنفسها بالصدفة العمياء، أو بالطبيعة الصمّاء..

بل حتّى عقل المادّيين والطبيعيّين ـ كما تلاحظه في حياتهم ـ لا يقبل الصدفة.. لذلك تراهم يبحثون عن سبب جريمة صغيرة

---

1) استفدنا المادة العلمية الواردة في هذه المناظرة من كتاب (العقائد الحقة - دراسة علمية جامعة في أصول الدين الاسلامي على ضوء الكتاب والسنّة والعقل-) للسيد على الحسيني الصدر.

وقعت في بلادهم، وفوجئوا بها في دولتهم، ويتفحّصـون عن علّتهـا، ولا يقبلون الصدفة فيها.

وترى طبيبهم الملحد ــ مثلا ــ يصـرف مـدّة مديـدة، وسـاعات عديدة من عمره في سبيل معرفة سـبب وجـود عُـدّة صـغيرة في جسـم إنسـان مـريض تصـدّى لمعالجتـه، ولا يقبـل أن يـؤمن بأنّهـا وجدت بنحو الصدفة والإتّفاق، أو أوجدتها طبيعة الآفاق..

فكيف بهذه البدائع العظيمة في هذا العـالم العظيم، هـل يمكن قبول أنّها وجدت بالإتّفاق والصدفة!؟

والصدفة إن أمكنتها خلق شيء فلابـدّ وأن تكـون موجـودة هي بنفسها.. فنسأل من هو مُوجِدها؟ وإن لم تكن موجودة فيقـال: إنّ المعدوم لا يمكنه إيجاد شيء.. على أنّ الصدفة العمياء شاردة غير منتظـرة، لا تخضـع لأي حسـاب وقـانون، بـل تخـالف الحسـابات العلمية، فكيف يمكنهـا أن توجِـد هـذه الخلائـق الكونيّـة الـتي تُبهـر العقول وتُدهش العقلاء؟

وكيف يمكنها أن توجِد المادّة الأولى لهذا العـالم كمـا يزعمـون حتّى يكون العالم ماديّاً؟

وكيف يمكنها أن توجِد تكاملها وعلّية موجوداتها فيما بينها ـ كمـا يـدّعون ــ حتّى يكـون العـالم صـدفياً؟ والحـال أنّ الصـدفة عميـاء صمّاء، وليس لها حظٌّ من العطاء.

ولنبرهن على هذا الأمر بـدليل عقلي علمي وجـداني، ونفـرض أنّ كتاباً صغيراً مرتّباً على مئة صـفحة قـد فُـرّقت أوراقـه وخُلطت أعداده، ثمّ أعطيت بيد شـخص أعمى حتّى يُرتّبهـا وينظّم صـفحاتها بواسطة سحب تلك الأوراق مسلسلة إحداها بعد الأخرى..

ترى ما هي نسبة إحتمال الموفّقيـة بـأن يكـون السـحب الأوّل مصيباً للورق الأوّل؟ الجواب: 1%.

ثمّ ما هي نسبة إحتمال أن يكون السـحب الثـاني مصـيباً أيضـاً للورق الثاني؟

الجـواب: 100001 وذلـك بعمليّـة (100001 =ـ 1001 × 1001).

ثمّ ما هي نسبة أن يكون السـحب الثـالث أيضـاً مصـيباً للـورق الثالث؟

الجواب: 10000001 وذلك بعمليّـة (10000001 =ـ 1001 × 1001 × 1001).

وهكذا.. وهلمّ جرّاً إلى موفّقيـة تنظيم إصـابة السـحب المئـوي

للـورق المئـة بنتيجـة عـدد تفـوق المليـارات ويسـتغرق حسـابها الساعات.

هـذه نسـبة الصـدفة في كتـاب صـغير فكيـف بنسـبة موفّقيـة الصدفة بالنسبة إلى هذا العالم الكبير؟

وهـل يقبـل العقـل أو يصـدّق الوجـدان صـدفيّة هـذا النظـام السماوي والأرضي المنتسق بهذا التنسيق البهيج؟

وهل يمكن قبول كون أساس العالم ومادّته المتكاملة موجـودة بالصدفة كما يدّعون؟ كلاّ ثمّ ألف كلاّ!!

والحساب المنطقي الواضح هو أنّه إذا لم تصدق الصدفة صَدَقَ ضدّه وهو الخَلق والتقدير لأنّهما ضدّان لا ثالث لهما، لا يجتمعان ولا يرتفعـان.. ومن المسـلّم أنّ كـذب أحـدهما يسـتلزم صـدق الآخـر، فعدم إمكان الصدفة يستلزم صدق التقدير.

فتكون الخليقة موجـودة بخلـق وتقـدير، وهـو يـدلّ على وجـود المقدّر الخبير، وهو الله (جلّ جلاله)

قال أبيقور: فما **البرهان الثالث**؟

قال الرسي: البرهان الثالث هو برهان الاستقصاء.. فإنّ كُلاًّ منّا إذا راجع نفسه وتأمّل شخصه يشعر بوضوح، ويدرك ببداهة أنّـه لم يكن موجوداً أزليّاً بل كـان وجـوده مسـبوقاً بالعـدم، وقـد وُجـد في زمان خاصّ في عام معيّن وشهر معيّن ويوم معيّن.

فلنتساءل ونتفحّص ونبحث هل أنّا خَلَقْنـا أنفسـنا؟ وهـل خَلَقنـا أحـدٌ مثلنـا من الممكنـات كآبائنـا أو أُمّهاتنـا؟ أو هـل خَلَقَنـا القـادر الفاطر الواجب وهو الله (جلّ جلاله)؟

أمّا جواب الأوّل: فلا شكّ أنّنا لم نخلق أنفسنا حيث إنّـه لم نكن موجودين في الزمان المتقدّم علينا، فكيف أعطينا الوجود لأنفسنا، وفاقد الشيء لا يعطيه..

ولو تمكّنا من إعطاء الوجـود لأنفسـنا، لأبقينـا لهـا الوجـود ضـدّ الموت، ولا شكّ في عدم قدرتنا على ذلك، بل عدم قدرة الأقويـاء منّا ومن كان قبلنا على ذلك.

وأمّا جواب الثاني: فلا شـكّ أيضـاً أنّ آباءنـا لم يخلقونـا، بـدليل أنّهم لم يعرفـوا أعضـاءنا وأجزاءنـا ومطويـات أبـداننا ومضـمرات أجسامنا، فكيف بخلقة حقيقتنا، ومعلوم أنّ الخالق يلزم أن يعـرف ما خلقه، والصانع يعرف ما صنعه.

مع أنّ آباءنا بأنفسهم يموتون ولا يمكنهم إعطاء أو إبقاء الوجود لأنفسهم فكيف يعطونه لأبنائهم؟

لا يبقى بعد التفحّص والإستقصاء إلاّ الشقّ الثالث، وهو أنّ اللـه هو الذي خَلَقَنا، وهو الذي خلـق كـلّ شـيء، وهـو القـادر على كـلّ شيء الوجود والإفناء، والموت والبقاء، وهو الخبـير بمخلوقـه بكـلّ محتواه، والعالم بأولاه وعُقباه.

وبهذا الإستقصاء التامّ تحكم الأفهام، بوجود الخالق العلاّم.

قال أبيقور: فما **البرهان الرابع**؟

قال الرسي: البرهان الرابع هو برهان الحركة.. فإنّا نرى العالم الكبير بجميع ما فيه متحرّكاً، ويـراه الجميـع من الإلهيّين والمـادّيين في تغيّر، والكلّ يعرفه بحركة وعـدم سـكون، ومعلـوم أنّ الحركـة تحتاج إلى محرّك، وبديهي أنّ الأثر لابـدّ لـه من مـؤثّر، لأنّ الحركـة قوّة والقوّة لا توجد بغير علّة.

إذن فلابدّ لهذه الحياة المتحرّكـة في جميـع نواحيهـا من أعلاهـا إلى أســفلها، بكواكبهــا وأراضــيها وشمســها وقمرهــا، وأفلاكهــا ومجرّاتهـا.. لابـدّ لهـا ممّن يحرّكهـا ويـديم حركتهـا، وحتّى أجـزاء العناصر الساذجة ثبت في علم الفيزيـاء أنّهـا تـدور وتتحـرّك حـول مركزها بدوام.

ومن المعلوم أنّ القوّة والحركة لا توجد إلاّ بدافع ومحرِّك، وهذا أمـر بـديهي يدركـه كـلّ ذي لبّ وشـعور، ويعـرف أنّـه لابـدّ لهـذه الحركات العظيمة والتحوّلات الدائمة من محرّك حكيم قدير.

فمن تـرى يمكن أن يكـون مصـدر هـذه القـوّة وفاعـل هـذه الحركة؟

هل المخلوقات التي نراها يعرضها الضعف وتحتاج بنفسـها إلى المساندة!؟

وهل يناسب أن يكون المحرّك غير الله القوي الخبير؟

ولقد سُئِلَتْ امرأة بدويّة كانت تغزل الصوف بمغزل صـغير عن دليلها على وجود الله تعـالى، فأمسـكت عن تحريـك المغـزل حتّى توقّف فقالت: دليلي هو هذا التوقف..

قالوا: وكيف ذلك؟

فأجابت: إذا كان مغزل صغير لا يتحرّك إلاّ بوجود محـرِّك، فهـل يمكن أن يتحرّك هذا الفلك الدوّار الكبير بلا محرّك له؟

وقد جاءت الحكمة في هذا المجال: إنّ البعرة تدلّ على البعير، وأثر الأقدام يدلّ على المسـير، فهـذه السـماء ذات أبـراج والأرض ذات حركة وارتجاج.. ألا تدلاّن على وجود الخبير البصير!؟

قال أبيقور: فما **البرهان الخامس**؟

قـال الرسـي: البرهـان الخـامس هـو برهـان القاهريّـة.. فـإنّ الطبيعة تنمو عادةً نحو البقاء لولا إرادة من يفرض عليها الفناء.

فالإنسان الذي يعيش، والأشجار التي تنمو، والأحجـار الـتي هي مســتقرّة في الأرض، لا داعي إلى أن يعــرض عليهــا المــوت أو الزوال أو الإنهدام إلاّ بعلّة فاعلة قاهرة.

فكما أنّ تبدّل اللاشيء إلى الشيء يحتاج إلى علّة، كذلك تبـدّل الشيء إلى اللاشيء لا يمكن إلاّ بعلّة.

فإنّا نرى هذا العـالم قـد أحكمت جميـع جوانبـه بحيث ينبغي أن تسير سيراً دائماً بلا زوال، لكن مع ذلك نراها في زوال دائم ونقص راغم، وزوالها دليل على وجود مزيل لها.

فترى من هو علّة الإماتـة والـزوال؟ ومن اللائـق أن يكـون هـو القاهر في جميع الأحوال؟

هل الإنسان بنفسه ـ وهو الذي يرغب أن يعيش دائماً ولا يموت أبداً ـ علّة لموت نفسه؟

أم هناك شيء من الممكنات ـ التي هي مقهورة زائلة بنفسها ـ تتمكّن من القاهرية المطلقة؟

أم أنّ القاهر لجميع المخلوقات هـو القـادر على خلقهـا فيقـدر على فنائها؟

أليس هذا دليلا على أنّ هناك من يُميت ويقدر على الإماتة، كما هو قادر على الإحياء؟

فنفس المـوت دالّ على وجـود المميت، كمـا كـان الإحيـاء دالاًّ على وجود المحيى.

فمن هذا الذي يميته غير الذي يحييه؟ ومن هو قادر على الإبقاء والإفناء؟ ليس هو إلاّ الله الذي بيده الموت والحيـاة.. والقـادر على الإبقـاء والإفنـاء، الخـالق لجميـع المخلوقـات جـلّ شـأنه وعظمت قدرته.

ما إن انتهى الرسي من قوله هـذا حـتى طأطـأ أبيقـور رأسـه، وقـال: بـورك فيـك.. لقـد أجبت ببراهينـك هـذه على كـل شـبهة، وفندت ما كان يعشش في رأسي من وساوس الشياطين، واسمح لي أن أصحبك لأتعرف على هذا الإلـه العظيم الـذي كنت محجوبـا عنه.

كبر جميع الحاضرين.. وكبرت معهم من غير شعور.. ثم سـرت إلى شارع آخر.. لأسمع مناظرة أخرى.

المناظرة الثالثة:

قال الجمع: فحدثنا عنها.. حدثنا عن المناظرة الثالثة.

قال: في شارع من شوارع تلك المدينة رأيت قوما من الناس يلتفون حول رجلين.. أما الأول، فكان اسمه (الخوارزمي)(1)..

وأما الثاني، فكان اسمه (توماس هوبز)(2)

قال هوبز، وهو ينظر للخوارزمي: نعم أنا مقتنع تماما بكل ما ذكرت.. لكني أسأل (من خلق الله؟.. وأين الله؟)

ابتسم الخوارزمي، وقال: أنت تتكلم عن الله، وكأنك تتكلم عن جسم مثلك.. أو كأنك تتكلم عن جهاز أو كائن أو جبل أو كوكب.. لو كنت تتكلم عن هؤلاء كان لك الحق في أن تسأل هذا السؤال.

إن هذا السؤال ينبع من افتراض عقلاني صحيح بالنسبة لبيئتنا المحيطة بنا، وهو أنه لا يمكن أن يوجد شيء نراه في محيطنا أو في هذه الدنيا بدون أن يكون له موجد أو صانع.

ولكن السؤال نفسه ليس صحيحاً بالنسبة لله، لأنه ليس شيئاً من الأشياء، بل هو موجد الأشياء، ولا يمكنك استخدام مسطرة عقلك لقياس أو تخيل الوجود الإلهي، فهو لا يشبهك في شيء، ولا يشبه شيئاً رأيته، ولا يمكن لعقلك القاصر تصوره.

جرب أن تدرس الرياضيات المتقدمة التي وضعها البشر لتعلم كم هي مدهشة تلك الإمكانيات الموجودة في العقل البشري، ولتعلم أيضاً أن افتراضات هذا العقل تصل أحياناً إلى التناقض وإلى المستحيل واللانهاية، وأن لهذا العقل حدوداً لا يمكنه تجاوزها.

سأضرب لك مثلا بتخصصي.. مثلا بالرياضيات.. هناك شيء في الرياضيات اسمه العامل العقدي، وهو (جذر-1).. وهو شيء افتراضي مستحيل الحدوث منطقياً ورياضياً حسب ما يقوله عقل البشر.

لأنك إذا قمت بعملية حسابية: -1*-1=1

---

1) أشير به إلى أبي جعفر محمد بن موسى الخَوارزْمي (776 -ـ 847م)، رياضي فلكي مؤرخ من أهل خوارزم، عاصر الخليفة المأمون العباسي الذي أدرك فضله وأولاه رعاية عظيمة، وهو مؤسس علم الجبر وقد لقّب بأبي الجبر.. وقد اخترناه هنا باعتباره من المتكلمين للدلالة على أن العقل الإسلامي لم يتأثر بالنظريات الإلحادية التي راجت بين النخبة المثقفة في الملل الأخرى.. ولبيان أن نصرة الدين كانت من الكل علماء دين كانوا أم علماء دنيا، إن صح هذا التفريق.

2) أشير به إلى (توماس هوبز) (1588 ـ 1679م)، وهو فيلسوف إنجليزي، وأشهر كتاب له بعنوان (لفياثان) أو (شكل المادة)، و(سلطة الكومنولث الكنسيّة والمدنية) (1651م)، تأثر هوبز بتطورين حدثا في زمانه، أولهما النظام الجديد لعلم الطبيعة الذي كان جَالِيلِيُو وآخرون يحاولون التوصل إليه. وقد استنتج من أفكارهم أن المادة وحدها هي الموجودة، وأن أي شيء يحدث يمكن التنبؤ به وفقًا لقوانين علمية دقيقة، واعتقد الكثيرون في زمانه أن نظرته أنكرت وجود الله، والروح الإنسانية الحرة الخالدة، ولكنه نفى ذلك.

ولكن هل يوجد شيء في واقع الدنيا اسمه جذر -1؟
قال هوبز: لا.. لا يمكن أن يكون مثل هذا الجذر.
قال الخوارزمي: ولكنه مع ذلك موجود.. فعلم التحريك وعلـوم الفيزيــاء والهندســة تعتمــد عليــه، ولا يمكن لعلمــاء الصــواريخ والمركبـات وعلمـاء الفيزيـاء الذريـة أن يحلـوا كثـيرا من معـادلات التحريك بدون افتراض وجـود هـذا العامـل، وافـتراض أننـا لا نفهم كيف هو لا يخرجه عن كونه موجودا.
وكذلك الله.. فنحن نعلم أنه موجود، ونعلم بعض صـفاته فقـط عن طريق ما وصـلنا من رسـله وأنبيـاءه.. ولكنـا لا نعلم أي شـيء عنـه عن طريـق مسـطرة ومـيزان العقـل البشـري والاكتشـافات البشرية.. لا يمكننا ذلك أبدا.
تخيـل لـو أن الكمـبيوتر الـذي تعمـل عليـه أو أي جهـاز صـنعه الإنسان كان له عقل ليفكر ويقارن الإنسان مع ذاته..
ماذا سيقارن؟.. وكيف سيقارن؟
هـل يمكنـه أن يعلم عن الإنسـان شـيئاً غـير المعلومـات الـتي أدخلها إليه المبرمج؟
وإذا كانت له إرادة مستقلة كتلك التي لدى الإنسان، هل يمكنه إلا أن يتصور أنك مصنوع من معـدن وبلاسـتيك وزجـاج، وأن سـعة ذاكرتك كذا وكذا؟
ربما تبدو هذه المقارنة سـخيفة، ولكن هـذا بالضـبط مـا تفعلـه أنت عندما تقول:(من خلق الله وأين الله؟)
قال هوبز: فلماذا لا نراه؟
ابتسم الخـوارزمي، وقـال: لسـبب بسـيط، وهـو أنـك لا تملـك الأدوات المناسبة لذلك، سواء في جسمك وتكوينـك، أو عقلـك، أو ما يبتكره الإنسان من أدوات القياس الحديثة.
هل تريد أن ترى الله تعالى ببصـرك القاصـر المحـدود الـذي لا يستطيع أن يرى سوى جزء بسيط من مجال الموجات الكهربائيـة، وهي فقط ألوان الطيف المرئي من الضوء؟
أنت لا تستطيع رؤيـة الكثـير الكثـير من الأشـعة الموجـودة في هذه الدنيا فضلاً عن الأشعة الموجـودة في الفضـاء الخـارجي، ولم يكتشف الإنسـان وجـود هـذه المجـالات الإشـعاعية إلا في العصـر الحديث، بأجهزة تطورت مع تقدمـه العلمي، وصـارت قـادرة على القياس لكثير من هـذه المجلات، وأثبتت محدوديـة قـدرات جسـم الإنسان.

بل إن كثيراً من الحشرات مثل النحل والفراشات تملك خاصية إبصار أفضل منك وأسرع بآلاف المرات، وتستطيع أن ترى الأشعة تحت الحمـراء وفـوق البنفسـجية، وأن تحـدد الزهـور المفيـدة المحتوية على الرحيق بناء على هذه القـدرات، وهـذا مـا اكتشـفته أجهزة الإنسان وأبحاثه الحديثة.

لقـد اكتشـفنا ــ من خلال مـا أتاحـه اللـه لنـا من أجهـزة ــ أن معلوماتنا السـابقة وقـدراتنا قليلـة جـداً بالمقارنـة مـع مـا في هـذا الكون من الموجودات حـتى أن بعض البشـر الأكـثر علمـاً وذكـاء ـ وهو مكتشف النظرية النسبية (آينشـتاين) ــ توصـل بعقلـه وعلمـه وفلسفته وتجاربه الفيزيائية أنه لا يمكن أن يوجد شيء أو شعاع أو طاقة بمقدورها أن تتجاوز سـرعة الضـوء - وقـد توصـل إلى ذلـك ليس فقط فيزيائياً وتجريبياً، بل رياضياً وعقلياً - بناء على أقصى ما يستطيع هذا العقل البشري المحـدود تصـوره – وقـال: إن سـرعة الضوء تساوي رقماً معيناً وهو حوالي 300000 كيلومتر في الثانية - وهذا يعـني أن هنـاك حـدوداً لمـا يسـتطيع الإنسـان أن يتخيـل أو يفترض ويقيس بأجهزته ومعداته.

سكت الخوارزمي قليلا، ثم قال: لقد ذكر الله تعالى هذا الدليل بصيغة محكمة قوية مليئة بالمعاني.. لقد عبر عن ذلـك بقولـه:﴿ لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام:103)

انظروا دقة التعبير القرآني.. لقد وضحت العلـوم الحديثـة الآيـة أكثر مما وضحته العلوم القديمة.. فالأبصار تستطيع أن تجري خلف شـيء معين وتلحقـه وتدركـه عن طريـق مـا يسـمى المطابقـة البصرية، وذلك إذا كان يقع ضمن المجال المرئي أو المجـال الـذي يمكن قياسه، وأمـا اللـه تعـالى فلا يمكن للأبصـار ولا حـتى أحـدث أجهزة القياس البشرية أن تدركه.

وفي قولـه:﴿ وَهُـوَ اللَّطِيـفُ الْخَبِـيرُ ﴾ إشـارة إلى أن ذلـك من مقتضيات لطف اللـه بعبـاده، فلـذلك لا يصـدمهم بـأكثر من حـدود طاقاتهم البصرية والعقلية وقدرتها على الاحتمال أو الاستيعاب.

وهو أيضاً الخبير بهذه الطاقات وحدود قدرتها فهو الذي صممها وصنعها وركبها في مخلوقاته.

المناظرة الرابعة:

قال الجمع: حدثتنا عن المناظرة الثالثة.. فحدثنا عن الرابعة.

قال: سرت إلى شارع آخـر فوجـدت شـابا وقـورا كـان الجمـع

يطلق عليه اسم (الغزالي)[1].. ولست أدري هل كان ذلك هو اسمه الذي سماه به أبوه[2]، أم أنه أطلق عليه ذلك لمشابهته أبي حامد الغزالي في استجرار الذين يحاورهم إلى الحق بأنواع الحجج والبراهين بهدوء واتزان وذكاء.

وأما الثاني، فكان شيخا يبدو عليه التأثر بقومنا، فهو يلبس لباسنا، ويرطن بعربية مختلطة بالعجمة.. وقد كان الناس يطلقون عليه اسم (مظْهر) [3].. ولست أدري هل كان ذلك هو اسمه الحقيقي، أم أنه لقب كالألقاب التي تعود قومنا أن يتنابزوا بها.. فإن كان لقبا، فقد صدق من لقبه به، فقد كان كل شيء فيه يدل على اهتمامه الشديد بمظهره، ومراعاته الشديدة له.

لن أطيل عليكم.. سأقص عليكم الحوار كما سمعته حرفا حرفا..

بدأ مظهر الحديث، فقال متوجها للغزالي: إذا كان الله قد خلق العالم فمن خلق الله؟

قال الغزالي: كأنك بهذا السؤال أو بهذا الاعتراض تؤكد أنه لا بد لكل شىء من خالق!!

قال مظهر: لا تلقنى فى متاهات، أجب عن سؤالى.

قال الغزالي: لا لف ولا دوران، إنك ترى أن العالم ليس له خالق، أى أن وجوده من ذاته دون حاجة إلى موجد، فلماذا تقبل القول بأن هذا العالم موجود من ذاته أزلاً وتستغرب من أهل الدين

---

1) أشير به إلى شيخنا الجليل العلامة الشيخ (محمد الغزالي) ، وهو: محمد الغزالي أحمد السقا (1917- 1996م)، وهو أحد دعاة الفكر الإسلامي في العصر الحديث، عرف عنه تجديده في الفكر الإسلامي وكونه من المناهضين للتشدد والغلو في الدين.

وقد ذكر الشيخ محمد الغزالي هذا الحوار الذي اقتبسناه بتصرف هنا في كتابه قذائف الحق، قال في أوله: (دار بينى وبين أحد الملاحدة جدال طويل، ملكت فيه نفسى وأطلت صبري حتى ألقف آخر ما في جعبته من إفك، وأدمغ بالحجة الساطعة ما يوردون من شبهات).. وقد ذكرنا هنا نص الحوار بأنواع التصرفات التي جرينا عليها في هذه السلسلة.

2) سمي الشيخ محمد الغزالي بهذا الاسم رغبة من والده بالتيمن بالإمام الغزالي، فقد رأى في منامه الشيخ الغزالي وأخبره أنه سوف ينجب ولدا، وأمره أن يسميه على اسمه الغزالي.

3) أشير به إلى (إسماعيل مظْهر بنُ مُحمّد بنِ عبدالمجيدِ) (1308-1381 هـ) كان أحدَ دعاةِ الداروينيّةِ في العصرِ الحاضرِ ، ومن دعاةِ الشعوبيّةِ ، أنشأ مجلّةِ العصورِ في مصرَ وذلكَ في سنةِ 1927 م ، وجعلَ من مجلّتِهِ باباً للطعنِ في الدينِ ، ونشرِ الشعوبيّةِ ، وفتحِ بابِ الرّدةِ و الإلحادِ ، كانَ معظّماً لليهودِ ، وداعياً للسيرِ على نهجهم وطريقتهم ، وكانَ يُسمّي نفسهُ: صديقَ دارون ، وألّفَ في الإنتصارِ لنظريّةِ داروين مجموعةً من المؤلفاتِ ، ثمّ اعتنقَ الفكرَ الشيوعيَّ ، وأنشأ حزباً أسماهُ حزبَ الفلاحِ ، جعلهُ منبراً لنشرِ الشيوعيّةِ والاشتراكيّةِ ، ثمّ في آخرِ عمرهِ أعرضَ عن كلِّ ذلكَ ، ورجعَ عن الكثيرِ من آراءهِ ، وألّفَ كتاباً أسماهُ (الإسلامُ لا الشيوعيّة) ، وقد اشرنا إلى تراجعه في هذه المناظرة..

أن يقولوا: إن الله الذى خلق العالم ليس لوجوده أول؟

إنها قضية واحدة، فلماذا تصدق نفسك حين تقررها وتكذب غيرك حين يقررها، وإذا كنت ترى أن إلهاً ليس له خالق خرافة، فعالم ليس له خالق خرافة كذلك، وفق المنطق الذى تسير عليه!!

قال مظهر: إننا نعيش فى هذا العالم ونحس بوجوده، فلا نستطيع أن ننكره!

قال الغزالي: ومن طالبك بإنكار وجود العالم؟ إننا عندما نركب عربة أو باخرة أو طائرة تنطلق بنا فى طريق رهيب، فتساؤلنا ليس فى وجود العربة، وإنما هو: هل تسير وحدها أم يسيرها قائد بصير!!

ومن ثم فإننى أعود إلى سؤالك الأول لأقول لك: إنه مردود عليك، فأنا وأنت معترفان بوجود قائم، لا مجال لإنكاره، تزعم أنه لا أول له بالنسبة إلى المادة، وأرى أنه لا أول لها بالنسبة إلى خالقها.

فإذا أردت أن تسخر من وجود لا أول له، فاسخر من نفسك قبل أن تسخر من المتدينين..

قال مظهر: تعنى أن الافتراض العقلى واحد بالنسبة إلى الفريقين؟

قال الغزالي: إننى أسترسل معك لأكشف الفراغ والادعاء الذين يعتمد عليهما الإلحاد وحسب، أما الافتراض العقلى فليس سواء بين المؤمنين والكافرين..

إننى ـ أنا وأنت ـ ننظر إلى قصر قائم، فأرى بعد نظرة خبيرة أن مهندساً أقامه، وترى أنت أن خشبة وحديدة وحجرة وطلاءة قد انتظمت فى مواضعها وتهيأت لساكنيها من تلقاء أنفسها..

الفارق بين نظرتينا إلى الأمور أننى وجدت قمراً صناعياً يدور فى الفضاء، فقلت أنت: (انطلق وحده دونما إشراف أو توجيه)، وقلت أنا: بل أطلقه عقل مشرف مدبر..

إن الافتراض العقلى ليس سواء، إنه بالنسبة إلىّ الحق الذى لا محيص عنه، وبالنسبة إليك الباطل الذى لا شك فيه، وإن كل كفار عصرنا مهرة فى شتمنا نحن المؤمنين ورمينا بكل نقيصة فى الوقت الذى يصفون أنفسهم فيه بالذكاء والتقدم والعبقرية..

إننا نعيش فوق أرض مفروشة، وتحت سماء مبنية، ونملك عقلاً نستطيع به البحث والحكم، وبهذا العقل ننظر ونستنتج ونناقش

ونعتقد.

إننا نلحظ إبداع الخالق فى الزروع والزهور والثمار، وكيف ينفلق الحمأ المسنون عن ألوان زاهية أو شاحبة توزعت على أوراق وأكمام حافلة بالروح والريحان، ثم كيف يحصد ذلك كله ليكون أكسية وأغذية للناس والحيوان، ثم كيف يعود الحطام والقمام مرة أخرى زرعاً جديد الجمال والمذاق تهتز به الحقول والحدائق، من صنع ذلك كله؟

قال مظهر، وكأنه سكران يهذى: الأرض صنعت ذلك!!

قال الغزالي: الأرض أمرت السماء أن تهمى، والشمس أن تشع، وورق الشجر أن يختزن الكربون ويطرد الأوكسجين والحبوب أن تمتلئ بالدهن والسكر والعطر والنشا؟

قال مظهر: أقصد الطبيعة كلها فى الأرض والسماء!

قال الغزالي: إن طبق الأرز فى غذائك أو عشائك تعاونت الأرض والسماء وما بينهما على صنع كل حبة فيه، فما دور كل عنصر فى هذا الخلق؟ ومن المسئول عن جعل التفاح حلواً والفلفل حريفاً أهو تراب الأرض أم ماء السماء؟

قال مظهر: لا أعرف.. ولا قيمة لهذه المعرفة!!

قال الغزالي: ألا تعرف أن ذلك يحتاج إلى عقل مدبر ومشيئة تصنف؟ فأين ترى العقل الذى أنشأ والإرادة التى نوعت فى أكوام السباخ أو فى حزم الأشعة؟

قال مظهر: إن العالم وجد وتطور على سنة النشوء والارتقاء، ولا نعرف الأصل ولا التفاصيل!

قال الغزالي: أشرح لكم ما تقولون! تقولون: إنه كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان مجموعة من العناصر العمياء، تضطرب فى أجواز الفضاء، ثم مع طول المدة وكثرة التلاقى سنحت فرصة فريدة لن تتكرر أبد الدهر، فنشأت الخلية الحية فى شكلها البدائى، ثم شرعت تتكاثر وتنمو حتى بلغت ما نرى.. هذا هو الجهل الذى أسميتموه علماً، ولم تستحوا من مكابرة الدنيا به.

أعمال حسابية معقدة تقولون: إنها حلت تلقائياً، وكائنات دقيقة وجليلة تزعمون أنها ظفرت بالحياة فى فرصة سنحت ولن تعود.. وذلك كله فراراً من الإيمان بالله الكبير المتعال.

قال مظهر، وهو ساخط: أفلو كان هناك إله كما تقول كانت الدنيا تحفل بهذه المآسى والآلام، ونرى ثراء يمرح فيه الأغبياء وضيقاً يحتبس فيه الأذكياء، وأطفالاً يمرضون ويموتون، ومشوهين

يحيون منغصين..
قال الغـزالي: لقـد صـدق فيكم ظـنى، إن إلحـادكم يرجـع إلى مشكلات نفسية واجتماعية أكثر مما يعود إلى قضايا عقلية مهمة!
ويوجد منذ عهد بعيد من يؤمنون ويكفرون وفق ما يصـيبهم من عسر ويسر:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَـابَهُ خَيْـرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَـةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِـهِ خَسِـرَ الـدُّنْيَا وَالْآخِـرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (الحج:11)
قال مظهر: لسنا أنانيين كما تصف، نغضـب لأنفسـنا أو نرضـى لأنفسنا، إننا نستعرض أحوال البشـر كافـة ثم نصـدر حكمنـا الـذى ترفضه..
قال الغزالي: آفتكم أنكم لا تعرفون طبيعـة هـذه الحيـاة الـدنيا ووظيفة البشر فيها، إنها معبر مؤقت إلى مستقر دائم، ولكى يجوز الإنسان هذا المعبر إلى إحـدى خاتمتيـه لا بـد أن يبتلى بمـا يصـقل معدنـه ويهـذب طباعـه، وهـذا الابتلاء فنـون شـتى، وعنـدما ينجح المؤمنـون فى التغلب على العقبـات الـتى ملأت طـريقهم وتبقى صلتهم بالله واضحة مهما ترادفت البأساء والضراء فـإنهم يعـودون إلى الله بعـد تلـك الرحلـة الشـاقة ليقـول لهم:﴿ يَـا عِبَـادِ لا خَـوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (الزخرف:68)
قال مظهر: وما ضرورة هذا الابتلاء؟
قـال الغــزالي: إن المــرء يسـهر الليـالى فى تحصـيل العلم، ويتصبب جبينه عرقاً ليحصل على الراحة، وما يسند منصب كبير إلا لمن تمرس بالتجارب وتعرض للمتاعب، فإن كان ذلك هو القـانون السـائد فى الحيـاة القصـيرة الـتى نحياهـا على ظهـر الأرض فـأى غرابة أن يكون ذلك هو الجهاد الصحيح للخلود المرتقب؟
قال مظهر ـ مستهزئاً ـ: أهـذه فلسـفتكم فى تسـويغ المآسـى التى تخالط حياة الخلق وتصبير الجماهير عليها؟
قال الغزالي: سأعلمك ـ بتفصيل أوضح ـ حقيقة مـا تشـكو من شرور، إن هذه الآلام قسمان: قسم من قدر الله فى هذه الدنيا، لا تقوم الحياة إلا به، ولا تنضج رسالة الإنسان إلا فى حره.
وهذا التفسير لطبيعة الحياة العامة ينضم إليه أن الله جل شأنه يختبر كل امرئ بما يناسب جبلته، ويـوائم نفسـه وبيئتـه، ومـا أبعـد الفروق بين إنسان وإنسان، وقد يصرخ إنسان بما لا يكترث به آخر ولله فى خلقه شئون، والمهم أن أحـداث الحيـاة الخاصـة والعامـة محكومة بإطار شامل من العدالة الإلهية التى لا ريب فيها.

تلـك هى النظـرة الصـحيحة إلى المتـاعب غـير الإراديـة الـتى يتعرض لها الخلق.

أمـا القسـم الثـانى من الشـرور الـتى تشـكو منهـا يـا صـاحبى فمحوره خطؤك أنت وأشباهك من المنحرفين.

قال مظهر مستنكراً: أنا وأشباهى لا علاقة لنا بما يسود العــالم من فوضى؟ فكيف تتهمنا؟

قال الغزالي: بل أنتم مسئولون، فإن الله وضـع للعـالم نظامـاً جيداً يكفل له سعادته، ويجعل قويه عوناً لضعيفه وغنيه براً بفقيره، وحذر من اتباع الأهواء واقتراف المظالم واعتداء الحدود.

ووعد على ذلك خير الدنيا والآخرة:﴿ مَنْ عَمِلَ صَـالِحاً مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْـرَهُمْ بِأَحْسَـنِ مَـا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل:97)

فإذا جاء الناس فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وتعاونوا على العـدوان بـدل أن يتعـاونوا على التقـوى فكيـف يشـكون ربهم إذا حصدوا المر من آثامهم؟

إن أغلب ما أحـدق بالعـالم من شـرور يرجـع إلى شـروده عن الصراط المستقيم، وفي هذا يقول الله جـل شـأنه:﴿ وَمَـا أَصَـابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) (الشورى:30)

قال مظهر: ماذا تعنى؟

قال الغـزالي: أعـنى أن شـرائع اللـه كافيـة لإراحـة الجمـاهير، ولكنكم بدل أن تلوموا من عطلها تجـرأتم على اللـه واتهمتم دينـه وفعله!

ومن خسـة بعض النـاس أن يلعن السـماء إذا فسـدت الأرض، وبدلاً من أن يقوم بواجبه فى تغيـير الفوضـى وإقامـة الحـق يـثرثر بكلام طويل عن الدين ورب الدين..!!

إنكم معشر الماديين مرضـى تحتـاج ضـمائركم وأفكـاركم إلى علاج بعد علاج..

قال الغزالي ذلك، ثم انصـرف والغضـب بـاد على وجهـه، وقـد افترق الجمع بانصرافه.. وقـد تعجبت إذ رأيت دموعـا كثـيرة بـدأت تتجمـع في عين (مظهـر).. وقـد اسـتوحيت من خلال تجربـتي أن كثيرا من أشعة النـور قـد تسـربت إليـه من خلال حـديث الغـزالي معه(1).

---

1) ذكرنا أن إسماعيل مظْهر قد تراجع عن الكثـير من آرائـه.. ونحب أن ننبـه هنـا من جديد إلى أن الحوار الذي ذكره الغزالي كان مع ملحد لم يسمه.

المناظرة الخامسة:

قال الجمع: فحدثنا عن المناظرة الخامسة.

قال: في شارع من شوارع تلك المدينة وجدت شيخا صاحب لحية بيضاء، لكنه خضبها بما زاده وقارا.. كان الناس يطلقون عليه لقب (الزّندَاني).. وكان يحاور بهدوء رجلا من بلادنا كان اسمه (البروفسور روبرت)، وقد كان على حسب ما يبدو صاحب منصب علمي مرموق(1).

سألقي على مسامعكم بعض ما سمعت من حديث..

قال الزنداني: هل لديك استعداد يا بروفسور لأن نتحاور حول الإيمان بالله.

قال روبرت: نعم

قال الزنداني: هل كنت قبل مائة سنة موجوداً؟

قال روبرت: لا.

فقال الزنداني: وهذه النباتات بأغصانها وجذورها وأزهارها هل كانت موجودة قبل آلاف أو مئات السنين؟

قال روبرت: لا.

قال الزنداني: وكذلك الحيوانات، ما كانت موجودة منذ الأزل.

قال روبرت: أجل.

قال الزنداني: إن علم الحفريات في الأرض قد أثبت أنه قد مرت فترة زمنية على الأرض لم يكن فيها نباتات ولا حيوانات بل ولا جبال ولا وديان ولا تربه ولا أنهار ولا بحار.

قال روبرت: نعم.

قال الزنداني: بل قد مر وقت لم يكن للكوكب الأرضي وجود، بل كان جزءاً من مادة السماء، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء:30)

لاحظت وجه روبرت يتغير عندما قرأ الزنداني الآية.. فقال الزنداني: إن الشمس والقمر ونجوم السماء لم يكن لها وجود، وكانت دخاناً كما يقرر ذلك علماء الفلك اليوم، وكما يقرره القرآن من قبل في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (فصلت:11).

قال روبرت: ما ذكرته الآية من وجود أصل دخاني للكون

---

1) كان البروفسور (روبرت) مدير لمعهد للأرصاد تشترك فيه سبع وخمسون جامعة أمريكية.. وقد جرى هذا النقاش ـ على حسب ما يذكر الزنداني ــ عقب المؤتمر الدولي للإعجاز العلمي في إسلام آباد.

صحيح.
قال الزنداني: كما يقـرر علمـاء الكـون اليـوم أن مـادة الكـون الدخانيـة (السـديم) لم تكن موجـودة، ووجـدت بالانفجـار العظيم، وكان الكون قبل ذلك عدماً.
قال روبرت: ما تقوله صحيح.
قال الزنداني: إذن لابد من وجود الخـالق سـبحانه الـذي أوجـد هذه المخلوقات من عدم، وعدد الأدلة على وجود الله الخالق كعدد هذه المخلوقات التي وجدت من العدم.
قال روبرت: نعم، لابد لهذا الكون من خالق.
قال الزنداني: فمن هو؟
قال روبرت: الطبيعة!
قـال الزنـداني: عنـدي قاعـدة أخـرى سـتبين لنـا من الخـالق، وستعرفنا بصفاته.
قال روبرت: وما هي؟
قال الزنداني: أنظر إلى هذا المصباح (وكـان في ذلـك الشـارع مصباح كهربائي (نيون)).
قال روبرت: ماذا أنظر؟
قال الزنداني: هل الذي صنع هذا المصباح لديه زجاج؟
قال روبرت: نعم، وإلا فمن أين جاء هذا الزجاج؟
قال الزنداني: وهذا الصانع لديه قدرة على تشكيل الزجـاج في شكل أسطواني منتظم.
قال روبرت: أجل.
قال الزنداني: وصانع المصباح لديه معدن (الألمـنيوم الـذي في طرفي المصباح).
قال روبرت: نعم.
قـال الزنـداني: وهـو قـادر على تشـكيل الألمـنيوم في شـكل غطاء.
قال روبرت: نعم.
قــال الزنــداني: ألا تــرى إلى الإحكــام بين فتحــة الاســطوانة الزجاجية والغطاء المعدني، ألا يدلك ذلك الإحكـام على أن الصـانع حكيم؟
قال روبرت: بلى.
قال الزنداني: وهذا المصباح يضئ بمرور التيـار الكهربـائي بين قطبيه ألا يدل ذلك على أن صانعه عالم بهذه الخاصية؟

قال روبرت: يمكنك أن تعرف ذلك بالضـغط على زر المصـباح الكهربائي فتحاً وإغلاقاً.

قال الزنداني: إذن تشهد الآن بأن صانع هذا المصباح يتصف بما يلي: لديه زجاج.. قادر على تشكيل الزجاج في شـكل أسـطواني.. لديه إحكام، لأنه أحكم فتحة الغطاء المعدني على فتحة الاسطوانة الزجاجية.. لديه علم بالكهرباء وخاصيتها عند مرورها في المصباح.

قال روبرت: نعم.

قال الزنداني: أتشهد بذلك؟

قال روبرت: أشهد.

قال الزنداني: كيف تشهد بصفات صانع لم تره!؟

أشار روبرت إلى المصباح، وقال: هذا صنعه أمامي يدلني على ذلك.

قال الزنداني: إذن، المصباح أو المصنوع هو كالمرآة يـدل على بعض صفات الذي صنعه، فلا يكون شئ في المصـباح أو المصـنوع إلا وعند الصانع صنعة أو قدرة أو جد بها ذلك الشي الذي نراه.

قال روبرت: أجل.

قال الزنداني: هذه القاعدة الثانية، ففي المخلوقـات آثـار تـدل على بعض صفات خالقها سبحانه، وكما عرفت بعض صفات صـانع المصـباح من التفكـر في المصـباح، فسـوف تعـرف بعض صـفات الخالق جل وعلا بالتفكر في مخلوقاته.

قال روبرت: كيف؟

قال الزنداني: فلننظر في خلقـك أنت، ولنتفكـر فيـك بـدلاً من المصباح، وعندئذ ستعرف بعض صفات خالقك.

فقال روبرت: كيف؟

قال الزنداني: هل درجة حرارة جسم الإنسان ثابتـة أم متغـيرة بحسب الطقس الخارجي؟

قال روبرت: بل ثابتة عند 37 درجة مئوية.

قال الزنداني: إن في الجسم عوامل مثل: إفراز العرق، تقــوم بتخفيض درجة حرارة الجسـم إلى 37 درجـة عنـدما ترتفـع درجـة حـرارة الجـو الـتي قـد تصـل إلى أكـثر من خمسـين درجـة، وفي الجسم أيضاً عوامـل أخـرى، كـإحراق الطعـام في الجسـم، تعمـل على رفع درجة حرارة الجسم إلى 37 درجة عنـد انخفـاض درجـة حرارة الجو في الشتاء والتي قد تصـل إلى درجـاتٍ تحت الصـفر.. فهل الذي أقام هـذا المـيزان المحكم الـدائم في عملـه في سـائر

أجسام البشر التي خلقت وسوف تخلق بحيث تبقى درجة الحرارة ثابتة عند 37° لا تزيد ولا تنقص رغم تقلبات درجات الحرارة في الجو المحيط بنا، هل هو حكيم أم لا؟

أحس روبرت أنه إن سلم باتصاف الخالق بصفة الحكمة فستسقط الطبيعة التي لا حكمة لها، فلذلك قال: لا ليس بحكيم!

قال الزنداني: لقد أعد لك الجهاز الذي يضبط درجة الحرارة في الجسم وأنت جنين في بطن أمك، في رحم مكيفة عند درجة سبعة وثلاثين في وقت لم تكن بحاجة إليه وأنت جنين في بطن أمك، وإنما تحتاج إليه بعد خروجك إلى هذه الأرض التي تتغير فيها درجات الحرارة فتكون عندئذ في أمس الحاجة إلى هذا الجهاز المنظم للحرارة والمثبت لها عند درجة 37° وهي الدرجة المناسبة لكيمياء الحياة في جسم الإنسان. ألا ترى أن من زودك في بطن أمك بما ستحتاج إليه بعد خروجك عليم بالبيئة التي ستخرج إليها وما يلزم لها من تكوينات في خلقك!؟

أحس روبرت أنه إن سلم بأن الخالق يتصف بالعلم فستسقط الطبيعة التي لا علم لها ولا حكمة فعاد مرة ثانية إلى الإنكار والجحود. فقال روبرت: لا، ليس بعليم.

قال الزنداني: سأضرب لك مثالاً آخر.. هل ينمو جسمك باتزان أم بغير اتزان؟

قال روبرت: بل باتزان.. فلو كان بغير اتزان لرأيت عيناً أكبر من عين، ويداً أكبر من يد، ورِجلاً أكبر من رِجل.

قال الزنداني: الذي وضع الميزان في كل خلية في جسمك حكيم أم ليس بحكيم؟

قال روبرت: ليس بحكيم.

قال ذلك فراراً مرة أخرى من أن يعترف بالحكمة، فيُلزم بالاعتراف بالخالق، فقال الزنداني: يا بروفسور! أرأيت ميزان الحركة في جسمك الذي يعمل على تثبيت الجسم وموازنته بحيث لو انزلقتَ إلى الجهة اليسرى يعيدك فوراً إلى الجهة اليمنى بعمل تلقائي محكم، وهكذا لو انزلقت إلى أي جهة أخرى فيعيدك إلى الجهة المقابلة لها، هل الذي خلق لك جهاز التوازن في الحركة وأنت جنين في بطن أمك وجعله يعمل بسرعة البرق حكيم أم ليس بحكيم؟

قال روبرت: ليس بحكيم!

قال الزنداني: سبحان الله!! ألا ترى أنك تكابر بكلامك هذا..

قال روبرت: لا.. لا أكابر.. أنا أقول لك ما أعتقده.

عدد له الزنداني له بعد هذا بعض الموازين المبثوثة في الكـون مثل ثبـات نسـبة الأكسـجين في الهـواء، وتـوازن سـير القمـر مـع الأرض بحيث يسرع عند الاقتراب منها، ويبطئ عنـد الابتعـاد عنهـا، والتوازن بين سرعة سـير النجـوم والكـواكب والجاذبيـة بينهـا وبين غيرها من النجوم والكواكب، ثم قال له: ألا يدل ذلـك كلـه أنـه من صنع الحكيم؟

فقال روبرت: لا.

سكت الزنداني قليلا، ثم قال: يا برفسور.. سأقص عليك شـيئا رأيته بعيني امتلأت منه دهشة.. أرجو أن تفسره لي(1).

قال روبرت: لا بأس.. سأفسره لك في حدود تخصصي.

قال الزنداني: لقد رأيت مـرة زلـزالا أصـاب بلـدنا.. وقـد رأيت ظاهرة عجيبة مصاحبة للزلزال.. لقد رأيت قضيبا معدنيا يطـير في السـماء، ثم يسـقط على مسـمار فيخرقـه في منتصـفه، فيـتزن القضيب، ثم رأيت مادة من اللحام تطـير، فتقـع على أحـد طـرفي القضيب، ثم رأيت طبقا معدنيا يطـير فيقـع على اللحـام، ويشـكل كفة ميزان، وبنفس الطريقة تكونت الكفة الثانية، وهكذا وجد لدينا ميزان!

تغـيرت ملامح وجـه روبـرت، ثم قـال: مـا هـذا؟ زلـزال يصـنع ميزاناً!؟

قال الزنداني: انتظر، هناك أعجب من هذا.. إنـه يعمـل بشـكل آلي بحيث لو وضعت وزنا محدداً في كفة، فإنه يقـوم بوضـع نفس الوزن في الكفة الثانية، وإذا أنقصتها قام هو فأنقص ما يقابلهـا من الكفة الأخرى؛ لأنه لا يرضى الا أن يكون متزناً!

أخذ روبرت ينظر باستغراب ودهشة إلى الزنداني، وكأنه يتهمه بالجنون، فقال الزنـداني متهكمـاً: يابرفسـور جـاء صـدفة! ويعمـل بالصدفة!

هنا فطن روبرت، فانفجر ضاحكا، فقـال لـه الزنـداني: أنت لم تقبل لي ميزاناً واحداً بالصدفة.. فكيف تزعم أن موازين السماوات والأرض كلها قد خلقت صدفة!

لم يجد روبرت ما يقول.. لكني رأيت بصيصا من النـور قـد بـدأ يتسرب إليه لينسخ ظلمات الإلحاد التي كان غارقا فيها.

المناظرة السادسة:

1) هذا من التصرف في النص.

قـال الجمـع: حـدثتنا عن المنـاظرة الخامسـة.. فحـدثنا عن السادسة.

قال: في شارع من شوارع تلك المدينـة، رأيت النـاس يلتفـون حول رجلين..

أما أحدهما، فكان الناس يطلقون عليه لقب (وحيد الدين خان)(1)، وتبدو عليه سمات الهنود التي تجمع بين البساطة والجمال.

وأما الثاني، فرجل إنجليزي يقال لـه (برتراند رسـل)(2).. وهـو رجل قد بلته الأيام، وحنت ظهره السنون، ولكنها مع ذلك لم تمنعه من القـدوم لتلـك البلاد للبحث عن اللـه، والمنـاظرة في ذلـك، والتواضع أمام من يناظره.

بـدأ خـان الحـديث، فقـال متوجهـا لراسـل: وأخـيرا التقينـا يـا راسل.. لطالما اشتقت إلى لقائـك بعـد أن قـرأت كتبـك، وعـرفت نوع توجهك الفكري.

قال راسل: وما قرأت منها؟

قال خان: كلها تقريبا..

قال راسل: فأنت تعرفني الآن جيدا؟

قال خان: ربما أعرفك.. ولكن مع ذلك ليس الخبر كالعيان.

قـال راسـل: لقـد سـئلت ذات يـوم: هـل يحيـا الإنسـان بعـد الموت؟.. فهل تدري بما أجبت؟

قـال خـان: أجـل.. لقـد نفيت حيـاة الإنسـان بعـد المـوت.. واستدللت لنفيك بقولك: (عندما ننظر إلى هذا السـؤال من زاويـة العلم، وليس من خلال ضـباب العاطفـة نجـد أنـه من الصـعب

---

1) أشير به إلى (وحيد الدين خان)، وهو مفكر مسلم هندي معاصـر يجمـع بين الفكـر الإسلامي ، والفكـر العلمي الفلسـفي.. وبتلـك المقومـات اسـتطاع أن يناظر الملحـدين واللادينيين بحججه الدامغة في العديد من كتبه، وتتميز مؤلفاتـه أنهـا تجمـع بين البسـاطة والعمق، ولذلك فهي تناسـب مختلـف أنـواع القـراء، من مؤلفاتـه المترجمـة إلى العربيـة (الإسلام يتحدى)، وهو أشهرها، وقد استفدنا منه في هذا المحـل، و(الـدين في مواجهـة العلم)، و(حكمة الـدين)، و(تجديـد علـوم الـدين)، و(المسـلمون بين الماضـي والحاضـر والمستقبل)، و(خواطر وعبر)

2) نشير به إلى برتراند راسل (1872 -ـ 1970)، وهو فيلسـوف ورياضـي وكـاتب إنجلـيزي، وقـد كـان من أشـهر الفلاسـفة الـذين عـرفهم الفكـر الفلسـفي أثنـاء الفـترة الممتدة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية.. وقد ظل صاحب الخطوة الأولى لـدى الـذين يطلقـون على أنفسـهم تقـدميين من المثقفين المعاصـرين الملاحـدة في أوروبـا وغيرهم.. وهو ذو تطرف سياسي، ومتطرف جداً في إلحاده، وقد بسط أفكاره السياسية والإلحادية المتطرفة في كتابات أدبية مؤثرة.. أثرت كتاباته السهلة على العامـة ، وأثـرت كتاباته العميقة على الفكر الأوروبي المعاصر كله.

ونحن ننبه هنا إلى أنا لا نقصد هنا الرد على كل ما يرتبط بأفكـار راسـل، وإنمـا نقصـد فقط التنبيه إليه.. ورد ما يرتبط بموضوعنا هذا من أفكاره.

اكتشاف المبرر العقلي لاستمرار الحياة بعد الموت، فالاعتقاد السائد بأننا نحيا بعد الموت يبدو لي بدون أي مرتكزٍ أو أساسٍ علمي، ولا أظن أنه يتسنى لمثل هذا الاعتقاد أن ينشأ وأن ينتشر لولا الصدى الانفعالي الذي يحدثه فينا الخوف من الموت. لا شك أن الاعتقاد بأننا سنلقى في العالم الآخر أولئك الذين نكن لهم الحب، يعطينا أكبر العزاء عند موتهم، ولكني لا أجد أي مبرر لافتراض أن الكون يهتم بآمالنا ورغباتنا، فليس لنا أي حق في أن نطلب من الكون تكييف نفسه وفقاً لعواطفه وآمالنا، ولا أحسب أن من الصواب والحكمة أن نعتنق آراء لا تستند إلى أدلة بينة وعلمية)(1)

قال راسل: فما موقفي من الدين؟

قال خان: لقد عبرت عنه بقولك: (إن الدين لا يقوم إلا على عوامل الترهيب والتلويح بالعقاب، وبالتالي فإن الدين يشكل ضرباً من ضروب الشر التي تملأ هذا العالم.. وهذا هو السبب في أننا نجد أن أولئك الذين لم يبلغوا بعدُ درجة كافية من النضج الأخلاقي والعقلي هم وحدهم الذين ما زالوا يتمسكون بالمعايير الدينية التي تناهض بطبيعتها جميع المعايير الإنسانية الخيرة التي يجب أن تسود عالمنا الحديث)

قال راسل: فما موقفي من الأخلاق؟

قال خان: أنت ترى أن للإنسان إرادة حرة تدفعه إلى أن يقيم لنفسه في الحياة مثلاً عليا، يطمح بها إلى تحقيق حياة خيرة، تسير على هدى المعرفة والمحبة الإنسانية، ومن شأن حرية الاختيار هذه أن تغني الإنسان عن البحث عن نظريات أخلاقية لا طائل وراءها.

وذكرت أنه لا جدوى للنظريات الأخلاقية التجريدية لضرورات الحياة العملية، وبرهنت على ذلك بالأم التي تواجه مرض طفلها الصغير، وقلت في ذلك: إن تلك الأم لا تحتاج في سعيها وراء شفاء طفلها إلى مشرعين أخلاقيين، وإنما تحتاج إلى طبيب ماهر قادر على وصف العلاج المناسب.

قال راسل: لقد كتبت قصة أدبية ذكرت فيها أن السديم الحار دار عبثاً في الفضاء عصوراً لا تعد ولا تحصى دوراناً ذاتيا، ثمّ نشأت عن هذا الدوران هذه الكائنات المنظمة البديعة، بطريق المصادفة،

---

1) انظر الرد على هذا القول وما يشبهه في رواية (أسرار الحياة) من هذه السلسلة.

وأن اصطداماً كبيراً سيحدث في هذا الكون، يعود به كل شيء إلى سديم، كما كان أولاً.. أتعرف هذه القصة؟

قال خان: أجل..

قال راسل: أتدري ما الذي أقصده منها؟

قال خان: أنت تريد أن تبين من خلالها نشوء الكـون وتطـوره.. ونشوء الحياة وتطورها.. وأصل الإنسان ونشأته وتطـوره.. ونشـوء الديانات والعبادات والطقوس وتطورهـا.. وأخـيراً أنت تشـدد على أن النهاية الحتميـة لجميـع الأشـياء، وأنهـا الفنـاء والعـدم، ولا أمـل لكائن بعدها بشيء.. فالحياة من السديم، وإلى السديم تعود.

قال راسل: أراك ملما بأفكاري.. ولكـني كمـا تعلم كنت متقلبـا كل حين.. فهل تعلم النهايـات الفكريـة الـتي جئت إليـك بهـا لعلـك تستطيع أن تقنعني بما يجعلني أعدل عنها؟

قال خان: أجل.. وإلا لما قبلت أن أناقشك وأنـاظرك، فلا يمكن لمناظر أن يجهل من يناظره.

قال راسل: فأخبرني عنها(1).

قال خان: من ذلك أنـك ذكـرت أنـك بعـد أن درسـت الفيزيـاء، وعلم الحيــاة، وعلم النفس، والمنطــق الرياضــي، انتهيت إلى أن (مذهب التشكيك في الوجـود مسـتحيل نفسـياً)، ومـع ذلـك فـإن الإنسان عاجز عن أن يحيط إلا بأقل قدر من المعرفة.

وتقـول بالنسـبة إلى الفلسـفة: (تـدعي الفلسـفة منـذ القـدم ادعـاءات كبـيرة، ولكن حصـيلتها أقـل بكثـير بالنسـبة إلى العلـوم الأخرى)

وتقــول عن تصــورنا العلمي للكــون أنــه (لا تدعمــه حواسُّــنا التجريبية، بل هو عالم مستنبط كلياً)

وبلغ بك الأمر في هذا إلى أن قلت: (إن أفكـار النـاس لا توجـد إلا في مخيلاتهم فحســب)، أي: إن التجربــة لا تســتطيع أن تثبت مطابقة هذه الأفكار للواقع.

وانتهيت إلى أن التجربة قد أعطيت لها الأهمية الكبرى، ولـذلك يجب أن تخضع (التجريبية) باعتبارها فلسفةً لتحديات مهمـة.. وقـد ذكرت سريان هذا حتى على النظريات والقوانين العلمية.

وقلت..

قاطعه راسـل، وقـال: أحسـب أنـك تعـرف كـل مـا قلت، بـل

---

1) ذكر وحيد الدين خان ، أنه قرأ كل أعمال (برتراند رسل) واستطاع بعد قراءتها أن يلتقط من أقواله ما يكشف عن النهايات الفكرية الـتي انتهى إليهـا.. ومـا نـذكره هنـا هـو هذه الأقوال التي جمعها وحيد الدين خان.

تحفظه عن ظهر قلب.. فهل تعرف ما قيل في؟
قال: من أحسن ما قيل فيك ما قاله البروفسور (ألان وود)، فقد قال: (إن برتراند رسل فيلسوف بدون فلسفة)
قال راسل: دعنا منه، فقد أعماه الحسد أن يرى محاسني.. دعنا منه.. وهيا لما اجتمعنا من أجله.. لقد سمعت مني ما قلت.. فبم ترد علي؟
قال خان: سأبدأ بموقفك من الطبيعة.. أو ركونك إلى الطبيعة.. فأنت ترى ـ انطلاقا من معارفك في البيولوجيا ـ أن الحوادث تحدث طبقا (لقانون الطبيعة).. ولهذا لا حاجة لأن نفترض لهذه الحوادث إلها مجهولا.
قال راسل: صحيح أنا أقول هذا.. ولست وحدي في ذلك.. فكل الفلاسفة الماديين يرددون هذا.
قال خان: لقد قال بعضهم يعبر عن علاقة الطبيعة بالكون: (إن الطبيعة حقيقة (من حقائق الكون) وليست تفسيرا (له).. وصدق في ذلك.. فما كشف عنه العلم من الكون هو الهيكل الظاهر منه فقط.. وكل مضمون العلم حوله هو إجابة عن السؤال: (ما هذا؟).. ولكن الدين هو الذي بين لنا الأسباب والدوافع الحقيقية التي تدور (وراء الكون)، وهو يجيب عن السؤال المهم:(ولكن لماذا؟)
ولتفهم هذا سأستعير لك مثالا بسيطا مقربا.. ألا ترى الكتكوت يعيش أيامه الأولى داخل قشرة البيضة القوية ويخرج منها بعدما تنكسر وكأنه مضغة لحم، كان الإنسان القديم يؤمن بأن الله أخرجه.. ولكننا اليوم بالمنظار نعلم أنه في اليوم الحادي والعشرين يظهر قرن صغير على منقار الكتكوت يستعمله في تكسير البيضة لينطلق خارجا منها، ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام من خروجه من البيضة.
ابتهج راسل، وقال: ها هو العلم يقضي على التفسير الخرافي الذي جاء به الدين.. فالقرن هو الذي أخرج الكتكوت، لا الإله.
ابتسم خان، وقال: إن التأمل فيما كشفه العلم ـ بعيدا عن الغرور والكبرياء والزهو ـ لا يدلنا إلا على حلقات جديدة للحادث، ولا يفسر الحادث..
قال راسل: كيف ذلك؟
قال خان: إن العلم لم يكتشف بعد السبب الحقيقي.. لقد غير صيغة السؤال فقط.. فبدل أن يكون السؤال عن تكسر البيضة

أصبح عن (القرن)؟
إن السبب الحقيقي سوف يتجلى لأعيننا حين نبحث عن العلة التي جاءت بهذا القرن، العلة التي كانت على معرفة كاملة بأن الكتكوت سوف يحتاج إلى هذا القرن ليخرج من البيضة، فنحن لا نستطيع أن نعتبر الوضع الأخير (وهو مشاهدتنا بالمنظار) إلا أنه (مشاهدة للواقع على نطاق أوسع) ولكنه ليس تفسيرا له.
لقد ضرب البروفيسور (سيسيل بايس هامان) وهو أستاذ أمريكي في البيولوجيا، مثالا قريبا من هذا، فقال: (كانت العملية المدهشة في صيرورة الغذاء جزءا من البدن تنسب من قبل إلى الإله، فأصبحت اليوم بالمشاهدة الجديدة تفاعلا كيماويا.. ولكن هل أبطل هذا وجود الإله؟.. فما القوة التي أخضعت العناصر الكيماوية لتصبح تفاعلا مفيدا؟.. إن الغذاء بعد دخوله فى الجسم الإنساني يمر بمراحل كثيرة خلال نظام ذاتي، ومن المستحيل أن يتحقق وجود هذا النظام المدهش باتفاق محض، فقد صار حتما علينا بعد هذه المشاهدات أن نؤمن بأن الله يعمل بقوانينه العظمى التي خلق بها الحياة!)
وعلى هذا المنوال نقول بأن الإنسان كان في القديم يعرف أن السماء تمطر، لكننا اليوم نعرف كل شيء عن عملية تبخر الماء في البحر، حتى نزول قطرات الماء على الأرض وكل هذه المشاهدات صور للوقائع، وليست في ذاتها تفسيرا لها.
فالعلم لا يكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين؟ وكيف قامت بين الأرض والسماء على هذه الصورة المفيدة المدهشة، حتى أن العلماء يستنبطون منها قوانين علمية؟ والحقيقة أن ادعاء الإنسان بعد كشفه لنظام الطبيعة أنه قد كشف تفسير الكون ليس سوى خدعة لنفسه، فإنه قد وضع بهذا الادعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة.
لقد قال العالم الأمريكي سيسيل في هذا: (إن الطبيعة لا تفسر شيئا (من الكون) وإنما هي نفسها بحاجة إلى تفسير)
سأوضح لك هذا بمثال بسيط..
لو أنك سألت طبيبا: ما السبب وراء احمرار الدم؟.. لأجاب: لأن في الدم خلايا حمراء، حجم كل خلية منها جزء من البوصة.. فتقول له: حسنا.. ولكن لماذا تكون هذه الخلايا حمراء؟.. فيجيبك: في هذه الخلايا مادة تسمى (الهميوجلوبين)، وهى مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأكسجين فى القلب.. فتقول له:

هــذا جميــل.. ولكن من أين تــأتى هــذه الخلايــا الــتي تحمــل الهميوجلوبين؟.. فيجيبك: إنها تصنع في كبدك.. فتقول لـه: عجيب! ولكن كيف ترتبط هـذه الأشـياء الكثـيرة من الـدم والخلايـا والكبـد وغيرها بعضها ببعض ارتباطا كليا، وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة؟.. فيجيبك: هذا ما نسميه بـ (قانون الطبيعـة).. فتقول لـه: ولكن مـا المـراد بــ (قـانون الطبيعـة) هـذا، يـا سـيدي الطبيب؟.. فيجيبك: المـراد بهـذا القـانون هـو الحركـات الداخليـة للقوى الطبيعية والكيماويـة.. فتقـول لـه: ولكن لمـاذا تهـدف هـذه القوى دائما إلى نتيجة معلومة؟ وكيـف تنظم نشـاطها حـتى تطـير الطيور في الهواء، ويعيش السـمك في المـاء، ويوجـد إنسـان في الدنيا بجميع ما لديه من الإمكانـات والكفـاءات العجيبـة المثـيرة؟.. فيجيبــك: لا تســألني عن هــذا، فــإن علمي لا يتكلم إلا عن: (مــا يحدث)، وليس له أن يجيب: (لماذا يحدث؟)

من هذه الأسئلة يتضح لك مدى صـلاحية العلم الحـديث لشـرح العلل والأسباب وراء هذا الكون.. ولا شك أنه قد أبان لنا عن كثــير من الأشـياء الــتي لم نكن على معرفــة بهـا، ولكن الــدين جــواب لسؤال آخر لا يتعلق بهذه الكشوف الحديثة العلميـة، فلـو أن هـذه الكشوف زادت مليون ضعف عنهـا اليـوم فسـوف تبقى الإنسـانية بحاجــة إلى الــدين، إن جميـع هـذه الكشـوف (حلقـات ثمينــة من السلسلة)، ولكن ما يحل محل الدين لابد أن يشرح الكــون شــرحا كليا وكاملا، فما الكون على حاله هذه إلا كمثـل ماكينـة تـدور تحت غطائها لا نعلم عنها إلا أنها (تدور)، ولكنا لو فتحنا غطاءهـا فسـوف نشاهد كيف ترتبط هذه الماكينة بدوائر وتروس كثيرة يـدور بعضـها بعضا، ونشاهد حركاتها كلها.. هل معـنى هـذا أننـا قـد علمنـا خـالق هذه الماكينة بمجرد مشاهدتنا لما يدور داخلهـا؟ هـل يفهم منطقيـا أن مشاهدتنا هذه أثبتت أن الماكينة جاءت من تلقـاء ذاتهـا، وتقـوم بدورها ذاتيا؟ لو لم يكن هذا الاستدلال منطقيا فكيف إذن نثبت بعد مشاهدة بعض عمليات الكون أنه جاء تلقائيا ويتحرك ذاتيا؟

لقد استغل البروفيسور هريـز هـذا الاسـتدلال حين نقـد فكـرة داروين عن النشوء والارتقاء فقال:(إن الاستدلال بقانون الانتخـاب الطبيعي يفسر عملية (بقاء الأصـلح)، ولكنـه لا يسـتطيع أن يفسـر حدوث هذا الأصلح)

قال راسل: دعنا من هـذا، وأجبـني على مـا يقولـه علم النفس الحديث المؤيد بالكثير من الوسائل العلمية.. لقد أعطى هـذا العلم

العظيم تفسيره للدين والإله.. **فذكر أن الإلـه والآخـرة ليسـا سوى قياس للشخصية الإنسانية وأمانيها على مسـتوى الكون.**. ما تقول في هذا؟

ابتسم خان، وقال: سأجيبك عن هذا بصروف من الإجابات..

وأبدأ **أولهـا بالتسـليم الجـدلي لك**.. فـأعتبر أن مـا تقولـه صحيحا.. ولكني أضم إلى ذلـك دعـوى أخـرى، وهي أن الشخصـية الإنسـانية وأمانيهـا ليسـت محصـورة في الإنسـان فقـط.. بـل هي موجودة أيضا على مستوى الكون.. ولا يهمني ما عسـى أن يبطـل ادعائي هـذا من منطـق المعارضـين.. لأنـه ليس لـديهم ــ بالنسـبة للإنسان في هذا ـ أي دليل.

نحن نعرف أن المادة (الجنين) التي لا تشاهد إلا بالمنظار تنـبئ في ذاتها عن إنسان طولـه 72 بوصـة، وأن (الـذرة) الـتي لا تقبـل المشاهدة تحتوى نظاما رياضيا كونيا يدور عليه النظـام الشمسـي، فلا عجب إذن أن يكون النظام الذي نشاهده على مستوى الإنسان في الجنين، وعلى مسـتوى النظـام الشمسـي في الـذرة موجـودا أيضا.. بل موجـود بصـورة أكمـل.. على مسـتوى الكـون.. فضـمير الإنسان وفطرته ينشدان عالما متطورا كاملا، فلو كـان هـذا الأمـل صدى لعالم حقيقي، فلست أرى في ذلـك أي ضـرب من ضـروب الاستحالة.

هذا أولا..

ثانيا.. أنـا لا أكـذب مـا يـورده علمـاء النفس وغـيرهم من أن الذهن الإنساني يحتفظ بأفكار قد تظهر فيمـا بعـد في صـورة غـير عادية.. ولكن سوف يكون قياسا مـع الفـارق أن نعتمـد على هـذه الفكرة كي نبطل الـدين.. لأن ذلـك قيـاس في غـير محلـه، وهـو ـ بذلك ـ يعتبر استدلالا غير عادى من واقع عادى..

وذلك يشبه من يشاهد رجلا يصنع صنما، فيصيح: هذا الذي قام بعملية خلق الإنسان.

ثالثا.. أرأيت لو أن رجلا كان يسـير في شـارع، ثم أخـذ يهـذي بكلام غريب نتيجة لأفكار مختزنه في ذهنه.. فجـاء فيلسـوف مثـل حضرتكم، وراح يسـتغل هـذا الحـادث في البحث في كلام الأنبيـاء، وهو الكلام الذي يكشف سر هذا الكون..

ألا ترى أن هذا النوع من الاستدلال غـير علمي وغـير منطقي.. بل إنه يدل على أن صاحبه يفتقر الى القيم حتى يستطيع التفرقـة بين كلام رجل الشارع وكلام الأنبياء، فلا يدعى أن هذا الهـذيان هـو

المسئول عما جاء به الدين؟

ثم تخيل معي لو أن رهطا من سكان بعض الكواكب هبط الأرض، وهم يسمعون، ولكنهم لا يقدرون على الكلام.. ولنتصور أنهم ذهبوا يبحثون عن الأسباب التي تجعل الإنسان يتكلم.. وبينما هم في طريقهم إلى هذا البحث هبت الرياح واحتك غصنان أحدهما مع الآخر، فنتج صوت، وتكررت العملية غير مرة حتى توقفت الرياح، وإذا بهم يعلن كبيرهم: لقد عرفنا سر كلام الإنسان، وهو أن فمه يحتوى على فكين من الأسنان، فإذا احتك الفك الأعلى بالأسفل صوت.

لا شك أن هذا الكلام صحيح.. ولكن واقع الكلام الإنساني أعظم من أن يفسر بمثل هذا.. فلهذا لا يصح تفسير أسرار النبوة بكلام غريب كهذيان رجل الشارع، في حال الجنون أو الهستيريا.

رابعا.. لاشك أن اللا شعور - من الوجهة العلمية - ليس سوى مخزن للمعلومات والمشاهدات التي شاهدها الإنسان في حياته ولو مرة، ومن المستحيل أن يختزن اللاشعور حقائق لم يعلمها من قبل..

ولكن الذي يثير الدهشة أن الدين الذي جاء على لسان الأنبياء يشتمل على حقائق أبدية لم تخطر على بال أحد من الناس في أي زمان، فلو كان اللاشعور هو مخزن هذه المعلومات، فمن أين يأتى بها هؤلاء الذين يتكلمون عن أشياء لا طريق لهم إلى العلم بها؟

إن الدين الذي جاء به الأنبياء يتصل من ناحية أو أخرى بجميع العلوم المعاصرة(1) من الطبيعة، والفلك، وعلم الحياة، وعلم الإنسان، وعلم النفس والتاريخ والحضارة والسياسة والاجتماع وغيرها من العلوم..

وكل حديث في التاريخ الإنساني مصدره (الشعور)، فضلا عن اللاشعور، لا يخلو من الأغلاط والأكاذيب والأدلة الباطلة.

أما الكلام النبوي فإنه بريء ولا شك من كل هذه العيوب رغم اتصاله بجميع العلوم.. فقد مرت قرون إثر قرون أبطل فيها الآخرون ما ادعاه الأولون، وما زال صدق كلام النبوة باقيا على الزمان، ولم يستطع أحد أن يدل على باطل جاء به، وكل من حاول ذلك أخفق.

---

1) لا ينطبق هذا انطباقا صحيحا شاملا إلا على الإسلام ومصادره المقدسة، وقد برهنا على هذا بتفصيل في رواية (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

خامسا.. لقد رأيت من خلال اطلاعي على مؤلفاتك ومؤلفات إخوانك من الذين يستدلون بالتاريخ أو الاجتماع أنكم لا تدرسون الدين من وجه صحيح.. ولهذا يبدو في نظركم شيئا غريبا.. أنتم تتناولون الدين على أنه (مشكلة موضوعية)، فلهذا تجمعون في سلة واحدة كل ما أطلق عليه اسم (الدين) من رطب ويابس، في أي مرحلة من التاريخ، ثم تتأملون في ضوء هذا المحصول حقيقة الدين.

إن هذا موقف ينحرف بكم عن الصواب من أولى مراحله، ولهذا يبدو لكم الدين - جراء هذا الموقف الفاسد-عملا اجتماعيا، لا كشفا لحقيقة.. ومن المعلوم أن لكل ما يكشف عن حقيقة من الحقائق مثلا أعلى، ولا بد عند البحث عن هذه الحقائق أن ندرس مظاهرها وتاريخها في ضوء مثله الأعلى.. أما الأمور التي تأتى بها أعمال اجتماعية فليس لها مثل أعلى.. وبقاؤها رهن بحاجة المجتمع إليها.

ومنهج البحث عن الدين يختلف عن هذا كل الاختلاف.. فليس من الصحيح البحث عن حقائقه، كما يبحث المؤرخون عن تطورات فنون العمارة والنسيج والحياكة والسيارات، لأن الدين علم على حقيقة يقبلها المجتمع أو يرفضها، أو يقبلها في شكل ناقص.. ويبقى الدين في جميع هذه الأحوال حقيقة واحدة في ذاتها، وإنما يختلف في أشكاله المقبولة، ولهذا لا يمكن أن نفهم حقائق (الدين) بمجرد فهرسة مماثلة لجميع الأشكال الموجودة في المجتمعات باسم الدين.

قال راسل: أراك انتقدت منهج بحثنا عن الإله.. فما المنهج الذي تراه سليما للبحث عنه؟

قال خان: هذا أهم سؤال طرحته.. وينبغي لأي باحث أن يطرحه.. فقضية العصر الحاضر وكل العصور ضد الدين هي قضية طريقة الاستدلال.

لقد كان الناس في القديم يصنعون السفن الشراعية من الخشب اعتقادا منهم أن الماء لا يحمل إلا ما يكون أخف منه وزنا، وحين قال بعضهم: إن السفن الحديدية سوف تطفو على سطح الماء كالتي من الخشب، أنكر الناس عليه مقالته واتخذوه هزوا، وجاء نحاس فألقى بنعل من حديد في دلو مملوء بالماء ليشهد الناس على أن هذه القطعة الحديدية -بدل أن تطفو على سطح الماء- استقرت في القاع، وكان هذا العمل تجربة، ولكننا جميعا

نعتقد اليوم أنها كانت تجربة باطلة، فلو كان النحاس قد ألقى بطبق من حديد لشاهد بعينه صدق ما قيل من طفو السفن الحديدية.

وفي بداية القرن العشرين كنا كذلك نملك تلسكوبا ضعيفا، فلما شاهدنا السماء بهذا النظار وجدنا أجراما كثيرة كالنور، فاستنبطنا أنها سحب من البخار والغاز تمر بمرحلة قبل أن تصير نجوما، ولكنا حين تمكنا من صناعة منظار قوى وشاهدنا هذه الأجرام مرة ثانية علمنا أن هذه الأجرام الكثيرة المضيئة هي مجموعة من نجوم كثيرة شوهدت كالسحب نتيجة البعد الهائل بينها وبين الأرض.

وهكذا نجد أن التجربة والمشاهدة ليستا وسيلتي العلم القطعيتين، وأن العلم لا ينحصر في الأمور التي شوهدت بالتجربة المباشرة.

لقد اخترعنا الكثير من الآلات والوسائل الحديثة للملاحظة الواسعة، ولكن الأشياء التي نلاحظها بهذه الوسائل كثيرا ما تكون أمورا سطحية وغير مهمة نسبيا، أما النظريات التي يتوصل إليها بناء على هذه المشاهدات فهي أمور لا سبيل إلى ملاحظتها.

والعلم الحديث لا يدعى ولا يستطيع أن يدعى أن الحقيقة محصورة فيما علمناه من التجربة المباشرة، فالحقيقة أن (الماء سائل). ونستطيع مشاهدة هذه الحقيقة بأعيننا المجردة، ولكن الواقع أن كل (جزيء) من الماء يشتمل على ذرتين من الهيدروجين وذرة من الأكسجين، وليس من الممكن أن نلاحظ هذه الحقيقة العلمية، ولو أتينا بأقوى ميكروسكوب في العالم، غير أنها ثبتت لدى العلماء لإيمانهم بالاستدلال المنطقي.

يقول في ذلك البروفيسور ا. ى. ماندير: (إن الحقائق التي نتعرفها مباشرة تسمى (الحقائق المحسوسة)، بيد أن الحقائق التي توصلنا إلى معرفتها لا تنحصر في (الحقائق المحسوسة)؛ فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة، ولكننا عثرنا عليها على كل حال، ووسيلتنا في هذه السبيل هي الاستنباط، فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه (بالحقائق المستنبطة)، والأهم هنا أن نفهم أنه لا فرق بين الحقيقتين، وإنما الفرق هو في التسمية، من حيث تعرفنا على الأولى مباشرة وعلى الثانية بالواسطة، والحقيقة دائما هي الحقيقة سواء عرفناها بالملاحظة أو بالاستنباط)

ويضيف ماندير قائلا: (إن حقائق الكون لا تـدرك الحـواس منهـا غير القليل، فكيف يمكن أن نعرف شيئا عن الكثير الآخـر؟.. هنـاك وسيلة، وهى الاستنباط أو التعليل، وكلاهما طريق فكرى، نبتدئ به بوساطة حقـائق معلومـة حـتى ننتهي بنظريـة: أن الشـيء الفلانى يوجد هنا ولم نشاهده مطلقا)

قاطعه راسل، وقال: كيف يكون هـذا الرجـل بروفيسـورا وهـو يقول هذا؟.. كيـف يصـح الاسـتنباط المنطقي لأشـياء لم نشـاهدها قـط؟.. وكيـف يمكن أن نسـمى هـذا الاسـتنباط بنـاء على طلب العقل (حقيقة علمية)؟

ابتسم خان، وقال: لقد أجاب ماندير عن تساؤلك هـذا.. فقـال: (إن المنهج التعليلي صـحيح، لأن (الكـون) نفسـه عقلي.. فـالكون كله مرتبط بعضه بالآخر؛ حقائقه المتطابقة، ونظامه عجيب، ولهـذا فإن أية دراسـة للكـون لا تسـفر عن ترابـط حقائقـه وتوازنهـا هي دراسة باطلة)

ويقول: (إن الوقائع المحسوسة هي أجزاء من حقـائق الكـون، غير أن هذه الحقائق التي ندركها بالحواس قد تكـون جزئيـة، وغـير مرتبطة بالأخرى، فلـو طالعناهـا فـذة مجـردة عن أخواتهـا فقـدت معناها مطلقا، فأمـا إذا درسـناها في ضـوء الحقـائق الكثـيرة ممـا علمناه مباشرة أو بلا مباشرة فإننا سندرك حقيقتها)

ثم يأتى بمثال يفسر ذلك، فيقول: (إننـا نـرى أن الطـير عنـدما يموت يقع على الأرض، ونعرف أن رفع الحجر على الظهر أصـعب ويتطلب جهدا، ونلاحظ أن القمر يدور في الفلك، ونعلم أن الصعود في الجبل أشق من النزول منه.. ونلاحظ حقائق كثيرة كل يـوم لا علاقة لإحداها بالأخرى ظـاهرا، ثم نتعـرف على حقيقـة اسـتنباطية هي (قانون الجاذبية)، وهنا ترتبـط جميـع هـذه الحقـائق، فنعـرف ـ للمرة الأولى ـ أنها كلها مرتبطة إحداها بالأخرى ارتباطا كاملا داخل النظام.. وكذلك الحال لو طالعنا الوقائع المحسوسـة مجـردة، فلن نجد بينها أي ترتيب، فهي متفرقة وغير مترابطـة ولكن حين نربـط الوقائع المحسوسة بالحقائق الاستنباطية فستخرج صـورة منظمـة للحقائق)

إن قانون (الجاذبية) لا يمكن ملاحظته قطعا، وكـل مـا شـاهده العلماء لا يمثل في ذاته قـانون الجاذبيـة، وإنمـا هي أشـياء أخـرى، اضطروا لأجلها- منطقيا- أن يؤمنوا بوجود هذا القانون.

واليوم يلقى هذا القانون قبولا علميا عظيما، وهو الـذي كشـف

عنه نيوتن لأول مرة، ولكن ما حقيقة هذا القانون من الناحية التجريبية؟

لقد تحدث نيوتن في خطاب أرسله إلى (بنتلى)، فقال: (إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا إحساس وهى تؤثر على مادة أخرى مع أنه لا توجد أية علاقة بينهما)

فنظرية معقدة غير مفهومة ولا طريق إلى مشاهدتها، تعتبر اليوم بلا جدال حقيقة علمية.. لماذا؟

لأنها تفسر بعض ملاحظاتنا فليس بلازم إذن أن تكون الحقيقة هي ما علمناه مباشرة بالتجربة، ومن ثم نمضى إلى القول بأن العقيدة الغيبية التي تربط بعض ما نلاحظه، وتفسر لنا مضمونه العام تعتبر حقيقة علمية من نفس الدرجة.

قال ذلك، ثم التفت إلى راسل، وقال: كما رفض العلماء نظرية الضوء التي قدمها نيوتن لأنها لم تنجح في تفسير مظاهر حديثة للضوء ؛ فإننا نرفض أفكار الفلاسفة الملحدين لأنها فشلت في تفسير مظاهر الطبيعة.

لم يجد راسل إلا أن ينصرف.. ولم يجد الجمع الملتف بهما إلا أن انضموا إلى وحيد الدين خان يسألونه.. وقد كان من شقائي أن تركت الجمع، ورحت أسرع إلى (برتراند رسل) أسأله عما لا يسمن من جوع، ولا يروي من ظمأ.. ولعلي لو اجتمعت معه في ذلك الحين كما اجتمع أولئك الجمع لكفينا ما نبحث عنه، فقد كان للرجل من العلم والمنطق ما يجعلك مستيقننا من أنه يطل من النافذة التي لا ترى منها إلا الحقائق.

المناظرة السابعة:

قال الجمع: حدثتنا عن المناظرة السادسة، فحدثنا عن السابعة.

قال: في شارع من شوارع تلك المدينة وجدت رجلين يلتف حولهما جمع كبير(1)..

أما أحدهما، فرجل تشع من عينيه أنوار الحكمة، وعلى سمته يبدو الوقار، كان الجمع يطلق عليه اسم (البوطي)(2).. وقد أخبرني بعضهم أنه رجل جاء من سورية، وقد قدم أبوه ــ الذي

1) حاولنا في هذه المناظرة أن نلخص ــ باختصار ــ ما تنص عليه أخطر نظرية إلحادية، وهي (المادية الجدلية)، أما تفاصيل الردود عليها، فهي موجودة في أثناء هذه الرسالة، باعتبار أن هذه النظرية في جوهرها ليست سوى مزيج من نظريات مختلفة.

2) أشير به إلى أستاذنا الكبير العلامة (محمد سعيد رمضان البوطي)، وهو من علماء الكلام المعاصرين الكبار.. وهو ضالع في العقائد والفلسفات المادية وخاصة في نقد المادية الجدلية.

يسمى ملا رمضان ـ قبلها من جزيرة بوطان في تركيا إلى دمشق واستقر فيها.. ولذلك صار يطلق عليه هذا الاسم.

وأما الثاني، فرجل عريض المنكبين، واسع الجبهة، كثيف الشعر، داكن إلى حد الزرقة.. كان يبدو حيويا نشيطا لا يهدأ له بال.. وكان الناس يطلقون عليه لقب (ماركس)(1).. ولست أدري علاقته بماركس منظر الشيوعية.. ولكن الذي أدريه هو أنه لا يختلف عن ماركس المعروف في أي شيء.. لا في صورته.. ولا في فكره.

سأقص عليكم بعض ما سمعت من حديث:

قال ماركس بعنف لمحدثه البوطي: كم من مرة طلبت منك أن لا تذكر لي هيجل(2).. ماركس سميي هو صاحب هذا الفكر.. لا هيجل..

قال البوطي بهدوء: لا بأس.. أنا لم أذكر هيجل إلا لأني رأيتك تنهج نفس نهجه.

قال ماركس: بل هناك فرق كبير بيننا.. إن الفرق بيني وبينه كالفرق بينك وبيني..

قال البوطي: ولكنك تعتمد نفس الجدل الذي يعتمده.

قال ماركس: لكن جدله مثالي.. وجدلي مادي.. واقعي.. ولا يمكن أن يجتمع هذان في محل واحد.

قال البوطي: لا بأس.. سأدع لك الفرصة لأن تحدثني عن مذهبك.. ولنتناقش فيه بعد ذلك.

قال ماركس: لا بأس.. فلسفتي.. أو بالأحرى فلسفة سميي العظيم كارل ماركس.. تتلخص في (المادية الجدلية).. تلك المادية التي تلخص حقائق الوجود في قانون (لا إله والكون مادة).. وقانون (وحدة العالم تنحصر فى ماديته).. وقانون (المادة سابقة فى الوجود على الفكر).. وقانون (لم يكن هناك وقت لم تكن المادة موجودة فيه، وليس هناك وقت لا تكون المادة موجودة

---

1) أشير به إلى كارل ماركس (1818-1883م)، وهو فيلسوفٌ ألماني واجتماعي وثوري محترف، كان المؤسس الرئيسي لحركتين جماهيريَّتين قويتين هما: الاشتراكية الديمقراطية، والشيوعية الثورية.. والوصف الذي ذكرناه له في الرواية هو وصف أحد أصدقائه له.

2) هو جورج ويلهلم فريدريك هيغل فيلسوف ألماني.. يعتبر أهم مؤسسي حركة الفلسفة المثالية الألمانية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي.. من أهم مميزات هيجل ميله الحاد إلى التناقض والتعقيد، وقد انعكس تنافضه على المعجبين به والناقدين له, فهو موجود في الماركسية، وذا بصمة واضحة في الاجتهادات البروتستانتية.. وهو شاهد لدى الوجوديين، ومرجع للبراغماتين.. وسنرى بعض ما يرتبط بفلسفته والتي اعتمد عليها ماركس في هذا المطلب.

فيه).. وقانون (الإنسان نتاج المادة).. وقانون (الفكـر نتـاج الـدماغ والدماغ مادة).. وغيرها من القـوانين الـتي تفسـر الوجـود والحيـاة والإنسان.

بالإضافة إلى (المـادة الجدليـة).. ففلسـفتي تنص على قـوانين (المادية التاريخية).. وعلى قوانين (المـذهب الاقتصـادى الشـيوعى مع الأوضاع السياسية والاجتماعية المصاحبة له)

لكني لن أحدثك الآن إلا عن مذهبي الذي فسرت بـه الوجـود.. كل الوجود..

وإن شـئت الصـراحة.. فسـميي مـاركس اعتمـد في نظريتـه العظيمـة على ثلاثـة أركـان كـبرى تقـوم عليهـا الفلسـفة الغربيـة المتحضرة..

أما **أولها**.. وهو الفكر الذي يفسر الوجود بالمادة البحتة.. فلنـا فيه أساتذة كثر.. ابتدأوا منذ بـدأت هـذه الحضـارة.. لكن أشـهرهم اثنان (أوجست كونت)، و(فرباخ)(1).. وقـد قـامت فلسـفتهما على سيادة الطبيعة، بل عبادتها.. فالطبيعة هى التى تنقش الحقيقة فى ذهن الإنسان.. وهى الـتى تـوحى بهـا وترسـم معالمهـا.. هى الـتى تكون عقـل الإنسـان.. والإنسـان – لهـذا – لا يملى عليـه من ذاتـه الخاصة.. إذ ما يأتى من (ما وراء الطبيعـة) خـداع للحقيقـة، وليس حقيقة..ومثله ما يتصوره العقل من نفسه هو ليس إلا وهما وتخيلا للحقيقة، وليس حقيقة أيضا.

وبناء على هذه النظرة يكون الدين الذي يعبر عما بعد الطبيعـة مجرد خدعة.

وأما الركن الثاني، وهو الجدليـة فقـد كـان من أسـاتذة سـميي فيها (فيشته) و(هيجل).. وقد كان الأصل فى هذا النوع من التفكير الجدلى الـدياكتيكى هـو البحث عن تصـور فلسـفى يسـمح بوجـود المتناقضات فى الكون والحياة ويفسرها.

ذلك أن المنطق اليونانى القديم، وهـو المنطـق الصـورى كـان ينفى وجود التناقض فى الكون والحياة، ويقيم تفكيره على أساس أن الشئ ونقيضه لا يمكن أن يجتمعا، فوجود أى شئ هو ذاته نفى قاطع لوجود نقيضه.

ولكن الفكـر الأوروبى منـذ عصـر النهضـة كـانت لـه التفاتـات مختلفة عنه فى مجالات متعددة.. حتى إذا كان النصـف الثـانى من

1) سبق أن أشرنا إلى مضمون هذه الفلسفة.. ونحب أن ننبه ـ هنا، بناء على ما ذكـر الباحثون ـ أن الاتجاه المادى قديم فى الحيـاة الأوروبيـة ، فهـو يتجلى فى بعض اتجاهـات الفلسفة الإغريقية القديمة، واتجاهات الحياة الرومانية قبل المسيحية..

القرن الثامن عشر الميلادى عصر سيادة العقل.. أو عصر التنوير.. قـام فلاسـفة يشـيرون إلى وجـود التنـاقض فى الكـون والحيـاة ويحاولون تفسيره، من أبرزهم (فيشته) و(هيجل)

أما فيشته، فقد استخدم مبدأ النقيض كى يدعم سـيادة العقـل كمصدر للمعرفة مقابل الدين والطبيعة..

وأما هيجل فاستخدم مبدأ النقيض لتأكيد قيمة العقل من جهـة، ثم لدعم فكـرة الألوهيـة من جديـد، وتأكيـد الـوحى كمصـدر أخـير للمعرفة، فهو يعتبر الخالق عقلا.

لقد تصور هيجل ـ الذي أردت نسبة فلسـفتي إليـه ــ أن هنـاك فكـرة مطلقـة.. أطلـق عليهـا اسـم (العقـل المطلـق) – وهي مـا تسـمونه (اللـه) – انبثقت عنـه الطبيعـة، وهى تغـايره تمامـا، لأنهـا مقيدة ومتفرقة وهى عنده العقـل المقيـد.. ثم انتقلت الفكـرة من الطبيعة أو العقل المقيد إلى جامع يلتقى فيه الشئ ونقيضـه، وهـو العقل المجرد الذى هو نهاية الطبيعة المحدودة وغايتها.

وهـذا العقـل المجـرد يتمثـل فى القـانون والأخلاق، وفى الفن والدين والدولة والجماعة والفلسفة.. فالعقل المجرد الذى يتحقـق فى أى وحدة من هذه القيم العاملـة المـذكورة جـامع للمتقـابلين: جامع للفكرة فى العقـل المطلـق وهـو اللـه، وللفكـرة فى العقـل المقيد وهو الطبيعة.. ذلك أنه ليس لـه إطلاق العقـل المطلـق، ولا تحديد عقل الطبيعة، بـل فيـه إطلاق بالنسـبة إلى الطبيعـة وتقييـد بالنسبة للعقل المطلق، ولذا يعتبر جامع الدعوى ومقابل الدعوى.

هذا هو الركن الثاني، وأما الـركن الثـالث.. فهـو العظيم دارون صاحب نظرية التطور..

لقد جاء دارون يؤله الطبيعة، ويقول عنها: إنها تخلق كـل شـئ، ولا حـد لقـدرتها على الخلـق.. وجـاء ليؤكـد أن الإنسـان هـو نهايـة سلسلة التطور الحيوانية.. وأن التطـور ذاتـه – الـذى أنشـأ الحيـاة المادية الميتة أول مرة، ثم تدرج بها من الكائن الوحيـد الخليـة إلى الإنسان – هو نتيجة أسباب مادية بحتة، وأنه يتم مسـتقلا عن إرادة الكائن الحى، وبصورة حتمية لا يملـك الكـائن الحى الخـروج عليهـا ولا معارضتها ولا الوقوف فى طريقها.

هذه هي الأركان الثلاثة التي تم بامتزاجهـا جميعـا فكـر العظيم سميي ماركس..

ابتسم البوطي، وقـال: فمـا الجديـد الـذي أتى بـه مـاركس مـا

دمت قد ذكرت أنه اعتمد على كل هؤلاء؟

قال ماركس: أتى بالجديد الـذي يـأتي بـه الطبـاخ المـاهر حين يمـزج بين الخضـر والتوابـل وغيرهـا ليكـون منهـا طبخـة تسـترق البطون.

ليس ذلـك فقـط.. بـل أضـاف إليهـا أشـياء كثـيرة جعلت من فلسفته عملا متميزا قل نظيره في جميع الفكر البشري.

لقد أنشأ ماركس فلسفة مترابطة متكاملة تشمل كل القضـايا المحيطة بالإنسان.. وتشملها جملة وتفصيلا على نحو غير مسـبوق فى الفكر الغربى..

قال البوطي: فحدثنا عن هذه الفلسفة المتميزة.. واقتصر منها على الجانب المرتبطة بتفسير الوجود.

قال ماركس: لقد ذكرت لك أن ماركس فسر الوجود بالماديـة الجدلية.. وهي الفكرة التي تعزل ما تسمونه (اللـه) عـزلا تامـا عن تفسير الوجود.. فالمادة هى الشئ الوحيد الأصيل فى هذا الكـون، وكل مـا فى الكـون ومن فيـه منبثـق منهـا ومحكـوم بقوانينهـا، ولا وجود له خارج نطاقها.

كما تقوم على أساس وجود التنـاقض فى طبيعـة المـادة، ومن ثم فى كل ما ينبثق عنها من مخلوقات ومن كيانـات بمـا فى ذلـك الكيـان الإنسـانى، فهـو كيـان مـادى من جهـة، ومحكـوم بصـراع المتناقضـات من جهـة أخـرى، وتلـك هى حقيقـة كـل أفكـاره ومشاعره، وكل نظمه ومؤسساته، وكل قيمة ومبادئه، وكل حركته خلال التاريخ.

لقد ذكرت لـك أننـا أخـذنا من هيجـل جدليتـه.. ولكنـا مـع ذلـك نخالفه مخالفة أساسـية، فهيجـل اعتـبر الفكـرة هى الأصـل، وهى سابقة فى وجودها على المادة ومسيطرة عليها، بينما نحن نقـول: إن المادة هى الأصل، وهى سابقة على الفكرة ومسيطرة عليها..

ولهذا سـميث جدليـة هيجـل (الجدليـة المثاليـة)، بينمـا سـميت جـدليتنا (الجدليـة الماديـة) أو (الماديـة الجدليـة)، أو (الماديـة الديالكتيكية)

أما (الله)، فهو عنـدنا لا يعـدو أن يكـون خرافـة ابتـداعها خيـال الإنسان.. لأن الحقيقة الوحيـدة هى المـادة، والوحـدة الـتى تجمـع الكون هى ماديته.

قـال ذلـك، ثم التفت إلى البـوطي، وقـال: هـذه هي فلسـفتي العظيمة.. فهل ترضى بأن تكـون حواريـا لمـاركس، رفيقـا لي في

التبشير بها.
ابتسم البوطي، وقال: اصبر عليك لأعرض عليك ما انتابني من الشبهات أثناء عرضك لفلسفتكم العظيمة، فإن أجبتني عنها، فسأسير معك إلى أي حزب شيوعي لأنضم إلى رفاقك فيه.
قال ماركس: تفضل.. يستحيل أن توجد شبهة لا يوجد لها جواب.. ما دام الدياليكتيك موجودا، فلكل سؤال جواب.
قال البوطي: أولا.. اسمح لي أن أبين لك أن الدوافع التي دفعت إلى مثل هذه الفكرة دوافع غير معقولة ولا موضوعية.
ذلك أنها انطلقت من واقع منحرف للدين.. وهي بالتالي كانت نوعا من الهروب الكنيسة وإله الكنيسة..
وإلا فإن الطبيعة والمادة لا يمكنها أن تفسر الوجود بتلك الصورة التي فسرت بها.. ذلك أن أي ذهن سيتساءل لا محاله: ما الطبيعة على وجه التحديد؟.. وأين تكمن قدرتها على الخلق؟..وفى أى مكان منها؟
أم أنه ليس لهذه القدرة مكان ولا حيز؟.. فإذا لم تكن محسوسة، ولم يكن يحدها المكان ولا الحيز، وكانت (غيبا) لا تدركه الأبصار، إنما تدرك آثاره فقط ومظاهره، فما الذى يبرر فى منطق العقل أن نعدل عن الاسم الحقيقى، اسم (الله)، ونلجأ إلى هذه المسميات؟
وإن كان (الله) فى هذا المنطق لا حقيقة له، فما الذى يبرر – فى منطق العقل أو فى منطق العلم – أن يقول قائل: إنه ليس حقيقة حين يكون اسمه (الله)، ثم يكون هو ذاته حقيقية حين يكون اسمه (الطبيعة)؟
إن كان سبب هذا التحريف هو الخوف من الكنيسة وطغيانها، أو هو البغض لها والحقد عليها.. فليكن ذلك..
وفي هذه الحالة، فلنهجر الكنيسة، ونفر منها إلى الله الحق، وهو إله لا كنيسة له فى الحقيقة، ولا رجال دين.
ثم ما المادة الأزلية الأبدية الخالقة، وما قصتها؟
وكيف نناقشها مناقشة علمية؟
ألا تعلم ـ حضرة الرفيق ــ أن القول بأن (المادة لا تفنى ولا تستحدث) لم يعد صحيحا من الوجهة العلمية، وهو القول الذى تصيده أساتذتك تصديا فى نهاية القرن الماضى ليبنوا عليه تفسيرا علميا للكون والحياة والإنسان، ولقضية الألوهية؟
ألا تعلم ـ حضرة الرفيق ــ أن طلاب الجامعات يدرسون هذه

الأيام أن الكون المادى حدث ذات يوم، ولم يكن موجودا من قبل، وأن عمر هذا الكون المادى يكاد يحدد الآن تحديدا علميا دقيقا على ضوء المعلومات التى ترسلها الأقمار الصناعية التى تدور حول الشمس وغيرها من الأفلاك.

ألا تعلم ـ حضرة الرفيق ـ أن ماركس وإنجلز ولينين وغيرهم من أساتذتك العظام لم يكونوا مطالبين بثقافة علمية أكبر من ثقافة عصرهم الذى وجدوا فيه، ولكنهم ـ مع ذلك ــ مسئولون ولا شك مسئولية كاملة عن دعواهم بأن المادة هى التى تخلق، وأن من بين خلقها الإنسان؟

ما الدليل العلمى على هذه الفرية؟

متى شوهدت المادة وهى تخلق؟ وكيف تخلق؟!

بعد هذه التساؤلات المنطقية، والتي أرجو أن تكشف لي غموضها.. فسأناقشك فيما ذكره أساتذتك العظام من مبادئ الطبيعة وقوانينها(1).

أما ما ذكروه من أن الطبيعة كلٌّ واحد متماسك ترتبط فيه الأشياء والحوادث فيما بينها ارتباطاً تاماً، فذلك صحيح.. وهو ـ عند المؤمنين ــ ظاهرة تدل على أن الخالق البارئ المصور واحد مهيمن على كونه.. وهو يدبّره كله بنظام واحد مترابط الأسباب متشابك العناصر.

أما ما ذكروه من أن الطبيعة (أي الموجود المادي الذي هو كل الوجود) سرمدية أزلية أبدية لا بداية لها ولا نهاية، فهو ادّعاء منقوض ببراهين العقل ودلائل العلم، التي تثبت حدوث الكون، وتثبت مصيره إلى الفناء.. وما عليك إلا أن تسير في هذه البلدة قليلا لترى من العلماء من يبيبن لك ـ حسا ـ أن المادة ليست أزلية كما تزعمون(2).

أما ما ذكروه من أن الطبيعة ليست ساكنة، بل هي ملازمة للحركة، وهي في تطور وتغير دائمين.. فهو مبدأ لا حرج فيه.. بل إنه من مقررات المؤمنين بالله، سواءٌ أكانوا أتباع دين رباني صحيح أو فلاسفة مثاليين.. وهو من الأدلة التي هدتهم إلى حدوث الكون، وحاجته إلى محدثٍ خالق بارئ مصور، إذ يقولون: العالم متغير، وكل متغير حادث، فالعالم حادث، وكل حادث لا بد له من محدث،

---

1) هذه المناقشات ملخصة بتصرف واختصار من كتاب (كواشف زيوف) لحبنكة.. وقد اقتصرنا منها على الجانب المتعلق بالمادية الجدلية، دون سائر المبادئ الشيوعية المرتبطة بالتاريخ والاقتصاد لعدم تناسبها مع الموضوع.

2) ذكرنا الأدلة العلمية الكثيرة على ذلك في هذا الفصل.

فالعالم لا بد له من محدث(1).

أما ما ذكروه من أن الوعي لمادة عالية التنظيم وهي الدماغ، وأن الحياة وظيفة من وظائف المادة متى وصل تركيبها إلى وضع خاص، فهو مخالف لما كشفته العلوم الكثيرة.. فآخر ما توصلت إليه العلوم الإنسانية، والتي أنفقت في سبيلها ألوف الملايين، وعشرات السنين، قد انتهت إلى قرار علمي جازم هو أنه لا تتولد الحياة إلا من الحياة، وأن وسائل العلوم الإنسانية لا تملك تحويل المادة التي لا حياة فيها، إلى أدنى وأبسط خلية حية(2).

وبما أن الوعي مرتبط بالحياة فهو مظهر من مظاهرها وصفة من صفاتها، فلا سبيل للمادة الميتة أن يكون الوعي أحد وظائفها، مهما كانت عالية التنظيم(3).

على أن مبدأهم هذا هو في الأساس ادعاء غير مقترن بأي دليل عقلي أو علمي، وهو من لوازم مبدئهم الأول الباطل الذين يرون فيه أن المادة هي أساس الوجود وجوهره.

أما ما ذكروه من أن كل الأشياء وحوادثها تحوي تناقضات

---

1) ذكرنا هذه النوع من الاستدلال في المناظرة الأولى.

2) هذا من الحقائق العلمية التي لم تزدها الأيام إلا تأكيدا، وقد تواترت شهادات العلماء على ذلك، يقول (رسل تشارلز إرنست) أستاذ الأحياء والنبات بجامعة فرنكفورت بألمانيا: (لقد وضعت نظريات عديدة لكي تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات ، فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين ، أو من الفيروس أو تجمع بعض الجزئيات البروتينية الكبيرة وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوى التى تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات.. ولكن الواقع الذى ينغى أن نسلم به هو أن جميع الجهود الذى بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين. ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع ، على أن مجرد تجمع الذرات والجزئيات من طريق المصادفة ، يمكن أن يؤدى إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التى شاهدناها في الخلايا الحية. وللشخص مطلق الحرية فى أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة ، فهذا شأنه وحده ! ولكنه إذ يفعل ذلك ، فإنما يسلم بأمر أشد إعجازا أو صعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله ، الذي خلق الأشياء ودبرها)

ويضيف: (إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها ، وأن ملايين الملايين من الخلايا الحياة الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق. ولذلك فإننى أؤمن بوجود الله إيمانا راسخا (من مقال (الخلايا الحية تؤدى رسالتها) من كتاب (الله يتجلى فى عصر العلم) ، ص 77)

ويقول إيرفنج وليام (دكتوراه من جامعة أيووا وإخصائى وراثة النبانات ، وأستاذ العلوم الطبيعية بجامعة ميتشجان): (إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية فى صغرها ، والتى لا يحصيها عد ، وهى التى تتكون منها جميع المواد. كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا – بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها – كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكى تكون الحياة) (الله يتجلى فى عصر العلم، ص 52)

3) الوعي المراد هنا هو الوعي الكامل.. أما أصل الوعي فقد ذكرنا في مناسبات كثيرة أنه لا تخلو منه ذرة من ذرات الكون.. انظر رسالة (أكوان الله)

داخلية، مجتمعة متزاحمة في وحدة، يعبرون عنها بوحدة الأضداد أو وحدة المتناقضات. وهي تتصارع فيما بينها وفق نظام (جدلية هيجل) فيدفع بها الصراع إلى التطور الصاعد لأنه السبيل الوحيد لحل التناقض أو التضادّ القائم بينها.. فهي قضية تحوي مغالطات كثيرة.

منها أن النقيضين كالوجود والعدم، وكإيجاب الشيء وسلبه، لا يجتمعان في شيء واحد ووقت واحد، واجتماعهما مستحيل عقلاً.. ولا يرتفعان معاً من شيء واحد في وقت واحد، وارتفاعهما معاً مستحيل عقلاً.. فلا يكون الشيء الواحد في الوقت الواحد موجوداً ومعدوماً معاً، ولا موجباً وسالباً معاً من الجهة التي يكون فيها موجباً.. ولا يكون الشيء الواحد في الوقت الواحد غير موجود وغير معدوم معاً، أو غير موجب وغير سالب معاً.

ومنها أن الضدين كالأبيض والأسود، وكالواجب والحرام، وكالجبر على الهداية والجبر على الضلال، لا يجتمعان معاً في شيء واحد ووقت واحد، واجتماعهما معاً مستحيل عقلاً. فلا يكون الشيء الواحد بالذات أبيض وأسود معاً من الجهة نفسها في وقت واحد، ولا يكون حكم العمل الواحد واجباً وحراماً معاً فيوقت واحد لشخص واحد من جهة واحدة، ولا يكون المخلوق الواحد مجبوراً على الهداية ومجبوراً على الضلالة معاً، في وقت واحد، ومن جهة واحدة.

لكن الضدين ـ خلافا للمتناقضين ــ قد يرتفعان معاً في وقت واحد، فيكون الجسم لا أبيض ولا أسود معاً في وقت واحد، إذ قد يكون أحمر أو أصفر أو غير ذلك من ألوان..

لكن المادية الجدلية نسفت هذا الأصل العقلي المنطقي نسفاً كلياً، فأقامت الوجود كله على فكرة اجتماع الأضداد أو المتناقضات واتحادها.

وفي ادعاء اتحاد الأضداد والمتناقضات استهانة بالغة بالعقل البشري، وإقامة مذهب كامل على أمر باطل واضح البطلان.. فاللحظة التي يكون فيها الشيء متحركاً، لا يمكن أن يكون فيها ساكناً، واللحظة التي يكون فيها ساكناً لا يمكن أن يكون فيها متحركاً.. لكن الشيء الواحد قد تتداول عليه الحركة والسكون بلحظات متتابعات مهما صغرت ودقت هذه اللحظات، وقد ينخدع بذلك بعض أهل الفلسفة، فيظن أن السكون كامن في الحركة، فيعتبر ذلك من اجتماع النقيضين، وليس الأمر كذلك.

وقد يمثل مدعو اجتماع الضدين أو النقيضين بتماس السالب والموجب في الكهرباء، الذي ينجم عنه الظواهر الضوئية والحركية.. لكن التمثيل بهذا تمثيل باطل، فالسالب والموجب في الكهرباء ليسا ضدين ولا نقيضين منطقيين.

إن السالب المنطقي للكهرباء هو لا كهرباء، ويصدق ذلك بأي شيء غير كهرباء في الوجود، فالخشب والحجر والتراب والثلج والملح والحلاوة والملاسة والخشونة وغير ذلك كلها ليست بكهرباء.

أما السلك السالب في الكهرباء، فليس هو السالب المنطقي للكهرباء، إنما هو مشتمل على قوة أخرى منافرة للقوة الكهربائية.

فالموجب والسالب في الكهرباء قوتان متنافرتان متقابلتان، إذا تماسا تفاعلا، فأنتجا بحسب قوانين إنتاجهما ظواهر ضوئية أو حركية، كالذكر والأنثى، وما ينتج عنهما.

إن القوى المتنافرة والمتآلفة والمتفاوتة كلها إذا تلاقت أو تماست أو اجتمعت كانت ذات آثارٍ ما، وآثارها تخضع لقوانين خاصة بكل منها.

أما ما ذكروه من أن حركة التطور هي تغير ينتقل من تغيرات كمية تتراكم، إلى تغيرات كيفية، بشكل سريع ومفاجئ وارتقائي من حالة أدنى إلى حالة أعلى وبشكل ذاتي.. فإن هذا المبدأ لا يمكن أن يعتبر قانوناً عاماً ينطبق على كل حركة تطور في الطبيعة، فالعلوم المادية الإنسانية لا تقر به، وهو إن صدق ببعض الأمثلة، فإنه لا يصدق بآلاف الأمثلة الأخرى.

إن التراكم في الكم لا يقتضي دائماً تطورا في الكيف، ما لم يكن نظام ذلك الشيء يقتضي ذلك.. فالملاحظة تثبت أن لكل حالة تطور في الكون شروطاً معينة في أنظمته وسننه الثابتة، فمتى استوفيت هذه الشروط تحقق التطور.

فبيضة الدجاجة الملقحة إذا وجدت ضمن حرارة ذات مقدار معين، ورطوبة ذات مقدار معين، بدأ جنينها يتكون تدريجياً حتى يتكامل داخل القشرة، وفي نهاية ثلاثة أسابيع يكون قد تكامل، وبدأ ينقر القشرة من الداخل حتى يكسرها، وعندئذٍ يخرج من غلافه إلى الهواء، ليبدأ رحلة حياته على الأرض.

لقد حصل التطور، ولكن على خلاف ما ادعاه أساتذتك المدعين، فلا تراكم الحرارة هو الذي أحدث ظاهرة التغير، ولا تراكم الرطوبة، بل ثبات درجة الحرارة، وثبات درجة الرطوبة، قد

ساعدا على تكون جنين البيضة تكوناً تدريجياً، ضمن الوقت المخصص في نظام الكون لتكامل تكوينه.

ولو أن الحرارة تراكمت أكثر من المقدار المحدد في نظام التكوين لسلقت البيضة، ولهلكت نواة جنينها، ولو زاد هذا التراكم لاحترقت البيضة.

فنظام الكون هو نظام تحديد مقادير لكل شيء، ضمن خطط ثابتة، وليست تغيراته ثمرة تراكمات.. هذه هي الحقيقة التي تدل عليها الملاحظات والتجارب العلمية، وهي التي أعلنها قول الله عز وجل:﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾(الرعد: من الآية8)

إن هذا المثال وحده كافٍ لنقض فكرة التراكم التي تعتبرونها قانوناً شاملاً لكل تطور في الوجود.. وهو كافٍ لنقض فكرة التطور السريع المفاجئ، إذ الأمور تتطور في الغالب تطوراً تدريجياً..

بالإضافة إلى هذا، فإن الكائنات الحية تبدأ حركة بنائها منذ لحظة التقاء خلية لقاح الذكر بخلية بييضة الأنثى، ثم يسير بناء الكائن في نمو متدرج، حتى إذا استوفى الشروط اللازمة لظهور الحياة دبت الحياة فيه.. ثم يسير ضمن نظام نمو متدرج، حتى إذا استكمل نموه الجنيني، تمخضت عنه أمه فولدته.. ثم يسير في نمو تدريجي حتى يبلغ، ويتدرج في النماء حتى يكون شاباً فكهلاً.. ثم يعود إلى طور الانحدار، فيصير شيخاً، فهرماً، ثم يقضي أجله المقدر له، فيموت، فيتفسخ جسمه، ويعود تراباً كما بدأ من التراب.

وقد يموت في أي مرحلة من المراحل السابقة، فينحدر ويعود إلى مثل مرحلة البدء، دون أن يمر في المراحل المعتادة للأحياء.

وتخضع كل المراحل لنظام المقادير المحددة في كل شيء، في العناصر، وفي الصفات، وفي الزمان، وفي درجة الحرارة، وفي سائر ما يلزم لتكوين الحي، وإعداده لأداء وظائفه.

ولهذا، فإن فكرة التراكم المقررة عندكم فكرة منقوضة، ذلك لأن الأحياء تخضع لنظام المقادير المحددة سواء في جواهرها وأعراضها، ولا تخضع لفكرة التراكم الكمي.. ومثلها فكرة التطور السريع المفاجئ، ذلك أن الأحياء تسير وفق نظام البناء المتدرج، لا وفق التطور السريع المفاجئ.

وفكرة الارتقاء المقررة عندكم على أنها قانون شامل عام، فكرة لا تصلح لأن تكون مبدأً عاماً، فعمومها منقوض، وذلك لأن تطور الأحياء ليس حركة ارتقائية دائماً، بل قد تكون حركة إلى

الأدنى أو إلى المساوي.. فالتعميم المدعى في المبدأ تعميم باطل.

ما وصل البوطي من حديثه إلى هذا الموضوع حتى رأيت وجه ماركس قد تغير تغيرا شديدا، ثم راح يسير مطأطئا الرأس.. لا أدري لم، ولا أدري أين.

المناظرة الثامنة:

قال الجمع: فحدثنا عن المناظرة الثامنة.

قال: في شارع من شوارع تلك المدينة وجدت جماهير من الناس تلتف حول رجلين: أما أحدهما، فكان اسمه (عبد الرحمن حبنكة)(1). وأما الثاني، فكان الناس يطلقون عليه لقب (العظم) (2).. ولست أدري سر هذا اللقب العجيب.

كان أول ما بدأ به العظم حديثه أن قال ـ كما قال الكثير ممن سبقه ـ: لن أناظرك حتى تخبرني ـ أولا ـ عمن خلق الله؟

قال العظم: لقد حدثنا الرسول ﷺ عن هذه الوسوسة الشيطانية، فقال:(يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ باللهِ ولينته)(3).. وفي حديث آخر قال ﷺ:(لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خلق الله الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل: آمنت بالله ورسله) (4)

ضحك العظم بهستيرية، ثم قال: ما بالك يا رجل تحدثني عن

---

1) أشير به إلى عالم الشام الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة، وقد استفدنا هذه المناظرة الافتراضية من كتابه (صراع مع الملاحدة حتى العظم)

2) أشير به إلى صادق جلال العظم، وهو أحد أساطين الفكر الشيوعي المادي ، وملحد من كبار الملاحدة ، ممن أخذ يجاهر بالإلحاد ، ويدعو إليه ، قضى عمره في السخرية من المسلمين ومن دينهم ، وكفر بكل شيء إلا المادة.

وقد ذكر الشيخ عبد الرحمن الميداني في كتابه (صراع مع الملاحدة حتى العظم) (ص 12-13) ـ والذي استفدنا منه هذه المناظرة الافتراضية ـ بأن العظم ألف كتابه السابق (خدمة للماركسية والداروينية والفرويدية، وسائر النظريات، بل الفرضيات اليهودية الإلحادية، وهو في كل ذلك يتستر بعبارات التقدم العلمي والصناعي والمناهج العلمية الحديثة، ولا يقدم من البينات إلا قوله مثلاً: إن العلم يرفض هذا، أو لا يُسلم بهذا، أو يثبت هذا، دون أن يطرح مناقشات علمية نقدية تتحرى الحقيقة).

وقد قام بالرد على العظم كثير من العلماء والكتاب؛ من أبرزهم:

الشيخ عبد الرحمن الميداني في كتابه (صراع مع الملاحدة حتى العظم)، وهو الذي استفدنا منه هنا في هذا المحل، واقتصرنا على ما يرتبط بالإيمان بالله.

الشيخ محمد حسن آل ياسين في كتابه (هوامش على كتاب نقد الفكر الديني)

الأستاذ جابر حمزة فراج في كتابه (الرد اليقيني على كتاب نقد الفكر الديني)

الأستاذ محمد عزت نصر الله في كتابه (تهافت الفكر الاشتراكي)

الأستاذ محمد عزة دروزة في كتابه (القرآن والملحدون)

الدكتور عبداللطيف الفرفور في كتابه (تهافت الفكر الجدلي)

3) رواه البخاري ومسلم.

4) رواه البخاري ومسلم.

نبيك.. لو كنت أؤمن به ما جلست معك هذا المجلس.. أنا أريــد أن تخاطبني بالعقل.. فأنا لا أؤمن إلا بالعقل..

أنــا في حيــاتي لا أؤمن إلا بشــيئين: أولهمــا العقــل.. وثانيهمــا الدينونة بالاحترام والتقدير لإبليس المظلوم(1).

اســمع منهجي في التفكــير.. اســمع المنهج العلمي الحقيقي.. اسمع ما قلته في بعض كتبي منطلقا من هذا التســاؤل لأصــل إلى أن الإيمان بالله لا يعــدو أن يكــون خرافــة كســائر الخرافــات الــتي امتلأت بها العقول المتخلفة.

فتح كتابا كان يحمله، وراح يقرأ بصوت جهوري ممتلئ غــرورا.. (حتى لو سلمنا كلياً بالنظرة العلمية للأشياء ستبقى أمامنا مشــكلة المصــدر الأول لهــذا الكــون. لنفــترض مــع (رســل) أن الكــون بــدأ بسديم، ولكن العلم لا يقول لنــا: من أين جــاء هــذا الســديم، إنــه لا يبين لنــا من أين جــاءت هــذه المــادة الأولى الــتي تطــور منهــا كــل شيء؟ فلا بد للعلم إذن من أن يتصل بالدين في نهايــة المطــاف.. ولكن طرح السؤال بهذه الصورة يبين لنا مدى تحكم تربيتنا الدينية وتراثنا الغيبي في كل تكفيرنا.. لنفــترض أننــا ســلمنا بــأن اللــه هــو مصدر وجود المادة الأولى، هل يحل ذلك المشكلة؟ هل يجيب هذا الافتراض على سؤالنا عن مصدر السديم الأول؟ والجواب هو طبعاً بالنفي.. أنت تسأل عن علة وجود السديم الأول وتجيب بأنها اللــه، وأنا أسألك بدوري وما علة وجــود اللــه؟ وســتجيبني بــأن اللــه غــير معلول الوجود، وهنا أجيبك: ولماذا لا نفترض أن المادة الأولى غــير معلولــة الوجــود، وبــذلك يُحســم النقــاش دون اللجــوء إلى عــالم الغيبيات، وإلى كائنات روحية بحتة لا دليل لنــا على وجودهــا، علمــاً بأن ميل الفلاسفة القدماء بما فيهم المسلمين كان دائماً نحــو هــذا الرأي إذ قالوا بقدم العــالم، ولكنهم اضــطروا للمــداورة والمــداراة

---

1) رغم إلحاد العظم وعدم إيمانه بالله.. ولا بجميع عوالم الغيب إلا أنه عقد فصلاً في كتابــه (نقــد الفكــر الــديني) يــدافع فيــه عن (إبليس) ســماه (مأســاة إبليس) (ص55 ومــا بعدها) ردد فيه شبهات إبليس التي نقلتها بعض الكتب السابقة في اعتراضه على القــدر؛ ككتاب (الملل والنحل) للشهرستاني (7-10)

ثم ختم كلامه بقوله عن إبليس (ص85): (يجب أن نرد له اعتباره بصــفته ملاكــاً يقــوم بخدمة ربه بكل تفان وإخلاص، ويجب أن نكف عن كيل السباب والشــتائم لــه، وأن نعفــو عنه ونطلب له الصفح ونوصي الناس به خيراً)

وقد ذكر سبب بحثه في هذا مع عدم إيمانه به، بقوله في (ص57): (يدور (بحــثي) في إطار معين لا يجوز الابتعاد عنه على الإطلاق؛ ألا وهــو إطــار التفكــير الميثولــوجي الــديني الناتج عن خيال الإنسان الأسطوري وملكاته الخرافية) فهو يريــد دراســة شخصــية إبليس (باعتبارها شخصية ميثولوجية أبدعتها ملكة الإنســان الخرافيــة، وطورهــا وضــخمها خيالــه الخصب)

بسبب التعصب الديني ضد هذه النظرة الفلسفية للموضوع(1)، في الواقع علينا أن نعترف بكل تواضع بجهلنا حول كل ما يتعلق بمشكلة المصدر الأول للكون)(2)

ابتسم حبنكة، وقال: هل انتهيت؟

قال العظم: ألا يكفي هذا الكلام العلمي لأن يجعل هذا المجلس ينفض؟.. لقد أتيت بفصل الخطاب.. ولا يمكن لأحد في الدنيا أن يعقب على حرف واحد مما ذكرت.

قال حبنكة: اسمح لي أن أعقب على ما ذكرت.. فقد اتفقنا جميعا، ومعنا هذا الجمع على أن لا نعظم إلا الحقيقة.. الحقيقة وحدها، بغض النظر عمن يمثلها، هل أنا أم أنت؟

طأطأ العظم رأسه، فقال حبنكة: سأبدأ حديثي معك عن تساؤلك عن علة وجود المصدر الأول للأشياء، وزعمك أن إحالة المؤمنين ذلك على الله تعالى يساوي نظرياً وقوف الملحدين عن السديم، الذي اعتبروه المادة الأولى لهذا الكون.. فكلا الفريقين عندك متساويان مع فارق مهم، وهو أن الملحد اعترف بهذا قبل المؤمن بخطوة واحدة.. فهل هذا ما تقصده؟

قال العظم: أجل.. أم أنك تحتقر ما ذكرت؟

قال حبنكة: لا.. أنا لا أحتقر ما ذكرت.. ولكني أقرره لأناقشه عن بينة.

قال العظم: إن كان لديك قدرة على نقض ذلك الكلام، فهلم به.

قال حبنكة: اسمح لي أن أذكر لك بأن ما ذكرته ليس سوى مغالطة من المغالطات الفكرية.. وهي مغالطة قائمة على التسوية بين أمرين متباينين تبايناً كلياً، ولا يصح التسوية بينهما في الحكم.

غضب العظم، وقال: لا ينبغي لك أن تقول هذا.. إن ما تقوله خطير..

قاطعه حبنكة بهدوء، وقال: اصبر علي كما صبرت عليك.. فلا يمكن أن ننفعل أثناء حوارنا.

هدأ العظم، فقال حبنكة: إن الترجمة الصحيحة لكلامك هي (ما دام الموجود الأزلي غير معلول الوجود، فلم لا يكون الموجود الحادث غير معلول الوجود أيضاً؟)

---

1) لا شك أن هذا من المفتريات، فأكثر فلاسفة الإسلام كانوا من الملتزمين بالإسلام، بل حاولوا نصرته بما أتيح لهم من أدوات لم تتح لغيرهم.

2) نقد الفكر الديني:ص28.

وكل ذي فكر صحيح سليم من الخلل يعلم علم اليقين أنه لا يصح أن يُقاس الحادث على القديم الأزلي الذي لا أول له، فلا يصح أن يشتركا بناء على ذلك في حكم واحد.

وعلى هذه الطريقة من القياس الفاسد من أساسه صيغت تلك المغالطة الجدلية..

نعم.. أنتم تتفننون في ستر عورة هذه المغالطة، وذلك بعبارات التقدم العلمي، والمناهج العلمية، والتقدم الصناعي، والمناهج العقلية في تقصي المعرفة، والاتجاهات الثورية في المجتمع والاقتصاد.. وتخلطون هذه العبارات خلطاً.. وتحشرونها في كل مكان ومع كل مناقشة، تمويهاً وتضليلاً، وكأن التقدم العلمي والصناعي للإلحاد وحده، وليس للإيمان، مع أن الدنيا جميعها وما فيها من ماديات قد كانت وما زالت ولن تزال حتى تقوم الساعة للمؤمنين والكافرين وغيرهم على السواء، ضمن سنن الله الثابتة التي لا تتغير، وهي مجال مفتوح لكل الناس، إذ يمتحن الله بها إرادتهم وسلوكهم في الحياة، ليبلوهم أيهم أحسن عملاً.

قال العظم: دعنا من كل هذه الخطابات، وأنبئني: لِمَ لا تكون المادة الأولى لهذا الكون (كالسديم مثلاً) قديمة أزلية غير حادثة ،تنطلق منها التحولات، ثم ترجع إليها التحولات؟

قال حبنكة: إن الجواب على هذا يؤخذ من الكون نفسه، وما فيه من صفات وخصائص، فالكون يحمل دائماً وباستمرار صفات حدوثه، تشهد بهذه الحقيقة النظرات العقلية المستندة إلى المشاهدات الحسية.. وتشهد بها البحوث العلمية المختلفة في كل مجالات المعرفة.. حتى القوانين العلمية التي توصَّل إليها العلماء الماديون تشهد بهذا.

وإذا ثبت أن هذا الكون حادث له بداية وله نهاية كان لا بد له من علة تسبب له هذا الحدوث، لاستحالة تحول العدم نفسه إلى وجود، أما ما لا يحمل في ذاته صفات تدل على حدوثه فوجوده هو الأصل، ولذلك فهو لا يحتاج أصلاً إلى موجد يوجده.. وكل تساؤل عن سبب وجوده تساؤل باطل منطقياً، لأنه أزلي واجب الوجود، وليس حادثاً حتى يُسأل عن سبب وجوده.

ولو كانت صفات الكون تقتضي أزليته لقلنا فيه كذلك، لكن صفات الكون المشاهدة والمدروسة تثبت حدوثه.

وهنا تكمن المغالطة التي تستند إليها، إذ أنك تريد أن تجعل

الكون أزلياً، مع أن البراهين تثبت أنه حادث، وذلك لتتخلص من الضرورة العقلية التي تلزم بالإيمان بوجود خالق لهذا الكون الحادث، لأن الحدوث من العدم المطلق دون سبب موجود سابق عليه مستحيل عقلاً.

قال العظم: من السهل علي أن أدعي بأن هذا الكون أزلي.. وبذلك تنتهي المشكلة.

قال حبنكة: إن هذه الدعوى باطلة بكل الاعتبارات.. سواء كان منها العقلية الفلسفية القديمة، أو القوانين العلمية الحديثة:

فالأدلة العقلية الفلسفية تثبت لنا حدوث العالم من ظاهرة التغير الملازمة لكل شيء فيه، وذلك لأن التغير نوع من الحدوث للصورة والهيئة والصفات.. وهذا الحدوث لا بد له من علة.. وتسلسلاً مع العلل للمتغيرات الأولى، سنصل حتماً إلى نقطة بدء نقرر فيها أن هذا الكون له بداية، في صفاته وأعراضه، وفي ذاته ومادته الأولى.. وحينما نصل إلى هذه الحقيقة لا بد أن نقرر أن خالقاً أزلياً لا يمكن أن يتصف بصفات تقتضي حدوثه، وهذا الخالق هو الذي خلق هذا الكون وأمده بالصفات التي هو عليها.

قال العظم: أنا لا أسلم لهذا النوع من الأدلة.. فهي تفتقر إلى العلمية.

قال حبنكة: لقد اكتشف العلم الحديث القانون الثاني للحرارة الديناميكية، وهو القانون الذي يسمونه (قانون الطاقة المتاحة) أو يسمونه (ضابط التغير)

وهذا القانون يثبت أنه لا يمكن أن يكون وجود الكون أزلياً، إذ هو يفيد تناقص عمل الكون يوماً بعد يوم، ولا بد من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات، وحينئذ لا تبقى أي طاقة مفيدة للحياة والعمل، وتنتهي العمليات الكيميائية والطبيعية، وبذلك تنتهي الحياة.

لقد ذكر هذا التحقيق العلمي عالم أمريكي في علم الحيوان، هو (إدوارد لوثر كيسل) ثم قال: (وهكذا أثبتت البحوث العلمية دون قصد أن لهذا الكون بداية، فأثبتت تلقائياً وجود الإله، لأن كل شيء ذي بداية لا يمكن أن يبتدئ بذاته، ولا بد أن يحتاج إلى المحرك الأولى الخالق الإله)

وذكره (السير جيمس) حين قال في كلام له: (تؤمن العلوم الحديثة بأن (عملية تغير الحرارة) سوف تستمر حتى تنتهي طاقاتها كلية، ولم تصل هذه العملية حتى الآن إلى آخر درجاتها،

لأنه لو حـدث شـيء مثـل هـذا لمـا كنـا الآن موجـودين على ظهـر الأرض حتى نفكر فيها، إن هذه العملية تتقدم بسـرعة مـع الـزمن، ومن ثم لا بد لها من بداية، ولا بد أنه قد حـدثت عمليـة في الكـون يمكن أن نسميها (خلقاً في وقت مـا) حيث لا يمكن أن يكـون هـذا الكون أزلياً)

وبذلك، فإن حدوث هـذا الكـون أمـر معـترف بـه عنـد العلمـاء الماديين..

بالإضافة إلى هذا، فإن الادعاء بأن المـؤمن باللـه لا يـدري علـة وجود الله مغالطة أخرى في الحقيقة.. ذلك أن من أصـله الوجـود، ووجوده أزلي، فإنه لا يحتاج إلى علة لوجوده.. إذ السؤال عن هـذه العلة أمر مخالف للمنطق السـليم، أو عبث من العبث، أو مغالطـة قائمة على الإيهام بأنه حادث غير أزلي.

ولهذا نرى الملحدين يسـارعون إلى عـوام المسـلمين يقولـون لهم: ألستم تقولون: إن كل موجـود لا بـد لـه من موجـد، وإن هـذا الكون موجود فلا بد له من موجد، وذلك هو الله تعالى؟

فيقول له العامي الذي لا يعرف أصول المغالطات: بلى..

عندئـذ يسـتدرجه الملحـد فيقـول لـه: اللـه موجـود، وهـو على حسب الدليل لا بد له من موجد، فيجد العامي نفسه قـد انقطـع إذ لم يستطع جواباً.

لكن الخبير لا يقبل أصلاً صيغة الـدليل على هـذا الوجـه القـائم على المغالطة، ذلك لأن المقدمة (كل موجود لا بد لـه من موجـد) مقدمة كاذبة غـير صـحيحة، فـالخبير لا يسـلم بهـا لفسـادها، وإنمـا يقـول بـدلها: (كـل موجـود حـادث لم يكن ثم كـان لا بـد لـه من محدث)، ثم يقول: (وهـذا الكـون موجـود حـادث لم يكن، ثم كـان بشهادة العقل وبشهادة البحوث العلميـة)، عندئـذٍ تتحصـل النتيجـة على الوجـه التـالي: (إذن فلا بـد لهـذا الكـون من محـدث)، وهـذا المحدث للكون لا بد أن يكون موجوداً أزلياً غـير حـادث، ولا بـد أن يكون منزهاً عن كل الصفات التي يلزم منها حدوثه، حـتى لا يحتـاج إلى موجد يوجده، بمقتضى الدليل الذي أثبتنا فيه وجود الله.

فمغالطـة الملحـد في المقدمـة الـتي أوهم بهـا قائمـة على التعميم، إذ وضع (كل موجود) بدل (كل موجود حادث)، ومعلوم أن عبارة (موجود) تشمل الموجود الأزلي والموجود الحادث.

وهكـذا تجـري مغالطـات الملحـدين، ليتصـيدوا بهـا الجهلـة والغافلين بغية استدراجهم وإحـراجهم، ونقلهم من مرحلـة الإيمـان

إلى مرحلة التشكك.

فـــالمؤمن إذن يعلم أن الخـــالق موجـــود أزلي ليس لـــه من الصفات ما يلزم منها حدوثـه، ووجـوده هـو الأصـل، فلا يسـأل عن علة وجوده عند العقلاء أصلاً، والسؤال عن علة وجوده أمر مخالف للحقيقة العلمية المنطقية التي انتهينا إليها.

وكما لا يُسأل عمّا أصله العدم: ما هي علة عدمه؟ لأن مثل هذا السؤال لا يرد إلا على افتراض أن أصله الوجـود، وهـذا ينـاقش أن أصله العدم، كذلك ما أصـله الوجـود لا يُسـأل عن علـة وجـوده ولا يبحث عنها، لأن أي سؤال أو بحث عنهـا لا يكـون إلا على افـتراض أن أصله العدم، وبهذه العلة تحول من العدم إلى الوجود، لكن هـذا الافتراض مرفوض ابتداءً، باعتبار أن أصله الوجود.

وبهذا يتضح لنا تماماً أنه لا يُسـال ولا يبحث عن علـة وجـود مـا الأصل فيه الوجود.

وبهذا أيضاً تسقط المغالطة التي طرحها الملحد في مناقشـته، ويظهـر فسـاد تسـويته بين الكـون الحـادث وبين الخـالق الأزلي.. وحينما نطالبـه بعلـة وجـود الحـادث وهـو الكـون، فليس من حقـه المنطقي أن يطالبنا بعلة وجود الله الأزلي.

وليس من حق الملحد أن ينكر الوجود الأزلي كله ما دام الواقع يكذبـه، والـبراهين العلميـة تهـزأ بـه، لأنـه لـو لم يكن في الوجـود موجـــود أزلي لاســـتحال أن يوجـــد شـــيء في هـــذا الكـــون، لأن الافـتراض على هـذا يقـوم على أسـاس العـدم المطلـق.. والعـدم المطلق يستحيل أن يتحول بنفسه إلى وجود.

ولهذا، فإن هذا الكون الـذي نحن جـزء منـه موجـود حـادث ذو بداية، وكل ذي بداية لا بد لـه من علـة كـانت السـبب في وجـوده، وإيجاده قد كان عملية من عمليات الخلق، وعملية الخلـق إنمـا تتم بخالق قادر، وهـذا الخـالق القـادر لا بـد أن يكـون أزليـاً، ولا بـد أن يكون متحلياً بالكمال المطلق.. هذه هي عقيدة المؤمنين بالله.

قال العظم: لا شك أنك لم تقرأ ما ذكرته في كتابي.. وبالضبط في صفحة (25) منه حين قلت: (ولنلمس طبيعة هـذا الفـارق بين النظرة الدينيـة القديمـة وبين النظـرة العلميـة الـتي حلت محلهـا، سـنوجه انتباهنـا إلى مثـال محـدد يـبين بجلاء كيـف يقودنـا البحث العلمي إلى قناعـات وتعليلات تتنـافى مـع المعتقـدات والتعليلات الدينية السائدة، ممـا يضـطرنا إلى الاختيـار بينهمـا اختيـاراً حاسـماً ونهائياً)

اسمع جيدا هذا المثال الـذي ذكرتـه.. إنـه فصـل الخطـاب في المسألة.. لقد قلت في كتابي:(لا شك أن القـارئ يعـرف التعليـل الإسلامي التقليدي لطبيعة الكون ونشـأته ومصـيره.. وهـو أن اللـه خلق هذا الكون في فترة معينة من الـزمن، بقولـه: كن فكـان، ولا شك أنه يذكر حادثة طرد آدم وحواء من الجنة، تلـك الحادثـة الـتي بـدأ بهـا تـاريخ الإنسـان على هـذا الأرض، ومن صـلب المعتقـدات الدينية أن الله يرعى مخلوقاته بعنايته وهو يسـمع صـلواتنا وأحيانـاً يستجيب لدعائنا، ويتدخل من وقت لآخر في نظام الطبيعة فتكـون المعجزات، أما الطبيعة فقد حافظت على سـماتها الأساسـية منـذ أن خلقها اللـه، أي أنهـا تحتـوي الآن على نفس الأجـرام السـماوية وأنواع الحيوانات والنباتات التي كانت موجودة فيها منذ اليوم الأول لخلقها.. أما النظرة العلمية حول الموضوع ذاته فلا تعترف بـالخلق من لا شيء، ولا تقر بأن الطبيعة كانت منـذ البدايـة كمـا هي عليـه الآن)

ابتسـم حبنكـة، وقـال: إن هـذا الكلام الـذي أوردتـه في كتابـك العظيم كذب على الدين، ومغالطة في الحقيقـة، وتمويهـات بـذكر بعض أمور هي من الدين، أوردتها لتغشي بها على نظر القارئ، فلا يبصر مواطن الافتراءات، ومزالق المغالطات.

لقـد أدخلت فكـرة لا يعـترف بهـا الـدين أصـلاً، ضـمن عرضـك لطائفة من المفـاهيم والعقائـد الدينيـة الصـحيحة، لتضـلل القـارئ بالإيهام الذي اصطنعته له، ولتجعله يعتقد أن هـذه الفكـرة الدخيلـة هي فعلاً من المفاهيم الدينية، ما دامت قد وردت ضـمن مجموعـة مفاهيم صحيحة يعرفها هو عن الدين.

لقـد زعمت أن الإسـلام يـرى أن الطبيعـة قـد حـافظت على سماتها منذ أن خلقها الله، أي: أنها تحتوي الآن على نفس الأجـرام السماوية وأنواع الحيوانات والنباتات التي كانت موجودة فيهـا منـذ اليوم الأول لخلقها.. مع أن هـذا افـتراء صـريح على الـدين، تكذبـه بالنصـوص القرآنيـة، ولسـت أدري من أين جئت بهـذه المفـاهيم فألصقتها بالدين؟

لما تحدث القرآن عن فئة الحيوانات الـتي خلقهـا اللـه لركـوب الإنسان، وليتخذها زينـة لـه، ألحقهـا بقولـه تعـالى:﴿ وَيَخْلُـقُ مَـا لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحـل: من الآية8) بصـيغة الفعـل المضـارع الـتي تـدل على الحال والاستقبال، للدلالة على أن عمليات التجديد في الخلق الرباني للأشياء مسـتمرة غـير منقطعـة، قـال اللـه تعـالى:﴿ خَلَـقَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (﴾6 (النحل)

أليس في هذا إعلاناً صريحاً مخالفاً لما زعمت من أن الدين يقرر أن الطبيعة قد حافظت على سماتها منذ أن خلقها الله.

وبالنسبة إلى الأجرام السماوية لا نجد في النصوص الإسلامية ما يدل على هذا الذي افتريته، بل في النصوص ما يدل على خلاف ذلك، قال الله تعالى:﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذريات:47).. فكلمة (موسعون) في الآية تشير إلى أعمال التوسعة المتجددة في السماء، وذلك لأن هذه الكلمة من صيغ اسم الفاعل، وصيغة اسم الفاعل بقوة المضارع من جهة الدلالة، هي للتعبير عن الحال أولاً ثم عن الاستقبال.

قال العظم: دعنا من هذا.. وأخبرني ألم تسمع بنظرية (لافوازيه)(1) التي تقول: لا يخلق شيء من العدم المطلق، ولا يعدم شيء، وإنما هي تحولات من مادة لطاقة، أو من طاقة لمادة، أو من مادة لمادة؟

ابتسم حبنكة، وقال: أنت لم تفهم (لافوازيه).. إن نظريته لا تتحدث عن الكون جميعا.. إنها تتحدث عن مجال معين ذي أبعاد.. وليس في مستطاعها أن تتحدث عن كل الوجود في كل أبعاده من الأزل إلى الأبد.. فهذا أمر لا تستطيع تقريره أية نظرية استقرائية مهما بلغ شأنها، إلا أن يكون كلامها رجماً بالغيب، وتكهناً لا سند له، وطرحاً تخيلياً محضاً.

إن لنظرية (لافوازيه) ثلاثة أبعاد هي: البعد الزمني، والبعد المكاني، والبعد الإدراكي.

التفت حبنكة إلى العظم، وقال: أجبني: هل رصد واضعو هذه النظرية العلمية ومقرروها أجزاء الكون في كل الأزمان، بما فيها الأزمان السحيقة في القدم، وعرفوا منها أنه لم يخلق في الأزمان القديمة جداً شيء من العدم؟

سكت العظم، فقال حبنكة: إنهم لم يفعلوا ذلك لأنه لا يتسنى لهم بحال من الأحوال، وهم أبناء النهضة العلمية الحديثة، على أن الأدلة العلمية التي سبق بيانها قد أثبتت أن لهذا الكون بداية، وهذا

---

1) هو أنطوان لوران لافوازيه (1743 -ـ 1794م) كيميائي فرنسي، وهو مؤسس الكيمياء الحديثة. قام بقياس أوزان المواد التي تدخل في التفاعلات الكيميائية.

يعني أنه لم يكن ثم كان، فهو إذن مخلوق من العدم، بقدرة خـالق موجود أزلي.

فهذه النظرية لا تتحدث عن الانطلاقة الأولى للكون، لأن أياً من الأجهزة العلمية لا تستطيع أن تسـترجع الأزمـان السـحيقة وترصـد الكون فيها، وكذلك لا تسـتطيع النظـرات التحليليـة الاسـتنتاجية أن تحكم على ماضي الكـون وانطلاقتـه الأولى، بالقيـاس على واقعـه النظامي الذي نشـاهده في الحاضـر، لاحتمـال الاختلاف الـبيِّن بين نقطة البدء وبين ما يأتي بعدها من حالات نظامية مستمرة.

فنظريـة (لافوازيـه) لا تتنـاول بحـال من الأحـوال الـزمن الأول لبداية الكـون، ومجالهـا يـأتي في الأزمـان الـتي يـترجح فيهـا قيـام النظـام الكـوني الـذي درسـته هـذه النظريـة، وبهـذا يتـبين لنـا أن التعميم الزمني فيها الشامل لكل أزمان الماضي غير صحيح.

التفت حبنكة إلى العظم، وقال: أجبني: هل رصد واضـعو هـذه النظرية العلمية ومقرروها أجزاء الكون في مستقبل مـا يـأتي من الأزمـان، وثبت لهم من رصـدهم أنـه لا يمكن أن يخلـق شـيء من العدم، ولا يمكن أن يعدم شيء موجود؟

سـكت العظم، فقـال حبنكـة: لا.. لا يمكن.. كيـف يتسـنى لهم رصد المستقبل وهم لا يملكون استقدامه؟

إن جل ما يملكونه قيـاس المسـتقبل على الحاضـر والماضـي، بشرط استمرار نظـام الكـون القـائم، ولا يسـتطيعون أن يحكمـوا على الكون بأنـه لا يمكن أن يتغـير نظامـه الكلي، فتأتيـه حالـة من الحالات يمسي فيها عدماً، أو تنعدم بعض أجزاء منه، أو تضاف إليه أجزاء لم تكن هيئتها ولا مادتها فيـه، فهـذا حكم لا سـبيل إليـه، إنـه حكم مجهول، والحكم على المجهول باطل.

فنظرية (لافوازيـه) تنطبـق على هـذا الكـون بشـرط اسـتمرار نظامه القائم، وهي لا تحكم على المستقبل حكماً قاطعاً باسـتحالة تغـير هـذا النظـام، ولكن مـا دام هـذا النظـام الكـوني قائمـاً، فـإن ضابطه أن جميـع مـا يجـري من مـدركات فيـه إنمـا هـو من قبيـل التحولات، وبهذا يتـبين لنـا أن التعميم الزمـني فيهـا الشـامل لكـل أزمان المستقبل غير صحيح.

هذا ما يتعلق بتحديد البعـد الزمـني للنظريـة، أمـا تحديـد البعـد المكاني لها فنقول فيه: هل رصد واضعو هـذه النظريـة ومقرروهـا هذا الكون في كل أبعاده المكانية؟.. ألا يحتمل وجود مكان سحيق فيه لم يرصدوه ولم يعرفوا ما فيه؟.. أفيحكمـون عليـه إذن حكمـاً

غيابياً قياساً على ما رصدوه منه في الأمكنة التي استطاعت أن تبلغ إلى مداها أجهزتهم وملاحظاتهم؟

إن هذا الحكم الغيابي مع جهالة الخصائص والصفات حكم باطل، وهذا طبعاً لا يعني ضرورة مخالفة الغائب للحاضر، ولكن لا يعني أيضاً لزوم موافقته.

فلا بد إذن من تحديد مكان النظرية بالأبعاد المكانية التي كانت مجال الملاحظة والقياس والأجهزة، مع التجاوز بصحة قياس ما شابهها عليها، مما لم يخضع للملاحظة المباشرة.

أما تحديد البعد الإدراكي للنظرية فيتلخص بأن النظرية قد اعتمدت على ملاحظة عالم الشهادة من الكون المنظور المدرك، أما عالم الغيب الذي لا تصل إليه الإدراكات الإنسانية المباشرة أو عن طريق الأجهزة، فهو عالم خارج بطبيعته عن مجال النظرية، لذلك فإنها لا تستطيع أن تحكم عليه، لأن حكمهما عليه هو من قبيل الحكم على الغائب المجهول في ذاته وفي صفاته.

جُلُّ ما تستطيعه النظريات في هذا المجال هي أن تعلق أحكامها تعليقاً كلياً، أو تصدر أحكاماً مشروطة احتمالية غير جازمة، وهذا ما تقتضيه الدراسة العلمية المنطقية الحيادية، وتوجبه الأمانة الفكرية في البحث الجاد عن المعرفة والحقيقة.

وهكذا ظهر لنا أن نظرية (لافوازيه) لم تتناول من الكون إلا مقطعاً محدود الأبعاد الثلاثة: البعد الزماني، والبعد المكاني، والبعد الإدراكي، وهذا المقطع هو مجال ملاحظتها.

يضاف إلى كل ذلك أن وجود الحياة في المادة لم يقترن بأي دليل تجريبي يثبت تحول المادة غير الحية إلى مادة حية، عن طريق التولد الذاتي، رغم كل التجارب العلمية التي قامت في عالم البحث العلمي حتى الآن.

لذلك نلاحظ أن الآراء العلمية في هذا المجال ترجع إلى أصول ثلاثة كبرى:

أما أولها، فهو ما قرره (أغاسيز) في كتابه (تصنيف العضويات) سنة (1858م) إذ قرر أن كل نوع من الأنواع خلق بفعل خاص من أفعال القوة الخالقة، و(باستور) مكتشف جراثيم الأمراض على هذا الرأي، والقائلون بهذا الرأي قد استقر مذهبهم على (أن كل حي لا بد أن يتولد من حي مثله)

أما الثاني، فهو ما ذهب إليه (هيرمان أبير هارد ريختر).. إذ رأى أن الفراغ الذي نراه مملوءاً بجراثيم الصورة الحية، كالجواهر

الفردة التي تتكون منها المادة الصماء، كلاهما في تجدد مستمر، ولا يتطرق لهما العدم، وبنى قاعدته في أصل الحياة على (أن كل حي أبدي، ولا يتولد إلا من خلية)، وهذا الرأي يتضمن أن تطورات المادة من المادة، وتطورات الحياة من الحياة.

أما الثالث، فهو ما ذهب إليه الماديون من أن الحياة نشأت من المادة بالتولد الذاتي، وليس لهذا الرأي أي شاهد تجريبي، أو مستند عقلي، وقال بهذا الرأي الدكتور (باستيان) في إنكلترا، والأستاذ (هيكِل) في ألمانيا(1).

قال العظم: دعنا من هذا.. وأجبني ألا ترى أن ما جاء في النصوص الدينية من استعمال كلمة (الخلق) ومشتقاتها بالنسبة إلى الأحداث والتغيرات التي توجد داخل مجال النظرية المذكورة، مناقضاً أو معارضاً لمضمون هذه النظرية؟

قال حبنكة: إن هذا يستدعي الرجوع إلى استعمال كلمة (الخلق) ومشتقاتها في اللغة العربية وفي نصوص الشريعة الإسلامية.. وقد رجعت إلى هذه النصوص، فوجدت أن هذه المادة اللغوية لا تعني دائماً الإيجاد من العدم المطلق، بل كثيراً ما تستعمل مراداً منها التحويل في الصفات والعناصر التركيبية من حال إلى حال، ومن وضع إلى وضع، ومن هيئة إلى هيئة، ومن خصائص إلى خصائص، دون زيادة شيء على المادة الأولى من العدم المطلق، وفي حدود هذا الاستعمال نجد قول الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ﴾ (المؤمنون)

ففي كل ما ذكر من صور الخلق نشاهد عمليات التحويل من وضع إلى وضع، ومن حال إلى حال، ومن صورة إلى صورة، ومن خصائص إلى خصائص، وقد أطلق على هذه التحويلات أنها خلق، باعتبار أن القدرة الربانية هي المتصرفة في كل هذه التحويلات.

وجاء في القرآن إطلاق الخلق على تغيير هيئة الطين وجعله على صورة طير، نظراً إلى أن الخلق لا يستدعي دائماً أن يكون إيجاداً من العدم، وذلك في قول الله لعيسى ﴿:عليه السلام وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي ﴾ (المائدة:

---

1) نقله حبنكة عن (إسماعيل مظهر) في مقدمته لكتاب (أصل الأنواع)، تأليف (تشارلز داروين)

من الآية 110)
وبما أن كل التغييرات الكونية إنما تجـري بـإرادة اللـه وقدرتـه، فهي ظواهر لأعمال الخلق التي يقوم بها الله تعالى.
فعلى التسليم الكامل بنظرية (لافوازيه) ضمن حدودها، لا نجـد تعارضـاً بينهـا وبين المفـاهيم الدينيـة الـتي دلت عليهـا النصـوص الصحيحة الصريحة.
ابتسم، وقال: أنا أعلم أن مثل هذه الحقائق لا تسر الملحـدين، لأنهم حريصون جداً على أن يظفروا بتناقض مـا بين العلم والـدين، حتى يتخـذوا ذلـك ذريعـة لنقض الـدين من أساسـه.. ولن يظفـروا مهما أجهدوا نفوسهم، لأن القرآن حق لا يأتيه الباطل من بين يديـه ولا من خلفه، تنزيل من عزيز حميد، عليم بكل شيء، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة من السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلـك ولا أكبر.
قـال العظم: دعنـا من هـذا.. وأجبـني.. ألم تتسـاءل يومـا عن السر الذي جعل جميع العلماء المحترمين علماء ماديين ملحــدين.. بل لا يصير العالم عالمـا حـتى يصـير ملحـدا.. خـذ مثـالا على ذلـك بالفيلســوف الأمــريكي (وليم جيمس) الــذي كتب كتابــه العظيم، والذي عنونه بـ (إرادة الاعتقاد)؟
إن هذا الرجل العظيم يرى أن البينات العلميـة والأدلـة العقليـة غير كافية بحد ذاتها للبرهان على وجود الله أو عدم وجـوده، لـذلك يحــق للإنســان أن يتخــذ موقفـاً من هــذه المعضــلة يتناســب مــع عواطفه ومشاعره.
واسـمع بعـد هـذا إلى هـذه المعزوفـة العظيمـة الـتي لحنهـا الفيلسوف الأديب (برتراند رسـل) تحت عنـوان: (عبـادة الإنسـان الحر).. لقد صور فيها تفسيرات الملحدين لنشأة الكـون وتطـوره، ونشأة الحياة وتطورها، وأصل الإنسـان ونشـأته وتطـوره، ونشـوء الديانات والعبادات والطقـوس وتطورهـا، وأنكـر فيهـا الآخـرة ومـا فيها.. فالكون بدأ من السديم، وهو إلى السديم يعود.
واسـمع مـع هـؤلاء إلى تلـك المعزوفـات الجميلـة الـتي لحنهـا (ماركس) و(فرويد) و(داروين).. وغيرهم من العباقرة.
ابتسـم حبنكـة، وقـال: أنت تتهجم على المـدافعين عن الـدين بأنهم يقدمون أقوالاً تقريرية غـير مقترنـة بأدلـة.. ولكنـك في الـرد عليهم تفزع إلى قصة أدبية كتبهـا (برتراند رسـل).. وكأنهـا السـند الأمثل للتحقيق العلمي في قصة الخليقة.

هـل تصـبح تلـك القطعـة الأدبيـة هي التحقيـق العلمي العظيم لقصة الوجود كله، التي بدأت بالسديم وستنتهي إلى السديم، وفق النظرات الـتي يرجحهـا أصـحابها دون مسـتندات علميـة صـحيحة، ودون براهين معتبر وفق المنهج العلمي السليم؟

أنَّى لواضـعي هـذه النظريـة أن يشـهدوا بدايـة الكـون؟ وكيـف يتسنى لهم مشاهدة نهايته؟

إن راسل صور في قصته أن السديم الحار دار عبثاً في الفضاء عصوراً لا تعد ولا تحصى، ثم نشأت عن هذا الدوران هذه الكائنـات المنظمة البديعة بطريق المصادفة، وأن اصـطداماً كبـيراً سـيحدث في هذا الكون يعود به كل شيء إلى سديم كما كان أولاً.

أذكر أنك علقت على هذه القصة الخيالية بقولك:(هذا المقطـع الذي كتبه (رسل) يلخص لنا بكل بساطة النظرة العلميـة الطبيعيـة للقضايا التالية: نشوء الكون وتطوره، نشوء الحياة وتطورها، أصـل الإنسان ونشـأته وتطـوره، نشـوء الـديانات والعبـادات والطقـوس وتطورها، وأخيراً يشدد على أن النهاية الحتمية لجميـع الأشـياء هي الفناء والعدم، ولا أمل لكائن بعـدها بشـيء، إنـه من السـديم وإلى السديم يعود)

وهكذا وبكل بساطة تعتبر هذه الأمور حقائق مقررة مسلماً بها علمياً، دون أن تقـترن بـأي إثبـات لهـا، أهـذا هـو مسـتوى الأمانـة الفكرية عندك؟ أهذا هو المنهج العلمي السليم؟

ما أبعد المناهج العلمية عن القصـص التقريريـة، الـتي تنسـجها أخيلـة الكتـاب والأدبـاء والشـعراء، أو أخيلـة واضـعي النظريـات لأغراض معينة.

في موضع آخر من كتابك العظيم استشـهدت بإعجـاب برسـل قائلا:(وفي مناسبة أخرى عندما سئل (رسـل): هـل يحيـا الإنسـان بعد الموت؟ أجاب بالنفي، وشرح جوابـه بقولـه: عنـدما ننظـر إلى هذا السؤال من زاوية العلم وليس من خلال ضـباب العاطفـة نجـد أنـه من الصـعب اكتشـاف المـبرر العقلي لاسـتمرار الحيـاة بعـد الموت، فالاعتقاد السائد بأننا نحيـا بعـد المـوت يبـدو لي بـدون أي مرتكز أو أساس علمي)

أهكذا ترفض الحقيقة التي جاء بيانها بالأخبار الصادقة عن الله، بمجرد الاستبعاد؟

حينما يسمع المؤمن بالإسلام جواب هذا الفيلسـوف الإنكلـيزي عن الحياة بعد الموت، لا بد أن تسترجع ذاكرتـه الجـواب الجـاهلي

الـذي كـان يجيب بـه كفـار العـرب البـدائيون، إذ قـالوا كمـا حـدثنا القـــرآن عنهم:﴿ أَإِذَا مِتْنَـــا وَكُنَّا تُرَابـــاً وَعِظَامـــاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُـــونَ﴾ (المؤمنـون: من الآية82)، وقـال حاكيـا عنهم:﴿ أَإِذَا مِتْنَـا وَكُنَّا تُرَابـاً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) (قّ:3)

إن هذا المنطق يدلنا بوضوح على أن الإنكار هو الـذي لا يرتكـز على أســاس علمي، إنمــا يعتمــد على مجــرد التقريــر للنفي، أو استبعاد فكرة البعث بإطلاق عبارات التعجب.

على أن الإيمان بالحياة بعد الموت للحسـاب والجـزاء لا بـد أن يعتمد على أساس الإيمان بالله، فإثارة هـذه العقيـدة دون أسـاس الإيمـان باللـه هي من قبيـل الاشـتغال بـالفروع قبـل الاتفـاق على الأصول، وهذا لا يؤدي إلى نتيجة صحيحة، فإذا تم التسـليم بعقيـدة الإيمان بالخالق جلَّ وعلا جاء من بعدها عرض أدلة البعث.

التفت إلى العظم، وقـال: أمـا بخصـوص انتقائيتـك في اختيـار العلماء والفلاسفة.. فأنـا أسـتطيع أن أذكـر لـك الآن الكثـير منهم.. وكلهم كان مؤمنا عارفـا بربـه خاشـعا لـه.. كمـا أخبرنـا ربنـا، قـال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر: من الآية28)

لقد قال البروفيسور (إيدوين كونكلين):(إن القول بـأن الحيـاة وجدت نتيجة (حادث اتفـاقي) شـبيه في مغـزاه بـأن نتوقـع إعـداد معجم ضخم نتيجة انفجار يقع في مطبعة على سـبيل المصـادفة)، أي لا يمكن للمصادفة أن توجد هذا الكون ذا النظام المتقن الرائع، إذن فلا بد له من خالق خلقه وأتقنه.

وقال عالم الطبيعة الأمريكي (جـورج إيـرل ديفيس):(لـو كـان يمكن للكون أن يخلق نفسه فإن معـنى ذلـك أنـه يتمتـع بأوصـاف الخالق، وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن بـأن الكـون هـو الإلـه، وهكذا ننتهي إلى التسـليم بوجـود (الإلـه)، ولكن إلهنـا هـذا سـوف يكون عجيباً، إلهاً غيبياً ومادياً في آن واحـد! إنـني أفضـل أن أؤمن بذلك الإلـه الـذي خلـق العـالم المـادي، وهـو ليس بجـزء من هـذا الكون، بل هو حاكمه ومديره ومدبره، بدلاً من أن تبـنى مثـل هـذه الخزعبلات)

انظر كيف أن هذا العالم الأمريكي من علماء الطبيعـة يـرى أن نظـرات الملحـدين هي من قبيـل الخـزعبلات، أو الخرافـات الـتي ليس لهـا سـند علمي ولا سـند عقلي، وهـذا هـو شـأن كـل عـالم منصف محايد.

واسمع إلى رد (كريسي موريسن) الـذي كـان رئيس أكاديميـة

العلوم الأمريكية بنيويورك على الملحد (هيكل) إذ قال هذا الملحد متبجحاً: (إيتوني بالهواء وبالماء، وبالأجزاء الكيماوية، وبالوقت، وسأخلق الإنسان).. لقد قال له:(إن هيكل يتجاهل في دعواه الجينات الوراثية، ومسألة الحياة نفسها، فإن أول شيء سيحتاج إليه عند خلق الإنسان هو الذرات التي لا سبيل إلى مشاهدتها، ثم سيخلق (الجينات) أو حملة الاستعدادات الوراثية، بعد ترتيب هذه الذرات، حتى يعطيها ثوب الحياة، ولكن إمكان الخلق في هذه المحاولة بعد كل هذا لا يعدو واحداً على عدة بلايين، ولو افترضنا أن (هيكل) نجح في محاولته فإنه لن يسميها مصادفة، بل سوف يقررها وبعدها نتيجة لعبقريته)

وهكذا أظهر هذا العالم سخافة أقوال (هيكل) عن طريق الاستدلال العلمي.

فالاستناد إلى فرضية المصادفة في تعليل وجود الكائنات المتقنة المنظمة لون من التخريف الفكري، القائم على إرادة التضليل فحسب، وليس مذهباً فكرياً تحيط به شبهات تزينه في عقول القائلين به، وهذا ما تدل عليه الشهادات العلمية المنصفة المحايدة.

واسمع إلى عالم الأعضاء الأمريكي (مارلين ب. كريدر)، لقد قال: (إن الإمكان الرياضي في توافر العلل اللازمة للخلق عن طريق المصادفة في نِسَبِها الصحيحة هو ما يقرب من لا شيء)، أي: إن احتمال المصادفة احتمال مرفوض رياضياً في تعليل عمليات الخلق المتقن المنظم.

وجاء في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) ثلاثون مقالاً لثلاثين من كبار العلماء الأمريكيين، في الاختصاصات العلمية المختلفة من علوم الكون السائدة في هذا العصر الحديث، وقد أثبت هؤلاء العلماء في مقالاتهم هذه وجود الله جلَّ وعلا، عن طريق ما وَعَوْه من الأدلة الكثيرة المنبثة في مجالات اختصاصاتهم العلمية.

وفي هذا الكتاب يطلع القارئ على نوع من الأدلة العلمية، التي تفرض سلطانها على العلماء الماديين، من خلال ملاحظاتهم وتجاربهم واختباراتهم العلمية، فتجعلهم يؤمنون بالله، ويجد فيه أيضاً الرد الكافي على مروجي الإلحاد، الذين يزعمون أن العلوم تبعد عن الإيمان بالله، وأن جميع أو معظم العلماء الكونيين ملحدون.

عم صمت قليل المجلس قطعه حبنكة قائلا، وهو ينظر إلى العظم: ولهذا، فإن ما ذكرته في الصفحة (28) من كتابك العظيم ـ من قولك:(إن النظرة العلمية التي وصل إليها الإنسان عن طبيعة الكون والمجتمع والإنسان خالية عن ذكر الله) ـ ادعاء باطل لا أساس له من الصحة مطلقاً.

ومع ذلك، فلنفترض جدلاً أن العلماء الماديين جميعهم أنكروا وجود الله.. فهل ترى ذلك كافيا في إنكار حقيقة وجود الله؟

هل ينتظر من العلوم المادية المتقدمة وأجهزتها المتطور أن ترينا الله تعالى رؤية حسية؟

إن أقصى ما تفعله هذه الأجهزة أن ترينا آيات الله في الكون.. أما ذات الله تعالى، فلن تستطيع أن ترينا إياها.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54) (فصلت)

لا نقول هذا فقط.. بل نحن نتحدى العلوم المادية المتقدمة، وأجهزتها المتطورة، أن ترينا كثيراً من الطاقات الكونية التي غدت حقائق علمية ثابتة لدى العلماء الماديين عن طريق الاستنتاج من ظواهرها وآثارها، وهذه الحقائق التي أثبتوها ليست إلا تفسيرات نظرية للظواهر.

بالإضافة إلى هذا، فإن شهادات العلماء الماديين المؤمنين الذين نشأوا في عصر النهضة العلمية المادية الحديثة تقدم للمتشككين أدلة كافية على أن العلوم المادية ليست علوماً ملحدة في حقيقتها، لكن الإلحاد ملصق بها بطريقة صناعية مقصودة موجهة، من قبل فئات خاصة لها في نشر الإلحاد مصالح سياسية واقتصادية ضد خير البشرية وسعادتها.

ومن هذه الأقوال يتبين لنا بوضوح أنه لا يوجد تناقض ولا تعارض مطلقاً في نظر جمهور العلماء الماديين بين الدين والعلم حول الأساس الأول من أسس العقيدة الدينية، وهي عقيدة الإيمان بالله تعالى، وبهذا تنهار المستندات الإلحادية التي تزعم وجود هذا التناقض بالنسبة إلى هذه النقطة بالذات، باعتبارها مجال بحثنا الآن، وباعتبارها أعظم نقطة في الأيديولوجية الإلحادية، والتي يحاول الملحدون جهدهم أن يوجدوا لها المبررات النظرية، أو المبررات العملية، فلا يجدون إلا افتراء الأكاذيب، وصناعة المغالطات، والاحتماء المزور بالتقدم العملي والصناعي، وسرقة

أسلحة العلم التي لا تملك في الحقيقة الدفاع عن الإلحاد، وإنما هي في الأصل أسلحة لقضية الإيمان، يحسن استعمالها العالمون بها، وتكون عند الجاهلين بها أسلحة معطلة، ويسرقها الملحدون فيحملونها أمام الجاهلين، فيتخيل الجاهلون بها أنها فعلاً أسلحة للملحدين، وهي تدعم قضية الإلحاد، مع أن الحقيقة بخلاف ذلك، إنها أسلحة للمؤمنين العالمين بها، الذين يحسنون استعمالها.

لو كانت النظرة العلمية الحديثة تناقض أو تعارض النظرة الغائية للكون، لما وجدنا هذا الجمهور الكبير من علماء النهضة العلمية الحديثة مؤمنين بالله ،وبتفسيرات النظرة الغائية للكون ،وبالمفاهيم الأخلاقية الدينية..

لقد كان (أندرو كونواي إيفي) من هؤلاء.. لقد كان من علماء الطبيعة الكبار.. وكان ذا شهرة عالمية من سنة (1925م) إلى سنة (1946م).. ولكن ذلك لم يمنعه من أن يقول ـ في مقال له تحت عنوان: (وجود الله حقيقة مطلقة) ـ:(ويظهر أن الملحدين أو المنكرين بما لديهم من شك لديهم بقعة عمياء، أو بقعة مخدرة داخل عقولهم، تمنعهم من تصور أن كل هذه العوالم، سواء ما كان ميتاً أو حياً، تصير لا معنى لها بدون الاعتقاد بوجود الله)

ثم استشهد لذلك بتصريح لأينشتاين قال فيه:(إن الشخص الذي يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى ليس تعيساً فحسب، ولكنه غير مؤهل للحياة)

انظروا.. أليس هذا التفكير الذي يعلن عنه هذا العالم ومن قبله (أينشتاين) تفكيراً قائماً على النظرة الغائية للكون، وعلى اعتبار القيم الأخلاقية؟

إن هذه النظرة الموافقة للنظرة الإسلامية لم تكن عند أصحابها مناقضة للأسس العلمية الحديثة، ولا للنظرة العلمية كما تبلورت مع تطور العلم الحديث وتقدمه..

قاطعه العظم، وقال: ولكن هذه النظرة مناقضة لنظريات دُركهايم، وفرويد وماركس.. ومناقضة للداروينية.

قال حبنكة: لو كان لدي الوقت الكافي لبينت لك هنا بالدليل القاطع أن هؤلاء ليسوا سوى أجراء لمخططات ليس لها من هدف سوى هدم الأسس الدينية، لا على أساس قناعات علمية صحيحة.

لقد أصبح مخططهم مكشوفاً للعالم.. بل كتب في كشف مكايدهم محققون من العلماء المتتبعين.

ومع ذلك.. وبغض النظر عن مدى صدق هذا.. فلنقارن بين

السمو الذي تحمله نظريات من ذكرت، وبين السـمو الـذي تحملـه النظرية الإسلامية، ومن يوافقها من علماء الطبيعة المؤمنين.

راح العظم يقرأ من كتابه بصوت جهـوري هـذا النص:(جلي أن هذه النظرة الإسلامية للكون هي نظرة غائية، تعتمد في تفسـيرها لطبيعـة الكـون على العلـل الغائيـة، والأهـداف السـامية، وعلى مفاهيم أخلاقية مثل (الحق والعدل)

هل تنسجم هذه النظرة الغائية إلى الكون والحياة مـع النظـرة العلميـة الـتي تسـود العـالم المعاصـر وثقافتـه؟ لـو رجعنـا إلى التفسيرات العلمية للكون من (نيوتن) إلى (أينشتاين) هل نجد في صـلبها مقـولات مثـل (الأهـداف السـامية) أو (الحـق والعـدل) أو (الروح والجمـال والخـالق)؟.. هـل نجـد لهـذه المفـاهيم الأخلاقيـة الدينية أي ذكر في النظرية النسبية، أو في ميكانيكـا الكمـوم مثلاً؟ سؤال جدير بالتمحيص والإيضاح والمناقشة على أقل تعديل)

قرأ ذلك، ثم التفت لحبنكة، وقال: ما تقول في هذا النص؟

ابتسم حبنكة، وقال: أعلى هذا المستوى الفكري تعرض قضـية الإلحاد، وتناقش قضية الإيمان بالله!؟

أهكذا يجازف بالمنطق والفلسفة ليصـنع حجـة مكشـوفة بهـذا الشكل؟

فما صلة النظرية النسبية وميكانيكا الكمـوم بالحـديث الصـريح عن الله تعالى، أو التعرض إلى المفاهيم الأخلاقية، حتى يعتبر عدم ذكر اسم الله والمفاهيم الأخلاقية فيها دليلاً على نفي وجود الله، أو على إلغاء المفاهيم الأخلاقية!؟

إن مثل هؤلاء الذين يرطنون بمثل هذا كمثل وارث كنز عظيم، ولكنه قد نشأ وهو يجهـل أين خبـأ لـه مورثـه كـنزه، وأقبـل خـبراء البحث عن الكنوز ينقبون ويبحثون، وتسلل من وراء هؤلاء الخـبراء لصوص، تظاهروا بأنهم باحثون خبراء، ولكنهم وقفـوا يرصـدون مـا يعثر عليه البـاحثون الحقيقيـون، ليسـرقوه كلـه أو مـا يسـتطيعون سرقته منه، وكان مورث الكنز قد كتب اسمه ورسم صـورته على أحد وجهي مصكوكاته الذهبية علامة على أنها له، وقد خبأها لوارثه، أما الخـبراء المنقبـون الأمنـاء: فـإنهم لمـا ظفـروا بمـا وجـوده من الكنز، أعلنوا ما شهدوا من كتابـة ورسـوم على مصـكوكاته، وثبتـوا استحقاق الوارث لها، وأخـذوا أجـرهم على أعمـالهم. وآخـرون لم تكن لديهم الأمانة الكافية أو كانوا جاهلين بقراءة المكتوبات الأثرية أخذوا ما عثروا عليـه، وانتفعـوا بـالكنز، ولم يعلنـوا مـا شـهدوا من

كتابة ورسوم على مصكوكاته، ولم يهتموا بـأن يعـترفوا باسـتحقاق الوارث لها.. وجاء من وراء الفريقين فئة اللصـوص، فسـطوا على بعض ما استخرجه الخبراء من الكـنز، وطمسـوا الوجـه المكتـوب، وأقبلوا يفاخرون بأن الكنز كله هو ملكهم، وهـو مـيراثهم، والـدليل على ذلك أن بعض قطع مصكوكاته الذهبية في أيـديهم، قـد عـثروا عليها وفيها كتابة تشهد لهم بأن مورِّثهم قد خبأها لهم.

وحينما يُقال لهم: أرونا هـذه الكتابـة الـتي تشـهد لكم يقولـون: فلان قال هذا، وفلان قال هذا، وفلان قال هـذا، وكـل هـؤلاء الـذين ذكــروهم هم من فئـة اللصــوص أنفســهم، أو من غــيرهم ولكن يكــذبون عليهم، ويظلّون حريصــين على أن يبقى الوجــه الثــاني للمصـكوكات الذهبيـة مطموسـاً، حـتى لا تنكشـف لعبتهم القائمـة على اللصوصية والتزوير.

أخذ العظم يقـرأ من كتابـه هـذه العبـارات:(عنـدما نقـول مـع (نيتشه): إن الله قد مات، أو هو في طريقـه إلى المـوت، فنحن لا نقصد أن العقائد الدينية قد تلاشت من ضمير الشعوب، وإنما تعني أن النظرة العلميـة الـتي وصـل إليهـا الإنسـان عن طبيعـة الكـون والمجتمع والإنسان خالية من ذكر الله تماماً كما قال (لابلاس))

التفت إلى حبنكة، وقال: وما تقول في هذا الكلام؟

ابتسـم حبنكـة، وقـال: لسـت أدري لم تحشـر اسـم العـالم (لابلاس) في هـذا المحـل.. لقـد شـرح (لابلاس) دليـل الحركـة الكونية، وأبان قـوة هـذا الـدليل في جسـم الشـبهات الـتي يثيرهـا الجاحدون فقال:(أما القدرة الفاطرة التي عينت جسـامة الأجـرام الموجــودة في المجموعــة الشمســية وكثافتهــا، وثبتت أقطــار مداراتها، ونظمت حركاتها بقوانين بسيطة، ولكنهـا حكيمـة، وعينت مدة دوران السيارات حول الشمس والتوابع حول السيارات بـأدق حساب، بحيث إن النظام المستمر إلى ما شاء الله لا يعروه خلل.. هذا النظام المستند إلى حسـاب يقصـر عقـل البشـر عن إدراكـه، والـذي يضـمن اسـتمرار واسـتقرار المجموعـة إزاء مـا لا يعـد ولا يحصى من المخاطر المحتملة، لا يمكن أن يحمـل على المصـادفة إلا باحتمـال واحـد من أربعـة تريوليونـات، ومـا أدراك مـا أربعـة تريوليونــات؟ إنــه عــدد من كلمــتين، ولكن لا يمكن أن يحصــيه المحصى إلا إذا لبث خمسين ألف عام يعد الأرقام ليلاً ونهـاراً ،على أن يعد في كل دقيقة (150) عدداً)

انظر هذا الكلام المضمخ بعطر الإيمان.. لم لم تسمع إليه؟

قال العظم: لقد سمعت إلى قوله الآخر:(إن العالم العظيم الذي سيتمكن من معرفة انتشار الذرات في السحب السديمية الأولية سيكون باستطاعته أن يتنبأ بكل مستقبل الكون وأحداثه)

قال حبنكة: ولكن قوله هذا لا يعني إنكاره للخالق، وإنما يدل على شعوره بأن الكون سائر وفق نظام مرسوم خاضع لسلاسل سببية متتابعة، يمكن التنبؤ باللاحق منها لدى معرفة السابق.

قال العظم: وما تقول في قوله لنابليون: (الله فرضية لا حاجة لي بها في نظامي)(1)

قال حبنكة: فلنفرض أنه قال هذا وذاك.. فلم تنتقي هذا دون ذاك.. ألا يمكن أن يقول أحد من الناس قولا ثم يتراجع عليه بعد ذلك؟

ثم ما قيمة (لابلاس).. مهما كان محترما.. أمام القضية الكبرى التي نتحدث عنها؟

لم يجد العظم إلا أن فتح كتابه، وقال: فما تقول في ردي على الفيلسوف الأمريكي (وليم جيمس)؟

قال حبنكة: ماذا قال (وليم جيمس) أولا؟

قال العظم: لقد كتب كتابا يغلب فيه العاطفة على العقل.. سماه (إرادة الاعتقاد).. وقد تعرض في بحثه هذا إلى حق الإنسان المفكر بالاعتقاد بوجود الله، ولو لم تكن البينات العلمية والأدلة العقلية كافية بحد ذاتها للبرهان على وجود الله أو عدم وجوده، نظراً إلى أن عواطف الإنسان ومشاعره ترجح جانب الإثبات، كما أن الإنسان يجد نفسه بين موقفين:

إما أن ينكر الله ويجحده، ثم يكون الواقع بخلاف ذلك.. وفي هذه الحالة، فإنه يعرِّض نفسه لخسائر كبرى.

وإما أن يؤمن به، ثم يكون الواقع بخلاف ذلك.. وفي هذه الحالة، فإنه لا يخسر شيئاً.

واستنتج من ذلك أن موقف الإيمان على هذا موقف لا خسارة فيه مطلقاً، مع وجود احتمال اغتنام أرباح كثيرة منه بخلاف موقف الإلحاد الذي لا ربح فيه مطلقاً، مع وجود احتمال تكبد خسائر كبرى.

وبمقارنة هذين الموقفين رجح موقف الإيمان على موقف

---

1) ذكرنا هذا القول في المبحث السابق، والذي نقلناه من كتاب (العلم في منظوره الجديد).. ولكن حبنكة يشكك في مدى صدقه.. قال بعد عرضه له:(لست أدري مبلغه من الصحة أمام قوله الذي قرأناه مما كتب بنفسه، وبكل أسف لم نجد لدى الناقد أثراً للأمانة الفكرية التي يتظاهر بالغيرة عليها)

الإلحاد قطعاً.. وبذلك غلب جيمس العاطفة على العقل.

لقد قلت رداً عليه في الصفحتين (76) و(77):(في الواقع أن (جيمس) يسيء فهم المشكلة: فالمسألة لا تتعلق بالفائدة الدنيوية أو الأزلية التي قد أجنيها من اعتقادي بالله، وبالخسارة المماثلة التي قد أتكبدها من عدم اعتقادي به إذا كان موجوداً.. المشكلة أصلاً لا تمت بصلة إلى حساب الأرباح والخسائر، ولا علاقة لها بعقلية الرهان والمجازفة.. المشكلة بكل بساطة هي: هل القضية (الله موجود) قضية صادقة أم كاذبة، أم أن صدقها جائز جواز كذبها، وليس لدينا أدلة أو بينات ترجح أياً من هذين الاحتمالين على الآخر؟ يجب أن ينسجم موقفنا الشخصي من قضية وجود الله انسجاماً تاماً مع جوابنا على هذا السؤال، لا مع حساب الخسائر والأرباح)

ابتسم حبنكة، وقال: ما ذكره جيمس ليس دليلا(1).. فلا ينبغي للدليل إلا أن يعتمد على العقل المجرد.. بالإضافة إلى أنه لا يعتبر الإيمان إلا من العقل الجازم الموقن لا من العقل التاجر المجرب.

ولكن مع ذلك، فإن هذا مما اعتاد العلماء في المناظرات طرحه.. وهم يطرحونه، لا باعتباره دليلا.. وإنما باعتباره مؤثرا في الملحد حتى يعيد نظره ويدققه.. فالمسألة ليست مسألة نظرية مجردة.. إنها مسألة يرتبط بها مصير الإنسان جميعا.

لقد اعتاد المناظرون الدالون على الله أن يذكروا ما ذكره جيمس عند آخر مرحلة من مراحل النقاش الذي يرفض فيه الملحد أدلة الإيمان الكثيرة، ويعلن تشككه بها.. أو يطرحونه في أول مرحلة من مراحل النقاش، لتوجيه النفس إلى منطقة الإيمان منذ الانطلاقة الفكرية الأولى، ثم تطرح من بعده الأدلة والبينات الأخرى، فهو إما دافع إلى النقلة الأولى التي تتجاوز منطقة الشك المطلق، وإما ممسك بالنفس في منطقة الإيمان قبل أن تنزلق إلى منطقة الشك المطلق.

لقد علمنا القرآن هذا.. فقد ذكر أن مؤمن آل فرعون، قال لقومه الذين هموا بقتل موسى ﴿:عليه السلام أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (غافر: من الآية28)

---

1) نحب أن ننبه هنا إلى الخطورة التي تحملها هذه الفكرة التي عرضها وليم جيمس، والتي صار البعض يتشبث بها للإيمان بأي شيء، بحجة أن الإرادة تغلب العقل.. وهو لذلك لا يبحث عن الدين الصحيح الذي ينبغي أن يسلم زمامه له.

فهذا الرجل المؤمن من آل فرعون عرض عليهم ـ أولاً ـ دليل البينات التي جاء بها موسى، ثم تنازل معهم إلى مستوى آخر لا يستطيعون أن يرفضوه إذا هم رفضوا البينات، فقال لهم:﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ)، أي: إنكم لا تخسرون شيئاً إذا تركتم موسى وشأنه فيما لو كان كاذباً، بخلاف ما لو كان صادقاً فإنكم تخسرون كثيراً بتكذيبه ومقاومة دعوته:﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ)، أي: فيما لو كان صادقاً.

والمنطق الحق يرجح الأخذ باحتمال صدقه على احتمال كذبه، لأن الأخذ باحتمال الصدق يدفع عنكم احتمالات الخطر دون أن تخسروا شيئاً، أما الأخذ باحتمال الكذب فإنه قد يعرضكم للخطر دون أن تخسروا شيئاً، أما الأخذ باحتمال الكذب فإنه قد يعرضكم للخطر دون أن تجنوا شيئاً من الربح.. وهذا منطق عقلي يصح الاستناد إليه والاعتماد عليه، في كل الأمور التي يجد الإنسان نفسه فيها بين موقفين متكافئين نظرياً، إلا أن الأخذ بأحدهما فيه السلامة بصفة قطعية مع احتمال الربح، أما الآخر ففيه احتمال عدم السلامة مع الخسارة، وهذا هو أضعف الأدلة المرجحة.

قال العظم ساخرا: أهان العقل عندكم لهذه الدرجة.. حتى صارت العاطفة تغلبه؟

ابتسم حبنكة، وقال: لقد ذكرني موقفك هذا بقصة طالب غبي يحفظ بعض المسائل النحوية والصرفية واللغوية، سأله الممتحن أول ما سأله ما اسمك؟ فقال له: الاسم على أقسام: منه علَمَ، والعلم مرتجل ومنقول، وهو علم شخصي وعلم جنسي، ومنه معارف أخرى غير علم، ومنه نكرة، والنكرة قد تكون اسم جنس، وقد تكون اسم جنس جمعي، وفي باب النداء قد تكون النكرة نكرة مقصودة، وقد تكون نكرة غير مقصودة، ومعاجم اللغة قد جمعت المفردات اللغوية وبينت معانيها، سواء ما كان منها اسماً أو فعلاً، وفيها مئات الألوف من الكلمات.. وهكذا سار على هذا المنوال في السرد الغبي.

وهكذا أنت، فقد ظننت نفسك في مثل صحراء واسعة تبحث فيها عن دينار، واحتمالات الخطأ فيها لا نهاية لها، ونسيت أنك في موضوع يتردد بين احتمالين فقط، لا ثالث منهما، أحد هذين الاحتمالين هو أن الله موجود وحق، والاحتمال الثاني هو الاحتمال المناقض له، ولا شيء وراء هذين الاحتمالين، فالقضية كمن جاءنا فقال: في وسطي حزام ناسف، وهنا لا بد أن نكون أمام خيارين لا

ثالث لهما، إما أن نرجح احتمال الصدق فنأخذ حذرنا، وإما أن نرجح الاحتمال الآخر فنورط أنفسنا في احتمال الخطر.

وهكذا، فإن (جيمس) رجح احتمال الإيمان على نقيضه فقط، وليس على احتمالات لا حصر لها.

ثم كيف لا تتعلق المشكلة بالفائدة الدنيوية أو الأزلية التي قد أجنيها من اعتقادي بالله، وبالخسارة المماثلة التي قد أتكبدها من عدم اعتقادي به إذا كان موجوداً؟

إنها مشكلة وجودي وحياتي وسعادتي ومستقبلي، أفلا أبحث عنها؟

أفلا أضعها في الحساب؟

أفأعرض وجودي كله وسعادتي كلها للخطر، دون أن يكون لي في الموقف الذي أتخذه أي ربح، أو أية فائدة؟

هل أتعامل مع أرقام في مسألة رياضية لا علاقة لي بها؟

إنها قضية حياة، قضية سعادة، وقضية مصير، واللعب فيها لعب بالنار.

رأيت العظم بعد أن سمع هذا تغير وجهه، ثم قال بصوت فيه بعض رعدة: أستأذن.. ربما نلتقي مرة أخرى لنكمل مناقشتنا.

سقط الكتاب من يده، وهو يسير، فأخذه بعض الناس، وأعطاه له.. فنظر إليه، وقال: خذه.. لدي نسخ أخرى منه.

المناظرة التاسعة:

قال الجمع: فحدثنا عن المناظرة التاسعة.

قال: في شارع من شوارع تلك المدينة وجدت رجلين يلتف حولهما جمع كبير(1)..

أما أحدهما، فكان شيخا يبدو على ملامحه الصلاح.. وكان الناس يطلقون عليه (الراوندي)(2) وقد عرفت أن سببه هو كونه من بلاد يقال لها راوند.

وأما الثاني، فشاب تبدو عليه بعض خفة العقل.. ممزوجة بغرور كثير زاد فيه اطلاعه الواسع وعلمه الكثير.. فهو كما يقال (علم بلا عقل)..، وكان يطلق عليه (ابن الرواندي)(3).. وقد عرفت

---

1) ننبه إلى أن المناظرة ليست حقيقية كما هو ظاهر.

2) أشير به إلى الإمام المتكلم ظهير الدين، محمّد بن الإمام قطب الدين سعيد بن هبة الله، الراونديّ، من أعلام الشيعة في القرن السابع الهجري، وهو صاحب كتاب (عجالة المعرفة في أصول الدين)

3) أشير به إلى (ابن الرواندي)، وهو أبو الحسن أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي، نسبة إلى قرية راوند الواقعة بين أصفهان وكاشان في فارس، ولد عام 210 هـ ، وتوفي في الأربعين من عمره مخلّفاً وراءَه أكثرَ من مئةِ كتابٍ طافحةٍ بالافتراءاتِ التي تُبَيِّنُ

أن كلا الرجلين من بلـد واحـد.. لكنهمـا مـع ذلـك مختلفـان اختلافـا شديدا يستحيل معه أي اجتماع.

بدأ ابن الراوندي الحديث متوجها به للراوندي قـائلا: إلى الآن لا أسمع إلا جعجة.. لم أر طحينا بعد.. أنت تعلم أني جائع.. والجـائع لا تشبعه الجعجعة.

قال الراوندي: إنك لم تمنح لي الفرصة الكافيـة لأتسلسـل بـك في الدلالة على وجود الله.. إني كلما حدثتك حـديثا انتقلت بي إلى غيره.. ولا يمكن أن تفهم بهذا شيئا.

قــال ابن الراونــدي: هــا قــد صــمت.. فتكلم.. ولا تتكلم إلا بالطحين.. فإني لا أحب الجعجعة.

قال الراوندي: سأعود.. وأبدأ من الأول.. وسأفترض معـك بـأن وجود الله مجرد دعوى تبحث عن أدلة علمية عقلية تدل عليها.

أولا أنت تعلم أن هذا من النوع من الدعاوى لا يتعلـق من العلم بجانبه الذي يخضع للتجربة والمشاهدة.. ولذلك فـإن الـدليل الـذي يمكن أن نستعين به لإثبات هذا هو البراهين العقلية.

إن هناك بـديهيات اتفقت العقـول على قبولهـا والتسـليم لهـا.. وهي التي يعتمد عليها الدليل الذي سأورده لك.. وهي أربعة:

أما أولها، فهو (بطلان الرجحان دون مرجح)..

قاطعـه ابن الراونـدي، وقـال: الرجحـان دون مـرجح!؟.. مـا هـذا!؟.. أنت تريـد أن تتحـدث عن اللـه، أم تريـد أن تتحـدث عن الموازين.. أو الأرجوحات.. ما هذا يا رجل.. ما هذه الجعجعة.. أريـد الطحين.. لقد أنهكني الجوع.

تنفس الراوندي الصعداء، وقال: ما عساي أن أقـول لـك.. لقـد عدت إلى طبيعتك.. ألم نتفق على أن تترك لي فرصة الكلام؟

قال ابن الراوندي: لا بأس.. لا بـأس.. لكن وضـح لي مـا الـذي تريده من الرجحان دون مرجح.

قال الراوندي: المراد منه بديهية من بديهيات العقول، وهي أنه يسـتحيل أن يكـون الشـيء جاريـا على نسـق معين، ثم يتغـير عن نسقه، ويتحول عنه بدون وجود أي مغير أو محول إطلاقا.. إن هـذا من الأمور الواضحة البطلان، وجميع العقلاء يعلمون أن الأصل بقاء

خُروجَه عن الإسلام، وقد كانَ يهودياً، ثمَّ دخلَ الإسلامَ وتنقَّلَ بينَ عدَّةِ مذاهبَ حـتى مـاتَ كافراً ملحداً.

سردَ ابنُ الجوزي سيرته في عدَّةِ صفحات؛ وقال الذهبيُّ في ختام ترجَمته: (لعنَ اللـهُ الذكاءَ بلا إيمانٍ ورضيَ عن البلادةِ مـعَ التقـوى)؛ ونُقـلَ عن أبي عليٍّ الجبـائي المعـتزلي قولَه: (قرأتُ كُتابَ هذا الملحـدِ الجاهـلِ السـفيهِ ابن الراونـدي فلم أجـدْ فيـه إلاَّ السـفة، والكذبَ، والافتراء)

ما كان على ما كان عليه، ولا بد ـ لتحويله عن حاله السـابقة ــ من محول ومؤثر يفرض عليه هذا الوضع الجديد، وينسخ حاله القديمة.

قال ابن الراوندي: أسلم لك بهذا.. ولكن كيف تستدل بــه على ما نحن فيه؟

قال الراوندي: بالتأمل في الأشياء تجد أنهـا جميعـا لا تخلـو من ثلاثة أوصاف: الوجوب والاستحالة، والإمكان(1).

فما اتصف بالوجوب اسـتحال في العقـل عدمـه.. ومـا اتصـف بالاستحالة استحال في العقل وجوده.. ومـا اتصـف بالإمكـان أجـاز العقل وجوده وعدمه..

قال ابن الراوندي: سلمت لك بكل هذا.. فكيف تستدل به على ما نحن فيه؟

قال الراوندي: بالتأمل في هذا الكون الـذي نـراه نـرى أنـه في جملتـه من نـوع الممكن.. أي أن العقـل يجـزم بأنـه لا يـترتب أي محال على فرض انعدامه.. ويرى أنه من الممكن أن توجد أسـباب تعدمه من أصله دون أن يستلزم ذلك محال لا يقبله العقل.

وهذا يعني أنه لا بد لهذا الكون الذي كان في أصـله قـابلا لكـل من الوجود والعـدم بحـد سـواء من قـوة خارجـة عنـه مـؤثرة فيـه خصصته لجانب الوجود..

قـال ابن الراونـدي: يمكن أن أتفـق معـك إلى هنـا.. فمـا هـذه القوة؟

قال الراوندي: هذه القوة هي قوة الله.

قال ابن الراوندي: لا.. لا أتفق معك على هذا..

قال الراوندي: لم.. أو ما القوة التي تراها بديلة عن الله؟

قال ابن الراوندي: ما دام الأمر يحتاج إلى اللـه.. فأنـا لا أحتـاج إلى هذا.. أنا أفرض فرضا آخر لا نحتاج فيه إلى أي قوة خارجية.

قال الراونـدي: فمـا هـو هـذا الفـرض الـذي يغـني الكـون عن خالقه؟

1() الواجب: هو ما لا يتصور العقل نفيه، أي ما لا يمكن للعقـل أن ينفـك عن إثباتـه.. والاستحالة ضد الوجوب فهي عـدم قبـول الثبـوت في العقـل، فالمسـتحيل مـا لا يتصـور العقل ثبوته، أي أن العقل لا ينفك عن نفيه وسـلبه والحكم بعدمـه كلمـا عـرض مفهومـه على العقـل.. أمـا الجـواز أو الإمكـان العقلي فهـو تمـام القسـمة العقليـة بين الوجـوب والاستحالة، فهو قبول الثبوت والانتفاء في العقل؛ فالجـائز العقلي هـو مـا يتصـور العقـل ثبوته ونفيه، أي أنه عند عرضه على العقل فإن العقل ينفك عن إثباته كما ينفك عن نفيه.

ودليل الحصر أن المعلوم إما أن لا ينفك العقل عن إثباتـه وهـو الـواجب، أوْ ينفـك عن إثباته كما ينفك عن نفيه وهو الجائز، أو لا ينفك عن نفيه وهو الممتنع لذاته، ولا ثـالث بين الإثبات والنفي.. فثبت بذلك انحصار الأحكام المذكورة في الثلاثة.

قال ابن الراوندي: أنا أفرض أن الكون وجد بذاته دون أي قـوة مؤثرة خارجية.

قال الراوندي: فما دليلك على هذا؟

قال ابن الراوندي: لا أحتاج إلى أي دليل.. بل أنت الـذي تحتـاج إلى أن تنفي صحة هذا الفرض.

قال الراوندي: لا بأس.. إن هذا الفـرض الـذي فرضـته سـيلزم عنه القول برجحان الشيء بدون مرجح له، وهو باطل كما علمت، فبطلت الفرضية التي استلزمتها أيضا.

لقد قال الفـارابي الـذي أراك تقـدره وتحترمـه يقـرر هـذا: (إن الموجـودات على ضـربين: أحـدهما ممكن الوجـود، والثـاني واجب الوجود.. وممكن الوجود إذا فرض غير موجود لم يلزم عنه محـال، وليس بغني بوجوده عن علته وإذا وجد صار واجب الوجود لغيره لا بذاته.. أما واجب الوجود فمتى فرض غير موجود لزم عنـه محـال، ولا علة لوجوده ولا يجوز كون وجـوده بغـيره، والأشـياء الممكنـة لا يجوز أن تمر بلا نهاية في كونها علة ومعلولة.. ولا يجوز كونهـا على سبيل الدور، بـل لا بـد من انتهائهـا إلى شـيء واجب هـو الموجـود الأول الذي هو السبب الأول لوجود الأشياء وهو الله تعالى)

و على تعبـير ديكـارت القـريب التنـاول: (إنـني موجـود فمن أوجـدني ومن خلقـني؟.. إنـني لم أخلـق نفسـي.. فلا بـد لي من خالق.. وهذا الخالق لا بد أن يكون واجب الوجود وهو الله بارئ كل شيء)

و على تعبير باسكال:(إنه كان يمكن أن لا أكون لـو كـانت أمي قد ماتت قبل أن أولد حيا، فلست إذا كائنـا واجب الوجـود.. فلا بـد من كائن واجب الوجود يعتمد عليه وجودي وهو الله)

وقد عبر القـرآن الكـريم على ذلـك بـأوجز عبـارة، فقـال:﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) (الطور:35)

قال ابن الراوندي: فلنفرض أن العالم قديم في وجـوده.. أي لا أول له، ولا سبق للعدم عليه.

قال الراوندي: كيف ذلك؟

قـال ابن الراونـدي: عن طريـق التوالـد الـذاتي.. فكـل سـبب طبيعي له سبب طبيعي إلى ما لا نهاية.

قال الراوندي: إن هذا النوع من التوالد تنفيه الحقيقة الفطرية الثانية.. وهي (**بطلان التسلسل**)

قال ابن الراوندي: بطلان التسلسل!؟.. ما بطلان التسلسل؟

قال الراوندي: هـو افـتراض أن المخلوقـات كلهـا متوالـدة عن بعضها إلى مالا نهاية، بحيث يكون كل واحد منها معلـولا لمـا قبلـه، وعلة لما بعده.. دون أن تنبع هذه السلسـلة أخـيرا من علـة واجبـة الوجود هي التي تضفي التأثير المتوالد على سائر تلك الحلقات.

إذ أن سلسلة المخلوقات الممكنـة مهمـا طـالت وطـالت فـإن اسـتمرار طولهـا لا يخرجهـا على كـل حـال عن كونهـا ممكنـة، والممكنات لا بد لرجحـان أحـد طـرفي الإمكـان فيهـا من مـرجح.. ولنعتبر أن التسلسل حلقات.. فحلقات السلسلة كلها لا تـأثير ذاتي في واحدة منها مهما طال الزمن.. إذا فلكي نصدق أنها موجودة لا بد أن ننتظر ظهور المؤثر الخـارجي الـذي أمـد السلسـلة بالحيـاة، فراحت بدورها تنتقل من حلقة إلى حلقة، وإلا كان لا بد من الجزم بأحد أمرين: إما أن كل هـذه السلسـلة مفقـودة إذ لم يثبت وجـود ذلك الذي قذف فيها الحياة.. وإما أنها موجودة، ولكنهـا تنبـع أخـيرا من ذات واجبة الوجود تؤثر فيها، ولا تتأثر بشيء.

أمـــا الأمـــر الأول، فظـــاهر البطلان، لأن الحس والمشـــاهدة يكذبانه.. وأما الثاني، وهـو تيقن أن لابـد لـه من مصـدر ذاتي وهبـه الحيـاة والقـدرة على الحركـة والتطـور والتوالـد، فيبطـل بـذلك التسلسل المذكور.

وكما تعلم، فالعـالم مـركب بمجموعـه وأجزائـه.. وكـل مـركب حادث بداهة.. والعالم بما فيه متغير تغيرا مسـتمرا من صـورة إلى صورة.. وكـل متغـير من صـورة إلى صـورة لا يمكن أن تكـون لـه صورة أصلية أزلية قديمه، لأنها لـو كـانت كـذلك لم يجـز أن يطـرأ عليها التغير.

والقــول بتسلســل الصــور إلى غــير نهايــة غــير صــحيح.. لأن التسلسل مستحيل عقلا.. فلا بد أن نقف عند حد، ونقـول: إن هـذا المتغير لم تكن له في أول أمره صوره.. وإذا لم تكن لـه صـوره لا يكون له وجود، لأن الصورة تشمل الشكل والحجم والوزن واللون والطعم والرائحة، ومتى فقد الشيء هذه الصور كلها فقد وجوده.. فالعالم نتيجة لهذا حادث.. والعقل بقوة قانون العلية البديهي يحكم بداهـة بـأن كـل حـادث لا بـد لـه من سـبب يحدثـه، وهـذا السـبب المحدث لا يجوز أن يكون حادثا، لأنه يفتقر إلى سبب محـدث لـه.. ولا يجوز القول بتسلسـل الأسـباب إلى غـير نهايـة، لأن التسلسـل ممتنع عقلا.. فلا بد أن يكون المحـدث الصـانع للعـالم قـديما، وهـو الله تعالى الذي خلق العالم وأحدثه بعد العدم المطلق.

قال ابن الراوندي: أنا لا أستطيع أن أضع في خيالي ما تذكره من أحاديث.. فمن الصعب علي الخيال أن يتصور النهاية.. واللانهاية..

ابتسم الراوندي، وقال: أنا أخاطب عقلك لا خيالك.. فالله يمكن أن نتعقله، ولكنا مهما أوتينا من سعة الخيال، فلا يمكن أن نتخيله..

إن ما ذكرته لك بديهيات عقليه يأخذ بعضها برقاب بعض، ولكن هذه البديهيات يزاحمها في الذهن عند آخر مراحل التفكير ارتباك وكلال عند تصور النهاية التي ليس وراءها أي شيء، واللانهاية التي لا تقف عند حد، والأزلية التي ليس لها بداية، والزمن الذي ليس قبله زمن، والمكان الذي ليس وراءه أي شيء..والعدم المطلق.

ولكن إذا علمنا أن العالم الواقع المشاهد هو من قسم الممكن، لأننا نستطيع تصور عدم وجوده، وبما أنه ليس هو الذي أوجد نفسه، فلا بد إذا من علة كافية لوقوعه ووجوده.. وقبل أن تحدثه العلة الكافية لم يكن موجودا، فلا بد إذا من تصور العدم سابقا لحدوث العالم.. فهل تصور إيجاده بعد العدم يوجب تناقضا عقليا؟

كلا..بل إن التناقض العقلي إنما يكون إذا تصورنا عدم سبق العدم لوجود العالم.

نعم يعجز الخيال البشري عن تصور ذلك.. ولكن ما قيمة هذا العجز أمام البرهان القاطع؟

ألا تؤمن بالحقائق الرياضية، وتجد اليقين في نتائجها الصحيحة؟

ألست تعرف كثيرا من الحقائق الرياضية التي تستند إلى أوليات بديهية عقلية تكون في أول الأمر خافية عليك ولا تظهر لك إلا بالتأمل والاستنتاج والبرهنة.

إن عقولنا في مجال الأعداد الكبيرة تكل عن تصور حقائق واضحة لا تحتاج إلا لتأمل قليل وحساب بسيط من نوع الجمع، ويكون كلالها غريبا جدا حتى تمارى في النتيجة ولو أخبرها بها أصدق الناس وأعلمهم.

سأضرب لك مثالا على ذلك.. أنا أعلم حبك لأحجية الورقة المقطعة.. ولذلك سأستثمر هذا المثل لأقنعك بهذا.

لو أعطيت ورقة رقيقة بالغة الرقة سمكها جزء من مائة جزء من الميليمتر، وطلب منك أن تقطعها نصفين، ثم تقطع النصفين ثانية ليصبحا أربعة، ثم تقطع الأربعة لتصبح ثمانية، وهكذا إلى أن

تكرر القطع والتضعيف (ثمان وأربعين) مرة، ثم سئلت: قبل أن تبدأ بالقطع وقبل أن تحسب.. كم تتوقع أن تصبح سماكة هذه الأوراق الرقيقة بعد قطعها (ثمان وأربعين) مرة؟

قال ابن الراوندي: أنا أعلم جواب هذه الأحجية.. إذا كررت القطع إلى المرة الـ(ثمان وأربعين)، ثم جعلت الأوراق المقطعة ركاما مرصوصا صاعدا في السماء، فإنه يلمس أو يكاد يلمس القمر الذي يبعد عن الأرض (384) ألف كيلومتر.

قال الراوندي: إن العقل هو الذي استنتج هذا.. ولكن اذهب إلى أي عامي وأخبره بهذا، فإنه سيمتلئ منك ضحكا وسخرية.

قال ابن الراوندي: لقد حصل ذلك لي مرة.

قال الراوندي: ولهذا.. فإن فرض التسلسل منقوض بالحس والمشاهدة.. ذلك أننا جميعا نعلم أن هناك مخلوقات نوعية انقرضت وانتهت، فلو صح بأن الموجودات تتسلسل إلى ما نهاية بأن يكون كل حلقة فيها معلولا بما قبلها وعلة لما بعدها.. فلماذا انقرضت هذه الموجودات؟.. إذ كيف تنقرض وهي علة لما بعدها؟.. وهذا إخلال بنظام التسلسل المزعوم.

قال ابن الراوندي: فأنا أرجع إلى أن العالم حادث.. وله علة أثرت في إيجاده.. ولكن هذه العلة لا تتمثل في أكثر من التفاعل الذاتي المتدرج، كتفاعل العناصر الأولية للحياة كالكربون والهيدروجين والأوكسجين التي تلاقت ونتج عنها مركبات عضوية لا حصر لها؟

قال الراوندي: إن هذا يستلزم القول **بالدور**.. وهو من البديهيات التي تنكرها العقول..

قال ابن الراوندي: الدور!؟.. ما الدور!؟

قال الراوندي: الدور هو أن يتوقف الشيء في وجوده المطلق أو تكييف معين له على شيء آخر إلا أن هذا الشيء متوقف في ذلك الوجود أو التكييف، وفي نفس الوقت على ذلك الشيء الأول.

مثال ذلك ما لو قلنا: إن وجود البيض متوقف على وجود الدجاج، ثم نقول: إن الدجاج وجد قبل البيض، وفرضنا أن لا وسيلة إلى وجود هذا ولا ذاك إلا عن هذا الطريق، فإن من البديهي أن كلا الأمرين يظلان معدومين حتى يأتي مؤثر خارجي يفك هذا الطوق.

قال ابن الراوندي: عرفت إلى الآن ثلاث حقائق بديهية.. فما الرابعة.. أم أنك نسيتها؟

قــال الراونــدي: لا.. كيــف أنســاها.. وهي في عقلي وعقلــك وعقول كل الناس..

قال ابن الراونـدي: من حقـك أن تفـرض وجودهـا في عقلـك.. ولكن ليس من حقــك أن تفــرض وجودهــا في عقلي.. عقلي هــو بيتي ولا يعرف ما في البيت إلا أهله.

قال الراوندي: من السـهل علي أن أدرك وجـود هـذه الحقيقـة فيه؟

قال ابن الراوندي: هل تريد أن تشرح عقلي لترى ما فيه؟

قال الراونـدي: سـأتحرى كمـا يتحـرى القضـاة.. وسـأدرك من خلال التحري أن عقلك لا يخلو من هذه البديهة.

قـال ابن الراونـدي: أنـا مسـتعتد لسـماعك حضـرة القاضـي.. فاسأل كما تشاء.

قال الراوندي: نفرض أنك نظـرت إلى وعـاء أمامـك، فوجـدت فيه قطعا من الآلات المختلفة الدقيقة، ولما تأملتها جيـدا اكتشـفت أن لكل واحدة منها مكانا تركيبيا دقيقا من الأخرى، فأخــذت تجمـع هذه الأجزاء.. وعندما فرغت من وضع آخـر آلـة منهـا في موضـعها فوجئت بصوت دقيق رتيب ينبعث في حركة مطردة من داخل تلك الآلات، وتأملت فإذا هي ساعة زمنيـة.. مـا لـذي تدركـه عقب هـذا كله؟

قال ابن الراوندي: لا شـك أني كسـائر النـاس أدرك دون ريب أن لكل آلة من تلك الآلات الدقيقـة غايـة جزئيـة معينـه قـد هـيئت لتحقيقها، وأن لمجموعها غاية نوعية واحدة هي ضبط الزمن.

قال ابن الراوندي: فأبشر إذن.. فإن عقلك لا يزال سليما.. إنه يحوي هـذه البديهيـة الـتي يسـميها أصـحابك من الفلاسـفة قـانون العلية (العلة الغائيـة).. ويسـميها أصـحابنا من علمـاء الكلام (دليـل الحكمة والتناسق).. فظهور العلة الغائيـة دليـل قطعي على وجـود مدبر صممه على هذا النحو إذ لا تملك الأجهـزة الجامـدة أن تفكـر لتسير وحدها نحو غايات معينة.

قـال ابن الراونـدي: فكيـف تسـتدل بهـذا القـانون على وجـود الله؟

قال الراوندي: لقد عـبر عن هـذا الـدليل أعـرابي كـان لا يـزال يحتفظ بفطرتـه حين قـال جوابـا لمن سـأله عن دليلـه على اللـه: (البعرة تدل على البعير، وأثـر السـير يـدل على المسـير، فسـماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلـك كلـه

على الله اللطيف الخبير)

وعبر عنه أفلاطون بقوله: (إن العالم آية في الجمال والنظـام، ولا يمكن أبدا أن يكون هذا نتيجة علل اتفاقيه، بل هـو صـنع عاقـل كامل توخى الخير ورتب كل شيء عن قصد وحكمة)

وعبر عنه (اناكساغورس) الذي جاء بعد (ديموقريطس) فقـال: (من المستحيل على قوة عمياء أن تبدع هذا الجمال وهـذا النظـام الذين يتجليان في هذا العالم، لأن القوة العمياء لا تنتج إلا الفوضى، فالذي يحرك المادة هو عقل رشيد بصير حكيم)

المناظرة العاشرة:

بعد أن مللت من التجول في الشوارع يممت صوب معهـد من معاهد العلوم.. وهناك رأيت رجلا اجتمع عليه نفر كثير.. منهم بعض الملحدين الـذين كنت رأيتهم في الشـوارع السـابقة الـتي تجـولت فيها.. ومنهم من كان مثله من المؤمنين الذين تلـوح أنـوار الإيمـان على وجوههم..

قال له أحدهم: عجبا لك.. أبعـد لقائـك الصـادق(1) تغـيرت كـل هذا التغير؟

قال: أجل.. فلم يكن الصادق بشرا عاديا.. وإن كـان في الـدنيا روحاني يتجسد إذا شاء ظاهراً، ويتروح إذا شـاء باطنـاً، فهـو هـذا.. لقد جلست إليه، فلما لم يبق عنده أحد غـيري، ابتـدأني فقـال: إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء، وهو على مـا يقولـون فقـد سـلموا وعطبتم، وإن يكن الأمر كما تقولون وليس هو كمـا تقولـون، فقـد استويتم وهم.

فقلت: يرحمك الله، وأي شيء نقول، وأي شيء يقولـون؟ مـا قولي وقولهم إلا واحد.

فقال: وكيف يكون قولك وقـولهم واحـد، وهم يقولـون إن لهم معاداً وثواباً وعقاباً، ويدينون بأن للسـماء إلهـاً وإنهـا عمـران، وأنتم تزعمون ان السماء خراب ليس فيها أحد.

فاغتنمتها منه، فقلت له: ما منعه إن كان الأمر كما يقولـون أن يظهر لخلقه يـدعوهم إلى عبادتـه حـتى لا يختلـف فيـه اثنـان. ولم يحتجب عنهم، ويرسـل إليهم الرسـل، ولـو باشـرهم بنفسـه كـان أقرب إلى الإيمان به؟

---

1) أشير في هذه المناظرة إلى مناظرة للإمام جعفر الصادق وهو من أئمة أهل البيت عليهم السلام مع بعض الملحدين.

فقال: ويلـك كيـف احتجب عنـك من أراك قدرتـه في نفسـك، نشوّك بعد أن لم تكن، وكبرك بعـد صـغرك، وقوتـك بعـد ضـعفك، وضعفك بعد قوتك، وسـقمك بعـد صـحتك، وصـحتك بعـد سـقمك، ورضـاك بعـد غضـبك، وغضـبك بعـد رضـاك، وحزنـك بعـد فرحـك، وفرحك بعد بغضك، وبغضك بعد حبك، وعزمك بعد إنابتك، ورغبتـك بعد رهبتك، ورهبتك بعد رغبتك، ورجاؤك بعـد يأسـك، ويأسـك بعـد رجاءك، وخاطرك لما لم يكن في وهمك وغـروب مـا أنت معتقـده عن ذهنك.

ومـا زال يعـد عليّ قدرتـه الـتي هي فيَّ الـتي لا أدفعهـا، حـتى ظننت انه سيظهر فيما بيني وبينه.

وبينما نحن كـذلك إذ دخـل عليـه بعض أصـحابنا من الملاحـدة، فقال: أليس تزعم أن الله تعالى خالق كل شيء؟

فقال الصادق: بلى.

فقال الملحد: أنا أخلق.

فقال له الصادق: كيف تخلق؟

فقـال الملحـد: أحـدث في الموضـوع، ثم ألبث عنـه، فيصـير دواب، فكنت أنا الذي خلقتها.

فقال الصادق: أليس خالق الشيء يعرف كم خلقه؟

قال: بلى

قـال: أفتعـرف الـذكر من الأنـثى وتعـرف عمرهـا؟ فسـكت الملحد.

ثم إنـه عـاد في اليـوم الثـاني إلى الصـادق فجلس، فسـأله الصادق: أمصنوع أنت أم غير مصنوع؟

فقال له الملحد: أنا غير مصنوع.

فقال له الصادق (عليه السـلام): فصـف لي لـو كنت مصـنوعاً كيف كنت تكون؟

فبقي الملحد مليا لا يحير جوابا وولع بخشبة كانت بين يديه وهو يقول: طويل عريض، عميق قصير، متحـرك سـاكن، كـل ذلـك من صفة خلقه.

فقال له الصادق فـإن كنت لم تعلم صـفة الصـنعة من غيرهـا، فاجعل نفسك مصنوعا لما تجـد في نفسـك ممـا يحـدث من هـذه الأمور.

فقـال لـه الملحـد: سـألتني عن مسـألة لم يسـألني أحـد عنهـا قبلك، ولا يسألني أحد بعدك عن مثلها.

فقال له الصادق: هبك علمت أنك لم تسأل في ما مضى، فما علمك أنك لم تسأل في ما بعد؟ على أنك نقضت قولك، لأنك تزعم أن الأشياء من الأول سواء، فكيف قدمت وأخّرت؟

ثم قال: أنزيدك وضوحاً؟ أرأيت لو كان معك كيس فيه جواهر، فقال لك قائل: هل في الكيس دينار؟ فنفيت كون الدينارفي الكيس، فقال لك قائل: صف لي الدينار، وكنت غير عالم بصفته، هل لك أن تنفي كون الدينار في الكيس وأنت لا تعلم؟

قال: لا.

فقال الصادق: فالعالم أكبر وأطول وأعرض من الكيس، فلعل في العالم صنعة من حيث لا تعلم، صفة الصنعة من غير الصنعة.

فانقطع الملحد.. ثم إنه عاد في اليوم الثالث فقال: أقلب السؤال.

فقال الصادق: سل عما شئت.

فقال: ما الدليل على حدوث الأجسام؟

فقال الصادق: أني ما وجدت صغيراً ولا كبيراً إلا وإذا ضم إليه مثله صار أكبر، وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأولى، ولو كان قديماً ما زال ولا حال، لأن الذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ويبطل، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث، وفي كونه في الأولى دخوله في العدم، ولن تجتمع صفة الأزل والعدم في شيء واحد.

فقال الملحد: هبك علمت بجري الحالين والزمانين على ما ذكرت، واستدلت على حدوثها، فلو بقيت الأشياء على صغرها، من أين لك أن تستدل على حدوثها؟

فقال الصادق: إنما نتكلم على هذا العالم الموضوع، فلو رفعناه ووضعنا عالم آخر، كان لا شيء أدل على الحدث من رفعنا إياه ووضعنا غيره، ولكن أجبت من حيث قدرت إنك تلزمنا وتقول: إن الأشياء لو دامت على صغرها لكان في الوهم لأنه متى ما ضم شيء منه إلى مثله كان أكبر، وفي جواز التغيير عليه خروج من القدم، كما بان في تغيير دخوله في الحدث أن ليس وراءه.

***

التفت إلينا صاحبنا (آرثر شوبنهاور)، وقال: هذا حديثي مع العلم والعقل ودلالتهما على الله.. لقد عشت في رحابهما أياما جميلة.. ولكن كلاليب الدنيا سرعان ما جذبتني، فانشغلت بها عن التعرف على ربي أو البحث عنه أو السير إليه.. وقد نسيت لذلك تلك

الأيام.. ونسيت معها تلك المعاني..

نعم صار (الله) عندي حقيقة من الحقائق، ولكنها حقيقة أقـرب إلى الباطل منها إلى الحق..

نعم كنت أقـول بوجـود اللـه، ولكـني لا أشـعر بـأن شـيئا تغـير بذلك.. لقد كان وجود الله في نفسي - بسبب غفلتي - أقــرب إلى العدم منه إلى الوجود..

ولـولا أن اللـه الـرحمن الـرحيم تـداركني بلطفـه، فأعـاد إلى ذاكرتي الساعة تلك الأيام الجميلة التي نعمت فيهـا بتلـك المعـاني لكنت الآن في عداد الغافلين.

ثانيا ـ الواحد

في اليـوم التـالي.. وبعـد أن من اللـه علينـا بفضـله وكرمـه، فاستمعنا إلى البراهين الكثيرة الدالة على وجـود اللـه تعـالى، قـام رجل منا، وقال: نعم.. لقد أثبت لنا صاحبنا (آرثر) بما لا يـدع مجـالا للشك بـأن رب هـذا الكـون موجـود.. ونحن لا نشـك في ذلـك، ولا ننازعه فيه.. ولكن ما أدرانا أن يكون إلها واحدا أو آلهة متعددة.. إن الأديان تختلف في ذلك اختلافا بينا.. فبينما تجنح المسـيحية للتثليث نـرى الإسـلام يـدعو إلى الإلـه الواحـد.. الإلـه الواحـد بكـل معـاني الوحدة.. فأيهما نصدق، وبأيهما نهتدي؟

قال آخر: صدقت.. وقد سمعت من احتجاجات النـاس في بـدء حياتي على هذه المعـاني مـا لم يسـتطع عقلي فهمـه، فانصـرفت عن البحث عن اللـه انصـرافا تامـا.. فهـذه الحقيقـة الغيبيـة الـتي تنازعت فيها الأديان يستحيل على العقول أن تثبتها.

قال آخر: صدقتما.. لا يمكن أن نعرف هذه الحقيقة إلا إذا تكلم معنا إله هذا الكون أو آلهته.

بقي نفر ممن معنا يردد مثل هذا الكلام إلى أن قاطعهم أحـدنا بقوله: اسكتوا.. اسكتوا جميعـا.. لقـد تـذكرت في هـذه اللحظـات جانبا مهما من حياتي كنت قد انصـرفت عنـه انصـرافا كليـا إلى أن عاد هذه اللحظة حيا ممتلئا حياة.

استبشرنا جميعا بقوله هذا، واقتربنا منـه، ورحنـا نقـول بلسـان واحد: هلم.. حدثنا.. فما أشـوقنا إلى التعـرف على الحقيقـة.. فلن ينجينا من هذه المهامه إلا الحقيقة.

اعتدل صاحبنا في جلسته، ثم قـال: أعـرفكم بنفسـي أولا.. أنـا (آريــوس) (1).. هكــذا ســماني أبي.. ولســت أدري لم اختــار أن يسميني به مع كونه كان كاثوليكيا متعصبا.. في نفس الوقت الـذي

---

1)أشير به إلى (آريوس) (256 -ـ 336م)، وهو قس إغريقي من سكان الإسـكندرية، بمصر، أنشأ في حوالي عام 318م مذهبًا لاهوتيًا نصرانيًا يعرف بالآريوسـية، أكـد فيـه أن المسيح مخلوق وليس إلهًا.. وكان يؤمن بالوحدانية ويقر بنبوة المسيح ﷺ لا بألوهيته.

وفي حوالي عام 318م، استنكر الإسكندر، مطران الإسكندرية تعـاليم آريـوس، الـذي استمر في القول بتعاليمـه وجـذب الكثـير من الأتبـاع، فطـرده وأتباعـه من الإسـكندرية، فذهب إلى فلسـطين وسـوريا، وتبعـه أسـاقفة كثـيرون منهم أسـقف قيصـرية وأسـاقفة بيروت وصور واللاذقية وغيرهـا.. ولمـا خشـي قسـطنطين اسـتفحال أمـره بعـد الانتشـار السريع لآرائـه، دعـا المجمـع المسـكوني للانعقـاد، فانعقـد في نيقيـة عـام 325م، وحكم بالأقانيم الثلاثة، وشجب أقوال آريوس، وأمر بحرق كتاباتـه وتحـريم اقتنائهـا، وحكم عليـه بالهرطقة. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

كـان فيـه آريـوس رجلا من كبـار الموحـدين، وداعيـة من دعـاة التوحيد..

لقد كان لهذا الاسم بركـات كثـيرة علي.. فبسـببه اهتـديت إلى التوحيد.. وعرفت أن الله خالق هـذا الكـون يسـتحيل أن يكـون إلا واحدا.. واحدا من كل الوجوه..

وقـد دعـاني إلى هـذا اليقين في وحدانيـة اللـه حصـلت لي.. عرفت من خلالها استحالة أن يكون إله هذا الكون متعددا.

قلنا: فحدثنا عنها..

قال آريوس: لا أذكر المكان الذي التقيت فيه ذلك المبلغ الـذي أقنعني بهذا بالضبط.. ولا الزمـان.. فقـد انشـغلت بحديثـه عن كـل شيء..

لست أعرف شيئا من المكـان والزمـان، ولكن اسـمه لا يـزال يرن على خاطري كل حين، فيملؤني بمشـاعر غريبـة.. لا أسـتطيع مهما حاولت أن أصورها.

لقد اجتمع فيه ما كان متناقضا بالنبسـبة إلي.. لقـد اجتمـع فيـه الإيمان والعقل.. وكلاهما جبل من الجبل قلمـا يجتمعـان لـدى أحـد من الناس.

كان شابا عليه سيما الإيمـان.. وكـان اسـمه – كمـا علمت بعـد لقائي به- (فخر الـدين)(1).. وكـان يقـال لـه (الـرازي) نسـبة للبلاد التي ولد فيها.

وكان أول ما بـادرني بـه قولـه: أنت هـو القس آريـوس داعيـة التوحيد؟

قلت: إن كنت تريد بآريوس ذلـك الهـرطقي.. فلا يشـرفني أن أنتسب إليه.

قال: لم؟

قلت: لأن جميع رجال الكنيسة يخالفونه.

قال: وعقلك؟.. هل يخالفه؟.. إن لعقلك دورا مهما قد لا يحتـاج معه إلى موافقة الموافقين أو مخالفة المخالفين.

قلت: ومـا لعقلي، وهـذه الأمـور؟.. إن اللـه هـو الـذي يصـف

---

1) أشير به إلى أحد كبار المتكلمين في الإسلام فخر الدين الرَّازي، (544 ـ 606هـ، 1150 -ـ 1210م)، وهو أبـو عبـد اللـه محمـد بن عمـر بن الحسـن بن الحسـين الـتيمي الرازي الملقب بفخر الدين. ولد في الري بطبرستان، أخذ العلم عن كبار علمـاء عصـره، ومنهم والده، حتى برع في علوم شتى واشتهر، فتوافد عليه الطلاب من كل مكان.. كان الرازي عالمًا في التفسير وعلم الكلام والفلك والفلسفة وعلم الأصول وفي غيرها.. ترك مؤلفات كثيرة أبرزها تفسيره الكبير المعروف بمفاتيح الغيب.. ولا يخفى سر اختيارنـا لـه في هذا المقام.

نفسه، لأنه هو الله، ولو أنا حاولنا بعقولنا أن نصف الله، لكنا الـذين نحدد لله كيف يكون، ويكون العقل بالتالي هو صانع الإله..

قال: ألا ترى من العجب ألا تعرف العقول باريها الذي برأها؟

قلت: ولكن العقـول تختلـف في هـذا.. ومـا في عقلي يختلـف عما في عقلك.

قال: العقول تختلف عندما تلجأ إلى الخديعة.. ولكنهـا لـو بحثت عن الحقيقة بصدق.. فإنها لن تختلف أبدا فيها.

قلت: فكيف نثق في أحكام العقل إذن ما دام يخاتل ويخادع؟

قال: إذا حررناه من الخدع(1).

قلت: فكيف نحرره؟

قال: إذا تجردنا من الأهواء، فلم نمل على عقولنـا كيـف تفكـر، ولا فيما تفكر.

قلت: أترى لو أن البشر كلهم فعلوا ذلك يصلون إلى الحقائق؟

قال: نعم.. يصلون إليها من أقرب الطرق.

قلت: فكيـف يتفقـون على الوصـول إليهـا مـع كـونهم مختلفي الطباع والأجناس والألوان؟

قـال: أتـراهم يختلفـون في تـذوقهم للطعـوم، أو تحسسـهم للأشياء، أو رؤيتهم للألوان.

قلت: لا.. ولكن تلك محسوسات.. وهذه معقولات.

قـال: أتـراهم يختلفـون في الـبراهين الرياضـية.. أم يتفقـون عليها؟

قلت: بل يتفقون.. فالرياضيات واحدة.. ونتائجها واحدة.

قال: فتعاملوا مع حقائق الوجود بالمنطق الرياضي.

قلت: المنطق الرياضي مرتبط بالأرقام.. ونحن في عـالم أكـبر من أن تحصره الأرقام.

قال: هناك قوانين كثيرة في الكون تشبه في دقتها دقة الأرقام فاعتمدوا عليها.

قلت: أيمكن أن نصل بها إلى الحقائق؟

قال: يمكن أن تصلوا بها إلى أبواب الحقائق.. وتـدقوا بهـا هـذه الأبواب.

قلت: وما بعد الأبواب؟

قال: لما بعد الأبواب عقوله الخاصة.. فلا تطلبوا ما بعد الأبواب قبل أن تصلوا إلى الأبواب.

---

1) انظر في هذا رواية (سلام للعالمين) من هذه السلسلة، فصل (العقل).

قلت: ما دمت قد ذكـرت هـذا.. فهلم حـدثني عن حكم العقـل في الخلاف الذي حصل بين آريوس وبين رجال الكنيسة.

قـال: أول مـا يـدلك على وحدانيـة الله(1) هـو نظـرك إلى هـذا الكون نظرة العالم العاقل الخبير.. فهذا الكون يشهد بكل ذرة من ذراته.. وبكل حرف من حروفه على أن الله واحـد.. واحـد من كـل الوجوه.

يَا عَجَباً كيف يُعْصَى الإلهُ أم كيف يَجْحَدُه الجاحدُ؟!
وللهِ في كل تحريكةٍ وتسكينةٍ أبداً شاهدُ
وفي كُلِّ شَيءٍ له آيةٌ تَدُلُّ على أنَّه واحِدُ

قلت: أنا مثلك أرى الكون.. وغيرنا كثير يراه.. ولكننا لا نسـتنتج ما تستنتج.

قال: لا بأس.. سأذكر لك عشرة براهين تجعلك ترى من الكون مرآة مجلوة لا تدل إلا على الواحد الأحد.

التكامل:

قلت: فهات أولها؟

قال: التكامل.

قلت: ما التكامل؟.. وما الذي يدل عليه؟

قال: لاشك أنك تعلم أن هذا الهواء الذي نستنشقه مـركب من عدة عناصر.. منها جزءان هامان: جـزء صـالح لتنفس الإنسـان هـو (الأوكسجين) وجزء ضار به هـو (الكربـون).. ومن دقـائق الارتبـاط بين وحـدات هـذا الوجـود أن هـذا الجـزء الضـار بالإنسـان يتنفسـه النبات، وهو نافع له.

ففي الوقت الـذي يكـون الإنسـان فيـه يستنشـق الأوكسـجين ويطرد الكربون، يكون النبات يعمل عكس هذه العملية، فيستنشق الكربون ويطرد الأوكسجين.

وتتم عملية إيجاد التوازن بين الصادر والوارد من غـاز الكربـون في البحر، فإنه يمتص كل زيادة موجـودة في الجـو إذا بلغت هـذه الزيادة فوق الحد المناسب.

فـانظر إلى الرابطـة التعاونيـة التكامليـة بين الإنسـان والنبـات والبحر في شيء هو أهم عناصر الحياة، وهو التنفس.

هذا مثال واحد عن التكامل في الكون..

وإن شـئت مثـالا آخـر.. فـانظر إلى الطعـام الـذي تأكلـه.. إنـه

---

1) استفدنا بعض المعلومات الواردة هنا من كتاب (الله جل جلاله) لسعيد حوى، ومن الكتب العلمية التي سبق ذكرها.

يتركب – كما تعلم- من عدة عناصر نباتيـة أو حيوانيـة، تنقسـم إلى مواد زلالية ونشوية ودهنية وغيرها.

ثم انظـر إلى الريـق حيث تـراه يهضـم بعض المـواد النشـوية، ويذيب المواد السكرية ونحوها مما يقبل الـذوبان، ليـذهب مـا بقي من طعام إلى المعدة حيث يهضم عصيرها المواد الزلاليـة كـاللحم وغيره، والصفراء المفرزة من الكبد تهضـم الـدهنيات وتجزئهـا إلى أجزاء دقيقة يمكن امتصاصها، ثم يأتي البنكرياس بعد ذلك، فيفــرز أربع عصارات تتولى كل واحدة منهـا تتميم الهضـم في عنصـر من العناصر الثلاثة النشوية أو الزلالية أو الدهنية، والرابعـة تحـول اللبن إلى جبن، فتأمل هذا الارتباط العجيب بين عناصر الجسم البشــري وعناصر النبات والحيوان، والأغذية التي يتغذى بها الإنسان.

هذا مثال ثان.. وإن شئت مثـالا ثالثـا فـانظر إلى الأزهـار الـتي تزين الحقول.. إنـك تـرى لهـا أوراقـا جميلـة جذابـة ملونـة بـألوان مبهجة، فإذا سألت علماء النبات عن الحكمة في ذلك أجـابوك بـأن هـذا إغـواء للنحـل وأشـباهه من المخلوقـات الـتي تمتص رحيـق الأزهار، لتسقط على الزهرة، حـتى إذا وقفت على عيـدانها علقت حبوب اللقاح بأرجلها، وانتقلت بذلك من الزهرة الذكر إلى الزهـرة الأنثى فيتم التلقيح.. فانظر كيـف جعلت هـذه الأوراق الجميلـة في الزهرة حلقة اتصال بين النبـات والحيـوان؛ حـتى يسـتخدم النبـات الحيوان في عملية التلقيح الضرورية للإثمار والإنتاج.

إن هذا التكامل تجده في كل شيء بين الليل والنهار، والسـماء والأرض، والشمس والقمر، والأعضاء المـذكرة والأعضـاء المؤنثـة، والإنسان والحيوان والنبات.

إن في هذا الكون جميعا وحدة مظهرهـا تكامـل أجزائـه.. وهي تدل على أن لها خالقا.. وأنه واحد..

قلت: فهمت ما ذكرت.. فهـو من المعلـوم من العلم بالضـرور والبداهة.. ولكني لم أفهم سر الاستدلال بهذا؟

قال: إن التعدد مدعاة الفساد والخلاف.. ولهذا فلو استقل أحـد المتعددين بالتصرف تعطلت صفات الآخرين ولـو اشـتركوا تعطلت بعض صفات كل منهم، وتعطيل صفات الألوهية يتنـافى مـع جلالهـا وعظمتها، فلا بد أن يكون الإله واحدا لا رب غيره.

لقد ذكر القرآن الكريم كتاب المسلمين المقدس هذا الـدليل.. فقال: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّـمَاءِ

مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَـهٌ مَـعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَـرَارًا وَجَعَـلَ خِلَالَهَـا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَـاجِزًا أَإِلَـهٌ مَـعَ اللَّهِ بَـلْ أَكْثَـرُهُمْ لَا يَعْلَمُـونَ (61) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْـطَرَّ إِذَا دَعَـاهُ وَيَكْشِـفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْـرِ وَمَنْ يُرْسِـلُ الرِّيَـاحَ بُشْـرًا بَيْنَ يَـدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْـقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُ وَمَنْ يَـرْزُقُكُمْ مِنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَـهٌ مَـعَ اللَّهِ قُـلْ هَـاتُوا بُرْهَـانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ (64)﴾ (النمـل).. وغيرهـا من الآيـات الكثيرة.

التناسق:

قلت: عرفت الأول.. فحدثني عن الثاني.

قال: لقد ذكره ربي، فقال:﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَـا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِـيرٌ (4)﴾ (الملك)

وقد ذكره العلم فأخبر أن من مظاهره أن الإلكترون يدور على عكس عقارب الساعة، والأرض تدور على عكس عقارب السـاعة، والشمس تدور على عكس عقـارب السـاعة، والكـواكب السـيارة تدور على عكس عقارب الساعة، والقمر وكـل الأقمـار تـدور على عكس عقـارب السـاعة، والنجـوم كلهـا تـدور عـل عكس عقـارب الساعة، ومجرتنا التي تضم بين أجزائها مجموعتنا الشمسـية تـدور على عكس عقارب الساعة.

وأخبر أن الإلكترون يـدور على مـدار بيضـوي إهليجي، والأرض تدور حول الشـمس على مـدار بيضـاوي إهليجي، وكـذلك الزهـرة ونبتون والمشتري والكواكب السيارة.

وأخـبر أن محـور الأرض مائـل. ومحـور القمـر مائـل ومحـور المريخ مائل، ومحور الشمس مائل..

وأخبر أن النسبة بين النواة وإلكتروناتها كالنسـبة بين الشـمس وكواكبها السيارة.

وأخبر أن ذرات الوجود كلها تقوم على الزوجيـة كهربـاء سـالبة وكهرباء موجبة فإذا ارتقينا إلى النبات وجدنا عنصر الزوجية، فـإلى الحيوان كذلك فـإلى الإنسـان كـذلك.. وحـتى في الأحيـاء المخنثـة توجد أعضاء ذكرية وأخرى أنثويـة.. لقـد ذكـر القـرآن ذلـك، فقـال

تعـالى:﴿ سُـبْحَانَ الَّذِي خَلَـقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَـا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36)﴾ (يس)

وأخبر أن في الأرض نفس العناصر التي تؤلف الشمس ونفس العناصر التي تؤلف كل الكواكب.

وأخبر أن الكون بكل عناصره مؤلف من بروتونات وإلكترونـات كعناصر أساسية هناك نيترونات كشـحنات كهربائيـة معتدلـة تكـون في نواة معظم العناصر.

وأخبر أن المادة كلها من نور إذ أن عناصـر المـادة كلهـا تـؤول إلى ذرات وكهارب وأن هذه الذرات والكهـارب تنشـق فتـؤول إلى شعاع.

وأخبر أن أجنة الحيوان والإنسان في الشهور الأولى من الحمل متشابهة تشـابها تامـا، فـإذا بهـذا التشـابه يخـرج منـه ذلـك الخلـق المختلف.

وأخبر أن في هذا الكون قـوة ومنـابع قـدرة وتحكمـه قـوانين.. وكلها تصيح بأدق معاني التناسق والوحدة بين القوى والقوانين:

فمن منـابع القـوة والقـدرة في هـذا الكـون: الضـوء والحـرارة والأشـعة السـينية والأشـعة اللاسـلكية والأشـعة البنفسـجية وتحت الحمراء.. وهذه القوى كلها ترجع إلى شـيء واحـد هـو تلـك القـوة الكهربائية المغناطيسية، ولها جميعا سرعة واحـدة، وإنمـا اختلافهـا اختلاف موجة.

ومن قوانين هذا الكون قانون الجاذبية الذي يحكم الوجـود كلـه من أصغر ذراته إلى أكبر أجرامه، والذي نصه: (كل شيء لـه كتلـة يجذب كل شيء آخر لـه كتلـة، وقـوة التجـاذب الـتي بينهمـا تـزداد ازديادا طرديا بزيادة أي الكتلتين، فالقوة تتناسب تناسبا عكسيا مـع مربع البعد بينهما).. وقد عرفنا من هـذا أن هنـاك قـوتين أو نـوعين من القوى؛ القوة المغناطيسية الكهربائيـة وقـوى الجاذبيـة.. وكلهـا ترجع إلى أصل واحد.. يقول أينيشتاين: (إن روح العالم النظـري لا تحتمل أن يكون في الوجود شكلان لقوى لا يلتقيان شكل للجاذبية القياسية، وشـكل للمغناطيسـية الكهربائيـة)سـكت قليلا، ثم قـال: سـأقص عليـك قصـتين تـدلانك على مـدى التناسـق الموجـود في الكون لترى من خلالهما الوحدة الكونية.. ولتستدل بها على وحــدة المكون.

قلت: فحدثني عن الأولى.

قال: أنت تعلم أن لاختلاف العناصر الأصلية في هذا الكون، أثر

عند اختلاف عدد إلكتروناتها وبروتوناتها، والوزن الذري أثر من آثـار هذا العدد، وخواص كل عنصر أثر من آثار هذا العدد.

وقـد اسـتطاع العـالم الروسـي منـدليف أن يصـنف العناصـر بحسب وزنها الذري، ووضـع لهـا جـدولا على هـذا الأسـاس، وكـان ترتيب العناصـر متـدرجا صـاعدا، ولكنـه فـوجئ بفـراغ لم يجـد مـا يملؤه به.

إذ أنه وجد أن درجات السـلم الـدوري للعناصـر تطـرد بتتـابع لا فراغ فيه، إلا في ثلاثة عناصر، فإما أن يكون هـذا القـانون الـدوري غير مطرد وغـير صـحيح، وإمـا أن يكـون صـحيحا ومطـردا، فلا بـد حينئذ من وجود هذه العناصـر المفقـودة، في نفس تلـك الـدرجات الفارغة.

وبما أن مندليف كان واثقا من صحة قانونه الـدوري، فإنـه أخـذ يؤكـد أن هـذه العناصـر الثلاثـة المفقـودة لا بـد من وجودهـا على الأرض، بل إنه استطاع على أساس وزنهـا الـذري الـذي يـأتي في الدرجات الفارغة أن يحدد كـل الخـواص الكيميائيـة الـتي لهـا كأنـه يراها.

وقد كتب الله لمندليف أن لا يأتي أجلـه قبـل تأكـده من صـحة نظريتـه العلميـة.. فقـد اكتشـف العلمـاء العناصـر المفقـودة بكـل خصائصها كما حددها مندليف.

قلت: سمعت الأولى.. فحدثني عن الثانية.

قـال: لاشـك أنـك تعلم أن أقـرب الكـواكب إلى الشـمس هـو عطارد، وهو يبعد عنهـا بـ 36 مليـون ميـل.. ثم الزهـرة ومتوسـط بعـدها 67 مليونـا.. ثم الأرض 93 مليونـا.. ثم المـريخ 142.. ثم المشتري 484 مليونا.. ثم زحل 887 مليونا.. ثم أورانـوس 1782 مليونا.. ثم نبتون 2792 مليونا من الأميال.

القصة لا ترتبط بهذه الأعداد، وإنما ترتبط بالنسبة بينها..

إن أبعاد هذه السيارات عن الشمس جارية على نسب مقـدرة ومطردة تسير وفق 9 منازل: أولها الصـفر، ثم تليـه ثمانيـة أعـداد تبـدأ بالعـدد 3، ثم تتـدرج متضـاعفة هكـذا 2-6-12-24-48-96-192-384 فـإذا أضـيف إلى كـل واحـد منهـا العـدد 4 ثم ضـرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل، ظهر مقدار بعد السيارة التي في منزلة العدد عن الشمس؛ أي أنه بإضافة 4 إلى كـل منزلـة تصـبح المنازل التسع هكذا: 4-7-10-16-28-52-100-196-388 فـإذا أخذنا أعداد المنازل هذه، وضربنا كل عدد منه بتسعة ملايين، يظهر

لنـا بعـد السـيارة الـتي هي في منزلـة ذلـك البعـد عن الشـمس؛ فعطارد مثلا يبلغ متوسط بعده عن الشمس 36 مليون ميل، وبمـا أن منزلته في البعد هي الأولى فيكون رقمه 4، فـإذا ضـربنا 4×9 يكون حاصل الضرب 36 مليون ميل، وهكذا تسير النسبة في بعـد كل سيار عن الشمس مع فروق مختلفة قليلة.

ولكن العلماء وجدوا أن منزلة العدد (28) ليس فيها كوكب، بل تأتي بعد العدد 16 الذي صـاحبه المـريخ، العـدد 52 الـذي صـاحبه المشتري، وقد تساءل العلماء عن السر في هذا الفـراغ.. فإمـا أن تكون النسبة الـتي اكتشـفوها غـير مطـردة، وإمـا أن يكـون هنـاك كوكب غير منظور في مرتبة العدد 28 على بعد 252 مليون ميـل عن الشمس، أي بين المريخ والمشتري.

وأخيرا وجدوا هـذا الشـيء الـذي لا بـد من وجـوده، ولكنهم لم يجدوه كوكبا كبيرا؛ بل وجدوا كويكبات صغيرة كثيرة تدور كلهـا في الفراغ المذكور الذي بين المريخ والمشتري، أي في نفس المنزلـة التي حسبوها من قبل فارغة، فكأنه كوكب تحطم.

التفت إلي، وقـال: إن هـاتين قصـتين متشـابهتين في قضـيتين مختلفتين، كل واحدة منها تتمم الأخرى لتكملا عنـدك الشـعور بـأن يدا واحدة قد خلقت قوانين هذا الوجود وعناصر وجزيئاته وكلياته.

التمانع:

قلت: عرفت الثاني.. فحدثني عن الثالث(1).

قال: لقد ذكره ربي، فقال:﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَـا آلِهَـةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَـدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22)﴾ (الأنبياء)

قلت: فكيف تقرر هذا البرهان؟

قال: القول المفضي إلى المحال لابد أن يكون محالا.. وهكـذا، فـإن القـول بوجـود إلهين يفضـي إلى المحـال.. فـوجب أن يكـون القول بوجود إلهين محالاً.

قلت: فكيف زعمت بأن القول بوجود إلهين يفضي إلى محال؟

قال: لأنا لو فرضنا وجود إلهين فلا بد أن يكون كل واحد منهمـا قادراً على كل المقدورات، ولو كان كذلك لكـان كـل واحـد منهمـا قادراً على تحريك شيء ما وتسكينه..

فلو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه والآخر تسكينه:

فإما أن يقع المرادان، وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين.

وإما أن لا يقع واحد منهمـا، وهـو محـال، لأن المـانع من وجـود

1) انظر في تقرير هذا البرهان التفسير الكبير للفخر الرازي.

مراد كل واحد منهما مراد الآخر، فلا يمتنع مراد هـذا إلا عنـد وجـود مراد ذلك، وبالعكس.. فلو امتنعا معاً لوجدا معاً، وذلك محال.

قلت: فلنفرض أنه يقع مراد أحدهما دون الثاني؟

قال: ذلك محال أيضاً لـوجهين: أولهمـا أنـه لـو كـان كـل واحـد منهما قادراً على ما لا نهاية له امتنع كون أحـدهما أقـدر من الآخـر، بل لا بد وأن يستويا في القدرة.. وإذا اسـتويا في القـدرة اسـتحال أن يصـير مـراد أحـدهما أولى بـالوقوع من مـراد الثـاني، وإلا لـزم ترجيح الممكن من غير مرجح.

أما الثاني، فإنه إذا وقع مـراد أحـدهما دون الآخـر، فالـذي وقـع مراده يكـون قـادراً، والـذي لم يقـع مـراده يكـون عـاجزاً، والعجـز نقص، وهو على الله محال.

قلت: تقريرك هذا يصح في حال القول باختلافهما في الإرادة.. وذلك ليس لازما..

قال: حتى لو فرضنا ذلك.. فإننا نعتبره من نـوع الممكن.. فـإذا كان الفساد مبنياً على الاختلاف في الإرادة، وهذا الإختلاف ممكن.. والمبني على الممكن ممكن.. فكان الفساد ممكناً.

قلت: فكيف جزم قرآنكم إذن بوقوع الفساد؟

قال: لو فرضنا إلهين لكان كـل واحـد منهمـا قـادراً على جميـع المقدورات، فيفضي إلى وقـوع مقـدور من قـادرين مسـتقلين من وجه واحد، وهو محال..

قلت: وما في ذلك؟

قال: لأن استناد الفعل إلى الفاعل لإمكانه، فإذا كان كل واحــد منهما مستقلاً بالإيجاد، فالفعل لكونه مع هذا يكـون واجب الوقـوع، فيسـتحيل إسـناده إلى هـذا لكونـه حاصـلاً منهمـا جميعـاً، فيلـزم استغناؤه عنهما معاً واحتياجه إليهما معاً وذلك محال.

وإن شئت تقريرا آخر لهذا أقول: إن خلقة العالم الـتي تحققت على طبق النظام الأتم لو كان المؤثر فيهـا إرادة أحـدهما اسـتلزم عجز الآخر، ولو كان إرادتهما معا استلزم عجز كليهما.

فإن علم كل واحد منهمـا بالنظـام الأتم للعـالم اقتضـى إرادتـه لإيجاده، فكانت إرادتهما متمانعتين، فإن كل واحد منهما علـة تامـة لإيجاده ،ويستحيل استناد المعلول إلى علتين تامتين.

فتكون العلة التامة هي مجموع إرادتهمـا، دون إرادة كـل واحـد منهما، وعجز كل منهما أن يكون علة تامة له.

وإن كـانت إرادة أحـدهما قـاهرة على إرادة الآخـر ثبت عجـز

أحدهما، وهو ينافي وجوب الوجود، وبذلك تبطل خلقة عالم لا محالة.

الوحدة:

قلت: عرفت الثالث.. فحدثني عن الرابع.

قال: لقد ذكره ربي، فقال:﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91)﴾ (المؤمنون)

ففي قوله تعالى:﴿.. إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ.. (91)﴾ (المؤمنون) حجة على نفي التعدد ببيان محذوره، إذ لا يتصور تعدد الآلهة إلا ببينونتها بوجه من الوجود، بحيث لا تتحد في معنى ألوهيتها وربوبيتها.

ومعنى ربوبية الإله في شطر من الكون ونوع من أنواعه تفويض التدبير فيه إليه بحيث يستقل في أمره من غير أن يحتاج فيه إلى شي غيرنفسه حتى إلى من فوض إليه الأمر.. ومن البين أيضا أن المتباينين لا يترشح منهما إلا أمران متباينان.

ولازم ذلك أن يستقل كل من الآلهة بما يرجع اليه من نوع التدبير.. وتنقطع رابطة الاتحاد والاتصال بين أنواع التدابير الجارية في العالم.. كالنظام الجاري في العالم الإنساني عن الانظمة الجارية في أنواع الحيوان والنبات والبر والبحر والسهل والجبل والأرض والسماء وغيرها.. وكل منها عن كل منها.. وفيه فساد السماوات والأرض وما فيهن.. ووحدة النظام الكوني والتئام أجزائه واتصال التدبير الجاري فيه يكذبه.

وهذا هو المراد بقوله:﴿.. إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ.. (91)﴾ (المؤمنون) أي انفصل بعض الآلهة عن البعض الآخر بما يترشح منه من التدبير.

وفي قوله:﴿.. وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ..(91)﴾ (المؤمنون) محذور آخر لازم لتعدد الآلهة، تتألف منه حجة أخرى على النفي.. وهي أن التدابير الجارية في الكون مختلفة.. منها التدابير العرضية ،كالتدبيرين الجاريين في البر والبحر، والتدبيرين الجاريين في الما والنار.. ومنها: التدابير الطولية، التي تنقسم الى تدبير عام كلي حاكم، وتدبير خاص جزئي محكوم، كتدبير العالم الأرضي وتدبير النبات الذي فيه، وكتدبير العالم السماوي وتدبير كوكب من الكواكب التي في السماء، وكتدبير العالم المادي برمته وتدبير نوع من الأنواع المادية.

فبعض التدبير ـ وهو التدبير العـام الكلي ــ يعلـو بعضـا، أي أنـه بحيث لو انقطع عنه ما دونه بطل ما دونه، لتقومه بمـا فوقـه، كمـا أنـه لـو لم يكن هنـاك عـالم أرضـي، أو التـدبير الـذي يجـري فيـه بــالعموم لم يكن عــالم إنســاني ولا التــدبير الــذي يجــري فيــه بالخصوص.

ولازم ذلك أن يكون الإله الذي يرجع إليه نوع عـال من التـدبير، عاليابالنسبة إلى الإلـه الـذي فـوض إليـه من التـدبير مـا هـو دونـه وأخص منه وأخس، واستعلاء الإله على الاله محال.

لقد عبر الإمام جعفر الصادق عن هـذا البرهـان، فقـال: (فلمـا رأينا الخلق منتظما والفلك جاريا والليل والنهار والشـمس والقمـر دل صحة التدبير وائتلاف الأمر على أن المدبر واحد)

وعبر عنه صدر المتالهين، فقـال:(إن كونهـا (أي الموجـودات) مرتبطة منتظمة في رباط واحد، مؤتلفة ائتلافا طبيعيا يدل على أن مبـدعها ومـدبرها وممسـك رباطهـا عن أن ينفصـم واحـد حقيقي، يقيمها بقوته التي تمسـك السـماوات والأرض أن تـزولا، ولـو كـان فيهما صانعان لتميز صنع كـل واحـد منهمـا عن صـنع غـيره، فكـان ينقطع الارتباط، فيختل النظام، كما في قولـه تعـالى:﴿.. إِذًا لَـذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُـبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِـفُونَ (91)﴾ (المؤمنون)(1)

إلى أن قـال: (كـون جبلـة العـالم مـع تفنن حركاتهـا وتخـالف أشـكالها وتغـير آثارهـا مؤسسـة على الائتلاف الطـبيعي والرصـف الحكمي دالـة بوحـدتها الطبيعيـة الاجتماعيـة على الوحـدة الحقـة الحقيقية)

فسبحان من جعل الموجودات العالميـة على كثرتهـا متشـاكلة من وجه ومتمايزة من وجـه متفرقـة من وجـه.. لتكـون دالـة على صنع قادر حكيم ومدبر عليم.

وقـد عـبرت الطبيعـة عن هـذا خـير تعبـير: فإنـا نـرى جميـع موجودات العالم مرتبطة بقوانين حاكمة على جميعها:

فحركـة الأجـرام السـماوية الـتي تسـير في مـدارات معينـة، وفواصل منظمـة، بحيث لا تصـطدم الواحـدة بـالأخرى، تـدل على وحدة النظام في العالم.

وهكذا نرى الجمادات والنباتـات والحيوانـات والإنسـان، بعضـها

1) المبدأ والمعاد، ص 45.

بالنسبة إلى البعض الآخـر كالمعـدات(1).. فـالحيوان يأكـل النبـات، والإنسان يأكل الجمـاد، ويتغـذى على النباتـات والحيوانـات لتصـبح جزءا منه.. ويموت الإنسان والحيوان ويصبحا ترابـا.. وينمـو النبـات من التراب.. فكل منها يتحول الى الآخر بشروط خاصة.. وهذا يدل على أن خالق الجميع واحد متى ما أراد يحوله إلى الآخر.

وهكـذا نـرى الموازنـة الموجـودة بين الحيوانـات والنباتـات في صرف الاوكسجين والكاربون، فإن التركيب الأساسي لوجود جميـع النباتات حاصل من الماء والكـاربون، وتطـرح الحيوانـات الكـاربون في الهـواء، وتجـذب الأوكسـجين، فتحصـل الموازنـة بين صـرف الكاربون والأوكسجين..

والأمثلة على ذلك لا تكاد تحصى.

الهداية:

قلت: عرفت الرابع.. فحدثني عن الخامس.

قال: لقد ذكره ربي، فقال:﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَـةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ (18)ـ ﴾ (آل عمران)

قلت: فكيف تقرر هذا الدليل؟

قال: إن واجب الوجود – سبحانه وتعالى- هـو منبـع كـل فيض، فكمـا يفيض منـه الفيض التكويـني يفيض منـه الفيض التشـريعي.. وذلك لسوق العباد الى الكمال وهدايتهم الى معرفة مـا يـؤدي إلى رضاه.

وبما أن جميع الأنبياء قد أخبروا بوحدانية اللّـه سـبحانه وتعـالى، وقـدبعثوا بالرسـالة من قبـل الواحـد الأحـد، وقـد أيـدهم بشـواهد الصدق، وقرنهم بالمعجزات، وشهدوا جميعـا بوحدانيتـه، فلـو كـان هنـاك إلـه آخـر لبعث من ناحيتـه أنبيـاء ورسـلا أخـبروا عنـه، وأدوا رسالته إلى الناس.. فانتفاء نبي يخـبر عنـه، واتفـاق جميـع الأنبيـاء على وحدانية اللّه تعالى يدل على أنه ليس معه إله آخر، وأنه الإلـه الواحد الأحد الذي لا شريك له في ألوهيته.

لقد ذكر الإمام علي بن أبي طالب في وصيته لابنه الحسن هذا البرهان، فقال: (واعلم، يـا بـني، أنـه لـو كـان لربـك شـريك لأتتـك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد، كما وصف نفسه، لا يضاده في ملكه أحد، ولا يزول أبـدا، ولم يزل، أول قبل الأشـياء بلا أوليـة، وآخـر بعـد الأشـياء بلا نهايـة،

1) معد الشيء: الذي يكون مقدمة لوجود الآخر.

عظم عن أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر)[1]

وقال المجلسي في تقرير هذا البرهان: (إن هـذا برهـان قـاطع على وحدانيتـه تعـالى.. فـإن واجب الوجـود يجب أن يكـون قـادرا وفياضا على الاطلاق.. فإن كـان اللّـه قـد أرسـل أربعـة وعشـرين ومائة ألف نبي لهدايـة النـاس إلى معرفتـه ودعـوتهم إلى عبادتـه، لبعث الإله الآخر على فرض وجوده نبيا لا محالة لإرشاد الناس إلى معرفته ودعـوتهم إلى عبادتـه، وإلا لكـان غـير قـادر أو غـير حكيم، وكان جاهلا أو بخيلا، وواجب الوجود يجب أن يكون منزها من هـذه الصفات المستلزمة للنقص، المستلزم للإمكان)

الحقيقة:

قلت: عرفت الخامس.. فحدثني عن السادس.

قال: هو برهان الحقيقة..

قلت: فوضحه لي..

قال: إن صدق إطلاق (واجب الوجود) على شـيء لا يتصـور إلا على وجهين..

أما أولهما، فأن تكون حقيقته هي أنه واجب الوجود.

وأما الثاني، فأن يكون من قبيل صدق المفهوم على فـرد كـان حقيقته غير ذلك، كصدق الضارب والأبيض على فرد الإنسان.. وقد يخلو منها.

وفي هذه الحالة، فإن صـدق إطلاق (واجب الوجـود) من قبيـل العرض لا من قبيل الحقيقة.. وهذا يؤدي إلا أن يفتقر عروضه عليه إلى علة هي واجب الوجود بحقيقته وذاته دونه.

ولو فرض اثنان، كل واحد منهما واجب بحقيقته وذاته، لكان مـا به التميز والتعدد غير واجب الوجـود بحقيقتـه، فـإن المفـروض أن حقيقة واجب الوجود مشترك بينهما، فما به التمـيز والتعـدد ممكن الوجود بحسب ذاته، فيكـون خارجـا عن ذات واجب الوجـود، فثبت أن التعـدد منشـؤه إمكـان الوجـود.. ولا سـبيل للتعـدد إلى واجب الوجود.

التعين:

قلت: عرفت السادس.. فحدثني عن السابع.

قال: لقد ذكره الشيخ الرئيس في (الإشارات) و(الشفاء)

فقال في (الإشارات): (واجب الوجـود المتعين إن كـان تعينـه ذلك لأنه واجب الوجـود فلا واجب وجـود غـيره، وإن لم يكن تعينـه

---

1) انظر: نهج البلاغة: كتاب 30 ص 980.

لذلك، بل لأمر آخر، فهو معلول)

وقال في (الشفاء) في شرح هذا البرهان: (مثلا لو كان الشيء الواجب الوجود هو هذا الإنسان، فلا يخلو إما أن يكون هو هـذا هـذا الإنسان، للإنسانية ولأنه إنسان، أو لا يكون.

فإن كان لأنه إنسان هو هذا، فالإنسـانية تقتضـي أن يكـون هـو هذا فقط.

وإن وجدت لغيره فما اقتضت الإنسانية أن يكون هـو هـذا، بـل إنما صار هذا لأمر غير الإنسانية.

فكذلك الحال في حقيقته واجب الوجود، فإنهـا إن كـانت لأجـل نفسـها هي هـذا المعين لاسـتحال أن تكـون تلـك الحقيقـة لغـيره، فيكون تلك الحقيقة ليست إلا هذا.

وإن كان تحقق هـذا المعـنى فهـذا المعين لا عن ذاتـه، بـل عن غيره، وإنما هـو هـو لأنـه هـذا المعين، فيكـون وجـوده الخـاص لـه مستفادا عن غيره فلا يكون واجب الوجود، وهذا خلف.

قلت: هلا وضحت لي هذا البرهان.

قال: لو فرض كون واجب الوجود اثنين: أحدهما غير الآخـر في الخارج كان لكل واحد منهما عينية غير عينية الآخر.

فإما أن تكون عينيته وكونه هـذا الـواجب دون الآخـر بمقتضـى كونه واجب الوجود، فيكـون وجـوب الوجـود مقتضـيا لكـون واجب الوجود هو هذا الواجب دون الاخر، فيستحيل وجـود واجب الوجـود غيره، لكونه مستلزما للتناقض.

وامـا ان تكـون عينيتـه وكونـه هـذا الـواجب دون غـيره ليس بمقتضـى وجـوب وجـوده، تكـون عينيتـه معلولـة للغـير، فلا يكـون واجب الوجود، فيستلزم التناقض أيضا.

التركيب:

قلت: عرفت السابع.. فحدثني عن الثامن.

قال: لقد ذكره الحكيم السبزواري في (المنظومة)، فقال:

تركب أيضا عراه إن يعد مما به امتياز وما به اتحد.

وتقريـره: أنـه لـو كـان واجب الوجـود متعـددا للـزم أن يكـون مركبا.. وهو باطل، لمنافاة التركيب مع الوجوب.

وبيان الملازمة أن اختلاف ذاك الواجب على فـرض التعـدد عن ذاك إما بالاختلاف النوعي بأن يكون كل واحد نوعا مغايرا مـع نـوع الآخر، وإمابالاختلاف الشخصي.

فعلى الأول: يلزم أن يكون كل واحد منهما مركبا من الجنس والفصل.

وعلى الثانى: يلزم أن يكون كل منهما مركبا مما يكون به مشتركا مع الآخر في تمام الذات، ومن عارض شخصي يمتاز به عن الآخر.

وعلى التقديرين: يلزم تركيب الواجب إما في أصل حقيقته - كما في الأول - أو في تشخصه، كما في الأخير.

قلت: هلا وضحت لي هذا بطريقة أخرى.

قال: لا بأس.. اسمع جيدا.. إذا كان واجب الوجود متعددا لزم تركب كل منهما، أو خروجه عن كونه واجبا، لأنه مع فرض التعدد لو كان واجبان مثلا واشتركا في وجوب الوجود لاحتاج كل منهما إلى ما به يمتاز عن الآخر، لكي تتم الاثنينية، وحينئذ لا يخلو:

إما تكون ذات كل منهما متميزة عن الآخر بتمام الذات، ويكون الاشتراك في وجوب الوجود الذي يصدق عليهما صدقا عرضيا.

أو يكون امتيازهما بأمر خارج عن الذات، ويكون وجوب الوجود ذاتيا لهما، بمعنى كونه تمام ذاتهما.

أو يكون وجوب الوجود جزءا من ذاتهما، ولا محالة يكون لكل منهما جزءا آخر قضاء لحكم الجزئية.

والكل محال:

أما الأول: فللزوم كون كل منهما في مرتبة ذاتهما غير واجب، فيكون كل منهما ممكن الوجود ومعروضا للوجوب.

وأما الثاني: فللزوم تركب كل منهما في كونه فردا من واجب الوجود، واحتياج كل واحد في تفرده إلى العوارض المشخصة.

وأما الثالث: فلصيرورة كل منهما مركبا من الجنس والفصل، وهذا ظاهر.

الفرجة:

قلت: عرفت الثامن.. فحدثني عن التاسع.

قال: لقد ذكره الإمام الصادق، فقال في حواره مع الملحد: (يلزمك إن ادعيت اثنين فرجة ما بينهما حتى يكونا اثنين فصارت الفرجة ثالثا بينهما قديما معهما فيلزمك ثلاثة.. فان ادعيت ثلاثة لزمك ما قلت في الاثنين حتى تكون بينهم فرجة فيكونوا خمسة.. ثم يتناهى في العدد الى ما لا نهاية له في الكثرة)

قلت: فما تقرير هذا البرهان؟

قال: لو فرض اثنان كل منهما واجب الوجود، لم يكن الوجوب

خارجا عن حقيقة كل منهما، فلابـد من الامتيـاز بشـي وجـودي في كل منهما أو في أحدهما ولم يكن في الآخر.

ثم إن ما به امتيازه أيضا واجب الوجود لا محالة، فيشـترك مـع الاثنين في وجوب الوجود، فلابد من امتياز عنهما من آمر آخر يمتاز به عنهما، فهو أيضا واجب الوجود، فيشترك مع الثلاثـة في وجـوب الوجود، فلابد أيضـا من أمـر آخـر يمتـاز بـه عن الثلاثـة، فهـو أيضـا واجب الوجود لا محالة، فيشترك مـع الأربعـة في وجـوب الوجـود، ولابـد في امتيـازه عن الأربعـة من أمـر خـامس، وهكـذا إلى مـا لا نهاية.

قلت: الامتياز بين الشيئين قد يكـون بتمـام الـذات، والاشـتراك بأمر عام ذهني خارج عنهما لازم لهما.

قال: هذه شبهة مشهورة عجز الناس عن حلها، لكن من عرف حقيقة وجوب الوجـود علم أن الـذي بـه تصـير الأشـياء والماهيـات ذوات حقيقة هـو أولى وأحـق بـأن يكـون ذا حقيقـة، بـل هـو نفس الحقيقة، وهي المتحققة بذاتها المتحقق بها سائر الأشياء من ذوات الماهيات.

فلو فرض إلهان لم يكن وجوب الوجود خارجـا عن حقيقـة كـل منهما، فلا بد حينئذ من الامتياز بشيء وجودي خارج عن حقيقة كل منهما، إذ ليس انضمام ما فرض هاهنا مميزا، حاله كحـال انضـمام فصل بجنس، والجنس ماهية كلية مبهمة تتحصل بالفصـل، فيكـون انضمام الفصل إليه انضمام أمر محصل إلى أمر مبهم ليصيرا معـا موجـودا واحـدا، وإمـا هاهنـا فانضـمام الممـيز إلى حقيقـة واجب الوجود انضمام محصل موجود إلى محصل موجود آخر، ولهذا يلزم أن يكون المفروض اثنين ثلاثـة، والمفـروض ثلاثـة خمسـة، وهكـذا إلى لا نهاية..

الكلية:

قلت: عرفت التاسع.. فحدثني عن العاشر.

قال: لقـد ذكـره صـاحب كليـات رسـائل النـور.. بـديع الزمـان النورسي.. فقال:(إن عوالم الكائنات المختلفة وأنواعهـا المتنوعـة وعناصرها المتباينة قد انـدمجت انـدماجاً كليـاً وتـداخل بعضُـها مـع البعض الآخر، بحيث:

أن مَن لم يكن مالكاً لجميع الكـون لا يمكنـه أن يتصـرف بنـوعٍ منه أو عنصر فيه تصرفاً حقيقياً، لأن تجلي نور التوحيـد لاسـم اللـهِ (الفرد) قد أضاء أرجاء الكون كله، فضمّ أجزاءهـا كافـة في وحـدة

متحدة، وجعل كل جزء منه يعلن تلك الوحدانية.

مثلاً: كما أن كون الشمس مصباحاً واحداً لهذه الكائنات يشير إلى أن الكائنات بأجمعها ملكٌ لواحد، فإن كون الهواء هواءً واحداً يسعى لخدمة الأحياء كلها.. وكون النار ناراً واحدة توقد بها الحاجات كلها.. وكون السحاب واحداً يسقي الأرض.. وكون الأمطار واحدة تأتي لإغاثة الأحياء كافة.. وانتشار أغلب الاحياء من نباتات وحيوانات انتشاراً طليقاً في أرجاء الأرض كافة مع وحدة نوعيتها، ووحدة مسكنها.. كل ذلك إشارات قاطعة وشهادات صادقة أن: تلك الموجودات ومساكنها ومواضعها إنما هي ملكٌ لمالك واحدٍ أحد.

ففي ضوء هذا وقياساً عليه نرى: أن تداخل الأنواع المختلفة للكائنات واندماجها الشديد ببعضها قد جعل مجموعَها بمثابة (كل) واحد لا يقبل التجزئة قطعاً من حيث الإيجاد.. فالذي لا يستطيع أن يُنفِّذ حكمَه على جميع الكون لا يمكنه - من حيث الخلق والربوبية - أن يُخضِع لربوبيته أي شئ فيه، حتى لو كان ذلك الشئ ذرة أو أصغر منها.

***

التفت إلينا صاحبنا (آريوس)، وقال: هذا حديثي مع ذلك الرجل الصالح.. لقد عشت في رحاب كلماته أياما جميلة.. ولكن كلاليب الدنيا سرعان ما جذبتني، فنسيت تلك الأيام.. ونسيت معها تلك المعاني..

لقد بعتها جميعا بثمن بخس حقير..

ولكن الله الرحمن الرحيم تداركني بلطفه، فأعاد إلى ذاكرتي الساعة تلك الأيام الجميلة التي نعمت فيها بتلك الصحبة الشريفة..

ثالثا ـ القدوس

في اليوم التالي.. وفي وقت متأخر من الليـل.. قـام رجـل منـا فرحا مسرورا، وأسرع يوقظ الجمع، وهو يقـول لهم: أيهـا الجمـع.. هلموا.. لقد تذكرت الآن أشياء حصـلت لي في حيـاتي.. لاشـك أن لهـا دورا كبـيرا فيمـا نبحث عنـه.. لا شـك أن لهـا دورا كبـيرا في التعريف بالإله الذي انشغلنا جميعا بالبحث عنه.

استبشر الجمع، وراحوا يلتفون به، وهم يقولون: هيـا.. أخبرنـا.. ما أشد شـوقنا للتعـرف على إلهنـا.. فلن يخلصـنا من هـذه الحـال غيره.

قال: سأعرفكم أولا بنفسي.. أنا (فريـدريك مـاكس مـولر)(1).. وقد كنت باحثا في كثير من مراكز البحـوث.. وأجـريت في حيـاتي بحوثا كثيرة إلى درجة أني أنسى عناوينها.. بل أنسـى النتـائج الـتي توصلت إليها من خلالها.. وأحيانا أطالع بعضها، فأتوهم أن غيري هو الذي قام بها مع أني لم أقم بها إلا أنا..

لعل ذلك كان بسبب الآلية التي كنت أجري فيها بحـوثي.. فقـد كنت أقدم على البحوث كما تقدم آلة الحـرث على الحـرث.. وآلـة الزرع على الزرع.. وآلة الحصاد على الحصاد..

لقـد كنت أزرع فرضـيات بحـثي بعـد أن أهـيئ لهـا الأرضـية المناسبة.. ثم أتركها لأحصـدها بعـد ذلـك بكـل آليـة بعيـدا عن كـل المشاعر..

أذكر أني أجريت مرة بحثا عن اليتامى.. وأذكر أني زرت خلالها كثيرا من الأسر التي تضم يتامى.. وأذكر مع ذلك كلـه أن عيـني لم تتكرم علي بدمعة واحدة مع كثرة المآسي التي رأيتها..

لكن بحثا مهما كنت قد بذلت فيه كامل وسـعي في بعض تلـك الأيام.. أذكر انه كان قد أثر في بعض التأثير.. كانت لـه علاقـة بمـا نحن فيه..

---

1) أشير به إلى (فريدريك ماكس مولر) (1823 -ـ 1900م)، وهو عالم ألمـاني اهتم بصـفة خاصـة باللغـة السنسـكريتية الهنديـة القديمـة.. أسـهم في الدراسـة المقارنـة في مجالات اللغة والدين وعلم الأساطير على الرغم من أن علماء العصر الحـديث قـد نبـذوا الكثير من نظرياته.

كان أهم أعماله أول إصدار باللغة الإنجليزية من ريك ـ فيدا، وهو أقدم كتاب هندوسـي مقدس.. نشر في ستة مجلـدات بين عـامي 1849م و 1873م، كمـا حـرر كتب الشـرق المقدسة، الذي يضـم في 51 مجلـداً ترجمـات دارسـين مختلفين لنصـوص كـل الـديانات الآسـيوية الرئيسـية فيمـا عـدا النصـرانية واليهوديـة.. ونشـر أول هـذه الكتب في عـام 1875م. (الموسوعة العربية العالمية)

لقد أنستنيه الأيام.. لكني اليوم تذكرته.. تذكرته بكل تفاصيله.. وسأقص عليكم قصته.

ساد الجمع الحاضر صمت عميق سرعان ما قطعه (فريدريك) بقوله: في تلك الأيام كلفت أن أجري بحثا حول (قداسة الإله في الأديان والمذاهب).. وقد طلب مني أن تكون دراسة مقارنة مستوعبة.. فلا يهم المركز التحليلات بقدر ما تهمه المعلومات.

لقد وفر لي مركز البحث لتيسير إجراء البحث كل الوسائل، وأمدني بما أحتاجه من المال للتنقل إلى أي بقعة أشاء من بقاع العالم.. وقد أتاح لي ذلك فرصة للتعرف على التصورات المختلفة التي تحملها البشرية عن الله(1).

لقد زرت لأجل إجراء ذلك البحث اليونان والهند والصين.. وبلاد كثيرة..

قال رجل منا: فبم بدأت رحلتك؟

قال: **باليونان**(2).. فقد كانت أقرب البلاد إلينا.. وكانت أكثر البلاد امتلاء بالتصورات المختلفة عن الله.

لقد حفلت اليونان في عهودها القديمة بجميع أنواع العقائد البدائية قبل أرباب (الأوليمب) الذين خلدوا في أشعار هومير وهزيود.. لقد عبدوا الأسلاف والطواطم ومظاهر الطبيعة وأعضاء التناسل ومزجوا العبادات جميعا بطلاسم السحر والشعوذة.. واستمدوا من جزيرة (كريت) عبادة النيازك وحجارة الرواسب التي شاعت بيت أهل الجزيرة من أقدم عصورها البركانية.. فرمزوا بها إلي أرباب البراكين والعوالم السلفية.. واتخذها بعضهم (طوطم) ينتسبون إليها انتساب الأبناء إلي الآباء.

ولما شاعت بين الإغريق عبادة (أرباب الأوليمب) كان من الواضح أنها أرباب مستعارة من الأمم التي سبقتهم إلي الحضارة وتنظيم العبادات.. فالإله (زيوس) أكبر أرباب الأوليمب هو الإله (ديوس) المعروف في الديانة الهندية الآرية القديمة.. واسمه متداول في العبادات الأوربية جميعا مع قليل من التصحيف بين اللغات واللهجات.. ومن تصحيفاته أسماء الله والإلهية عند الفرنسيين والطليان والإنجليز المعصرين.

---

1) من المصادر المهمة التي رجعت إليها لذكر التفاصيل المرتبطة بالتصورات المختلفة للأديان والمذاهب عن (الله) كتاب (الله) للعقاد، فهو من أحسن ما ألف من الكتب في هذا الباب.

2) نذكر هنا ما ذكره العقاد من التصورات الدينية والتي كانت منتشرة بين العامة، ولها كانت تقام المعابد.. أما التصورات الفلسفية، فلها محلها الخاص.. وهي على العموم أفضل بكثير من الاعتقادات العامة.

والربــة (أرتيميس) – ومثلهـا الربــة أفـروديت أو فينـوس- هي الربة عشتار اليمانية البابلية.. ومنها كلمـة (سـتار) الـتي تـدل علي النجم في بعض اللغات الأوربية الحديثة.

والربة (ديمتر) هي أزيس المصـرية كمـا قـال هـيرودوت، وهي واحدة من أرباب كثيرة تشابهت عبادتها في بلاد الإغريــق وعبادتهـا بين قدماء المصريين.

وأضــيف إلي هــذه الأربــاب (أدونيس) عن (أدونــاي) العبريــة بمعـني السـيد أو الإلـه، وأضـافوا إليهـا في مصـر بعـد الإسـكندر المقدوني عبادة إله سموه سرابيس وهو اسم مـركب من اسـمي أوزيريس وأبيس المعبودين المصريين، وكان لهما معبد تـدفن فيـه العجـول الـتي تعبـد اسـم أبيس بعـد موتهـا وذهابهـا إلي مغـرب أوزيريس.

كما أضيفت إليها عبادة (ديونسيس) في أطوارها المتتابعة التي تلبست أخيرا بعبادة (مترا) في الديانة الأورفية السرية.

وقـد تـرقي اليونـان في تصـور صـفات الأربـاب خلال العصـور التاريخية.. فعبدوا قبل المسيح ببضـع مئـات من السـنين آلهـة هي علي أسوأ مثـال من العيـوب الإنسـانية.. وعبـدوها بعـد ذلـك وهي تترقي إلي الكمال وتقترب إلي فكرة (التنزيه) الـتي سـبقهم إليهـا المصريون والهنود والفرس والعبرانيون.

فكـان أربـاب الأوليمب في مبـدأ أمـرهم يقـترفون أقبح الآثـام ويستلمون لأغلـظ الشـهوات.. وقـد قتـل زيـوس أبـاه (كرونـوس) وضاجع ابنته، وهجر سماءه ليطارد عرائس العيون والبحار، ويغازل بنات الرعاة في الخلوات، وغار من ذرية الإنسان، فأضمر له الشر والهلاك، وضن عليه بسـر (النـار) فعـاقب المـارد برومـثيوس لأنـه قبس له النار من السماء.

ولم يتصوروه خالقا للـدنيا أو خالقـا للأربـاب الـتي تسـاكنه في جبل الأوليمب وتـركب معـه متن السـحاب، فهـو علي الأكـثر والـد لبعضها، ومنافس لأنـداده منهـا، وتعـوزه أحيانـا رحمـة الآبـاء ونبـل العداوة بين الأنداد.

ولم يـزل (زيــوس)إلي عصـر (هومـير) خاضـعا للقـدر مقيـدا بأوامره، عاجزا عن الفكاك من قضائه.

لقد صوره لنـا الشـاعر المتـدين علي مثـال أقـرب إلي خلائـق الرحمة والإنصاف، ومثال الكمال، ولكنه نسـب الخلـق إلي أربـاب أقدم منه ومن سائر المعبودات الأولمبية.. وهي (جيـا) ربـة الأرض

و(كاوس) رب الفضاء و(أيـروس) رب التناسـل والمحبـة الزوجيـة، وجعل أيروس يجمع بين الأرض وزوجها الفضاء فتلد منـه الكائنـات السماوية والأرضية وآخرها أرباب الأوليمب، وعلي رأسهم (زيوس) الملقب بأبي الأرباب.

وكان (أكسينوفون) المولـود بآسـيا الصـغري قبـل الميلاد بنحـو ستة قرون أول من نقل إلى الإغريق فكرة الإله الواحد المنزه عن الاشتباه، فكان ينعي علي قومه أنهم يعبدون أربابا علي مثال أبنـاء الفنـاء، ويقـول: إن الحصـان لـو عبـد إلهـا لتمثلـه في صـورة الحصان..وأن الأثيوبي لو تمثل إلهـا لقـال إنـه أسـود الإهـاب.. وأن الإله الحق أرفع من هذه التشـبيهات والتجسـيمات، ولا يكـون علي شيء من هذه الصفات البشرية.. بل هو الواحد الأحـد المـنزه عن الصور والأشكال، وأنه فكر محض ينظر كله ويسمع كله ويفكر كله ويعمل كله في تقويم الأمور وتصريف أحكام القضاء.

وكان أثر الديانات الأسيوية والمصرية أظهـر من كـل مـا تقـدم في الديانة الأورفية السرية، لأنها كانت ملتقي عبادة إيزيس وعبادة مترا وعبادة المجوس والبراهمة.

فعرفوا الـروح وعرفـوا تناسـخ الأرواح، وعرفـوا أدوار التطهـير والتكفير، ومزجوا بهـا عبـادة (ديـونيس) الـذي كـان في عصـورهم الغـابرة إلـه الخمـر والقصـف والـترف.. فجعلـوا خمـره رمـزا إلي النشوة الإلهية: نشة الحيـاة والشـباب الخالـد المتجـدد علي مـدي الأيام.

قال رجل منا: حدثتنا عن اليونان.. فحدثنا عن **الهند**.. فهي من أقدم البلاد.. ولاشك أن نصيبا من الحقيقة عندها..

قــال (فريــدريك): لقــد زرت الهنــد، وبحثت في معابــدها ومخطوطاتهـا، والتقيت برجـال دينهـا.. وقـد وجـدت أن الـديانات الهندية القديمة تعود إلى أزمنة أقـدم من العصـر الـذي دونت فيـه أسفارها المعروفـة بـالكتب الفيديـة.. وقـد اختلـف المؤرخـون في العصــر الــذي تم فيــه هــذا التــدوين.. فبعضــهم يــرده إلي ألــف وخمسمائة سنة قبل الميلاد.. وبعضـهم يـرده إلي سـتة آلاف سـنة قبل الميلاد.. ولكنهم جميعا مع ذلـك لا يختلفـون في سـبق الديانـة الهندية لهذا العصر بزمن طويل.

وقد وجدت أن المؤرخين ـ ولست أدري مدى صـحة مـا ذهبـوا إليه ــ يتفقـون على أن الديانـة الهنديـة القديمـة مـزيج من شـعائر الهنود الأصلاء، وشعائر القبائل الآرية التي أغـارت علي الهنـد قبـل

الميلاد بعـدة قـرون.. وقـد كـانت تلـك القبائـل تقيم علي البقـاع الوسطي بين الهند ووادي النهرين.. فاتجهت طائفة منهـا غربـا إلي أوربة، واتجهت طائفة منها شرقا إلي الأقـاليم الهنديـة من شـمالها إلي جنوبها علي السواحل الغربية، قبل أن تتوغـل منهـا إلى جميـع أنحاء البلاد.

ويرى بعض المؤرخين أن من مصادر الديانات الهنديـة القديمـة ما نقل إليها من الديانات البابلية والمصرية، ويعللون ذلـك جغرافيـا بتوسط الموقع الذي قام فيـه الآريـون الأولـون، وأنهم لم تكن لهم في موقعهم ذاك حضارة سابقة لحضارة مصر وبابل وأشور.

لا يهمنا في هذا المقام كل هذا.. إنما الذي يهمنا هو تصور هـذه الديانات لله..

لقد رأيت من خلال البحث المسـتوعب المستقصـي أن (اللـه) في الديانات الهندية القديمة لم يكن واحدا.. بل كـان أنواعـا شـتي من الآلهة.. منها آلهة تمثل قوى الطبيعة وتنسـب إليهـا.. فيـذكرون المطـر، ويشـتقون منـه اسـم (الممطـر).. ويعتبرونـه الإلـه الـذي يتوجهـون إليـه في طلب الغيث.. ومن هنـا كـان (أنـدر) هـو إلـه السحاب، لأنه مشـتق من كلمـة (أنـدر) بمعـني المطـر، أو بمعـني السحاب.

ويذكرون إلى جانب (أندر) إله النار.. وإله النـور.. وإلـه الـريح.. وإله البحار.. ويجمعونها جميعا في ديانة شمسية تلتقي بأنواع شتي من الديانات..

وأقـدم الأسـماء عنـدهم كـان اسـم (ديفـا) Deva.. وهـو يعـني (المعطي).. لقـد بقيت آثـار من هـذا الاسـم في اللغـات اليونانيـة واللاتينية وبعض اللغات الأوربية الحديثـة.. فكلمـة (ديـو) الفرنسـية Dieu وكلمة ديتي Deity الإنجليزية، وكلمة (زيـوس) اليونانيـة القديمـة مأخوذة من أصلها الهندي المتقدم.

بالإضافة إلى هـذا، فقـد رأيت البرهميـة القديمـة تشـتمل علي عبادة الأسلاف.. كما تشتمل علي عبادة المظاهر الطبيعية.. ولذلك فإن تقديس الملك عندهم تقليد موروث من تقـديس جـد القبيلـة.. وقد تحول إلي تقديس الرئيس الأكـبر في الدولـة بعـد أن تحـولت القبيلة إلي الأمة.

وقد ذكر العلامة (اليوت سميث) كما قال في كتابـه (المبـادئ) The Beginning أن مواسم تقديس الملك التي لا تزال مرعية في جوار الهند كانت تحاكي مراسم قصة الخليقـة كمـا تخيلهـا المصـريون..

فلم يكن حـق الملـك مسـتمدا من الجلـوس علي العـرش أو من البناء بالملكة التي تنقل إليه حقوقه الملكية، ولكنه يتولى هذا الحق بعد تقديسه في حفل يمثل قصة الخليقة(1)، وكأنهم يعنون بهذا أن الملك يستمد من ذلك التقـديس قدرتـه علي الخلـق ومنح الحيـاة، وهي قدرة لا غني عنها لاضطلاعه بالفرائض الملكية.

وقد وجدت أن عبادة (الطوطم) تعززت في الهند بعقيدتهم في وحدة الوجود وتناسخ الأرواح كما تعززت بعقيـدة الحلـول.. فلـذلك عبـدوا الحيـوان علي اعتبـاره جـدا حقيقيـا أو رمزيـا للأسـرة ثم للقبيلة.. ثم تطوروا أكثر(2)، فآمنوا بأن الله يتجلى في كل موجـود، أو يخص بعض الأحياء بالحلول فيـه.. وآمنـوا مـع ذلـك كلـه بتناسـخ الأرواح.

لقـد رأيت الطوطميـة عاشـت عنـدهم في أرقي العصـور كمـا عاشـت في عصـور الهمجيـة لهـذا الامـتزاج بين الاعتقـاد الحـديث والاعتقـاد القـديم.. لكنهم خلصـوا في الأخـير إلى الإيمـان بالإلـه الواحد، وإن اختلفوا في المنهج الـذي سـلكوه في التعـرف عليـه.. فلم يكن إيمانهم به علي الأساس الذي قام عليـه إيمـان الشـعوب الأخرى بالتوحيد.

لقد بدأوا ـ أولا ـ بإبطال جميـع المظـاهر، فنسـبوا إليهـا التعـدد والاختلاف لأنها تتكرر وتزول وتستر من ورائها الحقيقة الأبدية التي لا تتكرر ولا تزول، وتلك هي حقيقة القضاء والقدر التي تقدر للآلهة وتقضي عليهم كما تقدر لسائر الموجودات وتقضي عليها في أجلها المحدود.

وهنا ذهب حكماؤها إلي مذهبين غير متفقين..

أما **الفريق الأول** منهمـا.. فتمثـل تلـك الحقيقـة إلهـا واحـدا قريبا من الإله الواحد في أكثر ديانات التوحيد، قـال مـاكس مـوللر الثقة الحجة في اللغات الآرية: (أيا كان العصـر الـذي تم فيـه جمـع الأناشيد المسطورة في الرجفيدا فقبل ذلك العصر كان بين الهنود

---

1) يذكر العقاد أن قصة الخليقة في الهند تشبه قصة الخليقة المصـرية في أكـثر من صيغة واحدة من صيغها العديدة: فالحياة خرجت من بيضة (ذهبية) كانت تطفو علي الماء في العماء ، والإله الأكبر كان ذكرا وأنـثي فهـو الأب والأم للأحيـاء كمـا جـاء عن (رع) في بعض الأساطير المصرية، وبناء العالم من صنع بناء ماهر في أسـاطير مصـر والهنـد علي السواء ، وتتفق مصـر وبابـل والهنـد علي الإلـه الأكـبر قـد خلـق الأرض بكلمـة سـاحرة.. فأمرها بأن توجد فبرزت علي الفور إلي حيز الوجود. (الله، للعقاد)

2) هذا ما عبر به العقاد.. ويعبر به علماء مقارنة الأديـان عـادة عنـد بحثهم في تـاريخ الأديان.. ونحن نرى أن الأمر ليس خاضعا للتطور المتوهم.. وإنما هو خاضـع لتـأثير رسـل الله والدعاة إليه، كما قال تعالى: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِـالْحَقِّ بَشِـيراً وَنَـذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ) (فاطر:24)

مؤمنون باللـه الأحـد الـذي لا هـو بـذكر ولا بـأنثي ولا تحـده أحـوال التشخيص وقيود الطبيعة الإنسانية، وارتفع شعراء الفيدا في الواقع إلي أوج في إدراكهم لكنه الربوبية لم يـترق إليـه مـرة أخـري غـير أناس من فلاسفة الإسكندرية المسيحيين، ولكنه فوق هـذا لا يـزال أرفع وأعلي مما يطيف بأذهان قوم يدعون أنفسهم بالمسيحيين)

وتبدو مداناة هؤلاء البراهمة لمذاهب الموحـد المـؤمن (بالـذات الإلهية) من إيمانهم بالخلاص علي يد اللـه، وبقـاء فريـق منهم بعـد ذلك بمئات السنين ينقسمون في شرح سبيل الخلاص علي نهجهم الذي لا نستغربه من قوم يعظمون الحيـوان ذلـك التعظيم.. فمنهم من يسـمي سـبيل الخلاص بالسـبيل القرديـة.. ومنهم من يسـميها بالسبيل القطية.. ويقصدون بهذه التسمية أن اللـه يخلص الإنسـان إذا تشبث به كما يتشبث ولد القرد الصغير بأمه وهي تصعد به إلي رؤس الأشجار، أو أن الله علي اعتقاد الآخرين يخلص الإنسان وهو مغمض العينين مستسلم للقضاء، كمـا يستسـلم ولـد القطـة لأمـه وهي تحمله مغمضا من مكان إلي مكان.

فالله الـذي يخلص عبـاده هـذا الخلاص أو ذاك هـو (ذات) علي كلتا الحالتين يتشبث بها العبد أو يستسلم لقضائها فتسهر عليه وإن غفل عنها.

ويتسمي هذا الإله بثلاثة أسماء علي حسـب فعلـه في الوجـود، فهو (برهما) حين يكون الموجود الخالق، وهـو (فشـنو) حين يكـون الواقي المحافظ، وهو (سيفا) حين يكون المهلك الهادم.

وأما **الفريق الثاني** فالحقيقـة الأبديـة عنـده معـني ليس لـه قوام من (الـذات) الواعيـة، وإنمـا هـو قـانون يقضـي بتلازم الآثـار والمؤثرات، ويقابل الاعتقاد بالقضاء والقدر عند المؤمـنين بالأديـان الكتابية.

إلا أنه قضاء يسري علي الآلهة كما يسري علي البشر، ويتغلغل في في طبائع الخالقين كما يتغلغل في طبائع المخلوقات، وحكمـه الـذي لا مـرد لـه هـو حكم التغـير الـدائم والفنـاء، وحكم الإعـادة والإبداء.

ولم أر من خلال بحـثي أن أحـدا من الأقـدمين بلـغ في تعظيم الأكوان المادية مبلـغ البراهمـة، سـواء في تقـدير السـعة أو تقـدير القدم أو تقدير البقـاء.. فقـد جعـل البراهمـة للكـون أربعـة أعمـار تسـاوي اثنـتي عشـر ألـف سـنة إلهيـة وأربعـة ملايين وثلاثمائـة وعشـرين ألـف سـنة شمسـية.. وبعض المتـأخرين يضـاعفها ألـف

ضعف ويقولون أنهـا جميعـا دورة واحـدة من دورات الوجـود.. وأن هذه الدورة هي يوم يقظة يقابله ليل هجوع، ينقضي بين كـل دورة فنيت وكل دورة آخذة في الابتداء.

والقانون الأبدي karma يقلب الأدوار فيبدئها ويحفظها ويفنيها، ثم يختم هذا النهار بليل من الليالي الهجوع، ثم يعود فيطلع النهار كرة أخري أخري دواليك إلي غير انتهاء، لأنه لا انتهاء للزمان.

ويتضاءل الإنسان الفاني كلما تعاظم هذا الفنـاء الخالـد أو هـذا الخلود الذي يتجدد بالفناء، فليس للإنسـان حسـاب كبـير في هـذه الحسبة الأبدية.. لأنه (رقم) ضئيل يغرق في طوفان الأرقام التي لا يحيط بها العد والإحصاء.

وعلي هذه القاعدة قامت البوذية التي بشـر بهـا البـوذا جوتامـا قبل الميلاد المسيحي بحوال خمسة قرون.. فقيل (جوتاما) بمئـات السنين كان نساك الهند يتغنون بمضامين النشـيد المرهـوب الـذي تحدث عما كان قبل أن كان أو يكون:

(حينذاك لم يكن ما وجد أو ما لم يوجد، ولم يكن ما تثبته وما لا تنفيه.

لا أجواء ولا سماء وراء الأجواء.

وماذا عساها تنطوي عليه؟ أين كانت وأين قرارها؟ أهي هاويـة الماء التي ليس لها من قرار؟

لم يكن موت: فلم يكن خلود.

لم يكن ما يموت فلم يكن ما ليس يموت.

ولم يكن ثمة نهار ولا ليـل. ولم يكن إلا (الأحـد) يتنفس حيث لا أنفاس. ولا شيء سواه.

وكان البدء في ظلام: عليكم بلا ضياء.

ومن البذرة في تلك القشرة (الأحد) بحرار الحياة.

وانتصـر الحب حين نبتت البـذرة من لبـاب العقـل السـرمدي، وناجي الشعراء قلوبهم فتبينوا بالحكمة ما هو مما ليس هـو.. فقـد نفذ شعاع القلب خلال ما هنالك، فمـاذا نظـروا فـوق الأحـد ومـاذا نظـروا دونـه؟ كـل مـا هنالـك حملـه لبـذور.. قـوي: قـوة من أدني ومشيئة من أعلي. ولا أحد يدري. ولا من يعلم من أين جاء ما جاء. فإنما جاءت الأرباب بعد ذلك.. فمن إذن يعلم ما جري؟ أهـو الـذي حـدثت منـه الخليقـة؟ لعـل الـذي يعرفـه (أحـد) واحـد في أعلي عليين.ولعله لا يدري كذلك..)

وقبـل (جوتامـا) آمن الـبراهميون بالـدورة في وجـود الكـون

والـدورة في وجـود الإنسـان.. فـالكون يتجـدد حلقـة بعـد حلقـة.. والإنسان يتنقل في جسد بعد جسـد.. وسلسـلة الأكـوان ليس لهـا انتهاء.. وسلسلة الحياة الإنسانية قد تنتهي إلي السكينة أو الفناء.

لقد قامت البوذيـة علي أسـاس البرهميـة في كـل عقيـدة من عقائد الأصول.. وإنما تمـيزت عنهـا بتبسـيط العقائـد لطبقـات من الشعب غير طبقـات الكهـان، فأخرجتهـا من حجابهـا المكنـون في المحاريب إلي المدرسة والبيت وصفوة المريدين.

ولا تعتـبر البوذيـة إضـافة في صـميم العقائـد الدينيـة، بـل هي إضافة في آداب السلوك وفلسفة الحياة.. وهي إضافة في عــرض الآراء علي غير المستأثرين بها قديما من سدنه الهيكل والمحراب.

وبهـذه الآداب ينجـو الإنسـان من ربـاط ذلـك الـدولاب الـدائر بالولادة والموت والتجدد في حياة بعد حيـاة وجثمـان وراء جثمـان، فيدخل في (النرفانا) ولا يولد بعد ذلك ولا يموت.

وحكمــه في هــذا المصــير حكم الأربــاب والملائكــة وحكم السماوات والأرضين.. فكلها خاضع لقانون القضاء والقـدر الـذي لا فكـاك منـه لموجـود، وكلهـا عرضـة للتفكـير والتطهـير والتحـول والتغيير، ثم للذهاب في غمرة الفناء الأخير.

وقد وجدت أن موضع التناقض في هذه الفلسـفة(1) أنهـا تنكـر (الشخصية الإنسانية) ولا تعـترف بالـذات أو بـالروح وهي مـع هـذا تؤمن بتناسخ الأرواح وثبوت شـيء في الإنسـان يبقي علي التنقـل بين الأجساد والدورات.. وهي تؤمن بالكـل أو (المطلـق) الصـمدي الوجود، ثم تنفي عنه الذات كما تنفيها عن الإنسـان.. مـع أن الكـل بغير ذات لا يكون كلا بمعني من معاني الكلمة.

قال رجـل من القـوم: لم نكـد نفهم من هـذه الـديانات شـيئا..

---

1) انتقد العقاد الدراسات الأوروربية التي استلهم منهـا، قـال: (علينـا أن نحـترس من مغالاة الشراح الأوربيين بهذه الفلسفة البوذية. لأنهم يتعصـبون لكـل منسـوب إلي الآريـة علي اعتبارها عنصر الأوربيين الأقدمين والمعاصرين، فقد رفعوها فـوق قـدرها بلا مـراء ، وزعمواأنها (جرأة العقل الكبري) في مواجهة المشكلة الكونية ، وأنها الخطوة المقتحمـة التي لم يذهب وراءها ذو عقيدة في مطاوح التأمل والإقدام)

وقد رد على هذا بقوله: (لكنها لا تحسب من الجرأة العقلية بوصف من الأوصاف ، فما هي إلا جرأة حسية في أقصي ما تطوحت إليه من الفروض والأظانين ، وما البوذيـة كلهـا إلا تململا من وطأة الحس والجسد، ولا سعادتها القسوي إلا ضيقا بالحس وهربا منـه إلي الفناء أو (اللاوعي) علي أحسن تقدير.. والمحسـوس عنـدها شـامل للمعقـول ، والكـائن بحق الحس عندها شامل للكائن بحق العقل وحـق الـوعي وحـق الـذات.. والآلهـة عنـدما تأتي في المرتبة التالية بعد مرتبة الأكوان وما ارتفعت الأكوان عندها إلي هذة المرتبـة إلا بأنها هي المحسوس ، وهي أول ما يفاجئنا قبل أن نفكر وقبـل أن نتأمـل وقبـل أن نـدين باعتقاد)

فحدثنا عن غيرها.

قـال: بعـد الهنـد قصـدت **الصـين**.. وقـد كنت آمـل من خلال ضخامتها وكثرة شعوبها وترامي أطرافها أن أجد فيهـا جميـع أنـواع التصورات عن الإله..

لكني لم أجدهم ـ عبر تاريخهم الطويـل ــ يحبـون الخـوض في مباحث ما وراء الطبيعة.. ولهذا فإن التدين بينهم يكاد يكـون ضـربا من أصول المعاملة وأدب البيت والحضارة.

أما العبادات.. فأشيعها بينهم عبادة الأسلاف والأبطـال.. وأرواح أسلافهم مقدمة بالرعاية علي جملة الأرواح التي يعبدونها، ويمثلون بها عنصر الطبيعة أو مطالب المعيشة.. ولهذا، فإنه لا يقدر الصيني قربانا هو أغلي قيمة، وأحب إلي نفسه من قربانـه إلي روح سـلفه المعبود.. وهو يحتوي الأغذية والأشربة والأكسية والطيــوب، ومنهم من يحرق ورق النقد هبة للروح التي يعتقدون أنهـا تحتـاج إلي كـل شيء كانت تحتاج إليه، وهي في عالم الأجساد.

والخير والشر عندهم هو ما يرضي الأسـلاف أو يسـخطهم من أعمال أبنائهم.. فما أرضي السـلف فهـو خـير ومـا أسـخطهم فهـو شر.. وقد يختارون فردا من أفراد الأسرة ينوب عن جـده المعبـود فيطعمونه ويكسـونه ويزدلفـون إليـه ويحسـبون أن روح الجـد هي التي تتقبل هذه القرابين في شخص ذلك الحفيد.

وتتمشـي عبـادة العناصـر الطبيعيـة جنبـا إلي جنب مـع عبـادة الأسلاف والأبطـال.. فالسـماء والشـمس والقمـر والكـواكب آلهـة معبودة أكبرها إله السماء (شانج تي).. ويليه إله الشـمس.. فبقيـة الأجرام السماوية.. فالعناصر الأرضية.

وهم يتقربــون إلي (شــانج تي) بالــذبائح، ويبلغــون صــلواتهم بإشعال النار علي قمم الجبال، فيعلم الإلـه – ممـا أودعـه الكـاهن دواخينها- فحـوي الرسـالة الـتي يرفعهـا إليـه عبـاده، ولا يحسـنون الترجمة عنها كما يحسنها الكهان.

وإله السماء عندهم هـو (الإلـه) الـذي يصـرف الأكـوان، ويـدبر الأمور، ويرسم لكل إنسان مجري حياته الذي لا محيد عنـه.. وإنمـا يـداول تـركيب الوجـود من عنصـرين همـا (ين) عنصـر السـكون و(يانج) عنصر الحركة.. وقد يفسر عنصر السكون بالراحــة والنعيم وعنصـر الحركـة بالشـقاء والعـذاب.. فهمـا بهـذه المثابـة يقـابلان عنصري الخير والشر وإلهي النور والظلام في الأديان الثنائية.

وقـد امـتزجت عبـادة الأسـلاف بعبـادة العناصـر الطبيعيـة في

القـرن العاشـر حين تسـمي عاهـل الصـين باسـم (ابن السـماء).. ويقـال إنـه اسـتعار الفكـرة من كـاهن ياباني أراد أن يزدلـف إليـه فعلمـه مراسـم تأليـه الميكـاد في بلاده.. فنقلهـا العاهـل إلي بلاد الصين.

وقد أراد الفيلسـوف (شوهسـتي) في القـرن الثـاني عشـر أن ينشيئ بوذية صينية توفق مذهب بوذا في أمور وتخالفه في أمــور، فـدعا إلي دين لا إلـه فيـه ولا خلـود للـروح، ووضـع (لي) موضـع (كارما) الهندية أو القانون أو القضاء والقدر.

وســمي دولاب الــزمن (تايشــي) لأنــه هــو المحــرك لجميــع الكائنات، وجعل القانون والدولاب والمادة أو (ووشي) قوام العـالم ظاهرة وخافية.. وإنما ينشأ الوعي أو الإدراك في الإنسان من قدح القانون للمـادة كمـا ينقـدح الحجـر من الزنـاد، فيخـرج الشـرر ثم ينطفئ فيموت.. وتزول الأرواح كما تزول الأجساد مـتي (نضـجت) كما تنضج الثمرة في أجلهـا المعلـوم.. وقـد يبطئ النضـج فيطـول بقاء الروح فهي إذن طيـف أو شـبح، كأنهـا الـثرة في حالـة العفن والإهمال.

ولما مات كنفشيوس (478 ق. م) أقاموا لـه الهياكـل وعبـدوه علي سـنتهم في عبـادة أرواح الأسـلاف الصـالحين، وأوشـكوا أن يتخذوا عبادته عبادة رسمية علي عهد أسرة هان في القرن الثـاني قبل الميلاد، وأوجبوا تقديم القرابين والضحايا لذكراه في المدارس ومعاهد التعليم، وكـانت هياكلـه في الواقـع بمثابـة مـدارس يؤمهـا الناس لسماع الدروس كما يؤمونها لأداء الصلاة.. ولم تـزل عبادتـه قائمة إلي العصور المتأخرة بل إلي القرن العشرين.. فخصـوه في سنة 1906 بمراسم قربانية كمراسم الإله الأكـبر (شـانج تي) إلـه السماء لأنه في عرفهم (ند السماء) ومن لم يؤمن اليـوم بربوبيتـه من الصينيين المتعلمين فله في نفسه توقير يقرب من التأليه، وقد جعلوا يوم ميلاده – وهو السـابع والعشـرون من شـهر أغسـطس- عيـدا قوميـا يحجـون فيـه إلي مسـقط رأسـه، وينـوب عن الدولـة موظف كبير في محفل الصلاة أمام محرابه.

ويظهر أن بيئة الصين لم تواجه أبناءها بالعقد النفسـية، ولكنهـا واجهتهم بتقلبات العناصر الطبيعية التي تعودت الشعوب قـديما أن تروضها بالسحر والكهانة، فجار نصيب الإيمان بالسحر علي نصـيب الإيمان بالدين، وذاع عن أهل الصين – من ثم- أنهم أقدر أمـة علي تسخير الطبيعة بالطلاسم والأرصاد.

وموقف اليابان من الرسالة الدينية كموقف الصين علي الإجمال.. فقد تشابهت عقائدهم في أصولها وعبدوا الأرواح والأسلاف والعناصر الطبيعية.. وإذا كان لأهل اليابان سمة خصوصية في العبادات فهي أنهم اختاروا ربة أنثي لعبادة السلف الأعلي حين وحدوا الأسلاف في أكبرها وأعلاها.. وتلك الربة هي (اميتراسوا-أموكامي) التي لا تزال معبودة إلي اليوم.

ويؤخذ من الأساطير اليابانية أنها كانت ربة الغزاة الذين أغاروا فيما قبل التاريخ علي جزيرة كيوشو، وأخضعوا أهلها وطردوهم منهزمين إلي الجبال، وكأن أهل كيوشو الأولون يعبدون إله الريح والمطر (سوسا- نو- وو) فهبط هذا الإله بهزيمتهم إلي المرتبة التالية لمرتبة الربة السلفية.. ثم انعقدت الوئام بين الفريقين بعد تناسي الإحن والترات وامتزاج القبائل الغازية والممغزوة، فأصبح الإلهان أخوين وأصبحت (أميتراسو) هي كبري الأخوين.

ولا يعتقد اليابانيون أن هذه الربة خلقت الكون أو خلقت الإنسان، لأنهم يعتقدون أن عهدها قد سبقته عهود مديدة تنازع فيها الأمر عشرات الألوف من الأرباب.. وهذه أرباب عندهم هي بمثابة الأرواح والملائكة والجنة والشياطين من عناصر الخير والشر عند الأمم الكتابية.. ويسمون الواحد منها (كامي).. وهي كلمة تطلق علي كل رائع خارق للعادة بالغ في القوة أو الجمال.. ثم استسلمت هذه الأرباب بعد كفاح طويل وصار الأمر إلي الربة الكبري برضوان من خالق السماوات والأرضين.

أما الخلق فهو منسوب عندهم إلي إله السماء (أزاناجي-نوميكوتو) وزوجته وأخته إلهة الأرض (أزانامي-نوميكوتو).. فولدا جزر اليابان وألقحاها ببذور الآلهة، وجاء أبناء اليابان الآدميون من سلالة الآلهة.. فكلهم في النسب الأعلي – وليس الميكاد وحده- إلهيون.

وفي إحدي الروايات الأسطورية أن ربة الأرض احترقت وهي تضع إله النار فجرد رب السماء سيفه وضرب به إله النار، فانبعثت من وميض سيفه ومن ضرباته رهط من أرباب الزوابع والبروق والرعود.. ولم ترجع الأرض إلى خصبها إلا بعد شفاء ربتها وخروجها من هاوية الظلام لتلد الماء والطمي وعناصر الزرع والحياة.

وينسبون الخلق في رواية أخري إلي (أزاناجي) وحده وهو يبحث عن رفيقة صباه.. فمن عينه اليسري خلقت الشمس ومن عينه اليمني خلق القمر، ومن عطسته خلق (سوسا- نو- وو) رب

الريــاح والأمطــار.. ولكنــه أعجب من بين أبنائــه بالشــمس دون شقيقيها فخلع عليها عقـدا يتلألأ بـالجواهر وبوأهـا أرفـع عـرش في السماء.

فالديانة اليابانية الأصلية شمسية سلفية جمعت معـني التوحيـد أولا في إله السماء حيث تصـوره أبـا للخليقـة بمفـرده أو مشـاركة زوجه، ثم جمعتها في الربة الواحدة علي اعتبارها ربـة مختـارة بين أرباب.

قال رجل منا: الصين لا تختلف عن الهند في هـذا.. فحـدثنا عن غيرها.. إلى أين قصدت بعد الصين واليابان؟

قال: لقد قصــدت بلاد **فارس**.. أو على الأصـح المخطوطـات والآثار التي تحدثت عن الديانة الفارسية القديمة.. وقـد وجـدت أن وشـائج القـربى بينهـا وبين الـديانات الهنديـة والطورانيـة والبابليـة واليونانية كانت متصلة.

فـالفرس الأقـدمون من السـلالة الهنديـة الجرمانيـة، وموقـع بلادهم قريب من دولة بابل، قريب من أقـاليم الطورانـيين، قـريب من مسالك الحضارة بين المشـرق والمغـرب، وقـد تلقت حضـارة فارس وحضارة مصر في السلم والحرب غير مرة، وانقضـي زمن طويــل علي الــدنيا المتحضــرة وهي تقــرن بين المجوســية وبين الحكمة أو اللم بأسرار الطبيعة والسيطرة عليها بالسحر والمعرفة الإلهية.. وكان لليهود وأبناء فلسطين وأمم العـرب علاقـات قديمـة بالدولة الفارسية تارة وبالدولة البابلية تارة أخـري.. فاتصـل من ثم تاريخ المجوس بتاريخ اليهود والمسيحيين والمسلمين.

فالأقدمون من الفرس يلتقون مع الهنـد في عبـادة (مـترا) إلـه النور، وتسمية الإله بالــ (أسـورا)، أو الــ (أهـورا) وإن اختلفـوا في إطلاقه علي عناصر الخير والشر.. فجعله الفرس من أرباب الخـير والصلاح، وجعله الهند من أرباب الشر والفساد.

والبابليون عرفـوا عبـادة (مـترا) في القـرن الرابـع عشـر قبـل الميلاد، ورفعوه إلي المنزلـة العليـة بين الآلهـة الـتي تحـارب قـوي الظلام.

واستعار الفرس من البابلين كما أعـاروهم، فأخـذوا منهم سـنة التسـبيع في عـدد الآلهـة، وجعلـوا (أورمـزد) علي رأس سـبعة من أرباب الحكمة والحق وقوى الطبيعة وأنواع المرافق والصناعات.

ولم تخــل الديانــة المجوســية من عقائــد الطورانــيين، لأن (زرادشــت) عــاش بينهم زمنــا، وبشــرهم بدينــه، فاضــطر إلى

مجاراتهم في عبادتهم ليجـاروه في عبادتـه، وأدخـل أربابـا لهم في عداد الملائكة المقربين(1).

وخلاصة ما جاء به (زرادشـت) من جديـد في الديانـة أنـه أنكـر الوثنية، وجعل الخير المحض من صفات الله، ونزل بإله الشـر إلي ما دون منزلة المساواه بينه وبين الإله الأعلي، وبشر بالثواب وأنذر بالعقاب، وقال بأن خلق الروح سابق لخلق الجسد، وحـاول جهـده أن يقصر الربانية علي إلـه واحـد موصـوف بـأرفع مـا يفهمـه أبنـاء زمانه من صفات التنزيه.

وليسـت المجوسـية كلهـا من تعليم زرادشـت أو تعليم كـاهن واحد من كهان الأمة الفارسية.. فقد سـبقه الفـرس إلي عقائـدهم في أصل الوجود وتنازع النـور والظلام، ولكنـه تـولى هـذه العقائـد

---

1) هذا ما ذكره العقاد في كتابه (اللـه) بنـاء على دراسـات الغربـيين.. ونحن نـرى أن في هذا تجديفا خطيرا.. فالأدلة الكثيرة تشير إلى أن زراشـت كـان موحـدا.. وقـد رجحنـا كونه كذلك بناء على ما ورد من النصوص عن السلف الصالح..

وقـد قـال ابن حـزم بهـذا، فقـد جـاء في الفصـل: (أمـا زرادشـت فقـد قـال كثـير من المسلمين بنبوته) (الفصل في الملل والأهواء والنحل:1/90)

ثم عقب على ذلك بقوله: (ليست النبوة بمدفوعة قبل رسول الله ﷺ لمن صحت عنه معجـزة، قـال تعـالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَـا نَـذِيرٌ﴾(فـاطر:24)، وقـال: ﴿ وَرُسُـلًا قَـدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾(النساء:164)

ثم بين أن الذي ينسب إليه المجوس من الأكذوبات باطل مفترى منهم، واسـتدل على ذلك بالتحريفات الواقعة في الـديانات المختلفـة،، ثم بين قاعـدة جليلـة في ذلـك فقـال: (وبالجملة فكل كتاب وشريعة كانا مقصورين على رجال من أهلها، وكانا محظورين على من سواهما فالتبديل والتحريف مضـمون فيهمـا، وكتـاب المجـوس وشـريعتهم إنمـا كـان طول مدة دولتهم عند المؤبذ، وعند ثلاثة وعشرين هربذا، لكـل هربـذ سـفر قـد أفـرد بـه وحده لا يشاركه فيـه غـيره من الهرابـذة ولا من غـيرهم، ولا يبـاح بشـيء من ذلـك لأحـد سواهم، ثم دخل فيـه الخـرم بـإحراق الإسـكندر لكتـابهم أيـام غلبتـه لـدارا بن دارا، وهم مقرون بلا خلاف منهم أنـه ذهب منـه مقـدار الثلث ذكـر ذلـك بشـير الناسـك وغـيره من علمائهم)

ونفس مـا دفـع بـه ابن حـزم عن زرادشـت مـا نسـبه إليـه المجـوس ذكـره غـيره من العلماء، قال الباقلاني: (وكذلك الجواب عن المطالبة بصحة أعلام زرادشت إما أن نقـول إنها في الأصل مأخوذة عن آحاد، لأن العلم بصدقهم غير واقع لنا، أو نقول إنه نبي صـادق ظهرت على يده الأعلام، ودعا إلى نبوة نوح وإبـراهيم، وإنمـا كـذبت المجـوس عليـه في إضافة ما أضافته إليه من القول بالتثنية وقدم النور والظلام وحدوث الشيطان من فكـرة وشكة شكها بعض أشخاص النور، وهو بمنزلة كذب النصارى على المسيح عليه السلام من دعائـه إلى اعتقاد التثليث والاتحاد والاختلاط، وأن مريم ولدت مسيحا بلاهوته دون ناسوته وغـير ذلك) (تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل:203)

وقد ذكر ابن حزم أن هذا القول ليس بدعـة للمتـأخرين، بـل أن من السـلف من قـال بذلك، قال:(وممن قال أن المجوس أهل كتاب علي بن أبي طالب وحذيفة همـا، وسـعيد بن المسيب وقتادة وأبو ثور وجمهور أصحاب أهـل الظـاهر، وقـد بينـا الـبراهين الموجبـة لصحة هذا القول في كتابنا المسمى الإيصال في كتاب الجهاد منه وفي كتاب الذبائح منه وفي كتاب النكاح منه) (الفصل في الملل والأهواء والنحـل:1/90)، ثم قـال:(ويكفي من ذلك صحة أخذ رسول الله ﷺ الجزية منهم، وقد حرم الله عـز وجـل في نص القـرآن في آخر سورة نزلت منه وهي براءة أن تؤخذ الجزية من غير كتابي)

بالتطهير وحملها علي محمل جديد من التفسير والتعبير.

فالمجوس كانوا يعتقدون أن هرمز وأهرمن مولودان لإله قديم يسمي زروان ويكني به عن الزمان.. وأنه اعتلج في جوفه وليدان، فنذر السيادة علي الأرض والسماء لأسبقهما إلي الظهور، فاحتال أهرمن بخبثه وكيده حتي شق له مخرجا إلي الوجود قبل (هرمز) الطيب الكريم، فحقت لأهرمن سيادة الأرض والسماء، وعز علي أبيها أن ينقض نذره، فأصلحه بموعد ضربه لهذه السيادة ينتهي بعد تسعة آلاف سنة.. ويعود الحكم بعده لإله الخير خلدا بغير انتهاء، ويؤذن له يومئذ في القضاء علي إله الشر وتبديد غياهب الظلام.

وزعموا أن مملكة النور ومملكة الظلام كانتا قبل الخليقة منفصلتين، وأن هرمز طفق في مملكته يخلق عناصر الخير والرحمة و(اهرمان) غافل عنه في قراره السحيق، فلما نظر ذات يوم ليستطلع خبر أخيه راعه اللمعان من جانب مملكة أخيه، فأشفق علي نفسه من العاقبة، وعلم أن النور يوشك أن ينتشر ويستفيض، فلا يترك له ملاذا يعتصم به ويضمن فيه البقاء.. فثار وثارت معه خلائق الظلام وهي شياطين الشر والفساد، فأحبطت سعي هرمز، وملأت الكون بالخبائث والأرزاء.. وران هذا البلاء علي الكون حتي كانت معركة (زرادشت)، فكان البشير بانتهاء زمان وابتداء زمان، ولكنه لم يختم صراع العدوين اللدودين، بل آذن بتحول النصر من صف إلي صف، وتراجع الشر والظلام عن مملكة الخير والنور، وسيدوم هذا الصراع اثني عشر ألف سنة، وينجم علي رأس كل ألف منها بشير من بيت زرادشت، فيعزز جحافل هرمز، ويوقع الفشل في جحافل أهرمن، وتنقضي المدة فينكص أهرمز علي عقبيه مخلدا في أسفل سافلين لا فكاك له أبد الآبدين من هاوية الظلمات وسجن المذلة والهوان.

لقد رأيت من خلال تسمية الإلهين دلالة واضحة علي انتقال الفكرة الإلهية طبقة فطبقة من صورة التجسيم إلى صورة التنزيه.. فإن هرمز مأخوذ من (أهورا) بمعني السيد، و(مازداو) بمعني الحكيم، وأهرمن مأخوذة من (انجرو) بمعني السيئ وماينوش بمعني الفكر والروح، والمعنيان من عالم الفكر المجرد أو القريب من التجريد.. ثم أصبحت كلمة أورمزد مرادفة لروح القدس، وكلمة أهريمان مرادفة لروح الشر أو روح الأذى والفساد، وقيل في مجمل الأساطير المجوسية أن أهريمان إنما هو فكرة سيئة خطرت علي بال زروان فكان منها إله الظلام.

وفي (الزندفستا) يذكر زرادشت أنه سأل هرمز: (يا هرمز الرحيم! صانع العالم المشهود.. يا أيها القدس الأقدس: أي شيء هو أقوى القوي جميعا في الملوك والملكوت).. فقال هرمز: (إنه هو اسمي الذي يتجلي في أرواح عليين.. فهو أقوى في عالم الملكوت).. فسأله زرادشت أن يعلمه هذا الاسم فقال له: إنه هو (السر المسئول) وأما الأسماء الأخرى فالاسم الأول هو (واهب الأنعام)، والاسم الثاني هو المكين، والاسم الثالث هو الكامل، والاسم الرابع هو القدس، والاسم الخامس هو الشريف، والاسم السادس هو الحكمة، والاسم السابع هو الحكيم، والاسم الثامن هو الخبرة، والاسم التاسع هو الخبير، والاسم العاشر هو الغني، والاسم الحادي عشر هو المغني، والاسم الثاني عشر هو السيد، والاسم الثالث عشر هو المنعم، والاسم الرابع عشر هو الطيب، والاسم الخامس عشر هو القهار، والاسم السادس عشر هو محق الحق، والاسم السابع عشر هو البصر، والاسم الثامن عشر هو الشافي، والاسم التاسع عشر هو الخلاق، والاسم العشرون هو (مزدا) أو العليم بكل شيء.

وقد حرم زرادشت عبادة الأصنام والأوثان وقدس الناس علي أنها هي أصفي وأطهر العناصر المخلوقة، لا علي أنها هي الخلاق المعبود.. وذكر أن الخلائق العلوية كلها كانت أرواحا صافية لا تشاب بالتجسيد، فخيرها الله بين أن يقصيها من منال (هرمن) أو يلبسها الجسد لتقدر علي حربه والصمود في ميدانه، لأن عناصر الفساد لا تحارب بغير أجساد.. فأبت أن تعتصم بمعزل عن الصراع القائم بين هرمز وأخيه، واختارت التجسد لتؤدي فريضة الجهاد في ذلك الصراع.

ويذكر زرادشت أن (هرمز) أو أورمزد أو (أهورا مازدا) مستو علي عرش النور محفوفا بستة من الملائكة الأبرار، وتدل أسماؤهم علي أنهم صفات إلهية كالحق والخلود والملك والنظام والصلاح والسلامة، ثم استعيرت لها سمات (الذوات) بعد تداول الأسماء أو تداول الأنباء عما تفعله وما تؤمر به وما تتلقاه من وحي الله.

وتفيض أقوال (زرادشت) كلها باليقين من رسالته واصطفاء الله إياه للتبشير بالدين الصحيح والقضاء علي عبادة الأوثان.. ومن أمثلة هذا اليقين قوله: (أنا وحدي صفيك الأمين، وكل من عداي فهو عدو لي مبين).. وأن الله أودع الطبائع عوامل الخير جميعا،

فـإن هي حـادت عن سـواء السـبيل كـان إرسـال الرسـل للتـذكير والتحذير آخر حجة لله علي الناس.. وأن زرادشت هو هـذه الحجـة التي أبرزها الله إلي حيز الوجود لتهدي من ضـل وتـذكر من غفـل وتسنصلح من فيه بقية للصلاح، وكلما انقضـي ألـف عـام بـرز إلي حيز الوجود خليفة له من سلالته، ولكن الأرواح التي تحف بالعرش هي التي تحمل بذرته إلي رحم عذراء تلهمها تلك الأرواح أن تتطهر في تلك الساعة بالماء المقدس في عين صافية مدخرة في ناحيـة من الأرض ليومها الموعود.

ويناجي زرادشت هرمز ويسمع جوابـه ويسـأله سـؤال المتعلم المسترشد لمرشده وهاديه، فيناديه: رب! هب لي عونك كما يعين الصديق أخلص صديق.. ويسأله رب! ألا تنبـني عن جـزاء الأخيـار؟ أيجزون يا رب بالحسنة قبل يوم المعاد؟ أو يسأله: من أقـر الأرض فاستقرت ورفع السماء فلا تسقط؟ ومن خلق الماء والزرع؟ ومن ألجم للرياح سحب الفضاء وهي أسرع الأشياء؟

ورواية الخليقة في مذهب زرادشت أن هرمـز خلـق الـدنيا في ستة أدوار.. فبدأ بخلق السماء، ثم خلق الماء، ثم خلـق الأرض، ثم خلق النبات، ثم خلق الحيوان، ثم خلق الإنسان.

وأصل الإنسان رجـل يسـمي (كيـومرت) قتـل في فتنـة الخـير والشر، فنبت من دمه ذكر يسـمي ميشـة وأنـثي تسـمي ميشـانة، فتزوجا وتناسلا، وساغ من أجل ذلك عند المجوس زواج الأخوين.

ويفرق المجوس بين الخلائق جريـا علي مـذهبهم في اشـتراك الخلق بين خالق الطيبات وخـالق الخبـائث، أو بين إلـه النـور وإلـه الظلام.. فالأحياء النافعة من خلـق أهـرمن كـالثور والكلب والطـير البريء،.. والأحياء الضارة من خلق أهرمن كالحية ومـا شـابهها من الحشرات والهوام.

والناس محاسبون علي ما يعملون.. فكل ما صنعوه من خير أو شر فهو مكتوب في سجل محفوظ.. وتوزن أعمـالهم بعـد مـوتهم فمن رجحت عنـده أعمـال الخـير صـعد إلي السـماء ومن رجعت عنده أعمال الشـر هبـط إلي الهاويـة ومن تعـادلت عنـده الكفتـان ذهب إلي مكــان لا عــذاب فيــه ولا نعيم، إلي أن تقــوم القيامــة ويتطهر العالم كله بالنـار المقدسـة فـيرتفعون جميعـا إلي حضـرة هرمز في نعيم مقيم.

وتوزن الأعمال عند قنطرة تسمي قنطرة (شنفاد) تتوافي إليها أرواح الأبـرار والأشـرار علي السـواء بعـد خروجهـا من أجسـادها..

فيلقاها هناك (رشنوه) ملك العدل و(ميترا) رب النور وينصبان لها الميزان ويسألانها عما لديها من الأعذار والشفاعات، ثم يفتحان لها باب النعيم أو باب الجحيم.

قال رجل منا: دعنا من كل هذه الديانات القديمة.. فالبحث فيها ألصق بالتاريخ مما نحن فيه.. نحن نبحث عن ربنا.. فحدثنا عما عرفته من خلال بحثك عنه.

قال آخر: حدثنا عن اليهود.. فلا زال لليهود وجود.. ولا زالت لهم معابدهم وطقوسهم.

تنفس (فريدريك) الصعداء، وقال: من الصعب التحدث عن الإله عند اليهود بصفة علمية..

قلنا: لم؟

قال: لقد كان لكل عصر إلهه.. ولكل جماعة يهودية إلهها.. ومن الصعب أن يحصر هذا حاصر..

لكني مع ذلك سأذكر لكم بعض ما قال رجل خبير في اليهودية استفدت منه كثيرا.. إنه رجل من المسلمين التقيت به كان اسمه (عبد الوهاب المسيري)(1)

وقد حدثني هذا الرجل الخبير(2) أن الأصل في (الإله) الذي يؤمن به اليهود هو أنه إله واحد لا جسد له ولا شبيه.. لا تدركه الأبصار.. وتعتمد عليه المخلوقات كافة.. ولا يعتمد هو على أيٍّ منها، إذ هو يتجاوزها جميعاً ويسمو عليها.

وأن كل مظاهر الطبيعة والتاريخ ليست إلا تعبيراً عن قدرته.. فهو روح الكون غير المنظورة، السارية فيه، والتي تُمده بالحياة؛ وتسمو عليه وتلازمه في آن واحد.

وأخبرني أن التوحيد في اليهودية وصل إلى ذروته على يد بعض الأنبياء الذين خلَّصوا التصور اليهودي للإله من الشوائب الوثنية التي علقت به، فصار أكثر إنسانية وشمولاً وسمواً، وأقل عزلة وقومية وتعالياً.

وأخبرني أن هذا التيار التوحيدي استمر في مختلف فترات تاريخ اليهودية.. وتدل على بعض آثاره من الصلوات اليهودية دعاء الشماع، أي شهادة التوحيد اليهودية وقصائد مثل (آني مأمِّين)

1) عبد الوهاب المسيري (1938-2008) مؤلف موسوعة اليهود و اليهودية والصهيونية، وهي أحد أهم الأعمال الموسوعية العربية في القرن العشرين.. استطاع من خلالها إعطاء نظرة جديدة موسوعية موضوعية علمية للظاهرة اليهودية بشكل خاص، و تجربة الحداثة الغربية بشكل عام، مستخدماً ما طوره أثناء حياته الأكاديمية من تطوير مفهوم النماذج التفسيرية.

2) انظر مادة (إله) من موسوعة اليهودية، للمسيري.

(إني مؤمن) و(يجدال) (تنزَّه الرب) التي تؤكد فكرة التوحيد.

وأخبرني أن التصور اليهودي للإله قد تراكم عليه في فترات التاريخ الطويلة ما انحرف به انحرافات كثيرة خطيرة.. حتى غدا التوحيد مجرد طبقة واحدة ضمن طبقات مختلفة.. فالعهد القديم، كما هو من خلال مصادره المتعددة، يطرح رؤى متناقضة للإله تتضمن درجات مختلفة من الحلول بعضها أبعد ما يكون عن التوحيد.

وتتبدَّى الحلولية في الإشارات العديدة إلى الإله، التي تصفه ككائن يتصف بصفات البشر، فهو يأكل ويشرب ويتعب ويستريح ويضحك ويبكي، غضوب متعطش للدماء، يحب ويبغض، متقلب الأطوار، يُلحق العذاب بكل من ارتكب ذنباً سواء ارتكبه عن قصد أو ارتكبه عن غير قصد، ويأخذ الأبناء والأحفاد بذنوب الآباء، بل يحس بالندم ووخز الضمير (خروج 32/10 ـ 14)، وينسى ويتذكر (خروج 2/23 ـ 24)، وهو ليس عالماً بكل شيء، ولذا فهو يطلب من أعضاء جماعة يسرائيل أن يرشدوه بأن يصبغوا أبواب بيوتهم بالدم حتى لا يهلكهم مع أعدائهم من المصريين عن طريق الخطأ (خروج 12/13 ـ 14)..

وهو إله متجرِّد، ولكنه في الوقت نفسه يأخذ أشكالاً حسية محددة، فهو يطلب إلى اليهود (جماعة يسرائيل) أن يصنعوا له مكاناً مقدَّساً ليسكن في وسطهم (خروج 25/8)، كما يسير أمام جماعة يسرائيل على شكل عمود دخان في النهار كي يهديهم الطريق، أما في الليل فكان يتحول إلى عمود نار كي يضيء لهم (خروج 13/21/22).

وهو إله الحروب (خروج 15/3 ـ 4) يعلِّم يدي داود القتال (صمويل ثاني 22/30 ـ 35)، يأمر اليهود بقتل الذكور، بل الأطفال والنساء (عدد 31/1 ـ 12)، وهو إله قوي الذراع يأمر شعبه بألا يرحم أحداً (تثنية 7/16 ـ 18)، وهو يعرف أن الأرض لا تُنال إلا بحد السيف. ولذا، فهو يأمر شعبه المختار بقتل جميع الذكور في المدن البعيدة عن أرض الميعاد، (أما سكان الأرض نفسها فمصيرهم الإبادة ذكوراً كانوا أم إناثاً أم أطفالاً) (تثنية 20/10 ـ 18) وذلك لأسباب سكانية عملية مفهومة.

والمقاييس الأخلاقية لهذا الإله تختلف باختلاف الزمان والمكان، ولذا فهي تتغيَّر بتغير الاعتبارات العملية، فهو يأمر اليهود (جماعة يسرائيل) بالسرقة، ويطلب من كل امرأة يهودية في

مصر أن تطلب من جارتها ومن نزيلة بيتها (أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين) (خروج 3/22)

وهكذا، فإننا نجد منذ البداية، أن فكرة الإله الواحد المتسامي تتعايش مع أفكار أخرى متناقضة معها، مثل تشبيه الإله بالبشر، ومثل فكرة الشعب المختار، فهي أفكار تتناقض مع فكرة الوحدانية التي تطرح فكرة الإله باعتباره إله كل البشر الذي يسمو على العالمين.

وفي إطار هذه الرؤية للإله ليس من الغريب أن يسقط أعضاء جماعة يسرائيل في عبادة العجل الذهبي (ويتزعمها هارون أخو موسى)(1)، وأن يقبل العهد القديم عناصر وثنية مثل الترافيم والإيفود (الأصنام)، وكلها تعبير عن رؤية حلولية مشركة لا تختلف كثيراً عما جاء في العهد القديم.. ولهذا ليس من الغريب أن نجد شعائر تدل على الثنوية في العبادة اليسرائيلية.

ورغم أن الإله، حسب بعض نصوص العهد القديم، يفصح عن نفسه في الطبيعة والتاريخ ويتجاوزهما، فهو مصدر النظام في الطبيعة، وهو أيضاً الذي يجعل التاريخ في نظام الطبيعة وتناسقها، إلا أننا نجده يتحول من كونه حقيقة مطلقة تعلو على المادة (الكونية الطبيعية أو التاريخية) يصبح امتداداً لما هو نسبي، وامتداداً للشعب اليهودي على وجه الخصوص.. فيصبح الخالق امتداداً لوعي الأمة بنفسها، فيظل إلهاً قومياً خاصاً مقصوراً على الشعب اليهودي وحده، بينما نجد أن للشعوب الأخرى آلهتها (خروج 6/7) حتى تصبح وحدانية الإله من وحدانية الشعب.

ولذا، نجد أن الشعب ككل، وليس الإنسان ذو الضمير الفردي، يشهد على وحدانية الإله في صلاة الشماع، ويظهر الاتجاه نفسه في أفكار دينية مثل الاختيار والوعد الإلهي وأرض الميعاد التي تصبح مقدَّسة ومختارة تماماً مثل الشعب (وتلاحُم الإله بالأرض والشعب هو الثالوث الحلولي).

ولهذا، ظلت اليهودية دين الشعب اليهودي (جماعة يسرائيل) وحده، ونجد أن الغرض الإلهي يتركز في هذا الشعب دون سواه، فقد اختير من بين جميع الشعوب ليكون المستودع الخاص لعطف يهوه.. كما أن مجرى الطبيعة أو تاريخ البشر يدور بإرادة الإله حول

---

1) حسبما ينص الكتاب المقدس.. أما القرآن الكريم فهو يبرئ هارون عليه السلام ، وينسب العبادة للسامري.

حيـاة ومصـير اليهـود.. ويتضـح هـذا في مفهـوم التـاريخ اليهـودي المقدَّس الذي لا يمكن فهم تاريخ الكون بدونه، كما يتبدَّى في رؤية آخـر الأيـام حيث ترتبـط صـورة الآخـرة والنشـور في كتب الـرؤى (أبوكاليبس)، وفي بعض أجزاء العهد القـديم، بسـيادة اليهـود على العالمين، ثم يتعمق الاتجاه الحلولي مـع ظهـور اليهوديـة التلموديـة الحاخامية.. ويزداد الحلـول الإلهي، فنجـد أن القداسـة تتعمـق في الحاخامـات من خلال مفهـوم الشـريعة الشـفوية، حيث يتسـاوى الـوحي الإلهي بالاجتهـاد البشـري، ويصـبح الحاخامـات ذوي إرادة مستقلة يقارعون الإله الحجة بالحجـة، وتُجمَـع آراؤهم في التلمـود الذي يصبح أكثر قداسة من التوراة (التي يفترض أنها معادلة للإلــه وتحوي سر الكون).

وقد بلغ الحلول الإلهي درجـة أن المشـناه (الـتي تضـم تفسـير الحاخامـات) شُـبِّهت بـاللوجوس في اللاهـوت المسـيحي، أي أنهـا كلمــة الإلــه المقدَّســة، كــانت موجــودة في عقلــه منــذ الأزل.. وتُستخدَم كلمة «ابن الله» للإشارة إلى الشـعب اليهـودي، أي أنـه هو أيضاً اللوجوس.

ويخلع التلمود على الإله صـفات بشـرية بشـكل عـام، ويهوديـة بشكل خاص، وبشكل أكثر تطرفاً من التوراة.

وقد جاء في التلمود أنه بعـد وصـول الماشـيَّح، سـيجلس الإلـه على عرشـه يقهقـه فرحـاً لعلـو شـأن شـعبه، وهزيمـة الشـعوب الأخرى التي تحـاول دون جـدوى أن يكـون لهـا نصـيب في عمليـة الخلاص، أي أن الشعب اليهودي والتاريخ اليهودي يـزدادان قداسـة ومركزية في الدراما الكونية.. ويقضـي الإلـه وقتـه وهـو يلعب مـع حوت، ويبكي من أجل هدم الهيكل، ويندم على فعلتـه، وهـو يلبس العمائم، ويجلس على عرشه، ويدرس التوراة ثلاث مـرات يوميـاً.. وتنسب إلى الإله صفات الحقد والتنافس، وهو يستشير الحاخامات في كثير من الأمور.

ويصل الحلول إلى منتهاه، وإلى درجة وحدة الوجـود في تـراث القبَّالاه، فهو تراث يكاد يكون خالياً تماماً من أي توحيد أو تجــاوز أو علو للإله، وبحيث لا يصبح هناك فارق بين الجـوهر الإلهي والجـوهر اليهودي، ويصبح الفارق الأساسي هو بين الجوهر اليهودي المقدَّس وجــوهر بقيــة البشــر، ويصــبح الفــرق بين اليهــود والأغيــار فرقــاً ميتافيزيقياً، فاليهود قـد خُلقـوا من مـادة مقدَّسـة (حـل فيهـا الإلـه بروحه) مختلفة عن تلك المادة (الوضيعة العادية) التي خُلقت منهـا

بقية البشر. ويكتسب الإله صفات بشرية، ولذا فهو يغازل الشعب اليهودي (بنت صهيون) ويدخل معه (أو معها) في علاقة عاطفية قوية ذات إيحاءات جنسية، وهي فكرة أصبحت أساسية في التراث القبَّالي.

وتتضح النزعة نفسها في قصة الخلق في التراث القبَّالي، فالإله لا يخلق العالم من العدم، وإنما صدرت عنه التجليات النورانية العشرة (سفيروت) التي تأخذ صورة آدم الأول أو القديم (آدم قدمون) أي أن صورة الإله هي صورة الإنسان، وتستقل التجليات العشرة تماماً عن الخالق حتى أنه يتحدث مع الشخيناه (التجلي العاشر).. كما أن التجلي المذكر للإله يطارد التجلي المؤنث، وتصبح تلاوة الشماع، حسب الفكر القبَّالي، هي المحاولة التي يبذلها اليهود ليتوحد التجلي الذكوري بالتجلي الأنثوي، ويجتمعان معاً بالمعنى الجنسي.

وفي داخل التراث القبَّالي، يصبح التجلي العاشر (شخيناه) الذات الإلهية والتعبير الأنثوي عن الإله، وهو نفسه جماعة يسرائيل، أي أن الزواج بين الخالق والشعب يصبح هنا توحداً كاملاً.

ويقوم هذا الشعب بتوزيع رحمة الإله على العالمين، ثم تصل الحلولية إلى ذروتها والشرك إلى قمته، حين يصبح الإنسان اليهودي شريكاً للإله في عملية الخلق نفسها، ويزداد الإله اعتماداً على الإنسان.

وبعد عملية السقوط، وتَهشُّم الأوعية في القبَّالاه اللوريانية، تتفتت الذات الإلهية نفسها، وتتوزع الشرارات الإلهية، ولا يتأتى للإله أن يستعيد كماله ويحقق ذاته إلا من خلال شعبه اليهودي.. فاليهود، بآثامهم، يؤخرون عملية الخلاص التي تؤدي إلى خلاص العالم وإلى اكتمال الإله، وهم، بأفعالهم الخيرة، يعجلون بها.. ولذا، فالأغيار والإله يعتمدون على أفعال اليهود الذين يشغلون مكانة مركزية في العملية التاريخية والكونية للخلاص.

ويظهر هذا النزوع الحلولي المتطرف في أحد التعليقات القبَّالية في أحد كتب المدراش على إحدى فقرات سفر أشعياء (43/12)، حيث جاء فيها:(أنتم شهودي، يقول الرب، وأنا الله)، وهي فقرة تؤكد وحدانية الإله وتساميه. وهي وإن كانت تتحدث عن علاقة خاصة، فإنها مع هذا أبعد ما تكون عن الحلولية أو الشرك. ولكن كاتب المدراش الحاخامي يفرض الطبقة الحلولية على الطبقة التوحيدية فرضاً فيفسرها بقوله: (حينما تكونون

شهودي أكون أنا الإله، وحينما لا تكونون شهودي فكأنني لست الإله)، وكأن كينونة الإله من كينونة الشعب وليس العكس.

بل إن كمال الإله يتوقف على الشعب، إذ قال أحد الحاخامات: (حينما ينفذ اليهود إرادة الإله، فإنهم يضيفون إلى الإله في الأعالي. وحينما يعصي اليهود إرادة الإله، فهم كما لو أنهم يضعفون قوة الإله العظمى في الأعالي)

ورغم أن كاتب المدراش يستخدم دائماً عبارة (كما لو أن) لتأكيد بعدها المجازي، فإن تكرارها وارتباطها بالمفاهيم الأخرى ينقلها من عالم المجاز إلى عالم العقائد الحرفية المباشرة التي لا تحتاج أي تفسير.

وعلى أية حال، فإن التيار التوحيدي ظل لمدة طويلة أساسياً في النسق الديني اليهودي، بل كان يكتسب أحياناً قوة كما حدث من خلال التفاعل مع الفكر الديني الإسلامي، كما هو الحال مع كلٍّ من سعيد بن يوسف الفيومي وموسى بن ميمون.. وكثيراً ما حاول الحاخامات الوقوف ضد الاتجاه الحلولي الشعبي (الفلكلوري)، فحاولوا أن يفسروا الطبائع البشرية للإله بأنها مجرد محاولة لتبسيط الأمور حتى يفهمها العامة. بل يُلاحَظ أن عبارة (كما لو أن) كانت تضاف حتى في التفسيرات القبَّالية الحلولية الأولى لتأكيد الطابع المجازي للخطاب، ولكن هذا التحفظ تآكل بالتدريج وتغلغلت القبَّالاه ذات الأصول الشعبية في صفوف العامة ثم في صفوف المؤسسة الحاخامية نفسها وسيطر فكر حلولي حرفي متطرف. ومع تغلغل القبَّالاه ذات الأصول الشعبية والغنوصية والتي اكتسبت أبعاداً مسيحية، حدثت عملية تنصير لليهودية، حيث فقدت اليهودية هويتها واكتسبت هوية شبه مسيحية جديدة تستند إلى تشويه العقائد المسيحية.

ومع بدايات العصر الحديث، كانت الحسيدية أوسع المذاهب انتشاراً، وهي شكل من أشكال الحلولية المتطرفة بكل ما تحمل من شرك وثنوية. ويتضح هذا في الدور الذي يلعبه التساديك فإرادته معادلة لإرادة الإله، فهو الوسيط بين اليهود والخالق، وهو محل القداسة، وهو الإنسان التقي صاحب القدرة الذي يمكنه النطق باسم الإله والتحكم فيه والتأثير في قراراته.

وقد تبنَّى الفيلسوف اليهودي مارتن بوبر رؤية حلولية للإله، فتحدث عن الحوار الدائر بين الشعب والإله باعتبار أنهما طرفان متساويان، وهذا تَصوُّر ممكن داخل إطار حلولي قومي. كما نجد

فرقاً يهودية حديثة مثل اليهودية المحافظة واليهودية التجديدية تبنيان تصوراتهما الدينية على أساس فكرة الشعب المقدَّس، مع إسقاط فكرة الإله تماماً (حلولية موت الإله)، أو وضعها في مرتبة ثانوية (حلولية شحوب الإله).

ويصل الأمر إلى حد أن حاخاماً إصلاحياً مثل إيوجين بوروفيتز يتحدث عن حرب عام 1967 باعتبار أنها لم تكن تهدد دولة إسرائيل فحسب، وإنما تهدد الإله نفسه باعتبار أن الإله والشعب والأرض يُكوِّنان جوهراً واحداً، فمن أصاب جزءاً من هذا الجوهر بسوء (أرض دولة إسرائيل على سبيل المثال)، فقد أصاب الذات الإلهية نفسها.

بل إن بعض المفكرين الدينيين اليهود يتحدثون عن (لاهوت موت الإله)، وهي محاولة الوصول إلى نسق ديني خال تماماً من أي جوهر إلهي مفارق، فهي حلولية بدون إله. وقد تفرَّع من هذا (لاهوت الإبادة) أو (لاهوت ما بعد أوشفيتس) الذي يذهب دعاته إلى أن الإله شرير لأنه هجر الشعب اليهودي.. كما يذهبون إلى أن المطلق أو الركيزة النهائية هو الشعب اليهودي (دون الإله) وأن القيمة الأخلاقية المطلقة هي البقاء، وأن الآلية الأساسية لإنجاز ذلك هي الدولة الصهيونية، فكأن الدولة الصهيونية هي الإله أو اللوجوس في الحلولية الصهيونية بدون إله.

قال رجل منا: فحدثنا عن **تنزيه الإله في نظر المسيحيين**.

قال: لست أدري ما أقول لكم.. ولا بما أجيبكم.. لقد احترت فيما أكتبه عن تنزيه المسيحيين لله..

لقد وجدت الكتاب المقدس بعهديه متضاربا في ذلك غاية التضارب..

فبينما أقرأ النصوص التي يسمي فيها الرب باسم القدوس، كما في (اللاويين 11: 44-45): (أَنَا الرَّبّ إِلَهُكُمْ، فَكَرِّسُوا أَنْفُسَكُمْ وَتَقَدَّسُوا، لأَنِّي أَنَا قُدُّوسٌ، وَلاَ تُنَجِّسُوا أَنْفُسَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الدَّبِيبِ الْمُتَحَرِّكِ عَلَى الأَرْضِ. لأَنِّي أَنَا الرَّبّ الَذِي أَخْرَجَكُمْ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ لأَكُونَ لَكُمْ إِلَهاً. فَكُونُوا قِدِّيسِينَ لأَنِّي أَنَا قُدُّوسٌ)

بينما أقرأ هذا النص وغيره.. والتي تمتلئ بتنزيه الله وتقديسه، بل تسميه قدوسا.. في نفس الوقت أقرأ الكثير من النصوص التي تصف الله بما لا يمكن أن يوصف به إله.. ولذلك لم يصعب عليهم أن يرسموه في الكنائس والمعابد بصورة رجل عجوز ذي

لحية طويلة بيضاء يظهر عليه الشيب والعجز والتعب..
لقد كان لهذه الصورة سندها من الكتاب المقدس..
ففي الكتاب المقدس النصوص التي تصف الله **بالعجز**.. ففي (تكـوين32 /24-28) نبـأ مصـارعة يعقـوب للـه: (فبقي يعقـوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر.. وقال: اطلقني لأنـه قـد طلع الفجر، فقال: لا اطلقك إن لم تباركني)
وفي سفر القضاة لم يستطع الـرب أن يطـرد سـكان الـوادي، لأن مركباتهم حديدية.. ففي (القضـاة 1 /19): (وكـان الـرب مـع يهوذا فملك الجبل ولكن لم يطرد سكان الـوادي لأن لهم مركبـات حديد)
وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يسكر**.. ففي (المزمور 78 /65): (فاستيقظ الرب كنائم كجبار معّيط من الخمر)
وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **ينام**.. ففي (مزمور35 /22): (قد رأيت يا رب لا تسـكت يـا سـيد لا تبتعـد عـني اسـتيقظ وانتبه الى حكمي يا الهي وسيدي الى دعواي)
وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يمشـي على عكـاز**، ففي (مزمـور23 /4): (أيضـا إذا سـرت في وادي ظـل المـوت لا اخاف شرا لانك انت معي. عصاك وعكازك هما يعزيانني)
وفيه النصوص التي تدل على أن الـرب **جاهل**.. ففي (رسـالة بولس إلى أهل كرونثوس الأولى 1 /25): (لأن جهالـة اللـه احكم من الناس. وضعف الله أقوى من الناس)
وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **عنده خزانة، وفيهـا آلات الرجز**.. ففي (إرميا50 /25(: (فتح الـرب خزانتـه واخـرج آلات رجزه لان للسيد رب الجنود عملا في ارض الكلدانيين)
وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يسيئ**.. ففي (1ملوك 17 /20): (وصـرخ الى الـرب وقـال ايهـا الـرب الهي أيضـا الى الارملة التي انا نازل عندها قد اسأت بإماتتك ابنها)
وفيه النصوص التي تـدل على أن الـرب **ينقض العهد**.. ففي (زكريا11 /10): (فاخـذت عصـاي نعمـة وقصـفتها لانقض عهـدي الذي قطعته مع كل الاسباط فنقض في ذلك اليوم وهكذا علم اذل الغنم المنتظرون لي انها كلمة الرب)
وفيـه النصـوص الـتي تـدل على أن الـرب **يصـيح كالوالـدة وينخر ويخرب.**. ففي (إشـعياء 42 /13-16): (الـرب كالجبـار يخرج.كرجل حروب ينهض غيرته.يهتف ويصرخ ويقوى على اعدائه

قد صمت منذ الدهر سكت تجلدت.كالوالدة اصيح.انفخ وانخـر معـا اخـرب الجبـال والآكـام واجفـف كـل عشـبها واجعـل الانهـار يبسـا وانشف الآجام واسـير العمي في طريـق لم يعرفوهـا.في مسـالك لم يـدروها امشـيهم.اجعــل الظلمــة امــامهم نــورا والمعوجــات مستقيمة هذه الامور افعلها ولا اتركهم)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **ينسى**.. ففي (مزمـور 13 /1): (الى متى يا رب تنسـاني كـل النسـيان.الى مـتى تحجب وجهك عني)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **عمود سـحاب نهـارا وعمود نار ليلا**.. ففي (خـروج:13 /21): (وكـان الـرب يسـير امامهم نهارا في عمود سحاب ليهديهم في الطريق وليلا في عمود نار ليضيء لهم.لكي يمشوا نهارا وليلا)

وفيــه النصــوص الــتي تــدل على أن الــرب **يصــفر للــذباب ويعمل حلاقاً ويصـفق**.. ففي (إشـعياء 7 /18-20): (ويكـون في ذلك اليوم ان الرب يصفر للذباب الذي في اقصـى تـرع مصـر وللنحـل الـذي في ارض اشـور فتـأتي وتحـل جميعهـا في الاوديـة الخربـة وفي شـقوق الصـخور وفي كـل غـاب الشـوك وفي كـل المراعي. في ذلك اليوم يحلق السيد بموسـى مسـتأجرة في عـبر النهر بملك اشور الراس وشعر الرجلين وتنزع اللحية ايضا)

وفيه النصوص التي تدل على أن الـرب **يأمر النـاس بسـب الأنبياء**.. ففي (صموئيل الثاني 16 /10-11): (فقال الملـك مـا لي ولكم يا بني صروية. دعوه يسب لأن الرب قـال لـه سـبّ داود ومن يقول لماذا تفعـل هكـذا. وقـال داود لابيشـاي ولجميـع عبيـده هوذا ابني الذي خرج من احشائي يطلب نفسي فكم بـالحري الآن بنياميني.دعوه يسب لان الرب قال له)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يحتاج علامة ليتـذكر بها**.. ففي (تكـوين 9 /15-16): (اني اذكـر ميثـاقي الـذي بيـني وبينكم وبين كل نفس حيّة في كـل جسـد. فلا تكـون ايضـا الميـاه طوفانا لتهلـك كـل ذي جسـد فمـتى كـانت القـوس في السـحاب ابصرها لأذكر ميثاقا ابديا بين الله وبين كل نفس حيّة في كل جسد على الارض)

وفيــه النصــوص الــتي تــدل على أن الــرب **يولــول ويبكي ويصــرخ ويصــوت**.. ففي (ميخا1 /8): (من اجـل ذلـك انـوح وأولول. امشي حافيا وعريانا. اصنع نحيبا كبنات آوى ونوحا كرعـال

النعام)

***

قلت: حدثتنا عن أكثر الأديان شهرة.. ولم تحدثنا عن الإسـلام.. فهل بحثت في قداسة إله المسلمين؟

قال: أجل.. لقد استغرق مني ذلك كل وقتي.. بل لأجلـه رحلت إلى بلاد إسلامية متعددة..

قلت: فما وجدت؟

قال: إن شئتم الصراحة.. لم أجد دينا من الأديان يحمل تعظيما لله وتقديسا له مثل دين المسلمين.

قلت: فحدثنا عما وجدت.

قال: لقد رأيت المسلمين يقدسون الله تقديسا عظيما.. بل إن الأمر يصل بهم إلى تقديس كـل مـا يضـاف إلى اللـه.. فيتحـرزون أشد الاحتراز من كل كلمة يطلقونها على الله.

قال بعض من كان معنا: فحدثنا عن أقوال المسلمين في هـذا، فإنا نرى لهم حكمة كبيرة، ومعارف عظيمة.

قال: قبل أن أحدثكم عن ذلك أحـدثكم حـديث ذلـك، فلا يؤخـذ العلم إلا من مصادره.

قلنا: فحدثنا.

قال: لقد كان من أوائل المدن الـتي زرتهـا من بلاد المسـلمين بلـدة يقـال لهـا (قم)، وبمـا أنهـا كـانت حافلـة بـالعلم والعلمـاء، والمقدسـين والمطهـرين، فقـد كـان الكـل يطلـق عليهـا (قم المقدسة)

وقد تشرفت بالجلوس إلى كثير من حلقـات العلم فيهـا.. وهي حلقات تقام في كل مكـان.. في المـدارس والمسـاجد.. بـل وفي الأسواق وأمام البيوت.. وسأذكر لكم الآن بعض مـا بقي عالقـا من تلك المجالس المباركة التي شرفني الله بالجلوس فيها.

وقبل أن أذكر لكم ذلك أذكر لكم النتيجـة العامـة الـتي وصـلت إليها.. فالكلام لا يحسن ولا يستجاد فهمه إلا إذا انطلق من الإجمال إلى التفصيل..

قلنا: ذلك أدعى لسرورنا.. فما هي النتيجة التي وصلت إليها؟

قال: لقد رأيت كل مجالس العلم في تلك المدينة الطيبة تركـز أحاديثها في هذا الباب على نـاحيتين من نـواحي التقـديس.. وهمـا سهلا التصور بحسب القسمة العقلية.

قلنا: ما هما؟

قـال: الـذات والأفعـال.. فلا يقـدس اللـه إلا إذا قدسـت ذاتـه.. وقدست مثل ذلك أفعاله.

1 ـ قداسة الذات الإلهية

قلنا: فحدثنا عن تقديس ذات الله.

قـال: على تلـة مرتفعـة في تلـك المدينـة الجامعـة بين العلم والإيمان والأدب رأيت منصة عاليـة جلس عليهـا رجـل يلبس عمـة الأزهر، وقد التفت الناس حوله.. وقد تعجبت عندما علمت أن ذلك الرجل مصري، وأنه شيخ من شيوخ الأزهـر.. وأن اسـمه (محمـود شلتوت)(1)، وقد قلت لمن أخبرني عن هذا الرجل: أعقمت أرحـام نسائكم أن تلد العلماء حـتى أتيتم بهـذا المصـري.. ورفعتمـوه إلى هذا المنصب الرفيع.

ابتسـم الرجـل، وقـال: لكأنـك لا تعرفنـا.. أو لكأنـك لا تعـرف الإسلام.

قلت: وعلاقة هذا بكم؟.. وما علاقته بالإسلام؟

قال: أما علاقته بنا.. فنحن قـوم لم نشـرف إلا بالإسـلام.. وقـد كان لنا في عهد نبينا ﷺ ممثل له عنا.. وقد قال فيه رسول الله ﷺ :(سلمان منا آل البيت)(2)

وأما علاقة ذلك بالإسلام.. فالإسلام لا ينظر إلى مـا ينظـر إليـه الناس من تصـنيفات وضـعتها لهم أهـواؤهم وشـياطينهم.. إن ربنـا يقول لنا:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَـاكُمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)﴾ (الحجرات)

وإن نبينا ﷺ يقول لنا::(ليس لأحد على أحد فضـل إلا بالـدين أو عمل صالح)(3)، ويقول: (أيها الناس! ألا إن ربكم واحد، ألا إن أباكم واحد، ألا لا فضل لعـربي على عجمي، ولا لعجمي على عـربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسـود إلا بـالتقوى:﴿ إِنَّ أَكْـرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:13)(4)

قال لي ذلـك، ثم انصـرف مسـرعا ليسـمع من ذلـك الجـالس

---

1)أشير به إلى (محمود شلتوت) (1893 -ـ 1963)، وهـو شـيخ الجـامع الأزهـر من (1958 - 1963م)،

وقد سعى جاهداً مخلصا للتقريب بين المذاهب الإسلامية.. ولأجل ذلك اخترناه في هذا المحل.

2) رواه البيهقي في الدلائل وغيره.

3) رواه أحمد والبيهقي.

4) رواه البيهقي.

على تلك المنصة العالية.

أحسست بشيء يدعوني إلى أن أحث خطاي إليه..

وعندما وصلت، كان أول ما سمعته منه قوله: أيها الباحثون عن الله.. لا يمكنكم أن تعرفوا الله إلا إذا نـزهتم بصـائركم من أدنـاس التشبيه.. فما عرف الله من شبهه.. وما عرف الله من قاسه على خلقه.. أو قاس خلقـه عليـه.. ومـا عـرف اللـه من وضـع اللـه في قوالب صورها له عقلـه أو صـورها لـه هـواه.. فاللـه أعظم من أن يحاط به.

قال بعض الحاضرين: فكيف نصل إلى هذه المرتبة؟

قال شلتوت: اقـرأوا القـرآن.. وسـتجدونه مملـوءا بتنزيـه اللـه وتعظيمه.. فلا يتحقق التعظيم إلا إذا تحقق التنزيه.

قال الرجل: نجد الله في القرآن الكريم يسمي نفسه (قدوسا) (1).. قال تعالى:﴿ هُوَ اللهُ الذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ المَلِكُ القُـدُّوسُ السَّـلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللـهِ عَمَّا يُشْـرِكُونَ ﴾ (الحشر:23)، وقال: ﴿ يُسَبِّحُ لِلهِ مَا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الأَرْضِ المَلِكِ القُدُّوسِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾(الجمعة:1)

وفي الحديث أنه ﷺ كان يَقُـولُ فِي رُكُوعِـهِ وَسُـجُودِهِ: (سُـبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ المَلاَئِكَةِ وَالرُّوحِ)(2)

فما المراد بهذا الاسم؟

قال شلتوت: إن هذا الاسم يشير إلى طائفة كثيرة من المعاني كلها تبشر بتنزيه الله عن كل ما لا يليق به:

فهي تنزهه عن الشريك.. فالقدوس واحد، قال تعالى:﴿ اللَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ.. ﴾ (البقـرة: 255)، وقـال:﴿ قُـلْ هُـوَ اللَّهُ أَحَـدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص)

وهي تنزهه عن الشبيه.. فالقدوس لا يشبهه شيء، قال تعالى:

---

1) (القـدوس) مشـتق في اللغـة من (التقـديس)، ويعـني في اللغـة التطهـير، ومنـه سميت الجنة حظيرة القدس كما ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال عن رب العـزة: (من ترك الخمر وهو يقدر عليه لأسقينه منه في حظيرة القدس، ومن ترك الحريـر وهـو يقدر عليه لأكسونه إيـاه في حظـيرة القـدس)(رواه الـبزار)، ومن ذلك تسـمية جبريـل - عليه السلام - روح القدس قال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾(النحـل: 102)

والقداسة تعني الطهر والبركة، وقـدس الرجـل ربـه أي عظمـه وكـبره، وطهـر نفسـه بتوحيـده وعبادتـه، ومحبتـه وطاعتـه , ومن ذلـك قـول الملائكـة: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْـدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾(البقرة:30)، فالقدوس يعني المطهر المـنزه عن كـل نقص المتصـف بكـل أنواع الكمال (انظر: لسان العرب 6/168، وشرح أسماء اللـه الحسـنى للـرازي ص94، والمقصد الأسنى ص65، وغيرها)

2) رواه مسلم.

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (الاخلاص:4)، وقال تعالى:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: من الآية11)

وهي تنزهه أن يكون له زوجة أو ولد، قال تعالى إخبارا عن مقالة الجن:﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا ﴾ (الجن: 3)، وقال:﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116)﴾ (البقرة)

وهي تنزهه عن الموت والنوم، قال تعالى:﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ.. (58)﴾ (الفرقان)

وهي تنزهه عن الظلم، قال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (40)﴾ (النساء)

وهي تنزهه عن الكذب.. فقوله الصدق وخبره الحق، قال تعالى:﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ (النساء: 87)

وهي تنزهه عن الضلال والنسيان، قال تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام أنه قال:﴿ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى ﴾ (طه: 52)

وهي تنزهه عن الفناء.. فالقدوس باق، قال تعالى:﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص:88)

وهي تنزهه عن كل العيوب التي لا تتناسب مع جلال الألوهية.. كما قال تعالى:﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (البقرة:255)

وهي تنزهه عن الفقر والبخل، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15)﴾ (فاطر)

وهي تنزهه عن التعب والنصب.. قال تعالى:﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ (ق: 38)

وهي تنزهه عن الحاجة إلى الآلات والأدوات وتقدم المادة والمدة، قال تعالى:﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْء إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (النحل: 40)

وهي تنزهه عن انتهاء القدرة وحصول الفقر، قال تعالى:﴿ لَّقَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الذين قَالُواْ إِنَّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء ﴾ (آل عمران: 181)

وهي تنزهه عن الحاجة قال تعالى:﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾

(الأنعام: 24) { وَهُوَ يُجْيِرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ (المؤمنون: 88)

وهي تنزهـه عن أن يخلـق الباطـل، قـال تعـالى:﴿ وَمَـا خَلَقْنَـا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا باطلا ذلك ظَنُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ (ص: 27)، وقال تعالى حكاية عن المؤمنين:﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السموات والأرض رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا باطلا ﴾ (آل عمران: 191)

وهي تنزهه أن يخلق للعب، قال تعالى:﴿ وَمَـا خَلَقْنَـا السـموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ، وَمَا خلقناهما إِلاَّ بالحق ﴾ (الـدخان: 38 39)

وهي تنزهــه أن يخلــق للعبث؛ قــال تعــالى:﴿ أَفَحَسِـبْتُمْ أَنَّمَـا خلقنــاكم عَبَثــاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَــا لاَ تُرْجَعُــونَ فتعــالى الملــك الحــق ﴾ (المؤمنون: 115، 116)

وهي تنزهه أن يرضى بالكفر، قـال تعـالى:﴿ وَلاَ يرضـى لِعِبَـادِهِ الكفر ﴾ (الزمر: 7)

وهي تنزهه عن إرادة الظلم، قال تعالى:﴿ وَمَا الله يُرِيـدُ ظُلْمـاً لِّلْعِبَادِ ﴾ (غافر: 31)

وهي تنزهه عن حب الفساد، قال تعالى:﴿ والله لاَ يُحِبُّ الفساد ﴾ (البقرة: 205)

وهي تنزهه عن أن يعاقب من غير سابقة جـرم، قـال تعـالى:﴿ مَّا يَفْعَلُ الله بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ ﴾ (النساء: 147)

وهي تنزهه عن أن ينتفع بطاعات المطيعين أو يتضرر بمعاصي المذنبين، قال تعـالى:﴿ إِنْ أَحْسَـنتُمْ أَحْسَـنتُمْ لأنفُسِـكُمْ وَإِنْ أَسَـأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (الإسراء: 7)

وهي تنزهه أن يعترض أحد على أفعاله وأحكامه، قال تعـالى:﴿ لاَّ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـئَلُونَ ﴾ (الأنبيـاء: 23)، وقـال تعـالى:﴿ فَعَّالٌ لَّمَا يُرِيدُ ﴾ (االبروج: 16)

وهي تنزهه عن أن يخلف وعده ووعيده، قال تعالى:﴿ مَا يُبَـدَّلُ القول لَدَىَّ وَمَا أَنَاْ بظلام لِّلْعَبِيدِ ﴾ (ق: 29)

قال آخر: سمعنا ما وردنا من كلام ربنا.. فأسمعنا بعض ما يـدل على هذا من كلام أئمـة الهـدى الـذين جعلهم اللـه مصـابيح لخلقـه يهتدون بها.

قال شلتوت: كل أئمة الهـدى تحـدثوا عن هـذا.. ودعـوا النـاس إليه بجميع صروف الدعوة.

روي أن رجلاً قـال لعلي: هـل تصـف ربنـا نـزداد لـه حبـاً وبـه معرفة؟ فغضب وخطب الناس، فقال فيما قال: (عليك يـا عبداللـه

بما دلك عليه القرآن من صفته، وتقدمك فيه الرسول من معرفته، فائتم به، واستضيَ بنور هدايته، فإنما هي نعمة وحكمة أوتيتها، فخذ ما أوتيت وكن من الشاكرين، وما كلفك الشيطان علمه ممـا ليس عليك في الكتاب فرضه، ولا في سنة الرسول وأئمة الهـدى أثـره، فكل علمه إلى الله، ولا تقدر عظمة الله عليه قدر عقلـك، فتكـون من الهالكين.. واعلم يا عبد الله أن الراسخين في العلم، هم الذين أغنـاهم اللـه عن الاِقتحـام على السـدد المضـروبة دون الغيـوب، إقراراً بجهل مـا جهلـوا تفسـيره من الغيب المحجـوب، فقـالوا:﴿.. آَمَنَّا بِـهِ كُـلٌّ مِنْ عِنْـدِ رَبِّنَـا.. (7)﴾ (آل عمـران)، وقـد مـدح اللـه اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسـمى تـركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً)

وقال في خطبة أخرى:(الحمـد للـه المعـروف من غـير رؤيـة، والخالق من غير رَوِيَّة، الـذي لم يـزل قائمـاً دائمـاً إذ لا سـماء ذات أبراج، ولا حجب ذات أرتاج، ولا ليل داج، ولا بحر ساج، ولا جبـل ذو فجاج.. وأشهد أن من شبهك بتبـاين أعضـاء خلقـك، وتلاحم حقـاق مفاصـلهم المحتجبـة لتـدبير حكمتـك، لم يعقـد غيب ضـميره على معرفتك، ولم يباشر قلبه اليقين بأنه لا ند لك، وكأنه لم يسمع تـبرأ التابعين من المتبوعين إذ يقولـون:﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَـلَالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98)﴾ (الشـعراء).. كـذب العـادلون بـك إذ شـبهوك بأصـنامهم، ونحلـوك حليـة المخلـوقين بأوهـامهم، وجـزؤوك تجزئـة المجسـمات بخـواطرهم، وقـدروك على الخلقـة المختلفة القوى بقرائح عقولهم)[1]

وعن الفتح بن يزيد الجرجاني قال: ضمني وأبا الحسن الطريق في منصـرفي من مكـة إلى خراسـان وهـو سـائر إلى العـراق، فسـمعته يقـول: (من اتقى اللـه يتقى، ومن أطـاع اللـه يطـاع)، فتلطفت الوصول إليه، فوصلت، فسلمت عليه، فـرد عليَّ السـلام ثم قال: (يا فتح من أرضى الخالق لم يبال بسخط المخلـوق، ومن أسخط الخالق فقمن أن يسلط اللـه عليـه سـخط المخلـوق، وإن الخالق لا يوصف إلا بما وصف به نفسه، وأنى يوصـف الـذي تعجـز الحـواس أن تدركـه، والأَوهـام أن تنالـه، والخطـرات أن تحـده، والأَبصار عن الاِحاطة به، جل عما وصفه الواصـفون، وتعـالى عمـا ينعته الناعتون، نأى في قربه، وقرب في نأيه، فهو في نأيه قـريب، وفي قربه بعيد، كيَّف الكيف فلا يقال: كيـف؟ وأيَّن الأين فلا يقـال:

1)انظر: نهج البلاغة ج 1 ص 164.

أين؟ إذ هو منقطع الكيفوفية والأينونية)

وقال الحسين: (إن الله عز وجل يقول:﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42)﴾ (النجم)، فإذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا)

وقال: (يا محمد، إن الناس لا يزال بهم المنطق حتى يتكلموا في الله، فإذا سمعتم ذلك فقولوا: لا إله إلا الله الواحد الذي ليس كمثله شيء)

وقال: (من نظر في الله كيف هو هلك)

وقال: (يا ابن آدم لو أكل قلبك طائر لم يشبعه، وبصرك لو وضع عليه خرق إبرة لغطاه، تريد أن تعرف بهما ملكوت السماوات والأرض، إن كنت صادقاً فهذه الشمس خلق من خلق الله، فإن قدرت تملأ عينيك منها فهو كما تقول.. فمن هداك لاجترار الغذاء من ثدي أمك، وعرفك عند الحاجة مواضع طلبك وإرادتك. هيهات، إن من يعجز عن صفات ذي الهيئة والأدوات فهو عن صفات خالقه أعجز. وَمِن تناولِه بحدود المخلوقين أبعد)

ومن خطبة له في التوحيد قال: (ما وحده من كيفه، ولا حقيقته أصاب من مَثَّله، ولا إياه عني من شَبَّهه، ولا صمده من أشار إليه وتوهمه.. كل معروف بنفسه مصنوع، وكل قائم في سواه معلول.. فاعلٌ لا باضطراب آلة، مقدر لا بجول فكرة، غني لا باستفادة، لا تصحبه الأوقات، ولا ترفده الأدوات، سبق الأوقات كونه، والعدم وجوده، والإبتداء أزله.. بتشعيره المشاعر عُرِفَ أن لا مُشْعِرَ له، وبمضادته بين الأمور عرف أن لا ضد له، وبمقارنته بين الأشياء عُرِفَ أن لا قرين له، ضاد النور بالظلمة، والوضوح بالبهمة والجمود بالبلل)

وقال الباقر: (تكلموا في خلق الله، ولا تتكلموا في الله، فإن الكلام في الله لا يزداد صاحبه إلا تحيراً)

وقال: (إياكم والتفكر في الله، ولكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه)

وقال الصادق: (إن الله تبارك اسمه، وتعالى ذكره، وجل ثناؤه، سبحانه وتقدس، وتفرد وتوحد، ولم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن فلا أول لأوليته، رفيعٌ في أعلى علوه، شامخ الأركان، رفيع البنيان عظيم السلطان، منيف الآلاء، سني العلياء، الذي عجز الواصفون عن كنه صفته، ولا يطيقون حمل معرفة إلهيته، ولا يحدون حدوده، لأنه بالكيفية لايتناهى إليه)

وروي أن رجلا قام إلى الإمام الرضا، وقال له: يابن رسول الله

صف لنا ربّك، فانّ من قبلنا قد اختلفوا علينا.. فقال الرضا: (إنّه من يصف ربّه بالقياس لا يزال الدهر في الالتباس، مائلا عن المنهاج، ظاعناً في الإعوجاج، ضالاًّ عن السبيل، قائلا غير الجميل، أعرّفه بما عرّف به نفسه من غير رويّة، وأصفه بما وصف به نفسه من غير صورة، لا يدرك بالحواسّ، ولا يقاس بالناس، معروف بغير تشبيه، ومتدان في بعده لا بنظير، لا يمثّل بخليقته، ولا يجور في قضيّته.. فهو قريب غير ملتزق، وبعيد غير متقصّ، يحقّق ولا يمثّل، ويوحّد ولا يبعّض، يعرف بالآيات ويثبت بالعلامات، فلا إله غيره الكبير المتعال)

***

لست أدري كيف قطعت عن لساني لجام الصمت، ورحت أقول: إني أرى بهذه المدينة حلقا كثيرة.. فأي حلقة تراها أعرف من غيرها بربها لتنصحنا بها؟

قال شلتوت: اجلس إليها جميعا.. واستفد منها جميعا.. وأحسن الظن بها جميعا..

قلت: لا أقصد هذا.

قال: أنت تقصد أحقها بالحق، وأولاها به.

قلت: أجل.. فذلك ما أريده.. فلا أريد أن أقع في الوهم.

قال: الناس ينظرون إلى الحق من مناظر مختلفة لا متناقضة.. ففيهم العامة وفيهم الخاصة.. وفيهم أهل الكثافة وفيهم أهل اللطافة.. وفيهم المحققون وفيهم الحرفيون.. ولكل واحد من هؤلاء الحق الذي يتناسب معه.

قلت: فكيف أميز ما يتناسب معي مع ما يتناسب مع غيري؟

قال: فكيف تميز ما يصلح لمعدتك من الطعام مع ما لا يصلح؟

قلت: أي طعام أكلته أضر بي علمت أنه لا يصلح لمعدتي.

قال: وكذلك كل معرفة أوقعتك في دنس التشبيه والتمثيل فاجتنبها إلى غيرها.. فالله لا يحاط به.

***

كانت أول حلقة انضممت إليها – بعد جلوسي للشيخ محمود شلتوت- حلقة يتوسطها شيخ قد أوتي علما كثيرا، وقدرة على الجدل لا تضاهى، كان اسمه (ابن طاووس)(1).. وقد كان تلاميذه

1) أشير به إلى ابن طاووس (ت 673 هـ)، وهو جمال الدين أبو الفضائل أحمد بن موسى الحسني، الحلّي، كان من أكابر فقهاء الإمامية ومجتهديهم، عالماً بالحديث ورجاله، متكلّماً، أديباً، شاعراً مجيداً، مصنّفاً. وهو أوّل من قسّم ــ من علماء الإمامية ـ

يلتفون حوله، فيسألونه غرائب المسائل، فيجيبهم بجنان ثابت، وعلم وافر، وحجة تأبى إلا أن تنقاد العقول لها.

سأنقل لكم بعض ما دار في تلك الحلقة:

كان أول ما بدأ به ابن طاووس درسه قوله: نتناول اليوم في هذا الدرس الحديث عن ركن مهم من أركان المعرفة بالله، لا تتم المعرفة إلا به..

إنه تنزيه الله، وإجلاله، وتسبيحه وتقديسه.. فلا يمكن أن تتم المعرفة بالله، أو تصدق إلا إذا خالطها هذا الإكسير.. إكسير التقديس والتنزيه والإجلال.

قال رجل من الحاضرين: نحن نعرف الجملة.. ولكنا نفتقر إلى التفصيل.

قال: سأذكر لكم سبعة أشياء يقدس الله عنها.. وقيسوا عليها غيرها.

قالوا: وما هي؟

قال: الشبيه.. والحاجة.. والجهل.. والعجز.. والجسمية.. والزمان.. والمكان.

الشبيه:

قالو: فحدثناعن الأول مما يجب تنزيه الله عنه.. حدثنا عن تنزه الله عن الشبيه(1).

قال: التشبيه أو التمثيل هو إثبات شيء من خصائص المخلوق للخالق، أو إثبات شيء من خصائص الخالق للمخلوق(2).. وقد نطق القرآن الكريم بتنزيه الله تعالى عنه، فقال:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ

الحديث إلى الآقسام الآربعة المشهورة: صحيح وموثّق وحسن وضعيف.

1) استفدنا الكثير من المعلومات الواردة في هذا الفصل من كتاب (دلالة الأسماء الحسنى على التّنزيه)، إعداد: د / عيسى بن عبد الله السّعدي، كليّة التربية بالطائف / قسم الدراسات الإسلاميّة.

2) للأسف نجد الكثير من المصنفات ترمي الكثير من العلماء والصالحين بالتشبيه مع انعدام البينة.. بينما تدافع على من شاءت الدفاع عنه، وترمي نفس المراجع التي استفادت منها تلك المعلومات بأنها مراجع غير موثوقة..

وكمثال على ذلك الدفاع عن مقاتل بن سليمان مع أنه رمي بالتشبيه في تلك المراجع التي رمي فيها غيره.. فقد قال ابن تيمية مدافعا عنه:(أمّا مقاتل فالله أعلم بحقيقة حاله ، والأشعريّ ينقل هذه المقالات من كتب المعتزلة ، وفيهم انحراف على مقاتل بن سليمان ؛ فلعلّهم زادوا في النّقل عنه ، أو نقلوا عنه ، أو نقلوا عن غير ثقة ، وإلاّ فما أظنّه يصل إلى هذا الحدّ!)

ونحن نقول تعليقا على هذا: لم لا ينتهج هذا المنهج مع سائر العلماء والفرق؟.. ولم لا تكون البينة الصحيحة هي الدليل لا مجرد النقل؟.. ولم لا يترك المجال للآخرين ليدافعوا عن أئمتهم وعلمائهم ما دام الأمر بهذه الصفة؟.. ولم لا يقال بأن للتأثير السياسي والمذهبي دوره في بيان مقولات الفرق والمذاهب، وخاصة منها من لم يترك أثرا من كتاب أو أتباع؟

شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الشّورى:11)، وقال:﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص: 4)، وقال:﴿ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ ﴾ (النّحل: 74)، وقال:﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ (مريم: 65)؛ أي مثلاً وشبيهًا(1).

ومثل ذلك نطقت أسماء الله الحسنى بتنزيه الله عنه.. فقد سمّى الله نفسه المقدّسة بأسماء كثيرة تدلّ على تفرّده المطلق:

فمن أسمائه الدالة على ذلك: **الواحد، والأحد**(2) ؛ أي المتفرّد بمعاني الكمال ؛ فليس له مثل في ذاته، ولا شريك في أفعاله.

ومن أسمائه الدالة على ذلك **العزيز** ؛ أي الَّذي لا مثل له ولا نظير ؛ فالعزيز – في بعض معانيه- هو النّادر الَّذي يصعب أو يتعذّر وجود مثله ؛ يقال: عزّ الشّيء فهو عزيز إذا قلّ فلا يكاد يوجد، كما قال تعالى:﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ (فصّلت: 41) ؛ أي كتاب محالٌ مناله، ووجود مثاله.

ومن أسمائه الدالة على ذلك **القهّار** ؛ أي الواحد الَّذي لا نظير له ولا ندّ ؛ لأنّ القهر ملازم للوحدة، فلا يكون اثنان قهّاران متساويين في قهرهما أبدًا ؛ فالقهر المطلق لا يكون إلا مع الوحدة.. فلا يكون القهّار إلاّ واحدًا ؛ إذ لو كان معه كفؤ له ؛ فإن لم يقهره لم يكن قهّارًا على الإطلاق، وإن قهره لم يكن كفؤًا، وكان القهّار واحدًا.

ولهذا، فإن الَّذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الَّذي لا نظير له، وهو الَّذي يستحقّ أن يعبد وحده كما كان قاهرًا وحده، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (ص: 65) ؛ فأبطل الشّرك، وقرّر ألوهيّته بوحدته، وقهره لكلّ شيء.

ومن أسمائه الدالة على ذلك **المتكبّر** ؛ أي العظيم، المتعالي عن صفات الخلق، والتاء في اسم المتكبّر تاء المتفرّد، والمتخصّص، لا تاء المتعاطي والمتكلّف(3)..

1) روي ذلك عن ابن عبّاس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن جريج ، وغيرهم.

2) اسم الواحد مقارب لاسم الأحد ، وقد فرّق ابن الأثير بينهما من وجهين:

الأول: أنّ الأحد بني لنفي ما يذكر معه من العدد ؛ فهو يقع على المذكّر والمؤنّث ؛ يقال: ما جاءني أحد ؛ أي ذكر ولا أنثى، وأمّا الواحد فإنّه وضع لمفتتح العدد ، تقول: جاءني واحد من النّاس ، ولا تقول فيه: جاءني أحد من النّاس.

الثاني: أنّ الواحد يفيد الانفراد بالذات؛ لأنّه بني على انقطاع النّظير والمثل ، والأحد يفيد الانفراد بالمعاني ؛ لأنّه بني على الانفراد والوحدة عن الأصحاب..

3) ويحتمل أن يفسّر بما يعمّ النّقائص والعيوب؛ أي المتعالي عن مماثلة الخلق في ذواتهم وصفاتهم ، وعن جميع النّقائص والعيوب؛ فيكون من أسماء التّمجيد المستوعبة

ومن أسـمائه الدالـة على ذلـك **اللّطيف** ؛ فقـد فسّـر بالَّذي لطف عن أن يـدرك بالكيفيّـة، وهـذا التّفسـير يتضـمّن التّنزيـه عن وجـود المثـل ؛ لأنّ إدراك الكيفيّـة إنّمـا يكـون بمعرفـة الـذات، أو بمعرفـة النّظـير المماثـل ؛ فـإذا تعـذّر إدراك الكيفيّـة على الخلـق جميعًا كان ذلـك دليلاً على انتفـاء معـرفتهم بحقيقـة الـذات، وعلى عدم النّظير المماثل الَّذي تعتبر ذات الخالق بذاته.

بالإضافة إلى هذا فإن جميع أسماء التنزيـه المطلـق تـدل على هذا؛ كالقدّوس، والسّلام، والسبوّح ؛ فإنها تدلّ على سـلامة الـربّ، وطهارته، ومباعدته عن كلّ عيب، أو نقص، وعن أن يكون له كفء في ذاته، أو صفاته، أو أفعاله.

ومثل ذلك جميع أسماء التّمجيد، الَّتي تـدلّ على جميـع صـفات الكمال ؛ كالصّمد، والمجيد، والعظيم، والواسع، والأعلى ؛ فإنّ هذه الأسـماء تنـافي جميـع النّقـائص ؛ لأنّ ثبـوت الكمـال يسـتلزم نفي ضدّه، وما يستلزم ضدّه؛ وتنـافي أيضًـا وجـود المثـل والكفء ؛ لأنّ اتّصاف الربّ بأعلى صفات الكمـال يسـتحيل معـه وجـود المثـل ؛ لأنهما إن تماثلا ارتفع الكمـال عنهمـا معًـا، وإن لم يتمـاثلا فالكمـال الأعلى لأحدهما وحده.

قال بعض الحاضرين: عرفنا الدليل، ولكنا لم نعرف المــدلول.. فما المراد بتنزيه الله عن الشيه؟

قال ابن طاووس: المراد به أمران:

أما الأول.. فهو تمثيل المخلوق بالخالق.. وهو إما أن يكون كليـا بوصف المخلوق بجميع صـفات الخـالق.. واعتبـاره بـذلك ربـا كمـا فعل المشركون.. وقد يكون جزئيًّا؛ وذلك بوصـف المخلـوق ببعض خصائص الخالق؛ كوصفه بالقدرة التامّـة، والعلم المحيـط، والإرادة النّافذة، والغنى المطلق..

وأما الثاني.. فالزعم أنّ اللــه على صـورة الإنسـان – مثلا - أو الزعم بأن في الله بعض صفات الإنسان.

قام بعض الحاضرين، وقال: كيف تقول هذا.. والقرآن دل على وقوع التسوية بين ذات الله تعـالى وبين خلقـه في صـفات كثـيرة، ولم يلزم منها أن يكون القائل مشبهاً..

فقد قال تعالى عن نفسه:﴿ وَهُوَ السميع البصـير ﴾، وقـال في حق الإنسان:﴿ فجعلناه سَمِيعاً بَصِـيراً ﴾ (الإنسـان: 2).. وقـال في

لجميع معاني التّقديس ، ويدخل بالتالي ضمن أسماء التّنزيه المطلق ؛ كالصّمد ، والمجيد ، والعليّ.

حقـه:﴿ واصـنع الفلـك بِأَعْيُنِنَـا ﴾ (هـود: 37)، وقـال في حـق المخلوقين:﴿ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع ﴾ (المائدة: 83)

وقد سمى نفسه عزيزاً فقال:﴿ العزيز الجبار ﴾(الحشـر: 23)، ثم ذكر هذا الاسم في حق المخلوقين بقوله:﴿ يأَيُّهَا العزيز إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ (يوسف: 78)، وقال:﴿ ياأيها العزيـز مَسَّـنَا وَأَهْلَنَـا الضر ﴾ (يوسف: 88)

وسمى نفسه بالملك، وسمى بعض عبيده أيضاً بالملك فقال:﴿ وَقَالَ الملك ائتوني بِهِ ﴾ (يوسف: 50)

وسمى نفسه بالعظيم ثم أوقع هذا الاسم على المخلوق فقال:﴿ رَبُّ العرش العظيم ﴾ (التوبة: 129)

وسمى نفسه بالجبار المتكبر وأوقع هـذا الاسـم على المخلـوق فقال:﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله على كُلّ قَلْبِ مُتَكَبّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر: 35)

ابتسم ابن طاووس، وقال: ألست ابن خزيمة(1)؟

قال ابن خزيمة: بلى.. كيف عرفتني؟

قـال ابن طـاووس: لا تنشـغل بـذلك.. وأخـبرني.. ألسـت أنت الذي تقول في الكتاب الذي سميته (التوحيد): (نحن نثبت لله وجهاً ونقول: إن لوجه ربنا من النور والضياء والبهاء، ما لو كشف حجابـه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركـه بصـره، ووجـه ربنـا منفي عنـه الهلاك والفنـاء، ونقـول إن لبـني آدم وجوهـاً كتب اللـه عليهـا الهلاك والفناء، ونفى عنهـا الجلال والإكـرام، غـير موصـوفة بـالنور والضياء والبهاء، ولو كان مجرد إثبـات الوجـه للـه يقتضـي التشـبيه لكـان من قـال إن لبـني آدم وجوهـاً وللخنـازير والقـردة والكلاب وجوهـاً، لكـان قـد شبّه وجـوه بـني آدم بوجـوه الخنـازير والقـردة والكلاب.. ولا شك أنه اعتقاد الجهمية لأنه لو قيل له: وجهـك يشـبه وجه الخنازير والقردة لغضب ولشافهه بالسوء، فعلمنا أنـه لا يلـزم من إثبات الوجه واليدين لله إثبات التشبيه بين الله وبين خلقه)

قال ابن خزيمة: بلى.. قد ذكـرت هـذا الكلام.. ومـا أوردتـه من النصوص دليل عليه.. فهل لك اعتراض على ما أقول؟

قال ابن طاووس: اسمح لي أن أذكر لك بأن السر في مذهبك هذا هو أنك لم تعرف جيدا حقيقـة المثلين.. ولـو أنـك عرفتهـا لمـا وقعت فيما وقعت فيه.

قال ابن خزيمة: يشرفني أن تعلمني علمها..

---

1) أشـير بـه إلى أبي بكـر بن خزيمـة (223 -ـ 311هــ) السُـلمي، النيسـابوري الشافعي، صاحب التصانيف، أحد أبرز علماء الحديث.من مؤلفاته: التوحيـد وإثبـات صـفة الرب؛ ولا يخفى سر اختيارنا له هنا.

قال ابن طاووس: المثلان هما اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر في حقيقته وماهيته.. ولتفهم هذا تحتاج أن تعرف بأن المعتبر في كل شيء، إما تمام ماهيته، وإما جزء من أجزاء ماهيته، وإما أمر خارج عن ماهيته، ولكنه من لوازم تلك الماهية، وإما أمر خارج عن ماهيته ولكنه ليس من لوازم تلك الماهية.

وهذا التقسيم مبني على الفرق بين ذات الشيء وبين الصفات القائمة به.. وذلك معلوم بالبديهة، فإنا نرى الحبة من الحصرم كانت في غاية الخضرة والحموضة، ثم صارت في غاية السواد والحلاوة.. فالذات باقية والصفات مختلفة، والذات الباقية مغايرة للصفات المختلفة.. وهكذا نرى الشعر قد كان في غاية السواد، ثم صار في غاية البياض.. فالذات باقية والصفات متبدلة والباقي غير المتبدل، فظهر بهذا أن الذوات مغايرة للصفات.

قال ابن خزيمة: أنا أسلم لك بكل ما ذكرته من هذا.

قال ابن طاووس: ما دمت قد سلمت بهذا، فاعلم أن اختلاف الصفات لا يوجب اختلاف الذوات أبدا، لأنا نرى الجسم الواحد كان ساكناً ثم يصير متحركاً، ثم يسكن بعد ذلك، فالذوات باقية في الأحوال كلها على نهج واحد ونسق واحد، والصفات متعاقبة متزايلة.. فثبت بهذا أن اختلاف الصفات والأعراض لا يوجب اختلاف الذوات.

قال ابن خزيمة: أنا أسلم لك بهذا أيضا.

قال ابن طاووس: إذا سلمت بهذا فاعلم أن الأجسام التي تألف منها وجه الكلب والقرد مساوية للأجسام التي تألف منها وجه الإنسان والفرس.. وإنما حصل الاختلاف بسبب الأعراض القائمة، وهي الألوان والأشكال والخشونة والملاسة وحصول الشعور فيه وعدم حصوله.

فالاختلاف إنما وقع بسبب الاختلاف في الصفات والأعراض، فأما ذوات الأجسام فهي متماثلة.. إلا أن العوام لا يعرفون الفرق بين الذوات وبين الصفات، فلا جرم يقولون إن وجه الإنسان مخالف لوجه الحمار، وقد صدقوا، فإنه حصلت تلك المخالفة بسبب الشكل واللون وسائر الصفات، فأما الأجسام من حيث إنها أجسام فهي متماثلة متساوية.

قال ابن خزيمة: أنت ترد بهذا على ما ذكرت من الوجوه.

قال ابن طاووس: أجل.. فالكلام الذي أوردته إنما تخاطب به العوام.. وهم لا يعرفون أن المعتبر في التماثل والاختلاف حقائق

الأشياء وماهياتها لا الأعراض والصفات القائمة بها.

قال ابن خزيمة: لا بأس.. فلنفرض أني سلمت لك بهذا.. إن هذا يوقعك في القول بأن الأجسام كلها متماثلة.. فإن كنت تقول بذلك، فما دليلك عليه؟

قال ابن طاووس: ها هنا مقامان..

أما المقام الأول، فأن نعتبر هذه المقدمة إما أن تكون مسلمة أو لا تكون مسلمة.. فإن كانت مسلمة فقد حصل المقصود.. وإن كانت ممنوعة، فنقول فلم لا يجوز أن يقال إله العالم هو الشمس أو القمر أو الفلك أو العرش أو الكرسي.. ويكون ذلك الجسم مخالفاً لماهية سائر الأجسام، فكان هو قديماً أزلياً واجب الوجود وسائر الأجسام محدثة مخلوقة.. ولو أن الأولين والآخرين اجتمعوا على أن يسقطوا هذا الإلزام عن المجسمة لا يقدرون عليه؟

قال ابن خزيمة: فإن قالوا: هذا باطل لأن القرآن دلّ على أن الشمس والقمر والأفلاك كلها محدثة مخلوقة؟

قال ابن طاووس: يقال لهم حينذاك: إن هذا من باب الحماقة المفرطة، لأن صحة القرآن وصحة نبوّة الأنبياء مفرعة على معرفة الإله، فإثبات معرفة الإله بالقرآن وقول النبي لا يقوله عاقل.

قال ابن خزيمة: لا بأس.. فما المقام الثاني؟

قال ابن طاووس: المقام الثاني هو أن علماء الأصول أقاموا البرهان القاطع على تماثل الأجسام في الذوات والحقيقة(1).. وإذا ثبت هذا ظهر أنه لو كان إله العالم جسماً لكانت ذاته مساوية لذوات الأجسام إلا أن هذا باطل بالعقل والنقل.

أما العقل فلأن ذاته إذا كانت مساوية لذوات سائر الأجسام وجب أن يصح عليه ما يصح على سائر الأجسام، فيلزم كونه محدثاً مخلوقاً قابلاً للعدم والفناء قابلاً للتفرق والتمزق.

وأما النقل فقوله تعالى:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾

قال بعض الحاضرين: لدي إشكال في الآية أود أن تجيب عنه.

قال ابن طاووس: أنت ترى أن مقصود الآية هو نفي المثل عن الله تعالى بينما ظاهرها لا يوحي بذلك.. إذ أنه يوجب إثبات المثل لله تعالى؟

قال الرجل: أجل.. لقد نطقت بما كنت أريد أن أنطق به.. ألا ترى ذلك صحيحا؟

---

1) والعلم الحديث أثبت ذلك الآن.. فمع تعدد أفراد العالم المادي في هذه النشأة إلا أنه مركب جميعا من مركبات واحدة محصورة.

قال ابن طاووس: لقد أجاب العلماء على ذلك، فذكروا بأن العرب الذين نزل بلسانهم القرآن الكريم يقولون مثل هذا في حديثهم.. فهم يقولون مثلا: مثلك لا يبخل، أي أنت لا تبخل فنفوا البخل عن مثله، وهم يريدون نفيه عنه.. ويقول الرجل منهم: هذا الكلام لا يقال لمثلي.. وهو يريد يذلك (لا يقال لي).. وقد قال الشاعر في هذا: (ومثلي كمثل جذوع النخيل)

وهم في ذلك ينحون منحى المبالغة.. فإنه إذا كان ذلك الحكم منتفياً عمن كان مشابهاً بسبب كونه مشابهاً له، فلأن يكون منتفياً عنه كان ذلك أولى.

قام بعض الحاضرين، وقال: فهل تروي لنا شيئا مما ذكره أئمة الهدى من سلف هذه الأمة وصالحيها في تنزه الله عن الشبيه لتؤيد به ما تقول؟

قال ابن طاووس: أجل.. أروي في ذلك الكثير..

فقد سأل بعضهم الصادق فقال له: أخبرني أي الأعمال أفضل؟ قال: توحيدك لربّك.. قال: فما أعظم الذنوب؟ قال: تشبيهك لخالقك.

وحدث يونس بن ظبيان قال: دخلت على الصادق فقلت: يا ابن رسول الله! إنّي دخلت على بعضهم فسمعتهم يقولون: إنّ لله وجهاً كالوجوه، وبعضهم يقول: له يدان! واحتجّوا لذلك بقول الله تبارك وتعالى:﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75)﴾ (ص)، وبعضهم يقول: هو كالشاب من أبناء ثلاثين سنة.. فما عندك في هذا يابن رسول الله؟ قال: ــ وكان متّكئاً فاستوى جالساً ــ وقال: اللهمّ عفوك عفوك.. ثمّ قال: يايونس من زعم أنّ لله وجهاً كالوجوه فقد أشرك، ومن زعم أنّ لله جوارح كجوارح المخلوقين فهو كافر بالله فلا تقبلوا شهادته ولا تأكلوا ذبيحته، تعالى الله عمّا يصفه المشبهون بصفة المخلوقين.. فقوله:﴿.. خَلَقْتُ بِيَدَيَّ..(75)﴾ (ص) فاليد القدرة، كقوله ﴿.. وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ.. (26)ـ ﴾ (الأنفال)، فمن زعم أنّ الله في شيء، أو على شيء، أو تحوّل من شيء إلى شيء، أو يخلو منه شيء، أو يشغل به شيء، فقد وصفه بصفة المخلوقين، والله خالق كلّ شيء، لا يقاس بالقياس ولا يشبه بالناس، لا يخلو منه مكان، ولا يشغل به مكان، قريب في بعده، بعيد في قربه، ذلك الله ربّنا لا إله غيره، فمن أراد الله بهذه الصفة فهو من الموحّدين، ومن أحبّه بغير هذه الصفة فالله منه بريء،

ونحن منه براء)

وروي أنه قال لهشام: (إنّ الله تعالى لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء، وكلّ ما وقع في الوهم فهو بخلافه)

وعنه أنه قال: (إنّ الله تبارك وتعالى لا يوصف بزمان ولا مكان ولا حركة ولا إنتقال ولا سكون ; بل هو خالق الزمان والمكان والحركة والسكون والإنتقال، تعالى عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً)

وقال الباقر لجابر: ياجابر.. ما أعظم فرية أهل الشام على الله عزّوجلّ، يزعمون أنّ الله تبارك وتعالى حيث صعد إلى السماء وضع قدمه على صخرة بيت المقدّس، ولقد وضع عبد من عباد الله قدمه على حجر فأمر الله تبارك وتعالى أن نتّخذه مصلّى.

ثم قال له: (ياجابر! إنّ الله تبارك وتعالى لا نظير له ولا شبيه، تعالى عن صفة الواصفين، وجلّ عن أوهام المتوهّمين، واحتجب عن أعين الناظرين، لا يزول مع الزائلين، ولا يأفل مع الآفلين، ليس كمثله شيء، وهو السميع العليم)

الحاجة:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الثاني.

قال: الثاني مما ينزه الله عنه هو الحاجة.. فالله تعالى منزّه عن كل الحاجات التي تفتقر إليها الحوادث..

فهو منزه عن الأكل والشّرب، والسِّنة والنّوم، والصّاحبة والولد، والشّريك، والظّهير، ونظائرها من لوازم الحدوث والاحتياج، قال تعالى:﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يَطْعَمُ ﴾ (الأنعام: 14)، وقال:﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ (الإخلاص: 2) ، وقال:﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾ (البقرة: 255)، وقال:﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ﴾ (الجنّ: 3)، وقال:﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (الإسراء: 111)، وقال:﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ (سبأ: 22)

وقد نطقت جميع أسماء الله الحسنى بالدلالة على هذا.. فمن أسماء الله تعالى: الأوّل، والآخر، والحيّ، والقيوّم، والواجد، والغني، والملك، والقهّار.. وغيرها.. وكل هذه الأسماء تبطل الاحتياج من أصله ؛ لأنّها تدلّ على وحدانيّة الربّ، وأزليّته، وأبديّته، وكمال حياته، وقيامه بنفسه ؛ فلا يفتقر لغيره، لا في وجوده، ولا في بقائه، ولا

في صفاته، وأفعاله، وتدلّ على إقامته لغيره، وعلى عمـوم قهـره، وكمال غناه وملكه، فلا يحتاج ما يحتاجه المخلوق الفقـير المحـدث من الأكل والشّرب، والسِّنة، والنّوم، والصّاحبة، والولـد، والشّـركاء والأعوان.

الجهل:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الثالث.

قال: الثالث مما ينزه الله عنه هو الجهل.. فالله تعالى وسِع كلّ شيء علمًا، وأحصى كلّ شيء عددًا، فما من شيء قـلّ أو جـلّ إلاّ أحاط به علمه، وجرى به قلمه، فلا يعزب عن ربّك من مثقـال ذرّة في الأرض ولا في السّماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، قال تعالى: ﴿ وَمَـــا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَـــيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّـــمَاءِ ﴾ (إبراهيم: 38)، وقال:﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (هود: 123) ؛ والغافل الّذي لا يفطن للأمـور ؛ إهمـالاً منـه، مـأخوذ من الأرض الغفل، وهي الّتي لا عَلَم بها، ولا أثر عمارة، وقال:﴿لا يَضِـلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى ﴾ (طه: 52) ؛ أي لا يغيب عنه شيء، ولا يغيب عن شـيء، أو لا يفوت علمه شيء، ولا ينسى شيء.

وقد نطقت أسماء حسنى كثيرة بالدلالة على كمـال علم اللـه، وكمال إحاطته بكلّ شيء ؛ أزلاً وأبدًا، غيبًا وشهادة، وعلى تقديسـه عن الجهل بجميع صوره ومظاهره ؛ لأنّ إثبات الشّـيء نفي لضـدّه ولما يستلزم ضدّه عقلاً وسمعًا.

فمن ذلك الأسـماء الدالـة على شـمول العلم، وانتفـاء جميع صور الجهل ؛ كالعليم، والخبير، والمحيط، والواسع ؛ أي الّذي وسع علمه كلّ شيء، وأحاط بما في العالم العلـويّ والسّـفليّ، فلا يغيب عن علمه شيء.

ومن أسـمائه مـا يـدلّ على كمـال أسـباب العلم ؛ كالسّميع والبصير، والقريب، والـرّقيب، والشّـهيد، والمهيمن ؛ وهـو بمعـنى الشّـهيد ؛ أي الحاضـر مـع عبـاده، يسـمع أقـوالهم، ويبصـر أفعالهم، فلا يغيب عنه من أمرهم شيء يقولونه، أو يفعلونـه، قـال تعالى:﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلا تَعْمَلُـونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُـهُودًا إِذْ تُفِيضُـونَ فِيـهِ وَمَـا يَعْـزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِـكَ وَلا أَكْبَـرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (يونس: 61)

العجز:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الرابع.

قال: الرابع مما ينزه الله عنه هو العجز.. فالله تعالى على كـلّ شيء قدير، كما أنّه بكلّ شيء عليم ؛ فلا يسبقه شيء، ولا يعجـزه ما يريد، قال تعالى:﴿ وَمَـا نَحْنُ بِمَسْـبُوقِينَ ﴾ (الواقعـة: 60) ؛ أي وما نحن بعاجزين.

وقال:﴿ وَمَا كَـانَ اللَّهُ لِيُعْجِـزَهُ مِنْ شَـيْءٍ فِي السَّـمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ (فاطر: 44)؛ فنزّه تعالى نفسـه عن العجز، وذيّل الآية بما يتضمّن علّـة التّنزيـه عنـه من أسـمائه، وهمـا العليم والقـدير ؛ لأنّ العجـز سـببه إمّـا الجهـل بأسـباب الإيجـاد، أو قصور الإرادة عن فعل المراد.

وقال تعالى:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَـا فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾(ق: 38)

وقال:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الأحقاف: 33)

وقد نطقت بالدلالة على تنزيه الله عن العجـز وأسـبابه أسـماء كثيرة..

منها ما يدلّ على انتفائه ؛ لشمول علمه، وكمال أسبابه، وآثاره ؛ كالخبير، والسّميع، والحسيب.

ومنهـا مـا يـدلّ على انتفائـه ؛ لكمـال قوّتـه، وشـمول قدرتـه ؛ كالقويّ، والعليّ، والوكيل.

ومن هذا الصنف ما يدلّ على انتفاء العجز وكمال القدرة بدلالة المطابقـة ؛ كالقـادر، والقـدير، والمقتـدر، والمقيت - أي المقتـدر بحسب بعض معانيه- وكالقويّ، والمتين، أي تامّ القدرة ؛ فلا يشقّ عليه فعل، ولا يلحقه عجز، أو فتور، أو وهن.

الجسمية:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الخامس.

قال: الخامس مما ينزه الله عنه هو الجسمية..

نهض بعض تلاميذه، وقال: كيف تقول ذلك يا شيخنا، وقد رأيت في بعض بلاد المسلمين من يعتبر الجسمية من لوازم الـذات.. فلا يتصور ذاتا من غير جسم.. حتى أن بعضهم يذكر جـواز لمس اللّـه، ومصافحته ومعانقته.. بل إن بعضـهم قـال: (معبـودي جسـم، ولـه جوارح وأعضـاء، من يـد ورجـل، ورأس، ولسـان، وعيـنين، وأذنين، ومع ذلك فهو جسم لا كالاجسام.. وليس كمثله شيء)

ابتسم ابن طـاووس، وقـال: أولئـك قـوم يـدعون بالمجسـمة..

وهم قوم دعاهم إلى ذلك أمران:

أما أحدهما، فهو أنسهم المفرط بعالم المادة والمحسوسات.. وهو أنس مصحوب بالسذاجة والجهل الذي لا يسمح لهم بتقبل شي غير المادة.. وهو أنس يؤدي الى مقايسة اللّه عز وجل بالإنسان وصفاته.

وأما ثانيهما، فما ورد في النصوص المقدسة من التعابير الكنائية والمجازية حيث لم يستطيعوا أن يرتقوا ليفهموها على ضوء لغة العرب وأساليبها في البيان.

قال التلميذ: دعنا منهم.. وحدثنا عن الأدلة التي تلزمنا بتنزيه الله عن الجسمية.

قال ابن طاووس: **سأذكر لك أربعة براهين على هذا**.. قد تكون كافية لإقناعك.

قال الرجل: فهات **أولها**.

قال ابن طاووس: الأول هو أن الجسم يقتضي التركيب ذلك أنه مكون من أبعاد ثلاثة، من العرض والطول والعمق، والمركب مفتقر في وجوده الى وجود أبعاضه، وما كان مفتقرا في وجوده فليس واجب الوجود.

قال الرجل: إن ما قام عليه هذا البرهان يحتاج إلى المزيد من التوضيح والاستدلال.. فكيف يتنافى التركيب مع وجوب الوجود؟

قال ابن طاووس: للتركيب ثلاثة أنواع كلها منتفية عن اللّه تعالى.. أولها: التركب من الأجزاء الخارجية.. والثاني: التركب من الأجزاء العقلية.. والثالث: التركب من الوجود والماهية.

قال الرجل: فما برهان استحالة تركب واجب الوجود من الأجزاء الخارجية؟

قال ابن طاووس: لذلك براهين كثيرة:

منها أن لوجود الجزء تقدما بالطبع على وجود الكل بالبداهة، فيكون مفتقرا إليه، وهو ينافي كونه واجب الوجود.

ومنها أن الكل المركب من جزئين خارجيين ذو جانبين، وجانبه هذا غير جانبه ذاك، فهو بجانبه هذا غائب ومنعدم عن جانبه الآخر، وبجانبه الآخر منعدم وغائب عن هذا الجانب.. وواجب الوجود شديد الوجود في الغاية لا طريق للنقص والقصور إليه.

ومنها أن وجود الكل في الخارج هو بعينه وجود الأجزاء، فلوفرض للواجب أجزاء خارجية:

فإما أن يكون وجود كل واحد من الأجزاء بنفسه بالفعل،

فيكون وجود الكل ووحدته اعتباريا، فليس الكل واجب الوجود.

وإما أن يكون وجود الكل بالفعل، فيكون وجود كل واحد منها بنفسه بالقوة، وهو ينافي وجوب الوجود، فليست الأجزاء واجبة الوجود، فيلزم تركب الواجب من الأجزاء غير واجبة الوجود.

قال الرجل: وعيت هذا، فما برهان استحالة تركب واجب الوجود من الوجود والماهية؟

قال ابن طاووس: واجب الوجود جلت عظمته ليس له ماهية غير وجوده..

قال الرجل: إن ما تقوله خطير..

قال ابن طاووس: اصبر علي حتى أوضح لك مرادي.. إن مرادي من قولي ذلك هو أن كل موجود ممكن الوجود يتركب من الماهية والوجود، وبعبارة أخرى: كل ممكن زوج تركيبي من الوجود والماهية.. وأما واجب الوجود فماهيته عين وجوده، وبعبارة أخرى: ماهيته إنيته، وليس له ماهية سوى وجوده.

قال الرجل: فما برهان هذا؟

قال ابن طاووس: لهذا براهين كثيرة..

منها أن الماهية لا تقتضي الوجود بذاتها.. بل وجودها في الخارج يفتقر إلى علة توجدها.. ومن البديهي أن وجود العلة غير وجود المعلول، ويتقدم عليه.. ومن هذا يعلم أن واجب الوجود وجود محض، وليس له ماهية غيره، وإن كان له ماهية كان اتصافها بالوجود مفتقرا إلى علة، وكان وجود العلة غير وجوده لا محالة، فكان ممكن الوجود، وهذا خلف.

ومنها أنه لو كان لواجب الوجود ماهية غير وجوده لحكم العقل عند تصورها بكونها في نفسها ممكنى الوجود.. لأن تلك الماهية لا تخلو من أنها: إما ممتنعة الوجود، أو واجبة الوجود، أو ممكنة الوجود.. فإن كانت ممتنعة الوجود لكان منافيا لكونها واجب الوجود لا محالة.

وان كانت واجبة الوجود يلزمها:

أولا: أن تكون ماهيته مقتضية لوجودها، فيكون وجوده معلولا، فلا يكون وجوده بنفسه واجبا، بل ممكنا.

وثانيا: أن الماهية لأجل كليتها في اللحاظ لا تأبى عن حدوث مصاديق أخرى لها وان كانت بالفعل ذات مصاديق عديدة، والحدوث ينافي وجوب الوجود.

وان كانت ماهيته ممكن الوجود في نفسها، فلا يكون بحسب

ماهيته واجب الوجود، وهذا خلف.

فيثبت بعد هذه المقدمات: أن واجب الوجود لا ماهية له، وبعبارة أخرى: ماهيته عين وجوده، ولا يقبل التحليل إلى ماهية ووجود أصلا.

وينتج ذلك أن واجب الوجود - الذي منه وجود جميع الموجودات - هو منبع الوجود والوجود البحت، وصرف الوجود والوجود المطلق.

ونعني بالوجود المطلق: هو الوجود بشرط لا، أي لا حد له، لا المطلق لا بشرط، بمعنى عدم تقيده بحد، فإنه لا ينافي اي حد من الحدود.

والوجود المطلق لا بشرط هو الوجود الصادر منه جلت عظمته، فبأي ماهية تعلق يكون محدودا بحدها، وليست الماهيات إلا حدود الوجود.

ومنها أنه لو كان لواجب الوجود ماهية لا يخلو أن تكون إما عرضا أو جوهرا، فإن الجوهر هو ماهية إذا وجد وجد في نفسه، والعرض ماهية إذا وجد وجد في غيره.

والجوهر جنس عال يفتقر تحققه في الخارج إلى تعينه في ضمن نوع من أنواعه، ويفتقر إلى فصل هو المعين لذلك النوع.

فلو كان لواجب الوجود ماهية لافتقرت إلى جزئين: ما به الاشتراك، وما به الامتياز، والافتقار ينافي وجوب الوجود.

مضافا إلى أن الجوهر ممكن الوجود، ولذلك يوجد في ضمن الوجودات الممكنة.

التفت ابن طاووس للرجل، وقال: لقد ذكر سلفنا الصالح من العلماء والأولياء هذا المعنى، فقد قال علي وهو يذكر الله:(ومن حده فقد عده).. وقال السجاد: (إن اللّه لا يوصف بمحدودية، عظم ربنا عن الصفة، فكيف يوصف بمحدودية؟)

قال الرجل: عرفت البرهان الأول.. فهات **البرهان الثاني**.

قال ابن طاووس: البرهان الثاني هو تناهي الجسم وكونه محفوفا بالإعدام من الجوانب الستة.. والواجب يمتنع تطرق العدم إليه بوجه من الوجوه.

قال الرجل: فما البرهان على ذلك؟

قال ابن طاووس: إن البراهين على هذا كثيرة:

منها: أنه لو كان الجسم غير متناهي الأبعاد، نفرض فيه نقطة خرج منها خطان حصل منهما زاوية، وامتد الخطان بامتداد

الجسم، فلو كان الجسم غير متناه امتد الخطـان إلى غـير النهايـة، ولما كان مقدار الانفـراج بين خطي الزاويـة بنسـبة مقـدار امتـداد الخطين، استلزم كون الخطين غيرمتناهيين، فيكون الانفراج بينهما أيضا غير متناه، وذلك يناقض كونه محصورا بين الخطين.

ومنها: أنه إذا فرض خط ممتد إلى غير النهاية، ونفرض هنـاك كرة في جانب الخط غير المتناهي تدور حول محور الخط المتصل بين قطبيها اللذين أحدهما فوق الخط غـير المتنـاهي والآخـر تحتـه وقبل شروعها في الدوران نفرض خطـا خارجـا من الكـرة عمـودا على خط المحور موازايا للخط غير المتناهي، يمتـد معـه إلى غـير نهاية، فإذا دارت الكرة إلى جهة الخط غير المتناهي يتقاطع الخـط الخارج من الكرة مع الخط غير المتناهي نقطة فنقطة.

فـأول نقطـة تقـاطع الخطين هي نقطـة من الخطين لا نقطـة للخطين في امتدادهما بعد تلك النقطة، وإلا لكان التقاطع فيها قبل التقاطع في تلك النقطة.

فثبت أن أول نقطة التقاطع آخر نقطة من الخطين، فالخطـان متناهيان لا محالة، وقد فرض كونهما غير متناهيين، وهذا خلف.

ومنها: برهـان التطـبيق، وهـو أنـه لـو فرضـنا سـتة خطـوط خرجت من نقطـة من داخـل الجسـم إلى الجهـات السـت ممتـدة بامتـداد الجسـم، ثم قطعنـامن كـل خـط قطعـة من جـانب تلـك النقطة.

فلو فرضنا تطبيق محل القطع من الخط على النقطة المبتـدئ منها أصل الخط قبل القطع، فإما أن يمتد إلى غير النهايـة، فيكـون الزائد مثل الناقص، وهو ممتنع، أو يقصر عنه بمقدار تلك القطعـة، فيكون متناهيا، وكذا أصل الخط لزيادته عليه بمقـدار تلـك القطعـة فقط لا اكثر، فثبت تناهي أبعاد كل جسم.

ويمكن تقرير البرهان بدون فرض التطبيق بأنه: إن كـان بـاقي الخط بعد قطع قطعة مساويا لأصل الخط قبل القطع لزم مساواة الجزء للكل، وهـو محـال، وإن كـان أقـل منـه لـزم كونـه متناهيـا، وكذلك أصل الخط، لكونه أزيد منه بمقدار تلك القطعة فقط.

قال الرجل: عرفت البرهان الثاني.. فهات **البرهان الثالث**.

قال ابن طاووس: البرهان الثـالث هـو أن كـل جسـم حـادث.. ولذلك يستحيل أن يكون واجب الوجود جسما.

قال الرجل: فما الدليل على ذلك؟

قال ابن طاووس: لذلك أدلة كثيرة..

منها أن الجسم لا ينفك عن الحركة أو السـكون بالبداهـة، فـإن الجسم إما ساكن في مكان، أو متحرك من مكان إلى مكان آخر لا محالة.

ومعنى الحركة: هو الكون في الآن الاول في مكــان، وفي الآن الثاني في مكان آخر.. ومعـنى السـكون هـو الكـون في الآن الآول في مكان والكون في الآن الثاني في ذلك المكان بعينه.

فكل جسـم قـد تشـكل من كـونين: الكـون في الآن الأول في مكان، والكون في الآن الثاني في ذلك المكان أو مكان آخر.

وهذا يؤدي إلى أن الكون في الآن الأول في مكان، والكون في الآن الثاني في ذلك المكان أو مكان آخر، وجودان متمايزان، يمكن أن يوجد أحدهما ولا يوجد الآخر.

وذلك لأن لكل جسم له وجود خـاص، وتشـخص يتمـايز بـه عن الأجسام الأخرى ويغايرها، وذلـك التشـخص هـو الكـون في زمـان خاص في مكان خاص(1).

ولما كان منبع التشخص هو الوجود وكان تشخصه بذاته، كـانت اللوازم والمشخصات كلها منبعثة من نفس وجود الجسـم، فيكـون تبدل الكون في زمان خاص في مكان خاص مستلزما لتبدل وجود ذلك الجسم.

وبما أن الكون هو الوجود، فتبدلـه هـو تبـدل الوجـود، فالجسـم لايزال يتبدل وجوده، ولـه في كـل آن وجـود غـير وجـوده في الآن السابق عليه، وغير وجوده في الآن اللاحق عليه.

فالحركـة والتبـدل إنمـا هـو في وجـوده لا في أمـر خـارج عن وجوده يكون له وجود آخـر، فالحركـة في ذاتـه وجـوهره، فثبت أن كل جسم له حركة جوهرية.

وهذا كله يؤدي إلى أن حقيقة الحركة هي الوجود والعـدم.. آنـا فنا.

فكل جسم يوجد وينعدم آنا فآنا، وكل وجود له في آن مسـبوق بعدمه وملحوق بعدمه.

نعم، لو لوحظ ماهية الجسم، فليست الحركة والسكون داخلـة في ماهيته، بل هما خارجتان عن ماهيـة الجسـم عارضـتان عليهـا، وأما وجودالجسم وكونه ليس مغايرا لوجوده وكونه في الآن الأول، بداهة أنه ليس له وجودان في آن واحـد، أحـدهما وجـوده، والثـاني

---

1) وهذا بعينه ما تنص عليه النظرية النسبية من اعتبار الزمان بعدا رابعا متمما لسـائر الأبعاد.

وجوده في ذلك الآن، بل ليس له إلا وجـود واحـد، فتبدلـه في الآن الثـاني هـو انعـدام وجـوده في الآن الأول ووجـود وجـود آخـر لـه.. وهكـذا في الآنـات المتواليـة إلى آخرهـا، وإن كـان لوجوداتـه في الآنات المتوالية صورة متصلة ويقال له جسـم واحـدباعتبارها، كمـا أن الصورة الاتصالية للحركة تقتضي إطلاق حركة واحدة عليها من أولها الى آخرها.

وهذا كله يؤدي إلى أن الجسم لا يزال حادثا يتجـدد حدوثـه في كل آن، والحادث في كل آن غير الحادث في الآن المتقدم عليه.

وبهذا كله يثبت استحالة كـون الجسـم واجب الوجـود، فـواجب الوجود تعالى ليس بجسم بالضرورة، لأنه يمتنع عليه العـدم، ومنـه وجود جميع الموجودات، وهو مكون جميع الكائنات.

قال الرجل: عرفت البرهان الثالث.. فهات **البرهان الرابع**.

قال ابن طـاووس: البرهـان **الرابع** هـو مـا ورد في النصـوص المقدسـة الكثـيرة من نفي كـل مسـتلزمات الجسـمية عن اللـه.. والـتي سـنعرف بعضـها عنـد الحـديث عن تنزيـه اللـه عن المحـل الزماني والمكاني.

قال الرجل: فما تقول فيمن وقع في التجسـيم.. هـل تكفـره.. أم تراك تكتفي بتبديعه؟

قال ابن طاووس: لا هذا، ولا ذاك.

قـال الرجـل: كيـف ذلـك، وأحسـنهم حـالا من يقـول بتبـديعك، وتبديع من يقول بقولك؟

قال ابن طاووس: أنا لا أجرؤ على تكفير مسلم أو تبديعه لـرأي رآه، أو اعتقاد اعتقده أداه إليه اجتهاده.. هكذا علمنـا نبينـا.. وهكـذا علمنا ورثته من بعده.

الزمان:

قالوا: وعينا هذا.. فحـدثنا عن السـادس.. حـدثنا عن تـنزه اللـه عن الزمان..

قـال: يكفيكم في تنزيـه اللـه عن الزمـان معـرفتكم باسـمين عظيمين من أسماء الله الحسنى.. هما (الأَوَّلُ) و(الآخِرُ)

قالوا: فما الذي يدل عليه هذان الاسمان؟

قال: كل حادث مخلوق مرتبط بالزمن.. والله وحده هو الذي لا يجري عليه الزمان.. فهو أقدس من أن يؤثر فيـه الزمـان، أو يتـأثر

بالزمان، لأنه هو خالق الزمان(1):

فهو الموجود قبل كل موجود، لأنه هو الخالق لكل موجود، قال تعالى:﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1)﴾ (الأنعام)، وقال:﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62)﴾ (الزّمر)

وهو الباقي بعد كل موجود.. فالذّوات كلّها فانية وزائلة إلاّ ذاته المقدّسة، فإنها منزّهة عن هلاك المحدثات وزوالها، قال تعالى:﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ ﴾ (القصص: 88)، وقال:﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (27)﴾ (الرّحمن)، وقال:﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾ (الفرقان: 58)

وهذا ما تنطق به أسماء الله الحسنى.. كالحيّ، والقيّوم، والآخر، والباقي، والوارث وغيرها..

المكان:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن السابع.. حدثنا عن تنزه الله عن المكان..

قال: يكفيكم في تنزيه الله عن المكان معرفتكم باسمين عظيمين من أسماء الله الحسنى.. هما (الظّاهِرُ) و(البَاطِنُ)

قالوا: فما الذي يدل عليه هذان الاسمان؟

قال(2): أعظم المخلوقات جلالة ومهابة المكان والزمان.. أما المكان فهو الفضاء الذي لا نهاية له، والخلاء الذي لا غاية له، وأما الزمان فهو الامتداد المتوهم الخارج من قعر ظلمات عالم الأزل إلى ظلمات عالم الأبد، كأنه نهر خرج من قعر جبل الأزل وامتد حتى دخل في قعر جبل الأبد فلا يعرف لانفجاره مبدأ، ولا لاستقراره منزل.

---

1) ذكر الفخر الرازي البرهان على هذا في تفسير معنى (الأول)، فقال: (وأما التقدم الزماني فباطل ، لأن الزمان أيضاً ممكن ومحدث ، أما أولاً فلما بينا أن واجب الوجود لا يكون أكثر من واحد ، وأما ثانياً فلأن أمارة الإمكان والحدوث فيه أظهر كما في غيره لأن جميع أجزائه متعاقبة ، وكل ما وجد بعد العدم وعدم بعد الوجود فلا شك أنه ممكن المحدث ، وإذا كان جميع أجزاء الزمان ممكناً ومحدثاً والكل متقوم بالأجزاء فالمفتقر إلى الممكن المحدث أولى بالإمكان والحدوث ، فإذن الزمان بمجموعه وبأجزائه ممكن ومحدث ، فتقدم موجده عليه لا يكون بالزمان ، لأن المتقدم على جميع الأزمنة لا يكون بالزمان ، وإلا فيلزم في ذلك الزمان أن يكون داخلاً في مجموع الأزمنة لأنه زمان ، وأن يكون خارجاً عنها لأنه ظرفها ، والظرف مغاير للمظروف لا محال ، لكن كون الشيء الواحد داخلاً في شيء وخارجاً عنه محال ، وأما ثالثاً فلأن الزمان ماهيته تقتضي السيلان والتجدد ، وذلك يقتضي المسبوقية بالغير والأزل ينافي المسبوقية بالغير ، فالجمع بينهما محال ، فثبت أن تقدم الصانع على كل ما عداه ليس بالزمان ألبتة)

والعلم الحديث يؤكد هذا، فهو يذهب إلى أن الزمان كالمكان كلاهما حادث.

2) هذا الكلام المهم للفخر الرازي في التفسير الكبير.

فالأول والآخر صفة الزمان.. والظاهر والباطن صـفة المكـان.. والحق سبحانه وسـع المكـان ظـاهراً وباطنـاً.. ووسـع الزمـان أولاً وآخراً.. وإذا كان مدبر المكان والزمان هو الحق تعالى كـان منزهـاً عن المكان والزمان.

قالوا: زدنا إيضاحا.

قال: اقرأوا هـذه الآيـات بعين البصـيرة لتعلمـوا أن اللـه خـالق المكان أعظم من أن ينسب إلى مكان.

قال ذلك، ثم راح يرتل بخشوع هـذه الآيـات..:﴿ هُـوَ الَّذِي خَلَـقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا يَعْـرُجُ فِيهَـا وَهُـوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الحديد:4).. ﴿ مَا يَكُـونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُـهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (المجادلة:7).. ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة:40).. ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (طه:46).. ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِـنُونَ ﴾ (النحـل:128).. ﴿ وَاصْـبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّـابِرِينَ ﴾ (الأنفـال:46).. ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَـةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِـيرَةً بِـإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَـعَ الصَّـابِرِينَ ﴾ (البقـرة:249).. ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْـرِبُ فَأَيْنَمَـا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْـهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِـعٌ عَلِيمٌ (115)﴾ (البقرة)

قال بعض الحاضرين: فما البرهان العقلي على تنزيـه اللـه عن المكان؟

قال ابن طاووس(1): لقد ثبت في العلوم العقلية بأدلة كثـيرة – لس هذا موضع ذكرها - أن المكان إما السطح الباطن من الجسـم الحـاوي، وإمـا البعـد المجـرد والفضـاء الممتـد، وليس يعقـل في المكان قسم ثالث.

بناء على هذا، فقد ثبت أن أجسام العالم متناهية، فخارج العالم الجسـماني لا خلاء ولا ملاء، ولا مكـان ولا جهـة، فيمتنـع أن يحصـل الإله في مكان خارج العالم.

وإن كان المكان هو الثـاني، فـإن طبيعـة البعـد طبيعـة واحـدة متشابهة في تمام الماهية، فلو حصـل الإلـه في حـيز لكـان ممكن الحصول في سائر الأحياز.. وحينئذ يصح عليـه الحركـة والسـكون.. وكل ما كان كذلك كـان محـدثاً بالـدلائل المشـهورة المـذكورة في

1) هذه البراهين ذكرها الرازي في تفسيره.

علم الأصول.. وهي مقبولة عند جمهور المتكلمين.. فيلزم كون الإله محدثاً، وهو محال.

فثبت بهذا أن القول بأنه تعالى حاصل في الحيز والجهة قول باطل على كل الاعتبارات.

قال بعض الحاضرين: فما تقول في قوله تعالى:﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5)﴾ (طه)؟

قال ابن طاووس: أقول فيها ما قالت العرب، فالقرآن نزل:﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195)﴾ (الشعراء)

قال الرجل: فما قالت العرب؟

قال ابن طاووس: لقد قال شاعرهم:

اذا ما بنو مروان ثلت عروشهم وأودت كما أودت إياد وحمير.

يريد: إذ ما بنو مروان هلك ملكهم وبادوا.

وقال آخر:

أظننت عرشك لا يزول ولا يغير

يعني: أظننت ملكك لا يزول ولا يغير.

فعرش اللّه تعالى هو ملكه.. واستواؤه على العرش هو استيلائه على الملك.. والعرب تصف الاستيلاء بالاستواء، كما قال شاعرهم:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

يريد به: قد استولى على العراق.

لقد قال شيخنا الطبرسي في تفسيره لذلك:(يعني استقر ملكه واستقام، وإنما أخرج هذا على المتعارف من كلام العرب، كقولهم: استوى الملك على عرشه: اذا انتظمت أمور مملكته، وإذا اختل أمر ملكه قالوا: ثل عرشه، ولعل ذلك الملك لا يكون له سرير، ولا يجلس على سرير أبدا)(1)

قال الرجل: فلم لا تقول بظاهر النص كما يقول به بعض أهل هذه الحلقات التي تحيط بنا؟

قال ابن طاووس: لأن ذلك يؤدي إلى محالات كثيرة.. أشار إليها العقل والنقل..

قال الرجل: أنا لا أريد إلا النقل.. فالعقل معقول دون معرفة حقيقة ربه.

---

1) مجمع البيان.

قال ابن طاووس: لقد قال تعالى:﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثمانية ﴾ (الحاقة: 17) فلو كان إله العالم في العرش، لكان حامل العرش حاملاً للإله، فوجب أن يكون الإله محمولاً حاملاً، ومحفوظاً حافظاً، وذلك لا يقوله عاقل.

وقال تعالى:﴿ والله الغنى ﴾ (محمد: 38) فحكم بكونه غنياً على الإطلاق، وذلك يوجب كونه تعالى غنياً عن المكان والجهة.

وعندما طلب فرعون حقيقة الإله من موسى عليه السلام لم يزد موسى عليه السلام على ذكر صفة الخلاقية ثلاث مرات، فإنه لما قال:﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ (الشعراء: 23) ففي المرة الأولى قال:﴿ رَبِّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ (الدخان: 7)، وفي الثانية قال ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءابَآئِكُمُ الأولين ﴾ (الشعراء: 26)، وفي المرة الثالثة:﴿ قَالَ رَبُّ المشرق والمغرب وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الشعراء: 28) وكل ذلك إشارة إلى الخلاقية.. وأما فرعون فإنه قال:﴿ يا هامان ابن لِى صَرْحاً لَّعَلِّى أَبْلُغُ الأسباب أسباب السموات فَأَطَّلِعَ إلى إله موسى ﴾ (غافر: 36ـ 37)، فطلب الإله في السماء، فعلمنا أن وصف الإله بالخلاقية، وعدم وصفه بالمكان والجهة دين موسى، وسائر جميع الأنبياء، وجميع وصفه تعالى بكونه في السماء دين فرعون وإخوانه من الكفرة.

قال آخر: فما تقول في النصوص التي توهم المكان؟

قال ابن طاووس: أفهمها على ضوء النصوص التي لا توهم المكان.. فالمحكم يحمل على المتشابه.

قال الرجل: ألست تفر بذلك إلى التأويل؟

قال ابن طاووس: ما دامت العرب وجميع الأجناس تقصد في كلامها الظاهر والمؤول.. فلا حرج في أن ينزل القرآن بجميع ذلك.. ففيه الظاهر المحكم، وفيه المؤول المتشابه الذي اختص الراسخون في العلم بعلمه.

قال الرجل: ولكنهم يذكرون أن التأويل تعطيل.

ابتسم ابن طاووس، وقال: فقد رموا أنفسهم بالتعطيل إذن؟

قال الرجل: كيف تقول ذلك؟

قال ابن طاووس: فما يقولون في قوله تعالى:﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7)﴾ (المجادلة)

قال الرجل: يقولون: هو معهم بعلمه.

قال ابن طاووس: أرأيت إن قلت لك: كنت مع فلان البارحة.. فما تفهم منها؟

قال الرجل: أفهم منها أنك كنت عنده.

قال ابن طاووس: بذاتي أم بعلمي؟

قال الرجل: بذاتك.. هذا هو ظاهر اللفظ.

قال ابن طاووس: فهم قد تركوا ظاهر اللفظ إذن..

قال الرجل: ذلك صحيح.

قال ابن طاووس: وهذا هو التأويل.. ويستحيل عليهم أن لا يقعوا فيه..

قال الرجل: ولكنهم غلبوا بذلك نصوصا أخرى.

قال ابن طاووس: هم بين أمرين.. بين أن يغلبوا التنزيه الذي دلت عليه النصوص، ودل عليه معها العقل.. وبين أن يغلبوا نصوصا موهمة يوجهونها كما يشاءون، ويؤولون غيرها كما يشاءون.

قال الرجل: ولكنهم يروون عن بعض السلف أقوالا تؤيد أقوالهم.

قال ابن طاووس: أعظم السلف وأشرفهم آل بيت رسول الله ﷺ.. وكلهم يقول بما أقول..

قال الرجل: فهل تروي لنا من ذلك شيئا؟

قال ابن طاووس: لقد حدث إبراهيم بن أبي محمود قال: قلت للرضا: يابن رسول الله ما تقول في الحديث الذي يرويه الناس عن رسول الله ﷺ أنّه قال: (إنّ الله تبارك وتعالى ينزل كلّ ليلة إلى السماء الدنيا)، فقال: لعن الله المحرّفين للكلم عن مواضعه، والله ما قال رسول الله ﷺ كذلك، إنّما قال ﷺ: (إنّ الله تبارك وتعالى يُنزل ملكاً إلى السماء الدنيا كلّ ليلة في الثلث الأخير، وليلة الجمعة في أوّل الليل فيأمره فينادي: هل من سائل فأُعطيه؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ ياطالب الخير أقبل، ياطالب الشرّ أقصر ; فلا يزال ينادي بهذا إلى أن يطلع الفجر، فإذا طلع الفجر عاد إلى محلّه من ملكوت السماء) حدّثني بذلك أبي، عن جدّي، عن آبائه، عن رسول الله ﷺ)[1]

وحدث ثابت بن دينار قال: سألت زين العابدين عن الله جلّ جلاله هل يوصف بمكان؟ فقال: تعالى الله عن ذلك.. قلت: فلِمَ أسرى نبيّه محمّد ﷺ إلى السماء؟ قال: ليريه ملكوت السماء وما

1) انظر: بحار الأنوار: (ج3 ص314 ب14 ح7)

فيها من عجائب صنعه وبدائع خلقه.. قلت: فقول الله عزّوجلّ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9)﴾ (النجم)، قال: ذاك رسول الله ﷺ دنا من حجب النور، فرأى ملكوت السماوات، ثمّ تدلّى ﷺ فنظر من تحته إلى ملكوت الأرض حتّى ظنّ أنّه في القرب من الأرض كقاب قوسين أو أدنى.

وحدث يونس بن عبدالرحمن قال: قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر: لأي علّة عرج الله بنبيّه ﷺ إلى السماء، ومنها إلى سدرة المنتهى، ومنها إلى حجب النور، وخاطبه وناجاه هناك والله لا يوصف بمكان؟ فقال: (إنّ الله لا يوصف بمكان، ولا يجري عليه زمان، لكنّه عزّوجلّ أراد أن يشرّف به ملائكته وسكّان سماواته ويكرمهم بمشاهدته، ويريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه، وليس ذلك على ما يقوله المشبهون، سبحان الله وتعالى عمّا يصفون)

***

كان إلى جنب حلقة (ابن طاووس) حلقة لفتت انتباهي، فقد كان الأصوات ترتفع فيها بقوة، وكأنها تريد أن تزاحم بها صوت (ابن طاووس) وتلاميذه.

لست أدري كيف تخلصت من ذلك اللجام الذي كان يلجم لساني الحديث، فقلت لابن طاووس: من هؤلاء؟.. ومن هو زعيم حلقتهم؟.. ولم يرفعون أصواتهم هكذا؟

ابتسم ابن طاووس، وقال: هؤلاء إخوان لنا فيهم العلماء.. وفيهم طلبة العلم.. وقد اعتزلوا حلقتنا لخلافهم معنا في بعض ما ذهبنا إليه من العلم..

قلت: فما هي الآراء التي خالفوكم فيها؟.. وما أدلتهم على ذلك؟

قال: لا يحسن أن يحدث عن المرء إلا لسانه.. فاذهب إليهم واسألهم.

قلت: ألا تعتبرني معتزليا(1) بذلك؟

قال: لا.. كلنا مسلمون.. نحن وهم.. نحن اختلفنا في بعض المسائل.. ولنا من الأدلة ما نرى أنه قطعي.. ونحن نستند إليه.. ولهم كذلك من الأدلة ما يرون قطعية.. ومن الحرج العظيم أن نلزمهم بما نراه من آراء.

---

1) لا نريد بالمعتزلي هنا الفرقة المعروفة.. إنما ذكرنا هذا هنا من باب السخرية من القضايا التي فرقت الأمة مع كونها لا تستحق كل ذلك العناء.

قلت: ألست تبدعهم؟

قال: أنا مبلغ عن الله.. وداعية إلى اللـه.. لا قـاض.. ولا ديـان.. الله تعالى هو القاضي، وهو الديان الذي يحكم بيننـا كمـا يحكم بين الخلائق جميعا فيما اختلفوا فيه.

قال ذلك، ثم أشار إلي أن أجلس إلى حلقتهم..

وقد فعلت.. ولكني لا أريـد أن أبث إليكم الآن مـا سـمعته فيهـا لأني لا أرى أنها تنسجم مع عقولكم(1)..

2 ـ قداسة الأفعال الإلهية

قلنـا: لقـد عرفنـا المـدى الـذي وصـل إليـه المسـلمون في تقديسهم لذات ربهم.. فحدثنا عن موقفهم من تقديس أفعاله.

قال: في سوق من أسواق قم.. رأيت رجلا يلتف الناس حولـه، وقد سمعتهم يطلقون عليه لقب (مؤمن الطاق)(2)، فهرعت معهم إليه، لأسمع ما يقول.

وقد كان من حسـن حظي أن سـائلا سـأل مـؤمن الطـاق عن الموضوع الذي كنت أبحث عنه، فقد قال له: يا مولانـا.. نـرى بعض

---

1) أشير هنا إلى مدرسة أهل الحديث والتي قعد قواعدها ابن تيميـة وغـيره، قـد كنت ذكرت تفاصيل آرائها في الطبعة السابقة، لكني عـدلت عن ذكرهـا هنـا، لأنـا شـرطنا في هذه السلسـلة الجديـدة ألا نـذكر إلا مـا يتوافـق فيـه المنقـول مـع المعقـول، وآراء أهـل الحديث في هذه المسألة تصطدم مع كليهما.

2) أشير به إلى أبي جعفر الاَحول، الصيرفي، الكوفي، وهو حمـد بن علي بن النعمـان بن أبي طريفـة البجلي بـالولاء (ت 160 هــ)، المتكلّم المنـاظر الفقيـه الملقب بمـؤَمن الطاق، أو (صاحب الطاق) ، وإنّما سمّي بالطاق لأنّه كـان صـيرفياً في (طـاق المحامـل) من أسواق الكوفة.

وكان رأساً في العلم والعمل، ثقة، كبير الشأن.. صـحب الاِمـام جعفـر الصـادق، وأخـذ عنه العلوم والمعارف، وروى عنه، كما عدّ من أصحاب الاِمام موسى الكاظم.

وكان من أحذق أصحاب الصادق، ومن أحبّ الناس إليه، وقد صحّ عنه أنّه كـان يقـول: (أربعة أحبّ الناس إليّ أحياءً وأمواتاً: بُريـد بن معاويـة البجلي، وزرارة بن أعين، ومحمـد بن مسلم، وأبو جعفر الاَحول)

كان أبو جعفر كثير العلم، متفوّقـاً في معارفـه، قويـاً في حجتـه، تعـددت فيـه نـواحي العبقرية والنبوغ، فهو عالم بالفقه والكلام والحديث، ذكره ابن النديم، فقال: (كان حسـن الاعتقاد والهدي، حاذقاً في صناعة الكلام، سريع الخاطر والجواب)

وكان يتمتع بشخصية فذة، ذا فهم ثاقب وفطنة وذكاء، وكان معروفاً بعلم الكلام وقـوة الحجّة، وكثرة المناظرة وخاصة في مسألة الاِمامة، حيث كان محبّاً لاَهـل الـبيت منقطعـاً إليهم، مجاهراً ـ برغم قسوة الظروف وجور الحكام ـ في القـول بفضـلهم، وكـان يتفـوّق دائماً في مناظراته لما عُرف به من سـرعة الجـواب، وقـوة العارضـة، وقـد ذكـر لـه ابن النديم والخطيب البغدادي وغيرهما عدة مناظرات، فمن أرادها فليرجع إلى كتبهم.

وننبه إلى أن بعض خصومه نسبوا إليه جملة من الآقوال والآراء الـتي لا تليـق بعقيدتـه وشأنه كزعمهم بأنّه كان من المشبهة، وانّه كان يقول: إنّ اللّـه تعـالى إنّمـا يعلم الاَشـياء إذا قدرها، والتقدير عند الارادة، وللاِرادة فعل، إلى غير ذلك من المـزاعم الـتي هـو منهـا بريء، والتي لم تثبت.. وإنما ذكرناه هنا لأجل بيان فضله وتنزيهه مما نسب إليه.

الناس يصفون ربنا بأوصاف لا يرضونها لأنفسهم.. فما تقول في ذلك؟

قال: وما يقولون؟

قال الرجل: إنهم يصفونه بالماكر، والمستهزئ، والكائد.. ويعتبرون ذلك من أسماء الله الحسنى.. ويستدلون لذلك من القرآن الكريم بقوله تعالى:﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾(آل عمران: 54)، وقوله:﴿ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ (البقرة: 14 - 15)، وقوله:﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ (الطّارق: 15، 16)

ابتسم مؤمن الطاق، وقال: من حدثكم عن سبع(1) ينسبها لربه، فقد كذب.. فربنا أجل وأكرم من أن يتصف بها.

قالوا: فما هي؟

قال: المكر، والظلم، والبخل، والخلف، والإهمال، والعبث، والضرر.

المكر:

قال الرجل: كيف تنفي المكر عن الله، والآية صريحة في ذكره.. فالله تعالى يقول:﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (54)﴾ (آل عمران)، ويقول:﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30)﴾ (الأنفال)

قال: المكر في اللغة وفي عرف الناس يراد به أمران:

أما أحدهما، وهو المشهور المتعارف عليه بينهم، وهو ما ينفيه كل عاقل عن الله، فهو (التّبييت بشيءٍ خفِيَ يضرّ الخَصْم).. فالذي يمكر ويبيت شيئاً خفيّاً بالنسبة لعدوه ضعيف لا يملك القدرة على المواجهة، فلذلك يلجأ إلى أن يبيت من ورائه.. ولو كانت عنده قدرة على المواجهة فلن يمكر؛ لذلك لا يمارس المكر إلا الضعيف..

لأن الضعيف إن أصاب فرصة استغلها حيث يظن أنه قد لا تتاح له فرصة ثانية؛ لذلك يندفع إلى قتل خصمه. أمَّا القوي فهو يثق في نفسه وقدراته، ولذلك يعطي خصمه فرصة ثانية وثالثة، ثم يعاقب خصمه على قدر ما أساء إليه.

هذا هو المعنى الأول، وهو مستحيل على الله تعالى بدلائل

---

1) السبع هنا على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، وهو ما جرينا عليه في (رسائل السلام) من دلالة السبع على المثال لا على الحصر، بخلاف الأربع التي اعتبرناها دالة على الحصر.

النصوص المقدسة الكثيرة التي تنزهه عن الضعف والعجز.

وأما المعنى الثاني، وهو صرف الغير عمّا يقصد خيراً كان أم شرّاً.. فلا حرج في نسبة ذلك لله.. وهذا ما أرادته الآيات الكريمة..

فالله تعالى في قوله:﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (54)ـ ﴾ (آل عمران) يخبرنا أن أعداء المسيح عليه السلام الذين وضعوا الخطط الشيطانية للوقوف بوجه الدعوة التي جاء بها قد صرفوا عن غايتهم، وأن الله - لكي يحفظ حياة نبيّه ويصون الدعوة - مكَرَ أيضاً فأحبط كلّ ما مكَروه.

ومثل ذلك قوله تعالى:﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30) ﴾ (الأنفال)، فهذه الآية تصور تلك الجهود التي بذلها المشركون للصد عن دين الله، وهم غافلون على ما يدبر لهم مما لا يعلمونه، ولا يستطيعون أن يعلموه.

لقد قال سيد قطب يصور سر هذا التعبير وما يفرزه من مشاعر، فقال: (الصورة التي يرسمها قوله تعالى:﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30) ﴾ (الأنفال) صورة عميقة التأثير.. ذلك حين تتراءى للخيال ندوة قريش، وهم يتآمرون ويتذاكرون ويدبرون ويمكرون.. والله من ورائهم، محيط، يمكر بهم ويبطل كيدهم وهم لا يشعرون!

إنها صورة ساخرة، وهي في الوقت ذاته صورة مفزعة.. فأين هؤلاء البشر الضعاف المهازيل، من تلك القدرة القادرة.. قدرة الله الجبار، القاهر فوق عباده، الغالب على أمره، وهو بكل شيء محيط؟

والتعبير القرآني يرسم الصورة على طريقة القرآن الفريدة في التصوير؛ فيهز بها القلوب، ويحرك بها أعماق الشعور)[1]

سكت مؤمن الطاق قليلا، ثم قال: لقد ورد الدلالة على هذا المعنى في القرآن باسم آخر هو (الاستدراج)

قالوا: ما الاستدراج؟

قال: لاشك أنكم تعلمون أن من أراد شيئاً فأعطاه الله مراده لم يدل ذلك على كون ذلك العبد وجيهاً عند الله تعالى سواء كانت العطية على وفق العادة أو لم تكن على وفق العادة، بل قد يكون ذلك إكراماً للعبد، وقد يكون استدراجاً له، كما قال تعالى:﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: 182)

1) في ظلال القرآن.

فمعنى الاستدراج أن يعطي الله عبده كل مـا يريـده في الـدنيا بناء على رغبة العبد في ذلك، ليزداد غيـه وضـلاله وجهلـه وعنـاده، فيزداد بذلك كل يوم بعداً من الله.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الاستدراج بالمكر، قال تعـالى: ﴿ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلاَّ القوم الخاسرون ﴾ (الأعراف: 99)

وعـبر عنـه بالخـداع، فقـال:﴿ يخـادعون اللـه وَهُـوَ خَـادِعُهُمْ ﴾ (النساء: 142)، وقال:﴿ يخادعون الله والذين ءامَنُوا وَمَـا يَخْـدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ (البقرة: 9)

وعبر عنه بالإملاء، فقال:﴿ وَلاَ يَحْسَـبَنَّ الـذين كَفَـرُواْ أَنَّمَـا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرًا لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمَاً﴾ (آل عمران: 178)

فظهر بهذه الآيات أن الإيصال إلى المرادات لا يدل على كمـال الدرجات والفوز بالخيرات(1).

قام بعض الحاضرين، وقال: إنك أردت أن تزيل شبهة، فأوقعتنا في أخرى.

قال مؤمن الطاق: وما هي؟

قال: كيف يملي الله لهؤلاء، ويمكن لهم؟.. ألا تـرى أنـه تعـالى يعينهم بذلك على الشر والضلالة؟

قــال مــؤمن الطــاق: إن ذلــك يســتدعي فهم ســر الابتلاء والتكليف.. فالله تعالى شاء بحكمته أن يمتحن عباده ليمـيز الطيب منهم عن الخبيب، وأن يقيم الحجة عليهم بذلك.. وذلـك يقتضـي لا محالة إمهالهم وأعطاء الفرص المختلفة لهم.. فلا يمكن أن يتحقق الامتحان من غير هذا.

قال الرجل: ولكن كيف يكون هـذا، ونحن نـرى من الكفـار من يعيش مرغدا ويموت مترفا لا يصيبه جرائـر ذنوبـه ولا تهلكـه كـثرة معاصيه.. فهل لهذا المتمرد من الوجاهة ما جعله بمنأى من عدالـة الجزاء الإلهي؟.. وما السر في هذا التمييز الذي تحيرت له الألباب، بل صار فتنة تصد القلوب عن دين الله(2)؟

قال مؤمن الطاق: إن الجواب عن هذا الاعتراض هو أن عدالـة الله المطلقة، ورحمته التامة الشـاملة، والـتي سـبقت غضـبه تـتيح لهذا المتمرد من الفرص، وتبلغه من الحجج ما يكفي لعودتـه، فـإن استمر على بغيه أخذ أخذ عزيز مقتدر بمجرد تسليم روحه.

ولذلك علل الله تعالى عدم تعجيله بالعقوبة بمغفرتـه ورحمتـه،

---

1) انظر: التفسير الكبير للرازي.

2) انظر الجواب المفصل على هذا الإشكال في رسالة (أسرار الأقدار)

فقال تعالى:﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ (الكهف:58)

وأخبر تعالى أن كل القرى التي نزل عليها العذاب لم ينزل عليها إلا بعد الإمهال الكافي لإقامة الحجة، قال تعالى:﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (الرعد:32)، وقال تعالى:﴿ وَكَأَيِّنْ مَنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (الحج:48)

ويضرب تعالى الأمثلة على ذلك بالأمم التي أصابها العذاب، ولم يصبها إلا بعد فترة طويلة من الإمهال وإقامة الحجة، قال تعالى مسلياً نبيه ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه:﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (الحج:44)

وقد ذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه:﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: من الآية24) وبين إهلاكه أربعون سنة)

بل قد أخبر القرآن الكريم أن الله تعالى أمهل قوم نوح عليه السلام كل تلك الآماد الطويلة، وبعد تلك الفرص الكثيرة، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (العنكبوت:14)

فالإمهال إذن رحمة من الله، أو هو فرصة ممنوحة من الله للظالمين، قد يستغلونها بالرجوع إلى الله، وقد ينتكسون بأن يضاعف لهم العذاب، كما قال ﷺ:(إن اللّه ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)، ثم قرأ قوله تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود:102))[1]

والأمر الثاني أن امتحان الخلق يقتضي ستر أكثر ما يتعرض له الخلق من الجزاء، لأن تعجيل الجزاء قد يجعل الخلق جميعا في صف واحد، صف الخير أو صف الشر بحسب الجزاء، كما قال تعالى:﴿ وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (الزخرف:33) أي لولا أن يعتقد كثير من الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال لجعلنا للذين كفروا ذلك الترف الموصوف في الآية.

ولهذا ورد في النصوص الكثيرة الإخبار بأن ما أعطي الكفار من النعيم لا يدل على مرضاة الله، بل قد يدل على سخطه،، قال

1) رواه البخاري ومسلم.

تعالى مصححا فهوم الكفار الخاطئة:﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون:55 ـ56)، وقال تعالى:﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (آل عمران:178)

ولهذا ورد بعد هذه الآية الإخبار بأن هذا الابتلاء هو الذي يميز الخبيث من الطيب، ويميز بين الراغب في الله، والراغب في المتاع الأدنى، قال تعالى:﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:179)

ففي الآية الكريمة إشارة إلى أن تعجيل الجزاء قد يؤثر في الابتلاء، ولذلك قال تعالى:﴿.. وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ.. (179)﴾ (آل عمران)

ولهذا يرد في القرآن الكريم الإخبار بأن الجزاء الحقيقي هو الجزاء المعد في الآخرة، قال تعالى مخبرا عن جزاء المؤمنين:﴿ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف: من الآية35) وقد ورد هذا المعنى عقب ذكر زخارف الحياة الدنيا التي يتهافت عليها الغافلون.

وفي نفس الوقت ينهى تعالى المؤمنين من الإعجاب بما أوتي الكفار من النعيم، قال تعالى:﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (التوبة:55)

فما أمهل بهؤلاء الغافلون ليس دليلا على أي تفضيل لهم، يقول ﷺ:(لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء أبدا)(1)

فهذا الإمهال ـ إذن ـ كما ينطوي على معاني الرحمة والعدل، وينطوي على معاني الانتقام ممن لم يعرف للنعمة حقها ولا للإمهال حقه، ينطوي كذلك على سر الامتحان الذي يقتضي ستر الجزاء حتى لا يكون الناس أمة واحدة في الخير أو في الشر.

الظلم:

قالوا: وعينا هذا، فحدثنا عن الثاني.. حدثنا عن تنزه الله عن الظلم.

---

1) رواه الترمذي وغيره.

قال: لقد ورد في النصوص الكثيرة الإخبار عن تقديس الله تعالى عن الظلم، قال تعالى:﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (آل عمران:182)، وقال تعالى:﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ ﴾ (غافر: من الآية31)، وقال تعالى:﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (فصلت:46)

وقد ورد في النصوص ما يبين تنزه الله عن جميع صور الظّلم ومظاهره المختلفة ؛ كإضاعة ثواب المحسن، أو نقصه، أو مساواته بالمسيء، أو مواخذة العبد قبل قيام الحجّة عليه، أو بما لم يعمله، أو بجرم غيره، أو بزيادة على ذنبه، قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ (البقرة: 143)، وقال:﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴾ (طه: 112) ؛ والهضم الانتقاص من الحسنات.

ومن مظاهر تنزيه الله عن الظلم تنزيهه عن التّكليف بما لا يطاق، وعن المعاجلة بعقوبة العصاة، قال تعالى:﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة: 286)، وقال:﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ (النّحل: 61)، وهذا من كمال عدله، ومن كمال رفقه ولطفه أيضًا ؛ فإنّ الله لطيف، رفيق يحبّ الرّفق ؛ فلا يكلّف عباده ما لا يطيقون، أو يأخذهم بالتكاليف الشاقّة دفعةً واحدة، أو يعاجلهم بالعقوبة قبل وجود شرطها، وانتفاء مانعها ؛ ولهذا يمهلهم، ويستأني بهم، ولا يهلك على الله إلاّ هالك.

وممّا يتضمّن التّنزيه عن المعاجلة بالعقوبة مع ما ذكر من الأسماء اسم الحليم، والصّبور، والعفوّ، والغفور ؛ فإنّ الذّنوب تقتضي ترتّب آثارها من العقوبات العاجلة، ولكن حلم الله على عباده، وصبره عليهم، ومحبّته للعفو عنهم، تقتضي إمهال العصاة، وعدم معاجلتهم بالعقوبة ؛ ليتمكّنوا من الإتيان بأسباب المغفرة، فيتجاوز عن خطيئاتهم ؛ ولهذا يعافيهم، ويرزقهم، رغم جرائرهم وجرائمهم.

قال رجل من الحاضرين: فما سر تنزه الله عن الظلم؟

قال مؤمن الطاق: لأن الظالم لم يظلم إلا لكونه محفوفا بأنواع من النقص كثيرة.. فهو محفوف بالفقر.. والبخل.. والجهل.. والجور.. والضعف.

أما الله تعالى فقد تنزه عن كل ذلك[1]:

فلله تعالى كمال الغنى.. فمن أسماء الله الحسنى (الغنيّ، والواسع، والواجد).. ولذلك هو لا يحتاج لأحد من خلقه حتَّى يضيع حقّه، أو ينقصه شيئًا منه، قال تعالى:﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾(آل عمران: 108)، ثم قال بعدها:﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ (آل عمران: 109) وهو يشير بذلك إلى أنه منزه الظّلم ؛ لكمال غناه عن خلقه؛ إذ كلّ ما في السموات والأرض ملكه وفي قبضته.

وقال تعالى في آية أخرى مشيرا إلى هذا المعنى:﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴾ (النِّساء: 147)؛ أي لا منفعة له في عذابكم إن شكرتكم وآمنتم ؛ فإنّ ذلك لا يزيد في ملكه، كما إن ترك عذابكم لا ينقص من سلطانه.

ولله تعالى كمال الكرم ؛ فهو الكريم، الجواد، الوهاب، المجيد، الشّكور، فلا يضيع عنده سعي العاملين لوجهه، بل يضاعفه بكرمه وجوده أضعافًا مضاعفة، قال تعالى:﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (النِّساء: 147) ؛ أي يشكر عباده على طاعته ؛ فيتقبّل العمل القليل، ويعطي عليه الثّواب الجزيل، ويعطي بالعمل في أيّام معدودة نعمًا غير محدودة.

ولله تعالى كمال العلم؛ فاسم العليم، والخبير، والسّميع، والبصير، والحفيظ، والحسيب، ونظائرها تدلّ على كمال إحاطته تعالى بأعمال العباد علمًا وكتابةً ؛ لمجازاتهم بالعدل ؛ فكلّ عامل مرتهن بعمله ؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ، قال تعالى:﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف: 49)، وقال:﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: 215) ؛ أي مهما صار منكم من فعل معروف فإنّ الله يعلمه، وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء، فإنّه لا يظلم أحدًا مثقال ذرّة.

ولله تعالى كمال العدل ؛ فالله هو العدل، المقسط، المؤمن[2] لكمال عدله.. وهو الفتّاح ؛ أي القاضي بالحقّ ؛ فلا يجور أبدًا، ولا يضيع مثقال ذرّة من خير أو شرّ، قال تعالى:﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي

---

1) استفدنا الكثير من المعلومات الواردة هنا من كتاب (دلالة الأسماء الحسنى على التّنزيه)، إعداد: د / عيسى بن عبد الله السّعدي، كليّة التربية بالطائف / قسم الدراسات الإسلاميّة.

2) وهو في أحد التّفسيرين بمعنى الَّذي أمن عذابه من لا يستحقّه.

بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (غافر: 20)

انظروا إلى الإشارة التي تحملها فاصلة النص.. فاسم السّميع والبصير يدل بالنّص والفحوى على مناط تفرّد الربّ بالحكم بين عباده ؛ وهو كماله ونقص ما يدعى من دونه ؛ فالله هو الكامل في سمعه وبصره؛ ولهذا كان هو الحكم وحده قدرًا وشرعًا، وجزاءً.

ولله تعالى جميع الكمالات التي يفتقر إليها الظالم.. فهو العليّ، والكبير، والجميل، والحميد، ولهذا يضع الأشياء في مواضعها ؛ ولا يتصوّر أن يقع منه ظلم أَلْبَتَّة، قال تعالى:﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ (غافر: 12)

وهو الواسع الذي يوسع على عباده في أحكامه الدينية ؛ فلا يكلّفهم ما لا يطيقون، ويوسّع عليهم في أحكامه القدريّة ؛ فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويوسّع عليهم في أحكامه الجزائيّ؛ فلا يؤاخذهم بكلّ معصية، بل يتجاوز، ويعفو، ويغفر ؛ لأنّه العفوّ، والغفور، والغفّار، ولا بُدّ أن تتحقّق متعلّقات هذه الأسماء، وتظهر آثارها.. وفي الحديث قال رسول الله ﷺ:(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ)(1)

البخل:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الثالث.. حدثنا عن تنزه الله عن البخل.

قال: البخل ينافي كمال غنى الربّ وكرمه؛ ولهذا حين قال شاس بن قيس اليهودي: (إنَّ ربّك بخيل لا ينفق) أنزل الله تعالى قوله:﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (المائدة: 64) ؛ فطردهم الله من رحمته بمقالتهم المنكرة، وعاقبهم قبل ذلك بأن جعل هذا الوصف لازمًا لهم في الدّنيا ؛ فغلّت أيديهم، وكانوا أبخل النّاس وأجبنهم.

ولهذا أنكر الله مقالة اليهود، وعظّم فريتهم، وأوعدهم عليها بأعظم العقوبات ؛ فحين قال فنحاص بن عازوراء: (إنَّ الله فقير ونحن أغنياء يقترض منّا)، أنزل الله تعالى قوله:﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (البقرة: 181) ؛ فأوعدهم على هذه المقالة المنكرة، وعلى رضاهم بأفعال

1)رواه مسلم.

أسلافهم الشّنيعة ؛ وهي قتل الأنبياء تمرّدًا وعنادًا لا جهلاً وضلالاً، أوعدهم على ذلك بأعظم العقوبات ؛ وهي النيران المحرقة، الّتي تطّلع على الأفئدة ؛ جزاءً وفاقًا، وما ربّك بظلاّم للعبيد.

وأسماء الله الحسنى تبطل ظنون السوء الّتي ظنّتها يهود بربّ العالمين ؛ فإنّ من أسمائه الغنيّ، والجواد، والوهّاب، والكريم، والواجد، والمجيد، والواسع، وهي كلّها تدل على كمال غنى الربّ وجوده، قال تعالى:﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ (النّساء: 131) ؛ أي أنّ له الغنى التامّ من كلّ الوجوه ؛ لكماله، ومن سعة غناه أنّ خزائن السموات والأرض بيديه، وأنّ جوده على خلقه متواصل في جميع اللحظات.

وجود الله تعالى على خلقه نوعان:

أما أولهما، فهو الجود المطلق عن أي قيد؛ ولا يخلو عنه مخلوق من المخلوقات ؛ فإن الله وسع غناه كلّ فقر، وعمّ جوده جميع الكائنات، قال تعالى:﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (النّحل: 53)

وأما الثّاني، فهو الجود المقيّد بسؤال السّائلين ؛ فمن سأل الله بصدق، وطهارة ممّا يمنع القبول أعطاه سؤاله، وأناله مطلوبه، دون أن ينقص ذلك ممّا عنده شيئًا ؛ لكمال غناه، وسعة خزائنه.

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ:(قال اللَّهِ تَعَالَى: يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ، وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ)(1)

الخلف:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الرابع.. حدثنا عن تنزه الله عن الخلف.

قال: إخلاف الوعد والوعيد يتنافى مع كمال الله وعظمته وجلاله، ولهذا نزه الله تعالى نفسه عنه، فقال:﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ (يونس: 55)، وقال:﴿ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ (إبراهيم: 47)

قال رجل من الحاضرين: فما سر تنزه الله عن الخلف؟

قال مؤمن الطاق: لقد تنزه الله عن ذلك لما في الخلف من العبث المنافي لحكمة الإله الحقّ؛ فإنّ أصل الحقّ المطابقة والموافقة.. وبما أن أفعال الربّ مطابقة للحكمة، وأقواله مطابقة

1) رواه مسلم.

لما عليه الشّيء في نفسه ؛ لهذا كله كانت أفعالـه تعـالى وأقوالـه كلّها حقًّا، ووعـده ووعيـده كلّـه حقًّا وصـدقًا، قـال تعـالى:﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ سَـنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الأَنْهَـارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْـدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ (النّسـاء: 122)

فصدق الله يقتضي تحقّق وعده ووعيده، وعدم الخلف فيهمـا ؛ لأنّـه الإلـه الحـقّ ؛ فلا يكـون كلامـه إلاّ حقًّا ؛ أي مطابقًـا لمـا عليـه الشّيء في نفسه ؛ ولهذا سمّى نفسه بالمؤمن ؛ فإنّه في يدل في بعض معانيه على المصدّق ؛ أي المصـدّق لرسـله بمـا يظهـره لهم من آياتـه، ومصـدّق المؤمـنين مـا وعـدهم من الثّـواب، ومصـدّق الكافرين ما أوعدهم من العقاب.

ويـدل على اسـتحالة إخلافـه تعـالى لوعـده ووعيـده، أو تبديلـه لكلماته كثير من أسماء الله الحسنى:

منها (**العليم، والخبير، والشّهيد، والمهيمن، والرّقيب، والسّميع، والبصير**)؛ فإنّ هذه الأسماء تدلّ على علم الله تعالى التـامّ المحيـط بمـا دقّ أو جـلّ من أعمـال العبـاد ﴿ لِيَجْـزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ (النّجم: 31)

ومنها (**القدير، والعزيز، والقهّار، والمقيت، والمـتين**)؛ فإنها تدلّ على تفـرّد الـربّ بالقـدرة التامّـة ؛ فلا شـيء يمنعـه من إنفاذ وعده ووعيده في المحلّ الّذي تقتضيه حكمته.

ومنها (**الرّحيم، والرؤوف، والغـنيّ، والـبرّ، والشّـكور**)؛ فإنّ هذه الأسماء ونظائرها تقتضي إيصـال الثّـواب الموعـود لأهلـه وعدم إخلافه.

ومنها (**الحكيم، والحكم، والعدل، والمقسط، والفتّاح**)؛ فإنّ عدل الله وحكمته يتضـمّنان وضـع الأشـياء في مواضـعها ؛ فلا يعاقب من لا يستحقّ العقاب، ولا يخلف من يستحقّ الثّواب.

الإهمال:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الخامس.. حدثنا عن تنزه الله عن الإهمال.

قال: إهمال الله لعباده يتنافى مع كمال اللـه وعظمتـه وجلالـه، ولهذا نزه الله تعالى نفسه عنه، فقال:﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَـانُ أَنْ يُتْـرَكَ سُـدًى ﴾ (القيامـة: 36)، وقـال:﴿ أَفَحَسِـبْتُمْ أَنَّمَـا أَفَحَسِـبْتُمْ أَنَّمَـا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِـكُ الْحَـقُّ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ رَبُّ الْعَـرْشِ الْكَـرِيمِ (116)﴾ (المؤمنـون)؛ أي تـنزّه

وتقدّس عن هذا الظنّ السيء؛ لأنّه عبث وسفه ينافي حكمته.

ومثله في الدلالة قوله تعالى في تينك الآيتين الكريمتين: ﴿.. رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116)﴾ (المؤمنون)، فإنّ كونه ربًّا للعرش فما دونه يدلّ على تنزيهه عن إهمال العباد، وتركهم سدى، بلا أمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب ؛ فإنّ اسم (الربّ) إمّا أن يدلّ على صفة معنى، ويفسّر بمعنى: المالك، والسيّد، وإمّا أن يدلّ على صفة فعل، ويفسّر بمعنى: المربّي.

فإن فسّر بالمعنى الأوّل، فمن آثار الملك والسؤدد أنّ الربّ يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويتصرّف في مماليكه بأنواع التصرّفات.

وإن فسّر بالمعنى الثّاني فالمربّي هو المصلح، والمدبّر، والجابر، والقائم ؛ وهذا يتضمّن التربية العامّة والخاصّة.

قالوا: وما الفرق بينهما؟

قال مؤمن الطاق: تربية الله لخلقه نوعان: عامّة، وخاصّة..

أما العامّة، فهي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، الّتي فيها بقاؤهم في الدّنيا..

وأما الخاصّة، فتربيته لأوليائه ؛ فيربّيهم بالإيمان، ويوفّقهم له، ويكمّلهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه.

فحقيقة الرّبوبيّة تتضمّن التّنزيه عن إهمال العباد مطلقًا ؛ أي في جميع شؤون معاشهم ومعادهم.

قال بعض الحاضرين: لقد اعتدنا منك أن تذكر لنا الأسماء الحسنى الدالة على نوع التنزيه.. فما الأسماء الحسنى التي ترى أن لها علاقة بتنزيه الله عن الإهمال.

قال مؤمن الطاق: كل أسماء الله الحسنى تدل على ذلك.. وبوسعك أن تقرأها جميعا على هذا الأساس لترى مدى ارتباطها به.

قال الرجل: فهلا وضحت لنا بضرب بعض الأمثلة التقريبية.

قال مؤمن الطاق: سأضرب لك أمثلة تقريبية ببعض الأسماء التي لها صلة مباشرة بهذا المعنى:

فمن ذلك اسمه تعالى (**الحسيب**) ؛ فإنّه يفسّر بالكافي ؛ وهو بالمعنى العام الّذي يكفي العباد جميع ما يهمّهم من أمر دينهم ودنياهم، فيوصل إليهم المنافع، ويدفع عنهم المضار.. وبالمعنى الأخصّ هو الّذي يكفي من توكّل عليه كفاية خاصّة يصلح بها دينه ودنياه.

ومن ذلك اسمه تعالى (**اللّطيف**)، فقد فسّر بـ (من اجتمع له الرّفق في الفعل، والعلم بدقائق المصالح، وإيصالها إلى من قدّرها له من خلقه)، يقول الزجّاج في ذلك: (اللّطيف يفيد أنّه المحسن إلى عباده في خفاء وستر من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم أسباب معيشتهم من حيث لا يحتسبون)

ويختصّ أولياء الله بلطف خاص يتضمّن أعلى درجات الإحسان والإصلاح ؛ وهو أن ييسّرهم لليسرى، ويجنّبهم العسرى، وقد يكون ذلك بشيء من الابتلاءات والمحن.

ومن ذلك اسمه تعالى (**الجبّار**) ؛ فقد فسّر بمعنى المصلح ؛ بناءً على أنّه مشتقّ من جبر لا من أجبر؛ يقال: جبر العظم إذا صلح كسره، وجبر الله مصيبته ؛ إذا أصلح حاله، وعوّضه عمّا فاته، يقول الرّازيّ في ذلك: (الجبر أن تغني الرّجل من فقر، أو تصلح عظمه من كسر)

وعلى هذا فالجبّار الَّذي يصلح أحوال عباده ؛ فيجبر الكسير والمصاب، ويغني الفقير، ويعزّ الذّليل، وييسّر على المعسر، ويجبر قلوب الخاضعين لجلاله جبرًا خاصًّا بما يفيض عليها من معارف الإيمان وأحواله.

وهذا المعنى مستقرّ في قلوب عامّة المؤمنين ؛ ولهذا يسأل كلّ واحد منهم ربّه الجبر كلّ صلاة، وهو إنّما يريد هذا الجبر الَّذي حقيقته إصلاح العبد، ودفع المكاره عنه.

ومن ذلك اسمه تعالى (**الحفيظ**)؛ فإنّه يفسّر بمعنى الحافظ لعباده ممّا يكرهون. وحفظه لخلقه نوعان ؛ عامّ وخاصّ؛ فالعامّ حفظه لجميع المخلوقات بهدايتها لمصالحها، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (طه: 50)

والحفظ الخاصّ حفظ أوليائه في مصالح دنياهم وفي دينهم ؛ فيحفظهم حال حياتهم من الشّبهات والشّهوات، ويحفظ عليهم دينهم عند الوفاة، فيتوفّاهم على الإيمان. وهذا الحفظ متفاوت بين المؤمنين بحسب ما عند كلّ واحد منهم من محافظة على أمر الله ونهيه.

ومن ذلك اسمه تعالى (**الرزّاق**)؛ أي كثير الرّزق ؛ فهو الَّذي يوصل لجميع خلقه كلّ ما يحتاجونه في معاشهم وقيامهم، ويوصل لأوليائه رزقًا خاصًّا يتضمّن رزق القلوب بالإيمان، والأبدان بالمال الحلال.

فهذه الأسماء الحسنى جميعا وغيرها تدل على عناية الملك

الحقّ بعباده، وتربيتهم تربيةً عامّة وخاصّة، يستحيل معها إهمالهم لا في أمور معادهم، ولا في أمور معاشهم.

وهذه المعارف تثمر في القلوب الحيّة محبّة الله، والتّألـه لـه خوفًا وطمعًا ؛ وهي أعظم مقامات الإيمـان، وأصـوله الكـبرى الّتي يقوم عليها بناؤه.

العبث:

قالوا: وعينا هذا.. فحـدثنا عن السـادس.. حـدثنا عن تـنزه اللـه عن العبث.

قال: العبث يتنافى مع كمال الله وعظمتـه وجلالـه، ولهـذا نـزه الله تعالى نفسه عنـه، فقـال:﴿ ذَلِـكَ بِـأَنَّ اللَّهَ هُـوَ الْحَـقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6)﴾ (الحج)، وقال:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62)﴾ (الحج)

انظروا كيف سمى الله تعالى نفسه حقا.. ولهذا، فإنه تعـالى لا ينسب إليه إلاّ الحقّ؛ فقوله حقّ، وفعلـه حـقّ، ودينـه حـقّ، ولقـاؤه حقّ، ووعده ووعيده حقّ ؛ فكل شيء منه تعـالى مطـابق للحكمـة البالغة المنافية للسّفه، والعبث، والخلف.

يقول بعض العلماء في ذلك، وهـو الـرّاغب الأصـفهاني: (أصـل الحقّ المطابقة والموافقة، كمطابقة رِجْل الباب في حَقِّه ؛ لدورانه على استقامة، والحقّ يقال على أوجه:

الأوّل: يقال لموجِد الشّيء بسـبب مـا تقتضـيه الحكمـة؛ ولهـذا قيل في الله تعالى هو الحقّ، قال تعالى:﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ (الأنعام: 62).

الثّاني: يقال للمُوجَـد بحسـب مقتضـى الحكمـة ؛ ولهـذا يقـال: خلق الله كله حقّ، قال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ (الأنعام: 73)

الثّالث: في الاعتقاد للشّيء المطابق لما عليه ذلك الشّيء في نفسه ؛ كقولنا: اعتقـاد فلان في الجنّـة والنّـار حـقّ، قـال تعـالى:﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (البقرة: 213)

الرّابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب، وبقـدر مـا يجب، وفي الـوقت الّذي يجب ؛ كقولنـا: فعلـك حـقّ، وقولـك حـقّ، قـال تعالى:﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُـونَ ﴾ (يونس: 33) ؛ أي تحقّق قدره السّابق فيهم ؛ بمعنى وقع ووجب ؛

ولهذا يستعمل في الواجب، والثّابت، واللازم)[1]

وبناء على هذا، فإن الحقّ ــ تبارك وتعالى ــ منزّه عن العبث تنزيهًا مطلقًا ؛ لمنافاته حكمته البالغة، وحمده، وكماله..

وقد تكرر في القرآن الكريم ذكر هذا المعنى لتستقيم النفوس على معرفة ربها، ولا تظن به السوء.. قال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28)﴾(ص)؛ وذلك لأنّ هذا الظنّ ينافي أسماء الربّ تعالى؛ فالحكيم الحقّ منزّه عن أن يخلق شيئًا عبثًا أو سفهًا؛ لأنّ أفعاله حقّ ؛ أي مطابقة للحكمة، ومفعولاته حقّ ؛ أي متحقّقة وكائنة بعلم الله وحكمته ؛ ولهذا كانت مشتملةً على الحكمة، وآيلة لها.

وقال تعالى في آية أخرى:﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ (الأنعام: 73)؛ فالحق سابق لخلقها، ومقارن له، وغاية له ؛ ولهذا أتى بالباء الدالّة على هذا المعنى دون اللام المفيدة للغاية ليس غير ؛ والحقّ السّابق للخلق صدورها عن علم الله وحكمته ؛ ولهذا كانت كلّها حقًّا، أي متقنة، مطابقة للحكمة، لا نقص فيها ولا خلل.

ومثل ذلك قوله تعالى:﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (النّمل: 88)، وقوله:﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ (السّجدة: 7)، وقوله:﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ (الملك: 3)، فهذا الإحكام والإتقان هو الحقّ المقارن للمخلوقات ؛ ولهذا كانت أدلّة وبراهين على أصول الإيمان ؛ لتقود النّاس للحقّ الغائي؛ وهو معرفة الربّ وعبادته، وإنجاز وعد الله لمن أطاعه، وإنفاذ وعيده فيمن عصاه.

قال بعض الحاضرين: فما الأسماء المشيرة إلى هذه المعاني التي ذكرتها؟

قال مؤمن الطاق: كل أسماء الله تشير إلى ذلك.. كاسم **الحميد، والرّشيد، والجميل**.. فهذه الأسماء الثلاثة تدلّ على كمال ذات الربّ وصفاته ؛ وأنّ له من الأفعال أجملها، وأرشدها، وأحمدها، وهذا يحيل أن يكون في شيء من أفعال الله ــ تعالى ـ عبث أو سفه.

وكاسم **الحقّ والحكيم** ففيهما دلالة واضحة على نفي العبث

---

1) مفردات القرآن.

في الخلق، واستحالته.

الضرر:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن السابع.. حدثنا عن تـنزه اللـه عن الضرر.

قال: الإضرار بالخلق يتنافى مع كمال الله وعظمته وجلاله..

قاطعه رجل من الحاضرين، وقال: كيف تقول هـذا، ونحن نجـد من أسماء الله الحسنى اسم (الضار)؟

قال مؤمن الطاق: الضار النافع.. لا الضار وحده.

قال الرجل: وما الفرق بينهما؟

قال مؤمن الطـاق: مـا الفـرق بين الجـراح الجـارح.. والجـارح وحده؟

قال الرجل: الفرق عظيم.. فـالجراح لا يجـرح إلا لينفـع.. بينمـا الجارح وحده قد يجرح للضرر المجرد.

قال مؤمن الطاق: فهكذا هذا الاسم.. فهو اسم مقترن مقـترن بالنافع لا يجوز فصله عنه.. فقد ذكر العلماء أن الأسماء المقترنة أو المزدوجة لا يجوز أن تطلق على الربّ مفردةً ؛ لأنّها تجري مجـرى الاسم الواحد الّذي يمتنـع فصـل بعض حروفـه عن بعض ؛ فالمـانع يجب أن يقرن بـالمعطي، وهكـذا الضـارّ بالنّـافع، والمـذلّ بـالمعزّ، والمحيي بالمميت ؛ وذلـك لأنّ هـذه الأسـماء لا تـدلّ على الحسـن والعلوّ المطلق إلاّ إذا قرن كـلّ اسـم بمقابلـه ؛ وحينئـذٍ تفيـد الثّنـاء على الربّ بمعاني الرّبوبيّـة، وكمـال التصـرّف في الخلـق ؛ عطـاءً ومنعًا، ونفعًا وضرًّا، وإحياءً وإماتةً.

قال الرجل: هلا زدتنا توضيحا؟

قال مـؤمن الطـاق(1): من أسـماء اللـه تعـالى مـا يسـمى بـه مطلقـاً من غـير قيـد، وهي الأسـماء المشـتقة الدالـة على معـاني الجلال والكمال والجمال والكمال مثل: الرزاق، الخـالق، البـاريء، المصـور، العزيـز، الحكيم، الـرحمن، الـرحيم، السـميع، البصـير، القوي.. فهذه كلها أسماء تطلـق على اللـه تعـالى من غـير قيـد أو شرط.

أما النوع الثاني من الأسماء، فمايطلق على الله تعـالى مقيـدا، ومن القيود ما يسميه العلماء قيد المقابلة والجزاء، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الأنفـال: 30)، فمكر الله تعالى بهم لما مكـروا.. فلا يجـوز أن يؤخـذ منهـا أسـماء

1) انظر: شرح مقدمة القيروانى للشيخ أحمد النقيب.

مطلقة، فنقول: إن من أسماء اللـه تعـالى المـاكر أو المكَّار.. هـذا ليس من أسماء الله تعالى ولا يجوز أن نسمي اللـه تعـالى بشـيء من ذلك.

و كذلك الأسماء التي قد يتوهم فيها أو منها العجـز أو النقص أو العيب فالله تعالى منزه عنها.. انظـر في قـول اللـه تعـالى:﴿ وَإِن يُّرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِن قَبْلُ فَـأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾(الأنفـال:71)، فلَم يقل الله تعالى:(وإن يريدوا خيانتـك فقـد خـانوا اللـه من قبـل فخانهم الله)، لم يقل هذا، لأن الخيانـة خدعـة في مقـام الائتمـان، والخيانة من صفات المنافقين والله تعـالى يتـنزه أن يصـف نفسـه بصفة من صفات المنافقين، ولا يسمي نفسه أبداً باسم من أسماء المنافقين.

قال رجل من الحاضـرين: لا بـأس.. ولكن مـا تقـول في اسـم (المنتقم).. فنحن نجده في تعداد أسماء الله الحسنى؟

قال مؤمن الطاق: لا.. لم يصح اعتبار هذا اسما.. فلا تسم اللـه بما لم يسم به نفسه.

قال الرجل: وما تقول في الرواية الواردة به؟

قال مؤمن الطاق: لا شـك أنكم تعلمـون أنّ الروايـة الـتي ورد فيها ذكر أسماء الله الحسنى من إدراج بعض الـرواة، وليسـت من كلام النَّبيّ ﷺ.. لقـد قـال الصـنعاني في ذلـك: (اتّفـق الحفّـاظ من أئمة الحديث أن سـردها إدراج من بعض الـرواة)، وقـال ابن تَيْمِيَّة: (اسم المنتقم ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النَّبيّ ﷺ)

قال الرجل: ولكن الله تعالى قال:﴿ فَانْتَقَمْنَـا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُـوا ﴾ (الـرّوم: 47)، وقـال:﴿ فَلَمَّا ءَاسَـفُونَا انْتَقَمْنَـا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الزّخرف: 55)

قال مؤمن الطاق: الانتقام هنا بمعنى العقاب.. وقد قيـده اللـه بهؤلاء المجرمين.. فلا يصح اعتباره اسما لأجل هذا.

قال رجل من الحاضرين: فما تقول في خلق الله للشر؟

قال مؤمن الطاق: المؤمن يتـأدب مـع اللـه تعـالى، فلا ينسـب إليه الشر بحال من الأحوال.. فليس من الله إلا الخير، وقد قال ﷺ :(لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِى يديك، والشر ليس إليك)(1)

فهذا النفي يقتضى امتناع إضافة الشر إليه تعـالى.. فلا يضـاف إلى ذاته ولا أسمائه ولا أفعاله، فإن ذاته تعالى منزهة عن كل شر، وأسماؤه كلها حسـنى ليس فيهـا اسـم ذم ولا عيب، وأفعالـه كلهـا

1) رواه أحمد ومسلم.

حكمة ورحمة ومصلحة وإحسان وعدل لا تخرج عن ذلك أبدا، وهو المحمود على ذلك كله فيستحيل إضافة الشر إليه (1).

ولهذا ينزه الله تعالى في الأسلوب القرآني من نسبة الشر إليه، فالطريقة المعهودة في القرآن الكريم هي نسبة أفعال الإحسان والرحمة والجود إلى الله تعالى فيذكر فاعلها منسوبة إليه، ولا يبني الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف وبني الفعل معها للمفعول، والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن الكريم:

ومنها قولهِ تعالى:﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة:7)، فإنه تعالى ذكر النعمة فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل، وبنى الفعل للمفعول، فقال:﴿ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾، وقال في الإحسان:﴿ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾

ومنها قول إبراهيم الخليل ﴿:عليه السلام الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء:78 ــ80)، فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقي إلى الله تعالى، ولما جاء إلى ذكر المرض نسبه إلى نفسه، ولم يقل: (أمرضني) وقال:﴿ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾

ومنه قول الخضر عليه السلام في السفينة:﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ (الكهف:79)، فأضاف العيب إلى نفسه، وقال في الغلامين:﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ (الكهف: من الآية82) فأضاف الإرادة إلى الله.

ولهذا ليس من أسماء الله الحسنى أي اسم يتضمن الشر، وإنما يذكر الشر فى مفعولاته كقوله تعالى:﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الحجر:49)، وقال بعدها:﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (الحجر:50)، ومثل ذلك قوله تعالى:﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (المائدة:98)

ولذلك نفى المحققون من العلماء – كما ذكرنا - صحة تسمية الله تعالى باسم (المنتقم)، فهو ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبى ﷺ، وإنما جاء في القرآن مقيدا، كقوله تعالى:﴿ إِنَّا

1) انظر: طريق الهجرتين:166.

مِنَ الْمُجْـرِمِينَ مُنْتَقِمُـونَ﴾ (السـجدة: من الآية22)، وقولـه:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَـامٍ﴾ (آل عمران: من الآية4)

أما الحديث الذي في عدد الأسـماء اللحسـنى الـذى يـذكر فيـه المنتقم – إن صح- فقد ذكر في سياقه البر التواب المنتقم العفــو الرؤوف، زيادة على أن الصحيح أنه ليس من كلام النبى ﷺ.

قال الرجل: لا بأس.. سلمت لك بهذا.. ولكن مـع ذلـك بمـا أن الضرر والشـر موجـودان.. فلا بـد لهمـا من موجـد.. وبمـا أن اللـه موجد كل شيء.. فالله هو موجدهما(1).

قال مؤمن الطاق: إن الشر المحض يسـتحيل وجـوده في هـذا الكون.. لأن كل ما نتوهمـه أو نـراه شـرا قـد يكـون خـيرا متلبسـا بصورة شر، أو شرا انحرف عن مساره مع بقاء أصل الخيرية فيه.

ولهذا خلق الله تعالى ما نراه من الدواب الشـريرة، أوالأفعـال التي هي شر لما يترتب على خلقها من الخير المحبوب، فلم يخلق لمجرد الشر الذي لا يستلزم خيرا بوجه ما.

فالخير هو المقصود من الخلق، والشر إنما قصد قصد الوسائل والمبادئ لا قصد الغايات والنهايات، فإذا حصلت الغايـة المقصـودة بخلقه بطل وزال، كما تبطل الوسائل عند الانتهاء إلى غاياتهـا كمـا هو معلوم بالحس والعقل.

قال الرجل: فما تقول في تعذيب الله للمجـرمين والظـالمين.. أليس في ذلك ضرر بهم؟

قـال مـؤمن الطـاق: لا.. يسـتحيل على اللـه أن يريـد الضـرر بعباده..

قال الرجل: ولكن النصوص كلها تخبر بذلك.

قال مؤمن الطاق: صدق ربنا ونبينا..

قال الرجل: فكيف توفق بين ما ذكـرت ومـا ذكـرت النصـوص المقدسة؟

قال مؤمن الطاق: لقـد ذكـرت النصـوص المقدسـة السـر من وراء ذلك العذاب الذي يصيب المجـرمين.. لقـد ورد فيهـا مـا يـدل على تأثير البلاء في تطهـير الفطـرة وتقويمهـا، كمـا قـال تعـالى:﴿ وَلَنُـذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَـذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَـذَابِ الْأَكْبَـرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُـونَ﴾ (السجدة:21)، فأخبر تعالى أنه يعذبهم رحمة بهم ليردهم العــذاب إليه كما يعذب الأب الشفيق ولده إذا فر منه إلى عدوه لـيرجع إلى

1) ذكرنا الردود على هذا النوع من الإشكالات بتفصيل في (أسرار الأقدار)

بره وكرامته.

وبين الله تعالى سنته في ذلك بقوله تعالى:﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾ (النساء:147)

وهذه الآية ـ التي جمعت قانون الله في الثواب والعقاب ـ دليل على أن الحكمة تقتضي كون العذاب مصلحة مؤقتة تقتضيها الرحمة المقترنة بالحكمة.

لقد قال سيد قطب معلقا على هذا مبينا جمال هذه السنة مقارنة بما تحفل به الديانات الأخرى من وثنية:(وأخيرا تجيء تلك اللمسة العجيبة، الموحية المؤثرة العميقة.. أخيرا بعد ذكر العقاب المفزع، والأجر العظيم.. لتشعر قلوب البشر أن الله في غنى عن عذاب العباد.. فما به - سبحانه - من نقمة ذاتية عليهم يصب عليهم من أجلها العذاب. وما به - سبحانه - من حاجة لإظهار سلطانه وقوته عن هذا الطريق. وما به - سبحانه - من رغبة ذاتية في عذاب الناس كما تحفل أساطير الوثنية كلها بمثل هذه التصورات.. وإنما هو صلاح العباد بالإيمان والشكر لله.. مع تحبيبهم في الإيمان والشكر لله.. وهو الذي يشكر صالح العمل ويعلم خبايا النفوس)[1]

ومن النصوص الدالة على هذا المعنى كذلك قوله تعالى:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يُغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة: من الآية120)، فقد أخبر تعالى أن يكتب لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً.

ومنها قوله تعالى:﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران:141)، فأخبر تعالى أن ألم القتل والجراح في سبيله تمحيص وتطهير وتصفية للمؤمنين.

وبنص على هذا المعنى قوله تعالى:﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (30)﴾ (الشورى)، وفي هذا تبشير وتحذير، تبشير بالتطهير من الذنوب بالمصائب، وتحذير بالمصائب من المعاصي، فالعدل يقتضي الجزاء، والرحمة تقتضي التطهير.

قال الرجل: فلماذا لا يغفر الله للعاصين مباشرة، ويدخلون الجنة من غير مقاساة للعذاب، فتغلب الرحمة الغضب؟

---

1) في ظلال القرآن: 2/786.

قال مؤمن الطاق: إن العدل الإلهي يقتضي المجـازاة، كمـا أن الرحمة الإلهية تقتضي الإحسـان، فكـان الجمـع بينهمـا، هـو إصـلاح هذه النفوس لتصلح بعدها للرحمة الإلهية.

***

التفت إلينا صاحبنا (فريدريك ماكس مولر)، وقال: هـذا حـديثي في تلـك البلـدة المعطـرة بعطـر الإيمـان.. ومـع أولئـك العلمـاء والصالحين.. لقد عشـت في صـحبتهم أيامـا جميلـة.. لكن كلاليب الدنيا سرعان ما جذبتني، فنسيت تلك الأيـام.. ونسـيت معهـا تلـك المعاني..

لقد بعتها جميعا بثمن بخس حقير..

ولكن الله الرحمن الرحيم تداركني بلطفه، فأعـاد إلى ذاكـرتي الساعة تلك الأيام الجميلة التي نعمت فيها بتلك الصحبة الشريفة..

رابعا ـ الحميد

في اليوم التـالي اسـتيقظنا على أصـوات صـياح شـديد ممتلئ بالسرور والنشوة، وهو يقول: هلمـوا يـا من انقطعت بكم السـبل، وتهتم في البحث عن الحقيقـة.. فأرسـطو يريـد أن يحـدثكم عن الحقيقـة.. أرسـطو يريـد أن يحـدثكم عن ربكم، فقومـوا إليـه، فعساكم تخرجون بحديثه من الهـوة السـحيقة الـتي أوقعتكم فيهـا أهواؤكم.

أسرعت كما أسـرع الجمـع إلى مصـدر الصـوت، فوجـدنا رجلا منا، كنت أراه كثـير الهيـام بالجـدل العقلي، فقـد كـان لا يفـتر عن الحديث مع كـل من رآه.. وكـان مغرمـا بالتقسـيمات والتصـنيفات حـتى كـان كمـا يقـال: يقسـم الشـعرة بجدلـه، ويقطـع الحديـد بتحليلاته..

وقد كنت أحسبه لذلك أبعد النـاس عن ربـه، وعن البحث عنـه، فقد كان كثير الاشتغال بالتصنيف.. بتصنيف كل ما يـراه وتحديـده، والبحث عن ماهيته حتى أنه في تلك الفـترة القصـيرة الـتي مكثنـا فيها في ذلـك المحـل رأيتـه قـد جمـع أصـنافا كثـيرة من الحجـارة والتربة والقواقع.. بل وأوراق الأشجار.. ثم رأيته يصـنفها تصـنيفات بديعة مشتغلا بها عن كل شيء.

هذا ما عرفته عنه.. ولهـذا كـان عجـبي شـديدا عنـدما سـمعته يصيح بصياحه ذلك..

قـال لـه رجـل منـا، بعـد أن اجتمـع كـل الجمـع إليـه: أين هـو أرسطو؟.. ومتى قدم إلينا؟.. وكيف قدم؟

ابتسم صاحبنا، وقال: هو أمامكم.. أنا هو أرسطو(1)..

قال الرجل: لقد احتلت علينا.. لقد تصـورنا أن أرسـطو بذكائـه وعقله وحكمته قد قدم إلينا من زمنه الغابر ليعرفنا بالحقيقـة الـتي تهنا في البحث عنها.. فلا يصلح في هذا المحل أحد مثل أرسطو.

ابتسم أرسطو، وقال: فأنا أرسطو.. إن لم أكنه بلحمه وشحمه

---

1) أشير به إلى (أَرسْطو) (384 ـ 322ق.م) كان من أعظم فلاسفة عصره وأكثرهم علما ومعرفة ويقدر ما اصدر من كتابات بـ 400 مؤلـف مـا بين كتـاب وفصـول صـغيرة.. وتنقسم مؤلفاته إلى ثلاث مجموعات: 1- المؤلفات الشعبية، وقد كـانت لعامـة الجمهـور خارج مدرسته.. 2- المـذكرات، وهي تصـنيفات من مـواد البحـوث والسـجلات التاريخيـة أعدَّها بمساعدة تلاميذه؛ لتكون مصدرًا للمعلومات التي يحتاجها العلماء الدارسـون.. 3- المقالات.. وهي تمثل تقريبًا كلَّ مؤلفات أرسـطو الـتي سَـلمت من الضـياع وبقيت حـتى الآن.. وقد كانت المقالات مؤلفةً للطلاب داخل المدرسة فقط.

وعظمه.. فأنا هو بعلمه وعقله وحكمته.. لقد سماني والدي أفلاطون يوم ولدت أرسطو.. كما سماه جده سقراط أفلاطون..

نحن عائلة لا تهمها إلا الفلسفة.. لقد كنا نرى أن العقل هو الأداة الوحيدة التي يتميز بها الإنسان عن غيره من الأشياء، فلذلك نذرنا نفوسنا له.. فكانت مجالسنا كلها مجالس بحث ونظر وتحقيق وتدقيق.. ولم نكن نتمتع بشيء كما نتمتع برؤية الحقائق أو البحث عنها.

وقد كان من الحقائق التي شغلتنا فترة من حياتنا الحقائق المرتبطة بالألوهية..

وقد بدأت فيها كما بدأ أرسطو.. لقد توصلت بعقلي إلى نفس ما وصل إليه سميي أرسطو.. فقد كنت أعتقد أن الله واجب الوجود كائن أزلي، مطلق الكمال، لا أول له ولا آخر، ولا عمل له ولا إرادة.. منذ كان العمل طلبا لشيء، والله غني عن كل طلب، وبما أن الإرادة اختيار بين أمرين، والله قد اجتمع عنده الأصلح الأفضل من كل كمال، فلا حاجة به إلى الاختيار بين صالح وغير صالح، ولا بين فاضل ومفضول.

وكنت أعتقد أنه ليس مما يناسب الإله أن يبتدئ العمل في زمان؛ لأنه أبدي سرمدي لا يطرأ عليه طارئ يدعوه إلى العمل، ولا يستجد عليه من جديد في وجوده المطلق بلا أول ولا آخر، ولا جديد ولا قديم، وكل ما يناسب كماله فهو السعادة بنعمة بقائه التي لا بغية وراءها ولا نعمة فوقها ولا دونها، ولا تخرج من نطاقها عناية تعنيه.

ولهذا كنت أعتقد أن الإله الكامل المطلق الكمال: لا يعنيه أن يخلق العالم، أو يخلق مادته الأولى، وهي الهيولي ولكن لهذه الهيولي قابلية للوجود، يخرجها من القوة إلى الفعل شوقها إلى الوجود الذي يفيض عليها من قبل الإله، فيدفعها هذا الشوق إلى الوجود، ثم يدفعها من النقص إلى الكمال المستطاع في حدودها، فتتحرك وتعمل بما فيها من الشوق والقابلية ولا يقال عنها: إنها من خلقة الله إلا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار.

ولهذا، فقد كنت أعتقد أن الله يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها، ويتنزه عن الإرادة لأن الإرادة طلب في رأيه، والله كمال لا يطلب شيئا غير ذاته، ويجل عن علم الكليات والجزئيات، لأنه يحسبها من علم العقول البشرية، ولا يعني بالخلق رحمة ولا قسوة.. لأن الخلق أحرى أن يطلب الكمال بالسعي إليه.

قلنا: فهذه هي العقيدة التي تريد أن تلقننا إياها؟

قال: لا.. لا.. لقد ذكرت لكم أن هذه هي بدايـة حيـاتي.. أو هي بداية مراحل تفكيري.

قلنا: ولكن هذه هي نهاية أفكار أرسطو.. ألم تكتـف بمـا انتهى إليه؟

قال: لقد كنت مكتفيـا.. بـل كنت مغـرورا في اكتفـائي إلى أن التقيت برجل حطم ما بنيته أو ما بناه لي أرسـطو.. لقـد كـان رجلا عظيما.. ولكن صحبتي له للأسف كـانت كـالبرق الـذي يضـيء، ثم سرعان ما يختفي.

ومـا نـدمت عليـه هـو أنـني بغـروري وأحلامي انصـرفت عنـه، واتبعت تلك التقسيمات والتصنيفات التي لم تغن عني شيئا.

قلنا: إن ما تقوله خطير.. لكأنك تتهم أرسطو نفسه بالعجز.

قال: أجل.. أنـا أتهمـه كمـا أتهم عقلي.. فـالرب العظيم أعظم من أن نتصـرف في كمالاتـه بعقولنـا.. لقـد رحت كمـا راح سـميي أرسطو نفرض على الإله قيودا كثيرة.. لقد رحنا نحد من صـلاحياته في هذا الوجود.

قلنا: ولكنك ذكرت أنك كنت تعتقد في إلهك الكمال المطلق.

ضحك بصوت عال، وقال: أجل.. ولكنه كـان أقـرب إلى العـدم المطلق منه إلى الكمال المطلق.

قلنا: فمن علمك الكمال المطلق لإلهك؟

قال: هذا ما أريد أن أحدثكم عنه.. وهذا مـا تأسـفت على عـدم صحبته.. لقد كان رجلا من المسلمين.. كان اسمه (محمـد البـاقر) (1)

---

1) أشير به إلى (محمّد الباقر) (57 ـ 114هـ)، وهو ابن علي بن الحسـين بن علي بن أبي طالب خامس أئمة أهل البيت بجسب مذهب الإمامية.

قال النووي: سمّي بالباقر، لأنّه بقر العلم، أي شقّه، فعرف أصله وخفاياه.

وقد عاش الباقر في مطلـع صـباه، المحنـة الكـبرى الـتي مـرّت على أهـل الـبيت في كربلاء، وشاهد بعدها المصائب التي حلّت بأهل البيت، ومحبيهم من الحكام الطغاة فاتجه في ذلك الجو المشحون بالظلم إلى الدفاع عن مبـادئ الإسـلام، ونشـر تعاليمـه، فـالتفّ حـول الإمـام الآلاف من العلمـاء، وطلاب العلم لدراسـة الفقـه، والحـديث، والتفسـير، والفلسفة، والكلام، وغير ذلك من العلوم حتى أطلق على تلك الحلقات التي كانت تجتمع في مسجد المدينة اسم الجامعة.

قال الشيخ محمد أبو زهرة: وما زار أحد المدينة إلاّ عرّج على بيت محمد البـاقر يأخـذ عنه، وكان ممّن يزوره من يتشيّعون لآل الـبيت في السـر، ومن نبتت في نفوسـهم نابتـة الانحراف، إذا فرخت في خلايا الكتمان الـذي ادرعـوا بـه، آراء خارجـة عن الـدين، فكـان يصدّهم، ويردّهم منبوذين، مذمومين. وكان يقصده أئمة الفقه كسفيان الثـوري، وسـفيان بن عيينة وأبي حنيفة شيخ فقهاء العراق. وكان يرشد من يجيء إليه وقـد أحصـى الشـيخ الطوسي في رجاله ستاً وستين وأربعمائة ممّن روى عن الباقر.

لقـد اجتمعت بـه مـع جمـع من أصـدقائي الفلاسـفة.. ورحنـا نناقشه في إلهه بما معنا من الفلسفة.. وقد غلبنا جميعـا لأنـه كـان يملك مع العقل الـذي يملكـه الفلاسـفة عقلا آخـر لم نكن نملكـه.. كان يملك وحي ربه.. وربه أعرف بذاته وبكمالاته من عقولنا.

ولذلك بزنا جميعا..

ولولا غرورنا لتركنا ذلك العقال الذي عقلتنـا بـه عقولنـا وسـرنا خلفه إلى ربنا.

قلنا: فكيف التقيت به؟

قـال: في يـوم من الأيـام اجتمعت مـع أصـدقائي من (جمعيـة محبي الحكمة)(1) في حديقة خارج أسـوار أثينـا بـالقرب من أيكـة مخصصة لعبادة الإله (أبولو ليكيوس).. وقد كنا نتحـدث حينهـا عمـا كنت أحدثكم عنه عن الإله صـاحب الكمـال المطلـق.. والـذي هـو أقرب إلى العدم المطلق..

وكان معنا حينهـا بعض رجـال الـدين المسـيحيين ممن جمعتهم

حـدّث عنـه: أبـان بن تغلب الكـوفي، وأبـو حمـزة الثمـالي، والحكم بن عُتيبـة، وربيعـة الــرأي، والآعمش، وزرارة بن أعين، وعبــد اللّــه بن عطــاء، وعبــد الــرحمن الآعــرج، والآوزاعي، ومؤمن الطاق، وخلق كثير.

قال فيه حقه عبد اللّه بن عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصـغر علمـاً منهم عنـد أبي جعفر الباقر، لقد رأيت الحكم عنده كأنّه متعلّم. ويعني الحكم بن عتيبة.

وعن سلمة بن كهيل: في قوله تعالى:﴿ لآياتٍ للمُتَوَسِّمِين ﴾ (الحجـر:75)، قـال: كـان أبو جعفر منهم.

وقال ابن سعد: (كان عالماً عابداً ثقة، وروى عنه الآئمة أبو حنيفة وغيره)

وقال ابن كثير: (كان ذاكراً خاشعاً صابراً، وكان من سلالة النبوة، رفيع النسـب، عـالي الحسب، وكان عارفاً بالخطرات، كثير البكاء والعبرات، معرضاً عند الجدال والخصومات)

وقال الذهبي: (وكان أحد من جمع العلم والفقـه والشـرف والديانـة والثقـة والسـوَدد، وكان يصلح للخلافة)

وقال كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي: (هـو بـاقر العلم وجامعـه، وشـاهر علمـه ورافعه، متفـوق درّه وراضـعه، ومنمـق دُرّه وواضـعه، صـفا قلبـه، وزكـا عملـه، وطهـرت نفسه، وشرفت أخلاقه، وعمرت بطاعة اللّه أوقاتـه، ورسـخت في مقـام التقـوى قدمـه، فالمناقب تسبق إليه، والصفات تشرف به)

وممّا أثر عنه من الحكم والمواعظ قوله: (عالم ينتفع بعلمه أفضل من ألف عابد)

وقال: (إنّ اللّه خبأ ثلاثة أشياء في ثلاثة أشياء: خبأ رضـاه في طاعتـه، فلا تحقـرنّ من الطاعة شيئاً، فلعل رضاه فيه، وخبأ سخطه في معصيته، فلا تحقرنّ من المعصـية شـيئاً، فلعل سخطه فيه، وخبأ أولياءه في خلقه، فلا تحقرنّ أحداً فلعلّه ذلك الولي)

وقال: (إنّ أسرع الخير ثواباً البرّ، وأسـرع الشـر عقوبـة البغي، وكفى بـالمرء عيبـاً أن يبصر من الناس مـا يعمى عليـه من نفسـه، وأن يـأمر النـاس بمـا لا يسـتطيع أن يفعلـه، وينهى الناس بما لا يستطيع أن يتحول عنه، وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه)

قال ابن كثير: هذه كلمات جوامع موانع، لا ينبغي لعاقـل أن يغفلهـا. (انظـر: موسـوعة أصحاب الفقهاء)

1) أقصد بهـا الفلسـفة.. فكلمـة (فلسـفة) مشـتقة من اللغـة اليونانيـة القديمـة، وقَـدْ تُـترجمُ بــ (حبّ الحكمـة).. والفلاسـفة في العـادة يكونـون متشـوّقين لمعرفـة العـالم، والإنسان، والوجود، والقيم..

بأصحابنا من الفلاسفة عقد مودة وصداقة، وكـانوا جميعهم ينتمـون إلى مدرسة دومينيكانيه بنابولي.. وكان أهمهم بالنسبة لنا (القديس توما الأكويـني).. ذلـك الـذي تنسـب إليـه (الفلسـفة المدرسـة) أو (فلسفة المدرسيين).. تلك الفلسفة التي حـاولت المـزج بين فكـر أرسطو، والفكر اللاهوتي..

بعد أن أنهينا حـديثنا، فوجئنـا برجـل غـريب يـدخل علينـا.. كـان كالشمس أو قريبا من الشمس، فلذلك انبهرنا بالنظر إليه عما كنـا فيه.. قال لنا: مرحبا بفلاسفة زمانهم.. أنا (محمد الباقر) رجـل من (آل محمد) نبي المسلمين، وقد جئتكم لأبشركم بالإله الـذي بشـر به جدي محمد.

قـال أحـدنا، وكـان عنيفـا شـديدا: لم نسـمع بفيلسـوف اسـمه (محمد).. في أي بلدة من بلاد اليونان كان يقيم؟

ابتسـم محمـد البـاقر، وقـال: وهـل الفلسـفة حكـر على بلاد اليونان؟

قال صـاحبنا: لا.. هي ليسـت حكـرا.. ولكن لعلـك لا تعـرف أن الشعوب تختلف في اهتماماتها.. نحن اليونـانيين اهتممنـا بالعقـل.. وغيرنا من الشعوب اهتمت بالزراعة أو بـرعي الأغنـام أو بالصـيد.. أو بغيرها من شؤون الحياة.

وقد كان لاهتمامنا بالعقل أثـره في رقي عقولنـا.. ولـذلك نحن نربـأ أن نسـمع أحـاديث الرعـاة والفلاحين البسـطاء الـذين هم كالقدمين بالنسبة للرأس.

قال الباقر: الحكمة أشرف من أن تقيـد بشـعب.. وفضـل اللـه أوسع من أن يضيق بخلقه.

قلنـا: إن كنت تريـد أن تحـدثنا بالعقـل.. فعنـدنا من العقـل مـا وصل إلى غايته.

قال الباقر: هناك العقل المجرد.. وهناك العقل المسدد.

قلنا: فأنت ترى أن عقولنا مجردة؟

قال الباقر: تلك نعمـة من اللـه عليكم تحتـاجون إلى شـكرها.. وإلى تسديدها.

قلنا: فبم نسددها؟

قال الباقر: الله الجواد الكريم الهادي البديع يسـتحيل أن يـترك عبـاده هملا.. لقـد أرسـل إليهم الرسـل.. وأنـزل عليهم الكتب.. وتجلى لهم فيها.. فمن لم يمزج عقله المجرد بتسـديد اللـه سـقط في أوحال عقله.

قلنا: ولكنا لا يمكننا أن نرفض عقولنا المجردة لأي عقل آخر.
قال الباقر: يستحيل أن يتعارض العقل المسدد مع العقل المجرد..
قلنا: لا بأس.. سنقبل بك أن تجلس معنا في هذا المجلس بشرط أن تحدثنا بما يقوله العقل المسدد، وما يقوله العقل المجرد.. لنرى مدى التوافق بينهما.
قال الباقر: وأنا أقبل ما تعرضونه علي.. فاختاروا ما تريدون أن تتحدثوا فيه.
قلنا: لقد حددت أنت موضوع الحديث عندما أردت أن تبشرنا بإله محمد.
أراد الباقر أن يتحدث، فقاطعه توما، وقال: أنا أعرف محمدا ودين محمد.. وقد سمعتهم يتحدثون في بلاد الإسلام بأن لله أسماء حسنى.. فما تقول في ذلك؟
قلت: وما يقول العقل أيضا.. فنحن لا يهمنا إلا ما يقوله العقل؟
قال الباقر، وهو يتوجه بالحديث إلينا، وإلى توما: سأحدثكم بما يقوله قرآننا، وما يقوله نبينا، وما يقوله الكتاب المقدس، وما يقوله العقل المجرد.
قلنا: نحن لا نقبل أن تلقننا.. فسنناقشك في كل كلمة تقولها نرى أن عقولنا لا تستسيغها.
قال الباقر: لكم ذلك.. ولكن لا تخرجوا بنا إلى الجدل.. فلن يتعلم صاحب جدل.
قلنا: لك ذلك.. سنسلم لك بكل ما تقنعنا به.. ولن نجادلك في شيء.
قال الباقر: لقد ذكر صاحبكم أنه سمع في بلاد المسلمين من يتحدث عن أسماء الله الحسنى.
قلنا: فما أسماء الله الحسنى؟
قال: هي الأسماء التي تعرف الله بها إلى عباده.. فالله تعالى ذكر لنا في كتبه المقدسة ما يدلنا عليه، ويعرفنا به.
قلنا: فالكتب المقدسة إذن هي مظان أسماء الله الحسنى؟
قال: بعض أسماء الله الحسنى.. فالله لا يحاط به.
قلنا: كيف ذلك؟
قال: بما أن أسماء الله تدل على كمالات الله، وبما أن كمالات الله لا نهاية لها، فأسماؤها الحسنى كذلك لا نهاية لها.. وما ورد في كلمات الله المقدسة التي أوحاها إلى أنبيائه هي بعض ما يمكن

للإنسان أن يتعرف عليه من هذه الأسماء بحسب طاقته المحدودة.

لقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذا، فقد كان يقول في دعائه: (أسألك بكل اسم هو لك، سمَّيت به نفسك، أو علَّمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ؛ أن تجعل القرآن ربيع قلبي..)(1)

قلنا: فتستحيل معرفة كمالات إلهك إذن؟

قال: أجل.. فالله لا يحاط بمعرفته..

قال رجل منا: ومن لم يحط بمعرفته تستحيل معرفته..

قال آخر: فأنت تدلنا على مستحيل إذن.

قال: لا.. للمعرفة مراتب مختلفة(2).. فلو أن قائلا قال: (لا أعرف الله) كان صادقا، ولو قال: (أعرف الله) كان صادقا أيضا.

قال الرجل: أليس النفي والإثبات لا يصدقان معا، بل يتقاسمان الصدق والكذب، فإن صدق النفي كذب الإثبات، وبالعكس؟

قال الباقر: ذلك إذا اتحد وجه الكلام.. أما إذا اختلف فإنه يتصور الصدق في القسمين.. وذلك كما لو قال قال قائلكم لأخيه: (هل تعرف سقراط؟)، فإن قال: (وهل سقراط ممن يجهل شأنه.. أو هل في العالم من لا يعرفه..) كان صادقا بقوله هذا.. ولو قال: (ومن أنا حتى أعرف سقراط.. هيهات لا يعرف سقراط سوى سقراط أو من هو مثله أو فوقه، ومن أين لي أن أدعي معرفته أو أطمع فيها) كان صادقا أيضا.

وهكذا، فلو عرضنا خطا منظوما على عاقل، وقلنا: هل تعرف كاتبه، فإن قال: (لا)، صدق ولو قال: (نعم كاتبه هو الإنسان الحي القادر السميع البصير سليم اليد العالم بصناعة الكتابة.. فإذا عرفت كل هذا منه فكيف لا أعرفه)، فهذا أيضا صدق.. ولكن الأحق والأصدق قوله:(لا أعرفه)، فإنه بالحقيقة ما عرفه، وإنما عرف احتياج الخط المنظوم إلى كاتب حي عالم قادر سميع بصير سليم اليد عالم بصناعة الكتابة ولم يعرف الكاتب نفسه، فكذلك الخلق كلهم لم يعرفوا إلا احتياج هذا العالم المنظوم المحكم إلى صانع مدبر حي عالم قادر.

قال الرجل: دعنا من هذا.. وحدثنا عن السبل التي يمكن لعقولنا أن تتعرف بها على الله.. وما علاقة ذلك الأسماء الحسنى؟

---

1) رواه أحمد وابن حبان.

2) انظر: المقصد الأسنى للغزالي.

قال: لمعرفة اللـه سـبيلان.. أمـا أحـدهما فقاصـر، وأمـا الآخـر فمسدود.

قال الرجل: فما السبيل القاصر؟

قال: السبيل القاصـر هـو ذكـر الأسـماء والصـفات، وذلـك عن طريق التشـبيه بمـا عرفنـاه من أنفسـنا.. فإنـا لمـا عرفنـا أنفسـنا قادرين عالمين أحياء متكلمين، ثم سمعنا ذلك في أوصاف الله عز وجل أو عرفناه بالدليل فهمناه فهما قاصرا.. فحياتنا وقدرتنا وعلمنا أبعد من حيـاة اللـه عـز وجـل وقدرتـه وعلمـه، بـل لا مناسـبة بين البعيدين..

وفائـدة تعريـف اللـه عـز وجـل بهـذه الأوصـاف إيهـام وتشـبيه ومشاركة في الاسم، لكن يقطع التشبيه بأن يقـال:﴿.. لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَيْءٌ..(11)﴾ (الشورى)، فهو حي لا كالأحياء، وقادر لا كالقادرين.

وكأنـا إذا عرفنـا أن اللـه تعـالى حي قـادر عـالم فلم نعـرف إلا أنفسـنا ولم نعرفـه إلا بأنفسـنا إذ الأصـم لا يتصـور أن يفهم معـنى قولنا:(إن الله سـميع)، ولا الأكمـه يفهم معـنى قولنـا:(إنـه بصـير)، ولذلك إذا قال القائل: (كيف يكون الله عز وجل عالمـا بالأشـياء؟) فنقول:(كما تعلم أنت الأشياء)، فإذا قـال:(فكيـف يكـون قـادرا؟)، فنقول: (كما تقدر أنت)، فلا يمكنه أن يفهم شيئا إلا إذا كان فيه مـا يناسبه، فيعلم - أولا - ما هـو متصـف بـه ثم يعلم غـيره بالمقايسـة إليه.

فإن كان للـه عـز وجـل وصـف وخاصـية ليس فينـا مـا يناسـبه ويشاركه في الاسم لم يتصور فهمه أبدا، فما عرف أحد إلا نفسـه، ثم قايس بين صفات الله تعـالى وصـفات نفسـه، وتتعـالى صـفاته عن أن تشبه صفاتنا، فتكون هذه معرفة قاصرة يغلب عليها الإيهام والتشـبيه، فينبغي أن تقـترن بهـا المعرفـة بنفي المشـابهة، وينفي أصل المناسبة مع المشاركة في الاسم.

قلنا: عرفنا السبيل الأول.. فما السبيل الثاني.. ذلك الذي نعتــه بالسبيل المسدود؟

قال: هو أن ينتظر العبد أن تحصـل لـه الصـفات الربوبيـة كلهـا حتى يصير ربا.. وهذا السبيل مسدود ممتنع إذ يسـتحيل أن تحصـل تلك الحقيقة لغير الله تعالى.. وهذا هو سبيل المعرفـة المحققـة لا غير.. وهو مسدود قطعا إلا على الله تعالى.

ولهذا، فإنه يستحيل أن يعرف الله تعـالى بالحقيقـة غـير اللـه.. بل على هذا المنوال يمكن أن يقال بأنه يسـتحيل أن يعـرف النـبي

غير النبي.. وأما من لا نبوة له فلا يعرف من النبوة إلا اسمها، وأنها خاصية موجودة لإنسان بها يفارق من ليس نبيا، ولكن لا يعرف ماهية تلك الخاصية إلا بالتشبيه بصفات نفسه.. بل يمكن أن يقال على هذا المنوال: لا يعرف أحد حقيقة الموت، وحقيقة الجنة والنار إلا بعد الموت، ودخول الجنة أو النار، لأن الجنة عبارة عن أسباب ملذة، ولو فرضنا شخصا لم يدرك قط لذة لم يمكننا أصلا أن نفهمه الجنة تفهيما يرغبه في طلبها، والنار عبارة عن أسباب مؤلمة، ولو فرضنا شخصا لم يقاس قط ألما لم يمكننا قط أن نفهمه النار فإذا قاساه فهمناه إياه بالتشبيه بأشد ما قاساه، وهو ألم النار، وكذلك إذا أدرك شيئا من اللذات فغايتنا أن نفهمه الجنة بالتشبيه بأعظم ما ناله من اللذات.. فإن كان في الجنة لذة مخالفة لهذه اللذات فلا سبيل إلى تفهيمه أصلا إلا بالتشبيه بهذه اللذات، بل العبارة الصحيحة عنها أنها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال رجل منا: فما النهاية التي تنتهي إليها معرفة العارفين بالله؟

قال: نهاية معرفة العارفين بالله عجزهم عن المعرفة، ومعرفتهم بالحقيقة أنهم لا يعرفونه، وأنه لا يمكنهم البتة معرفته، وأنه يستحيل أن يعرف الله المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفات الربوبية إلا الله.. فإذا انكشف لهم ذلك انكشافا برهانيا فقد عرفوه.. أي بلغوا المنتهى الذي يمكن في حق الخلق من معرفته، وهو الذي أشار إليه قائلهم: (العجز عن درك الإدراك إدراك)، بل هو الذي عناه سيد البشر ﷺ حيث قال:(لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)، ولم يرد به أنه عرف منه ما لا يطاوعه لسانه في العبارة عنه، بل معناه:(إني لا أحيط بمحامدك وصفات إلهيتك، وإنما أنت المحيط بها وحدك)

ولهذا، فإنه لا يحظى مخلوق بملاحظة حقيقة ذاته إلا بالحيرة والدهشة.. وأما اتساع المعرفة فإنها تكون في معرفة أسمائه وصفاته.

قال رجل منا: فكيف تتفاوت درجات الملائكة والأنبياء والأولياء في معرفة الله إذن ما دام الأمر كما ذكرت؟

قال: لقد ذكرت لكم أن السبيل لذلك هو معرفة أسماء الله الحسنى.. فهي الباب الوحيد المفتوح لمعرفة الله.. وفي هذه الأسماء تتفاوت مراتب الخلق.. فليس من يعلم أنه تعالى عالم

قادر على الجملة كمن شاهد عجائب آياتـه في ملكـوت السـموات والأرض وخلق الأرواح والأجساد واطلع على بدائع المملكة وغرائب الصنعة ممعنا في التفصيل، ومستقصيا دقائق الحكمـة، ومسـتوفيا لطائف التدبير، ومتصفا بجميع الصـفات الملكيـة المقربـة من اللـه عز وجل.

قلنا: وعينا هذا.. فهلا انتقلت من الجملة إلى التفصيل..

قال: سلوني ما بدا لكم.. وستجدون من أسماء الله مـا يـدلكم على كمالات الله، وأنه أهل لكل حمد وثناء ومجد.

1 ـ الحق

قـام أولنـا، وكـان اسـمه (بروتـاجوراس)(1)، وكـان من السفسطائيين، وقد جرته سفسطته إلى الإلحاد.. فكان لا يؤمن بالله، وكان يعتبر أن كل ما يقال عنـه مجـرد أوهـام شخصـية لا علاقة لها بالواقع.. بل كان يرى فوق ذلك أن الحقيقة المطلقـة غـير موجـودة، لأن الحقـائق تتعـدد بتعـدد الأشـخاص واختلاف أحوالهم.

قام، وقال: إن مبدأ كل كمال هو الحقانية.. والتي تعني وجـوب الوجود وثبوته وعدم علاقته بأي تبعية؟

نظر إليه الباقر، وكأنه قـرأ أفكـاره الـتي كـان يـدافع عنهـا كـل حين، وقال: أنت بقولك هذا تذكر اسـما من أسـماء اللـه الحسـنى ورد ذكره في كتبه المقدسة.. دلت عليه كل الدلائل.

قال: فما هو؟

قال الباقر: هو اسم **الحق**(2).. فالله هو الحق المبين..

لقد ذكر ربنا هذا الاسم فقال:﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَـوْلاهُمُ الحَـقِّ أَلا لَهُ الحُكْمُ وَهُوَ أَسْـرَعُ الحَاسِـبِينَ) (الأنعـام:62)، وقـال:﴿ فَتَعَـالَى

---

1)هو من أشهر الفلاسفة السوفسطائيين، وتعد آراؤه مصدراً لمذهب هؤلاء الفلاسفة، ولد في مدينة أبديرا حوالي عام 480 ق.م.. وقد طاف في أنحـاء اليونـان، ثمّ اسـتقر بـه المقام في أثينا، و ضع ً كتابا بعنوان (الحقيقة) شكك فيه في وجود الآلهة، اعتبر الإنسـان مقيـاس الأشـياء جميعـاً، ولكـون أفـراد النـاس كثـيرين فـإنّ إحساسـات النـاس متعـددة ومتناقضـة أحيانـاً، والحـواس هي وسـيلة الإدراك الوحيـدة ومـالا يـدرك بهـا فليس موجوداً.جاء في أول كتابه: (لا أستطيع أن أعلم إن كانت الآلهة موجودة أم غير موجـودة، فإنّ أموراً كثيرة تحول بيني وبين هذا العلم، أخصها غموض المسألة وقصر الحيـاة)، وقـد اتُهم بسبب ذلك بالإلحاد، وحكم عليه بالإعدام، وأحـرقت كتبـه علنـاً، ففـر هاربـاً، ومـات ً غرقا أثناء فراره سنة 410 ق.م(انظر الفلسفة اليونانية د.بيصار ص 72)

2) الحق في اللغة اسم للموصوف بالحقية وإظهار الحقيقة، وهو يأتي على عدة معان ، منها المطابقة والموافقة ، ومنها الثبات دون الزوال ، ومنها المتوحد عمن سـواه خلاف الشرك والظلم.. والله سبحانه وتعالى في حق ذاته باق لا يـزول.. وسـنته ثابتـة جاريـة لا تحول.. ودينه ثابت في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وكل صفاته حـق فهي كاملة جامعة للصدق، فيها الكمال والجمال والجلال.

اللهُ المَلِكُ الحَقُّ وَلا تَعْجَل بِالقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلماً ﴾ (طه:114)، وقال:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي المَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الحج:6)

قال بروتاجوراس: فما يعني هذا الاسم؟

قال الباقر: بما أنا اتفقنا على أن نقرب معاني أسماء الله بما نعيشه في حياتنا (1)، فأجبني.. إذا كان معك جهاز كهربائي، وكنت بحاجة إلى طاقة كهربائية، ثم توجهت إلى مأخذ كهربائي ووضعت فيه الشريط، ولم تر الآلة تتحرك، فماذا تستنتج من هذا؟

قال: أستنتج أن المأخذ ليس فيه كهرباء.

قال الباقر: ولو توجهت إلى مأخذ آخر ووضعت فيه الشريط فاشتغلت الآلة، فماذا تستنتج؟

قال: أستنتج أن المأخذ فيه كهرباء.

قال الباقر: فأول المأخذين باطل.. وأما الثاني فحق؟

قال: يمكنك أن تقول ذلك.

قال الباقر: فهذا أول ما يدل عليه اسم الحق.. فالله هو الحق الوحيد، وإذا توجهت إلى غيره فلن تجد شيئاً، بل لن تجد إلا سراباً في سراب.. لن تجد إلا وعودا كاذبة، وأقوالا فارغة، وكلمات طنانة، لكنها هراء في هراء.. أما إذا توجهت إلى الله، فستجد كل شيء..

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال:﴿ والذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (40)﴾ (النور)

قال ذلك، ثم التفت إلى الجمع المحيط به، وقال: إن أخطر ما في الحياة أن نتجه إلى جهة لا تملك شيئاً، وأخطر ما فيها أن تعتقد اعتقاداً غير صحيح ليس له مرتكز واقعي.. وأخطر كلام نقوله أن ننطق بشيء لا يرتبط بالواقع.

ولهذا، فإننا إذا كنا مع الحق، فإننا سنشعر بسعادة كبيرة لا نهاية لها.. قد تسألون لماذا؟

والجواب هو أننا في ذلك الحين نكون مع الثابت ومع الموجود،

---

1) استفدنا التقريبات والتوضيحات المذكورة هنا من شرح العلامة محمد راتب النابلسي لشرح أسماء الله الحسنى من خلال دروسه الصوتية المنتشرة بكثرة على النت.

ولا يخيب من كان مع الثابت، ولا يضل من كان مع الموجود..

هذا إذا كنا مع موجود ممكن، فكيف إذا كنا مع موجود واجب..

قال: ما تعني؟

قال الباقر: أنتم تعلمون أن الحق مقابل للباطل(1).. وبما أن الأشياء تستبان بأضدادها، وكل ما يخبر عنه فإما باطل مطلقا، وإما حق مطلقا، وإما حق من وجه باطل من وجه.. فالممتنع بذاته هو الباطل مطلقا.. والواجب بذاته هو الحق مطلقا.. والممكن بذاته الواجب بغيره هو حق من وجه باطل من وجه، فهو من حيث ذاته لا وجود له فهو باطل، وهو من جهة غيره مستفيد للوجود فهو من هذا الوجه الذي يلي مفيد الوجود موجود فهو من ذلك الوجه حق ومن جهة نفسه باطل.

وانطلاقا من هذا، فإن أحق الموجودات بأن يكون حقا هو الله.. وأحق المعارف بأن تكون حقا هي معرفة الله.. وأحق الكلمات بأن تكون حقا هي الكلمات المعبرة عن معرفة الله.. ذلك لأن الحق يطلق على الوجود في الأعيان، وعلى الوجود في الأذهان وهو المعرفة، وعلى الوجود الذي في اللسان وهو النطق.

فأحق الأشياء بأن يكون حقا هو الذي يكون وجوده ثابتا لذاته أزلا وأبدا، ومعرفته حقا أزلا وأبدا، والشهادة له حقا أزلا وأبدا.. وكل ذلك لذات الموجود الحقيقي.

والله تعالى هو الحقيق بكل ذلك:

فالله تعالى واجب الوجود لذاته من غير حاجة لأي علة أو سبب، وكل ما عداه دائم الافتقار إليه في وجوده، ولهذا فهو هالك من حيث ذاته، كما قال تعالى:﴿.. كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ.. (88) ﴾ (القصص)، وهو كذلك أزلا وأبدا، ليس ذلك في حال دون حال، لأن كل شيء سواه أزلا وأبدا من حيث ذاته لا يستحق الوجود، ومن جهته يستحق، فهو باطل بذاته حق بغيره.

والمعرفة بالله حق في نفسها، لأنها مطابقة للمعلوم أزلا وأبدا، ومطابقتها لذاتها لا لغيرها، بخلاف العلم بوجود غيره، فإنه لا يكون إلا ما دام ذلك الغير موجودا، فإذا عدم عاد ذلك الاعتقاد باطلا، وذلك الاعتقاد أيضا لا يكون حقا لذات المعتقد لأنه ليس موجودا لذاته، بل هو موجود لغيره.

والشهادة لله بالوحدانية وغيرها هي أحق الأقوال لأن الناطق بها صادق أبدا وأزلا، لذاته لا لغيره..

---

1) انظر: المقصد الأسنى.

2 ـ الحي

قام الثاني، وكان اسمه (طاليس)، وقد كان شديد الولع بجده الفيلسوف الكبير (طاليس) (1).. وكان في كل أحاديثه معنا يردد ما كان يردد جده من أن أنّ الماء هو أصل الأشياء ومبدؤها، منه بدأت وإليه تنحل، وأنه هو الجوهر الأساس الذي تولدت عنه كل الموجودات، وأنّه قابل لكل صورة، ومنه أبدعت الجواهر كلها من السماء والأرض وما بينهما، وأنه هو علّة كل مبدع(2)، وأنه حين جمد الماء تكونت الأرض، وحين انحل تكون الهواء، ومن صفوة الهواء تكونت النّار، ومن الدخان والأبخرة تكونت السماء، ومن الاشتغال الحاصل من الأثير تكونت الكواكب.

قام في ذلك المجلس، وقال: لاشك أن من أسماء إلهك الماء.. فالماء هو أصل الموجودات.. وهو حياة الحياة..

ابتسم الباقر، وقال: الماء صنعة الله.. والحياة هبة الله.. ويستحيل أن يفتقر واهب الحياة للحياة.. فلا يهب الحياة إلا الحي الذي لا يموت..

قال طاليس: فمن أسماء إلهك إذن (الحي)

قال الباقر: أجل.. لقد ذكر الله هذا الاسم في كلماته المقدسة، فقال:﴿ الله لاَ إله إِلاَّ هُوَ الحى القيوم ﴾ (البقرة: 255) وقال:﴿ وَعَنَتِ الوجوه لِلْحَىّ القيوم ﴾ (طه: 111) وقال:﴿ هُوَ الحى لاَ إله إِلاَّ هُوَ فادعوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ (غافر: 65)

وذكره في كلماته السابقة إلى أنبيائه، ففي (يوشع 3: 9-10): (وَقَالَ يَشُوعُ لأَبْنَاءِ إِسْرَائِيلَ: تَعَالَوْا إِلَى هُنَا وَاسْمَعُوا كَلاَمَ الرَّبّ إِلهِكُمْ. بِهَذَا تَعْرِفُونَ عَنْ يَقِينٍ أَنَّ اللهَ الْحَيَّ مَوْجُودٌ بَيْنَكُمْ، وَأَنَّهُ يَطْرُدُ مِنْ أَمَامِكُمُ الكَنْعَانِيِّينَ وَالحِثِّيِّينَ وَالحِوِّيِّينَ وَالفِرِزِّيِّينَ وَالجِرْجَاشِيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَاليَبُوسِيِّينَ)

قال طاليس: نحن نعرف الحي منا.. ولكنا لا نعرف كيف يكون ربك حيا؟

---

1) (طاليس) (550 -624ق.م) وهو من أَوّل وأشهر فلاسفة اليونان، وهو أحد الحكماء السبعة، درس العلوم دراسة عميقة، عمل مهندساً بحرياً، واستطاع أن يضع تقويماً بحرياً للملاحين يحتوي على إرشادات وقواعد فلكية كانت لها آثارها القيمة في تاريخ الملاحة البحري. (انظر الفلسفة اليونانية:بيصار ص 55 ، الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون:د.عزت قرني ص.24)

2) هو يريد بهذا أن الماء هو مبدأ التركيبات الجسمانية، لا المبدأ الأول في الموجودات العلوية.. لكنه لما أعتقد أنّ العنصر الأول هو قابل كل صورة ، أي منبع الصور كلها ، فأثبت في العالم الجسماني له مثالا يوازيه في قبول الصور كلها، ولم يجد عنصراً على هذا النهج، مثل الماء فجعله المبدع الأول في المركبات، وأنشأ منه الأجسام والأجرام السماوية والأرضية.(الملل والنحل 3/121)

قال الباقر: فمن الحي منا؟
قال طاليس: لقد ذكر أصحابنا أنه المدرك الفعال.. فمن لا فعل له أصلا ولا إدراك فهو ميت..
قال الباقر: فما أقل درجات الحياة؟
قال طاليس: أن يشعر المدرك بنفسه.. فما لا يشعر بنفسه فهو الجماد والميت.
قال الباقر: وما أكمل درجات الحياة؟
قال طاليس: أكمل درجات الحياة تكون لمن دخلت جميع المدركات تحت إدراكه، وجميع الموجودات تحت فعله حتى لا يشذ عن علمه مدرك، ولا عن فعله مفعول.
قال الباقر: أذلك هو الحي الكامل المطلق؟
قال طاليس: أجل..
قال الباقر: فذلك هو الله عز وجل.. فهو الحي المطلق، وكل حي سواه فحياته بقدر إدراكه وفعله، وكل ذلك محصور في قلة.
سكت طاليس قليلا، ثم قال: ولكن مع ذلك يمكنك أن تقول بأننا أيضا نتمتع بحياة مطلقة كحياة إلهك.. فنحن نعيش حياة ملء السمع والبصر، فيمكن لعقولنا أن تتجول في الأكوان مهما دقت أو ترفعت، ويمكن لأقدامنا أن تسير حيث تشاء.. ولعلك قد سمعت برحلتنا إلى القمر..
ابتسم الباقر، وقال: ولكن حياتنا مع ذلك متوقفة على زمن محدود، وعلى أجهزة محدودة، فعمر الإنسان بعمر شراييه، وعمره متعلق بقلبه وشراييه ودسامات قلبه، ومتعلق بجهازه العصبي، ومتعلق بعمل الدماغ، ومتعلق بالكليتين، فلو أن البول احتبس في الكليتين ست ساعات تتوقف الكليتان، وإذا توقفت الكليتان ينتهي الإنسان فلا يعيش الإنسان ثلاث ساعات من دون كبد، إذا تشمع تشمعاً كاملاً خلال ثلاث ساعات يموت.. وهكذا، فقد جعل الله للموت أسبابا لا يمكن عدها(1).. أما الله تعالى فهو الحي الذي لا يموت، لأنه حي بذاته، فلا يستمد حياته من أي جهة من الجهات.

3 ـ القيوم

قام الثالث، وكان اسمه (أنكسماندريس)، وكان فخورا بجده (أنكسماندريس)(2)، وكان شديد الاختلاف مع صديقنا (طاليس)

1) انظر درس النابلسي في شرح اسم الحي في موقعه على الانترنت.
2) هو (أنكسماندريس) (547 -611 ق.م) فيلسوف مالطي، وهو ثاني فلاسفة المدرسة (اليونية).

بالرغم من أنهما أبناء بلدة واحدة، ومن مدرسة فلسفية واحده..

فقد كان (أنكسماندريس) – خلافا لطاليس- يرى أنّ الماء ليس هو أصل الكون، وذلك لاستحالة اليابس بالحرارة إلى المائع، فالجامد سابق على الماء، والماء بذلك ليس أصلا للكون.. بالإضافة إلى أن الماء معين ومحدود، ويستحيل أن يكون المبدأ الأول معيناً محدوداً، وإلاّ لما تولّدت منه الأشياء المتميزة المحدودة.

وكان يرى أنّ الأشياء كانت في البدء شيئاً واحداً وجدت فيه جميع المعاني متعادلة متكافئة، وبفعل التطور والحركة حدثت انفصالات واجتماعات بين بعضها والبعض الآخر بنسب معينة وبمقادير متفاوتة فتكونت عنها الأشياء الطبيعية..

ولذلك، فقد كان يرى أن المادة اللامتناهية ثابتة غير حادثة، وأنها أبدية، وأن الحركة الدائمة هي التي تعمل على تغيير الأشياء التي من صفاتها التحول والتغير.. والتغيير يحصل بشكل آلي مجرد وبمحض الصدفة، فليس هناك علّة فاعلة، وليس هناك غاية من وراء الفعل(1).

قام في ذلك المجلس، وقال: لا يكفي أن يكون الكامل حقا وحيا.. بل لابد أن تكون له القوامة الكاملة على الأشياء، وإلا كان كماله قاصرا؟

قال الباقر: أنت بكلامك هذا تذكر اسما من أسماء الله الحسنى، هو اسم (القيوم)، وقد ورد ذكره في كلمات الله المقدسة التي أوحاها لأنبيائه..

ففي القرآن الكريم..﴿ وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلحَيِّ القَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلماً (111) وَمَنْ يَعْمَل مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلماً وَلا هَضْماً (112)﴾ (طه)

قال أنكسماندريس: فما يعني هذا الاسم؟

قال الباقر: قال الباقر: إن هذا الاسم يدل على أن الله قائم بذاته، ومقوم لكل ما عداه.

قال أنكسماندريس: إن كونه قائما بذاته يستدعي أن لا يكون عَرَضاً في موضوع، ولا صورة في مادة، ولا حالاّ في محل أصلاً.. لأن الحال مفتقر إلى المحل والمفتقر إلى الغير لا يكون قيوماً بذاته؟

قال الباقر: صدقت.. والله كما وصفت لا يفتقر لمحل.

---

1) انظر: الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون ص.26.

قال أنكسماندريس: والقائم بذاتـه يسـتدعي أن تكـون ماهيتـه غير مركبة من الأجزاء.. وذلك لأن كـل مـركب مفتقـر في تحققـه إلى تحقق كل واحد من أجزائه، وجـزؤه غـيره، وكـل مـركب فهـو متقوّم بغـيره، والمتقـوم بغـيره لا يكـون متقومـاً بذاتـه، فلا يكـون قيوماً.

قال الباقر: صدقت.. والله كما وصفت.

قال أنكسماندريس: والقائم بذاته يمتنع كونـه متحـيزاً، لأن كـل متحـيز فهـو منقسـم، وإذا ثبت أنـه ليس بمتحـيزاً امتنـع كونـه في الجهـة، لأنـه لا معـنى للمتحـيز إلا مـا يمكن أن يشـار إليـه إشـارة حسيّة، وإذا ثبت أنه ليس بمتحيز وليس في الجهة، امتنع أن يكـون له أعضاء وحركة وسكون.

قال الباقر: صدقت.. والله كما وصفت.

قال أنكسماندريس: والقيوم لكل ما سواه يسـتدعي أن يكـون كل ما سواه مُحْدَثاً، لأن تأثيره في تقويم ذلك الغير يمتنع أن يكـون حال بقاء ذلك الغير، لأن تحصيل الحاصل محال فهو إما حال عدمه وإما حال حدوثه وعلى التقديرين وجب أن يكون الكل محدثاً.

قال الباقر: صدقت.. والحقيقة كما وصفت.

4 ـ العليم

قام رابعنا، وكان اسمه (فيثاغورث)، وكـان دائم الـذكر لسـميه الفليسوف الرياضي (فيثاغورث بن منسـارخس)(1)، وكـان يـرى - كما يرى سميه - أن أصل الكون هو العدد، لأنّه أشبه بعالم الأعـداد منه بعالم الماء أو النّار أو الهواء، فالعـدد أوّل مبـدع أبدعـه البـاري تعـالى، وأوّل العـدد الواحـد، وأن مبـادئ الأعـداد هي عناصـر الموجودات، لأنّ الموجودات أعداد، والعـالم على هـذا مـر كّب من عدد ونغم، والموجودات ليست إلا محاكية لنماذجهـا الأولى اللازمـة لها وهي الأعداد، وما يتصور من مفارقة بينها فإنما هي في الـذهن فقط لا في الحقيقـة والواقـع، ولا يمكن للأشـياء أن يتمـايز بعضـها عن بعض إلا بالعـدد..فمثلاً الأطـول يتمـيز عن الأقصـر والأكـبر عن الأصغر بزيادة وحدات وعدد فقط، لا بزيادة شيء خارج عن العدد، وكذا النّغم الذي تتكون منه الفواصل الموسيقية، لا يتميز عن غيره إلا بتناسب بين وحداته المختلفة تجعل من مجموعهـا صـوتاً ونغمـا

---

1) هو (فيثـاغورث بن منسـارخس)، ولـد سـنة572 ق.م في جزيـرة سـاموس من بلاد اليونان، سافر فيما بعد إلى مصر ثم استقر في جنـوب إيطاليـا وهنـاك أسـس مدرسـته. (الفلسفة اليونانية:د.بيصار، ص60)

يألفه السمع(1).

قام في ذلك المجلس، وقال: إن كون إلهك حيا قيوما يستدعي كونه عليما.. فلا يمكن أن تتحقق الحياة والقيومية بصورتها الكاملة لغير العالم.

قال: صدقت.. ولذلك، فإن من أسماء الله الحسنى (العليم)(2).. قال تعالى في القرآن الكريم يذكر هذا الاسم: ﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلِمُ مَا فِي الأَرْحَام وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (لقمان:34)، وقال: ﴿ قُل لاَ يَعْلَمُ مَنَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾(النمل:65)

قال فيثاغورث: دعنا من النصوص المقدسة.. وحدثنا بما تقوله عقولنا المقدسة.. فما برهان علم الله من العقل؟

قال الباقر: ألا ترى إلى هذا الكون الرحب الممتلئ بمظاهر التناسق والحكمة والإبداع في كل صغيرة منه وكبيرة.. ألا يدل ذلك على أن اللّه هو الصانع لهذا الكون؟

قال فيثاغورث: أنا أسلم بوجود الله.. ولكني لا أسلم بعلمه.

قال الباقر: سأذكر لك ثلاثة أدلة على هذا.

قال فيثاغورث: فهات أولها.

قال الباقر(3): أولها هو برهان الخلق والنظم.. فالنظام المذهل الموجود في هذا الكون، والقوانين الدقيقة التي تسير جميع ذرات الوجود، ابتداء من الذرة وانتهاء بالمنظومات والكواكب السيارة، وابتداء من الموجودات المجهرية وانتهاء بالانسان الذي هو أرقى نموذج في الخلق، ومن الأعشاب الأحادية الخلية التي تعيش في أعماق المحيطات، وحتى الأشجار العظيمة التي يبلغ طولها

---

1) الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون ص.32.

2) وقد نص على هذا الاسم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ (البقرة:137)

وقد ورد ا مقرونا في الكتاب والسنة بأسماء أخرى كثيرة تحمل في اقترانها معان كبيرة، فاقترن بالسميع والحكيم والعزيز والحليم والخلاق والقدير والفتاح والخبير..

وفي الحديث أن من دعاء رسول الله ﷺ قوله: (أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ) (رواه أبو داود)

وهو في اللغة من أبنية المبالغة، عَلِيمٌ على وزن فعِيل، فعله عَلِم يعلم علما، ورجل عالم وعَلِيمٌ، والعِلمُ نقيضُ الجهل.

ويجوز أن يقال للإنسان الذي عَلمه الله عِلما من العُلوم عَلِيم، كما قال يوسف - عليه السلام - للملك: ﴿ اجْعَلنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظ عَلِيمٌ ﴾(يوسف:55)، وهو - عليه السلام - عليم على اعتبار محدودية علمه ومناسبته لقدره فهو ذو علم وموصوف بالعلم كما قال - عز وجل -: ﴿ وَإِنَّهُ لَذو عِلمٍ لِمَا عَلمْنَاهُ ﴾(يوسف:68)

3) انظر: نفحات القرآن للشيرازي.

خمسين مترا.. وهكذا النظم المعقـدة العجيبـة الـتي تسـيطر على روح الانسان وقلبه، والتنوع المذهل الملحـوظ في الكائنـات الحيـة من النباتات والحيوانـات، والـتي تبلـغ أنواعهـا مئـات الآلاف، فهـذه جميعا تدل على علم اللّه اللامحدود.. فهل يمكن أن يصنع أحد شيئا ويجهل أسراره؟

فخـالق العين، ونظـام الـدماغ المعقـد، والمـدارات الإلكترونيـة العجيبة التي تدور حول نواة الذرة هو عالم بها حتما.. وعليـه فكمـا يدلنا برهان النظم على وجود اللّه، فإنه يثبت عدم محدوديـة علمـه أيضا.

وبما أن الخلق مستمر ودائم فإن الموجودات في جميع أحوالها تفتقـر إلى علم اللـه في كـل لحظـة من لحظاتهـا كمـا تفتقـر إلى وجوده.

قال فيثاغورث: سلمت لك بهذا، فهات الثاني.

قال الباقر: الثاني هو برهان الإمكان والوجوب.. فقد ثبت بكـل أدلة العقول أن واجب الوجـود هـو اللّـه وحـده، ومـا سـواه ممكن الوجود.. وثبت أيضا بأن الممكنات محتاجـة وتابعـة لـه في الوجـود والبقــاء معــا، أو بتعبــير آخــر الجميــع حاضــر بين يديــه، وهــذا الحضورالدائم دليـل على علمـه بجميـع الأمـور، لأن العلم بحقيقـة المعلوم ليست إلاحضور ذات المعلوم عند العالم.

قال فيثاغورث: سلمت لك بهذا.. فهات الثالث.

قـال البـاقر: الثـالث هـو برهـان اللاتنـاهي.. فبغض النظـر عن مسألة العلة والمعلول، فإن للّه سبحانه وتعالى وجود غـير متنـاهي من جميع الجوانب، لذا لا يخلو منه مكان أو زمان (مـع أنـه لايحـده مكان أو زمان)، لأننا لو افترضـنا خلـو مكـان أو زمـان من وجـوده تعالى فقد حددناه.. لذا فعـدم تناهيـه يـدل على حضـوره وإحاطتـه بجميع الوجود، أو بتعبير آخر كل شي ماثـل بين يديـه.. فهـل يمكن أن يكون العلم غير هذا الحضور؟

ذلــك أن موانــع العلم إمــا أن تكــون حجبــا ماديــة، وإمــا بعــد المسافة، ونحن نعلم انتفـاء هـذه الأمـور عن ذات البـاري سـبحانه وتعالى.

قال فيثاغورث: وعيت هذا.. ولكن ألا ترى أن لنـا من العلم مـا يمكن أن نعتبر به أنفسنا علماء.. أفلسنا مثل الله في ذلك؟

قـال البـاقر: نعم أنتم علمـاء.. ولكن شـتان مـا بين علم اللـه وعلمكم.. بــل وعلم الخلائــق جميعــا.. إن علمي وعلمكم وعلم

الخلائق جميعا مقيد محدود.. أما علم اللـه، فليس لـه قيـود تحـده، فعلمه فوق كل ذي علم كما قال تعالى: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَـاتٍ مَنْ نَشَـاءُ وَفَـوْقَ كُـلِ ذِي عِلمٍ عَلِيمٌ ﴾(يوسـف:76)، وروي في الحـديث عن رسول الله ﷺ في قصة موسى والخضر - عليهما السـلام - قـال: (قَالَ موسى: هَـل أَتَّبِعُـكَ عَلَى أَنْ تعلمـني مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَـدًا، قـال: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ معي صَبْرًا، يَـا مُوسَـى إني عَلَى عِلم مِنْ عِلمِ اللـهِ عَلمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلمٍ عَلمَكَهُ لاَ أَعْلَمُهُ قَال: سـتجدني إِنْ شَـاءَ اللـه صَـابِرًا، وَلاَ أَعْصِـي لَـكَ أَمْـرًا، فَانْطَلَقَـا يَمْشِـيَانِ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ لَيْسَ لَهُمَـا سَـفِينَةٌ، فَمَـرَّتْ بِهِمَـا سَـفِينَةٌ، فَكَلَمُـوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا فَعُرِفَ الخَضِرُ، فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَجَـاءَ عُصْـفُورٌ فَوَقَـعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ في البَحْرِ، فَقَالَ الخَضِرُ: يَا مُوسَى مَا نَقَصَ علمي وَعِلمُكَ مِنْ عِلمِ اللهِ إِلاَّ كَنَقْرَةِ هَذَا العُصْـفُورِ في البَحْرِ)(1)

فهذه النصوص المقدسة تدل على أن الله عليمُ بمـا كـان ومـا هو كائن وما سيكونُ، لم يَزَل عالِما، ولا يَـزال عالمـا بمـا كـان ومـا يكـون، ولا يخفى عليـه خافيـة في الأرض ولا في السـماء، أحـاط عِلمُه بجميع الأشياء ظاهرهـا وباطِنِهـا، دقِيقهـا وجليلهـا.. فهـو يعلم الأشـياء قبـل كونهـا.. بـل كـل أمـور الغيب قـدرها اللـه في الأزل، ومفتاحها عنده وحده ولم يزل.

أما علمنا.. فهو محدود جـدا.. وحـق لـه أن لا يكـون إلا كـذلك.. فنحن لا نملـك من القـدرات والأدوات إلا مـا يجعـل علمنـا بهـذه الصفة:

فقـدرتنا الحسـية محـدودة جـدا.. فنحن نسـتطيع إدراك قسـم صـغير من موجـودات عالمنـا الحسـي فقـط، كمـا أن قـدرتنا على التحليل العقلي أيضا ليست قادرة إلا على إدراك قسـم صـغير من المسائل العقلية.

وعمرنا بالنسـبة إلى عمـر عـالم الوجـود كسـاعة واحـدة.. بـل كدقائق معدودة لا أكثر.

والكـرة الأرضـية الـتي نعيش عليهـا صـغيرة ومحـدودة جـدا بالمقارنة مع كـواكب المجـرات الـتي لا تعـد ولاتحصـى.. فالعلمـاء يقدرون عدد النجوم الموجودة في مجرتنا فقط بمئة ألـف مليـون، وقد بلغ عدد المجرات التي اكتشفها البشر بهذه الأجهـزة الحقِـيرة لحد الآن ألف مليون مجرة.. ولهذا قال تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ

1) رواه البخاري.

مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27) ﴾ (لقمان)

قال فيثاغورث: لقد ذكرت أن الله يعلم كل شيء، وذلك يستدعي أن يعلم ذاته.. ويعلم غيره.. ويعلم الكليات.. ويعلم الجزئيات(1).

قال الباقر: أجل.. وقد دلت على ذلك النصوص المقدسة.. فالله تعالى يقول عن ذاته:﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.ـ (19)ـ ﴾ (محمد)، ويخبرنا عن أسمائه الحسنى، فيقول:﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)﴾ (الحشر)

ويخبرنا عن علمه بغيره بكلياته وجزئياته، فيقول:﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (61)﴾ (يونس)، ويقول:﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (59) ﴾ (الأنعام)

قال فيثاغورث: فأخبرني بما يدل عليه العقل.. فقد ذهب أصحاب العقول من أصحابنا من الفلاسفة إلى خلاف ما تقول.

قال الباقر: فما قالوا؟

قال فيثاغورث: لقد استدلوا على نفي علم الله بذاته بأن العلم، لما كان إضافة قائمة بين طرفين، عالم ومعلوم، كان ذلك يستدعي ضرورة المغايرة بين هذين الطرفين، فإنه حينئذ، إذا قيل بأن الله يعلم ذاته، فمعنى ذلك أن علمه مغاير لذاته، مع أن

---

1) وقع الخلاف بين الفلاسفة خصوصا، ومن تبعهم من أصحاب الأديان والمذاهب حول علم الله سبحانه، من ثلاث جهات.

الأولى: في أنه هل يعلم ذاته، كما يعلم غيره.. أو أن علمه يختص بالتعلق بغيره؟

الثانية: في انه سبحانه هل يعلم بعلم شامل للكليّات والجزئيات معاً، أو انه يختص بالكليات فقط؟

الثالثة: في انه سبحانه، يعلم بالشيء قبل وجوده أو لا؟ (انظر: تهافت الفلاسفة للغزالي، المسألة 11 - 12 وشرح التجريد للعلامة الحلي 221 وما بعدها)

وسنناقش باختصار هذه المسائل هنا، ونرد على الشبه المرتبطة بها، باعتبارها من المسائل التي لا تزال تجد من يدافع عنها.

الواجب واحد من جميع الجهات.

أو بعبارة أخرى: كيف يمكن أن يحيط اللّه علما بذاته المقدسة، في حين أن العالم والمعلوم يجب أن يكونا شيئين؟ فهل يوجد تفاوت بين علم اللّه وذاته المقدسة؟

أو بعبارة أخرى: هل يمكن ان يكون اللّه عالما ومعلوما في نفس الوقت؟

ابتسم الباقر، وقال: كيف يكون هؤلاء أصحاب عقول، وهم يستشكلون هذا؟

قال فيثاغورث: فما تجيبهم؟

قال الباقر: إن الإشكال الذي طرحوه باستلزام القول، بأنه سبحانه يعلم ذاته، مغايرة علمه لذاته، إنما يتم فيما إذا أريد من المغايرة بين العالم والمعلوم، المغايرة الحقيقية، دون ما إذا أريد منها المغايرة الاعتبارية.. وفي هذه الحالة يكفي في المغايرة بين العالم والمعلوم، المغايرة الاعتبارية، وهي حاصلة في الذات العالمة.. إذ أن فيها لحاظين، لحاظ كونها عالمة، ولحاظ كونها معلومة، وهي بأحد اللحاظين، مغايرة لها باللحاظ الآخر.

أو بتعبير آخر: إن هذا السؤال لا ينحصر في علم اللّه بذاته المقدسة، فهو يجري حتى على علمنا بوجودنا، فنحن نعلم يقينا بوجودنا وندرك بأننا موجودون، فهل يجب أن يكون العالم والمعلوم هنا شيئين أيضا؟ في حين أننا لسنا بأكثر من شيء واحد، خصوصا وأن علمنا بأنفسنا من النوع الحضوري أيضا.

قال فيثاغورث:سلمت لك بهذا.. فما تجيبهم في اعتراضهم على شمول علم الله؟

قال الباقر: ذلك بسيط تدل عليه العقول.. وسأجيبك عنه من وجهين:

أما **أولهما**، فهو أن ما عدا اللّه ممكن، فهو مفتقر في وجوده إليه سبحانه، وإذا كان الأمر كذلك، وكان اللّه علة لكل ممكن موجود، كان لا بد وأن يعلمه، لعدم الانفكاك بين معلوليتها له، ومعلوميتها كذلك.. ولا فرق في هذه الممكنات، بين أن تكون كلية أو جزئية، خارجية أو ذهنية، قبل وجودها وبعده.

وأما **الثاني**، فهو أن اللّه سبحانه حي، لأنه لو لم يكن كذلك، مع اتصاف كثير من الموجودات الممكنة بالحياة، لكان معنى ذلك، أنه أقل كمالاً من الممكنات، وهذا خلف فرض كونه واجباً، وأكمل من كل موجود، كما أن كل حي محتاج في حياته حدوثاً وبقاءً إليه،

فكيف يهب الحياة لو كان فاقـداً لهـا.. وإذا ثبت أنـه حي، فـإن من خصائص الحي، أن يعلم ذاته، كما يعلم غيره.

قال فيثاغورث: فما تقول في استدلال الفلاسـفة على أن اللـه لا يعلم الجزئيات بأن الجزئيات لا تستقر على حالة واحدة، بـل هي دائمة التغير والتبدل.. فإذا جعلناها متعلقة لعلم اللّه سبحانه، لكـان لازم ذلـك تغـير علمـه وتبدلـه، بتغيرهـا وتبـدلها، إذ تغـير المعلـوم، يستدعي تغير العلم، ويـترتب على هـذا، أن الـذات الإلهيـة عُرضـة للتغير المستمر بتغير صفة العلم فيها، وهـو خلـف فـرض وجوبهـا، لأن الواجب ثابت لا يتغير.

قال الباقر: الجـواب على ذلـك بسـيط، فمـا فرضـه هـؤلاء من تغير الذات بتغير المعلوم غير صحيح في حد ذاته، بل الصـحيح هـو أن العلم يبقى على حاله لا يتغير أبداً، وذلك لأن العلم لما كـان من الصفات الحقيقية ذات الإضافة، كان المتغير هـو تلـك الإضـافة بين العلم والمعلوم بعد تغيره.

فلو قلنا مثلاً: زيد يعلم مرض عمرو، ومرض عمرو جزئي، وهـو متعلق لعلم زيد، فلو فرضنا أن مرض عمـرو قـد ارتفـع، فغايـة مـا هناك أن إضافة علم زيد إلى مرض عمرو الجزئي قد انتفت، وذلك لانتفاء ما كان يضاف إليه، لا لانتفاء العلم أو تبدل فيه، بل علم زيـد باق على حاله كما هو واضح.

ومـا قلنـاه في العلم، يجـري عينـاً في غـير العلم من الصـفات الحقيقيـة ذات الإضـافة، كالقـدرة.. فلـو قلنـا مثلاً: زيـد يقـدر على عمرو.. ففي حالة انتفاء عمرو، لا تتبدل القدرة عند زيـد ولا تتغـير، بل هي باقية على حالهـا.. وإنمـا الـذي انتفى وارتفـع هـو الإضـافة الحاصلة بين قدرة زيد وبين متعلقها وهو عمرو لانتفائـه.. وإذا كـان المتغير هو الإضافة فقط بين الصفة الحقيقية وبين متعلقها، يرتفـع الإشكال إذ أن تغير الإضافات جائز، لأنها أمور اعتبارية لا تحقق لهـا في الخارج(1).

أو بتعبير آخر أبسط(2): إن هذا الإشكال يصح فيما إذا كان علم اللّه بالاشـياء الخارجيـة كعلمنـا حاصـل عن طريـق انعكـاس صـور الأشياء.. لأن تغير هذه الموجودات يـؤدي إلى تغـير هـذه المفـاهيم والصور، لكن بما أن علم اللّه علم حضوري وجميـع الأشـياء ماثلـة بين يديه، فـإن هـذا الإشـكال لا معـنى لـه، لأن التغـير يحصـل في

1) راجع في هذا الدليل وجوابه شرح التجريد للعلامة الحلي 222، فما بعدها.
2) انظر: نفحات القرآن، للشيرازي.

موجودات هذا الكون فقـط، لا في ذاتـه المقدسـة، فوجـوده ثـابت ومحيط بهـا جميعـا، والمتغـير هـو الموجـودات المحاطـه، كمـا هـو الحال فيما لو تحرك شخص معين أمامنا فـإن صـورته سـوف تقـع على شـبكية العين، وسـتتغير هـذه الصـورة بتغـير حالـه، فتتغـير المفاهيم الذهنية الموجودة عنه في أذهاننا تبعا للتغييرات، وكل هذا لسبب كون علمنا هنا انعكاسا للأشياء الخارجية فينا، فلو كان علمنا بالأشياء الخارجية علما ناجما من الإحاطـة بجميعهـا لمـا حصـل أي نوع من التغير، بل لكان التغير فيها فقط.

قـال فيثـاغورث: فكيـف يحصـل العلم للّـه بالجزئيـات مـع أن الجزئيات متعددة ومتكثرة، وذاته المقدسة واحدة لا تعرف التعدد؟

قال الباقر: إن هـذا الخطـأ نـاتج عن مقايسـة علم اللّـه بعلمنـا الذي نحصل عليه عن طريق انتقال المفاهيم والصـور الذهنيـة في حين أن علمـه تعـالى بـالموجودات ليس علمـا حصـوليا، بـل هـو حضوري، أي أن جميع الموجودات ماثلة بذاتها بين يديه عـز وجـل، وهو يحيط بها علما دون الحاجة إلى مفاهيم أو صور ذهنية معينة.

قال فيثاغورث: وعيت هذا.. وأحسنت في الإجابة عنه.. فكيـف تجيب من نفى علم الله بالأشياء قبل وجودها؟

قال الباقر: فما استدلوا به على هذه الدعوى؟

قـال فيثـاغورث: لقـد ذكـروا أن اللـه لـو علم بالأشـياء قبـل وجودها، أي أنه لو تعلق علمه بها كذلك، لوجب وجودها.. لأن علمه علة وجود الأشياء.. ولما كان كل شـيء عـداه ممكنـاً، فيلـزم على هذا انقلاب الممكن إلى واجب.. وإلا لزم من عـدم وجودهـا انقلاب علمه إلى جهل.. وهو نقص ينزّه عنه الكامل المطلق.

قال الباقر: ما اعتبروه لازما غير لازم.. ذلك أننا وإن التزمنا بأن الأشياء تصبح واجبة لتعلق علمه بهـا قبـل وجودهـا، إلا أنهـا بهـذا لا تخرج عن الإمكان الـذاتي.. لأن معـنى وجوبهـا حينئـذ، هـو وجوبهـا بالغير، أي وجوبها بوجود علتها، وهـو علمـه سـبحانه - وكـل ممكن بعد وجود علته، يصبح واجباً بتلك العلة.. لا أنهـا تصـبح - كمـا تـوهم هؤلاء - واجبة بالذات.

قــال فيثــاغورث: فكيــف يمكن تصــور علم اللّــه بــالحوادث المستقبلية التي ليس لها وجود خارجي في الـوقت الحاضـر حـتى تقع في دائرة علم اللّه؟ فهل توجد لدى اللّه مفاهيم وصـور ذهنيـة عنها؟ مع تقدسه سبحانه عن أن يكون له ذهن، أو أن يكون علمــه حصوليا؟

قال الباقر: على الرغم من أن هذا الإشكال قد طرح حول العلم بالحوادث المستقبلية إلا انه يرد بنفسه حول الحوادث الماضية المعدومة أيضا، لأن الحوادث الماضية لا وجود لها الآن، فصورة (فرعون) مثلا لا وجود لها حاليا، وقد تلاشت، كما أن تاريخها قد فات أيضا، فنحن نستطيع الوقوف على الماضي بمجرد أن نستحضر في أذهاننا صوره فحسب، لأن علمنا علم حصولي يتحقق بواسطة المفاهيم والصور الذهنية فقط، وبما أن علم اللّه علم حضوري فهو لايعرف أي لون من الوساطة والمفاهيم ،فكيف يمكن تصور علمه بالحوادث الماضية؟

قال فيثاغورث: أجل.. وقد أضفت إلى إشكالي الذي طرحته إشكالا، فكيف تجيب عنه.

قال الباقر: سأجيبك عن هذا من وجهين.

قال فيثاغورث: فهات الوجه الأول.

قال الباقر: الوجه الأول هو أن اللّه محيط علما دائما بذاته المقدسة التي هي علة جميع الكائنات، وهذا العلم الإجمالي بجميع حوادث وموجودات الوجود أزلي وأبدي (اي قبل الإيجاد وبعده)

وبتعبير آخر لو علمنا علل الأشياء لاستطعنا ان نعلم نتائجها ومعلولاتها أيضا، لأن كل علة تستبطن جميع كمالات معلولها وأكثر.

أو بتعبير آخر أبسط من هذا: إن الحوادث الماضية لم تنمح تماما، فإن آثارها موجودة في طيات الحوادث الآنية، وكذلك بالنسبة إلى الحوادث المستقبلية فهي غير منفصلة عن الحوادث الآنية، ولها علاقة معها، وعليه فـ (الماضي) و(الحاضر) و(المستقبل) يشكلون معا سلسلة شبيهة بالعلة والمعلول، بحيث لو اطلعنا على كل واحدة منها بدقة لشاهدنا فيه الحلقات القبلية والبعدية لهذه السلسلة.

فمثلا لو أحطت علما وبدقة بمناخ جميع الكرة الأرضية، وبكل مميزاته وجزئياته وعلله ومعلولاته وحركة الكرة الأرضية ومسألة الفعل ورد الفعل لاستطعت أن تحيط علما بوضعية المناخ قبل أو بعد ملايين السنين بصورة دقيقة لأن شواهد الماضي والمستقبل موجودة فعلا، لا الشواهد الإجمالية، بل تفصيلات الشواهد المنعكسة في جزئيات الحاضر.

فالحاضر يعكس الماضي، والمستقبل يعكس الحاضر، والإحاطة العلمية الكاملة بجزئيات الحاضر معناها الإحاطة الكاملة بحوادث الماضي والمستقبل.. لذا فعندنا تكون حوادث الحاضر

ماثلة بين يدي اللّه تعالى بجميع خصوصياتها، فإنها بمعنى مثول الماضي والمستقبل أيضا بين يديه عز وجل.. فالحاضر مرآة للماضي والمستقبل، ويمكن مشاهدة جميع الحوادث الماضية والمستقبلية في مرآة الحاضر(1).

قال فيثاغورث: سلمت لك بهذا الوجه.. فهات الوجه الثاني.

قال الباقر: تصور أن شخصا محبوسا في غرفة صغيرة لا يوجد فيها سوى ثقب صغير يطل على الخارج، فعندما تمر قافلة من الإبل من أمام هذا الثقب فإن هذا السجين سوف يشاهد رأس البعير أولا، ثم رقبته، ثم سنامه، ثم أرجله، ثم ذنبه، وهكذا الحال بالنسبة لسائر الإبل الأخرى، فصغر الثقب هو السبب في إيجاد حالات من الماضي والحاضر والمستقبل لدى الناظر السجين، لكن المسألة تختلف تماما بالنسبة للواقف على سطح الغرفة، وهو ينظر الى الصحراء نظرة شاملة، فهو يشاهد جميع إبل القافلة في وقت واحد.

ومن هنا يتضح أن إيجاد مفاهيم الماضي والحال والمستقبل ناجمة عن محدودية نظرة الإنسان، فما هو ماض بالنسبة لنا كان مستقبلا لأقوام قد سبقونا، وماهو مستقبل بالنسبة لنا هو الآن ماض بالنسبة لأقوام ستاتي فيما بعد.

اما الذات التي لا يحدها مكان وقد أحاطت بالأزل والأبد، فإن الماضي والحاضر والمستقبل بالنسبه لها لا معنى له، فجميع حوادث الدهرماثلة بين يديها، ولكن كل واحدة في موقعها الخاص، وهي محيطة علما بجميع الحوادث وموجودات العالم، سواء بالماضي، أو بالحاضر، أو بالمستقبل بصورة متساوية.

نعم إن تصور هذا بالنسبة لنا نحن المحبوسين في سجن والزمان والمكان أمر صعب ومعقد، ولكنه في نفس الوقت قابل للتدقيق والمطالعة والتأمل.

5 ـ السميع

قام خامسنا، وكان اسمه (وِلْيَم أوف أكام)، وكان - كسميه الفيلسوف الإنجليزي(2) - شديد الاهتمام بالحواس عظيم التعلق بها.. بل كان يرى أنها الأساس الذي تقوم عليه المعرفة..

1) طبعا هذا من باب التقريب وتيسير الفهم، أما الحقيقة فأعظم من أن نعرفها، أو نستطيع التعبير عنها.

2) هو (وِلْيَم أوف أكام) (1284 -ـ 1347م)، وهو فيلسوف وعالمُ لاهوت إنجليزي.. كان أكثر المفكرين المدرسيين تأثيرًا في القرن الرابع عشر الميلادي. وأدَّت مواقفه تجاه المعرفة والمنطق والاستقصاء العلمي دورًا رئيسيًا في الانتقال من فكر القرون الوسطى إلى الفكر الحديث.

قام، وقال: فما الاسم الخامس للإله الذي بشر به نبيكم؟

قال الباقر: (السَّمِيعُ)(1).. فالله لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفي.. فيسمع السر والنجوى، بل ما هو أدق من ذلك وأخفى، ويدرك دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.. يسمع حمد الحامدين فيجازيهم، ودعاء الداعين فيستجيب لهم.. قال تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهِ قَوْلَ التِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى الله وَالله يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهِ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (المجادلة:1)، وقال: ﴿ لَقَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الذِينَ قَالُوا إِنَّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ﴾(آل عمران:181)، وقال: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (الزخرف:80)،

قال وِلْيَم: ولكن السمع يحتاج إلى آلة، وقد ذكرت لنا أن ربك منزه عن التركيب والجسمية؟

قال الباقر: ذلك سمعنا.. أما الله، فهو الغني الحميد يسمع بغير أصمخة وآذان كما يفعل بغير جارحة، ويتكلم بغير لسان.. وسمعه منزه عن أن يتطرق إليه الحدثان.

قال وليم: كيف ذلك؟

قال الباقر: قبل أن أجيبك أخبرني: كيف هو عقلك الذي تفكر به؟.. وكيف هي روحك التي تحيا بها؟

قال وليم: أنا لم أر روحي ولا عقلي.. فكيف أحكم على ما لم أر؟

قال الباقر: وكذلك الله.. فهو أقدس من أن يحتاج إلى آلة، وأعظم من أن يفتقر إلى جهاز.

6 ـ البصير

---

1) وقد ورد في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾(الشورى: 11)، وقوله - عز وجل -: ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾(النساء:58)، وقد ورد الاسم مقترنا باسم الله العليم في أكثر من ثلاثين موضعا، ومقترنا باسم الله البصير في أكثر من عشرة مواضع، ومقترنا باسم الله القريب في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾(سبأ:50)

وهو في اللغة على وزن فَعِيل من أَبْنِيةِ المُبالغة، ويعني في حقنا ما وَقر في الأُذن من شيء تسمعه، وهو بالنسبة لله تعالى يعبر به عن القوة التي بها يدرك الأصوات كما في قوله: ﴿ خَتَمَ الله عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾(البقرة:7)

ويطلق كذلك على الفهم كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾(البقرة:93)، أي فهمنا قولك ولم نأتمر بأمرك.

ويطلق كذلك على السمع الذي يتعلق بمشيئته سبحانه، والذي فيه إجابة الدعاء أو إسماع من يشاء، وفي الحديث قال ﷺ: (وَإِذَا قَالَ سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ فَقُولُوا رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ) (رواه مسلم)، وقال ﷺ: (اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ، وَدُعَاءٍ لاَ يُسْمَعُ، وَمِنْ نَفسٍ لاَ تَشْبَعُ، وَمِنْ عِلمٍ لاَ يَنْفَعُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلاَءِ الأَرْبَعِ) (رواه الترمذي)

قام سادسنا، وكان اسمه (زينون الرُّواقي)(1)..

قـام، وقـال: من الإدراك الـذي تفتقـر إليـه الحيـاة الكاملـة مـا يرتبط بالبصر.. فهل يبصر الإله الذي بشر به نبيكم؟

قال: أجل.. فمن أسماء ربنـا (البَصَـيرُ)(2).. فاللـه تعـالى يبصـر جميع الموجودات في عـالم الغيب والشـهادة، ويـرى الأشـياء كلهـا مهما خفيت أو ظهرت، ومهمـا دقت أو عظمت.. وهـو مطلـع على خلقه يعلم خائنة الأعين ومـا تخفى الصـدور، لا يخفى عليـه شـيء من أعمال العباد، بل هو بجميعها محيط، ولها حافظ ذاكـر، فالسـر عنده علانية والغيب عنده شهادة، يرى دبيب النملـة السـوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى نيـاط عروقهـا ومجـاري القوت في أعضائها.

قال تعالى حاكيا عن موسى - عليه السلام -: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْـدَةً مِّن لِّسَـانِي يَفْقَهُـوا قَـوْلِي وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْـدُدْ بِـهِ أَزْرِي وَأَشْـرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِـيراً إِنَّكَ كُنتَ بِنَـا بَصِـيراً قَـالَ قَـدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾(طه:25- 35)

وقال حاكيا عن مؤمن آل فرعـون: ﴿ وَيَـا قَـوْمِ مَـا لِي أَدْعُـوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لأَكْفُـرَ بِاللـهِ وَأُشْـرِكَ بِـهِ مَـا

---

1) أشير بـه إلى زينـون الـرُّواقي (335 ؟ـ -ـ 265 ؟ ق.م)، وهـو مؤسِّـس الفلسـفة الرواقية في أثينا. ولد زينـون في مدينـة سيشـيوم بجزيـرة قـبرص. ويُـذكر أنـه كـان في الأصل تاجراً، لكن تجارته تدهورت كما أنـه فقـد كـل ممتلكاتـه ورحـل إلى أثينـا في عـام 314 ق.م. ومكث زينون هناك حيث درس الفلسفة وكان يلتقي بتلامذتـه في رواق، وهـو الاسم الذي اشتُق منه اسم المذهب الرواقي.

وقد أدرك زينون أن من الحماقة أن يحـاول المـرء أن يشـكِّل ظروفـه طبقـاً لرغباتـه، فالكون لايسير سيرة آلة عمياء. ولكنـه إبـداع إلهي يهـدي الأشـياء ويوجِّهها ويتحكم فيهـا لتصـل في النهايـة إلى كـل مـا هـو طيب وحسـن. ولابـد للعقلاء من النـاس أن يوائمـوا رغباتهم مع طبيعة الأحداث. وسوف يجد هؤلاء سعادتهم في التحـرر من الرغبـة والتحـرر من الخوف من الشرور والآثام وفي إدراك أنهم يعيشون في تناغم وانسجام مـع الغـرض الإلهي الذي يواجه الأشياء. وقـد انتشـرت الفلسـفة الرواقيـة في رومـا وازدهـرت هنـاك طوال عدد من القرون بعد الميلاد. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

2) وقد ورد النص عليه في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ سُـبْحَانَ الـذِي أَسْـرَى بِعَبْـدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلى المَسْجِدِ الأَقْصَى الـذِي بَارَكْنَـا حَوْلـهُ لِنُرِيَـهُ مِنْ آيَاتِنَـا إِنَّهُ هُـوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾(الإسراء:1)، وقوله: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَـةِ رُسُـلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّه سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾(الحج:75)، وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَـةً أَتَصْـبِرُونَ وَكَـانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾(الفرقان:20)

ومعناه واضح، فالله تعالى يسمع كل شيء، ولا يعزب عن سمعه شـيء في الأرض ولا في السماء.

وقد يطلق البصر والرؤية ويراد بها القبول، كمـا قـال تعـالى: ﴿ أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِـرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللـه وَلا يَنْظُـرُ إِلَيْهِمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَلا يُـزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(آل عمران:77)

لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾(غافر:41- 44)

وقال حاكيا عن داود ﴿:عليه السلام وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (11)﴾ (سبأ: 10-11)

وقال آمرا رسوله ﴿:عليه السلام فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219)﴾ (الشعراء)

قال زينون: عرفنا الدليل النقلي.. ولكنا لا نسلم به.. نحن لا نسلم إلا لما تدل عليه عقولنا.

قال الباقر: لاشك أنك تسلم لي كما يسلم رفاقك جميعا بأن الخالق أكمل من المخلوق.

قال زينون: أسلم لك بذلك.. وقد سبق أن حدثتنا عن ذلك.

قال الباقر: ومعلوم بالبديهة أن البصير أكمل ممن لا يبصر، والسميع أكمل ممن لا يسمع.. ولهذا يستحيل أن يثبت وصف الكمال للمخلوق ولا نثبته للخالق.

قال زينون: فما تقول لمن ينازعك في أن السمع والبصر كمال؟

قال الباقر: هذا مدرك ببديهة العقل، فإن العلم كمال والسمع والبصر كمال ثان للعلم، فمن علم شيئاً ولم يره ثم رآه استفاد مزيد كشف وكمال، فكيف يقال إن ذلك حاصل للمخلوق وليس بحاصل للخالق، أو يقال إن ذلك ليس بكمال، فإن لم يكن كمالاً فهو نقص أو لا هو نقص ولا هو كمال، وجميع هذه الأقسام محال، فظهر أن الحق ما ذكرته لكم.

قال زينون: ما ذكرته في السمع والبصر يلزمكم في الإدراك الحاصل بالشم والذوق واللمس لأن فقدها نقصان ووجودها كمال في الإدراك، فليس كمال علم من علم الرائحة ككمال علم من أدرك بالشم، وكذلك بالذوق فأين العلم بالطعوم من إدراكها بالذوق؟

قال الباقر: لقد صرح المحققون(1) من هذه الأمة بإثبات جميع أنواع الإدراكات لله دون الأسباب التي هي مقترنة بها في العادة من المماسة والملاقاة، فإن ذلك محال على الله تعالى.. ولكن بما أنه لم يرد الشرع إلا بلفظ العلم والسمع والبصر فإننا – أدبا مع الله- لا نطلق ذلك عليه.

قال زينون: لكن هذا يلزمكم ويلزم محققيكم بإثبات التلذذ والتألم، فالخدر الذي لا يتألم بالضرب ناقص، وفساد الشهوة نقصان، فينبغي أن نثبت – على منوال ما ذكرتموه- في حق الله الشهوة التي نثبتها لأنفسنا.

قال الباقر: شتان بين هذا وذاك.. فالإدراك التي دلت عليها النصوص، وأثبتها العقل إدراكات كمال، أما ما ذكرته فإدراكات نقص، والله منزه عن النقص..

قال زينون: أنت تحتاج للبرهنة على أنها نقص؟

قال الباقر: من السهل إثبات ذلك.. فما ذكرته من الإدراكات محوج إلى أمور توجب الحدوث، فالألم نقصان، ثم هو محوج إلى سبب هو الضرب، والضرب مماسة تجري بين الأجسام..

واللذة ترجع إلى زوال الألم - إذا حققت - أو ترجع إلى درك ما هو محتاج إليه ومشتاق إليه، والشوق والحاجة نقصان، فالموقوف على النقصان ناقص.

ثم إن معنى الشهوة طلب الشيء الملائم، ولا طلب إلا عند فقد المطلوب، ولا لذة إلا عند نيل ما ليس بموجود، وكل ما هو ممكن وجوده لله فهو موجود فليس يفوته شيء حتى يكون بطلبه مشتهياً وبنيله ملتذاً.

ولهذا، فإن جميع هذه الأمور لا تتصور في حقه تعالى..

قال زينون: فكيف نعتبر ذلك كمالا في أنفسنا؟

قال الباقر: هو كمال اعتباري لا كمال حقيقي.. ففقد التألم والإحساس بالضرب نقصان في حق الخدر، ولذلك كان إدراكه عند السليم كمال.. وسقوط الشهوة من معدته نقصان، وثبوتها كمال أريد به أنه كمال بالإضافة إلى ضده الذي هو مهلك في حقه، فصار كمالاً بالإضافة إلى الهلاك لأن النقصان خير من الهلاك فهو إذاً ليس كمالاً في ذاته بخلاف العلم وهذه الادراكات.

قال زينون: ولكن البصر نقصان بهذا الاعتبار أيضا، فهو يحتاج إلى آلة؟

---

1) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي.

قال الباقر: ذلك بصرنا.. أما الله فإبصاره منزه عن أن يكون بحدقة وأجفان.. ومقدس عن أن يرجع إلى انطباع الصور والألوان في ذاته كما ينطبع في حدقة الإنسان.. فإن ذلك من التغير والتأثر المقتضي للحدثان.

قام توما، وقال: لقد كنت أقول ما تقول لولا أن بعضهم اعترض عليهم بقوله: إن كان سمع الله وبصره حادثين كانا محلاً للحوادث، وهو محال.. وإن كانا قديمين فكيف يسمع صوتاً معدوماً، وكيف يرى العالم في الأزل والعالم معدوم والمعدوم لا يرى؟

قال الباقر: من السهل الإجابة عن هذا.. فهو إما أن يصدر ممن يسلم بأن الله يعلم الحادثات، وإما أن صدر من منكر لكونه عالماً بالحادثات المعينة الداخلة في الماضي والحال والمستقبل.

قال توما: فكيف تجيب الأول منهما؟

قال الباقر: أقول له: إن الله يعلم أن العالم كان موجوداً قبل هذا، فكيف علم في الأزل أنه يكون موجوداً وهو بعد لم يكن موجوداً؟ فإن جاز إثبات صفة تكون عند وجود العالم علما بأنه كائن، وفعله بأنه سيكون وبعده بأنه كان، وقبله بأنه سيكون، وهو لا يتغير عبر عنه بالعلم بالعالم والعلمية، جاز ذلك في السمع والسمعية والبصر والبصرية.

قال توما: فكيف تجيب الثاني؟

قال الباقر: ننتقل به إلى الكلام في العلم لنثبت له جواز تعلق علم القديم بالحادثات.. فإذا ثبت له ذلك في العلم قسنا عليه السمع والبصر.

7 ـ المريد

قام سابعنا، وكان اسمه (أفلوطين).. وكان من المتحمسين لآراء سميه أفلوطين(1)، وكان يرى - كما يرى سميه - أن الوجود يتكون من أربعة جواهر أولية مرتبةً ترتيبا تنازلياً تبدأ من الواحد..

---

1)هو أفلوطين (205 ـ 270م) كان مؤسس المدرسة اليونانية الفلسفية التي تُعرف باسم الأفلاطونية المحدثة.. عرف بغزارة العلم، كان يجتمع إليه في مجلسه العلماء والكبراء وتتلمذ له كبار الساسة.. وقد أطلق العرب على مذهبه مذهب الإسكندرانيين، وأطلق عليه الشهرستاني (الشيخ اليوناني)

بدأ أفلوطين كتابة مؤلفاته وهو في سن الخمسين تقريباً، وكان يعهد إلى تلميذه (فورفوريوس) مراجعة ما يكتب. وقد ترك مجموعة من الرسائل الفلسفية، لكنها لم تقدم عرضاً منظماً ومرتبا لفلسفته، بل كانت مجرد شروح لنصوص أفلاطونية أو أرسطية أو رواقية، أو أجوبة لأسئلة وردت على واحد منها. جمع فورفوريوس رسائل أستاذه أفلوطين بعد وفاته في ستة أقسام، وفي كل قسم منها تسع رسائل وقدم لها بترجمة له، ولهذا عرفت بالتاسوعيات.(انظر: الفلسفة اليونانية:بيصار ص.154 -153)

ثم العقل.. ثم النفس.. ثم المادة.

قام في ذلك المجلس، وقال: فكيف فسر نبيكم وجـود الكـثرة في الكون مع أن الله واحد.. ولا يصدر من الواحد إلا واحد؟

قال الباقر: ذلك يسير.. فلله الإرادة المطلقة.. وهو يخصص بها الممكنـات ببعض مـا يجـوز عليهـا.. ومـا نـراه في الكـون هـو تخصيصات إلهية..

لقد ذكر اللـه ذلـك، فقـال: ﴿ لَقَـدْ كَفَـرَ الَّذِينَ قَـالُوا إِنَّ اللَّهَ هُـوَ الْمَسِـيحُ ابْنُ مَـرْيَمَ قُـلْ فَمَنْ يَمْلِـكُ مِنَ اللَّهِ شَـيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِـكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ (17)﴾ (المائدة)

وقال:﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَمِنْ خَلْفِـهِ يَحْفَظُونَـهُ مِنْ أَمْـرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَـا بِقَـوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَـا بِأَنْفُسِـهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11)﴾ (الرعد)

قال أفلوطين: لكن صاحبي أفلوطين يقول خلاف هذا.

قال الباقر: فما يقول؟

قال أفلوطين: لقـد ذكـر أن الوجـود يتكـون من أربعـة جـواهر أولية مرتبةً ترتيبا تنازلياً تبدأ من الواحـد.. ثم العقـل.. ثم النفس.. ثم المادة.

أما المرتبة الأولى، فتتشكل من الواحد أو الوجـود الأول.. وهـو لا يشبه شيئاً من الموجودات، يتعذر وصفه بصـفات إيجابيـة، ولكن يمكن وصفه بصفات سلبية، كأن يقال:إنـه ليس حركـة، وليس في مكـان أو زمـان وليس صـفة، وليس ذاتـاً، وغـير ذلـك من صـفات السلوب.. وهو واحد من جميع الوجوه، واحد في التصـور الـذهني، وواحد في الواقع، لا توجد فيه كثرة بأي اعتبار، والتركيب لا يتطرق إليه بأي وجه من الوجوه، لذا فهو بسيط كل البسـاطة وهـو واحـد في الـذات وحـدة مطلقـة.ولكونـه واحـد فلا يقـال عنـه: عقـل ولا معقول، لأننا إذ وصـفناه عقلاً يجب أن نتصـور في دائرتـه ومرتبتـه معقولاً معه.كمـا لا يوصـف بأنـه جـوهر ولا بأنـه عـرض لأنهمـا من الأمور النسبية.

وقد دعاه نفي الكثرة عن الأول إلى أن يتلزم القول بأن صدور العالم عنه يكون بالطبع، لا بالإرادة، لأن إضافة الإرادة له في نشأة العالم تستلزم مراداً، وهـذا يقتضـي تكـثراً في التصـور على الأقـل والفرض أنه واحد من كل وجه.

ولهذا، فإن اللـه – كمـا يقـول صـاحبي- ليس خالقـاً ولا صـانعاً، لكن الموجودات تفيض عنـه دون أن يعلمهـا أو يعـنى بهـا، والعـالم المادي صادر عن النفس الكلية وهي علة نظامه وحركاته.

أما المرتبة الثانية، وهي العقل، فهو يرى فيه أنه صدر مباشــرة عن الأول، وهو في المرتبة الثانية بعده، ووحدة الأول من كل وجـه تتكثّـر في العقـل الآن بالاعتبـار، لأنّ مقتضـى كونـه عقلاً يسـتلزم معقولا أي يستلزم موضوعاً للتعقل، فهنا اثنينية في التصور حـدثت بعد وحدة مطلقة كانت للأول.. وقـد صـدر العقـل عن الأول لا في وقت وزمن، وصدوره عنه مباشرة لا يقلّـل من جـوهره ولا يسـبّب له ضعفاً ولا نقصاً، وصدوره عن الأول بالطبع لا بالإرادة والاختيار.. ولما يوجد بينه وبين الواحد من شبه فإنّ قوتـه تفيض شـيئاً غـيره، وهو النفس الكلية.

أمـا المرتبـة الثالثـة، وهي النفس الكليـة، فهـو يـرى أنهـا آخـر الموجودات في عالم المجردات، وبها تتحقق الصـلة والرابطـة بين العالم المحسوس والعالم غير المحسـوس أو العـالم الإلهي، وهي مشغولة بتأمل الأول، وبتدبير الثاني كامتداد لتأملهـا الأول.. وتفيض هذه النفس فتصدر عنها نفوس الكواكب ونفـوس البشـر ونفـوس الأجسام.

وهي في جملتها لها قوة التدبير والإيجـاد فيمـا تحتهـا نيابـة عن العقل فوقها، فالعقل موكل عن الأول بدوره في الإيجـاد لمـا تحتـه والتأثير فيه، ولأنهـا نائبـة فقـط في إيجـاد هـذا العـالم المحسـوس وتدبيره فرض أفلوطين على هذا العالم الشكر للعقـل دونهـا على نعمة الوجود.

أما المرتبة الرابعة، وهي المادة، فهو يرى أنها أصل هذا العـالم المشاهد، وهو ما تحت النفس الكلية، ووجوده كشعاع لها فقط، إذ المادة التي هي أصله تحد من الحقيقة فيه، لأنها نقص، بينما العالم المجرد أو العالم المعنوي كله حقائق محضة فهذا العالم ليست لـه حقيقة ذاتية، وبالتالي ليس له كمـال ذاتي، ومـا فيـه من حقيقـة أو كمال صورة لعالم المجردات أو شعاع لضوئه.

وهو يرى أنّ وحدة الوجود بين أجزاء العـالم ومراتبـه المختلفـة تتم بالتعقل الذي يرد الكثرة إلى الوحدة، والمتعدد إلى الواحد، وما دامت وحـدة العـالم تتم بالتأمـل والفكـر فـإن الوجـود الحقيقي للأشياء لا يكون شيئاً سوى هذا التأمل.

وعلى هذا فإنه يقرر بأن الموجود الأدنى (الطبيعة) إنما يحصـل

على صورة الأعلى (النفس) بتأمله له فيتحد بـه، وهكـذا يكـون مـا بين النفس والعقل ثم ما بين العقل والواحد المطلق الذي لا توجد فيه كثرة ما(1).

ابتسم الباقر، وقال: فما الذي حمل صاحبك على القول بهذا؟

قال أفلوطين: ما دل عليه العقل من أن الواحد لا يصدر منه إلا واحد.

قال الباقر: فما دليله عليها؟

قال أفلوطين: الأدلة على ذلك كثيرة.. منها أنه لو كـان الواحـد الحقيقي مصـدرا لأمـرين كـ: (الـف) و(ب) مثلا، كـان مصـدرا لـ: (الف) ومـا ليس (الـف)، لأن (ب) ليس (الـف)، فيلـزم اجتمـاع النقيضين.

ومنها: أن البسيط إذا كانت ذاته بحسب الحقيقة البسيطة علـة لشيء، كانت ذاته محض علة ذلـك الشـيء، بحيث لا يمكن للعقـل تحليلها إلى ذات وعلة، لتكون عليتهـا لا بنفسـها من حيث هي، بـل بصفة زائدة، أو شـرط، أو غايـة، أو وقت، أو غـير ذلـك، فلا يكـون مبدأ بسيطا بل مركبا، فاذا كان كذلك، وصدر عنه أكـثر من واحـد ـ ولا شك أن معنى مصدر ذا غير معنى مصدر ذا ــ فتقـوم ذاتـه من معنيين مختلفين، وهو خلاف المفروض.

ومنها: أنه لو صدر عن الواحد الحقيقي البسـيط اثنـان فإمـا أن يصـدرا بجهـة واحـدة أو بجهـتين، ولا سـبيل إلى الأول لاسـتلزامه صيرورة الاثنين واحدا، وهما اثنان، هذا خلف، ولاسبيل إلى الثـاني، لاستلزامه كون العلة مركبة غير بسيطة، وهذا خلف.

ومنها أنه إذا كانت الخصوصية البسـيطة مقتضـية لوجـود (ب) ومقتضية لوجود(ج)، فاذا صـدر عنـه (ج) لم لم يصـر (ب)؟ واذا صـدر عنـه (ب) لم لم يصـر (ج)؟ فالخصوصـية البسـيطة لا تفي لوجود أي منهما، فلابد من جهة زائدة عنه صدور (ب) صار بسببها (ب)، ومن جهة زائدة أخرى عنـه صـدور (ج) صـار بسـببها (ج)، وهذا خلف.

قال الباقر: إن كل ما ذكرته من أدلـة على أن الواحـد لا يصـدر منه إلا الواحد صحيح.. ولكن الشأن ليس فيما يقوله العقـل، وإنمـا الشأن في تطبيق ما يقول العقل على ما نحن فيه.

قال أفلـوطين: أتـرى أن صـاحبي أخطـأ في تطـبيق مـا يقـول العقل على هذا؟

---

1)انظر الفلسفة اليونانية:د.محمد بيصار، وغيره.

قال الباقر: أجل..
قال أفلوطين: كيف ذلك؟
قال الباقر: إن النتيجة التي تنص عليها قاعدة (الواحد لا يصدر منه إلا الواحد) هي عدم صدور أزيد من الواحد من جهة واحدة، لا عدم صدوره من فاعل واحد، ولو مع تعدد الجهة.
أو بعباره أخرى.. إن نتيجة ما ذكرت من البراهين هي أن العلة الواحدة لا يكون لها إلا معلول واحد، والفاعل المختار إنما يصير علة تامة لفعل إذا تعلقت به مشيته، وحصلت جميع شرائط وجود ذلك الفعل ومعداته.
ولهذا فلا استحالة في صدور أفعال كثيرة من فاعل واحد بسيط لأجل جهة خاصة لكل واحد منها، كما نراه ونشاهده من أنفسنا، فإن النفس الناطقة لنا بوحدتها مصدر أعمالنا كلها في جميع شؤون الحياة، وكل ما يصدر من جوارحنا يصدر من نفس واحدة، فإنها العلة المحركة لحركات الأعضاء جميعها.
ومن المعلوم أنه ليس مصدر تلك الأفعال إلا وجود النفس، فإن الذي يصدر عنه الوجود هو الوجود دون الماهية، وهو واحد بسيط وإن كانت ماهيتها مركبة من الجنس والفصل، إلا أن وجودهما واحد وإلا لم يحصل التصادق بينهما.
بالإضافة إلى هذا، فإن قاعدة: (الواحد لا يصدر منه الا الواحد) كما تستلزم عدم صدور أزيد من واحد من الواحد، كذلك تستلزم عدم صدور أزيد من اثنين من الاثنين، وعدم صدور أزيد من ثلاث من الثلاث، وهكذا.
فلو قلنا بأن صدور الأفعال المتعددة من فرد الإنسان لأجل تركب ماهيته من أجناس وفصول عديدة بعيدة وقريبة، كان لازمه كون الأفعال الصادرة منه بعدد أجزاء ماهيته من الاجناس والفصول، لا أزيد من ذلك.
ومن المعلوم كون عدد أجزاء ماهية الإنسان لا تزيد على عدد الأصابع، فكيف يصدر منه أفعال كثيرة لا تحصى كثرة؟
قال أفلوطين: فما منشأ تعدد أفعال النفس مع وحدتها؟
قال الباقر: ليس منشأ التعدد إلا تعدد الإرادة المتعلقة بها.. ومنشأ تعدد الإرادات تعدد الدواعي والفوائد الملحوظة لكل واحد من الأفعال.. فالإنسان الواحد بوحدته عالم بجميع الفوائد الملحوظة فيها، وعلمه بكل واحد من فوائد تلك الأفعال هو الجهة الفارقة له في كونه فاعلا له، ولكن الموجد لجميع تلك الأفعال هو

هذا الفرد من الإنسان لا تلك الفوائد الملحوظة.

8 ـ القادر

قام ثامننا، وكان اسمه (أنكسيمانس)، وكان كسميه (أنكسيمانس)(1) من الموحدين(2)، وكان شديد التعظيم للهواء، وكان يرى أنه أصل الكون، وأنه المبدأ الأول للوجود، ومنه تكون جميع ما تكون في العالم من الأجرام العلوية والسفلية.

وكان يرى أن جميع الأشياء تتولد عن طريق التخلل والتكاثف، فإذا تخلخل الهواء صار ناراً، ومن النّار تولدت كل الأشياء النّارية كالكواكب والنجوم مثلاً، وإذا تكاثف الهواء نشأت عنه الرياح والعواصف والسحب ثم الأمطار، ثم تتكاثف الأمطار فينتج عنها الأتربة والرمال والصخور.

وكان يقول: ما كوّن من صفو الهواء المحض لطيف روحاني، لا يدثر ولا يدخل عليه الفساد، ولا يقبل الدنس والخبث، وما كوّن من كدر الهواء كثيف جسماني يدثر، ويدخله الفساد، ويقبل الدنس والخبث، فما فوق الهواء من العوالم فهو من صفوه، وما دون الهواء من العوالم فهو من كدره(3).

قام في ذلك المجلس، وقال: من الكمالات التي لا مناص منها للكامل أن يكون قادرا لا يعجزه شيء.

قال الباقر: صدقت.. ولذلك فإن الله هو القادر.. وهو القَدِيرُ.. وهو المقتدر(4).. قال تعالى يعرفنا بنفسه: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(آل عمران:26)، وقال:﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ

---

1)هو أنكسيمانس أو أنكزمينس 588-528) ق.م.

2)حيث أنه كان يقول بأن الباري تعالى أزلي لا أول له ولا آخر، هو مبدأ الأشياء، ولا بدء له، هو المدرك من خلقه، أ نّه هو فقط، وأنه لا هوية تشبهه، وكل هوية فمبدعة منه، هو الواحد ليس كواحد الأعداد، لأنّ واحد الأعداد يتكثر وهو لا يتكثر، وكل مبدع ظهرت صورته في حد الإبداع، فقد كانت صورته في علمه الأول.

3)الملل والنحل125/3-126.

4) الأسماء الدالة على قدرة الله كثيرة منها:

القادر: كما قال تعالى:﴿ قُلْ هُوَ القادر على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ (الأنعام: 65)، وقال في أول سورة القيامة:﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ بلى قادرين على أَن نُّسَوّىَ بَنَانَهُ ﴾ (القيامة: 3 ـ 4)، وقال في آخر السورة:﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بقادر على أَن يُحْيِىَ الموتى ﴾ (القيامة: 40)

القدير: قال تعالى:﴿ تَبَارَكَ الذى بِيَدِهِ الملك وَهُوَ على كُلّ شَىْء قَدِيرٌ ﴾ (الملك: 1) وهذا اللفظ يفيد المبالغة في وصفه بكونه قادراً.

المقتدر: قال تعالى:﴿ وَكَانَ الله على كُلّ شَىْء مُّقْتَدِرًا ﴾ (الكهف: 45) وقال:﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (القمر: 55)

مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ ﴾(يس:81)، وقال: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾(المعارج:40/41)، وقال: ﴿ وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾(المؤمنون:95)

قال أنكسيمانس: نحن لا تهمنا الدعاوى التي تطلقها النصوص التي تزعم لها القداسة.. بل نريد الأدلة العقلية.. فأنت تعلم أننا أصحاب عقول.. ولا يمكن أن نترك عقولنا لنستسلم لأي مقدس.

قال الباقر: إن كل ذرة من ذرات الوجود تدل على هذا..

قال أنكسيمانس: خاطبنا بما ألفناه من أساليب المناطقة.. فلا نريد الأدلة الخطابية.

قال الباقر(1): ألا ترى بحسك أن العالم فعل محكم مرتب متقن منظوم مشتمل على أنواع من العجائب والآيات.

قال أنكسيمانس: بلى.. فما علاقة ذلك بقدرة الله؟

قال الباقر: ألم يدلك المنطق العقلي على أن كل فعل محكم إنما يصدر من فاعل قادر؟

قال أنكسيمانس: بلى..

قال الباقر: والعالم فعل محكم.. وهو يدل بذلك على أنه صادر من فاعل قادر.

قال أنكسيمانس: فما تقول إن نازعتك في المقدمة الأولى، فطالبتك بالدليل المثبت بأن العالم فعل محكم.

قال الباقر: الدليل على كونه محكماً ترتبه ونظامه وتناسبه، فمن نظر في أعضاء نفسه الظاهرة والباطنة ظهر له من عجائب الإتقان ما يطول حصره، فهذا أصل تدرك معرفته بالحس والمشاهدة فلا يسع جحده(2).

قال أنكسيمانس: فما تقول إن نازعتك في المقدمة الثانية، فطالبتك بالدليل المثبت على أن كل فعل مرتب محكم يطلب فاعلا قادرا؟

قال الباقر: هذا مدركه ضرورة العقل؛ فالعقل يصدق به بغير دليل.. ولا يقدر العاقل على جحده..

قال أنكسيمانس: فإن عاندتك في هذا.. وطالبتك بالدليل عليه.

قال الباقر: إن الفعل الصادر من الذات لا يخلو إما أن يصدر عنه لذاته أو لزائد عليه، وباطل أن يقال صدر عنه لذاته، إذ لو كان

---

1) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي.

2) انظر الأدلة المفصلة على هذا في فصل (البديع) من هذه الرسالة.

كذلك لكان قديماً مع الذات فدل على أنه صدر لزائد على ذاته، والصفة الزائدة التي بها تهيأ للفعل الموجود نسميها قدرةً(1)، إذ القدرة في وضع اللسان عبارة عن الصفة التي يتهيأ الفعل للفاعل وبها يقع الفعل.

قال الباقر(2): لاشك أنك تعلم أن الوجود لا يتعدى إحدى حالتين: إمامستقل بالذات، ويدعى (واجب الوجود)، أو محتاج إلى غيره، ويدعى (ممكن الوجود)

ولاشك أنك تعلم كذلك أن (واجب الوجود) يستحيل أن يكون أكثر من واحد.. وأن ما عداه لابد أن يكون (ممكن الوجود).. وبهذا فإن جميع الممكنات محتاجة إليه تعالى، لا فى بداية إيجادها فحسب، بل في بقائها واستمرارها..

والقول بهذا كله يستدعي الإيمان بقدرة اللّه تعالى على كل شيء.

قال أنكسيمانس: لا بأس.. فما متعلقات هذه القدرة؟

قال الباقر: قدرة الله متعلقة بجميع المقدورات.

قال أنكسيمانس: أنا كذلك قدرتي متعلقة بجميع المقدورات التي أطيقها.

قال الباقر: مقدورات الله هي الممكنات كلها.. وبما أن الممكنات لا نهاية لها فكذلك لا نهاية للمقدورات.

قال أنكسيمانس: فما تعني بقولك (لا نهاية للممكنات)

قال الباقر: إن خلق الحوادث بعد الحوادث لا ينتهي إلى حد يستحيل في العقل حدوث حادث بعده، فالإمكان مستمر أبداً والقدرة واسعة لجميع ذلك.

قال أنكسيمانس: فما البرهان على ذلك؟

قال الباقر: البرهان على عموم تعلق القدرة هو أنه قد ظهر أن صانع كل العالم واحد، فإما أن يكون له بإزاء كل مقدور قدرة، والمقدورات لا نهاية لها فتثبت قدرة متعددة لا نهاية لها وهو محال لأن ذلك يؤدي إلى دورات لا نهاية لها، وإما أن تكون القدرة واحدة فيكون تعلقها مع اتحادها بما يتعلق به من الجواهر والأعراض مع اختلافها لأمر تشترك فيه ولا يشترك في أمر سوى الامكان، فيلزم منه أن كل ممكن فهو مقدور لا محالة وواقع بالقدرة.

وبالجملة، إذا صدرت منه الجواهر والأعراض استحال أن لا

---

1) طبعا هذا على مذهب جمهور المتكلمين، والخلاف في المسألة مشهور، وهو خلاف لفظي، ولذلك يرى القارئ أنا في هذه الرسالة وغيرها نذكر كلا القولين.

2) انظر هذه الأدلة في نفحات القرآن للشيرازي.

يصدر منه أمثالها، فإن القدرة على الشيء قـدرة على مثلـه إذ لم يمتنع التعدد في المقدور لنسبته إلى الحركات كلهـا والألـوان كلهـا على وتيرة واحدة فتصلح لخلو حركة بعد حركة على الـدوام، وكـذا لون بعد لون وجوهر بعد جوهر وهكذا.. وهو الذي عنيناه بقولنـا إن قدرته تعالى متعلقة بكل ممكن فـإن الإمكـان لا ينحصـر في عـدد. ومناسبة ذات القـدرة لا تختص بعـدد دون عـدد ولا يمكن أن يشـار إلى حركة فيقال إنها خارجة عن إمكان تعلق القـدرة بهـا، مـع أنهـا تعلقت بمثلها إذ بالضرورة تعلم أن ما وجب للشيء وجب لمثله.

سكت أنكسيمانس قليلا، ثم قال، وهو يبتسم: فمـا تقـول لمن توجه إليك بهذا السؤال المعجز.. فقال: (هـل يسـتطيع ربـك خلـق صخرة يعجز عن حملها؟)(1)

ابتسم الباقر، وقـال: هـذا ليس سـؤالا معجـزا، بـل هـو سـؤال سفسطائي عبثي.

قـال أنكسـيمانس: ألعجـزك عن الإجابـة عنـه اعتبرتـه سـؤالا سفسطائيا؟

قال الباقر: أفيكم رياضي.. فإني أريد أن أسأل سؤالا له علاقـة بالرياضيات.

قال أنكسيمانس: كلنا رياضيون.. فيستحيل أن نكـون فلاسـفة، ثم لا تكون لدينا عقول رياضيين.

قال الباقر: فأجبني إذن.. ما الاحتمالات في تـرتيب الأرقـام 1، 2، 3؟

قال أنكسيمانس: إنها ستة احتمالات.

قال البـاقر: فلـو سـألنا شخصـا هـذا السـؤال، فأعطانـا أربعـة احتمالات، ولم يستطع أن يعطينا الاحتمـالين الخـامس والسـادس، فهل يقال في حقه أنه عاجز عن الجواب؟

قـال أنكسـيمانس: نعم، يقـال ذلـك، لأنـه بقي احتمـالين، ولم يعرفهما.

قال الباقر: فلو ذكرنا هذا السؤال لعبقري زمانه، وقلنا له: اذكر لنا احتمالات الأرقام السابقة، فأعطانا الاحتمالات الستة كلها، فقلنا له: لن يثبت لنا كونك عالما بحق حتى تعطينا احتمالا سابعا لـترتيب هذه الأرقام الثلاثة؟ فماذا تتوقع أن يقول لك هذا العبقري؟

قال أنكسيمانس: سوف يقول بكل بساطة: يا جاهل، يسـتحيل

---

1) هذه شبهة كثيرا ما يطرحها الملاحدة، والإجابات عن ذلك كثيرة وخلاصتها ترجع لما ذكرناه هنا، وهي منقولة بتصرف من محال مختلفة.

وجــود احتمــال ســابع، لأن القســمة العقليــة لا تــوجب إلا هــذه الاحتمالات الستة، ويستحيل عقلا وجود احتمال سابع.

قال الباقر: فهل نستطيع أن نصف هذا العبقـري بأنـه عـاجز أو أن معرفته بالرياضيات ناقصة لأنه لم يستطيع أن يعطينا الاحتمــال السابع؟

قال أنكسيمانس: لا..

قال الباقر: لم؟

قال أنكسيمانس: لأنه ببساطة لا يوجد احتمال سـابع.. بـل هـو مستحيل.

قال الباقر: فالقدرة لا تتعلق إذن بمستحيل؟

قال أنكسيمانس: أجل..

قال الباقر: والعاجز عن فعل المستحيل هل يسمى عاجزا؟

قال أنكسيمانس: لا.. لا يسمى عاجزا.

قال الباقر: فقد أجبت نفسك إذن..

قال أنكسيمانس: لم أفهم.

قال الباقر: إن القدرة لا تتعلـق إلا بالممكنـات.. وبمـا أن عجـز الله مستحيل، فيستحيل أن تتعلق قدرة الله بما يعجزه.

قال أنكسيمانس: إن ذلك في حق البشـر فقـط، أمـا في حـق الله، فلا بد أن تتعلق القدرة بالواجبات.. بل بالمستحيلات.

قال الباقر: من أين لك هذا؟

قال أنكسيمانس: هذا من مقتضى كماله.

قـال البـاقر: بـل من مقتضـى كمـال اللـه أن لا تتعلـق قدرتـه بالواجبات.. لأن وجود الله تعالى واجب، فلـو تعلقت القـدرة بإفنـاء نفسه لكان هذا دليلا على أن وجوده ممكن وليس بـواجب، ولكـان هذا دليلا على أنه ليس الإلـه الخـالق، لأن الخـالق للموجـودات من العدم يستحيل عقلا أن يكون له بداية، لأنه لو كـان لـه بدايـة لكـان مخلوقا، والمخلوق يسـتحيل عقلا أن يخلـق شـيئا من العـدم، فـإذا كان الله تعالى هو خالق الموجودات من العدم، دل ذلـك على أنـه ليس له بداية، وهذا معنى واجب الوجود.

قال أنكسيمانس: لم أفهم.

قال الباقر: سأضرب لـك مثـالا يقـرب لـك هـذا.. أرأيت لـو أن شخصا اسـتخرج بيـد نفسـه قلبـه من صـدره، وقطعـه عن وريـده بالسكين، واستمر ذلك يـومين، ولم يمت، وشخصـا آخـر اسـتخرج قلبه بيد نفسه من صدره فمات.. أيهما الكامل، وأيهما الناقص؟

قال أنكسيمانس: الأول هـو الكامـل بلا شـك، لأنـه بـالرغم من تقطيع قلبه بقي حيا، بينما الآخر عندما قطع قلبه مات.

قال الباقر: ولو أن شخصا من الناس ذكـر لـك أن الكامـل هـو الثاني، لأنه استطاع أن يميت نفسه.

قال أنكسيمانس: لا شك أن قائل هـذا مجنـون.. فالبشـر كلهم ناقصون لأنهم يموتون، فيستطيع الواحد أن يقتل نفسه، ويسـتطيع الآخرون أن يقتلوه.

قال الباقر: فهكذا الأمر مع سؤالك.. فالكامل هو الذي لا تتعلق قدرته بإفناء نفسه، لأنه لو تعلقت قدرته بإفناء نفسه دل ذلك على أنـه ممكن الوجـود، وعلى أنـه نـاقص الوجـود، بينمـا لـو لم تتعلـق قدرته ولا قدرة غيره بإفنائه، دل ذلك على كماله في ذاته.

قال أنكسيمانس: لم أفهم.

قال الباقر: لا بأس.. سأذكر لـك جوابـا آخـر، فـأقول ببسـاطة: (إن الله قادر على خلق صخرة بالغـا مـا بلغت وقـادر على حملهـا، وذلك لأن خلق الصخرة بالغا ما بلغت من الممكنات، والقدرة على حملها، أيضا من الممكنات)

قال أنكسيمانس: لا.. ليس هذا هـو سـؤالي.. إن سـؤالي هـو: هـل أن في قـدرة ربـك أن يخلـق صـخرة عظيمـة جـدا يعجـز عن حملها.

ابتسم الباقر، وقال: مهمـا تصـورت صـخرة عظيمـة فـإن اللـه تعالى قادرا على خلقها بالغا ما بلغت، وهو قادر كذلك على حملها.

قال أنكسيمانس: لا أريد هـذا.. بـل أريـد أن يخلـق اللـه تعـالى صخرة أعظم من ذلك مما لا يستطيع حملها.

قال الباقر: إن الصيغة الحقيقيـة لسـؤالك هي: هـل اللـه قـادر على أن يصيب نفسه بالعجز عن الممكنات؟

قال أنكسيمانس: فلنفرض أن هذا هو سؤالي، فبم تجيب عنه؟

قال الباقر: إن صفة القدرة صفة واجبة لله تعالى.. وقدرة الله تعالى لا تتعلق بإضعاف أو إفناء صفة من صفاته، وليس ذلك نقصا فيه، بل هو كمال فيه، فكما أن الذي تعلقت قدرته بإفناء نفسه هو العاجز، والذي لم تتعلق قدرتـه بإفنـاء نفسـه هـو الكامـل، فكـذلك الذي تتعلق قدرته بإفناء أو إضـعاف صـفة من صـفاته هـو العـاجز، والـذي لا تتعلـق قدرتـه بإفنـاء أو إضـعاف صـفة من صـفاته فهـو الكامل.

9 ـ المتكلم

قام تاسعنا، وكـان اسـمه (نعـوم تشومسـكي)[1].. وكـان رجلا مهتما باللغات.. ومهتما بعلاقتها بالتواصل مـع الآخـرين.. وكـان إلى جانب ذلـك ذا إنسـانية عميقـة، فهـو يتـألم للمستضـعفين، ويمتلئ غيظـا على المسـتبدين.. وقـد ألقى الخطب الطـوال على المنـابر المختلفة التي يبرز فيها ألمـه وغيظـه.. وقـد أثمـرت خطبـه ثمـارا كثيرة يانعة.

قام في ذلك المجلس، وقال: لا يكفي الكامل أن يكون قـادرا.. بل لابد أن يكون بالإضافة إلى ذلك متكلما، فالكلام هو الذي يعرفنا بحقيقته المتسترة وراء أفعاله.. وكلامه هو الذي يعبر لنا عن رضـاه وسخطه، وعن حبه وبغضه، وعن تقريبه وإبعاده.. وكلامه هو الـذي يعبر لنا بعد ذلك كله عن مراده من مخلوقاته، وعن الوظائف الـتي يطلبها منهم.

قال الباقر: صدقت.. فالإله الذي اجتمعت لديه جميع الكمـالات يستحيل عليه أن لا يكون متكلما.. لقد ذكر اللـه ذلـك.. ففي قصـة محاجة إبراهيم عليه السلام لقومه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَـدْ آتَيْنَـا إِبْـرَاهِيمَ رُشْـدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِـهِ مَـا هَـذِهِ التَّمَاثِيـلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِـدِينَ (53) قَـالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَـاؤُكُمْ فِي ضَـلَالٍ مُبِينٍ (54) قَـالُوا أَجِئْتَنَـا بِـالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَـالَ بَـلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيـدَنَّ أَصْـنَامَكُمْ بَعْـدَ أَنْ تُوَلُّوا مُـدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُـذَاذًا إِلَّا كَبِـيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْـهِ يَرْجِعُـونَ (58) قَـالُوا مَنْ فَعَـلَ هَـذَا بِآلِهَتِنَـا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَـأْتُوا بِـهِ عَلَى

---

1) أشير به إلى نعوم تشومسكي (- 1928) Naom Chomsky عـالم لغويـات أمـريكي يهودي من أصل يديشي، ويُعَـدُّ من أهم المفكـرين اللغـويين والسياسـيين النشـيطين في العالم في النصف الأخير من القرن العشرين، ويضعه البعض في مصاف كبـار المفكـرين مثل جان بياجيه وكلود ليفي شتراوس (وربما ماركس وفرويد) بالنظر إلى مـا أحدثـه من ثورة في علم اللغويات والعلوم الإنسانية ككل، فهـو جـزء ممـا يُسـمَّى (الانقلاب البـنيوي التوليدي)، وما يُسمَّى أيضاً (الثورة الإدراكية أو المعرفية) الذي تصـدى للاتجـاه التجريـبي الوضـعي. وتشـير بعض الدراسـات إلى (الثـورة التشومسـكية) في ميـدان علم اللغـة والإنسانيات. (انظر: الموسوعة اليهودية)

بالإضـافة إلى عملـه في اللغويـات، فشومسـكي معـروف على نطـاق واسـع كناشـط سياسـي، ولنقـده للسياسـة الخارجيـة للولايـات المتحـدة والحكومـات الأخـرى. ويصـف شومسكي نفسه بأنه اشتراكي تحرري، وكمتعاطف مع التضامنية اللاسلطوية (وهو عضو في نقابة عمال العالم الصناعيين) وكثـيراً مـا يُعتـبر منظـراً رئيسـياً للجنـاح اليسـاري في السياسة الأمريكية.

وحسب فهرس مراجع الفنون والإنسانيات، بين 1980 و 1992 ذكر اسـم شومسـكي كمرجع أكثر من أي شخص آخر حي، وكثامن شخص على الإطلاق.

أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْـهَدُونَ (61) قَـالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَـذَا بِآلِهَتِنَـا يَـا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَـانُوا يَنْطِقُـونَ (63) فَرَجَعُــوا إِلَى أَنْفُسِــهِمْ فَقَــالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُـوا عَلَى رُءُوسِـهِمْ لَقَـدْ عَلِمْتَ مَـا هَـؤُلَاءِ يَنْطِقُـونَ (65) قَـالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَـيْئًا وَلَا يَضُـرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67)﴾ (الأنبياء)

انظروا كيف أقام إبراهيم عليه السلام الحجـة على قومـه بعجـز آلهتهم عن الكلام، وهو يدل على أن الكلام من مستلزمات الألوهية.

وهكذا.. فالقرآن الكريم مليء بالحـديث عن تكليم اللـه لعبـاده سواء كانوا بشرا أو غيرهم(1).. قال تعالى يذكر حديثـه للكـون في بداية خلقه:﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَـانٌ فَقَـالَ لَهَـا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11)﴾ (فصلت)

وقال يذكر حديثه مع ملائكته ومع إبليس:﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَـةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَـإِذَا سَـوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيـهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُـوا لَـهُ سَـاجِدِينَ (72) فَسَـجَدَ الْمَلَائِكَـةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُـونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (74) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَـا مَنَعَـكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَـالِينَ (75) قَـالَ أَنَـا خَيْرٌ مِنْـهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَـارٍ وَخَلَقْتَـهُ مِنْ طِينٍ (76) قَـالَ فَـاخْرُجْ مِنْهَـا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْـكَ لَعْنَتِي إِلَى يَـوْمِ الـدِّينِ (78) قَـالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قَـالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَـرِينَ (80) إِلَى

---

1)ذكر الفخر الرازي الوجوه التي جاء بها تكليم الله لعباده في القرآن الكريم، فذكر:
اللفظ الأول: الكلام ، وفيه وجوه: الأول: لفـظ الكلام ، قـال تعـالى:﴿ وَإِنْ أَحَـدٌ مّنَ المشركين استجارك فَأَجِرْهُ حتى يَسْمَعَ كَلاَمَ الله ﴾ (التوبـة: 6) الثـاني: صـيغة الماضـي من هذا اللفظ ، قال تعالى:﴿ وَكَلَّمَ الله موسى تَكْلِيماً ﴾(النساء: 164) وقال:﴿ وَلَمَّا جَاء موسى لميقاتنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ (الأعـراف: 143) الثـالث: صـيغة المسـتقبل ، قـال تعـالى:﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أن يُكَلِّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً ﴾ (الشورى: 51).
اللفظ الثاني: القول ، وفيه وجوه: الأول: صـيغة الماضـي ، قـال تعـالى:﴿ وَإِذْ قَـالَ رَبُّكَ للملائكة ﴾ (البقرة: 30) ونظائره كثيرة في القرآن ، الثاني: صيغة المستقبل ، قال تعالى:﴿ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ ﴾ (البقرة: 68) الثالث: القيـل والقـول ، قـال تعـالى:﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله قِيلاً ﴾ (النساء: 122) وقال تعالى:﴿ مَا يُبَدَّلُ القول لَدَىَّ ﴾ (ق: 29)
اللفظ الثالث: الأمر ، قال تعالى:﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ (الروم: 4) وقال:﴿ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر ﴾ (الأعراف: 54) وقال حكاية عن موسى عليه السـلام:﴿ إِنَّ اللـه يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ (البقرة: 67).
اللفظ الرابع: الوعد ، قال تعالى:﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقّاً فِي التوراة والإنجيل والقـرءان ﴾ (التوبة: 111) وقال تعالى:﴿ وَعْدَ الله حَقّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ (يونس: 4).
اللفظ الخامس: الوحي ، قـال تعـالى:﴿ وَمَـا كَـانَ لِبَشَـرٍ أن يُكَلِّمَـهُ اللـه إِلاَّ وَحْيـاً ﴾ (الشورى: 51) وقال:﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ مَا أوحى ﴾ (النجم: 10).
اللفظ السادس: كونـه تعـالى شـاكراً لعبـاده ، قـال تعـالى:﴿ فأولئـك كَـانَ سَـعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ (لإسرء: 19)، وقـال:﴿ وَكَـانَ اللـه شـاكرا عَلِيمـاً ﴾ (النسـاء: 147) (انظـر: التفسير الكبير)

يَوْمِ الْـوَقْتِ الْمَعْلُـومِ (81) قَـالَ فَبِعِزَّتِـكَ لَأُغْـوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَـقَّ أَقُـولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85)﴾ (ص)

وهكذا.. فالقرآن الكريم مليء بذكر كلمات الله لعباده.. بل هـو نفسـه من كلمـات اللـه المقدسـة الـتي أوحاهـا لعبـاده، كمـا قـال تعالى:﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْـتَجَارَكَ فَـأَجِرْهُ حَتَّى يَسْـمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (6)﴾ (التوبة)، وقـال:﴿ سَـيَقُولُ الْمُخَلَّفُـونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَـانِمَ لِتَأْخُـذُوهَا ذَرُونَـا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَـا كَـذَلِكُمْ قَـالَ اللَّهُ مِنْ قَبْـلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (15)﴾ (الفتح)

بل إن جميع وحي الله لأنبيائه من كلمات الله المقدسة لعباده، قال تعالى عن الكتب التي أنزلت على بني إسـرائيل:﴿ أَفَتَطْمَعُـونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيـقٌ مِنْهُمْ يَسْـمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَـهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)﴾ (البقرة)

قال نعوم: أنت تكلفني بإيرادك لهذه النصوص شـططا.. فـأنت تبرهن لي على أن الله متكلم من خلال كلامه لرسله.. وأنا لو كنت أؤمن برسله لم أورد عليـك هـذه المسـألة.. فمعـنى الرسـول هـو المبلغ لرسالة المرسـل، فـإن لم يكن للكلام متصـور في حـق من ادعى أنه مرسل كيف يتصور الرسول؟

ولهذا.. دعنا مما يقوله ما تدعي له القداسة، وحدثنا عما يقولـه العقل.. فما براهين كلام الله لعباده من العقل؟

قال الباقر: أجبني.. هل الكلام للحي كمال أو هـو نقص، أو هـو لا هو نقص ولا هو كمال؟

قال نعوم: لاشك أنه باطل أن يقال هو نقص، أو هو لا نقص ولا كمال..

قـال البـاقر: فثبت بالضـرورة أنـه كمـال، فكـل كمـال وجـد للمخلوق هو واجب الوجود للخالق بطريق الأولى.

قال نعوم: إن إثباتك لكلام الله يورد عليـك شـبها كثـيرة لا تجـد منها فكاكا..

قال الباقر: يسـعدني أن تـورد لي منهـا مـا تشـاء.. وسـتجد إن شاء الله جوابك عندي(1).

قال نعوم: إن الكلام الذي أثبته لإلهك إما أن يراد بـه الأصـوات والحروف.. أو يراد به القـدرة على ايجـاد الأصـوات والحـروف في

1) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي.

نفس القادر.. أو يراد به معنى ثالث سواهما.
فإن أريد به الأصوات والحروف، فهي حوادث ومن الحوادث ما هي كمالات في حقنا، ولكن لا يتصور قيامها في ذات الله، وإن قام بغيره لم يكن هو متكلماً به بل كان المتكلم بـه المحـل الـذي قـام به.
وإن أريـد بـه القـدرة على خلـق الأصـوات فهـو كمـال، ولكن المتكلم ليس متكلماً باعتبار قدرته على خلق الأصـوات فقـط، بـل باعتبار خلقه للكلام في نفسه، والله قادر على خلق الأصـوات فلـه كمال القـدرة، ولكن لا يكـون متكلمـاً بـه إلا إذا خلـق الصـوت في نفسه، وهو محال إذ يصـير بـه محلاً للحـوادث فاسـتحال أن يكـون متكلماً.
وإن أريد بالكلام أمـر ثـالث فليس بمفهـوم وإثبـات مـا لا يفهم محال.
قال الباقر: ما ذكرته من التقسيم صحيح، والسـؤال في جميـع أقسامه معترف به إلا في إنكار القسم الثالث.
قال نعوم: فهل تستطيع أن تثبته؟
قـال البـاقر: إننـا معـترفون باسـتحالة قيـام الأصـوات بذاتـه، وباستحالة كونه متكلماً بهذا الاعتبار، ولكنا نذكر أن الإنسان يسمى متكلماً باعتبارين:
أما أولهما، فهو كلامه بالصـوت والحـرف.. وأمـا الثـاني، فبكلام يمكن أن نعبر عنه بالكلام النفسـي، وهـو ليس بصـوت ولا حـرف، وقد أشار إلى هذا النوع من الكلام الشاعر، فقال:

لا يعجبنك من أثير خطه حتى يكون مع الكلام أصيلا
إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وهذا النـوع من الكلام كمـال.. وهـو في حـق اللـه تعـالى غـير محال.. ولا هو دال على الحدوث.
قال نعوم: إن كلام النفس بالتأويـل الـذي ذكـرت معـترف بـه، ولكنه ليس خارجاً عن العلوم الإدراكـات.. بـل ليس جنسـاً برأسـه البتـــة، فكلام النفس وحـــديث النفس هـــو العلم بنظم الألفـــاظ والعبارات وتأليف المعاني المعلومة على وجه مخصوص.
قال الباقر: سأوضح لك ذلك بما يزيل عنـه الالتبـاس.. واسـمح لي أن أستفيد مما أورده العلم الحديث في هذا المجال، وأستعمل

قياس الغائب على الشاهد(1)، فهو أيسر في التوضيح.

لاشك أنكم تعلمون أن الحواس الخمس مجرد نوافذ يتعلق بكل واحد منها إدراك معين لصفة أو عدد من الصفات التي تكون عليها الأجسام.. ولاشك أنكم تعلمون كذلك أن مركز الإدراك ليس في هذه النوافذ والآلات التي يجري الحس من طريقها، وإنما في فصوص معينة من قشرة المخ المركوز في جوف رأس الإنسان.. فهذا المخ تنفذ إليه معطيات الحواس عن طريق شبكة الأعصاب المنتشرة فروعها في جسم الإنسان؛ فيحصل فيه الإدراك، وهذه الشبكة نفسها تحمل أوامر المخ إلى سائر أعضاء الجسم، كما نعرف من معطيات علم الطب الحديث التي صارت جزءا من الثقافة العامة لعصرنا..

فالأذن نافذة إدراك الأصوات، والعين نافذة إدراك الألوان، والأنف نافذة إدراك الروائح، واللسان نافذة إدراك الطعوم، والجلد نافذة إدراك الخشونة والملاسة، وكذلك الحرارة والبرودة، وحملوا عليه أيضا إدراك الرطوبة واليبوسة مع أن هذا لا يتم مع مجرد المباشرة؛ بل مع المدافعة أو الاعتماد، وبمثل هذا ندرك الضرب المؤلم؛ لكننا ندرك أن جسما أثقل من جسم آخر متى حملناهما بمقدار الجهد العضلي في الحمل.. وندرك مرض أعضاء أجسامنا الجوانية حينما نحس الألم فيها.. وهذه معارف حسية ضرورية أيضا تتولى شبكة الأعصاب نقلها إلى مركز إدراكها بالمخ بلا واسطة النوافذ الخمس.

وللكلام أو للتكليم – أي طريقة إخراج المعلومة المرادة وفق النظام اللغوي المتواضع عليه - مركزان في قشرة المخ: أحدهما معني بنظام اللغة، والثاني يقود عملية النطق وإنتاج الأصوات المسموعة..

فالمسألة في حقيقتها ليست أكثر من معارف تجمع بقدر ما يتاح للإنسان من معطيات حواسه ونتاج استدلاله، وتحفظ في مستودعها من المخ، ثم تُخرج أو تُظهر أو تُعلَن بقدر ما تتعلق به الإرادة من ذلك المستودع في خطاب الإنسان، أو كتابته التي هي رموز تحكي مفردات الخطاب وتنقله للغائب، أو في إشاراته الحسية المتفق عليها، وربما عن طريق التخاطر لمن كان من أهل هذه الهبة.

---

1) استفدنا في هذا المطلب من كتاب (مسألة الكلام الالهي بين الشيعة الاثنا عشرية وأهل السنة دراسة نقدية في ضوء معطيات العلم الحديث)، للدكتور مصعب الإدريسي.

وقد تكون المعارف الخارجة خبرا عن معلوم أو طلبا لحاجة معلومة، وقد تكون صحيحة في أصلها أو باطلة، وقد تكون صحيحة ويريد الإنسان تزييفها والإخبار عنها بغير ما هي عليه في نفس الأمر، وهذه الإرادة تابعة للعلم بما فيه مصلحة أو مضرة.

واللغة في حقيقتها ليست شيئا أكثر من نظام لنقل هذه المعارف أو الرغبات التابعة لها عن طريق رموز صوتية، يتم تعيين إشارة كل رمز منها إلى مرموزه بالتواضع بين أهل اللغة الواحدة على مستوى بناء الكلمة، وعلى مستوى بناء التركيب الذي يتاح للمتكلم في نظمه أكبر مساحة من الحرية في الاختيار، ويكون فيه أكبر التفاوت بين أبناء اللغة الواحدة في بلاغة الخطاب، على ما نجده في لغتنا العربية.

وليس في إمكان الإنسان أن يدرك معنى لفظ يشير إلى موجود دون أن يكون عالما به، ودون أن تكون لذلك المرموز صورة مُخَزَّنةٌ في مُخِّهِ، أو مَعرِفةٌ لما ينفصل به وجود ذلك الشيء عن وجود ما سواه إذا لم يسبق له إدراكه حسيا، أو لم يكن مما يدرك بالحواس أصلا.. هذا وإلا فالكلمة مجرد صوت أجوف لا يدل على معنى، ولا يشير إلى ما يزيد عن كونه صوتا مبهما كسائر الأصوات التي تعج بها الأجواء حولنا مما ليس بلغة خطاب.

وباعتبار تلك المعارف وذلك التواضع في الخطاب اختلفت في اللغة العربية دلالات الألفاظ، واختلفت دلالة الكلمة الواحدة بين تركيب وآخر، وبين الاستعمال الحقيقي والاستعمال المجازي.. وكل ذلك في السمع الحاصل من طريق الأذن مجرد وجود أصوات متصلة على هيئات مختلفة، لا تختلف في تنغيمها كثيرا عن تنغيم أصوات العصافير.

فمُخُّ الإنسان هُنا متميِّزٌ بتحصيل العلوم الاستدلالية المؤسسة على علوم الضرورة، ومتميز أيضا بإخراج ما يريد نقله أو إظهاره من المعارف في صورة رمزية، أو نسق لغوي. ولذلك فإن الإنسان حينما يرى شيئا أو آلة جديدة لأول مرة، قد يصف شكلها كما يظهر لحاسته؛ لكنه لا يسميها ابتداء ولا يضع لها اسما؛ حتى يُعلَمَ به أو يتواضع مع غيره على اسم لما عرفاه، وكذلك قالت الملائكةُ حينما أُمِرت بذكر أسماء الخلائق: ﴿.. سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32)﴾ (البقرة).. وذلك لأن علم الملائكة المُحدَث محصور له غاية ينتهي إليها؛ فأنَّى لهم أن يعرفوا أسماءً لموجودات لم يعرفوها من قبل؟

ومن ثمَّ قال المناطقة في حَدِّ الإنسان: حيوان ناطق.. والناطقية - هنا - هي العقل وعمل المخ من الإنسان، وكان شيوخنا في الفلسفة يحكون لنا عن سقراط أنه كان يقول للرجل العملاق: يا هذا، كلمني حتى أراك.. أي حتى أراك إنسانا حقيقيا؛ فربما لا يكون له من الإنسانية إلا الصورة، وكونه عملاقا زيادة في الصورة لا في حقيقة الإنسانية.. وقد كان حكماء العرب يقولون فيمن لم يكمل عقله من العماليق: أجسام البغال وأحلام العصافير.

وبهذا، فإن المسألة في حقيقتها ليست أكثر من تحصيل المعارف وإخراجها.. ولا أعني بذلك أنه لا تمييز بين حقيقة السمع والبصر والذوق والشم واللمس من جهة، وبين العلم الحاصل للإنسان من جهة أخرى، ولا بين ذلك كله وبين الكلام من جهة ثالثة.. فإنه من المكابرة أن يقول قائل: إن معنى (سمع) هو معنى (علم) بلا فاصل.. أو إن معنى (أبصر) هو معنى (علم) بلا فاصل.. أو أن معنى (الكلام) هو معنى (العلم) بلا فاصل.

وإن المتاح لنا من خلال ما ذكرته بصورة مختصرة، هو القول بأن السمع في الإنسان هو العلم الحاصل من طريق الأُذُن بالأصوات وصفاتها المختلفة من الشدة والرخاوة والجهر والهمس؛ لأن الإنسان بطبيعته المجردة لا يدرك الصوت إلا من طريق هذه الحاسة.. وكذلك القول في البصر بأنه هو العلم الحاصل من طريق العين بالموجودات الملونة وإدراك طولها وعرضها وكونها ساكنة في مكان أو متحركة عنه؛ لأن الإنسان بطبيعته المجردة لا يدرك الملون إلا من طريق هذه الحاسة.. وكذلك القول في سائر الحواس..

وقد قيدت هذا بأن يكون الإدراك بمجرد ما خلقه الله تعالى للإنسان في جسمه من الحواس؛ لأن نتاج حضارتنا الحديثة قَدَّم لنا ما يغير في معطيات الحواس ما يشبه ما كنا ندرسه في الأدب تحت عنوان (تراسل معطيات الحواس)؛ فصار بإمكان الإنسان المعاصر أن يرى الصوت، وأن يميز بعينه بين بصمة صوتية وأخرى، وأن يميز بين الصور الطيفية للأصوات المختلفة في إطار (اللغة المرئية)، وصار بإمكانه أن يميز بين الأجسام في الظلام تمييز الوطاويط التي لا تدرك الألوان، وأن يدرك حرارتها وملاستها دون أن يمسها، وأن يدرك الطعوم وأن يعرف درجة حموضتها وغير ذلك دون أن يضعها على لسانه، وكل ذلك بطريق الحس

والعلم الضروري..

ما بقي لنا في معنى السمع سوى أن نقول: إنه إدراك الصوت.. وفي معنى البصر: هو التمييز بين الأجسام في أماكن وجودها بغير مباشرة.. وفي الذوق: هو إدراك الطعوم... وهكذا.

والعلم عام يصدق على ما هو ضروري وما هو استدلالي، والكلام من ذلك كله هو المعارف التي يريد الإنسان نقلها وإخراجها أو إعلانها وإظهارها من خزانتها المسماة بالذاكرة في مخه؛ وفق النظام المتواضع عليه في لغته التي قد تكون العربية، أو الفارسية، أو غير ذلك من لغات بني آدم.. واللغة هنا مجرد نظام، والأصوات رموز تشير إلى المعارف المراد نقلها، والكتابة رسوم مرئية ترمز إلى الأصوات حروفا في بعض اللغات، وكلمات في بعضها، وجملا في بعضها، وكل ذلك في إطار النظام اللغوي المتواضع عليه.

ويمكننا أن نقول: إن رسوم الكتابة ترمز إلى الأصوات رمز الأصوات إلى المعاني، وكما أن الذي لا يعرف مرموزات رسوم الكتابة من الحروف أو الكلمات والجمل لا يستطيع أن يقرأ وإن رأى الرسوم، فكذلك حال من لا يعرف المعاني لا يتكلم وإن ظهرت منه أصوات، ولا يعقل لغات الناس وإن سمع أصواتهم؛ حتى يُحَصِّلَ العلم بما حوله، ويعرِفَ نظامَ اللغة في نقل المعاني أو الصور العقلية لما علم، وإن لم يكن له علم بذلك؛ فهو فيما يصدر عنه من الأصوات وطير الببغاء الذي يقلد بعض أصوات الإنسان سواء.

والنقل هنا لا يعني تحريك المعارف من مخ المتكلم إلى مخ السامع؛ بل هو أشبه بنقل صورة جملة مُخَزَّنة في ذاكرة حاسوب إلى آخر، كما أن تخزين الصور العقلية أو الذهنية للمعلومات شبيه بتخزين المعلومات في ذاكرة الحاسوب في صورة رقمية..

والكلام في حقيقته ليس شيئا سوى هذه المعارف التي يراد نقلها في صورة رمزية قد تكون صوتية لغوية، وقد تكون بالإشارة، وقد تكون بغير ذلك.

لقد أشار الشاعر إلى هذا المعنى، فقال:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

بل أشار إليه قبله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8)﴾(المجادلة)، وقوله:﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ

فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (77)﴾ (يوسف)

قام توما، وقال: اسمح لي أن أورد عليك بعض الشبهات في هذا.. وهي تنطلق مما ورد في كتبنا المقدسة، كتبنا وكتبكم.

قال الباقر: سل ما بدا لك، فالله الذي حرك قلبي للسير إليكم لن يعجز لساني عن إجابتكم.

قال توما: لقد ذكر قرآنكم كما ذكر كتابنا المقدس أن الله كلم موسى.. فهل سمع موسى صوتاً وحرفاً؟ فإن قلتم ذلك فإذا لم يسمع كلام الله، فإن كلام الله ليس بحرف ولا صوت.. وإن لم يسمع حرفاً ولا صوتاً، فكيف يسمع ما ليس بحرف ولا صوت؟

قال الباقر: إن السؤال عن (كيف سمعت؟) هو كالسؤال عن (كيف أدركت بحاسة الذوق حلاوة السكر؟)

ولا سبيل إلى الجواب عن هذا السؤال إلا بوجهين:

أولهما، وأعلمهما أن نسلم سكراً إلى هذا السائل حتى يذوقه ويدرك طعمه وحلاوته، فنقول له حينئذ: أدركت أنا كما أدركته أنت الآن حلاوة السكر.. وهذا هو الجواب الشافي، والتعريف التام.. وهو لا يمكن إلا لمن كلمه الله كما كلم موسى عليه السلام.

وأما الثاني، وهو أن يتعذر ذلك إما لفقد السكر، أو لعدم الذوق في السائل للسكر، فنقول له: أدركت طعمه كما أدركت أنت حلاوة العسل، فيكون هذا جواباً صواباً من وجه وخطأ من وجه.

أما وجه كونه صواباً فإنه تعريف بشيء يشبه المسؤول عنه من وجه، وإن كان لا يشبهه من كل الوجوه وهو أصل الحلاوة، فإن طعم العسل يخالف طعم السكر وإن قاربه من بعض الوجوه وهو أصل الحلاوة، وهذا غاية الممكن.. فإن لم يكن السائل قد ذاق حلاوة شيء أصلاً تعذر جوابه وتفهيم ما سأل عنه.

وهكذا جواب من قال (كيف سمع كلام الله تعالى؟)، فلا يمكن شفاؤه في السؤال إلا بأن نسمعه كلام الله تعالى القديم وهو متعذر، فإن ذلك من خصائص الكليم عليه السلام، فنحن لا نقدر على إسماعه أو تشبيه ذلك بشيء من مسموعاته وليس في مسموعاته ما يشبه كلام الله تعالى، فإن كل مسموعاته التي ألفها أصوات والأصوات لا تشبه ما ليس بأصوات فيتعذر تفهيمه، بل الأصم لو سأل وقال:(كيف تسمعون أنتم الأصوات)، وهو ما سمع قط صوتاً لم نقدر على جوابه، فإنا إن قلنا كما تدرك أنت المبصرات فهو إدراك في الاذن كإدراك البصر في العين كان هذا

خطأ، فـإن إدراك الأصـوات لا يشـبه إبصـار الألـوان، فـدل أن هـذا السؤال محال.

بل لو قال القائل كيف يـرى رب الأربـاب في الآخـرة(1)، كـان جوابه محالاً لا محالة لأنه يسأل عن كيفية ما لا كيفية لـه، إذ معـنى قول القائل كيف هو أي مثل أي شيء هو مما عرفناه، فإن كان ما يسأل عنه غير مماثل لشيء مما عرفـه، كـان الجـواب محـالاً ولم يدل ذلك على عدم ذات الله تعالى، فكذلك تعذر هـذا لا يـدل على عدم كلام الله تعالى، بـل ينبغي أن يعتقـد أن كلامـه سـبحانه ليس كمثله شيء، كما أن ذاته ليس كمثلها شيء، وكما ترى ذاتـه رؤيـة تخالف رؤية الأجسام والأعراض ولا تشبهها فيسـمع كلامـه سـماعاً يخالف الحروف والأصوات ولا يشبهها.

قال توما: فما تقول في الكلام الذي في المصـاحف.. هـل هـو كلام الله أم لا، فإن كـان هـو كلام اللـه كـان حـالاً في المصـاحف، فكيف حمل القديم في الحادث؟.. وإن قلت لا، فكيف كان احـترام المصحف مجمعا عليه.

قال الباقر: إن كلام الله تعالى مكتوب في المصاحف محفـوظ في القلوب مقروء بالألسنة، أما الورق والحـبر والكتابـة والحـروف والأصوات فكلها حادثـة، لأنهـا أجسـام وأعـراض في أجسـام فكـل ذلك حادث.. وإن قلنا إنه مكتوب في المصحف، لم يلزم أن تكـون ذات كلام اللـه في المصـحف، كمـا أنـا إذا قلنـا النـار مكتوبـة في الكتاب لم يلزم منه أن تكون ذات النار حالة فيـه، إذ لـو حلت فيـه لاحترق المصـحف، ومن تكلم بالنـار فلـو كـانت ذات النـار بلسـانه لاحترق لسانه، فالنار جسم حار وعليه دلالة هي الأصوات المقطعة تقطيعـاً يحصـل منـه النـون والألـف والـراء، فالحـار المحـرق ذات المدلول عليه لا نفس الدلالة، فكذلك كلام اللـه القـائم بـذات اللـه هو المدلول لا ذات الدليل، والحروف أدلة، وللأدلـة حرمـة إذ جعـل الشرع لها حرمة، فلذلك وجب احترام المصحف.

قال توما: فما تقول في القرآن.. هل هو كلام اللـه أم لا؟ فـإن قلتم لا فقد خرقتم كل ما ذكرتمـوه، وإن قلتم نعم فمـا هـو سـوى الحـروف والأصـوات، ومعلـوم أن قـراءة القـارئ هي الحـروف والأصوات.

قال الباقر: نحن نستعمل للدلالة على هذا ثلاثة ألفاظ: قــراءة، ومقروء، وقرآن.

---

1) اختلفت المدارس الإسلامية في هذا، ونرى أنه خلاف لفظي لا يمكن بسطه هنا.

أما المقروء فهو كلام الله تعالى.

وأما القراءة: فهي في اللسان عبارة عن فعل القارئ الذي كان ابتدأه بعد أن كان تاركاً له، ولا معنى للحادث إلا أنه ابتدأ بعد أن لم يكن.

وأما القرآن، فقد يطلق ويراد به المقروء، فإن أريد به ذلك فهو غير مخلوق.. وهو الذي أراده الله تعالى عندما وصف القرآن بأنه كلام الله تعالى.. وإن أريد به القراءة التي هي فعل القارئ ففعل القارئ لا يسبق وجود القارئ، وما لا يسبق وجود الحادث فهو حادث.. والقرآن بهذا الوصف مخلوق(1).

10 ـ النور

قام عاشرنا، وكان اسمه (شـنْكَراجاريا)(2).. وكان رجلا جوالة من بلاد الهند، وكان يجمع إلى اهتمامه بالفلسفة الزهد والانصراف عن كل متع الحياة الدنيا.. قام وقال: الكامل الذي نال كل كمال لابد أن يكون له من الأنوار ما لا تزاحمه أي ظلمة..

---

1) نرى أن هذا من أحسن الأجوبة في مسألة (خلق القرآن)، وهي من مسائل الفضول التي فرقت الأمة، ولا علاقة لأي جواب فيها بالسنة والبدعة، بل أحسن جواب فيها هو السكوت عن الكلام فيها..

أما ما يذكره بعضهم عن أحمد من قوله: (من زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمي كافر، ومن زعم أن القرآن كلام الله ووقف ولم يقل ليس بمخلوق فهو أخبث من قول الأول، ومن زعم أن ألفاظنا به وتلاوتنا له مخلوقة والقرآن كلام الله فهو جهمي، ومن لم يكفر هؤلاء القوم كلهم فهو مثلهم)

وما رووا عنه من قوله: (الجهمية افترقت ثلاث فرق فقالت طائفة منهم: القرآن كلام الله مخلوق وقالت طائفة: القرآن كلام الله وسكتت وهي الواقفة الملعونة!! وقال بعضهم: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، فكل هؤلاء جهمية كفار! يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا)!! و (.. أن من هذه مقالته إن لم يتب لم يناكح ولا يجوز قضاؤه ولا تؤكل ذبيحته)!!

أو ما رواه المروذي عنه من قوله: قلت لأبي عبد الله - يعني أحمد بن حنبل- إن الكرابيسي -أحد علماء الشافعية- يقول: من لم يقل لفظه بالقرآن مخلوق فهو كافر، فقال أحمد: بل هو الكافر)

أو ما روي من استحلال دم من يقول بخلق القرآن، وأنه لا يُسمع مِمَّن لم يكفرهم ولا يسلم عليه ولو كان من الأقارب ولا تشهد لهم جنائز ولا يعادون في مرضهم!!

وغير ذلك، فنرى أنه من غلو الأتباع، فالإمام أحمد كان أعظم شأنا في أن يقع في مثل هذا..

وإن صح عنه النقل بذلك، فهو من الأخطاء الشنيعة.. فالإسلام أوسع من أن يحصر في مثل هذه المسائل الفضولية.

وننبه إلى أن ما أوردنا هنا من جواب الغزالي هو الضرورة التي دعت إليها هذه الرسائل.

2) أشير به إلى (شـنْكَراجاريا) (700-ـ 750م)، وهو فيلسوف هندوسي، من أبرز أعماله تعليقاته على الفيدا في الكتابات المقدسة الهندوسية.. ولد في كيرالا جنوب الهند.. مارس إنكار الذات وتعلم مبكرًا في حياته التوقف عن المتع الدنيوية ومباهجها وقد كرس نفسه للدراسة والمناقشات الفلسفية والتعليم الديني.. وقد ذاعت شهرة هذا المعلم الجوال في كل أنحاء الهند.. أسس خلال تجواله أربعة أديرة في بادريناث بالهملايا، وشرنجيري في مايسور ودواركا في غربي الهند، وبيوري في شرق الهند.

قال البـاقر: إن أردت بـالنور مـا نـراه من أنـواع الأشـعة، فهي أجسـام كسـائر الأجسـام، ويعتريهـا من النقص مـا يعـتري سـائر الأجسام، والله منزه عن الجسمية والحد.. وإن أردت بالنور خلاصة النور المنزه عن الجسمية وتوابع الجسمية، فالله هو النور الوحيـد، وكل ما عداه ظلمة، لولا ما يفيض الله عليهم من أنواره..

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقـال:﴿ اللـهُ نُـورُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْـبَاحُ فِي زُجَاجَـةٍ الزُّجَاجَـةُ كَأَنَّهَـا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَـةٍ لا شَـرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَـادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُـورٍ يَهْـدِي اللـهُ لِنُـورِهِ مَنْ يَشَـاءُ وَيَضْـرِبُ اللـهُ الأَمْثَـالَ لِلنَّاسِ وَاللـهُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ (35)﴾ (النور)

قــال شــنْكَراجاريا: أنت بين فلاســفة، ولســت بين عــوام.. والفلاسفة لا تقنعهم الدعاوى العارية من البراهين.

قال الباقر(1): إن إثبات أن الله هو النور الحق، وأن اسم النـور لغيره مجاز محض لا حقيقة له يستدعي - أولا- معرفة معنى النـور بالوضع الأول عنـد العـوام.. ثم بالوضـع الثـاني عنـد الخـواص.. ثم بالوضع الثـالث عنـد خـواص الخـواص.. ثم نعـرف درجـات الأنـوار المذكورة المنسوبة إلى خواص الخواص وحقائقها لينكشف لنا عند ظهـور درجاتهـا أن اللـه تعـالى هـو النـور الأعلى الأقصـى، وعنـد انكشاف حقائقها أنه النور الحق الحقيقي وحده لا شريك له فيه.

قال شنْكَراجاريا: فلنبـدأ **بالوضـع الأول، وهـو النـور عنـد العامي البسيط**.

قـال البـاقر: النـور – في مرتبتـه الأولى- يشـير إلى الظهـور.. والظهور أمر إضافي: إذ يظهر الشيء لا محالة لإنسان ويبطن عن غيره، فيكون ظاهرا بالإضـافة وباطنـا بالإضـافة.. وإضـافة ظهـوره إلى الإدراكـات لا محالـة.. وأقـوى الإدراكـات وأجلاهـا عنـد العـوام الحواس، ومنها حاسة البصر.

والأشياء بالإضافة إلى الحس البصري ثلاثة أقسـام: منهـا مـا لا يبصر بنفسه كالأجسام المظلمة.. ومنها ما يبصر بنفسـه ولا يبصـر بـه غـيره كالأجسـام المضـيئة كـالكواكب وجمـرة النـار إذا لم تكن مشتعلة.. ومنها ما يبصر بنفسه ويبصـر بـه أيضـا غـيره كالشـمس والقمر والسـراج والنـيران المشـتعلة.. والنـور اسـم لهـذا القسـم

1) البرهان على هذا ملخص بتصرف كبير من رسالة (مشـكاة الأنـوار) للغـزالي، وقـد حاولنا أن نبعد عن البرهان ما رأينا أنه من آثار الفلسفة الإشراقية.

الثالث.

وعلى هذا، فالنور عبارة عما يبصر بنفسه ويبصر به غيره.

ولما كان سر النور وروحه هـو الظهـور للإدراك، وكـان الإدراك موقوفا على وجود النور وعلى وجود العين الباصرة أيضـا: إذ النـور هـو الظـاهر المظهـر؛ وليس شـيء من الأنـوار ظـاهراً في حـق العميان ولا مظهرا.. فقد تساوى الروح الباصرة والنور الظـاهر في كونه ركنا لا بد منه للإدراك، ثم ترجح عليـه في أن الـروح الباصـرة هي المدركة وبها الإدراك.. وأما النور فليس بمدرك ولا به الإدراك، بل عنده الإدراك.. ولهذا كان اسـم النـور بـالنور الباصـر أحـق منـه بالنور المبصر.

قال شنْكَراجاريا: صحيح ما ذكرته.. ولكن ما العيـوب الـتي في هذا النوع من النور، والتي تحجبه عن الكمال؟

قال الباقر: لاشك أنك تعلم أن نور بصـر العين موسـوم بـأنواع النقصان: فإنه يبصر غيره ولا يبصر نفسه، ولا يبصر ما بعد منه، ولا يبصر ما هو وراء حجاب.. ويبصر من الأشياء ظاهرهـا دون باطنهـا؛ ويبصر من الموجودات بعضها دون كلها. ويبصـر أشـياء متناهيـة ولا يبصر ما لا نهاية له. ويغلط كثيرا في إبصاره: فـيرى الكبـير صـغيرا والبعيد قريبا والساكن متحركا والمتحرك ساكنا.. فهذه سبع نقائص لا تفارق العين الظاهرة(1).

قال شـنْكَراجاريا: عـرفت المرتبـة الأولى للنـور.. فمـا المرتبـة التثانية والتي ذكرت أنها **مرتبة الخواص**؟

قال الباقر: لاشك أنك تعلم أن في الإنسان عينا يعبر عنها تارة بالعقل وتارة بالروح وتارة بالنفس الإنسـاني، وهي المعـنى الـذي يتميز به العاقل عن الطفل الرضـيع وعن البهيمـة وعن المجنـون.. والتي نسميها عادة (عقلا)

قـال شـنْكَراجاريا: أجـل.. ونحن الفلاسـفة أعـرف النـاس بهـا، وأكثر الناس استعمالا لها.

قـال البـاقر: ولهـذا، فـأنتم أدرى النـاس بـأن العقـل أولى بـأن يسمى نورا من العين الظاهرة.

قال شنْكَراجاريا: أجل.. فالعقـل مـنزه عن النقـائص الـتي تقـع فيها الحواس.. فـالعين لا تبصـر نفسـها، بينمـا العقـل يـدرك غـيره ويدرك صفات نفسه، إذ يـدرك نفسـه عالمـا وقـادرا، ويـدرك علم

---

1) ذكرنـا التفاصـيل الكثـيرة المرتبطـة بهـذا في فصـل (العقـل) من رسـالة (سـلام للعالمين) من هذه السلسلة.

نفسه ويدرك علمه بعلم نفسه وعلمه بعلمه بعلم نفسه إلى غير نهاية.

والعين لا تبصر ما بعد منها ولا ما قرب منها قربا مفرطا بينما العقل يستوي عنده القريب والبعيد.. فهو يعرج في تطريفه إلى أعلى السموات رقيا، وينزل في لحظة إلى تخوم الأرضين هربا.. بل إذا حقت الحقائق يكشف أنه منزه عن أن تحوم بجنبات قدسه معاني القرب والبعد الذي يفرض بين الأجسام.

والعين لا تدرك ما وراء الحجب، بينما يتصرف العقل فيما وراء حجب السموات، وفي الملأ الأعلى كتصرفه في عالمه الخاص ومملكته القريبة التي هي بدنه الخاص.. بل الحقائق كلها لا تحتجب عن العقل.

والعين تدرك من الأشياء ظاهرها وسطحها الأعلى دون باطنها؛ بل قوالبها وصورها دون حقائقها بينما العقل يتغلغل إلى بواطن الأشياء وأسرارها ويدرك حقائقها وأرواحها، ويستنبط سببها وعلتها وغايتها وحكمتها، وأنها من خلق، وكيف خلق، ولم خلق، ومن كم معنى جمع وركب، وعلى أي مرتبة في الوجود نزل، وما نسبته إلى خالقها وما نسبتها إلى سائر مخلوقاته.. وهكذا.

والعين تبصر بعض الموجودات، وتقصر عن جميع المعقولات وعن كثير من المحسوسات، إذ لا تدرك الأصوات والروائح والطعوم والحرارة والبرودة وغيرها، ولا تدرك الصفات الباطنة النفسانية كالفرح والسرور والغم والحزن والألم واللذة والعشق والقدرة والإرادة والعلم إلى غير ذلك من موجودات لا تحصى ولا تعد.. بينما يطوف العقل في جميع الموجودات؛ إذ يدرك هذه الموجودات التي عددناها وما لم نعدها، وهو الأكثر: فيتصرف في جميعها ويحكم عليها حكما يقينا صادقا.. فالأسرار الباطنة عنده ظاهرة، والمعاني الخفية عنده جلية.. فمن أين للعين الظاهرة مساماته ومجاراته في استحقاق اسم النور كلا إنها نور بالإضافة إلى غيرها لكنها ظلمة بالإضافة إليه.. بل هي جاسوس من جواسيسه وكله بأخس خزائنه وهي خزانة الألوان والأشكال لترفع إلى حضرته أخبارها فيقضي فيها بما يقتضيه رأيه الثاقب وحكمه النافذ.

والعين لا تبصر ما لا نهاية له، فإنها تبصر صفات الأجسام والأجسام لاتتصور إلا متناهية.. بينما العقل يدرك المعلومات، والمعلومات لايتصور أن تكون متناهيه.. فإنه - مثلا- يدرك الأعداد

ولا نهاية لها؛ بل يدرك تضعيفات الإثنين والثلاثة وسائر الأعداد ولا يتصور لها نهاية، ويدرك أنواعا من النسب بين الأعداد لا يتصور التناهي عليها: بل يدرك علمه بالشيء وعلمه بعلمه بالشيء، وعلمه بعلمه بعلمه. فقوته في هذا الواحد لا تقف عند نهاية.

وفي الأخير، فإن العين تخطئ كثيرا.. فتبصر الكبير صغيرا، فترى الشمس في مقدار مجن والكواكب في صور دنانير منثورة على بساط أزرق.. بينما العقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة؛ والعين ترى الكواكب ساكنة، بل ترى الظل بين يديها ساكنا، وترى الصبي ساكنا في مقداره، والعقل يدرك أن الصبي متحرك في النشوء والتزايد على الدوام، والظل متحرك دائما، والكواكب تتحرك في كل لحظ أميالا كثيرة.

قال الباقر: فقد عرفت بهذا أن العين أولى باسم النور من النور المعروف، ثم عرفت أن العقل أولى باسم النور من العين.

قال شنْكَراجاريا: أجل.. فما المرتبة الثالثة.. والتي ذكرت أنها **مرتبة خواص الخواص**؟

قال الباقر: لاشك أنك تعلم – وأنت الفيلسوف الخبير- أن العقول وإن كانت مبصرة، فليست المبصرات كلها عندها على وتيرة واحدة.

قال شنْكَراجاريا: صدقت في هذا.. فبعض المعارف أوضح من بعض..

فبعضها يكون عندها كأنه حاضر كالعلوم الضرورية مثل علمه بأن الشيء الواحد لا يكون قديما حادثا ولا يكون موجودا معدوما، والقول الواحد لا يكون صدقا وكذبا، وأن الحكم إذا ثبت للشيء جوازه ثبت لمثله، وأن الأخص إذا كان موجودا كان الأعم واجب الوجود، وأما عكسه فلا يلزم في العقل.

ومنها ما لا يقارن العقل في كل حال إذا عرض عليه، بل يحتاج إلى أن يهز أعطافه ويستوري زناده، وينبه عليه بالتنبيه.

قال الباقر: فما الذي ينبه العقل إلى هذه الخفيات؟

قال شنْكَراجاريا: الحكمة.. فعند إشراق نور الحكمة يصير العقل مبصرا بالفعل بعد أن كان مبصرا بالقوة.

قال الباقر: فهل الحكم في مرتبة واحدة؟

قال شنْكَراجاريا: لا.. الحكم تختلف إلى درجات كبيرة لا نهاية لها.

قال الباقر: فما الذي يميز درجاتها؟

قال شنْكَراجاريا: الحكماء.. فالحكماء متميزون.
قال الباقر: فمن أحكم الحكماء؟
قال شنْكَراجاريا: الله.
قال الباقر: فأعظم الحكم إذن هي كلام الله تعالى.
قال شنْكَراجاريا: أجل.. ذلك صحيح.
قال الباقر: ولذلك، فإن خواص الخواص ينظرون إلى كلمات الله المقدسة إلى عباده على أنها عند عين العقل كنور الشمس عند العين الظاهرة إذ بها يتم الإبصار.. ولهذا سمى الله تعالى القرآن نورا، فقال:﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8)ـ ﴾ (التغابن)، وقال:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (174)﴾ (النساء)
قال شنْكَراجاريا: لقد صدق قرآنكم في هذا.
قال الباقر: فقد عرفت إذن أن العين عينان: ظاهرة وباطنة.. فالعين الظاهرة من عالم الحس والشهادة، والباطنة من عالم آخر وهو عالم الملكوت، ولكل عين من العينين شمس ونور عنده تصير كاملة الإبصار، إحداهما ظاهرة والأخرى باطنة؛ والظاهرة من عالم الشهادة وهي الشمس المحسوسة، والباطنة من عالم الملكوت وهو كلمات الله المقدسة المنزلة على أنبيائه.
قال شنْكَراجاريا: أجل.. لقد شرحت لي كل هذا.. ولكن مطلوبي هو البرهان على أن الله هو النور الحقيقي.
قال الباقر: لقد عرفت إذن أن الأنوار لها درجات مختلفة بعضها فوق بعض.
قال شنْكَراجاريا: أجل.. وقد عرفنا بعضها من خلال حوارنا هذا..
قال الباقر: فهل ترى أن هذه الأنوار تتسلسل إلى غير نهاية؟
قال شنْكَراجاريا: التسلسل ممتنع عقلا.. بل لابد أن تنتهي الأنوار إلى مصدرها الأول..
قال الباقر: فما يرى العقل من صفة هذا المصدر؟
قال شنْكَراجاريا: لابد أن يكون هذا المصدر الذي تستفيد منه جميع الأنوار أن يكون نورا لذاته وبذاته، ليس يأتيه نور من غيره، ومنه تشرق الأنوار كلها على ترتيبها..
قال الباقر: فهل اسم (النور) أحق وأولى بالمستنير المستعير نوره من غيره، أو بالنير في ذاته المنير لكل ما سواه؟
قال شنْكَراجاريا: بل النير في ذاته المنير لكل ما سواه هو

أحق باسم النور من غيره.

قال الباقر: فذلك هو الله.. وهو ما أشار إليه قوله تعالى:﴿ اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْـبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَـدُ مِنْ شَـجَرَةٍ مُبَارَكَـةٍ زَيْتُونَـةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَـارٌ نُـورٌ عَلَى نُـورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَـاءُ وَيَضْـرِبُ اللـهُ الأَمْثَـالَ لِلنَّاسِ وَاللـهُ بِكُـلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)﴾ (النور)

بل إن العقل في تحقيقه يـرى أن اسـم النـور على غـير النـور الأول مجاز محض.. إذ كل ما سواه إذا اعتبر ذاته فهو في ذاته من حيث ذاتـه لا نـور لـه، بـل نورانيتـه مسـتعارة من غـيره، ولا قـوام لنورانيتـه المسـتعارة بنفسـها، بـل بغيرهـا.. ونسـبة المسـتعار إلى المستعير مجاز محض..

فالنور الحـق هـو الـذي بيـده الخلـق والأمـر، ومنـه الإنـارة أولا والإدامة ثانيا، فلا شركة لأحـد معـه في حقيقـة هـذا الاسـم ولا في استحقاقه إلا من حيث يسميه بـه ويتفضـل عليـه بتسـميته تفضـل المالك على عبـده إذا أعطـاه مـالا ثم سـماه مالكـا، وإذا انكشـف للعبد الحقيقة علم أنه وماله لمالكه على التفـرد لا شـريك لـه فيـه أصلا.

***

ما وصل الباقر من حديثه إلى هذا الموضع حـتى جـاءني رجـل مشؤوم يناديني من دون أصحابي.. فأسرعت إليه، فـراح يبشـرني ببعض المناصـب الـتي أثقلتـني إلى الأرض، ولـولا أن اللـه أعـاد لذاكرتي تلـك الأحـاديث الجميلـة في هـذا الموضـع مـا كنت أراني أذكرها أبدا.

قلنا: فما فعل أصحابك الفلاسفة؟

قـال أرسـطو: لقـد ذهبت مـرة إلى الموضـع الـذي تعودنـا أن نلتقي فيـه، لكـني لم أجـدهم، وقـد سـألت عنهم، فقـال لي من سألته: لقد مر عليهم رجـل محمـدي يقـال لـه البـاقر، وقـد سـلب عقولهم بحديثه، فتركوا تلـك المناصـب الرفيعـة الـتي بـوأهم إياهـا قومنا، وراحوا يتتلمذون عليه.

خامسا ـ البديع

في اليـوم التـالي.. دعانـا رجـل منـا، كنت أراه كثـير الاهتمـام بالطبيعة ومظاهرها وجمالها.. وقد جعله ذلـك ينفـرد عنـا في أكـثر الأحيان يتأمل الأشجار والصخور والجبال.. بل كنت أراه أحيانا يرفع الصخرة الضـخمة ليتأمـل مـا تحتهـا من أنـواع الأحيـاء.. وقـد كـان يصرف في ذلك أكثر جهده وأكثر أوقاته.

أما في الليل، فكنت أراه يدمن السـهر مـع النجـوم والكـواكب يتأمل حركاتها وأنوارها بروحانية عجيبة إلى أن يـزروه النـوم، وهـو على تلك الحال.

لقد أعانه هذا الشده بالطبيعة، وهـذا التفـاني في جمالهـا على تلك الآلام التي كانت ترسلها لنا الأيام كل حين.. ولـذلك لم يتجـرع منهـا مـا تجرعنـا منـه.. بـل ظـل محافظـا على هدوئـه إلى آخـر اللحظات.

في ذلك اليوم دعانا.. فأسرعنا إليـه، ونحن متعجبـون من هـذه الدعوة العجيبة من ذلك الرجل الذي كان أبعدنا عن الاهتمام بنـا أو بما نحن فيه.

بمجرد اجتماعنا، خاطبنا بقوله: قبل أن أذكر لكم مـا قـد يعيننـا على البحث عن ربنا أقدم لكم نفسي أولا.. أنا (بينيديتو كروتشـي)(1).. لا شك أنكم لا تعرفونني.. ولذلك سأعرفكم بنفسي.. أنا ذلـك الرجـل الـذي كتب في (علم الجمـال)(2)، وكـان أسـتاذا كبـيرا من أساتذته.. ولم يكن يهمه في الحياة إلا النظر إلى الجمال وتذوقـه..

---

1) أشـير بـه إلى بينيـديتو كروتشي، Croce, Benedetto (1866-1952م)، وهـو فيلسوف إيطالي يُعدّ من أكثر فلاسفة إيطاليا تميزًا في القـرن العشـرين.. وكـان يـؤمن بوجود نوعين من المعرفة: المعرفة التي تأتي عن طريق الفهم، والمعرفة التي تأتي عن طريق الخيال.. والخيال عنده يوجِّه الفن.. وكان يؤمن بأن الفن لا يحاول تصنيف الأشياء، كما يفعل العلم، لكنه يُحسّ بها ويمثلها فقط.

من أهم كتبـه: علم الجمـال (1902م)؛ الفلسـفة العمليـة (1908م)؛ المنطـق (1909م)؛ التاريخ بوصفه قصة الحرية (1938م)

ولد في بيسكا سيرولي بالقرب من بيسكارا، وعين في منصب سيناتور عـام 1910م، وساعد في إصلاح المدارس الإيطالية في العشرينيات، وكان من المناوئين لحكومة بـنيتو موسوليني الفاشية، وزعيمًا للدوائر الليبراليـة الفكريـة في إيطاليـا. (الموسـوعة العربيـة العالمية)

2) علم لجمال: هـو فـرع من فـروع الفلسـفة الحديثـة، وهـو يـدرس طبيعـة الشـعور بالجمال والعناصر المكونة له والكامنة في العمل الفني.. ويدرس الفنون بوجه عام، كمـا يقارن بين فنون الثقافات المختلفة، وثقافات الحقَب المختلفة في التاريخ، وذلـك لتنظيم معرفتنا المنهجية لها. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

ولكني – للأسف – انشغلت بالجمال عن الجميل، وبالصنعة عن الصانع، وبمظاهر الإبداع عن المبدع العظيم الذي أبدعها.

لا تتوقف حكايتي عند هذا الحد.. وإلا لما دعوتكم.. ولما اعتبرت ما سأحدثكم به ركنا من أركان المعرفة بالله.. لا يمكن للباحث عن الله أن لا يمر عليه.

لقد كتب الله لي أن أمر على من علمني علوم هذا الركن.. فتعرفت من خلاله على المبدع الحقيقي.. ولكني للأسف انشغلت عنه بأهواء كثيرة، ودنس كثير إلى أن وقعت معكم الآن في هذا الموقف لأتذكر ما كنت عنه غافلا.. ويعود لذاكرتي ما كانت محجوبة عنه.

في بداية حياتي.. وفي فترة زهوي العلمي لم أكن أعير كبير اهتمام للجمال ومظاهر الجمال التي امتلأت بها أكوان الله.

نعم كنت أصادم الفطرة بذلك.. ولكني مع ذلك كنت مقتنعا أن تلك المصادمة هي الحقيقة التي يدل عليها ذلك النزر من العلم الذي ملأني به أساتذتي..

لقد كانت المادة – بفعل تعليماتهم - في نظري، وفي نظر العلماء(1) في ذلك الحين ليس لها أي حظ ذاتي من الجمال، فليس للمادة إلا خواص كمية كالوزن والحجم والشكل والعدد.. وحيث إن الجمال ليس من جملة هذه الخواص، فقد كنا جميعا أنا وأساتذتي نميل إلى اعتباره خاصة من خواص المراقب، لا صفة من صفات الأشياء الطبيعية.

أذكر أنه في عام 1630 كتب ديكارت يقول: (لا يدل الجميل ولا البهيج على أكثر من موقفنا في الحكم على الشيء المتكلم عنه)

وقد وافقه سبينوزا على ذلك، فقال: (الجمال ليس صفة في الشيء المدروس بقدر ما هو الأثر الذي ينشأ في الإنسان نفسه الذي يدرس ذاك الشيء)

وقد أحدث هذان المفكران وآخرون غيرهما تيارا قوياً دام زماناً طويلاً.. فبعد ذلك بقرنين من الزمان أبان تشارلز داروين عن موقفه من الجمال، فكتب يقول: (من الجلي أن الإحساس بالجمال يتوقف على طبيعة العقل بصرف النظر عن أي صفة حقيقية في الشيء محل الإعجاب)

---

1) بعض ما نذكره هنا مقتبس من كتاب (العلم في منظوره الجديد) الذي سبق الإشارة إليه.

وهكذا فرويد.. فقد كان يشعر أنـه مضـطر إلى حصـر الجمـال في دائـرة الغريـزة.. ولهـذا قـال: (من دواعي الأسـف أن التحليـل النفسي ليس عنده ما يقوله عن الجمال، وكل ما يبـدو مؤكـداً أنـه مستمد من مجال الشعور الجنسي)

لقد جعلتنـا هـذه النظـرة نخـرج الجمـال عن العلم.. فالجمـال، رغم احتمال كونه متعة شخصـية، لا يمكن أن يكـون موضـع جـدل علمي إذ أنه لا يعيننا بتاتا في اكتشاف حقائق الطبيعة.

ولذلك كنا نعتقد أن الفنون الجميلة، بقدر مـا تنشـد الجمـال، لا يمكن أن يكون بينها وبين العلـوم أي شـيء مشـترك.. بـل إنـا كنـا نصـور العلـوم على أنهـا بـاردة المشـاعر، ولكنهـا واقعيـة، ونصـور الفنون على أنها دافئة المشاعر، ولكنهـا هوائيـة المضـمون، بحيث يتوقع من علم الحشرات أن يسكت عن جمـال الفراشـة سـكوت الشعر عن خمائرها الهضمية.

***

بعد ذلك.. وبعد تبخر ذلك الزهو الذي أفرزه الانبهار بالعلم، قدر اللـه لي أن ألتقي رجلا كـان شـديد الشـوق للبحث عن الحقيقـة.. كان اسمه (جيمس واتسن).. وقد تعرفت عليه في البدء من خلال قراءة كتابه المشهور (اللولب المـزدوج)، فقـد ذكـر فيـه كيـف أن الجمال هو الذي هداه إلى اكتشاف التركيب الجزيئي لـ DNA.. وقد تعجبت من ذلك عجبا شديدا.

وعندما التقيت بـه سـألته عن ذلـك، فقـال لي: لقـد كـان ذلـك بالنسبة لي بديهية.. فالجمال في الكون هو الأصل.. وقد استثمرت هذا الأصل في اكتشاف أهم النظريات العلمية..

قال لي ذلك، ثم صمت صمتا عميقا ممتلئـا حزنـا، فسـألته عن سر كآبته، فقال: نعم لقد اكتشفت التركيب الجزيئي لـ DNA لكـني لم أكتشـف بعـد من ركب ذلـك الـتركيب العجيب.. لقـد انبهـرت بالجمال وانشغلت عن الجميـل.. لقـد غفلت في ثنايـا أبحـاثي عن ربي البديع الذي صمم كل ذلك الجمال..

قال ذلك، ثم راح يخاطب نفسه بقوله: لقد حصل مـني ذلـك.. ولكني لست الوحيد فيه.. لقد انشغل الكـل.. - كـل من أعـرفهم - ببحوثهم ومعاملهم وثناء النـاس عليهم عن ذلـك العظيم الـذي هـو وراء كل جمال ونظام وبناء..

قال ذلك، ثم التفت إلي، وقال: لقـد رأيت الكثـير من البـاحثين من أصـحابي وغـيرهم يمتطـون مطيـة الجمـال ليتوسـلوا بهـا إلى

اكتشاف الحقائق العلمية.. ولم أر واحدا منهم ركب مطية الجمـال ليتعرف على الجميل الذي أبدع هذا الكون..

لقد لاحظ (فيرنر هايزنبيرغ) فيما يتعلـق بميكانيكـا الكم ــ وهـو المجـال الـذي قـام فيـه ببحـوث رائـدة ــ أنـه ثبت في الحـال أن (النظرية مقنعة بفضل كمالها وجمالها التجريدي)

وعلماء الفيزيـاء عمومـا يـرون أن نظريـة النسـبية العامـة هي أجمـل النظريـات الفيزيائيـة الموجـودة على الإطلاق.. وقـد أشـاد إيـرون شـرودنغر بهـا بقولـه: (إن نظريـة إينشـتاين المذهلـة في الجاذبية لا يتأتى اكتشافها إلا لعبقري رزق إحساساً عميقاً ببسـاطة الأفكار وجمالها)

كما أشار أينشتاين نفسه إلى جمـال هـذه النظريـة في خاتمـة مقالتـه الأولى عن الجاذبيـة حيث قـال: (لا يكـاد أحـد يفهم هـذه النظرية تمام الفهم يفلت من سحرها)

وقد رأيت أن الجمـال ــ فـوق هـذا ــ كـان معيـارا أساسـيا في الفيزياء لدرجة أنه يقدم حتى على التجربة نفسها..

لقد أعلن الفيزيائي بول ديراك أن (وجود الجمال في معـادلات العالم أهم من جعل هذه المعادلات تنطبق على التجربة)

ونستطيع أن نفهم ذلك إذا تصورنا العالم النظـري أمـام كميـة ضـخمة من البيانـات التجريبيـة المذهلـة، فـأي النتـائج هي الأهم؟ وكيف ينبغي أن تفسر جميعها؟ ما هو النمـط الملاحـظ؟ والجمـال في هذا المقام دليل جدير بالثقة.. يقول الفيزيائي جورج تومسون: (إن المـرء يسـتطيع دائمـاً أن يقـدم نظريـة، أو عـدداً كبـيراً من النظريات، لتفسير حقائق معروفة، بل للتنبؤ بحقائق جديدة أحياناً.. والجمال هو الفيصل.. فالنظريـات بعضـها صـعب المأخـذ ومحـدود النطاق وتعسفي، وقلما تدوم هذه طويلاً)

وفـوق هـذا.. فـإن أبـرز علمـاء الفيزيـاء في القـرن العشـرين يتفقون على أن الجمال هو المقياس الأساسـي للحقيقـة العلميـة، فالفيزيـائي رتشـارد فينمـان يـرى (أن المـرء يمكن أن يسـتبين الحقيقة بفضل جمالها وبساطتها)

ويعلن هايزنبيرغ أن (الجمال في العلـوم الدقيقـة وفي الفنـون على السواء هو أهم مصدر من مصادر الإستنارة والوضوح)

لقـد رأيت ــ بعـد بحث طويـل ــ أن الجمـال في الفيزيـاء هـو السـمة الغالبـة.. فالتجربـة تخطئ في الغـالب، والجمـال قلمـا يخطئ.. فإذا اتفـق أن وجـدت نظريـة أنيقـة للغايـة لا تنسـجم مـع

مجموعة من الحقائق فهي لا محالة واجـدة لهـا تطبيقـاً في مجـال آخـر، فخلال العشـرينات من هـذا القـرن، مثلاً، أصـبح الرياضـي والفيزيـائي هرمـان فيـل (Herman Weyl) مقتنعـاً بـأن نظريتـه في القياس لا تنطبق على الجاذبية، ولكنه ـ نظـراً لكمالهـا الفـني ــ لم يرد التخلي عنها كلياً، وقد تبين بعـد ذلـك بـوقت طويـل أن نظريـة فيل تلقي ضوءاً على ديناميكا الكم الكهربائية، فجاء ذلـك مصـداقاً لحسه الجمالي.

قـال لي صـاحبي (جيمس واتسـن) ذلـك، ثم انتفض بشـدة، وقال: لكن مع ذلك لا مكان لليأس.. إن الجمال الـذي اكتشـفنا بـه كل هذه النظريات العلمية هو نفسه الذي سيجعلنا نصل إلى ربنـا.. فلا يمكن أبدا أن يـترك مبـدع هـذا الكـون عبـاده هملا من دون أن يرسـل لهم من يعـرفهم بـه.. إن هـذا يتنـاقض مـع أولى أولويـات الجمال.

لاشك أن المبـدع الحكيم الـذي أبـدع هـذا الكـون أحكم من أن يترك عباده هملا وهو قادر على أن ينقذهم ويعلمهم..

ثم التفت إلي، وقال: إن مجـرد تحريكـه لمشـاعرنا بـأن تبحث عنه دليل على عنايته بنا.. بل دليل على أنـه جعـل في هـذه الأرض من يعرفنا به..

قال ذلـك، ثم قـام، وقـال: أنـا راحـل الآن إن شـئت أن ترحـل معي.. فهلم نحـزم أمتعتنـا.. وإن شـئت أن تبقى حبيسـا لمعاملـك وعلومك.. فأتركك على خير..

قـال ذلـك، ثم سـار من دون أن ينتظـر ردي.. فأسـرعت إليـه ممهلا له، فقال: هيـا أجبـني.. إن كنت تريـد أن ترحـل معي فهلم.. وإلا فدعني.. فالعمر أضيق من أن نضيعه.

قلت: أمهلني يوما واحدا لأحزم أمتعتي..

قال: لك ذلك على أن لا تتجاوز يوما واحدا.. فإني أخشـى على نفسي أن يختطفني الموت قبل أن أتشرف بالتعرف على المبـدع العظيم الذي أبدع جميع هذا الكون.

***

في اليوم التالي، سرت مع صديقي جيمس.. وظللنا نسير مدة طويلة..

لم نـترك كنيسـة ولا معبـدا ولا رجـل دين ولا رجـل فلسـفة إلا لجأنا إليه نسـأله عن ربنـا.. وقـد عرفنـا من اختلاف الفـرق.. ومن أنواع الخرافة ما كاد يملؤنا باليأس..

لقد كنا نسمع أحاديث كثيرة عن إلـه هـذا الكـون أو آلهـة هـذا الكون.. ولكنها جميعا كانت تتناقض مـع كثـير ممـا عرفنـا بـه العلم عن ربنا.. وقد كان صاحبي – كما ذكـرت لكم – حازمـا جـادا.. فلم يكن يرضى أن تمس العلوم التي تعلمهـا.. لقـد قـال لي في ذلـك: إن العلوم التي دلتني على أن لي ربا يستحيل أن تتناقض مع الرب الذي أبدعها..

ثم أضاف: إن الجمال الذي علمتني إياه العلـوم دلـني على أن الأصـل في الكـون السـلام لا الصـراع.. فيسـتحيل على رب هـذا الوجود أن يصارع مخلوقاته.

بعد أن كدنا نيأس التقينا به..

لقد كان في غاية النورانية والسلام والصفاء واللطف..

كان وكأنه زهرة من أزهار الحقول الجميلة التي لا تذبل..

بل كان عطرا صـافيا لم يـدنس بكثافـة الأزهـار، ولم يعـره مـا يعروها من الضعف.

قلنا: من؟

قال: ولي من أولياء الله.. كان اسمه (محمد الجـواد)(1).. كـان شـابا لمـا يتجـاوز الخامسـة والعشـرين.. ولكنـه كـان في حكمـة الشيوخ.. وفي روحانية القديسين.. وفي ذكاء العباقرة.

عندما التقينا به كـان منشـغلا بالعمـل في حقـل من الحقـول.. قرب جامعـة من كـبرى الجامعـات الأمريكيـة.. وكـان العطش قـد استبد بنا.. فطلبنا منه كأس ماء ليسقينا..

فأقبل إلينا بكل وجهه.. وسـقانا من ابتسـامته ولطفـه قبـل أن يسقينا من مائه.. ثم قال لنـا بعـد أن ارتوينـا: انظـروا إلى الجمـال العظيم الذي تختزنه هذه القطيرات العذبة من الماء..

---

1) أشـير بـه إلى الإمـام الجليـل (محمـد بن علي الرضـا) (195ــ220هــ) المعـروف بالجواد، وهو تاسع أئمّة أهل البيت – على مذهب الاثنا عشرية- ويقال له ابن الرضا.

قال عنه الذهبي: كان من سَروات آل بيت النبي ﷺ ، وكان أحد الموصـوفين بالسـخاء، ولذلك لقب بالجواد..

قال المفيد: كان المأمون قد شغف بأبي جعفـر لمـا رأى من فضـله على صـغر سـنّه، وبلوغه في الحكمة والعلم والآدب وكمال العقل مالم يسـاوه فيـه أحـد من مشـائخ أهـل الزمان.

و للإمام - بالإضافة إلى ما روي عنـه من فقـه وحـديث - مواعـظ وحكم وآداب وبعض الآدعية ذكرها الآعلام في كتبهم، منها: قوله:(المؤمن يحتاج إلى ثلاث خصـال: توفيـق من اللّه وواعظ من نفسه وقبول ممن ينصحه)، وقال: (من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن اللّه فقد عبد اللّه، وإن كـان النـاطق ينطـق عن لسـان إبليس فقـد عبـد إبليس)، وقال: (من اسـتفاد أخـاً في اللّـه فقداسـتفاد بيتـاً في الجنـة) (انظـر: موسـوعة أصحاب الفقهاء)

نظر إليه صاحبي، وهو يتعجب أن يتحدث مثله بمثل هذا.

أضاف الجواد: انظروا.. إن الماء ليس مجرد سائل كسائر السوائل.. إنه سر الحياة.. إنه الركيزة الكبرى في حياة الكائنات الحية، وعليه تتوقف جميع العمليات الحيوية فيها(1).

إن ذلك يعود إلى الخواص الفريدة للماء، والتي تجعله بحق سائل الحياة..

أراد صاحبي جيمس أن يختبره، فقال: وما هي هذه الخصائص؟

قال الجواد: له خصائص كثيرة.. منها أنه يذيب العديد من المواد أكثر من أي سائل آخر، ويرجع هذا إلى مقدرة الماء العالية في فصل الجزيئات المتأينة وغير المتأينة بعيداً عن بعضها البعض.

وله حرارة نوعية عالية مقارنة بالكثير من السوائل، فله حرارة تبخر، وحرارة كامنة عاليتان بصورة غير عادية، وتساعد هاتان الخاصيتان على بقاء الماء بصورته السائلة في درجات حرارة مختلفة، بل تجعله صالحاً لحياة الكائنات الحية في درجات حرارة عالية أومنخفضة نسبياً.

ومع أن معظم المواد تكون عند أعلى كثافة لها في درجة التجمد، ولكن الماء يشذ عنها، حيث له أعلى كثافة عند درجة 4 س، وهذه الخاصية مهمة للأحياء المائية البحرية، حيث يطفو الجليد على سطح الماء، وبذلك يعمل عازلاً لما تحته، ويمنع الماء السفلي من التجمد، وهذا يحمي الكائنات البحرية من الهلاك والتجمد.

وهو شفاف قابل لنفاذية الموجات الضوئية المرئية، وبذلك يصل الضوء إلى أعماق كبيرة في البحار، وإلى داخل أوراق النباتات الأرضية، فتتم عملية البناء الضوئي فيها.

وله شد سطحي أعلى من كل السوائل المعروفة، عدا الزئبق وهذه الخاصية تجعله يرتفع في أجزاء النبات إلى مسافات عالية تصل إلى أكثر من 60 مترا.

وله قدرة تلاصق كبيرة مع كل من جزيئات النشا والسليلوز والبروتين، بحيث إذا تلا مس الماء مع أي منهم تلاصقا بشدة مع بعضهما البعض، مما يؤدي إلى بلل تلك المواد، وهذه الخاصية مهمة للكائنات الحية، ولإتمام العملية الحيوية بها، وصعود الماء في

---

1) ذكرنا الكثير مما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة من الحديث عن الماء في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة، وإنما ذكرنا هذا هنا ليكون تمهيدا للحديث عن اسم (البديع)

النبات.
وبالإضافة إلى هذا كله، فقد أثبتت جميع التجارب العلمية أن للماء دوراً حيوياً كبيراً في حياة الكائنات الحية، ففقدان الجسم بالجوع 50 بالمائة من الدهون والبروتينات غير مهلك، ولكن فقدان الجسم نسبة 20 بالمائة فقط من مائة قاتل.
ازداد عجب صاحبي جيمس من معرفته بكل هذا.. ولكنه لم يكتف به، بل راح يسأله.. ولست أدري هل سأله مختبرا.. أم أنه شعر أن لديه ما كان يبحث عنه.. قال له: فما سر هذا النشاط الحيوي للماء؟
قال الجواد: إن هذا يرجع إلى أمور كثيرة:
منها أن الماء ينظم بدقة العمليات الحيوية في الكائنات الحية، فجميع الأنشطة الحياتية وتفاعلاتها المتعددة من التغذية إلي الإخراج ومن النمو إلي التكاثر لا تتم في غيبة الماء بدءا من التمثيل الغذائي، وتبادل المحاليل بين الخلايا وبعضها البعض، وبينها وبين المسافات الفاصلة بينها، وذلك بواسطة الخاصية الشعرية للمحاليل المائية التي تعمل من خلال جدر الخلايا، وانتهاء ببناء الخلايا والأنسجة الجديدة مما يعين علي النمو والتكاثر، وقبل ذلك وبعده التخلص من سموم الجسم وفضلاته عن طريق مختلف صور الإفرازات والإخراجات.
هذا بالإضافة إلي ما يقوم به الماء من أدوار أساسية في عمليات بلع الطعام، وهضمه، وتمثيله، ونقله، وتوزيعه، ونقل كل من الفيتامينات، والهرمونات، وعناصر المناعة، ونقل الأوكسجين إلي جميع أجزاء الجسم، وإخراج السموم والنفايات إلي خارج الجسم، وحفظ حرارة الجسم ورطوبته وما يقدم لذلك أو يترتب عليه من العمليات الحيوية.
ومنها أنه منظم لدرجة حرارة الجسم، بما له من سعة حرارية كبيرة، ومنظم لضغط الدم، ولدرجات الحموضة، فإن في نقصه تعطش الخلايا ويضطرب عملها، وتتيبس الأنسجة، وتتلاصق المفاصل، ويتجلط الدم ويتخثر، ويوشك الكائن الحي علي الهلاك ولذلك فإن أعراض نقص الماء بالجسم الحي خطيرة للغاية، فإذا فقد الإنسان علي سبيل المثال1بالمائة من ماء جسده أحس بالظمأ، وإذا ارتفعت نسبة فقد الماء إلي5بالمائة جف حلقه ولسانه، وصعب نطقه، وتغضن جلده، وأصيب بانهيار تام، فإذا زادت النسبة المفقودة علي10بالمائة أشرف الإنسان علي الهلاك

بالموت.
وفي المقابل فإن الزيادة في نسبة المـاء بجسـم الكـائن الحي علي القدر المناسب له قد تقتله، فالزيادة في نسـبة المـاء بجسـم الإنسان قد تسبب الغثيان، والضـعف العـام وتنتهي بالغيبوبـة الـتي تفضي إلي الموت.
ومنهــا أن عمــل العضــيات الحيويــة المهمــة بالخليــة مثــل الميتوكونـدريا (مواضـع تكـوين الـبروتين بالخليـة) والبلاسـتيدات الخضراء (عضـيات تكـوين الغـذاء في النبـات من الضـوء) يتوقـف عملها جميعاً على امتلائها وانتفاخها بالضغط المائي.
ومنها أن الماء ينقل المركبات العضوية وغيرها بالجسم، نظــراً لانخافض لزوجته ومقدرته على الحركة وإذابة كثـير من المركبـات العضوية وغير العضوية.
ومنها أن الماء يـؤدي وظيفـة إخـراج نـواتج الهـدم في الأجـزاء المتخصصة لذلك في الكائنات الحية.
ومنهـا أن المـاء ضـروري لعمليـات التحلـل المـائي والأكسـدة والاختزال في الأجسام الحية.
ومنها أن الماء ينظم درجة حرارة الكائنات الحية، وذلك لارتفاع حرارته النوعية ولتوصيله الجيد للحرارة.
ولهذا كله وغيره، فإن الماء يشكل العنصـر الأساسـي في بنـاء أجساد جميع الكائنات الحية، فقد ثبت بالتحليل أن نسـبة المـاء في جسم الإنسان تتراوح بين حوالي71بالمائة في الإنسان البالغ، و93 بالمائة في الجنين ذي الأشهر المحدودة، بينما يكون الماء أكـثر من 80بالمائة من تركيب دم الإنسان، وأكثر من90بالمائـة من أجسـاد العديد من النباتات والحيوانات.
ونتيجة لذلك، فلا يمكن للحيـاة أن تقـوم بغـير المـاء أبـدا، فمن الكائنات الحية ما يمكنه الاستغناء كلية عن أوكسجين الهواء، ولكن لا يوجد كائن حي واحد يمكنه الاستغناء عن الماء كلية..
تعجب صاحبي كما تعجبت من المعـارف العلميـة الـتي يعرفهـا هذا الرجل، مع كونه في الظاهر ليس سوى فلاح بسيط..
قال له جيمس: كيف كان لك هذا الاهتمام بهـذه المعـارف مـع كونك لست سوى فلاح بسيط ليس يملـك من همـة سـوى البحث عن الأغذية التي تمن بها الأرض علينا؟
ابتسم الجواد، وقال: الأرض أضـعف من أن تمن على أحـد من الناس.

قال جيمس: ألست تضع البذور في الأرض لتجود لك بعدها بما تشتهي من أصناف الطعام؟

قـال الجـواد: لقـد ذكـرت لـك أن الأرض أفقـر من أن تجـود بشيء.

قال جيمس: فمن يجود إذن؟

قال الجواد: الخالق البارئ المصور البديع هو الـذي يجـود.. أمـا الأرض.. فليست سوى فقير من الفقراء يمد يده لرب هـذا الكـون ليمده بعطائه.

اهتز صاحبنا لكلام الجواد، وأخذ يرقص، وهو يـردد: لاشـك أنـك من كنت أبحث عنه.. لاشك أنك أنت الدليل على الله.. لاشك أنــك الذي امتلأت به أحلامي في اليقظة والمنام.

تعجبت كثـيرا من موقـف صـاحبي.. وممـا زاد في عجـبي أن الجواد لم يتعجب.. بل قال له بكل بساطة: نعم أنـا ذلـك الرجـل.. فاصحبني لتتعرف على ربك.. فلا يتعرف على ربه من لم يصحبنا.

قلت: من أنت بالله عليك..

قال: لقـد جعـل اللـه بفضـله وكرمـه لكـل شـيء واسـطة من وسائط جوده.. وقد جعلني بفضله كما جعل الكثير وسائط لتعريف العباد به..

قلت: ولكني لست أراك سوى فلاح.

قـال: أنـا أشـتغل بـالأرض من بـاب العبوديـة لا من بـاب طلب الرزق.. فالله ربي هو الرزاق ذو القوة المتين..

قلت: كيف تشتغل بالأرض من باب العبودية لا من باب الرزق؟

قال: لقد قال لنا ربنا:﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُـونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَـهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67)﴾ (الواقعة)

وهكذا قال لنا بالنسبة للماء، والنار.. وكل شيء، قال تعـالى:﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُـوهُ مِنَ الْمُـزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَـوْلَا تَشْـكُرُونَ (70) أَفَـرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (72) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (73) فَسَـبِّحْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة)

ولهذا، فإنا بتقليب الأرض وحرثها وحصادها نشـعر أننـا نمـارس عبودية التقليب والحرث والحصاد.. أما الرزق، فإنـا من كـل قلوبنـا نوقن أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

قلت: فـأي عبوديــة تمارســها في تقليبــك لأرضــك وحرثــك وحصادك لها؟
قال: ألا تعرف جدول مندلييف؟
قلت: الجدول الدوري للعناصر؟
قال: أجل..
قلت: أعرفه.. ما به؟
قال: ما ذكر فيه؟
قلت: لقد ذكر فيه العناصر التي يتكون منها الكون على حسب ما وصل إليه الإنسان.
قال: هناك جدول آخر.. شغلت كل حياتي في البحث عنه.
قلت: ما هو؟
قال: الجدول الأسمائي..
قلت: ما تريد بذلك؟
قال: أرأيت لو أنك رأيت قصـرا قـد زين بجميـع أنـواع الزينـة.. ووفرت فيه جميع أنواع الخـدمات.. ثم رزقـك اللـه مـالا، فحـدثتك نفسك بأن تتخذ مثله، فبمن يبدأ بحثك؟
قلت: لاشك أني أهتم كثيرا بالمصممين والحرفيين الـذي تولـوا بناء ذلك القصر.. فلا يمكن أن يبنى القصر من غير بنائين.
قال: بنائين فقط؟
قلت: لا.. أنا أحتاج إلى بنائين ومهندسين وكهربائيين.. وغــيرهم كثير.
قـال: أرأيت إن اجتمعـوا في واحـد.. وكـان لـه فـوق ذلـك من الخبرة ما لا يضارعه فيه أحد؟
قلت: حينذاك سأطمئن على قصري اطمئنانا كليا.. بـل أضـمن أن يبنى بغاية التناسق والتكامل والجمال.
قال: لم؟
قلت: لأن الواحد الذي تجتمع لديه كل الخـبرات تكـون لـه كـل القدرة على التنسيق بينها.
قال: فقد عرفت مرادي إذن من الجدول الأسمائي؟
قلت: لا.. فهمت المثال.. لكني لم أدرك تطبيقــه على مــا نحن فيه.
قال: فلنعتبر هذا الكون قصرا عظيما..
قلت: هو كـذلك.. فعلمـاء الفلـك يصـفون الكـون بالبنـاء.. ومـا

الأفلاك إلا لبنات فيه(1).

قال: فهو يحتاج إذن إلى جميع أنواع الخبرات؟

قلت: أجل.. بل لا يمكن حصر الخبرات التي يحتاجها.

قال: فأنا يهمني البحث في هذا..

قلت: لم؟.. أتريد أن تبني كونا جديدا؟

قال: لا.. أنا أريد أن أعبر من الكون إلى المكون.. أنا لا أريد أن أكون كحمار الرحا.

قلت: وما به حمار الرحا؟

قال: هو يرحل من كون إلى كون.. فيعيش في الأوحال ويموت بين الأوحال.

قلت: وما تريد أنت؟

قال: أنا أفهم من كون الله أنه رموز ورسائل تحتها معان عميقة أرسلها الله إلينا لنتعرف عليه من خلالها.

***

كان الجواد يحادثنا بمثل هذه المعاني، وكان صاحبي جيمس مشدوها، وكأنه كان يحلق في فضاء لم تستطع مداركي حينذاك أن تستوعبه.

عندما وصل بنا الحديث إلى هذا الموضع، صاح جيمس: نعم.. كل ما ذكرته صحيح.. هذا ما كنت دائما أقوله لنفسي.. أنا وجميع الباحثين نفني أعمارنا ونحن نرى كل هذه الروعة والجمال، ثم لا نحدث أنفسنا بالبحث عن صاحبها، أو البحث عن التعرف عليه، والاتصال به.

قال الجواد: إلا العلماء العارفون.. فإنهم يعبرون من الكون إلى المكون..

لقد سمعت رجلا منهم يقال له (عبد السلام بن مشيش) يخاطب تلميذا له اسمه (أبو الحسن الشاذلي) يوصيه:(حدد بصر الإيمان تجد الله تعالى في كل شيء، وعند كل شئ، وقبل كل شئ، وبعد كل شئ، وفوق كل شئ، وتحت كل شيء، قريباً من كل شئ، ومحيطاً بكل شئ، بقرب هو وصفه، وبحيطة هي نعته، وعد عن الظرفية والحدود، وعن الأماكن والجهات، وعن الصحبة والقرب في المسافات، وعن الدور بالمخلوقات، وامحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو هو.. كان الله ولا شئ

1) ذكرنا التفاصيل العلمية الكثيرة الدالة على هذا في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

معه، وهو الآن على ما عليه كان)

وكان منهم رجل آوته الجبال والغابات أياما طويلة من عمـره.. كان اسمه الإمام بديع الزمان النورسي.. وكان لـه رسـائل اسـمها (رسائل النور).. وقد جعلها مفاتيح لقراءة حروف الكون.

لقد سمعته مـرة ذكـر أنـه يمكن مشـاهدة آثـار تجلي عشـرين اسماً من الأسماء على ظاهر كل ذي حياة فحسب.

ولتقريب هذه الحقيقة الدقيقـة والعظيمـة الواسـعة، استشـهد بمثال ذكر فيه أنه لـو أراد فنـان بـارع في التصـوير والنحت، رسـم صورة زهرة فائقة الجمال، أو نحت تمثال بـديع، فإنـه يبـدأ أول مـا يبـدأ بتعـيين بعض خطـوط الشـكل العـام لهمـا، وهـذا التعـيين يتم بتنظيم، ويعمله بتقدير يستند فيه إلى علم الهندسة، فيعيّن الحـدود وفقه بعلمٍ وبحكمة، لذا تحكُم معـاني العلم والحكمـة وراءَ التنظيم والتحديد.

ثم إن تلـك الاعضـاء الـتي عُيّنت وفـق العلم والحكمـة أخـذت صيغة الصـنعة المتقنـة والعنايـة الدقيقـة، لـذا تحكمُ معـاني الصـنع والعناية وراء العلم والحكمة.

وقابلية الحسن والزينة في الظهور يـدل على أن الـذي يحـرك الصنعة والعناية هو إرادة التجميل والتحسين وقصد الـتزيين، فهمـا إذن يحكمان من وراء الصنعة والعناية.

وعندما يبدأ الفنان بإضـفاء حالـة التبسـم لتمثالـه، وشـرع بمنح أوضاع حياتية لصورة الزهرة، يكون قد بدأ بفعلَي التزيين والتنـوير، ويحركهما معنيا اللطف والكرم.

وهكذا.. يحـرك معـاني الكـرم واللطـف، ومـا وراءهمـا معـاني التـودد والتعـرف، أي تعريـف نفسـه بمهارتـه وفنـه، وتحبيبهـا الى الآخرين.

وهذا التعريـف والتحـبيب آتيـان من الميـل إلى الرحمـة وإرادة النعمة.

ومعاني الترحم والتحنن هذه، لا يسوقهما الى الظهور لدى ذلك المستغنى عن الناس، غير ما في ذاتـه من جمـال معنـوي وكمـال معنوي يريدان الظهور، فأجمل ما في ذلك الجمـال، وهـو المحبـة، وألذ ما فيه وهو الرحمة، كل منها يريد إراءة نفسه بمـرآة الصـنعة، ويريد رؤية نفسه بعيون المشتاقين.

فالجمـال والكمـال محبـوب لذاتـه، (يحب نفسـه أكـثر من أي شـئ آخـر، حيث أنـه حُسـن وعشـق في الـوقت نفسـه، فاتحـاد

الحسن والعشـق آتٍ من هـذه النقطـة.. ولمـا كـان الجمـال يحب نفسه، فلابد أنه يريد رؤيـة نفسـه في المرايـا، فـالنعم الموضـوعة على التمثال، والثمرات اللطيفة المعلقة على الصورة، تحمل لمعةً براقة من ذلك الجمال المعنوي - كل حسب قابليتـه - فتُظهـر تلـك اللمعات الساطعة نفسها الى صاحب الجمال، والى الآخـرين معـاً) (1)

التفت الجـواد إلي، ثم التفت إلى جيمس، وقـال: على منـوال هذا المثـال الـذي أورده بـديع الزمـان تتم قـراءة العـارف للكـون، وللأسماء الحسنى التي تتجلى في مرآتـه، قـال النورسـي:(وعلى غرار هذا المثال الذي ينظم الصانع الحكيم ــ وللـه المثـل الاعلى ـ الجنــة والــدنيا والســموات والارض والنباتــات والحيوانــات والجن والانس والملك والروحانيات، أي بتعبير موجز ينظم سـبحانه جميـع الأشياء كليّها وجزئيهـا.. ينظمهـا جميعـاً بتجليـات أسـمائه الحسـنى ويعطي لكل منها مقداراً معيناً حتى يجعله يستقرىء اسم:المقـدر، المنظم، المصور) (2)

ففي النظر إلى زهرة واحـدة جميلـة صـحائف كثـيرة جـداً من صحائف التعرف على الله:

فصحيفة هيئـة الشـئ الـتي تـبين شـكله العـام ومقـداره، تلهج باسماء: يا مصور يا مقدر يا منظم.

وصحيفة صور الاعضاء المتباينـة المنكشـفة ضـمن تلـك الهيئـة البسيطة للزهرة، أسماء كثيرة أمثال: العليم، الحكيم.

وصحيفة إضفاء الحسن والزينة على الأعضاء المتباينـة بأنمـاط متنوعة من الحسن والزينة تكتب في تلك الصـحيفة أسـماء كثـيرة من امثال: الصانع، البارئ.

وصحيفة الزينة والحسن البـديع الموهوبـان لتلـك الزهـرة تقـرأ اسماء كثيرة امثال: يا لطيف. يا كريم.

وصحيفة تعليـق ثمـرات لذيـذة على تلـك الزهـرة يجعلان تلـك الصحيفة، تستقرئ اسماء كثيرةً أمثال: يا ودود يا رحيم يا منعم.

وصحيفة الإنعام والإحسان تقرأ أسماء أمثال: يا رحمن يا حنان.

وصـحيفة ظهـور لمعـات الحسـن والجمـال الواضـحة في تلـك النعم تكتب وتقرأ اسماء: يا جميل ذا الكمال يا كامل ذا الجمال.

فهذه زهرة واحدة تلهج بجميع هذه المعـارف الـتي تحتـوي من

---

1) الكلمة الثانية والثلاثون.

2) الكلمة الثانية والثلاثون.

الأعماق ما لا حدود له، فإلى أي حد من السمو والكلية تستقرىء جميع الازهار، وجميع ذوي الحياة والموجودات الاسماء الحسنى الإلهية.

***

ازداد استغراق صاحبي جيمس في المعاني الجميلة التي طرحها الجواد.. لكنه فجأة عاد إليه عزمه الذي كنت أعرفه به، ثم التفت إلي، وقال: لقد وجدت طلبتي.. فإن شئت أن تبقى معي، فمرحبا.. وإن شئت أن تسير إلى ما كنت فيه.. فسر.

قلت: ماذا تريد أن تفعل بنفسك؟.. هل تريد أن تجلس تلميذا عند هذا الفلاح، وأنت الذي تتنافس الجامعات ودور العلم على سماع صوتك.

قال: لقد وجدت عند هذا الفلاح ما لم أجده في الدنيا جميعا.. ولذلك، فقد اتخذت قراري، فإن شئت أن تصحبني، فابق معي.. وإن شئت أن تسير، فسر.

قلت: لا بأس.. سأصحبك لأنظر ماذا تفعل.. وماذا يريد صاحبنا هذا أن يفعل بك.

ابتسم الجواد، وقال: تسرني صحبتكما.. فهلما معي لنبحث عن ربنا.. ونبحث عن جدول الأسماء المعرفة لربنا.

***

عندما وصل صاحبنا (بينيديتو كروتشي) من حديثه إلى هذا الموضع سألناه: ماذا فعلت مع صاحبك والجواد؟.. وكيف وجدتماه بعد صحبتكما له؟

قال: لقد وجدناه رجلا ممتلئا بالإيمان من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه.. لكأنه حشي بالإيمان حشوا..

وقد رأيناه - بالإضافة إلى ذلك - عالما فحلا قد امتلك كل ما يمتلكه العلماء من أدوات ووسائل ومعارف.. بل فوق ذلك كان يخوض في كل العلوم، يمخر عبابها، ويركب صعبها ووعرها بهمة لا تلين، وبقلب لا يضعف.

وقد عرفنا – من خلال صحبتنا له- أن داعيه إلى العلم هو إيمانه العميق.. فالإيمان هو لباب العلم وخلاصته..

وقد قضينا - من خلال معرفتنا به – على تلك الخرافة التي تزعم التناقض بين العلم والإيمان..

قلنا: هذا ما عرفتم عنه.. فما استفدتم منه؟

قال: أما أنا فقد استفدت سبعة من أسماء الله الحسنى

زادتني معرفة بالله، وزادتني تعظيما له..
قلنا: وصاحبك؟
قال: لقد فني صاحبي في الجواد.. وقد نـال بفنائـه مـا لا يمكن لشخصي الضعيف أن يدركه.
قلنا: فلم قعدت دونه عن الوصول إلى ذلك؟
قال: لقد جذبتني الدنيا بكلاليبها الحريرية، وتثـاقلت إلى الأرض، ونسيت كثيرا.. ولولا أن قيض الله لنا هذا المقام لأتذكر تلـك الأيـام الجميلة لنسيتها ونسيت بها أعظم معنى عرفته في حياتي.
قلنا: فما الأسماء التي فقهتها من خلال صحبتك له؟
قــال: هي الخــالق، والخلاق، والبــارئ، والمصــور، والفــاطر، والحافظ، والمغني.
قلنا: فهل كنتم وحدكم في تعلم هذه الأسماء من الجواد؟
قال: لقد نسيت أن أذكر لكم أن ذلك الفلاح البسـيط كـان قـد اجتمـع لـه - بفضـل اللـه - خـيرة العلمـاء ممن كـان يـدرس بتلـك الجامعة أو ممن كان يمر بها.. كلهم انجذبوا لما انجذبنا لـه.. وكلهم تتلمـذ على يديـه.. ومـا سـأذكره لكم من حديثـه كـان خطابـا لنـا جميعـا.. لي، ولصـديقي جيمس، ولأولئـك العلمـاء ذوي المشـارب المتعددة الذين كانوا بين الفينـة والأخـرى يزرونـه في بسـتانه.. ولا ينقلبون إلا بإيمان عميق بعيد عن كل خرافة أو جدل.

1 ـ الخالق

قلنا: فحدثنا عن الاسم الأول.. حدثنا عن اسم (الخالق)
قال: لقد كـان أول الأسـماء الـتي حـرص الجـواد على تعليمنـا إياها.. وقد وضعها في أول جدوله الأسمائي هو اسم (الخالق)..
وقـد سـألناه عن سـر وضـع هـذا الاسـم في مقدمـة الأسـماء، فقال: لذلك سببان، أما أحدهما، فينبع من أسرار كتابنـا المقـدس.. وأما الثاني، فينبع من أسرار نفوسنا المدنسة المملوءة بالدخن.
أما السر الأول، فيشير إليه قوله تعالى في أول آيات نزلت من القرآن الكريم.. هي قوله تعالى:﴿ اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَـقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2)﴾ (العلق)، ففي هذه الآية الكريمـة ذكـر للخلق.. وتعريف بأن الله هو الخالق.. وهو أول مـا عـرف بـه اللـه بذلك في القرآن.
وأما الثاني، وهو النـابع من أسـرار نفوسـنا، فهـو أن البصـائر - قبل أن تكتحل بنور الإيمـان - تتصـور أن هـذا الكـون بمـا فيـه من مادة وحياة كـون نشـأ هكـذا من غـير منشـئ.. وهي عنـدما تهـرع

لننهل من حياض الإيمان قد تكتفي بإيمان تقليدي غير مؤسس على أسس علمية واقعية.. وإيمان بهذا الشكل هش ضعيف لا يستطيع أن يؤدي دوره الفاعل في الحياة..

قلنا: فما المنهج الذي نخرج به من هذا الإيمان التقليدي لنتعرف على ربنا الخالق؟

قال: لاشك أنكم تعلمون أن التصورات الجاهلية التي قد يتسرب أثرها إلى النفوس، فيفسد علاقتها بربها ومعرفتها به هو تصورها أن هذا الكون بما فيه من مادة وحياة كون نشأة صدفة أو لسبب من الأسباب غير سبب الخالق العظيم الذي خلقه.

المادة:

قلنا: ما تقوله صحيح.. فحدثنا كيف نزيل وهم الصدفة أو غيرها من الأسباب عن المادة.. لننسبها إلى ربها الذي أبدعها؟

قرأ الجواد من القرآن هذه الآية:﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53)﴾ (فصلت)، ثم قال: لقد شاء الله بفضله وكرمه أن يعطينا في هذا الزمان من الأدلة ما يقف أمامه الملاحدة حائرين.. فقوانين الحرارة.. وقوانين الإلكترون.. والطاقة الشمسية يقف كل واحد منها دليلاً واضحا على خالقية الله للأشياء.. عدا عن الأدلة الفطرية والعقلية والقطعية التي ذكرها الربانيون في كل عصر.

قال رجل منا: فكيف تدل قوانين الحرارة على خالقية الله للأشياء؟

قال الجواد(1): لقد عبر (إدوار لوزكيل) عن هذا القانون، وكيف أنه يثبت أن لهذا الكون بداية، فقال: (قد يعتقد بعضهم أن هذا الكون هو خالق نفسه، وعلى حين يرى البعض الآخر أن الاعتقاد بأزلية هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد بوجود إله أزلي، ولكن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأي - أي أزلية الكون - فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا.. فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة.. ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية، ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام، وينضب منها معين الطاقة.. ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيماوية أو طبيعية، ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها في

---

1) انظر: الله جل جلاله، لسعيد حوى.. وقد سبق ذكر بعض هذه الأدلة في الفصل الأول.

هذا الكون.. لـذلك فإننـا نسـتنج أن هـذا الكـون لا يمكن أن يكـون أزلياً، وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد، وتوقف كـل نشـاط في الوجـود.. وهكـذا توصـلت العلـوم دون قصـد إلى أن لهـذا الكـون بداية.. وهي بذلك تثبت وجود اللـه ومـا كـان لـه بدايـة لا يمكن أن يكون قد بدأ بنفسه، ولا بد له من مبديء أو من محرك أول، أو من خالق هو الإله)

وقد استدل (فرانك الان) عالم الطبيعـة البيولوجيـة على عـدم أزلية الكون كذلك بنفس القانون، فقـال: (كثـيراً مـا يقـال إن هـذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق، ولكننا إذا سلمنا بأن هـذا الكـون موجود فكيف وجوده ونشأته؟

هنالك أربعة احتمالات للإجابة على هذا السؤال: فإما أن يكـون هذا الكون مجرد وهم وخيـال وهـو مـا يتعـارض مـع القضـية الـتي سلمنا بها حول وجوده.. وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم.. وإما أن يكون أبديا ليس لنشأته بدايـة.. وإمـا أن يكون له خالق.

أما الاحتمال الأول فلا يقيم أمامنا مشكلة الإحساس والشـعور، فهو يعني أن إحساسنا بهذا الكون وإدراكنا لما يحـدث فيـه لا يعـدو أن يكون وهما من الأوهام ليس له ظل من الحقيقة.. فالرأي الذي يدعي أن هذا الكون ليس لـه وجـود فعلي وأنـه مجـرد صـورة في أذهاننا وأننا نعيش في عـالم من الأوهـام لا يحتـاج إلى مناقشـة أو جدال.

أما الرأي الثاني القائل بأن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقـة قـد نشـأ هكـذا وحـده من العـدم فهـو لا يقـل عن سـابقه سـخفا وحماقة ولا يستحق هو أيضا أن يكون موضعاً للنظر أو المناقشة.

والـرأي الثـالث الـذي يـذهب إلى أن هـذا الكـون أزلي ليس لنشأته بداية إنما يشترك مع الرأي الذي ينـادي بوجـود خـالق لهـذا الكون، وذلك في عنصر واحد هو الأزلية، وإذا فنحن إمـا أن ننسـب صفة الأزلية إلى عالم ميت، وإمـا أن ننسـبها إلى إلـه حي يخلـق.. وليس هناك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد الاحتمالين أكـثر ممـا في الآخر، ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونـات هـذا الكون تفقد حرارتها تدريجا، وأنها سائرة حتما إلى يـوم تصـير فيـه الأجسـام تحت درجـة من الحـرارة بالغـة الانخفـاض هي الصـفر المطلق، وبومئذ تنعـدم الطاقـة وتسـتحيل الحيـاة ولا منـاص عنـد حدوث هذه الحالة من انعـدام الطاقـة عنـدما تصـل درجـة حـرارة

الأجسام إلى الصفر المطلق بمضي الوقت.. أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة فهو إذن حدث من الأحداث، ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية عليم محيط بكل شيء قوي ليس لقدرته حدود، ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه، فالقانون إذن يثبت أن الكون ما دام فيه حرارة فلا يمكن أن يكون أزليا لأن الحرارة لا يمكن أن تنبعث تلقائيا في الكون بعد برودته ولو كان أزليا لكان بارداً)

قلنا: وعينا هذا.. فكيف تدل قوانين الحركة الإلكترونية على خالقية الله للأشياء؟

قال: إن كل ذرة من ذرات الوجود تدل على هذا.. فذرات الكون كلها مؤلفة من نواة، وإلكترونات تشكل الكواكب السيارة لها.. وهي تدور حولها بسرعة هائلة بحركة دائرية إهليلجية.. وبسبب هذه السرعة الهائلة في حركة الإلكترون يبقى الإلكترون متحركا هذه الحركة.. إذ لولا هذا الدوران لجذبت كتلة النواة كتلة الإلكترون، وفي هذه الحالة يصبح جرم كالكرة الأرضية في حجم بيضة الدجاجة.. فالفراغ كبير جدا في عالم الذرة.. فكتل الجزيئات لا تأخذ إلا حيزاً صغيراً جداً من فراغ الذرة الواسع، وذلك أن البعد بين النواة والإلكترونات الدائرة حولها كالبعد بين الشمس وكواكبها السيارة نسبياً.

قال ذلك، ثم التفت إلينا، وقال: إن الشيء الدائر لا بد أن تكون له نقطة بداية زمانية ومكانية بدأ منها دورته.. ولما كانت الإلكترونات والأجرام كلها في حركة دائرية، ولما كانت هذه الحركة غير مستأنفة - كما يبدو - فإذن لا بد أن تكون هناك بداية زمانية ومكانية لحركة الإلكترون.. وهذه البداية في الحقيقة هي بداية وجود الذرات نفسها، وبهذا نصل إلى أن لهذا الكون بداية ونشأة وخالقا من العدم.. إذ العدم لا ينتج عنه وجود(1).

قلنا: وعينا هذا.. فحدثنا عن دلالة الطاقة الشمسية(2) على خالقية الله للأشياء.

قال: إن أي عاقل يرى الشمس وما ترسله من ضياء ودفء لابد أن يتساءل: من أين تأتي الشمس بطاقتها؟ وكيف تحافظ

1) انظر تفاصيل أكثر عن هذا الدليل في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.
2) ذكرناها هنا باعتبارها نموذجا نراه، ويمكن تطبيقه على سائر مصادر الطاقة في الكون.

على حرارتها؟

إن هذين السؤالين مهمان جدا باعتبار صلتهما بمصير الأرض، ومصير الإنسان.. وقد أجيب عنهما أكثر من جواب.. ولكنها لم تكن مقنعة حتى كان الجواب الأخير، وهو أن ذرات هذه الشموس تتحطم في قلبها المرتفع الحرارة جدا.. وبواسطة هذا التحطم الهائل الواسع المستمر تتولد هذه الطاقة الحرارية التي لا مثيل لها..

وكما هو معلوم فإن الذرة عندما تتحطم تفقد جزءا من كتلتها، حيث يتحول هذا الجزء إلى طاقة.. وإذن، فإن كل يوم يمر على أي شمس معناه فقدان جزء بسيط من كتلتها.

إن الشمس مثلا تفقد كل يوم كذا كيلو غرام، ومثلها بقية النجوم.. فلو كانت هذه الشموس قديمة أزلية، فهل يمكن أن تكون في وضعها الحالي.. أو أنها تكون قد استنفدت وانتهى أمرها؟

قال رجل منا: ولكن الشمس قد تعوض ما فقدته من مصادر أخرى؟

قال: إن كلامنا ليس عن جزء من الكون يفقد ويعوض.. فقد يوجد مثل هذا التوازن أحيانا.. ولكن كلامنا في الكون كله إذ ما دام الفضاء عظيما فحتما سيضيع قسم كبير من هذه الطاقة ولا يتحول إلى مادة.. وما دام هناك شعاع واحد يمكن أن نتصوره لا يصطدم بمادة حتى يعيد تشكله المادي بشكل ما من جديد فإن تصور أزلية الكون الحالي مستحيلة، إذ شعاع واحد على مدى الأزل كاف لاستنفاد طاقة الوجود كله.

قال آخر: فما تقول فيمن يرى أن الكون كله كان في الأصل طاقة تحولت إلى مادة.. وهو الآن مادة يتحول إلى طاقة.. ومن ثم سيكون مادة وهكذا؟

ابتسم الجواد، وقال: إن المغالطات واضحة في هذا الزعم.. ذلك أن الطاقة كطاقة إنما تظهر إذا وجدت مادة ما تقوم بها.. فالطاقة تحتاج إلى ذات، وبدون ذات تكون أشبه بمعدوم، أو بتعبير العلماء القدامى: (الطاقة عرض تحتاج إلى جوهر لتظهر فيه)، فإشعاع الشمس عندما يصادف الأرض مثلا تأخذ ذرات الأرض حرارته، وبهذا تصبح ذرات الأرض مشحونة بالطاقة الحرارية، ولكن إذا لم يصادف هذا الشعاع مادة، فهل سيتحول نفسه إلى ذرة مادية على الأقل لم يقل بهذا أحد حتى الآن.. وبهذا يتضح بما

لا شك فيه أن هذا الكون ليس قديما، وأن له بداية، وأنـه لا يتصـور وجوده لولا أن له خالقا هذا الخالق هو ابتدأ خلقـه ووجـوده بعـد إذ لم يكن.

الحياة:

قلنا: حدثتنا عن المادة.. فحدثنا عن الحياة.

قــال: لا شــك أنكم تعلمــون أن البروتينــات الــتي هي من المركبـات الأساسـية في جميـع الخلايـا الحيـة تتكـون من خمسـة عناصر.

قال رجل منا، وقد كان لا يـزال متـأثرا بنظريـة التطـور، وكـان اسمه (هَكْسِلِي)(1): أجل.. وهي الكربون والهيدروجين والنيتروجين والأوكسجين والكبريت.

قـال الجـواد: وكم يبلـغ عـدد الـذرات في الجـزيء البروتيـني الواحد؟

قال هَكْسِلِي: 40000 ذرة..

قال الجواد: وكم عدد العناصر الكيماوية الـتي بلـغ إليهـا علمنـا في الطبيعة؟

قال هَكْسِلِي: 92 عنصرا.

قال الجواد: وهل هي موزعة توزيعا منتظمـا بحيث ييسـر على الجزيء البروتيني التشكل؟

قال هَكْسِلِي: لا.. هي موزعة توزيعا عشوائيا..

قــال الجــواد: فمــا هي الاحتمــالات العلميــة لاجتمــاع عناصــر البروتين الخمسة؟

قـال هَكْسِـلِي: الإجابـة عن هـذا السـؤال سـهلة.. حيث يمكن معرفتها عن طريق معرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطا مستمرا لكي تؤلف هذا الجزيء.. ثم لمعرفة طول الفترة الزمنيـة اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد.

وقـد قـام العـالم الرياضـي السويسـري تشـارلز بـوجين جـاي بحساب هذه العوامل جميعا، فوجد أن الفرصة لا تتهيـأ عن طريـق المصـادفة لتكـوين جـزيء بروتيـني واحـد إلا بنسـبة 1 إلى 10 أي بنسبة واحد إلى الرقم 10 مضروبا في نفسه 160 مرة وهـو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنـه بكلمـات، وينبغي أن تكـون كميـة المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكبر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات.

---

1) سبق التعريف به في الفصل الأول من هذه الرسالة.

لقد ليكونت دي نوي يوضح هـذا: (يجب أن تتصـور حجمـا أكـبر من الكـون الأنشـتايني بسكسـتيليون سكسـتيليون مـرة.. ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها 243 مرة من السنين 10 أس 243.

وقد حسب العالم الإنكليزي ج. ب ليتز الطـرق الـتي يمكن أن تتآلف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات فوجـد أن عددها يبلغ الملايين 10 أس 48، وعلى ذلـك فإنـه من المحـال عقلا أن تتآلف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئا بروتينا واحدا)

قال الجواد: ألا ترى أن المادة والزمن اللذين يتطلبهما تشـكيل جزيء البروتين لا يكفيهما عمر الكون ولا ما فيه من مادة؟

سكت هَكْسِلِي، فقال الجواد: إن النظرية التي تريـد أن تسـلب الخالق خالقيته للحياة(1) لم تتجاوز حد كونها سَفْسَـطَة لا تمت إلى العلم بأية صلة.

قال هَكْسِلِي: كيف تقول ذلك.. وقد قال بها فحـول من علمـاء الحياة؟

قـال الجـواد: هم علمـاء حيـاة.. ولكنهم في هـذه المسـألة لم يخضعوا لما تمليـه عليهم الحيـاة.. ولمـا يمليـه عليهم العلم.. ولمـا تمليه عليهم قبل ذلك العقول.

قال هَكْسِلِي: إن هذا الكلام يستدعي أدلة كثيرة تنتصر له.

قـال الجـواد: ألا يكفي مـا سـبق أن ذكرتـه لنـا من التصـميم الخارق الموجود في الكائنات الحية؟.. ألا ترى أنه أكثر تعقيـداً منـه في الكائنات غير الحية؟

إن الـذّرات في الكائنـات المختلفـة موجـودة وفـق مـوازين حساسة للغاية، ونستطيع أن نميز هـذه المـوازين بـإجراء الأبحـاث المختلفة عليها، إلاّ أنّ هذه الذّرات نفسها موجودة في العالم الحي وفـق تـرتيب آخـر أكـثر تعقيـداً، فهي تعـد مـواد أساسـية لـتركيب البروتينات والأنزيمات والخلايا، وتعمل في وسط له آليات ومعـايير حساسة إلى درجة مدهشة.

التفت الجـواد إلى هَكْسِـلِي، وقـال: إنّ هـذا التصـميم الخـارق للكائنات الحية هو المعول الأكبر الذي تهدم به النظرية.. ذلـك أنهـا لا تستند الى أي دليل علمي.. بل لم تتجاوز كونها جدلاً منطقياً.

---

1) وهي نظريـة التّطـور أو الداروينيـة.. وقـد ذكرنـا الـرد المفصـل عليهـا في رسـالة (معجزات علمية) من هذه السلسـلة.. وسـنذكر بعض الـردود عليهـا مختصـرة هنـا، وهي مقتبسة بتصرف من كتابات هارون يحي.

ثم التفت إلينا، وقال: سأكتفي الآن بـذكر ثلاثـة عوامـل رئيسـة أدت إلى انتهاء هذه النظرية التي تريـد أن تـزاحم الخـالق خالقيتـه للأشياء..

قلنا: فما **أولها**؟

قال: أولهـا أنّ هـذه النظريـة فشـلت تمامـاً في إيجـاد تفسـير علمي عن كيفية ظهـور الحيـاة لأول مـرة.. فهي تـدّعي أنّ الحيـاة والكائنات الحية بأكملها نشـأت من خليـة وحيـدة قبـل أكـثر من 3 ملايير سنة..

التفت إلى صاحبنا الداروينى، وقال: أليس كذلك؟

قال هَكْسِلِي: بلى.. وعلى وجه الدقة: أكثر من 3،8 مليار سنة.

قال الجواد: بـورك فيـك.. فكيـف يمكن لخليـة حيـة واحـدة أن تتحول إلى الملايين من أنـواع الكائنـات الحيـة المختلفـة من حيث الشكل والتركيب؟.. وإذا كان هذا التحول قد حدث فعلاً، فلمـاذا لم توجد أية متحجرات تثبت ذلك؟

سكت هَكْسِلِي، فقال الجواد: كيف ظهرت تلك الخلية الأم إلى الوجود؟

قال هَكْسِلِي: يذكر أصحابنا أن هذه الخلية ظهـرت إلى الوجـود نتيجة المصادفة وحدها، وتحت ظل ظروف الطبيعة دون أن يكـون هنالك أي تأثير خارجي أو غير طبيعي.

قـال الجـواد: أي أن أصـحابك يرفضـون فكـرة الخلـق رفضـاً قاطعاً..

قال هَكْسِلِي: هم يذكرون أنّ مواداً غـير حيـة حـدثت لهـا بعض المصادفات أدت بالنتيجة إلى ظهور خلية حية.

قال الجـواد: إن هـذا الادعـاء يتنـافى تمامـاً مـع كافـة القواعـد العلمية المعروفة.. وسأذكر لك قصة الادعاءات لتعرف من خلالهـا أنها تتنافى مع كافة القواعد العلمية.

أصـخنا أسـماعنا لـه، فـراح يقـول: إن (تشـارلز داروين) الـذي اختار أو اختير له أن يكون زعيما لهذه النظرية لم يتحدث أبـداً عن أصل الحياة في كتابه..

وسبب ذلـك يتمثّـل في طبيعـة المفـاهيم العلميـة الـتي كـانت سائدة في عصره، والتي لم تتجاوز فرضية تكون الأحيـاء من مـواد بسيطة جـداً.. فقـد كـان العلم آنـذاك مـا يـزال تحت تـأثير نظريـة (التولـد التلقـائي) الـتي كـانت تفـرض سـيطرتها منـذ القـرون الوسـطى، ومفادهـا أنّ مـوادَّ غـير حيـة قـد تجمعت بالمصـادفة،

وأنتجت مواد حية.

نعم هم معـذورون في ذلـك.. فقـد كـانوا يستسـلمون للأوهـام التي يستسلم لها عامة الناس.. إذ أنهم يرون تكاثر الحشــرات في فضلات الطّعام، وتكاثر الفئران في صوامع الحبوب.. فتوهموا أنهـا تولدت ذاتيا.

وكانت هناك ظـاهرة أخـرى وهي تكـاثر الـدود في اللحم، فقـد ساقت النّاس إلى هذا الاعتقاد الغريب، واتخذت دليلاً لــه، ولكن تم إثبات شيء آخر فيما بعد؛ وهو أن الدود يتم جلبه بواسـطة الـذباب الحامل ليرقاته، والذي يحط على اللحم.

وفي الفترة التي ألف خلالها داروين كتابه (أصل الأنواع) كـانت الفكرة السائدة عن البكتيريا أنهـا تنشـأ من مـواد غـير حيـة، ولكن أثبتت التطـورات العلميــة بعـد خمس سـنوات فقــط من تـأليف الكتاب عدم صحة مـا جـاء فيـه، وذلـك عن طريـق الأبحـاث الـتي أجراها عالم الأحياء الفرنسي لويس باستور، الذي قال: (لقد أصبح الادعاء القائل بأن المواد غير الحية تسـتطيع أن تنشـئ الحيـاة في مهب الريح)

بعد هـذا ظـل المـدافعون عن نظريـة التطـور يكـافحون لمـدة طويلة ضد الأدلـة العلميـة الـتي توصـل إليهـا باسـتور، ولكن العلم بتطوره عبر الزمن أثبت التعقيـد الـذي يتصـف بـه تـركيب الخليـة، وبالتالي استحالة ظهور مثل هذا التركيب المعقد من تلقاء نفسه.

لكنهم مع ذلك لم ييأسـوا، فقـد حـاول عـالم الأحيـاء الروسـي (ألكسندر أوبارين) - وهو أول من تناول موضـوع أصـل الحيـاة في القرن العشرين، وأجرى أبحاثاً عديدة في ثلاثينيّات القرن العشرين - إثبات أن المواد غير الحية تسـتطيع إيجـاد مـواد حيـة عن طريـق المصـادفة، ولكن أبحاثــه بـاءت بالفشــل الـذريع واضـطر الى أن يعترف بمرارة قائلاً: (إنّ أصل الخلية يُعَدُّ نقطة سوداء تبتلع نظريـة التطور برمتها)

ولم ييــأس بــاقي العلمــاء من دعــاة التطــور، واســتمروا في الطريق نفسه الذي سـلكه أوبـارين وأجـروا أبحـاثهم للتوصـل إلى أصـل الحيـاة.. وأشـهر بحث أجـري من قبـل الكيميـائي الأمـريكي ستانلي ميللر سـنة 1953 حيث افـترض وجـود مـواد ذات غـازات معينة في الغلاف الجوي في الماضي البعيد، ووضـع هـذه الغـازات مجتمعة في مكـان واحـد وجهزهـا بالطاقـة، واسـتطاع أن يحصـل على بعض الاحماض الأمينية التي تدخل في تركيب البروتينات.

وعُدَّت هذه التجربة في تلك السّنوات خطوة مهمة إلى الأمـام، ولكن سرعان ما ثبت فشلها؛ لأن المواد المسـتخدمة في التجربـة لم تكن تمثـل حقيقـة المـواد الـتي كـانت موجـودة في الماضـي السحيق، وهذا الفشل ثبت بالتأكيد في السنوات اللاحقة.

وبعد فترة صمت طويلـة اضـطر ميللـر نفسـه أن يعـترف بـأن المـواد الـتي اسـتخدمها في إجـراء التجربـة لم تكن تمثـل حقيقـة المواد التي كانت توجد في الغلاف الجوي في سالف الزمان.

وهكذا بـاءت بالفشـل كـل التجـارب الـتي أجراهـا الـداروينيون طوال القرن العشرين..

لقد كتب (جيفري بادا) - الاختصاصي في الكيميـاء الجيولوجيـة في المعهد العالي في سان ديغو سيكربس – يذكر هذا الفشل في مقال نشره سنة 1998 على صفحات مجلة (الأرض) ذات التوجـه الدارويني، قال فيه: (نحن نودع القرن العشرين ومازلنـا كمـا كنـا في بدايته نواجه معضلة لم نجد لها إجابة؛ وهي: كيف بدأتالحياة؟)

قال رجل منا: فما السبب الذي تـراه في انهيـار هـذه النظريـة بهذه السرعة والبساطة؟

قال الجواد: السبب الرئيسي لذلك هـو أن أصـل الحيـاة معقـد للغاية، حتى للكائنـات الحيـة البسـيطة.. بشـكل لا يصـدقه عقـل.. فخلية الكائن الحي أعقد بكثير من جميع منتجات التكنولوجيـا الـتي صـنعها الإنسـان في وقتنـا الحاضـر، ولا يمكن إنتـاج خليـة واحـدة بتجميع مواد غير حية في أكبر المعامل المتطورة في العالم.

إن الشروط اللازمة لتكوين خلية حية كثيرة جداً، لدرجـة أنـه لا يمكن شرحها بالاستناد على المصادفات إطلاقاً.

بالإضافة إلى أن الـ DNA الذي يحفـظ المعلومـات الجينيـة في نواة الخلية يعد بنكاً هائلا للمعلومات لا يمكن تصور مـا فيـه، فهـذه المعلومات تمثل في تصورنا مكتبة تشتمل على تسـع مئـة مجلـد، وكل مجلد عددٍ صفحاته خمس مئة صفحة.

وهناك أيضاً ازدواجيـة أخـرى غريبـة في هـذه النقطـة وهي أن الشـــريط الثـــاني لDNA لا يمكن تكونـــه إلا ببعض البروتينيـــات (الأنزيمـــات) الخاصـــة، ولكن إنتـــاج هـــذه الأنزيمـــات يتم حســـب المعلومات الموجودة في DNA فقط لارتباطهمـا الوثيـق ببعضـهما، فلا بد من وجودهما معاً في الوقت نفسه لكي تتم الازدواجية، فهـو يؤدي إلى الوقـوع في مـأزق الفكـرة الـتي تقـول: (إن الحيـاة قـد وجدت من ذاتها)

بالإضافة إلى هذا كله، فإن البروتينات والحموض النووية DNA و RNA التي تمتلك مكونات غاية في التعقيد يتم تكوينهما في الوقت نفسه والمكان نفسه، واحتمال تكوينهما مصادفة مرفوضة تماماً، فلا يمكن إنتاج أحدهما دون أن يكون الآخر موجوداً، وكذلك يكون الإنسان مضطراً إلى الوصول الى نتيجة وهي استحالة ظهور الحياة بطرق كيميائية.

التفت الجواد إلى صاحبنا الداروينى، وقال: إذا كان ظهور الحياة بطريق المصادفة مستحيلاً، فيجب أن نعترف بخلق الحياة بشكل خارق للطبيعة.

ثم ابتسم، وقال: ولكن هذه الحقيقة – للأسف(1) - تبطل نظرية التطور التي بنت كل مقوماتها التنظيرية على أساس إنكار الخلق.

ظهر البشر على أصحابي جميعا، لكن صاحبنا الداروينى قال: لا بأس.. فحدثنا عن **العامل الثاني**.

قال الجواد: العامل الثاني الذي نسف هذه النظرية هو عدم وجود أي دليل علمي يدعم فكرة وجود (آليات خاصة للتطور) كوسيلة للتكيف بين الأحياء.

قلنا: كيف ذلك؟

قال الجواد: بعد بحث طويل في الأسفار التي ألفها زعماء هذه النظرية وذيولها لم أر واحدا منهم استطاع أن يثبت في أي مكان في دنيا العلم دعاواهم الكثيرة..

قلنا: كلامك هذا يحتاج إلى توضيح.. فكيف تكون كل تلك الأسفار مبنية على الوهم؟

التفت الجواد إلى صاحبنا الداروينى، وقال: ألم يدع داروين أنّ التطور حدث نتيجة (الانتخاب الطبيعي)؟

قال هَكْسِلِي: بلى.. وقد أعطى أهمية استثنائية لهذا، حتى إنّه سمى كتابه الذي خصصه لهذا الغرض (أصل الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعي)

قال الجواد: إنّ مفهوم الانتخاب الطبيعي يستند إلى مبدأ بقاء الكائنات الحية التي تظهر قوة وملاءمة تجاه الظروف الطبيعية، فلو هُدِّد قطيع من الغزلان – مثلا - من قبل الحيوانات المفترسة فإن الغزلان الأسرع في العدو تستطيع البقاء على قيد الحياة، وهكذا يبقى القطيع متألفاً من غزلان أقوياء سريعين في العدو..

1) طبعا هذا من باب السخرية، ويجوز مثله في المناظرات.

ولكن هذه الآلية لا تكفي أن تطور الغزلان من شكل إلى آخر، كأن تحولها إلى خيول مثلاً..

لهذا السّبب لا يمكن تبني (الانتخاب الطبيعي) كوسيلة للتطور، وحتى داروين نفسه كان يعلم ذلك، وقد قال في (أصل الأنواع): (طالما لم تظهر تغيرات إيجابية فإن الانتخاب الطبيعي لا يفي بالغرض المطلوب)

التفت الجواد إلى صاحبنا الداروينى، وقال: أتدري من أوقع داروين في هذا الفخ؟

قال هَكْسِلِي: أجل.. لقد كان داروين متأثرا بمن سبقوه، وخصوصا (لامارك) عالم الأحياء الفرنسي الذي عاش ومات قبل داروين بسنوات.. وقد كان يدعي أن الأحياء تكتسب تغييرات معينة تورثها إلى الأجيال اللاحقة، وكلما تراكمت هذه التغييرات جيلاً بعد جيل أدّت إلى ظهور أنواع جديدة.. وهكذا، فقد كان يرى أنّ الزّرافات نشأت من الغزلان نتيجة محاولاتها للتغذي على أوراق الأشجار العالية عبر أحقاب طويلة.

قال الجواد: لقد أعطى داروين أمثلة مشابهة لهذا في كتابه (أصل الأنواع) فقد ادّعى أن الحيتان أصلها قادم من الدببة التي كانت تتغذى على الكائنات المائية وكانت مضطرة إلى النزول إلى الماء بين الحين والآخر.

قال هَكْسِلِي: ذلك صحيح.

قال الجواد: لكن قوانين الوراثة التي اكتشفها مندل بعد ذلك، والتطور الذي طرأ على علم الجينات في القرن العشرين أدّى إلى نهاية الأسطورة القائلة بانتقال الصفات المكتسبة من جيل إلى آخر..

قال ذلك، ثم التفت إلى هَكْسِلِي، وقال: أليس كذلك؟

سكت هَكْسِلِي، فقال الجواد: لكن الدّاروينين لم يستسلموا لما أثبتته الاكتشافات العلمية.. ولذلك قاموا بتجميع جهودهم أمام المعضلات الفكرية التي واجهوها خصوصاً في ثلاثينيات القرن العشرين.. وقد ساقوا لذلك نظرية جديدة أسموها (نظرية التكوّن الحديث) أو (الداروينية الحديثة)

وحسب هذه النظرية هناك عامل آخر له تأثير تطوري إلى جانب الانتخاب الطبيعي، وهذا العامل يتلخص في حصول طفرات وراثية أو جينية تكفي سبباً لحدوث تلك التغيرات الإيجابية المطلوبة، وهذه الطفرات تحدث إمّا بسبب التعرض للإشعاعات أو

نتيجة خطأ في الاستنساخ الوراثي للجينات.
قال هَكْسِلِي: إن هذه النظرية لا تزال تدافع عن نظرية التطور.. وهي ترى أن الأعضاء والتراكيب الجسمية الموجودة لدى الأحياء والمعقدة التركيب كالعين والأذن أو الكبد والجناح وغيرها لم تظهر أو تتشكل إلا بتأثير حدوث طفرات وراثية أو حدوث تغييرات في تركيب الجينات.
قال الجواد: ولكن هذا الادعاء يواجه مطبّاً علمياً حقيقياً؛ وهو أن الطفرات الوراثية دائماً تشكل عامل ضرر على الأحياء، ولم تكن ذات فائدة في يوم من الأيام.
وسبب ذلك بسيط وواضح جداً..
كلكم تعلمون أن جزيئة الـ DNA معقدة التركيب للغاية، وأي تغيير جزيئي عشوائي مهما كان طفيفاً لابد أن يكون له أثر سلبي..
لقد عبر عن هذه الحقيقة العلمية (ب.ج. رانكاناثان) الأمريكي المحتص في علم الجينات، فقال: (إنّ الطفرات الوراثية تتسم بالصغر والعشوائية والضرر، ولا تحدث إلا نادراً، وتكون غير ذات تأثير في أحسن الأحوال.. إنّ هذه الخصائص العامة الثلاث توضح أنّ الطفرات لا يمكن أن تلعب دوراً في إحداث التطور، خصوصاً أنّ أيّ تغيير عشوائي في الجسم المعقد لابدّ له أن يكون إمّا ضاراً أو غير مؤثر، فمثلاً أيّ تغيير عشوائي في ساعة اليد لا يؤدي إلى تطويرها، فالاحتمال الأكبر أن يؤدي إلى إلحاق الضرر بها أو أن يصبح غير مؤثّر بالمرة)
وهذا ما حصل فعلاً؛ لأنّه لم يثبت إلى اليوم وجود طفرة وراثية تؤدّي إلى تحسين البنية الجينية للكائن الحي.. بل إن الشواهد العلمية أثبتت ضرر جميع الطفرات الحاصلة.
التفت إلينا، وقال: وهكذا يتضح أنّ هذه الطفرات التي جعلت سبباً لتطور الأحياء من قبل الداروينية الحديثة تمثل وسيلة تخريبية التأثير على الأحياء، بل تتركهم معاقين في أغلب الأحيان.. وأفضل مثال للطفرة الوراثية الحاصلة لجسم الإنسان هو الإصابة بمرض السرطان.. فلا يمكن والحال هذه أن تصبح الطفرات الوراثية ذات التأثير الضار آلية معتمدة علميا لتفسير عملية التّطور.
ظهر البشر على أصحابي جميعا، لكن صاحبنا الدارويني قال: لا بأس.. فحدثنا عن **العامل الثالث**.
قال الجواد: العامل الثالث الذي نسف هذه النظرية هو أنّ سّجلات حفريات المتحجرات تبين لنا وجود مختلف الأحياء دفعة

واحدة عكس ما تدعيه نظرية التطور.
قلنا: وضح لنا هذا.
قال الجواد: إن هذه النظرية تدّعي أنّ الكائنات الحيّة مختلفة الأنواع نشأت بعضها من بعضها الآخر، فنوع معين من الكائن الحي من الممكن أن يتحول إلى نوع آخر بمرور الزمن، وبهذه الوسيلة ظهرت الأنواع المختلفة من الأحياء.
وحسب النظرية، فإنّ هذا التحول النوعي استغرق مئات الملايين من السنين.
واستناداً الى هذا الادعاء يجب وجود حلقات وسطى (انتقالية) طوال فترة حصول التحول النوعي في الأحياء.
قلنا: وعينا هذا.. فهل أثبتت الحفريات هذه الحلقات؟
قال الجواد: لا.. لقد أجريت حفريات وتنقيبات كثيرة جداً منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى الآن، ولكن لم يعثر على أي أثر لهذه (الأشكال الانتقالية)
بل قد أثبتت المتحجرات التي تم الحصول عليها نتيجة الحفريات عكس ما كان يتوقعه الداروينيون.
قلنا: ماذا أثبتت؟
قال الجواد: لقد أثبتت أن جميع الأحياء بمختلف أنواعها قد ظهرت إلى الوجود فجأة، وعلى أكمل صورة.
التفت إلى صاحبنا الداوريني، وقال: لقد اعترف بهذه الحقيقة أحد غلاة الداروينيّة وهو (ديريك وايكر) الاختصاصي البريطاني في علم المتحجرات قائلاً: (إنّ مشكلتنا الحقيقية هي حصولنا على كائنات حية كاملة، سواء أكانت على مستوى الأنواع أم الأصناف عند تفحصنا للمتحجرات المكتشفة، وهذه الحالة واجهتنا دوماً دون العثور على أيّ أثر لتلك المخلوقات المتطورة تدريجياً)، أي أن المتحجرات تثبت لنا ظهور الأحياء كافة فجأة دون أي وجود للأشكال الانتقالية نظرياً، وهذا طبعاً عكس ما ذهب إليه داروين، وهذا تعبير عن كون هذه الكائنات الحية مخلوقة؛ لأن التفسير الوحيد لظهور كائن حي فجأة دون أن يكون له جد معين هو أن يكون مخلوقاً.
وهذه الحقيقة قبلها عالم أحياء مشهور مثل (دوغلاس فوتويما)، قال معبرا عنها:(إنّ الخلق والتطور مفهومان أو تفسيران سائدان في دنيا العلم لتفسير وجود الأحياء، فالأحياء إمّا وجدت فجأة على وجه البسيطة على أكمل صورة أو لم تكن

كذلك، أي أنها ظهرت نتيجة تطورها عن أنواع أو أجداد سبقتها في الوجـود، وإن كـانت قـد ظهـرت فجـأة وبصـورة كاملـة الشـكل والتكوين فلابد من قوة لاحـد لهـا وعقـل محيـط بكـل شـيء توليـا إيجاد مثل هذه الكائنات الحية)

التفت إلينا الجـواد، وقـال: هـا هي المتحجـرات تنطـق بلسـان حالها لتخبرنا عن ربها الذي خلقها.. فهلا تؤمنون.

فاضت الدموع من عيني صاحبنا الداروينيـ، ثم جثا على قدميـه أمام الجواد، وقال: بورك فيك.. لقد أنقـذني اللـه بسـببك من تلـك الأوهـام الـتي كـانت تملأ عقلي بالوسـاوس والخرافـات والـدجل.. فأذن لي أن أصحبك كما صاحبك هؤلاء العلماء.

***

قلنا: ما دام صاحبكم هذا داروينيا، فكيف ظهر له أن يجلس مع الجواد؟

قال بينيديتو كروتشي: لقد كان له صديق منـا.. وقـد حدثـه عن الجواد.. فجاء وليس في نيته إلا أن يخرب ما يريد أن يبنيه الجـواد، لكن الله شاء له برحمته وكرمه أن يكون الجواد سـببا في بنـاء مـا تخرب منه.

2 ـ الخلاق

قلنا: عرفنا الاسم الأول.. فحدثنا عن الاسم الثاني.

قال: الاسم الثاني هو الخلاق..

قلنا: ما الفرق بينه وبين اسم الخالق؟

قال: الخـالق يـدل على أصـل الخلـق، أمـا الخلاق، فيـدل على المبالغة في الخلق، وهي تتحقق بالتنوع والدوام.

التنوع:

قلنا: فحدثنا عن التنوع.

قال: لقد سار بنا الجواد في الحقول، وأرانـا من أنـواع الفواكـه والخضر ما جعلنـا نشـعر بـأن كـل نـوع منهـا حـرف من الحـروف يتشكل منه اسم الخلاق العظيم..

أنتم تعلمون أن الخضر والفواكـه تتمـيز بـالتنوع المـذهل، على الرغم من كونها تزرع في التربة نفسها، وتسقى من ماء واحد..

أرانـا الجـواد الكثـير من أنـواع الخضـر والفواكـه، ثم قـال: ألا تتعجبـون من هـذا التمـايز بين هـذه المخلوقـات مـع كونهـا تـؤدي وظيفة واحدة؟

إنّ هـذه الفواكـه والخَضْـراوات تمتص المـاء والمـواد المعدنيـة

نفسها، وتزرع في التربة نفسها، ومع ذلك فهي تحافظ على صفاتها التي وجدت بها أوّل مرة على وجه البسيطة..

إن هذه النباتات لم تكتسب هذه الصفات بمحض إرادتها، وإنّما منحت هذه الصفات من قبل الله تعالى الذي خلقها بقدرته وعلمه..

لقد أشار الله تعالى إلى هذا التنوع فيها مع كونها تسقى من ماء واحد، وتتغذى تغذية واحدة، فقال:﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4)﴾ (الرعد)

ثم قال لنا: لنفكر قليلاً فيما نتناوله من مأكولات أو في البيئة التي نعيش فيها، ولنأخذ شجرة العنب مثالاً على ذلك.. فهذه الشجرة عبارة عن ساق تبدو يابسة وخشنة، ولها جذر يبدو وكأنه يابس أيضاً، ولكنّ هذه الشجرة تدر على الإنسان كميات كبيرة من ثمر العنب الغضّ الطازج المليء بالعصارة اللذيذة والنكهة المميزة.

ومثل ذلك البطيخ الذي يزرع في تربة يابسة، ولكنّه يدرّ ثمراً مليئاً بالماء في موسم الصّيف بالذات كي يلبي احتياجات الإنسان من السوائل، وشبيهه الشمام الذي ينشر رائحة جذابة تحرك حواس التذوق لدى الإنسان، وتظل هذه الرائحة لمدّة طويلة دون تغير.

ثم قال لنا: إنّ الإنسان يعمل جاهداً لكي يصنع روائح في المعامل تستخدم في شتى المجالات، ولكنّ هذه الروائح الصناعية تحتاج إلى بحوث وإجراءات تقنية عديدة حتى تتمكن من البقاء زمناً أطول.. أما الروائح الطبيعية الموجودة في الفواكه، فلا تحتاج إلى جهود وأبحاث، وإنما تنتج بصورة طبيعية، ويبقى تأثيرها لفترة طويلة.. بالإضافة إلى أن مكوّناتها تتلاءم مع الموسم الذي تكثر فيه.

قال لنا ذلك، ثم قرأ من القرآن الكريم هذه الآية المعجزة:﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) ﴾ (النحل)

ثم قال: لا يقتصر التنوع على عالم النبات فقط.. بل إن العاقل

يرى التنوع في كل أجناس الكائنات:

فعـالم الحيـوان مثلا - كمـا يـذكر البـاحثون(1) - أشـبه بالمـدن الهائلة والشعوب المتعددة الأعـراف والأعـراق واللغـات والعـادات والأجناس التي لا حصر لها ويعجز العقل عن تصور أعدادها الهائلــة والضخمة وأنسب وصف لهـذه الكائنـات ذوات الأعـداد الهائلـة هـو مصطلح (الأمم) كما وصفها القرآن الكريم.

فعدد الطيور الجاثمة وحدها أكثر من 5000 نوع، وكل نوع من هذه الطيـور هـو أيضـا أنـواع عـدة، فمثلا طيـور الفـران الأمريكيـة الإستوائية حوالي 221 نوعا صغيرة الحجم نوعا ما، وذوات عادات متنوعة جدا.

وهنـاك 223 نوعـا من الطيـور النمليـة والـدج النملي والبيتـا النمليـة مرتبطـة ارتبـاط وثيقـا بطيـور الفـران الأمريكيـة الجنوبيـة والوسطى.

أما طيور كوتنجا المزركشة فتضـم تقريبـا 90 نوعـا تقريبـا من الطيور المزركشة والمبهرجة جدا.

أما طيور الجنة ـ وسميت بذلك لأن لديها ريشا فاتنـا جـدا حـتى اعتقدوا أنه آت من الجنة ـ فتبلغ أنواعه 42تقريبا.

أما طيور النمانم ـ وهي طيور صغيرة عاملة ـ فتضـم أكـثر من 60 نوعا، وهي طيور مدهشة جدا لما تصدره من أصوات البقبقــة المرتفعة إلى درجة لاتصدق وتنتشر بكثرة في أمريكا.

كما تبلغ أنواع صياد الذباب أكثر من 1200 نوع.

وتضم آكلات الحشرات أكثر من 370 نوعا.

وهنـاك أكـثر من 300 نـوع من الطيـور المخوضـة والنـوارس وطيور الأوك.

وتضم طيور زمّار الرمل أكثر من 60 نوعا.

وتبلغ أنواع طيور النورس أكثر من 90 نوعا.

أما أنواع الحمام واليمام فهنالك حوالي 290 نوعا منها موزعــة في أرجاء العالم، ويبلغ أنواع الببغاوات أكثر من 500 نوعا.

وتبلغ أنواع البوم أكثر من 123 نوعا.

وتبلغ أنواع طيور الضوع والسبد نحو 90 نوعا.

وتبلغ طيور الرفراف حوالي 87 نوعا تتواجد في أنحاء العالم.

كما يبلـغ طـير نقّـار الخشـب أكـثر من 200 نوعـا في جميـع

---

1) انظـر: من آيـات اللـه في الحيوانـات، الأسـتاذ محمـد محمـد معـافى علي، موقـع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

أنحاء العالم.
وفي عالم القرود تبلغ قرود العالم القديم أكثر من 60 نوعا.
وبالنظر إلى الزواحف نجدها أعدادا هائلة جدا وأنواعـا لا حصـر لها، فالحيـات العميـاء تبلـغ أنواعهـا 150 نوعـا، وهي تعيش وتحيـا تحت الأرض.
كما تشتمل مجموعة السلحفيات على السلاحف والحمسـات ـ وهي سلحفة المياه العذبة ـ وتضـم حـوالي 100نـوع، وتبلـغ أنـواع السحالي العملاقة أكثر من 700 نوع في مناطق العالم الجديد.
وتبلغ أنواع الحرباء حوالي 85 نوعا كما تبلغ السـحالي السـامة حوالي 3000 نوعا من السحالي ونوعان فقط منها يفرزان السم وهي السحالي المخرزة والهيلية.
والأفاعي أيضا أنواع شتى، منها السام، ومنها غير السـام، وهي متعددة الأشكال والألوان، فنـوع منهـا فقـط، وهي أفـاعي الكـوبرا والممبا تبلغ أكثر من 200 نوع تقريبا.
كما تشتمل الحيات الخبيثة على حوالي 100 نوع، وتقول بعض المصادر العلمية أن عـدد أنـواع الثعـابين الحاليـة أكـثر من 2700 نوع ثلثها فقط سام.
أما الخنافس فتضم أكثر من 300 ألف نوع.
وأما الثدييات عموما فتضم أكثر من 4200 نوع.
وتبلغ الخفافيش حوالي 900 نوع أو أكثر.
وتضـم فصـيلة الكنغـر والولبـات حـوالي 55 نوعـا متفاوتـا في الحجم.
كما تضم مجموعة السـنوريات حـوالي 36 نوعـا تعيش تقريبـا في كافة أنحاء العالم عـدا أسـتراليا والقطب الجنـوبي، ويبلـغ نـوع سنور الزباد والرّباح والنمس حوالي 80 نوعا.
وهكذا يعتقد العلماء بإمكانية وجود أكثر من عشرة ملايين نـوع أو جنس من الحيوانات في العالم، ومع ذلك، فقد تكون هناك أنواع أخرى أكثر بكثير بانتظار اكتشافها.

الدوام:

قلنا: حدثتنا عن التنوع.. فحدثنا عن الدوام.
قال: إن الخـالق العظيم دائم الخلق(1).. لقـد ذكـر اللـه تعـالى ذلك، فقال:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَـأْ

1)من الأخطاء التي وقعت فيها بعض الطوائـف زعمهم بـأن من مقتضـيات كـون اللـه خالقا أن يخلق في الأزل، وهو قول مناف لمشيئة الله المطلقة، فمشيئة الله لا يقال لها: افعلي أو لا تفعلي.

يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (ابراهيم:19)، وقال:﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (فاطر:16)، وقال:﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً ﴾ (النساء:133)

وعندما تعجب زكريا عليه السلام من أن يكون له ولد بعد أن كبرت سنه، وكانت امرأته عاقرا رده الله إلى مشيئته، قال تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (آل عمران:40)

وعندما تعجبت مريم ـ عليها السلام ـ ردها الله إلى المشيئة، قال تعالى:﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران:47)

أتدرون سر ذلك؟

قلنا: ما سره؟

قال: سره بسيط، فالمبدع العظيم لا يحتاج لما نحتاج إليه نحن من الجهد والعناء، فهو سبحانه بمجرد توجه مشيئته لخلق شيء يكون.. ولهذا فإن كل ما نراه من أشياء ناتج عن خضوعها لأمر الله الواحد ﴿ كُنْ ﴾، قال تعالى:﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (البقرة:117)، وقال:﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (النحل:40)، وقال:﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يّس:82)، وقال:﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (غافر:68)

3 ـ البارئ

قلنا: عرفنا الاسم الثاني.. فحدثنا عن الاسم الثالث.

قال: الاسم الثالث هو البارئ..

قلنا: فما معنى هذا الاسم؟.. ومادلالته التي تفرقه عن سائر الأسماء؟

وقد غاب عن هؤلاء أن (السيف يسمى قاطعا وهو في الغمد، ويسمى قاطعا حالة حز الرقبة، فهو في الغمد قاطع بالقوة وعند الحز قاطع بالفعل، والماء في الكوز مرو، ولكن بالقوة وفي المعدة مرو بالفعل، ومعنى كون الماء في الكوز مرويا أنه بالصفة التي بها يحصل الإرواء عند مصادفة المعدة، وهي صفة المائية، والسيف في الغمد قاطع أي هو بالصفة التي بها يحصل القطع إذا لاقى المحل، وهي الحدة إذ لا يحتاج إلى أن يستجد وصفا آخر في نفسه) (المقصد الأسنى: 36)

وكذلك، ولله المثل الأعلى، صفة الخالق لله تعالى، فهو خالق في الأزل بالمعنى الذي به يقال الماء الذي في الكوز مرو، وفي السيف أنه قاطع.

ومن الخطأ الكبير أن يقال له ـ تعالى وتقدس ـ:(ما دمت خالقا، فلا بد أن تخلق)

قال: هذا الاسم يدل على معان متعددة فسرها لنا الجواد:

منها دلالته على أن الله تعالى خال من أي نقص وعيب وتهمة ومذمة، وقد سبق لأخينا (فريدريك ماكس مولر) أن فسر لنا ذلك عند تعريفنا باسم الله (القدوس)

ومنها دلالته على أن أفعال الله خالية من كل عيب، بل كلها في منتهى الكمال.. لقد ذكر لنا الجواد عند بيانه لهذا المعنى مقولة مهمة للغزالي لا أزال أذكرها جيدا.. قال فيها: (لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها، ثم زاد مثل عدد جميعهم علماً وحكمة وعقلاً، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم، لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة، ولا أن ينقص منها جناح بعوضة، ولا أن يرفع منها ذرة ولا أن يخفض منها ذرة، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر عمن بلي به، ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض - إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر - ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية، فكله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي، وكما ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه ولا أتم ولا أكمل، ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الإلهية، بل كل فقر وضر في الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة، وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص فهو نعيم بالإضافة إلى غيره، إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار، ولولا المرض لما تنعم الأصحاء بالصحة،.. وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل، ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس، فإن الكمال والنقص يظهر بالإضافة، فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص

جميعاً)[1]

ولا أزال أذكر معها كذلك مقصورة رددها أمامنا شاب من طلبة العلم من طرابلس الشام جاء زائرا للجواد كان اسمه (رشيد رضا)، ومما قال فيها[2]:

تبارك البارئ مبدع الورى ... بالحق والحكمة عن ظهر

أحكم ربي ما براه فانبرى ... مستحصف المرير مشدود

أنشأ في الدخان كل صورة ... فسمك السماء والأرض دحا

(وكان عرشه على الماء) ... أنشأ منه كل حي وبرا

وخلق الأشياء أزواجا ومن ... ذرية الزوجين يذرو ما يشا

ثمت (أعطى كل شيء خلقه) ... بقدر استعداده (ثم هدى)

فكل شيء عنده بقدر ... لا أنف مبتدأ ولا سدى

فابعث رسول الطرف منك ... يجوب أجواز البحار والفلا

وأسر به للأفق في مراصد ... معراجها يدني إليك ما نأى

وسرح الفكر ربيئا ثانيا ... لمسرح الأرواح يسعى والنهى

حتى إذا جاسا خلال الدار ... حس إلى نفس وروح وحجا

سائلهما هل ثم من تفاوت ... أو خلل في البدء كان أو عرا

---

1) إحياء علوم الدين، بتصرف.. وقد أنكر بعض المتكلمين على الغزالي هذا المقولة، وذلك لعدم فهمهم لمراده منها، وقد ذكر ابن تيمية سر ذلك الإنكار، وبين المعنى الصحيح لها، فقال: (وما يحكي عن الغزالي أنه قال ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم ، لأنه لو كان كذلك ولم يخلقه لكان بخلا يناقض الجود أو عجزا يناقض القدرة ، وقد أنكر عليه طائفة هذا الكلام ، وتفصيله أن الممكن يراد به المقدور، ولا ريب أن الله سبحانه يقدر على غير هذا العالم وعلى إبداع غيره إلى ما لا يتناهى كثرة ، ويقدر على غير ما فعله ، كما بين ذلك في غير موضع من القرآن ، وقد يراد به أنه ما يمكن أحسن منه ولا أكمل منه فهذا ليس قدحا في القدرة ، بل قد أثبت قدرته على غير ما فعله ، لكن قال ما فعله أحسن وأكمل مما لم يفعله ، وهذا وصف له سبحانه بالكرم والجود والإحسان ، وهو سبحانه الأكرم فلا يتصور أكرم منه سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا)

وقد ألفت في الجواب على هذه المقولة أو الرد عليها رسائل كثيرة من البقاعي والسيوطي وغيرهما.. وسنعرض للمسألة بتفاصيلها في رسالة (أسرار الحياة) من هذه السلسلة.

2) ذكر هذا النظم رشيد رضا في تفسير المنار، وذكر أنه ألفه في عهد طلب العلم بطرابلس الشام.

إني وتلـك مظهـر للحـق في صفاته وما تسـمى من سـما

(فليس في الإمكـــــان) أن أبدع مما كـان) قبـل وجـرى

(ثم ارجــع) الطــرف إليهــا إليك) خاسئا حسيرا قد عشا

يتل عليـك الآي (صـنع اللـه أتقن كـل) مـا رأيت وتـرى

ثمت يتـــل (قـــد خلت من من ســنن الحكيم في هــذا

وأنهن ســـــــــــنن ثابتة مثـل نظـام الشـمس فاتـل

قــام بهن أمــر كــل عــالم في أرضـنا وفي السـماوات

مـا ثم تبـديل ولا تحويـل عن شــيء ولا قــوم فهم فيهــا

ناهيك بالإنسان في اجتماعه طـردا وعكسـا وأمامـا وورا

يجـري على حكم تنـازع البقا في أرجح الأمـــرين نشـــأ

كراسـب الإبلـيز والإبريـز إذ يذهب طافي زبـد المـاء جفا

وســنة النتــاج بــالزواج بل كـل تولـد تـراه في الـورى

ومن المعاني التي ذكرها لنـا الجـواد لهـذا الاسـم (الإيجـاد بعـد التقدير على الهيئة المخصوصة)، وقد قـرأ لنـا كثـيرا من النصـوص المقدسة الدالة على هذا المعنى..

ومن ذلك ما ورد في القرآن عند ذكر نعم الحواس، ففيه:﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ (الأنعام:46)

ومن ذلك ما ورد عند ذكر نعمـة الليـل والنهـار:﴿ قُـلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِـيَاءٍ أَفَلا تَسْـمَعُونَ(71) قُـلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَـلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَـارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ(72) ﴾ (القصص)

أو لو شاء فجعل الماء غورا:﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَـاؤُكُمْ غَـوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (الملك:30)

أو لو شاء جعل الرياح سـاكنة:﴿ إِنْ يَشَـأْ يُسْـكِنِ الـرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَـبَّارٍ شَـكُورٍ﴾ (الشـورى:

33)
وقد صادف عند ذكره لهذا حضور بعض العلماء، وكان مما قاله تعليقا على ما قرأ الجواد من الآيات: لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي عليه بمقدار بضع أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون والأكسجين ولما أمكن وجود الحياة.

ولو كان الهواء أقل ارتفاعا مما هو عليه فإن بعض الشهب التي تحترق بالملايين كل يوم في الهواء الخارجي كانت تضرب في جميع أجزاء الكرة الأرضية وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق.

ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالي لكنا تجمدنا ولو أنها زادت بمقدار النصف لكنا رمادا منذ زمن بعيد.

ولو كان قمرنا يبعد عنا 20000 ميلا بدلا من بعده الحالي ولم لا وقمر المريخ يبعد عنه 60000 ميل لكان المد يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأرضي تغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح الجبال نفسها.

ولو كان ليلنا أطول مما هو عليه الآن عشر مرات لأحرقت شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار وفي الليل يتجمد كل ما نبت على الأرض.

ولو كان الأوكسجين بنسبة 50 بالمئة أو أكثر من الهواء بدلا من 21 بالمئة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة في البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة كلها ولو كانت نسبة الأوكسجين 10 بالمئة لتعذر أن يكون التمدن الإنساني على ما هو عليه اليوم.

ولولا المطر لكانت الأرض صحراء لا تقوم حياة عليها فلولا الرياح والبحار والمحيطات لما كانت حياة ولولا أن الماء يتبخر بشكل يخالف تبخر الملح لما كانت حياة ولولا أن البخار أخف من الهواء لما كانت الحياة.

ولو كانت مياه المحيطات حلوة لتعفنت وتعذرت بعد ذلك الحياة على الأرض حيث إن الملح هو الذي يمنع حصول التعفن والفساد ولولا أن الكلور يتحد مع الصوديوم لما كان ملح وبالتالي ما كانت حياة.

ولو كانت الأرض كعطارد لا يدير إلا وجها واحدا منه نحو الشمس ولا يدول حول محوره إلا مرة واحدة في خلال الدورة الكاملة للشمس أو بتعبير آخر لو كان قسم من الأرض ليلا دائما

والآخر نهارا دائما لما عاش أحد حيث الليل قائم أو النهار دائم ولا كانت حياة.

ولو لم تكن قوانين الجاذبية موجودة فمن أين تلتقي الذرات وجزيئات الذرات ومن أين تكون الشمس شمسا والأرض أرضا ولو كانت فمن أين تبقى في مكانها الحالي ولو بقيت فكيف تكون الحياة وكيف يسير الإنسان.

وبوجود قانون الجاذبية لو كانت الأرض صغيرة كالقمر أو حتى لو كان قطرها ربع قطرها الحالي لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجوي والمائي اللذين يحيطان بها ولصارت الحرارة بالغة حد الموت.

ولو كانت الإلكترونات ملتصقة بالبروتونات داخل الذرة والذرات ملتصقة ببعضها بحيث تنعدم الفراغات لكانت الكرة الأرضية بحجم البيضة فأين يمكن أن يكون الإنسان وغيره وعندما تكون المسألة كذلك يتغير كل ما نشاهده الآن على فرض وجود جرم بحجم الأرض بدون فراغات بين جزيئات ذراته.

ولو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها لما أمكن وجود تراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوان ولا نبات إن مواقع الإلكترونات في غلاف الذرة أي في المدار الخارجي تنتظم في ترتيب معين فهي لا تزيد عن ثمانية إلكترونات إلا في المدار الأول فإنه لا يتسع لأكثر من إلكترونين فإذا بلغ عدد الإلكترونات في المدار الأخير الثمانية يفتتح مدار آخر فمثلا إذا كان للعنصر أحد عشر إلكترونا اتخذ اثنان المدار الأول والمدار الثاني يتسع لثمانية فقط فيتخذ الإلكترون المتبقي مدارا ثالثا وهكذا بحيث لا تزيد إلكترونات المدار الخارجي عن ثمانية علما بأن بعض المدارات الداخلية تتسع لأكثر من ثمانية إلكترونات واتحاد العناصر ببعضها يتماشى على أساس هذا الترتيب ذلك أن اتحاد العناصر يتم بواسطة الاتحاد بين إلكتروناتها فإذا كان عدد إلكترونات المدار الخارجي للعنصر أقل من ثمانية فإنه يستطيع أن يتحد مع عنصر آخر فالذي في مداره الخارجي سبعة يتحد مع الخارجي إلكترونان أما الذي في مداره الخارجي ثمانية فهو خامل ولا يستقبل إلكترونا واحدا.

ولولا قوانين الحرارة لما بردت الأرض ولما كانت صالحة للحياة.

ولولا الجبال لتناثرت الأرض ولما كان لها مثل هذه القشرة الصالحة للحياة.

ولولا أن في الأرض أرزاقها لما استمرت الحياة.
وهكذا..

4 ـ المصور

قلنا: عرفنا الاسم الثالث.. فحدثنا عن الاسم الرابع.
قال: الاسم الرابع هو المصور..
قلنا: فما يعني هذا الاسم؟
قال: كما أن الإبداع لا يكون إلا بإحداث ما لم يكن.. فإن من الإبداع – كذلك – لا يكمل إلا بتصوير ما أبدع علي هيئة خاصة تميزه عما سواه..
لقد ذكر لنا الجواد أن النصوص المقدسة عبرت عن هذا المعنى باسم من أسماء الله الحسنى هو (المصور).. وقد أخبرنا كذلك أنه ورد فيها الدلالة على أن الله هو مبدع جميع ما نراه من صور الكائنات وهيئاتها.
ففي القرآن يمن الله على عباده بأنه عدل صورهم في نفس الوقت الذي كان قادرا على تشويهها، قال تعالى:﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (الانفطار:7 ـ 8)
وقال عن مشيئته المرتبطة بتصوير الجنين:﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران:6)
وقال يمن على عباده بقوة أجسامهم وسلامتها:﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ (الانسان:28)، وقد ورد عن ابن عباس في تفسيرها:(لغيرنا محاسنهم إلى أسمج الصور وأقبحها)
ويذكر القرآن تنوع الكائنات في طريقة مشيها، ويستدل بذلك على طلاقة مشيئته، قال تعالى:﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (النور:45)
وينبه القرآن إلى النظر في أطوار الخلق التي يمر بها الإنسان ليعاين طلاق المشيئة الإلهية في التصوير، قال تعالى:﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (الروم:54)
ويذكر القرآن الصور المختلفة والطاقات المختلفة الموهوبة للملائكة ـ عليهم السلام ــ وينبه بذلك إلى طلاقة مشيئته، قال تعالى:﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً

أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فاطر:1)

سكت (بينيديتو كروتشي) قليلا، ثم قال: لا أزال أذكر ذلك اليوم جيدا.. لقد كان الثلج يتساقط بغزارة.. وقد كسا بلونه الأبيض الجميل جميعا ما نراه فأحاله إلى منظر ممتلئ جمالا.. قال لنا الجواد حينها: انظروا إلى المصور العظيم كيف كسا الكون بهذه الحلة الجديدة الجميلة..

أذكر جيدا أني قلت حينها: إن الأمر لا يقتصر على ظاهر ما نراه.. فكل بلورة من بلورات هذا الثلج تأخذ شكلا خاصا.. ويعتقد الباحثون أنّ متراً مكعباً من الثلج يحتوي على 350 مليون بلورة، وهذه البلورات جميعها تتّخذ شكل مضلّع سداسي، بيد أنّ هذه المضلّعات السّداسية تختلف فيما بينها من ناحية الشكل الذي تتّخذه..

إنّ هذه البلورات الثلجية التي تتجمع لتأخذ أشكالاً عديدة مثل الصّحون الصغيرة والكبيرة، أو الشكل النجمي أو حتى الشكل الدقيق جداً الذي يشبه رأس إبرة تحقق هذا الاختلاف في التشكل بوسيلة مثيرة للحيرة في العقول..

وقد جلب هذا التركيب البلوري لحبات الثلج انتباه الباحثين منذ سنوات عديدة.. فقد أجريت الأبحاث ومازالت مستمرة منذ سنة 1945 لاكتشاف العوامل التي تشكل هذه البلورات بهذه الأشكال المختلفة.. فحبّة الثلج تتألف من أكثر من مئتي بلورة ثلجية، والبلورات الثلجية هي عبارة عن مجموعة من جزيئات من الماء مرتبة ومنظمة بتناسق باهر فيما بينها.. وتوصف هذه البلورات الثلجية بأنها بناء معماري بارع جداً.

وفي يوم آخر، وأمام فراشة جميلة، قال لنا الجواد: انظروا إلى هذه اللوحة الرائعة.. إنها من تصوير المصمم البديع.. انظروا، فلن تجدوا أبداً أي خلل في ترتيب ألوانها وتنسيقها مهما كان صغيراً جداً.. انظروا إلى ألوانها المثيرة الجذابة إنها تبعث الحيرة والإعجاب في نفوسنا.

ثم قال: إنّ هذه الفراشات ليست مثيرة بألوان أجنحتها فحسب، بل لها خصائص أخرى عجيبة وغريبة ولافتة للانتباه، فأجسامها ذات تصميم خارق من كافة الوجوه.. فهي تقتات على ما تمتصه من رحيق الأزهار، وكثيراً ما تقتات على الرحيق الموجود في أعماق الأزهار بواسطة أعضاء طويلة في أجسامها تدعى

ببروبوسيس، وهو عضو شبيه باللسان يستخدم لامتصاص الرحيق في الأزهار أو لشرب الماء، وعندما لا تكون الفراشات في حاجة إلى استعمال هذا اللسان تطويه إلى الداخل، وعند إطلاق هذا اللسان بطوله يصبح طول الفراشة ثلاثة أضعاف طولها الأصلي.

وفي يوم آخر، وأمام طائر الغرنوق قال لنا الجواد: إن ريش هذا الطائر يتكون من نصل وعلى جانبه 650 ريشة ناعمة، وفي كل ريشة توجد 600 رويشة متقابلة، وفي كل رويشة يوجد 390 خطافاً تربط الرويشات بعضها ببعضها الآخر، وهي تبدو مثل سحّاب الملابس في ارتباطها بعضها ببعض.. وهذه الرويشات ترتبط بقوة ومتانة إلى درجة أنّ الدّخان المنفوث لا يستطيع النفاد من خلالها.. وإذا حدث وأن انفصلت الرويشات بعضها عن بعض، فإنّ الطّير ينقض عليها بمنقاره بسرعة ويعيدها إلى وضعها الطبيعي.

إنّ هذه الطريقة في تركيب ريش الطير مهمة جداً في عملية الطيران، فالذي يكسب الطير المقدرة على الطيران هو عدم نفاد الهواء من خلال الريش..

ومن المزايا الأخرى لريش الطيور، والتي تخطف النظر أيضاً، تلوّنه بألوان مختلفة.. ومصدر هذه الألوان هو بعض الصبغات الجلدية التي تتكون في جسم الطير في مراحل تكوّن الريش، إضافة إلى تأثر الجسم بألوان الوسط الذي يعيش فيه الطير.

إنّ ريش الطير يتألف من مادة الكاراتين، وهذه المادة معرضة للتلف تحت ظروف البيئة المختلفة، لذا فإن الريش يتم تجديده بين كل مدة وأخرى؛ إلا أنّه بعد كل مدة تجديد يكتسب الطير الألوان الزاهية في ريشه مرة أخرى لأنّ الريش يستمر في النّمو حسب نوع الطير ولون ريشه والنقوش الموجودة عليه حتى يكتمل هذا النمو.. وإن هذا التلون في الريش والتصميم المدهش في تركيبه دليلان بارزان على بديع صنع الله وجميل خلقه وسعة علمه جل جلاله.

وفي يوم آخر، وأمام مرآة صادفتنا وقف الجواد طويلا، ثم قال لنا: انظروا إلى وجوهنا على هذه المرآة.. ألا ترون التناظر الرائع بين العناصر المكونة للوجه؟

إن هذا التناظر الجميل سمة من سمات الجمال التي يمتلئ بها الكون..

إن الكائنات الحية جميعا تمتلك تركيباً متناظراً.. انظر إلى

الأحيـاء البحريـة تجـدون التنـاظر الرائـع نفسـه، فالأسـماك مثلاً والسرطانات البحرية وبراغيث البحر والقشريات البحرية وغيرهـا.. كلها تملك هذا التركيب المتناظر الجميل.

إن دعـاة نظريـة التطـور الـذين يتبنـون فكـرة المصـادفة في وجود الكائنات يعجزون عن إيجاد تفسير منطقي أمام هذا الترتيب والتناظر المنظم والتنوع المدهش للألوان، بل هم يظلون عـاجزين أمام هذه الظـواهر الخارقـة في إرجـاع سـبب وجودهـا إلى فكـرة المصادفة السّمجة.. وحتماً سيمكثون في عجزهم هذا مهمـا كـانت ادعاءاتهم التي يحاولون بها تفسير هذا التنوع المدهش في الألوان والنقوش، وهذا التناظر والترتيب الخارقين.

وهـذه الحقيقـة سيتوصـل إليهـا كـل ذي عقـل مـدرك.. حـتى تشـارلز داروين مؤسـس نظريـة التطـور اضـطر إلى الاعـتراف بالعجز التام أمام هذه الحقيقـة، فقـد قـال: (لا أعتقـد أن الانتخـاب الطبيعي كان الوسط الذي حدث داخله ظهور حوادث طبيعية مثـل الـبريق اللـوني أو حضـانة ذكـور الأسـماك للـبيض أو ظهـور إنـاث الفراشات ذات اللمعان الأخاذ)

إن أي إنسان عاقل مدرك لا يسـتطيع أن يـدعي أن المصـادفة كانت سبباً في ظهور هذه المظاهر الجميلـة الزاهيـة في الطبيعـة، مثـل الفراشـات الملونـة الجذابـة والأزهـار كالبنفسـج والـورود المختلفـة وثمـار الفراولـة وحبّـات الكـرز وطيـور الببغـاء وطيـور الطاووس وحتى النّمور. فهـذه الكائنـات قـد منحت هـذه الصـفات الجميلة من قبل الله الخالق الفاطر القادر على كل شيء.

5 ـ المغني

قلنا: عرفنا الاسم الرابع.. فحدثنا عن الاسم الخامس.

قال: الاسم الخامس هو المغني..

قلنا: ما يعني هذا الاسم؟

قال: هو يعني أن الله خالق هذا الكون ومبدعـه قـد وفـر لكـل كائن جميع ما يحتاجه، فأغناه به عن سواه.

قلنا: فحدثنا كيف تعرفتم على هذا الاسم؟

قال: كنا ذات يوم مع الجواد في مأدبة غداء.. وقد زارنـا حينهـا، ولأول مـرة عـالم من علمـاء البيئـة الحيويـة، كـان اسـمه (إلتـون)(1)قدم به أحد رفاقنا بعد أن ملأه شوقا لأحاديث الجواد.

---

1) أشير به إلى (تشارلز سذرلاند إلتون) (1900-1991م)، وهو عالم أحيـاء إنجلـيزي وُلد في مانشستر، وتخرج في جامعة أكسفورد عـام 1922م وعمـل فيهـا إلى أن تقاعـد في عام 1967م.. اشتُهر بكونه رائـد علم البيئـة، وهـو العلم الـذي يُعـنى بعلاقـة الأحيـاء

في مأدبة الغداء.. التفت الجواد إلى رفاقي، وقال: ألا تقــرؤون في هذه الوجبة التي من الله بها علينا شيئا؟

قلنا: وما تقرأ أنت؟

قال الجواد: أنا أقرأ هذه اللحظة في سطور هذه الوجبـة اسـم (المغني).. إنه اسم مكتوب في كل لقمة نأكلها، أو شربة نشربها.

قلنا: كيف ذلك؟

قـال الجـواد: بمـا أن البروفيسـور الكبـير (إلتـون) قـد شـرفنا بزيارته اليوم، فسنحاول من خلال المعارف الـتي علمـه اللـه إياهـا أن نتعلم كيف نقرأ هذا الاسم في سطور هذه النعم الـتي أفاضـها الله علينا، فقد قال تعالى:﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14)﴾ (فاطر)

قــال ذلــك، ثم التفت إلى إلتــون، وقــال: أخــبرني – ســيادة البروفيسور- عن هذا الطعام الذي نأكله.. هل هو نافلة نستطيع أن نستغني عنها.. أم أنـه شـيء أساسـي ضـروري لا يمكن الاسـتغناء عنه بحال من الأحوال؟

قـال إلتـون: لاشـك أن الطعـام ضـروري.. ولا أحسـب أن هـذا يحتاج إلى أي خبرة أو أدلة لإثباته.

قال الجـواد: الخـبرة ليسـت في إثبـات هـذا.. ولكن في إثبـات وجه الضرورة فيه.

قال إلتون: صدقت.. فهذه الأشياء يعرفها المختصون.

قال الجواد: فاذكر لنا وجه الضرورة لهذا الطعام.

قـال إلتـون: إن جسـم الإنسـان يحتـاج لنمـوه وحركتـه، ولكي يكتسب وقاية من الأمراض إلى توفير كميات مستمرة من المــواد الغذائية لتدخل إلى كل خلية في الجسد.

قال الجواد: فما هذه المواد؟

قال إلتون: هي كثيرة أهمهـا الزلاليـات (البروتينـات)، والأملاح، والمواد النشوية، والدهنية، والفيتامينات والماء.. كمـا أن كـل خليـة بحاجـة إلى إخـراج دائم لبقايـا التفـاعلات الكيماويـة وفضـلاتها وإلا أهلكتها تلك البقايا والفضلات.

قال الجواد: فهل العملية التي تتم بها توفير هذه الآليات يسيرة

ببيئتها وعلاقة بعضـها ببعض.. فقـد أدرك أن الحيوانـات والنباتـات لهـا متطلباتهـا الغذائيـة الخاصة، مما دعاه إلى تطوير مفهوم البيئة الملائمة التي تنص على أن كل نوع من أنـواع الكائنات الحية له وظيفة خاصة ومكان خاص داخل بيئته.. فأشار إلى الحاجـة إلى الكثـير من النباتات الخضراء لتأمين غذاء القليل من آكلات الأعشاب، والتي تقوم بدورها بتـأمين غذاء عدد أقل من آكلات اللحوم.. وقد أطلق إلتون على هذا الترتيب اسم الهرم الغذائي (انظر: الموسوعة العربية العالمية).. ولا يخفى سر اختياره هنا.

سهلة، أم معقدة صعبة؟

قال إلتون: بـل هي معقـدة صـعبة.. إن إمـداد الكائنـات الحيـة بهذه المواد يستدعي أمرين.. لا يمكن أن تتم التغذية من دونهما..

قال الجواد: فما هما؟

قال إلتون: أولهما المواد الضرورية الـتي يحتـاج إليهـا الجسـم، وبالكمية المناسبة.. والثاني الأجهزة التي لها القدرة على استعمال هذه المواد وتمثيلها في الجسم..

المواد:

قال الجواد: فحدثنا عن الحاجة الأولى.

قال إلتون: إن جسمنا – لكي يستطيع أن يحافظ على سـلامته وقوته- يحتاج – كمـا ذكرنـا – إلى المـواد الصـالحة لغـذاء الخلايـا.. وهي تتمثـل في الأحمـاض الأمينيـة.. والمـواد السـكرية.. والمـواد الدهنية.. والفيتامينات.. والأملاح.. والماء.

قال الجواد: فأين نجد هذه المواد الضرورية لحياتنا؟

قال إلتون: إن معظمها – ما عدا الماء- يوجد في صورة مركبة معقدة في مختلف النباتات أو لحوم الحيوانـات، الـتي تغـذت على هذه النباتات، أو ألبانها..

قال الجواد: فالمصدر الأصلي ـ الخـام ــ لمـا ذكـرت من مـواد غذائية هو هذه النباتات التي تكسو الأرض؟

قال إلتون: أجل.. فالنباتات هي المواد الخام التي يتشكل منهـا الغذاء.

قـال الجـواد: فمن أين للنبـات كميـات الغـذاء الهائلـة اللازمـة لتغذية كل كائن حي؟

قال إلتون: أولا.. هناك البذور.. أو (الأصـول النباتيـة).. ونحصـل عليهـا من نباتـات سـابقة.. والنباتـات السـابقة من بـذور وأصـول سـابقة.. وهكـذا.. حـتى نصـل إلى الأصـل الأول لهـذه النباتـات المتنوعة.

ثم هناك التربة الصالحة للزراعة بكميات هائلة تكفي لحاجة كل الكائنات الحية.

ثم هناك الماء، وهو مـوفر بكميـات تكفي حاجـة كـل الكائنـات الحية، وهو ميسر أيضا، فيمكن أخذه من الأنهار الجارية، أو العيون، أو الآبـار، أو الميـاه الجوفيـة المخزونـة قريبـاً من سـطح الأرض.. وأصل هذا الماء تلك الأمطار الـتي تـنزل من السـحب على الأرض باسـتمرار بمعـدل (16 مليـون طن في كـل ثانيـة).. وهي تسـاعد

الحياة كثيرا باعتبارها تنزل سيولاً هائلة في شكل نطف صـغيرة، لا تضر زرعاً، ولا إنساناً ولا حيواناً.

ثم هناك الهواء.. فبغـير الهـواء لا تنبت نبتـة على وجـه الأرض.. والهواء الصالح لتكـوين الغـذاء هـو (ثـاني أكسـيد الكربـون) الـذي نخرجـه من أجسـامنا ومن أجسـام كـل الحيوانـات، وبهـذا يكـون الإنسان والحيوانات مصدراً لمادة من المواد الخام اللازمة لصـناعة الطعام.

ومن دقائق الخلق والتقدير أن (ثاني أكسيد الكربـون) لـو بقي في الجـو لخنـق كـل كـائن حي، ولكن النباتـات تأخـذه باسـتمرار، وتخرج لنا (أكسجين) عوضاً عن الذي استهلكناه في أجسامنا.

ثم هنـاك ضـوء الشـمس، الـذي يأخـذه النبـات من الشـمس بواسطة المادة الخضراء الموجودة في خلايا النباتات، والذي يصـل إلى وجه الأرض بالقدر الكافي، المناسـب للحيـاة، فلـو بعـدت عنـا الشمس نصف المسـافة لتجمـد كـل نبـات وكـل حي، ولـو قـربت نصف المسافة بيننا وبينها لاحترق كل كائن حي.

ثم هنـاك مـا يسـمى (المصـانع الخضـراء) في النبـات.. وهي مصانع عجيبة تدخل إليها هذه المواد الخـام من أملاح ومـاء وهـواء وضوء شمس.. فتصنع منها جميعا سكراً يتحول إلى مختلف المواد الغذائيــة من نشــويات ودهــون وبروتينــات وفيتامينــات.. وذلــك بواسطة إنزيمات مركبة خاصة، وتفاعلات كيماوية دقيقة مرتبة.

وهذه المصانع الخضراء عبارة عن نقط خضـراء صـغيرة تسـبح في بعض خلايا النبات، وخاصة خلايا الأوراق.. وينتج النبات من هذه المصانع الخضراء كميات وفيرة هائلـة تكفي لتصـنيع المـواد الخـام السابقة إلى أغذية مناسبة صالحة كافية لغذاء كل الكائنات الحية.

ومن بديع صـنع هـذه المصـانع أنهـا تقـوم بعملهـا في عمليـات كيماوية طويلة متلاحقة، وفي سلسلة متتابعة في الخطـوات حـتى يكون الناتج هي تلك الثمار اللذيذة الشهية التي ليست إلا مخــازن، خزن فيها الغذاء وأحكم حفظه فيها.

قال الجواد: فكيف يتسنى للنبات الحصول على مـا ذكرتـه من مواد خام ليسلمها بعد ذلك إلى هذه المصانع؟

قال إلتون: إن ذلك - أيضا- يتم عبر عملية معقـدة من الصـعب أن نفصل الحديث عنها في هذا المجلس.

قال الجواد: فهلا اختصرتها لنا.

قال إلتون: أما المـاء.. فقـد عرفنـا أنـه يصـل إلى التربـة الـتي

تتشربه..

وأما الأملاح، فهي تذوب في التربة مكونة محلولاً مائياً.. وتقوم الماصات الجذرية الموجودة في البذور النباتية، بامتصاص الماء والأملاح الذائبة فيه بقوة (الضغط الأسموزي).. ثم تقوم هذه الماصات الجذرية بتوصيل الماء والأملاح الذائبة إلى أنابيب خاصة موجودة في الجذور قد أعدت لاستقبال الماء والأملاح، ورفعه إلى شتى أجزاء النبات، حيث يصل في فروع صغيرة إلى المصانع الخضراء الصغيرة.

أما الهواء، فيدخل إلى المصانع النباتية بواسطة ثغور صغيرة قد أعدت بإحكام، وتنتشر في الطبقة السطحية للأوراق، وقد خلق الخالق سبحانه خليتين حارستين أو أكثر تقوم هذه الخلايا بدور البواب الذي يفتح ويقفل بنظام، وبحسب الحاجة.

وأما الضوء، فيصل رأساً إلى المصانع الخضراء المنتشرة في أجزاء النبات فوق سطح الأرض.. وقد كان تصميم وضع النبات متناسباً مع هذا الطلب منذ أن خرج ذلك الجزء النباتي من البذرة المنبتة الذي شق الأرض وترابها إلى أعلى، لا إلى أسفل كما يفعل الجزء الثاني الذي سيكون الجذر، ويحمل معه أصول الأجزاء النباتية العليا من ساق، وأغصان، وأوراق، وأزهار، وثمار.. ولا يخطئ حامل الأوراق هذا في اتجاهه، كما لا يخطئ الجزء الذي سيكون الجذر حتى لو وضعت البذرة مقلوبة، فإن حامل المصانع الخضراء يعرف طريقه دائماً إلى أعلى، حيث يوجد ضوء الشمس.

الأجهزة

قال الجواد: لقد عرفنا كيف وفر الله الحاجة الأولى.. وهي تحضير المواد التي يحتاج إليها الجسم لتوفير غذائه.. فهل يكفي ذلك لحصول الغنى؟

قال إلتون: لا.. الموجود في النباتات مواد خام، لا تصلح رأساً لتغذية خلايا الجسم مباشرة..

قال الجواد: فقد انبعثت حاجة جديدة إذن؟

قال إلتون: أجل.. إنها الحاجة إلى أجهزة خاصة، ومواد خاصة تقوم بإعداد هذه المواد الخام، وتحويلها إلى مواد صالحة مناسبة لغذاء الخلايا.. ثم توصيلها لمحالها من الجسم إذ لا معنى لتوفير المواد المطلوبة دون توصيلها إلى المكان المطلوب.

قال الجواد: فكيف وفرت هذه الحاجات؟

قال إلتون: لقد أعدت في جسم الإنسان وجميع الحيوانات

أجهزة كاملة دقيقة لا عمل لها إلا تغطية ما تتطلبه هذه الحاجات..
قال الجواد: فهلا ذكرت لنا بعضها.
قال إلتون: **أولها (الجهاز الهضـمي)**.. والـذي يبـدأ بـالفم، وفيه يقطع الطعام (الخام) إلى قطع صغيرة بواسطة الأسنان التي تحركهـا عضـلات المضـغ، ثم يطحن لكي يسـهل هضـمه، كمـا أن هضماً جزئياً يبدأ بواسطة اللعاب الذي تفرزه غدد خاصـة موجـودة في الفم، والذي يساعد بلزوجته على انـزلاق اللقمـة في المـريء إلى المعـدة، ويقـوم اللسـان بعمليـة تقليب الطعـام في الفم ليتم خلطه باللعاب، ثم قذف اللقمة إلى البلعوم.
ثم ترمي اللقمة إلى الحنجرة حيث يفتح لها لسان المزمار باب المريء، ويسـد عليهـا بـاب القضـية الهوائيـة، وتـنزلق اللقمـة إلى المعدة بواسـطة حركـات دوديـة في المـريء كمـا يسـاعدها على الانزلاق ما يفرزه المريء من إفرازات مخاطية.
وفي المعدة تسـتمر عمليـة الهضـم، حيث يتحـول الطعـام إلى سائل يسمى (سائل الكيمـوس) الـذي تفتح لـه فتحـة البـواب في المعدة، ويتجه إلى الاثنى عشـر حيث تسـتمر عمليـة الهضـم الـتي هي تحويـل المـادة الخـام من الطعـام إلى مـادة مناسـبة صـالحة لتغذية خلايا الجسم، ثم منهـا إلى الأمعـاء الدقيقـة، حيث تسـتكمل عمليـات الهضـم النهائيـة فتصـبح المـواد الزلاليـة أحماضـاً أمينيـة، والمواد النشوية سكراً، والمواد الدهنية أحماضاً دهنية وجلسرين..
قـال الجـواد: فقـد تحـولت المـواد الخـام إلى المـواد في هـذا الجهاز.. فهل يكفي ذلك؟
قال إلتون: لا.. لا يكفي ذلك فإن الطعام بهـذه الصـورة يحتـاج إلى أعضاء أخرى تقوم بتوزيعه إلى الجسم بحسب حاجاته.
قال الجواد: فما هذه الأعضاء؟
قال إلتون: هي تجتمع في جهاز يسـمى (**الجهـاز الـدوري**).. وهو يقوم بدوريات هائلة، مستمرة في الدماء، تقوم بالدوران على كل جزء، وكل نقطة في الجسـم، فتأخـذ من كـل نقطـة ومن كـل جهاز ما هو مكلـف بإعـداده.. وتقـوم هـذه الـدوريات بإيصـاله إلى المكان الخاص الذي أعدلـه في الجسـم.. ولـذلك فهـذه الـدوريات تمر على الأمعاء الدقيقة، كمـا تمـر على المعـدة والمـريء والفم، ولكنها لا تأخذ الطعـام إلا من الأمعـاء الدقيقـة حيث تمت عمليـات الهضم.
ولهـذا الجهـاز الـدوري محطـة ضـخ مركزيـة، هي القلب الـذي

يقوم بإرسال هذه الـدماء المتدفقـة باسـتمرار.. ويمكنـك أن تضـع يدك الآن على قلبـك لتحس عملـه الجـاد في إرسـال هـذه الـدماء الدائرة إلى استقبالها مرة ثانية، وذلك في أضخم شـكة مواصـلات على الأرض.

قال الجواد: فهل يكفي ذلك؟

قـال إلتـون: لا.. الجسـم مـا زال يحتـاج إلى جهـاز آخـر اسـمه (**الجهاز اللمفاوي**)

قال الجواد: فما هو؟.. وما دوره؟

قال إلتون: الجهاز اللِّمفاوي(1) هـو شـبكة من الأوعيـة الدقيقـة التي تشبه الأوعية الدموية.. وهو يقوم بإعادة السوائل من أنسـجة الجسـم إلى مجـرى الـدم.. وهـذه العمليـة ضـرورية، لأن ضـغط السوائل في الجسم يجعـل المـاء والبروتينـات وغيرهـا من المـواد تتسـرب باسـتمرار خـارج الأوعيـة الدمويـة الدقيقـة المسـماة بالشعيرات.. ويقوم هذا السائل الراشح والمسمى السائل الخلالي بغمر وتغذية أنسجة الجسـم.. وإذا لم يجـد السـائل الخلالي الزائـد طريقـه إلى الـدم، فـإن الأنسـجة تنتفخ وتتـورم؛ ولـذا فـإن معظم السائل الزائـد يرشـح إلى داخـل الشـعيرات الدمويـة الـتي يكـون ضـغط السـائل فيهـا منخفضًـا، ويعـود البـاقي عن طريـق الجهـاز اللمفاوي، ويسمى اللِّمف..

بالإضافة إلى هذا.. فإن هذا الجهاز يعد أحد أجهزة دفاع الجسم ضد العدوى، حيث يقوم برشح الجسيمات الصغيرة والبكتيريا الـتي تدخل الجسم بوساطة كتل صغيرة من الأنسجة توجـد على طـول الأوعية اللمفاوية، وتشبه حبة الفاصوليا في الشكل، وتسمى العقد اللِّمفاوية.

قال الجواد: فهل يكفي ذلك؟

قـال إلتـون: لا.. الجسـم مـا زال يحتـاج إلى جهـاز آخـر اسـمه (**الجهاز الإخراجي**)

قال الجواد: فما هو؟.. وما دوره؟

قال إلتون: إن عملية التصنيع السابقة الـتي تتم في الجسـم أو في داخل الخلايا يتخلف عنها فضلات وبقايـا.. ومـا لم تطـرح هـذه الفضلات والبقايـا يتعـرض الإنسـان للهلاك.. فلـذلك وفـر للإنسـان جهاز يقوم بعملية إخراج لهـذه المـواد المتبقيـة الـتي لا فائـدة من

1) يعتبر بعض العلماء الجهاز اللِّمفاوي جزءًا من الجهاز الدوري، لأن اللِّمف يـأتي من الدم ، ويعود إليه.

بقائها.

وتبدأ عملية الإخراج عن طريق المعي الغليظ الذي يحمل بقايا الطعام الذي لم يذب في الإنزيمات الهاضمة ويخرجه غائطاً من فتحة الشرج، وتقوم الرئتان بإخراج ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء المتولد في عمليات التصنيع والبناء داخل الخلايا.. وأما الغدد العرقية الموجودة على الجلد فمنها يخرج (الملح والبولينا والماء) كما أن هناك كليتين وما يتصل بهما من حالب ومثانة ومجرى بول وعن طريقها ترشح (البولينا وحامض البوليك والماء) من الدماء وتخرج إلى الخارج بواسطة مجرى البول.

قال الجواد: فهل يكفي ذلك؟

قال إلتون: لا.. الجسم ما زال يحتاج إلى جهاز آخر اسمه (**الجهاز العصبي**)

قال الجواد: فما هو؟.. وما دوره؟

قال إلتون: هذا الجهاز يقوم بالإشراف على سير وتنظيم كل عملية من العمليات السابقة، وكل عملية أخرى من عمليات الجسم.

***

بقي الجواد يسأل إلتون، وإلتون يجيبه إلى أن أصبحنا نرى في تلك اللقمة من الفضل ما لا يمكن إحصاؤه ولا حصره، فالتفتنا إلى الجواد، وقلنا: لقد عرفنا صنعة البديع التي تدل على كونه قد أغنى كل شيء بكل ما يحتاجه.. فأسمعنا من كلماته التي تعرف بها إلينا.. والتي تدل على هذا المعنى.

قال الجواد: لقد انطلقت في حديثي مع أخي من توجيه رباني نص عليه قوله تعالى:﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24)﴾ (عبس)

ثم ذكرنا ربنا ببعض ما أفاض علينا من فضله في صناعة الطعام مما سمعنا بعض تفاصيله من أخينا إلتون، فقال:﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32)﴾ (عبس)

وفي آية أخرى ذكر بعض أسباب ذلك الإغناء فقال:﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام)

وفي آية أخرى ذكر ما قدر الله في الأرض من أقوات، فقال:﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ﴾ (فصلت)

وأخبرنا أنه هو الذي وفر لكل ما في الكون ما يحتاجه، فقال:﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (48)﴾ (لنجم)

وقد ذكر المفسرون أن الإغناء هو ما آتاه الله لعباده من الأجهزة، وما وفره لهم من أنواع القوت واللباس وغيرها.. والإقناء هو كل ما زاد على ذلك.

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم الكثير من الحاجات التي وفر الله لعباده، والتي لا يستقيم لهم العيش من دونها، فقال:﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (49) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50)﴾ (الفرقان)، وقال:﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (16)﴾ (النبأ)

وأخبرنا ﷺ عن بعض حديث الله تعالى لنا، فقال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها،

فمن وجـد خـيرا فليحمـد اللـه، ومن وجـد غـير ذلـك فلا يلـومن إلا نفسه)(1)

***

وهكذا ظل الجواد يحدثنا عمـا ورد في القـرآن وحـديث محمـد مما زادنا إيمانا بـأن ربنـا هـو المغـني الـذي أعطى كـل شـيء مـا يحتاجه ليكمـل وجـوده ويسـتمر.. بـل زاد على ذلـك، فأعطـاه من الكمالات ما هو غني عنه، وما لا يفتقر إليه في استمرار وجوده.

6 ـ الحافظ

قلنا: عرفنا الاسم الخامس.. فحدثنا عن الاسم السادس.

قال: الاسم السادس هو الحافظ..

قلنا: فحدثنا عنه.

قال: في يوم من أيام صحبتنا للجواد خرج بي مع أصـحابي إلى هضبة عالية كانت في ضواحي المدينـة.. وقـد تعجبنـا إذ رأينـا فيهـا مرصدا فلكيا مجهزا بكل التجهيزات الحديثة والدقيقـة، فسـألنا عن صـاحبه، فأخبرنـا أنـه صـاحبه، فزادنـا عجبنـا منـه ومن اهتماماتـه العلمية التي لم نجد نظيرا لها في أصحابنا المختصين أنفسهم.

وقـد زاد عجبنـا عنـدما قارنـا بين حياتـه البسـيطة في مسـكنه البسيط مع تلك التجهيزات ذات التكلفة العالية..

قال له بعض أصحابنا – وكـان اسـمه (جـاليليو)(2) - مازحـا: لـو أنك بدل هذا التلسكوب اشتريت قصرا لكنت أهنأ عيشا.

ابتسم الجواد، وقال: إن القصر الـذي أسـكنه حينـذاك سـيكون سجنا وقفصا يحول بيـني وبين رؤيـة عـوالم اللـه الـتي أعبـده من خلال تأملها.. وفوق ذلك سيضع على عيني حجبا تحـول بيـني وبين قـراءة رسـائل اللـه الـتي يرسـلها إلي كـل حين عـبر هـذا الكـون العظيم.. وفوق ذلك كله سيمنعني من التعرف على اللـه من خلال أسمائه الحسنى المكتوبة في سطور الكائنات.

ثم نظـر إلى جـاليليو، وقـال لـه مازحـا: هـل تـرى العصـفور المسجون في قفص الذهب راضيا عن سكناه؟

قال جاليليو: لا.. وكيف يرضى المسجون؟

---

1) رواه مسلم.

2)أشير به إلى جاليليو (1564 ـ 1642م)، وهـو عـالم فلكي وفيزيـائي إيطـالي. كـان يدعى مؤسس العلوم التجريبية المعاصـرة. اسـتخدم ولأول مـرة التلسـكوب الانكسـاري بشكل فعّال لكشف حقائق جديدة ومهمة عن علم الفلك. اكتشف أيضًـا قـانون الأجسـام المتساقطة وقانون البندول. كما طور التلسكوب الانكساري وحسّنه. (انظـر: الموسـوعة العربية العالمية)

قال الجواد: ولكنه مسجون في قفص من ذهب.
قال جاليليو: السجن سجن سواء كان ذهبا أو فضة.
قال الجواد: فقد فهمت سر اهتمامي بهذا بدل اهتمامي بالقصور.
قال جاليليو: ولكننا متحررون..
قال الجواد: اسمح لي أن أقول لك بأن أكثر من تراهم متحررين هم في الحقيقة مسجونون في سجن كبير اسمه الأرض.. لقد ذكر الله ذلك، فقال:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38)﴾ (التوبة)
وذكر المؤمنين، واهتمامهم بأكوان الله، فقال:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191)﴾ (آل عمران)
قال له جاليليو مازحا: لا بأس.. فلنسلم أنك تقرأ في هذه الأكوان رسائل الله وأسماء الله.. فهلا قرأت لنا بعض ما لا نراه من رسائل ربك التي يرسلها عبر ما نراه من هذه الكواكب.
سار بنا الجواد قليلا أما تلسكوبه الضخم، ثم أرانا كوكبا من الكواكب البعيدة، وقال(1): أترون ذلك الكوكب البعيد؟
قال له جاليليو: أجل.. إنه (**بلوتو**)، وهو كوكب بارد جداً.. فدرجة حرارته نحو (-238) درجة مئوية، وله جو لطيف يكون في حالته الغازية فقط عندما يكون أقرب إلى الشمس في مداره الشبه اهليلجي، أما في الأوقات الأخرى فيصبح جوه كتلة من الجليد.
قال الجواد: فـ (بلوتو) إذن كرة مغلفة بالجليد.. وهي لا تصلح للحياة(2).
قال جاليليو: أجل..
أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟
قال جاليليو: أجل إنه (**نبتون**)، وهو أيضاً كوكب بارد جداً ودرجة حرارته حوالي (-218) درجة مئوية، وجوه يحتوي على غاز

1) استفدنا المعلومات الواردة هنا من كتاب (خلق الكون) لهارون يحيى.
2) الحياة بالمعنى المتعارف عليه عندنا، وإلا فإن كل شيء حي كما ورد في النصوص المقدسة انظر: (أكوان الله)

الهيدروجين والهليوم والميتان.. وهو سام للحياة وتهب فيـه الريـاح بسرعة 2000 كيلومتر في الساعة عاصفةً عبر سطح الكوكب.

قال الجواد: فهو مثل أخيه إذن لا يصلح للحياة.

قال جاليليو: أجل..

أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟

قال جـاليليو: أجـل إنـه (**أورانوس**) وهـو كـوكب غـازي فيـه صخور غازية فيه صخور وجليد على سطحه ودرجة حرارته (-214) درجة مئويـة وجـوه يحتـوي على الهيـدروجين والهليـوم والمتيـان وبالتالي فهو غير ملائم لحياة الجنس البشري.

قال الجواد: فهو مثل أخويه إذن لا يصلح للحياة.

قال جاليليو: أجل..

أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟

قال جاليليو: أجل إنـه (**زحل**).. وهـو ثـاني أكـبر الكـواكب في المجموعـة الشمسـية، ويتمـيز بخاصـية في امتلاكـه جملـة من الحلقات المحيطة به، وهي مكونة من الغازات والصـخور والجليـد، وتعتبر واحدة من أجمل الأشياء حـول زحـل، وهي مكونـة كليـاً من غازين (75% هيدروجين و25% هيليوم)،

قال الجواد: فهو مثل إخوانه إذن لا يصلح للحياة.

قال جاليليو: أجل.. فمن أراد أن يهبط على زحل فالأفضل لـه أن يصمم سفينته الفضائية بشكل تشبه فيه قارب منفوخـاً واسـعاً، ولا ينبغي أن ينسى أن درجة الحـرارة الوسـطية تصـل إلى (-178)درجة مئوية.

أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟

قال جاليليو: أجل إنه (**المشتري**)، وهو أضخم كواكب النظـام الشمسي، واتسـاعه يعـادل 238 مـرة اتسـاع الأرض.. وهـو مثـل زحل.. أي أنه كوكب غازي..، وطالما أنه من الصـعب أن نمـيز بين الجو والسطح على مثل هذا الكوكب فمن الصعب أن نقول ما هي درجـة حـرارة السـطح، لكنهـا في أعـالي الجـو تصـل في الغلاف الجوي حوالي (–143 درجة مئوية)

قال الجواد: فهو مثل إخوانه إذن لا يصلح للحياة.

قال جاليليو: أجل.. وهو بالإضافة إلى برودته الشـديدة يلاحـظ في جوه ما يدعى (النقطة الحمراء العظمى)، وقـد لـوحظت قبـل ثلاثمائة سنة، ويعرفها الفلكيون الآن بأنها عبارة عن نظـام عاصـفة ضخمة هائجـة في جـو المشـتري لعـدة قـرون، وهي من الاتسـاع

بحيث تستطيع ابتلاع كوكبين بحجم الأرض.

أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟

قال جاليليو: أجل إنه (**المريخ**).. ومعظمه غاز كربون.. وسطحه في كل الأماكن يطفح بالبثور، وهي عباة عن ثقوب لفوهات بركانية، أو نتيجة لصدمات النيازك والرياح القوية العاتية التي تهب عبر السطح حاملة معها عواصف رملية والتي تدوم أياماً وأسابيع متواصلة، وتتغير درجة الحرارة كثيراً وقد تصل إلى مستويات منخفضة في حدود (–53 درجة مئوية)

قال الجواد: فهو مثل إخوانه إذن لا يصلح للحياة.

قال جاليليو: أجل.. فجو المريخ ليس مكاناً ملائماً للحياة بالرغم من أنه ساد الاعتقاد لفترة ما بأن المريخ ربما كان يحتوي على شكل من الحياة، لكن كل الأدلة بينت أنه عالم لا حياة فيه.

أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟

قال جاليليو: أجل إنه (**عطارد**)، وهو عالم صخري صغير مدمر بالحرارة والإشعاع من الشمس، ودورانه حدث له إبطاء بسبب قربه من الشمس بحيث يصنع ذلك الكوكب ثلاثة دورات كاملة محورية حول نفسه في الوقت الذي يأخذه ذاته ليدور مرتين حول الشمس.. وبتعبير آخر فإن سنتين من عطارد تساوي ثلاثة من أيامه.. وبسبب تلك الدورة اليومية المطولة يكون أحد وجهي عطارد حاراً تماماً بينما الطرف الآخر يكون بارداً تماماً، والفرق بين درجتي حرارة وجهي النهار والليل لعطارد يزيد على ألف درجة مئوية.

قال الجواد: فهو مثل إخوانه إذن لا يصلح للحياة.

قال جاليليو: أجل... فمثل تلك البيئة لا تسمح بالحياة فيها..

أرانا الجواد كوكبا آخر، وقال: هل ترون ذلك الكوكب؟

قال جاليليو: أجل إنه (**الزهرة**)، وهي مغطاة بسحب ساطعة.. ودرجة حرارتها عند السطح هي (450 درجة مئوية)، هي كافية لانصهار الرصاص.. وجوها يحتوي على طبقات غازية من حامض الكبريت، وسمكها يبلغ عدة كيلومترات.. ولذلك فإنها عندما تمطر لا تمطر ماء بل تمطر حمضاً.

قال الجواد: فلا يمكن لأي إنسان إذن أو لأي كائن حي آخر أن يعيش في جوها ولو لثانية واحدة.

قال جاليليو: أجل.. إلا إذا أراد أن ينتحر.

قال الجواد: فلننزل بعد هذه الجولة إلى هذه الأرض التي

فرشها الله لنا.. ألا ترون أنها تختلف كثيراً عن الكواكب الأخرى..
قال جاليليو: أجل.. فكل ما فيها ينبض حياةً.. جوها.. وتضاريسها.. وسطحها..ودرجات حرارتها الملائمة.. وحقلها المغناطيسي.. ومصادر عناصرها.. وهي بالإضافة إلى ذلك موضوعة على بعد مناسب من الشمس.
قلنا لصاحبنا: ذكرت الجملة.. فهات التفصيل.
قال جاليليو: إن درجة الحرارة، والجو هي أول العوامل الأساسية للحياة على الأرض.. خاصة لمثل تلك الكائنات الحية المعقدة كالجنس البشري.
وقد أتى هذان العاملان المختلفان كلياً إلى الوجود نتيجة انقلاب الشروط لتصبح مثالية لهما..
وأحد تلك العوامل هي المسافة بين الأرض والشمس، فالأرض لا يمكن أن تكون مقراً للحياة إذا كانت أقرب إلى الشمس مثل الزهرة، أو كانت بعيدة مثل بعد المشتري.. والجزيئات ذات الأساس الكربوني يمكن أن تبقى حية بين حدين هما (-20) و(120)، والأرض هي الكوكب الوحيد الذي له درجة حرارة وسطية بين هذين الحدين.
وعندما يفكر شخص في الكون ككل مستعرضاً ضيق مجال درجات الحرارة فتلك مهمة صعبة جداً لأن الحرارة في الكون تتراوح بين بلايين الدرجات في أسخن النجوم إلى درجة الصفر المطلق أي لـ (-273س)
وفي مثل ذلك المجال الواسع لدرجات الحرارة يكون الفاصل الحراري الذي يسمح للحياة بأن توجد هو ضئيل جداً بالفعل، لكن كوكب الأرض له هذا الفاصل.
لقد أثار الجيولوجي الأمريكي (فرانك بريس) ومثله (ريموند سيفر) الانتباه لمتوسط درجات الحرارة السائدة على الأرض.. وقد لاحظا - كما نعلم - أن الحياة ممكنة ضمن فاصل حراري ضيق، وذلك الفاصل هو من واحد إلى اثنين بالمئة من المجال بين درجة حرارة الصفر المطلق ودرجة حرارة سطح الشمس..
والاحتفاظ بهذا المجال الحراري مرتبط بكمية الحرارة التي تشعها الشمس، وكذلك بالمسافة بين الأرض والشمس.
ووفق الحسابات فإن نقصان 10% من طاقة الإشعاع الشمسي سيؤدي إلى تغطية سطح الأرض بطبقات من الجليد سمكها عدة أمتار، وإذا زادت تلك النسبة عن ذلك بقليل، فكل

الكائنات الحية سوف تتجمد وتموت.

قال الجواد: فدرجة حرارة الأرض هي وحدها الـتي جعلت منهـا كوكبا حيا.

قال جاليليو: لا.. لا يكفي أن تكون درجات الحـرارة المتوسـطة مثالية، بل يجب أن تكون الحرارة المتوفرة أيضاً موزعة بالتسـاوي تقريباً على سطح الكوكب..

قال الجواد: فما الذي أمن هذا التوزيع المتساوي؟

قال جاليليو: من ذلك أن محور دوران الأرض يميل بزاوية 23و 27 على مستوى دائرة البروج، وهذا الميل يمنع الإفراط الحـراري للجو في المنـاطق بين القطـبين وخـط الاسـتواء وهـو يسـبب لهـا اعتـدلاً حراريـاً أكـثر.. وإذا لم يكن ذلـك الميـل موجـوداً فالتـدرج الحراري بين القطبين وخط الاستواء سيكون أكثر ارتفاعاً ممـا هـو عليه، والمناطق المعتدلة سـوف لن تكـون معتدلـة بعـد أو ملائمـة للعيش فيها.

ومن ذلـك سـرعة دوران الأرض حـول محورهـا.. فهي تسـاعد أيضاً في حفظ التـوازن الحـراري في حالـة تـوازن، وتقـوم الأرض بدورة واحد كل 24 سـاعة، والنتيجـة هي فـترات متناوبـة قصـيرة تقريباً من الليل والنهار، وبسبب قصـرهما يكـون التـدرج الحـراري بين الطرفين المضيء والمظلم للكوكب معتدلاً تماماً، وأهمية ذلك يمكن رؤيتها في المثال المتطرف لعطـارد، حيث أن يومـه أطـول من سنته فيكون الفرق بين درجات حرارة النهار والليل فيه حوالي ألف درجة مئوية.

ومن ذلــك أن جغرافيــة الأرض تســاعد - أيضــاً - في توزيــع الحـرارة وتسـاويها على سـطح الأرض، بحيث يكـون الفـرق بين درجتي حرارة المنـاطق القطبيـة والاسـتوائية للأرض حـوالي مئـة درجة مئوية فقط، وإذا كان مثل ذلك التدرج الحراري موجوداً على مساحات مستوية كليـاً لا تضـاريس فيهـا فسـتكون النتيجـة رياحـاً سرعتها عالية جداً ربمـا بلغت ألـف كيلومـتر في السـاعة وجارفـة معها كل شيء في مسارها، ولكن بدلاً عن ذلـك فـالأرض مملـوءة بـالعوائق الجيولوجيـه الـتي توقـف الحركـات الهائلـة للهـواء الـتي يسـببها التـدرج الحـراري.. وتلـك العوائـق هي السلاسـل الجبليـة والممتدة من المحيط الهادي في الشـرق إلى المحيـط الأطلسـي في الغرب.. وفي البحر تنتقـل الزيـادة في الحـرارة في المنـاطق الاستوائية شمالاً وجنوباً، والفضل في ذلك لقابلية الماء المثلى في

نقل الحرارة وتبديدها.

قال الجواد: فهل لكتلة الأرض وحجمها دور في جعلها متناسبة مع الحياة؟

قال جاليليو: أجل.. فحجم الأرض ليس أقل أهمية للحياة من بعدها عن الشمس وسرعة دورانها وتضاريسها الجغرافية.. فبالنظر إلى الكواكب الأخرى نرى أن هناك تفاوتاً كبيراً في أحجامها، فعطارد حجمه صغير وأصغر بعشر مرات من حجم الأرض بينما المشتري أكبر منها بحوالي 318 مرة.

لقد علق الجولوجيان الأمريكيان (فرانك بريس) و(ريموند سيفر) على مدى ملاءمة الأرض من هذه الناحية، فقالا: (إن حجم الأرض هو تماماً ما ينبغي أن يكون عليه، فهي ليست صغيرة جدا فتخسر جوها لكون جاذبيتها الثقالية عندئذ صغيرة فلا تستطيع منع هروب الغازات منها إلى الفضاء، وهي ليست كبيرة بالقدر الذي يجعل جاذبيتها الثقالية تزداد كثيراً فتحتفظ بجو غزي أكبر بما فيها غازات ضارة)

قال الجواد: فهل لأعماق الأرض التي لا نراها دور في جعلها متناسبة مع الحياة؟

قال جاليليو: أجل.. فأعماق الأرض مصممة بطريقة تخصصية مضبوطة، وذلك من ناحية لبها وحقلها المغناطيسي القوي والذي له دور حيوي هام في حفظ الحياة، ووفق ما كتبه العالمان (بريس وسيفر) فإن (أعماق الأرض هي محرك عملاق متوازن حرارياً بلطف.. وقوده النشاط الإشعاعي.. وعندما تباطأت حركتها صار نشاطها الجيولوجي يتقدم بخطوات بطيئة موزونة.. ولنفرض أنه ربما لم ينصهر الحديد وبغوص ليشكل لباً سائلاً، والحقل المغناطيسي ربما لم يتطور إطلاقاً.. فإذا كان هناك زيادة من الوقود (أي النشاط الإشعاعي) وكان المحرك يدور أسرع فإن غازات البراكين والغبار بما حجبت الشمس وعندئذ سيكون الجو كثيفاً، والسطح سيكون مدمراً بالزلازل اليومية والإنفجارات البركانية)

قال الجواد: فللحقل المغناطيسي دور في جعل الأرض متناسبة مع الحياة؟

قال جاليليو: أجل.. فالحقل المغناطيسي الذي تحدث عنه الجيولوجيون له أهمية كبيرة في الحياة، وينشأ في جوف الأرض، وهو يحتوي على عناصر ثقيلة مثل الحديد والنيكل، وهما معدنان

قادران على حمل شحنات مغناطيسية، والجـوف الـداخلي صـلب، أما اللب الخارجي الذي يعلوه فهو سائل، وتتحرك هاتان الطبقتـان من اللب حول بعضهما البعض، وتلك الحركة هو التي تولـد الحقـل المغناطيسي الأرضي، ويمتد هذا الحقل بعيداً خلف السـطح، وهـذا الحقل يحمي الأرض من تأثيرات الإشعاع الضار الوارد من الفضـاء الخارجي، أما الإشعاعات الوردة من النجوم عدا الإشعاع الشـمس فهو لا تستطيع السفر عبر ذلك الدرع، فحزام (فان آلن) الذي تمتد خطوطه المغناطيسية عشـرة آلاف ميـل من الأرض تحمي الكـرة الأرضية من هذه الطاقة المميتة.

وقد حسبت طاقة السحب البلازمية التي يأسـرها حـزام (فـان آلن) فوجد أنها تبلغ في بعض الأحيان مستويات عالية ربما وصـلت لأكـثر من مئـة بليـون مـرة من طاقـة القنبلـة الـتي ألقيت فـوق (هيروشيما)

ومـا هـو معلـوم فـإن الأشـعة الكونيـة ضـارة على جميـع المستويات، والحقل المغنـاطيس هي تقريبـاً بحـدود بليـون أمبـير، وهذا أكثر مما ولده الجنس البشري عبر التاريخ كله.

قال الجواد: فلنفرض أن ذلك الدرع لم يكن موجودا؟

قـال جـاليليو: إذا لم يكن ذلـك الـدرع الحـامي موجـوداً فمن المفـروض أن الأرض دُمـرت بالإشـعاعات الضـارة والمؤذيـة من وقت لآخر.. وبالتالي لم يكن للحياة أن تظهـر على الأرض إطلاقـاً، ولكن كما أشار (بريس وسيفر) فإن لب الأرض مصـمم تمامـاً كي يحفظ سلامه الأرض.

ابتسم الجـواد، وقـال: أليس من وفـر هـذا الـدرع الـذي يحمي الأرض هو الحافظ؟

قال جاليليو: أجل.. بل هو أعظم حافظ.

قال الجواد: أتدري من هو؟

قال جاليليو: من هو؟

قال الجواد: إنه الله.. وقد كنت تقرأ لنا حروف هـذا الاسـم من خلال أكوانه..

قال جاليليو: لم أفهم ما الذي تقصده.

قال الجواد: إن الله الذي أرانا هذه الكواكب جميعا، وعلمنـا مـا تحملـه من سـموم المـوت هـو الـذي حفـظ لنـا الحيـاة على هـذه الأرض.. ولـذلك، فإننـا عنـدما نبصـرها نقـرأ من خلالهـا اسـم اللـه (الحافظ) الذي لولاه لأكلتنا أشعة السماء، وابتلعتنا أعاصير الأرض.

لقد ذكر لنا ربنا في كلماته المقدسة أنه على كل شيء حفيظ.. فقال:﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57)﴾ (هود).. وقال:﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (21)﴾ (سبأ).. وقال:﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6)﴾ (الشورى).. وقال:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)﴾ (الحجر).. وقال:﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (82)(الأنبياء).. وقال:﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64)﴾ (يوسف)..وقال:﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (17) إِلا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (18)﴾ (الحجر)

7 ـ الفاطر

قلنا: عرفنا الاسم السادس.. فحدثنا عن الاسم السابع.

قال: الاسم السابع هو الفاطر..

قلنا: فحدثنا عنه.

قال: في يوم من أيام صحبتنا للجواد خرج بي مع أصحابي إلى حديقة للحيوان.. وهناك أرانا الجمل، وذكر لنا أن القرآن حظ على النظر إليه وإلى كيفية خلقه، ففيه:﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17)﴾ (الغاشية)

ومن خلال المعارف التي بثها إلينا عن الجمل عرفنا باسم الله الفاطر..

قلنا: وما علاقة الجمل بالفاطر؟

قال: لقد ذكر لنا الجواد أن الفاطر اسم يدل على الذي وفر لكل صنعة من الإتقان والكمال ما يحميها من الانفطار والانشقاق والنقص.. وقد ذكر القرآن الكريم هذا المعنى.. فقال يحث على النظر إلى السماء:﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4)﴾ (الملك)

وفي هذه الإشارة إلى أن من النواحي المراعاة في إبداع الله تعالى هذه الناحية المهمة، والتي تحفظ للكائن وجوده في إطار

الأجل الذي حدد له.

قلنا: ما دام الجمل آية من آيات الله الدالة على كونـه فـاطرا.. فحدثنا عنه.

قال: إن ما كشفه العلم حديثاً عن بعض الحقـائق المذهلـة في خلق الإبل يفسر لنا بعض السر في اختيار الله للإبـل لتكـون محـل نظرنا(1).

فأول مـا يلفت الأنظـار في الإبـل خصائصـها البينـات والشـكل الخارجي الذي لا يخلو تكوينه من لطـائف تأخـذ بالألبـاب، فالعينـان محاطتان بطبقتين من الأهداب الطوال تقيانهما القذى والرمال.

أما الأذنان فصغيرتان قليلتا البروز، فضلاً عن أن الشعر يكتنفهـا من كل جانب، ليقيها الرمال التي تذروها الرياح، ولهما القـدرة عن الانثناء خلفاً والالتصاق بالرأس إذا ما هبت العواصف الرملية.

أما المنخران، فيتخذان شكل شقين ضـيقين محـاطين بالشـعر وحافتهما لحمية، فيستطيع الجمل أن يغلقهمـا دون مـا قـد تحملـه الرياح إلى رئتيه من دقائق الرمال.

أما ذيله، فيحمل على جانبيه شعراً يحمي الأجـزاء الخلفيـة من حبات الرمل التي تثيرها الرياح السافيات كأنهـا وابـل من طبقـات الرصاص.

أما قوائم الجمل، فهي طويلة لترفع جسمه عن كثير ممـا يثـور تحته من غبار، كما أنها تساعده على اتساع الخطو وخفة الحركة.

وتتحصن أقدام الجمل بخف يغلفه جلد قوي غليظ يضم وسادة عريضة لينة تتسع عندما يـدوس الجمـل بهـا فـوق الأرض، ومن ثم يستطيع السير فوق أكثر الرمل نعومـة، وهـو مـا يصـعب على أيـة دابة سواه، وهذاما يجعله جديراً بلقب (سفينة الصحراء)

لهذه الخصائص وغيرها مـا زالت الإبـل في كثـير من المنـاطق القاحلة الوسيلة المثلى لارتياد الصحارى، وقد تقطع قافلة الإبل بما عليها من زاد ومتاع نحوا من خمسين أو ستين كيلومترا في اليـوم الواحـد، ولم تسـتطع السـيارات بعـد منافسـة الجمـل في ارتيـاد المناطق الصحراوية الوعرة غير المعبدة.

ومن الإبل أيضاً ما هـو أصـلح للركـوب وسـرعة الانتقـال، مثـل الرواحل المضمرة الأجسام التي تقطـع في اليـوم الواحـد مسـيرة مائة وخمسين كيلومترا.

---

1) انظر: كتاب رحيق العلم والإيمان، الدكتور أحمـد فـؤاد باشـا.. وقـد ذكرنـا هـذا مـع تفاصيل أخرى ترتبط به في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

ومما يناسب ارتفاع قوائم الجمل طول عنقه، حتى يتناول طعامه من نبات الأرض، كما أنه يستطيع قضم أوراق الأشجار المرتفعة حين يصادفها، هذا فضلاً عن أن هذا العنق الطويل يزيد الرأس ارتفاعاً عن الأقذاء، ويساعد الجمل على النهوض بالأثقال.

وحين يبرك الجمل للراحة أو يناخ ليعد للرحيل يعتمد جسمه الثقيل على وسائد من جلد قوي سميك على مفاصل أرجله، ويرتكز بمعظم ثقله على كلكله، حتى أنه لو جثم به فوق حيوان أو إنسان طحنه طحناً.

وهذه الوسائد إحدى معجزات الخالق التي أنعم بها على هذا الحيوان العجيب، حيث أنها تهيئه لأن يبرك فوق الرمل الخشنة الشديدة الحرارة التي كثيراً ما لا يجد الجمل سواها مفترشاً له، فلا يبالي بها ولا يصيبه منها أذى.

والجمل الوليد يخرج من بطن أمه مزودا بهذه الوسائد المتغلظة، فهي شيء ثابت موروث وليست من قبيل ما يظهر بأقدام الناس من الحفاء أو لبس الأحذية الضيقة.

قلنا للجواد: فقد أعد الله تعالى الإبل إعدادا من أجل مهام السفر الصعبة!؟

قال الجواد: ليس ذلك فقط.. أو بالأحرى ذلك ما يمكن أن يعرف بالنظر البسيط القاصر.

قلنا: فهل هناك نظر آخر أعمق وأطول؟

قال الجواد: أجل.. هناك أشياء تحتاج إلى نظر أعمق، أو بأجهزة تعين البصر القاصر.

قلنا: فحدثنا عن بعض ما دل عليه النظر الأعمق.

قال الجواد: منها أن الجمل يحافظ على مياهه بقدر الإمكان، لأنه في صحراء قليلة المياه، فلذلك لا تراه يتنفس من فمه، ولا يلهث أبداً مهما اشتد الحر أو استبد به العطش، وهو بذلك يتجنب تبخر الماء من هذا السبيل.

وهو لا يفرز إلا مقدار ضئيلاً من العرق عند الضرورة القصوى بفضل قدرة جسمه على التكيف مع المعيشة في ظروف الصحراء التي تتغير فيها درجة الحارة بين الليل والنهار، ويستطيع جهاز ضبط الحرارة في جسم الجمل أن يجعل مدى تفاوت الحرارة نحو سبع درجات كاملة دون ضرر، أي بين 34م و41 م، ولا يضطر الجمل إلى العرق إلا إذا تجاوزت حرارة جسمه 41م ويكون هذا في فترة قصيرة من النهار، أما في المساء فإن الجمل

يتخلص من الحـرارة الـتي اختزنهـا عن طريـق الإشـعاع إلى هـواء الليل البـارد دون أن يفقـد قطـرة مـاء، وهـذه الآليـة وحـدها تـوفر للجمل خمسة ألتار كاملة من الماء.

ولا يفوتنا أن نقارن بين هذه الخاصة التي يمتاز بها الجمل وبين نظيرتها عند جسم الإنسان الذي ثبت درجة حرارة جسمه العاديـة عند حوالي 37 م، وإذا انخفضت أو ارتفعت يكون هذا نذير مـرض ينبغي أن يتدارك بالعلاج السريع، وربما تـوفي الإنسـان إذا وصـلت حرارة جسمه إلى القيمتين اللتين تتراوح بينهما درجة حرارة جسم الجمل (34م و41 م)

و هنـاك أمـر آخـر يسـتحق الـذكر، وهـو أن الجسـم يكتسـب الحرارة من الوسـط المحيـط بـه بقـدر الفـرق بين درجـة حرارتـه ودرجة ذلك الوسط، ولو لم يكن جهاز ضبط حرارة جسـم الجمـل ذكياً ومرنا بقدرة الخالق اللطيـف لكـان الفـرق بين درجـة حـرارة الجمل ودرجة حرارة هجير الظهيرة فرقاً كبـيراً يجعـل الجمـل إلى 41م في نهار الصحراء الحارق يصبح هذا الفرق ضـئيلاً وتقـل تبعـاً لذلك كمية الحرارة التي يمتصـها الجسـم، وهـذا يعـني ان الجمـل الظمآن يكون أقدر على تحمل القيظ من الجمل الريان، فسـبحان الله العليم بخلقه.

ويضيف علماء الأحياء ووظائف الأعضاء سببا جديداً يفسر قدرة الإبـل على تحمـل الجـوع والعطش عن طريـق إنتـاج المـاء الـذي يحتاجه من الشحوم الموجودة في سـنامه بطريقـة كيماويـة يعجـز الإنسان عن مضاهاتها.

فمن المعروف أن الشـحم والمـواد الكربوهيدراتيـة لا ينتج عن احتراقها في الجسم سوى الماء وغـاز ثـاني أسـيد الكربـون الـذي يتخلص منه الجسـم في عمليـة التنفس، بالإضـافة إلى تولـد كميـة كبيرة من الطاقة اللازمة لواصلة النشاط الحيوي.

ومعظم الدهن الذي يختزنه الجمل في سنامه يلجأ إليه الجمـل حين يشح الغذاء أو ينعدم، فيحرقه شيئاً فشياً ويذوى معـه السـنام يوماً بعد يوم حتى يميل على جنبه، ثم يصبح كيساً متهدلاً خاويـاً من الجلد إذا طال الجوع والعطش بالجمل المسافر المنهك.

و من حكمة خلق الله في الإبل أن جعل احتياطي الـدهون في الإبل كبيراً للغاية يفوق أي حيوان آخـر ويكفي دليـل على ذلـك أن نقارن بين الجمـل والخـروف المشـهور بإليتـه الضـخمة المملـوءة بالشحم، فعلى حين نجد الخروف يختزن زهاء 11كجم من الـدهن

في إليته، نجد أن الجمل يختزن ما يفـوق ذلـك المقـدار بـأكثر من عشرة أضـعاف (أي نحـو 120 كجم)، وهي كميـة كبـيرة بلا شـك يستفيد منها الجمل بتمثيلها وتحويلها إلى ماء وطاقة وثـاني أكسـيد الكربون.

ولهذا يستطيع الجمل أن يقضي حوالي شهر ونصف بدون مـاء يشربه، ولكن آثار العطش الشديد تصـيبه بـالهزال وتفقـده الكثـير من وزنه، وبالرغم من هـذا فإنـه يمضـي في حياتـه صـلدا لا تخـور قواه إلى أن يجد الماء العذب أو المالح فيعب (تعزى قدرة الجمل الخارقة على تجرع محاليل الأملاح المركزة إلى استعداد خاص في كليته لإخراج تلـك الأملاح في بـول شـديد التركـيز بعـد أن تسـتعيد معظم ما فيه من ماء لترده إلى الدم)فيعب منـه عبـا حـتى يطفئ ظمأه.

و ثمة ميزة أخرى للإبل تهيئه لهذه المهام الصعبة، فإن الجمـل الظمآن يستطيع أن يطفئ ظمأه من أي نوع وجد من الماء، حـتى وإن كان ماء البحر أو ماء في مستنقع شديد الملوحـة أو المـرارة، وذلك بفضل استعداد خاص في كليتيه لإخراج تلك الأملاح في بـول شديد التركيز بعد أن تسـتعيدا معظم مـا فيـه من مـاء لـترده على الدم.

والأعجب من هذا كلـه أن الجمـل إذا وضـع في ظـروف بالغـة القسوة من هجير الصحراء اللافح فإنه سوف يسـتهلك مـاء كثـيراً في صورة عرق وبول وبخار ماء، مع هواء الزفـير حـتى يفقـد نحـو ربع وزنه دون ضـجر أو شـكوى، والعجيب في هـذا أن معظم هـذا الماء الذي فقده استمده من أنسجة جسمه، ولم يسـتنفذ من مـاء دمه إلا الجزء الأقل، وبذلك يستمر الدم سائلاً جارياً موزعاً للحرارة ومبددا لها من سطح جسمه.

قلنا: فكل هذا من الخصائص التي وفرت لهذا الحيـوان ليكـون مركبا صالحا في الصحراء القاحلة.

قـال الجـواد: هـذا بعض مـا تمكن العلم من معرفتـه.. وهنـاك الكثير مما لا يزال في طي الغيب.. وكلها برهـان على أن اللـه هـو الفاطر الذي وفر لهذا الخلق ما يحتاج إليه في تلـك البيئـة الصـعبة التي وجد فيها.. ولولاه لما تمكن الإنسـان في القـديم من اخـتراق الصحراء.

***

التفت إلينـا صـاحبنا (بينيـديتو كروتشـي)، وقـال: هـذا حـديثي

وحديث أصحابي مع ذلك الـولي الصـالح.. لقـد عشـت في رحـاب كلماتـه أيامـا جميلـة.. ولكن كلاليب الـدنيا سـرعان مـا جـذبتني، فنسيت تلك الأيام.. ونسيت معها تلك المعاني..

لقد بعتها جميعا بثمن بخس حقير..

لقد كان ثمن بيعي لها هو مجـادلات عقيمـة، ومناصـب رفيعـة، وألقاب هي كالسراب الذي يحسبه الظمـآن مـاء حـتى إذا جـاء لم يجده شيئا.

سادسا ـ الملك

في اليوم التالي.. أيقظنا في منتصف الليل رجل منا.. كان مميزا بيننا بكثرة الاهتمام بنا، وكأنه مسؤول عنا.. وكان في اهتمامه بنا يكاد ينشغل عن نفسه انشغالا كليا.

كان كل حين يسأل عن كل فقيد، أو جائع، أو مريض، أو محتاج إلى أي شيء.. فإذا ما وجده سارع إلى كل فرد منا يطلب منه أن يقدم له ما أطاق من الخدمات، يأمره في ذلك وينهاه.

وكان شديد الاهتمام بالنظام.. النظام في كل شيء.. ولذلك كان يتشدد علينا فيه.. بل يتأمر علينا بسببه.. وقد كنا من غير شعور منا نشعر بضرورة إمرته.. فلم يكن يصلح إلا لها.. ولم تكن تصلح إلا له.. ولم نكن نحتاج في ذلك المحل حاجتنا إلى من ينظم أمرنا، ليخفف عنا بعض ما كنا فيه.

وكان مع رحمته تلك ونظامه الصارم شديدا قاسيا على كل من رآه يسلك سلوكا خاطئا.. أو يخاطب غيره بعنف وبذاءة.. أو يتصرف في تلك الغابة القاسية بأي نوع غير مستقيم من التصرفات حتى أن بعضنا مرة غضب من سلوكه معه، وقال: لكأن من يراك تخاطبنا بهذا يتصور أنك قد ملكت هذه الغابة أبا عن جد.. وإلا فما حرصك عليها كل هذا الحرص؟

لم يجبه صاحبنا بشيء.. فقد كان أميل إلى الصمت منه إلى الكلام.. وإلى السلام منه إلى الصراع..

لذلك كله لم يكن يصارع أحدا.. بل كان يرسل بسماته مع أوامره.. فكنا نخضع لها.. أو قل كنا نخضع لبسمته وطلاقة وجهه أكثر من خضوعنا لأوامره الصارمة.

في ذلك اليوم.. أو في تلك الليلة أيقظنا من نومنا.. وقد ملأ البشر وجهه، وهو يقول: أبشروا.. لقد فتح علي اليوم من معرفة الله ما أحسب أننا نقترب به من ربنا الحقيقي.

فرحت الجماعة جميعا، وقالو: هيا.. بشرنا.. هل تذكرت شيئا يدلنا على ربنا؟

قال: أجل.. لقد تذكرت الآن معاني مهمة جدا لها صلة كبيرة بما نحن فيه.. لقد كانت تلك المعاني مخزونة في خزانة مغلقة داخل عقلي.. ولم يتح لها أن تعود إلي لأراها إلا الآن.. وبعد أن سمعت ما سمعت من رفاقي.

أنا الآن أراها.. وكأنها حاضرة معي.. وقد خشيت أن لا يصبح

الصباح حتى تعزب عني.. ولذلك أيقظتكم في هذا الوقت.. واعذروني على ذلك.

قالوا: كيف تقول هذا؟.. إننا نبحث عن ربنا.. ولا يصدق في البحث عن ربه من منعه النوم عنه.. فهيا عجل بحدثيك، فقد ملأتنا أشواقا.

قال: قبل أن أحدثكم عما عرفته عن ربي.. أحدثكم أولا عن نفسي.. فلذلك علاقة كبيرة بما عرفته عن ربي.. وقد قال لي بعض من التقيت به في رحلة البحث عن الله (من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه)

لقد كنت في بداية حياتي.. بل في فترة طويلة منها ملكا..

تعجبت الحاضرون، فقال: لا تتعجبوا.. هذه هي الحقيقة.. ولعلكم قد لاحظتموها في سلوكي معكم..

قال رجل منا: من أنت منهم؟.. وعلى أي بلاد كنت ملكا؟.. فأنا أعرف ملوك العالم واحدا واحدا.

قال: لقد كان يطلق علي (بيدرو الثاني)(1)..

صاح الرجل: لقد عرفتك.. لطالما كنت أشبهك في نفسي به.. لكني كنت أنفي ذلك محيلا أن تكون أنت هو ذلك الملك الذي حكم البرازيل بالرغم من أنك لم تتجاوز حينها خمسة عشر سنة.

قال: صدقت.. لقد بدا لأبي (بيدرو الأول)(2) أن يتخلى عن السلطة.. وقد سلمها لي وأنا لم أتجاوز تلك السن.

قال الرجل: ولكنك لم تلبث أن تركت الملك، أو تركك الملك.

قال: صدقت.. وإلا لما كنت الآن بينكم.. ولكن ذلك لم يحصل إلا بعد أكثر من ثلاثين سنة استطعت خلالها أن أقدم لشعبي الكثير من الخدمات.. نعم يراها البعض غير صالحة.. ولكن هذا هو

---

1) بيدرو الثاني (1825-1891م). تُوِّج ملكًا للبرازيل عام 1841م. وبالرغم من أنه كان ابن 15عامًا، إلا أنه أحكم السيطرة على مقاليد الحكم، وحاز تقديرًا واسعًا لفرط إنسانيته واعتداله.. واستطاعت البرازيل في سني حكمه أن تعاون الأرجنتين في التخلص من طاغيتها خوان مانويل دي روزاس. وفي عام 1867م قام بيدرو بفتح نهر الأمازون للتجارة الدولية.

وقامت حكومة بيدرو مابين 1871 و1888م باستصدار قوانين لتحريم تجارة الرقيق. وبذلك فقد الإمبراطور التأييد الذي كان يلقاه من كبار الملاك. وما لبث أن عزله الجيش من السلطة عام 1889م وأقام جمهورية. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

2) بيدرو الأول (1798-1834م). وهو أيضًا بيدرو الرابع للبرتغال، ابن الملك جون السادس ملك البرتغال. ولد بلشبونة. ولكنه هرب إلى البرازيل عام 1807م، مع العائلة المالكة خوفا من هجوم القوات الفرنسية. وأعلن وصيًّا على عرش البرازيل عام 1821م. وفي العام التالي أعلنت البرازيل استقلالها وصار بيدرو إمبراطورًا لها في ظل دستورها الجديد. لكنه لم يقدر على مواصلة الحكم وفق الضوابط الدستورية، فتنحى عن الحكم وسلم السلطة لابنه بيدرو الثاني. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

الحكم.. فكل من لا يعجبه شيء لا يجد أمامه إلا الحاكم لينتقده.

قلنـا: دعنـا من الحـديث عن نفسـك.. وحـدثنا عن المعـارف المرتبطة بربنا.

قال بيدرو: المعارف المرتبطة بربنا مرتبطة بما كنت أتولاه من الملـك.. وقـد فتحهـا اللـه علي في بعض تلـك السـنين الـتي كنت أتولى فيها عرش البرازيل.

في بعض تلك السنين سمعت أن رجلا حكيما دخـل بلـدنا، وقـد كان هو الآخر ملكا، وكـان - على مـا علمت - ملكـا صـالحا.. ولكن قومه بغـوا عليـه.. فلم يلبث معهم إلا قليلا حـتى دبـروا لـه مكيـدة لقتله.. لكنه فر منهم، وأوى إلى بلادي.. وقد حملـني الـذكر الطيب الـذي سـمعته عنـه إلى اسـتدعائه إلى مجلسـي، ثم جعلـه من خواصي.. وقد استفدت ما أريد أن أبثه لكم من المعارف منه.

قال رجل منا: فما كان اسمه؟.. وما كان مصيره؟

قال: أما اسمه، فهو - على حسب ما ذكر لي - (يحـيى)، وبمـا أن والده كان اسمه (يحيى بن الحسين)، فقد كان الناس يطلقـون عليه (يحـيى بن الحسـين)(1) ، ويطلقـون عليـه لقب (الهـادي إلى الحقّ المبين).. وكانوا لا ينادونه إلا به.

أما مصيره، فقد كان مؤسـفا غايـة الأسـف.. لقـد أرسـل إليـه قومـه الـذين بغـوا عليـه من دس لـه السـم، فمـات مسـموما في بلاطي وعلى مرأى عيني.. وقد حرموني بذلك كمـا حرمـوا رعيـتي من حكمته وصفاء عقله ودماثة أخلاقه.. وأضافوا فـوق ذلـك تهمـة لي لا تزال تدنس فترة حكمي.. وقـد اسـتغلها خصـومي بعـد ذلـك للإطاحة بي.

---

1) أشير به إلى الإِمام الهادي إلى الحقّ المـبين، أبي الحسـين يحـيى بن الحسـين بن القاسـم ابن إبـراهيم بن إسـماعيل بن إبـراهيم بن الحسـن بن الحسـن بن علي بن أبي طالب. ولد بالمدينة المطهرة سنة 245هـ ، وحمل إلى جده القاسـم فوضـعه في حجـره المبارك وعوّذه، وقال لابنه: بم سمّيته؟ قال: يحيى، وقد كـان للحسـين أخ يسـمى يحـيى توفي قبل ذلك، فبكى القاسم حين ذكره وقال: هو واللّه، يحيى صـاحب اليمن. ــ إلى أن قال: ـ أقام اللّه به الدين في أرض اليمن وأحيا به رسوم الفرائض والسنن، فجدد أحكـام خاتم النبيين، وآثار سيد الوصيين.

قيامه سنة 280هـ، وله مع القرامطة الخارجين عن الإِسلام نيف وسبعون وقعة كـانت له اليد فيها كلها، ومع بني الحارث نيف وسبعون وقعة ـ إلى أن قال: ــ وخطب لـه بمكـة المشرفة سبعة سنين كما ذكر ذلك في عمدة الطالب وغـيره، وقبضـه اللّـه إليـه شـهيداً بالسم وهو في ثلاث وخمسين سنة ليلة الآحد لعشـر بقين من ذي الحجّـة سـنة 298هـ، ودفن يوم الإِثنين في قبره الشريف المقابل لمحراب جامعه الذي أسّسه بصعدة.

وهو مؤسس ما عرف بالدولة الهادوية التي حكمت خلال الفترة (284 – 1006 هـ)، وهو جد سلالة الرسيين التي حكموا اليمن في فترات متقطعـة حـتى عـام 1962.(مجـد الدين المؤيدي: شرح الزلف: 62 ـ 70 بتلخيص).

دعونا من هذا.. فوقتنا لا يكفي للخوض في مثل هذه الشؤون.. ولهذا فلن أحدثكم اليوم عن الحكم الكثيرة التي استفدتها منه.. والتي ترتبط بنظام الملك وغير ذلك.. ولكني سأحدثكم عما يرتبط بموضوعنا..

في مجلس من المجالس التي اجتمعت به فيها، قلت له مازحا: مرحبا أيها الملك..

ابتسم، وقال: لو كنت ملكا لما فررت إلى بلادكم.. ولما استطاع قومي أن يغروا بي سفهاءهم.

قلت: إذا كان الأمر كذلك.. فكلنا لسنا ملوكا، بل ليس هناك ملك في الدنيا.. فكلنا معرض لما تعرضت له.. وكلنا لم يذق من صفاوة الملك ما ذاق من كدره.

شجعه هذا الحديث على أن يحدثني عن ربه، فقال: أجل.. صدقت أيها الملك المبجل.. فلو أنا طرحنا من عقولنا الحجب التي تحول بينها وبين التفكير السليم لعلمنا أن الملك الحقيقي هو الله.. أما من عداه، فهم مجرد نواب ووكلاء مستعارين لمدد محدودة، ومحال محدودة.. أما الله، فهو الملك الحقيقي(1) الذي بسط ملكه على كل شيء، وامتد ملكه لكل زمن، ولم يعزب عن ملكه شيء في الأرض ولا في السماء.

كان يقول هذا بروحانية عذبة.. ثم قرأ بعدها من القرآن هذه الآية: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26)﴾ (آل عمران)

ثم قال لي بعدها: انظر هذه التعابير الواردة في كتابنا المقدس.. إن الله يخاطبنا من خلالها ليقول لنا: إن الملك الحقيقي له.. وله وحده.. وليس من عداه سوى مبتلون ببعض المسؤوليات ليميز الخبيث منهم من الطيب، والصادق منهم من الكاذب، والإنسان منهم من الشيطان.

---

1) جاء اسم (الملك) في القرآن على وجوه متعددة، هي:
المالك: قال الله تعالى: مالك يَوْمِ الدين
الملك: قال تعالى: فتعالى الله المَلك الحق (طه: 114)، وقال: هُوَ الله الذى لاَ إله إِلاَّ هُوَ الملك القدوس (الحشر: 23)، وقال: مَلِكِ الناس
وقد ورد لفظ (الملك) في القرآن أكثر من ورود لفظ (المالك)، وقد علل ذلك بأن الملك أعلى شأناً من المالك.
مالك الملك: ، قال تعالى: قُلِ اللهم مالك الملك (آل عمران: 26)
المليك: قال تعالى: عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (القمر: 55)
لفظ الملك: قال تعالى: الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن (الفرقان: 26)، وقال تعالى: لَّهُ مُلْكُ السموات والأرض (البقرة: 107)

ثم التفت إلي، وقال: إن ربنا يعلمنا أسرار الملك الحقيقي.. فالملك الحقيقي هو الذي له السلطة المطلقة على الأكوان جميعا.. وفي جميع الأوقات.. وليس على ثلة محدودة من الناس.. في بقعة محدودة من الأرض.. في حيز محدود من الزمان.

لقد أشار القرآن إلى هذا في الآيات التالية لهذه الآية.. فقد ورد فيها:﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (27) (آل عمران)

ففي هذه الآية والتي قبلها يخبرنا ربنا بأنه يعز من يشاء، ويذل من يشاء بلا معقب على حكمه، وبلا مجير عليه، وبلا راد لقضائه، فهو صاحب الأمر كله بما أنه - سبحانه - هو الله.. وما يجوز أن يتولى هذا الاختصاص أحد من دون الله.

ويخبرنا أنه صاحب هذه الحركات الخفية المتداخلة.. حركة إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل; وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي.. الحركة التي تدل على يد الله بلا شبهة ولا جدال، متى ألقى القلب إليها انتباهه، واستمع فيها إلى صوت الفطرة الصادق العميق.

وتخبرنا الآية الكريمة أن الله هو الرزاق الذي يتولى جميع الخلائق برزقه، ويمن عليه بفضله وتدبيره.

وفي موضع آخر يخبرنا القرآن الكريم عن قصة إبراهيم عليه السلام مع ملك من ملوك الأرض أغراه ملكه، فتوهم لنفسه الألوهية، فحاجة إبراهيم عليه السلام بالقدرة التي يعجز عن مثلها.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)﴾ (البقرة)

انظر كيف حاج إبراهيم عليه السلام هذا الملك.. وهي حجة ينهار لها كل ملك من ملوك الأرض..

فليس هناك من الملوك من له القدرة على صرف الأذى عن نفسه، أو جلب ما يريد لها من نفع.. ولذلك توجهنا نصوصنا المقدسة إلى الاعتماد على الله باعتباره الملك الحقيقي..

ففي الحديث قال رسول الله ﷺ، وهو يخاطب غلاما صغيرا.. يبين له من خلاله تجليات الملك الإلهي، والتي تجعله الحصن

الوحيد الذي يلجأ إليه المحتاجون.. لقد قال له:(يا غلام إني أعلمك كلمات: إحفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده تجاهك، إذا سألت فسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستعَنْ باللَّه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت عَلَى أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه لك، وإن اجتمعوا عَلَى أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)(1)، وفي رواية:(احفظ اللَّه تجده أمامك، تعرف إلَى اللَّه في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا)

***

بعد أن حدثني عن هذه المعاني وغيرها تحركت في همة لست أدري سببها للتعرف على ربي.. ربي الذي يدل عليه كل شيء.. فقلت له: إن لحديثك متعة لا تدانيها متعة.

قال: ذلك – يا جناب الملك المكرم – لكونه حديثا عن الله.. فالله قد أودع في جميع الفطر محبته، ومحبة الحديث عنه.

قلت: فما بالنا نغفل عنه.. بل نكاد نلغيه من الوجود.

قال: هي نفوسنا التي تطالبنا أن نكون آلهة.. ولو أنا تخلصنا من حجب نفوسنا لما كان هناك شيء أحب إلينا من الحديث عنه أو الحديث إليه..

لقد قال الصالحون يذكرون ذلك، ويوازنون بينه وبين اللذات التي تعب في تحصيلها الملوك: (لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف)

قلت: فحدثني عن ربي.. حدثني عن هذا الملك العظيم الذي لم نؤت الملك إلا منه وبه.

قال: اذكر لي – يا جناب الملك المكرم – ما يحتاجه الملك من صفات وقدرات.. وسأذكر لك علاقتها باللـه.. فقد جعل الله لنا بفضله وكرمه النماذج المعرفة به من خلال هذه المملكة البسيطة التي نعيش فيها.

1 ـ الكبير المتعال

قلت: من صفات الملك أن يكون له من الكبرياء والعظمة ما يملأ العيون، وتخضع له القلوب، ولا يطمع في الوصول إليه طامع..

قال: وكل هذا لا يمكن أن يتصف ملك من الملوك إلا ملك الملوك.. وقد وفى للدلالة على ما ذكرته اسمان من أسماء الله

1) روا ه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

الحسنى، هما (الكبير)، و(المتعال).. وقد وردا مقترنين في قوله تعالى:﴿ اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الكَبِيرُ المُتَعَالِ (9)﴾ (الرعد)

الكبير:

قلت: فحدثني عن اسمه (الكبير)

قال: لقد ذكر هذا الاسم، في القرآن.. فقد ورد مقترنا بالمتعال، كما ورد مقترنا بالعلي، قال تعالى:﴿ إِنَّ الذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (10) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَل إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالحُكْمُ لِلهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ (12)﴾ (غافر)

قلت: فما معنى هذا الاسم؟

قال: لا يكون الكبير كبيرا إلا إذا اكتمل وجوده، فلم يكن به أي نقص أو قصور..

قلت: فمن هو كامل الوجود؟

قال: لا يكمل الوجود إلا بشيئين: أن يكون دائما لا انقطاع له.. وأن يكون ذاتيا لا تبعية له.

فكل وجود مقطوع بعدم سابق أو لاحق فهو ناقص.. ولذلك يقال للإنسان إذا طالت مدة وجوده إنه كبير، أي كبير السن، طويل مدة البقاء.

وهذان المعنيان للكبير لا يصدقان إلا على الله.. فالله هو الكبير الحقيقي، فهو دائم الوجود أزلا وأبدا.. ووجوده هو الوجود الذي يصدر عنه وجود كل موجود.. فإن كان الذي تم وجوده في نفسه كاملا وكبيرا، فالذي حصل منه الوجود لجميع الموجودات أولى أن يكون كاملا وكبيرا.

قلت: فما علاقة هذا الاسم بتدبير المملكة الإلهية؟

قال: المملكة الحقيقية لا يديرها إلا الكبير الحقيقي.. ذلك أن كمال العدل وكمال الرحمة لا تتمان إلا من خلال ملك لا تفنيه الأيام، ولا يستبد به الضعف، ولا يتسلل إلى طاقاته القصور.

المتعال:

قلت: صدقت في هذا.. فحدثني عن اسمه (المتعال)

قال:لقد ذكر الله تعالى هذا الاسم في القرآن كما ذكره في كتبه المقدسة السابقة عليه، ففي القرآن، قال تعالى:﴿ اللهُ الذِي

خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُـرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَـلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (40)﴾ (الروم)

قلت: فما معنى هذا الاسم؟

قال: المتعال هو الذي لا رتبة فوق رتبتـه.. بـل جميـع المـراتب منحطة عنه..

قلت: ما تعني بذلك؟

قال: إن المتعال مشتق من العلو.. والعلو هو المقابل للسفل.. وهو إما في درجات محسوسة كالدرج والمراقي وجميـع الأجسـام الموضــوعة بعضــها فــوق بعض.. وإمــا في الــرتب المعقولــة للموجودات المرتبة نوعا من الترتيب العقلي.

فكل ما له الفوقية في المكان فله العلو المكاني.. وكل مـا لـه الفوقية في الرتبة فله العلو في الرتبة.

قلت: ما تعني بهذا؟

قال: إن العلو يطلق على التدريجات العقليـة كمـا يطلـق على التدريجات الحسية..

قلت: ما تعني بهذا؟

قال: إذا قدرت شيئا سـببا لشـيء ثـان، والثـاني سـبب لثـالث، والثالث لرابع إلى درجات كثيرة.. فالواقع في الرتبة الأخـيرة – مثلا - هو الأسـفل الأدنى، والأول واقـع في الدرجـة الأولى من السـببية فهو الأعلى، ويكون الأول فوق الثاني فوقية بالمعنى لا بالمكان.

وهكذا في التفاوت الذي بين العلة والمعلول، والفاعل والقابل، والكامل والناقص..

قلت: وعيت هذا.. فما تريد به؟

قال: إن الله تعالى منزه عن أن يحده المكـان، فلـذلك لا يـراد بعلوه ما نفهمه من علو الكائنات علوا حسيا بعضها فوق بعض.. بل المراد به ما هـو أشـرف من ذلـك وأعظم، وهـو أن الموجـودات لا يمكن قسـمتها إلى درجـات متفاوتـة في العقـل إلا ويكـون الحـق سبحانه وتعـالى في الدرجـة العليـا من درجـات أقسـامها، حـتى لا يتصور أن يكون فوقه درجـة، وذلـك هـو العلي المطلـق، وكـل مـا سواه فيكـون عليـا بالإضـافة إلى مـا دونـه، ويكـون دنيـا أو سـافلا بالإضافة إلى ما فوقه.

قلت: فهلا وضحت لي هذا بمثال يقربه لي.

قــال: من الأمثلــة على ذلــك أن العقــل يقتضــي انقســام الموجودات إلى ما هو سبب وإلى ما هو مسـبب، والسـبب – كمـا

تعلم - فوق المسبب فوقية بالرتبة.. ومن هذا الباب، فـإن الفوقيـة المطلقة ليست إلا لمسبب الأسباب.

والموجودات تنقسم كذلك إلى ميت وحي.. والحي ينقسم إلى ما ليس له إلا الإدراك الحسي، وهو البهيمة، وإلى ما له مع الإدراك الحسي الإدراك العقلي.. والذي له الإدراك العقلي ينقسـم إلى مـا يعارضه في معلوماتـه الشـهوة والغضـب، وهـو الإنسـان، وإلى مـا يسلم إدراكه عن معارضة المكدرات.. والذي يسلم ينقسم إلى مـا يمكن أن يبتلى به، ولكن رزق السلامة كالملائكة، وإلى ما يستحيل ذلك في حقه وهو الله تعالى..

وهكذا ففي أي تقسيم من تقسيمات العقـول نجـد للـه تعـالى المرتبة التي ليس فوقها مرتبة.

قلت: فما علاقة هذا الاسم بتنظيم المملكة الربانية؟

قال: لا تستقيم المملكة إلا بملك قد حاز من الرتب أعلاها.. فلا ينافسه في كماله منافس، ولا يتطلع إلى جلاله متطلع.

2 ـ العزيز الحكيم

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن غيره.

قال: أليس من صفات الملك أن يكون عزيزا حكيما؟

قلت: أجل.. هاتان صفتان لا يستقيم الملك ولا يكمل إلا بهمـا.. فالملك الحقيقي لابد له من العزة بجميع معانيها، كما لا بـد لـه من الحكمة بجميع مراتبها.

قال: فقد ذكرت الكتب المقدسة أن اللـه هـو العزيـز الحكيم.. بل قرنت بينهما في مواطن كثيرة.

العزيز:

قلت: فحدثني عن (العزيز)

قال: لقد ذكر هذا الاسم في القرآن كما ورد ذكره في الكتـاب المقدس..

أما القرآن، فقد ورد فيه قوله تعالى:﴿ هُوَ اللهُ الذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ المَلِـكُ القُـدُّوسُ السَّـلامُ المُـؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيـزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23)﴾ (الحشر)

وقال:﴿ اللهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّـمَاءِ (5) هُوَ الذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ العَزِيـزُ الحَكِيمُ (6)﴾ (آل عمران)

وقال:﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلا هُـوَ وَالمَلائِكَـةُ وَأُولُـو العِلمِ قَائِمـاً بِالقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (18)﴾ (آل عمران)

وقال:﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ (96)﴾ (الأنعام)

وقال:﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلهِ العِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (10)﴾ (فاطر)

وقال:﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ (181) وَالحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ (182)﴾ الصافات)

قلت: ففسره لي.

قال: العزيز يطلق على معان كثيرة كلها كمال، سأقتصر منها على أربع.

قلت: فما أولها؟

قال(1): هو الخطير الذي يقل وجود مثله، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه.. فما لم يجتمع عليه هذه المعاني الثلاثة لم يطلق عليه اسم العزيز.. فكم من شيء يقل وجوده، ولكن إذا لم يعظم خطره، ولم يكثر نفعه لم يسم عزيزا، وكم من شئ يعظم خطره، ويكثر نفعه، ولا يوجد نظيره ولكن إذا لم يصعب الوصول إليه لم يسم عزيزا، كالشمس مثلا فإنه لا نظير لها، والأرض كذلك والنفع عظيم في كل واحد منهما، والحاجة شديدة إليهما، ولكن لا يوصفان بالعزة لأنه لا يصعب الوصول إلى مشاهدتهما.

ثم في كل واحد من المعاني الثلاثة كمال ونقصان.. فالكمال في قلة الوجود أن يرجع إلى واحد إذ لا أقل من الواحد، ويكون بحيث يستحيل وجود مثله، وليس هذا إلا الله تعالى، فإن الشمس وإن كانت واحدة في الوجود فليست واحدة في الإمكان، فيمكن وجود مثلها في الكمال والنفاسة.

وشدة الحاجة أن يحتاج إليه كل شيء حتى في وجوده وبقائه وصفاته وليس ذلك على الكمال إلا لله عز وجل.

والكمال في صعوبة المنال أن يستحيل الوصول إليه على معنى الإحاطة بكنهه، وليس ذلك على الكمال إلا لله عز وجل، فلا يعرف الله إلا الله، فهو العزيز المطلق الحق لا يوازيه غيره.

قلت: وعيت هذا.. فما المعنى الثاني؟

قال: المعنى الثاني للعزيز هو الغالب الذي لا يُغلب، ولهذا تقول العرب في أمثلتها: من عز بز، أي مَنْ انتصر أخذ ما راق له.. وعلى هذا قوله تعالى:﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (23)﴾ (ص) أي

1) المقصد الأسنى للغزالي.

غلبني في الخطاب.. فالقاهر الذي انتصر مع أنه قد يغلب ويقهر يسمى عزيزا، فكيف بالقاهر الذي لا يمكن أن يغلب.. وذلك هو الله، فهو وحده العزيز الذي لا يغلب بحال من الأحوال، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21)﴾ (يوسف)، وقال:﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32)﴾ (التوبة)

قلت: وعيت هذا.. فما المعنى الثالث؟

قال: المعنى الثالث هو القوي الشديد.. ومنه قوله تعالى:﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14)﴾ (يس)، أي قويناهم وشددناهم بثالث.. فإذا كان القادر الذي قد يضعف يسمى عند الناس عزيزا، فكيف بالقادر الذي يستحيل أن يضعف.. وليس ذلك إلا الله تعالى.

قلت: وعيت هذا.. فما المعنى الرابع؟

قال: المعنى الرابع، هو بمعنى المِعز، فنحن نقول: الأليم، ونقصد المؤلم.. ولهذا، فلا عزيز إلا من أعزه الله:

الحكيم:

قلت: فحدثني عن (الحكيم)

قال: لقد ذكر هذا الاسم في القرآن ، فقد قال تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4)﴾ (إبراهيم)

وقال:﴿ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9)﴾ (النمل)

قلت: ففسره لي.

قال: الحكيم هو ذو الحكمة..

قلت: فما الحكمة؟

قال: للحكمة معنيان: معنى علمي، ومعنى عملي..

أما المعنى العلمي، فهو معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم.. وأجل الأشياء هو الله سبحانه وتعالى، ولا يعرف كنه الله غير الله، ولذلك فهو الحكيم الحق لأنه يعلم أجل الأشياء بأجل العلوم.. إذ أجل العلوم هو العلم الأزلي الدائم الذي لا يتصور زواله المطابق للمعلوم مطابقة لا يتطرق إليها خفاء ولا شبهة، ولا يتصف بذلك إلا علم الله سبحانه وتعالى.

وأما المعنى العملي، فإنه يقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويحكمها ويتقن صنعتها حكيم، وكمال ذلك - أيضا - ليس إلا لله تعالى فهو الحكيم الحق الذي دل على حكمته كل شيء.

والله بعد ذلك كله هو صاحب الحكمة، فهو يعطيها لمن يشاء، وينزعها ممن يشاء، قال تعالى:﴿ يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ (269)﴾ (البقرة)، وقال:﴿ إِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ المُقَرَّبِينَ (45) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (46) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47) وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ (48)﴾ (آل عمران)

3 ـ المولى النصير

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن غيره.

قال: أليس من صفات الملك أن يكون مولى يفزع إليه، ونصيرا يستنجد به؟

قلت: أجل.. هاتان صفتان لا يستقيم الملك ولا يكمل إلا بهما.. فالملك الحقيقي هو من فزعت إليه رعيته، واستنجد به المستضعفون منهم.

قال: وهذان الوصفان لا ينطبقان حقيقة إلا على الله.

المولى:

قلت: فحدثني عن اسمه (المولى)

قال: لقد ذكره القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ وَإِنْ تَوَلَوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40)﴾ الأنفال)، وقال:﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلى الصَّالِحِينَ (196)﴾ (الأعراف)

قلت: فحدثني عن معناه.

قال: المولى هو الذي كلما افتقرت إليه وجدته أقرب إليك منك.. فهو يرحمك، وينصرك، ويرزقك، ويعطيك ما سألته، وما لم تسأله.

وهو أعلم بك منك، فلذلك لا يعطيك إلا ما ينفعك، ولا يهديك إلا إلى ما يرفعك.

النصير:

قلت: إن هذا لعظيم.. فحدثني عن اسمه (النصير)

قال: لقد ذكره القرآن الكريم، ففيه:﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ (250)﴾ (البقرة)

قلت: فحدثني عن معناه.
قال: من كان له أعداء فإنه يحتاج إلى النصير..
قلت: وهل هناك من لا عدو له.. حتى الإنسان مع نفسه، فإن له عدوا بين جنبيه لا طاقة له بمقاومته.
قال: ولذلك كان الله هو النصير الوحيد الذي ينصرك من كل عدو، ويحفظك من كل بلاء، ويعينك على كل هم.

4 ـ المعطي المعين

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن غيره.
قال: أليس من صفات الملك أن يعطي من احتاج، وأن يعين من ضعف وعجز؟
قلت: أجل.. لا يكمل الملك إلا بذلك.
قال: فالله هو المعطي المعين.. فلا شيء إلا من عطائه، ولا شيء إلا بإعانته.

المعطي:

قلت: فحدثني عن اسمه (المعطي)
قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، ففيه:﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً (18) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (19) كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (20)﴾ (الإسراء)
قلت: ففسره لي.
قال: المعطي سبحانه وتعالى هو الذي أعطى كل شيء خلقه، وتولى أمره ورزقه في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى عن موسى عليه السلام وهو يصف عطاء ربه: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الذِي أَعْطَى كُلَ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (طه:50)، وقال عن عطاء الآخرة:﴿ وَأَمَّا الذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاء رَبك عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (هود:108)
وعطاء الله قد يكون عاما أو خاصا، فالعطاء العام يكون للخلائق أجمعين، والعطاء الخاص يكون للأنبياء والمرسلين وصالح المؤمنين، فمن العطاء العام ما ورد في قوله تعالى:﴿ كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ (الإسراء:20)، والمراد بالعطاء هنا تمكين العبد من الفعل ومنحه القدرة والاستطاعة، كل على حسب رزقه أو قضاء الله وقدره.
ومن العطاء الخاص استجابة الدعاء وتحقيق مطلب الأنبياء

والصالحين الأولياء، ومن ذلك الدعاء والعطاء في قول سليمان ﷺ: ﴿ رَبِّ اغفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلكاً لا يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَو أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (ص:39)، وكذلك في دعاء زكريا ﷺ حيث قال: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ (مريم:5)، فحقق الله - عز وجل - مطلبه وأعطاه ما تمناه فقال: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ (مريم:7)، وقال عن عطائه للمؤمنين في الآخرة: ﴿ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً ﴾ (النبأ:36)

المعين:

قلت: إن هذا لعظيم.. فحدثني عن اسمه (النصير)

قال: لقد ذكره القرآن الكريم، ففيه: ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَل سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18) ﴾ (يوسف)

وقال: ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (112) ﴾ (الأنبياء)

قلت: ففسره لي.

قال(1): أليس كل عمل يعمله الإنسان تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول الأسباب التي اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤدية إليه، وانتفاء الموانع التي من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه؟

قلت: أجل.. ما تقوله صحيح.

قال: فإن الله تعالى مكن الإنسان بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب، وحجب عنه البعض الآخر ليبقى له من الحاجة ما يدعوه إلى التعرف إلى مولاه ليستعين به عليه.

قلت: سمعتك تردد كثيرا في صلاتك هذه العبارة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) ﴾ (الفاتحة).. فما تريد بها؟ ولم جمعت بين العبادة والاستعانة؟

قال: هذه كلمات من كلمات الله علمنا الله فيها كيف نناجيه وندعوه.. وهي تعلمنا أن نلجأ إلى الله في كل حالة حتى في عبادتنا له.. فلا يعبد الله من لم يعنه الله.

---

1) انظر: تفسير المنار.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد دل العقل والنقل على أنه لا حول عن معصية اللـه إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله.

قلت: فاذكر لي دليل العقل.

قـال(1): لقـد دل العقـل على هـذا من وجـوه: منهـا أن القـادر متمكن من الفعل والترك على السوية، فما لم يحصل المـرجح لم يحصـل الرجحـان، وذلـك المـرجح ليس من العبـد، وإلا لعـاد في الطلب، فهو من الله تعالى، فثبت أن العبـد لا يمكنـه الإقـدام على الفعل إلا بإعانة الله.

ومنها أن جميع الخلائق يطلبون الدين الحـق والاعتقـاد الصـدق مـع اسـتوائهم في القـدرة والعقـل والجـد والطلب، ففـوز البعض بدرك الحق لا يكون إلا بإعانة معين، وما ذاك المعين إلا الله تعالى، لأن ذلك المعين لو كان بشراً أو ملكاً لعاد الطلب فيه.

ومنها أن الإنسان قد يطالب بشيء مدة مديدة ولا يأتي بـه، ثم في أثناء حال أو وقت يأتي به ويقدم عليه، ولا يتفق له تلك الحالـة إلا إذا وقعت داعية جازمة في قلبه تدعوه إلى ذلك الفعـل، فإلقـاء تلك الداعية في القلب وإزالة الدواعي المعارضة لها ليست إلا من الله تعالى، ولا معنى للإعانة إلا ذلك.

قلت: فاذكر لي دليل النقل.

قال: لقد قال تعالى على لسان موسـى ﷺ مخاطبـا لقومـه: ﴿ استعينوا باللـه واصـبروا إِنَّ الارض للَّهِ يُورِثُهَـا مَن يَشَـاء مِنْ عِبَـادِهِ والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأعراف: 128)

وقد ورد في بعض الآثار الإلهية قولـه تعـالى: (وعـزتي وجلالي، لأقطعن أمل كل مؤمل غيري باليأس، ولألبسنه ثـوب المذلـة عنـد الناس، ولأخيبنه من قربي، ولأبعدنه من وصـلي، ولأجعلنـه متفكـراً حيران يؤمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي، وأنا الحي القيـوم، ويرجو غيري ويطرق بالفكر أبـواب غـيري وبيـدي مفـاتيح الأبـواب وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني)

5 ـ الرزاق الطبيب

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن غيره.

قال: أليس من صفات الملك أن يرزق رعيته ويغـنيهم عن كـل فاقة، ويزيد على ذلك، فيوفر لكل من مرض منهم مـا يحتاجـه من دواء؟

---

1) انظر: التفسير الكبير.

قلت: أجـل.. لا يكمـل الملـك إلا بـذلك.. ومـا ذكرتـه هـو من الخدمات الأساسية التي لا تستقيم المملكة من دونها.

قال: فالله هو الرزاق الطـبيب.. فلا رزق إلا منـه، ولا شـفاء إلا به.

الرزاق:

قلت: فحدثني عن اسمه (الرزاق)

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، فقد قال تعالى:﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ (60)﴾ (العنكبوت)

وقال:﴿ قُل مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّـمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِـكُ السَّـمْعَ وَالأَبْصَـارَ وَمَنْ يُخْـرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْـرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُل أَفَلا تَتَّقُونَ (31)﴾ (يونس)

قلت: ففسره لي.

قال(1): لو تأملنا الحقيقة والواقع، فإنا سنرى أنه لا رزق إلا من الله، وكل رزق من سواه فهو مجاز لا حقيقة له:

فالله تعالى إذا رزق يرزق ممـا هـو ملكـه.. أمـا الآخـرون، فهم ليسوا سوى وسائط للرزق الإلهي.. ولا يحق اسم الــرزاق إلا ممن يرزق مما هو ملكه.

والله تعالى يرزق جيمع أنواع الرزق المادية والمعنوية والدنيوية والأخروية، والظاهرية والباطنية، والعلنية والخفية، أمـا غـيره، فهـو إن إنما يعطي غيره عطاء محدودا من جميع النواحي.

والله تعالى يأخذ بعين الاعتبار حاجة العباد عنـد تقـدير أرزاقهم، ويــرزقهم بمــا يناســب أحــوالهم، لأنــه عليم بأســرار المرتــزقين الظاهرة والباطنة، أما غيره، فعلمه يحول بينه وبين ذلك.

والله تعالى هو الرزاق الذي لا تنفد خزائنه أبدا، لأن خزائن كـل الأشياء بيده، كما قال تعالى:﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَـا رَوَاسِـيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُـهُ وَمَـا نُنَزِّلُـهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21) ﴾ (الحجر)، في حين يتصف الآخرون بالمحدودية التامة من هذه الجهة، كما يتصفون بالمحدودية في غيرها.

والله تعالى هو الرازق الذي يتناول من مائدته الصديق والعـدو، فجميعهم يتزودون من نعمته بمقتضى كونه الرحمن الـرحيم.. لكن

---

1)انظر: نفحات القرآن للشيرازي، عند تفسير قوله تعـالى:.. وَأَنْتَ خَيْـرُ الـرَّازِقِينَ (114) (المائدة)

غيره لا يفكرون سوى بأصدقائهم وأقاربهم.

والله تعالى لا ينتظر لقاء عطائه وإنعامه جزاء ولا شكورا، لانه غني من كل ناحية، لكن غيره ينتظرون ألف لون من قبيل ذلك.

والله تعالى واسع الرزق شامله يبدأ منذلحظة انعقاد النطفة في عالم الرحم، ويستمر طيلة مرحلة وجود الجنين في بطن أمه، وبعد الولادة من خلال حليبها وحنانها، وحتى لحظات الموت الأخيرة.. وليس ذلك إلا لله.. ولذلك قال تعالى عند ذكر دعاء المسيح عليه السلام بنزول المائدة:﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114)﴾ (المائدة)

الطبيب:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن اسمه (الطبيب)

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، فقد قال تعالى:﴿ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (13) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (14)﴾ (التوبة)

قلت: ما يعني هذا؟

قال: الله تعالى هو الشافي الذي يرفع البأس والعلل، ويشفي العليل بالأسباب والأمل، فقد يبرأ الداء مع انعدام الدواء، وقد يشفي الداء بلزوم الدواء، ويرتب عليه أسباب الشفاء، وكلاهما باعتبار قدرة الله سواء، فهو الشافي الذي خلق أسباب الشفاء، ورتب النتائج على أسبابها، والمعلولات على عللها، فيشفي بها وبغيرها، لأن حصول الشفاء عنده يحكمه قضاؤه وقدره، فالأسباب سواء ترابط فيها المعلول بعلته، أو انفصل عنها، هي من خلق الله وتقديره، ومشيئته وتدبيره، والأخذ بها لازم علينا من قبل الحكيم سبحانه، لإظهار الحكمة في الشرائع والأحكام، وتمييز الحلال من الحرام.

6 ـ المؤمن الرقيب

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن غيره.

قال: أليس من صفات الملك أن أن يأمنه الناس على أنفسهم وأموالهم فلا يظلمون عنده.. وإذا ظلموا سرعان ما يقتص من ظالميهم.. وأنه يطلع على جميع شؤون المملكة، فيعرف جميع شؤونها وأحوالها، فيميز العادل من الظالم، والطيب من الخبيث؟

قلت: أجل.. لا يكمل الملك إلا بذلك.. وما ذكرته هو من الخدمات الأساسية التي لا تستقيم المملكة من دونها.

قال: فالله هو المؤمن الرقيب.. فلا أمان إلا منه، وهو الرقيب الذي أحاط علما بكل شيء، فلا يعزب عنه شيء دق أو جل.

المؤمن:

قلت: فحدثني عن المؤمن.

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ هُوَ اللهُ الذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23)﴾ (الحشر)

قلت: فحدثني عنه.

قال: المؤمن هو الذي يوفر لك من الأمن والأمان ما يجعلك بمأمن من كل عدو ظاهر أو خفي.. وليس ذلك إلا ربك.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال ذاكرا نعمته على قريش:﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4)﴾(قريش)، وقال ضاربا المثل بقرية من القرى الظالمة:﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (113)﴾ (النحل)

قلت: ولكنا نشعر بأنواع من المخافة؟

قال: إنما سلط الله علينا بعض المخاوف لنبحث عنه، فلا يمكن أن يؤمننا من المخاوف غيره.. لقد ذكر الله ذلك، فقال:﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)﴾ (البقرة)

قلت: فإذا لجأ إلى الله؟

قال: من لجأ إلى الله، فسيشعر بالأمن الحقيقي.. الأمن الذي لا تستطيع أي جهة في الدنيا أن توفره.. لقد ذكر الله ذلك، فقال:﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)﴾ (البقرة)، وقال:﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112)﴾ (البقرة)،

قلت: ولكن هـؤلاء الـذين ذكـرتهم يشـعرون بنفس المخـاوف التي يشعر بها غيرهم؟

قال: شتان بينهما، فـالمؤمن إذا خـاف يكـون خوفـه محـدودا.. وهو يخاف، ويعلم أن الله سينصره لا محالة.. ولذلك لا تراه يخـاف إلا الله.. لقد ذكر الله ذلـك، فقـال مخـبرا عن مقالـة السـحرة في تحديهم لفرعون:﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الـدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَـا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْـرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَـإِنَّ لَـهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُـوتُ فِيهَـا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الـدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا وَذَلِـكَ جَـزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (76)﴾ (طه)

الرقيب:

قلت: فحدثني عن الرقيب.

قال: لقد ورد ذكره في القـرآن الكـريم، قـال تعـالى:﴿ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِـدَةٍ وَخَلَـقَ مِنْهَـا زَوْجَهَـا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الذِي تَسَاءَلُونَ بِـهِ وَالأَرْحَـامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (1)﴾ (النساء)

قلت: ففسره لي.

قـال: إن اللـه العليم السـميع البصـير لا يغيب عنـه شـيء في الأرض ولا في السماء.. بل لا يغيب عنـه السـر وأخفى.. ومن كـان كذلك فهو أولى باسم الرقيب من كل رقيب:

لقد ذكر الله تعالى ذلك، ونبه عباده إليه، فقال:﴿ مَـا يَكُـونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة،7)، وقـال:﴿ وَلَقَـدْ خَلَقْنَـا الْإِنسَـانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّـمَالِ قَعِيـدٌ (17) مَـا يَلْفِـظُ مِنْ قَـوْلٍ إِلَّا لَدَيْـهِ رَقِيبٌ عَتِيـدٌ (18)﴾ (ق)، وقـال:﴿ وَأَسِـرُّوا قَـوْلَكُمْ أَوِ اجْهَـرُوا بِـهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِـذَاتِ الصُّـدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَـقَ وَهُـوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14) ﴾ (الملك)، وقال:﴿ وَمَا تَكُـونُ فِي شَـأْنٍ وَمَـا تَتْلُـو مِنْـهُ مِنْ قُـرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُـونَ مِنْ عَمَـلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُـهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَـا يَعْـزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّـمَاءِ وَلَا أَصْـغَرَ مِنْ ذَلِـكَ وَلَا أَكْبَـرَ إِلَّا فِي كِتَـابٍ مُبِينٍ (61)﴾

(يونس)، وقال:﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (59) وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (60)﴾ (الأنعام)، وقال مخبراً عن موعظة لقمان عليه السلام لابنه:﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16)﴾ (لقمان)

قلت: لاشك أن من يعلم هذا سيحجز عن شر كثير.

قال: أجل.. ولهذا، فإن شعور المؤمن برقابة ربه لا يحوجه إلى أي شرطي أو قوانين تحد من حريته الجامحة.

7 ـ الحكم العدل

قلت: ما أعظم تأثير هذا في الإصلاح الاجتماعي.. فحدثني عن غيره.

قال: أليس من صفات الملك أن يكون حكما بين رعيته إليه ترجع في أحكامها وقوانينها وفصل خصوماتها.. ويكون له في نفس الوقت من العدل ما يحمي به أحكامه من طغيان الجائرين، وتعسف الظالمين.

قلت: ذلك صحيح.. ولا يستقيم الملك العادل إلا بما ذكرت.

قال: ولذلك، فإن من أسماء الله الحسنى (الحكم العدل)

الحكم:

قلت: فحدثني عن الحكم.

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالذِي أُرْسِلتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَا وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ (87)﴾ (الأعراف)

قلت: ففسره لي.

قال(1): أنت تعلم – حضرة الملك- أنّ تنظيم شؤون المجتمعات البشرية بحاجة إلى ثلاث سلطات (السلطة التشريعية).. وهي السلطة التي تتكفّل بسنّ القوانين الكفيلة بحفظ النظام في المجتمع والمنع من إضاعة الحقوق، و(السلطة التنفيذية) التي تنفّذ ما صادقت عليه السلطة التشريعية وتتولاّها عادةً الحكومات والوزراء والدوائر الحكومية.. و(السلطة القضائية)، وهي المسؤولة عن معاقبة المتخلّفين عن القانون

1) انظر: نفحات القرآن للشيرازي.

والمجرمين والمعتدين.

قلت: أجل.. فكل الحكومات تحتوي على هذه السلطات الثلاث، وهي تختلف فيما اختلافا شديدا.

قال: في رؤيتنا التوحيدية التي علمنا إياها كتابنا المقدس نرى أن هذه السلطات الثلاثة لا تستمد إلا من الله(1)، فالله هو الذي شرّع القوانين، وهو الذي يجيز تشكيل الحكومات وتنفيذ القوانين، وهو الذي يمنح الشرعية لعمل القضاة، وعليه فانّ هذه السلطات الثلاث لابدّ أن تستمدّ شرعيتها عن طريق الإذن الإلهي طبق الشرائط والأوامر.

لقد ذكر القرآن هذا في مواضع كثيرة.. فالله تعالى يقول:﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (45) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (46) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (47) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48) وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (49) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50)﴾ (المائدة)، ويقول:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65)﴾ (النساء)، ويقول:﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (57)﴾

1) تحدثنا بتفصيل عن هذا في (عدالة للعالمين) من هذه السلسلة.

(الأنعام).. وغيرها من الآيات الكثيرة.. وكلها تدل على أن الله – بحكم كونه ملكا على عباده – هو الحاكم عليهم، فلا يحق لعبد أن يتصرف في مملكة ربه مخالفا لأحكامه.

ليست النصوص المقدسة وحدها من دل على هذا.. حتى العقل السليم يدل عليه..

فلا شكّ أنّ كلّ عارف بالله مقرّ بتوحيده يذعن بنفاذ أمر الله في عالم الوجود، وعندما يتقبّل حاكميته على عالم الوجود فإنّه سوف لا يتردّد في ولايته وحكومته التشريعية، لأنّه حينما يكون هو الخالق والمالك والمدير فغيره لا يكون أهلا للتشريع، ولا يتمكّن من وضع قوانين تنسجم مع نظام التكوين والخلق.

وهكذا عندما يكون هو الخالق والمدبّر فإنّه هو الذي يجب أن يحكم على العباد ويقضي في الاختلافات، وبدونه سيكون هناك تدخل في نطاق مالكية الله عزّوجلّ وتدبيره بدون إذنه.

بالإضافة إلى هذا، فإن القانون الصحيح هو القانون الذي ينسجم مع التركيب الجسمي للإنسان وروحه ويلبّي حاجاته الماديّة والمعنوية، ولا يترك آثاراً سلبية في فترة زمنية قصيرة أو طويلة، ويكون ذا ضمان تنفيذي كاف وذا تقبّل وإنشداد في المجتمع الإنساني.. ولا يمكن أن يصدر هذا القانون إلا من خالق الإنسان العالم بحاجاته.

فالمشرِّعُ الحقيقي ينبغي أن يكون عالماً بالإنسان بصورة كاملة من جهة، وعالماً بالكون من جهة أخرى كي يلاحظ بدقّة العلاقات التي تربط الإنسان مع العالم الخارجي والداخلي، ويضع القوانين مضافاً إلى عدم وجود مصالح شخصية من وضع تلك القوانين.

وما نشاهده من اختلال كبير في القوانين البشرية فهو ناشئ من فقدان البشرية لمن يعرف الإنسان بجميع جزئياته الجسمية والروحية، ويعلم جميع القوانين والعلاقات التي تحكم العالم، فلا زالت تؤلّف الكتب الكثيرة من قبل المفكّرين تؤكد أن الإنسان مجهول لا يمكن معرفته معرفة شاملة حقيقية.. فإذا كانت معرفة الإنسان بنفسه إلى هذه الدرجة من الضعف فكيف تكون معرفته بالعالم الواسع؟

إضافة إلى هذا، فإن الإنسان محتاج إلى غيره، ولذلك نجد أنّ كلّ مجموعة تسنّ القوانين في إحدى المجتمعات البشرية تأخذ بنظر الإعتبار منافع تلك المجموعة أو الحزب.

إضافة إلى أن الإنسان غير مصون عن الخطأ والاشتباه، ولذا تكون القوانين البشرية عرضة للتغيّر المستمرّ، وذلك لظهور عيوبها ونقائصها وأخطائها بمرور الزمن.. نعم قد يبادر إلى إصلاحها، ولكن عيوبا أخرى تظهر.. وهكذا، ولهذا أصبحت المجالس التشريعية البشرية مختبرات تختبر فيها القوانين بشكل دائم، اختباراً لا طائل فيه، ولا نهاية له.

العدل:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن اسمه (العدل)

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَـذَا الكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (49)﴾ (الكهف)

قلت: ففسره لي(1).

قال: إنك لو تأملت – حضرة الملك- في أفعال الله، فستجدها كلها جارية على سنن العدل والاستقامة، ليس فيها شائبة جور أصلاً، فهي كلها بين الفضل والرحمة، وبين العدل والحكمة.. وما ينزله سبحانه بالعصاة والمكذبين من أنواع الهلاك والخزي في الدنيا، وما أعده لهم من العذاب المهين في الآخرة، فإنما فعل بهم ما يستحقونه، فإنه لا يأخذ إلا بذنب، ولا يعذب إلا بعد إقامة الحجة، فهو سبحانه لا يأمرهم إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهاهم إلا عما مضرته خالصة أو راجحة.

وهكذا هو سبحانه في حكمه بين عباده يوم فصل القضاء، كما قال تعالى:﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47)﴾ (الأنبياء)

وهكذا هو سبحانه وتعالى في تسييره لشؤون الكون جميعا.. قال تعالى حاكيا قول هود عليه السلام لقومه:﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (هود:56)

8 ـ الصبور الستير

قلت: ما أجمل ما تذكره عن إلهك وأعظمه.. فزدني.

قال: أليس الملك هو الذي يكون له من سعة الصدر ما يجعله لا يضيق كل حين على رعيته.. ويكون له مع ذلك الصبر من حسن

1) سنرى التفاصيل المرتبطة بهذا الاسم في فصل (العدل) من هذه الرسالة.

الستر ما يتجاوز به عن بعض خطاياهم؟

قلت: أجل.. فلا يكون الملك ملكا إلا بهذا..

قال: وليس ذلك على كماله إلا لملك الملوك الله تعالى.. فهو وحده الصبور الستير.

الصبور:

قلت: فحدثني عن الصبور.

قال: لقد ورد ذكره في نصوصنا المقدسة، قال تعالى:﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11)﴾ (يونس)

قلت: ففسره لي.

قال(1): الصبور هو الذي لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه، بل ينزل الأمور بقدر معلوم، ويجريها على سنن محدود، فلا يؤخرها على آجالها المقدورة لها تأخير متكاسل، ولا يقدمها على أوقاتها تقديم مستعجل، بل يودع كل شيء في أوانه، على الوجه الذي يجب أن يكون، وكما ينبغي أن يكون، وكل ذلك من غير مقاساة داع على مضادة الإرادة.

بخلاف صبر العبد، فإنه لا يخلو عن مقاساة، لأن معنى صبره هو ثبات داعي الدين أو العقل في مقابلة داعي الشهوة أو الغضب، فإذا تجاذبه داعيان متضادان فدفع الداعي إلى الإقدام والمبادرة ومال إلى باعث التأخير سمي صبورا، وإذ جعل باعث العجلة مقهورا.

أما باعث العجلة في حق الله تعالى فهو معدوم، ولذلك فهو أبعد عن العجلة ممن باعثه موجود، ولكنه مقهور.

الستير:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن اسمه (الستير)

قال: لقد ورد هذا الاسم في نصوصنا المقدسة، ففي الحديث، قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَل حَلِيمٌ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ، يُحِبُّ الحَيَاءَ وَالسَّتْرَ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ)(2)

قلت: فحدثني عنه.

قال: الستير سبحانه وتعالى هو الذي يستر عباده فلا يفضحهم، ويحب الستر، ويبغض القبائح، ويأمر بستر العورات، ويبغض الفضائح، ويستر العيوب على عباده وإن كانوا بها مجاهرين، ويغفر

---

1) انظر: المقصد الأسنى، للغزالي.

2) رواه أبو داود.

الذنوب مهما عظمت، وإذا ستر الله عبدا في الدنيا ستره يوم القيامة.

ولهذا لا يلجأ من طلب الستر إلا إليه، وفي الحديث أنه ﷺ لم يكن يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: (اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عورتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي)(1)

9 ـ القابض الباسط

قلت: ما أجمل ما تذكره عن إلهك وأعظمه.. فزدني.

قال: أليس الملك هو الذي بيده مقاليد جميع الأمور، فهو يقبض منها ما شاء، ويبسط منها ما شاء، لا معقب له في ذلك، ولا راد؟

قلت: أجل.. فلا يستقيم الملك لملك إلا بهذا.. بل إن الملوك تتنافس في الحصول على أكبر الصلاحيات التي تمكنها من كل هذا.

قال: وليس ذلك على كماله إلا لملك الملوك الله تعالى.. فهو وحده القابض الباسط.

القابض:

قلت: فحدثني عن القابض.

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ مَنْ ذَا الذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245)﴾ (البقرة)

قلت: ففسره لي.

قال: القابِضُ سبحانه هو الذي يمسك الرزق وغيره عن العِبادِ بلطفه وحِكمته، ويَقبِضُ الأَرْواحَ عند المَمات بأمره وقدرته، ويُضَيِّقُ الأسباب على قوم كما يُوَسِّعها على آخرين ابتلاء وامتحانا.

ولذلك لا يلجأ إلا إليه، ولا يستعاذ إلا به، وقد كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: (اللهمَّ لاَ قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ وَلاَ بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلاَ هَادِيَ لِمَا أَضْلَلْتَ وَلاَ مُضل لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ وَلاَ مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ، وأعوذ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ منا)(2)

وكان يقول: (اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ

---

1)رواه أبو داود.

2)رواه أحمد.

وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ) (1)

الباسط:

قلت: فحدثني عن الباسط.

قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مَتَاعٌ (26)﴾ (الرعد)

وقال:﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (30)﴾ (الإسراء)

وقال:﴿ اللهُ الذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48)﴾ (الروم)

قلت: ففسره لي.

قال: الباسط هو الذي يبسط لك من كل ألوان المواهب والكرم والفتح ما يغنيك به عن سؤال غيره.

وهو من يعطيك من ألوان العطايا الخالية عن الأعواض والأغراض(2)..

وهو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء، ولا يبالي كم أعطى ولمن أعطى، وإن رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جفي عاتب وما استقصى، ولا يضيع من لاذ به والتجأ، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء(3)..

وهو الذي ينفتح بعنايته كل منغلق، وبهدايته ينكشف كل مشكل، فتارة يفتح الممالك لأنبيائه ويخرجها من أيدي أعدائه، وتارة يرفع الحجاب عن قلوب أوليائه، ويفتح لهم الأبواب إلى ملكوت سمائه وجمال كبريائه(4)..

10 ـ الغفور الغيور

قلت: ما أجمل ما تذكره عن إلهك وأعظمه.. فزدني.

قال: أليس من صفات الملك أن يغار على حرماته أن تنتهك، وعلى مقدساته أن تداس.. ولكنه مع غيرته يسرع إلى المغفرة والعفو إن رأى فيمن انتهك الحرمة ذلة، أو أنس منه ندما؟

قلت: أجل.. فلا يستقيم الملك لملك إلا بهذا.. بل لا يكون

---

1)رواه الترمذي.
2) من شرح الغزالي لاسم الوهاب، وهما متقاربان.
3) من شرح الغزالي لاسم الكريم، وهما متقاربان.
4) من شرح الغزالي لاسم الفتاح، وهما متقاربان.

الملك عادلا رحيما إلا إذا توفر فيه ذلك.
قال: وليس ذلك على كماله إلا لملك الملوك الله تعالى.. فهو وحده الغفور الغيور.

الغفور:

قلت: فحدثني عن الغفور.
قال: لقد ورد ذكره في القرآن الكريم، ففيه:﴿ (قُلْ يَا عِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ (53)﴾ (الزمر)
وفيه:﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ (49)﴾ (الحجر)
قلت: ففسره لي(1).
قال: الغفور هو الذى لم يزل ولا يزال بالعفو معروفًا، وبالغفران والصفح عن عباده موصوفًا، فكل أحدٍ مضطر إلى عفوه ومغفرته، كما هو مضطر إلى رحمته، وكرَمه فإن اللّه عز وجل وسعت رحمته كل شيء، ومغفرته أعظم من كل ذنب.
والغفور هو من يخاطب عباده بقوله: (يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبُك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة)(2)
ويخاطبهم بقوله:﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53)﴾ (الزمر)
وهو الذي دعا إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيرًا ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة.. كلهم يخاطبهم بقوله:﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (74)﴾ (المائدة)(3)

الغيور:

قلت: حدثتني عن الغفور.. فحدثني عن الغيور.
قال: لقد أخبر رسول الله ﷺ عن غيرة الله، فقال مخاطبا أمته: (يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنْ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلا

1) انظر التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا الاسم في رسالة (رحمة للعالمين).
2)رواه الترمذي ، وقال: حديث حسن.
3)من حديث موقوف على ابن عباس.

وَلبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)[4]

وقد ورد في القرآن الكريم الآيات الكثيرة الدالة على غيرة الله من أن تنتهك محارمه:

فقد قال متوعدا الكافرين الظالمين من عباده:﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (70) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72)﴾ (مريم)

وقال ردا على من زعم له الولد:﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95)﴾ (مريم)

وقال متوعدا من سخر من نبيه ﷺ واستهزأ بكلامه:﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30)﴾ (المدثر)

وقال مخاطبا الجن والإنس:﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (31)﴾ (الرحمن)

قلت: ففسره لي.

قال: لقد وضع الله في هذا الكون من القوانين المنظمة ما يحفظه ويملؤه بالعدل والرحمة والنظام.. ولذلك، فإن كل من انتهك حرمة هذا النظام، أو أساء التعامل مع عدل الله ورحمته نزل به ما ينزل بالمجرمين من أليم العقاب.

فمن لم يكن أهلا لرحمة الله ومغفرته كان أهلا لانتقامه وعقوبته، قال تعالى معرفا عباده به:﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ

4) رواه البخاري.

الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50)﴾ (الحجر)

***

التفت إلينا صاحبنا (بيدرو الثاني)، وقال: هـذا حـديثي مـع ذلـك الرجل الفاضل والـولي الصـالح والملـك العـادل.. لقـد عشـت في رحاب كلماته أياما جميلة.. بل لا أكتمكم أني اسـتفدت منهـا كثـيرا في ترقيـع مـا تقطـع من مملكـتي، ووصـل مـا انخـرم بيـني وبين رعيتي.

لكني للأسف انشغلت بالاسـتفادة من الأسـماء عن البحث عن المسمى.. ولولا أن الله الـرحمن الـرحيم تـداركني بلطفـه، فأعـاد إلى ذاكـرتي السـاعة تلـك الأيـام الجميلـة الـتي نعمت فيهـا بتلـك الصحبة الشريفة لكنت الآن من الغافلين.

سابعا ـ العدل

في اليوم التالي لذلك اليوم أيقظنا رجل منا في أعـدل أوقـات الليل وأسكنها، وهو يقول: اسـتيقظوا إخـواني لقـد تـذكرت أشـياء مهمة في حياتي.. لكأني أراها الآن رأي العين.. فهلم لأحدثكم عنها عسانا نقترب بها من ربنا الحقيقي الذي نبحث عنه.

استيقظ جميع أصحابي، وراحوا يمسحون ما بقي من آثار النوم عن عيونهم، وهم يرددون مستبشـرين: بـورك فيـك.. هلم حـدثنا.. فما أعظم أشواقنا إلى معرفة ربنا.

جمع صاحبنا أنفاسـه، ثم قـال: لن أحـدثكم عن ربي إلا بعـد أن أحدثكم عن نفسي.. فقد علمت من خلال أحاديث رفـاقي أن اللـه تعالى لا يتجلى لعباده إلا بحسب اهتماماتهم وهممهم..

قلنا: فمن أنت؟.. وما كانت همتك؟

قال: أما أنا فقد كنت رجلا من (الهزازين)(1).. وقد كانت همتي كمـا كـانت همـة رفـاقي جميعـا هي البحث عن العـدل والسـلام.. ولذلك لم أكن أهتم كثيرا باللاهوت مع أني كنت أزور الكنيسـة كـل حين.. وأهتز كما يهتز رفاقي جميعا أثناء ممارسة الطقوس الدينية.

---

1) الهـزازون أو (Shakers)ـ أعضـاء طائفـة مسـيحية في الولايـات المتحـدة تسـمى (الجمعية المتحدة للمعتقدين في العودة الثانية للمسيح)، ويسمَّوْن الهـزازين نظـرا لأنهم كانوا في بداية تاريخهم يهتزون انفعـالا خلال طقوسـهم الدينيـة.. أسسـت آن لي جماعـة الهزازين في عام 1772م تقريبًا في مدينة مانشستر بإنجلترا.

وتشمل مبادئهم الأساسـية النقـاء العـذري، والحب، والسـلام، والعـدل.. ولهـذا اخترنـا الحديث عنهم هنا.

وهم يعبرون عن هذه المبـادئ من خلال ممارسـتهم حيـاة العزوبـة، والأخـوة العالميـة الشاملة، والامتناع عن العنف، واقتسام الممتلكات والبضائع.

وفي عام 1774م، هاجرت آن لي وثمانية من تابعيهـا من إنجلـترا، وفي عـام 1776م استقروا في ووتـرفليت بـنيويورك. وجـذبت نشـاطات لي التنصـيرية العديـد من الأتبـاع.. وبدأوا في تكوين مجتمعـات أخـرى للهـزازين على نمـط تعـاليم لي بعـد موتهـا في عـام 1784م. وقد تأسست جماعة الأم الكبرى للهزازين المسماة لبنان الجديدة في نيويـورك عام 1787م.

وفي حـوالي عـام 1850م تقريبًـا، وعنـدما كـان الهـزازون في قمـة شـعبيتهم، عـاش حـوالي 6000 من الأعضـاء في مجتمعـات تمتـد من مين إلى كنتـاكي. وتعكس عنـايتهم بقراهم تأكيدهم على الدقة في العمل والنظام، أما الاختراعـات مثـل المناشـير الدائريـة ومشابك الغسيل فتعكس خيال الهزازين وبراعتهم.

ونظرًا لأنهم لا يعتقدون في الزواج وإنجاب الأطفال، فقد اعتمـد الهـزازون على تبـني الأطفال للمحافظة على عدد جماعتهم. وبدأ عدد الهزازين في التناقص بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية في عام 1865م. وتعيش القلة الباقيـة منهم ولا يتجـاوز عـددهم نحـو 6 أشـخاص في سـاباثدي ليـك في ولايـة مين، وكـانتربري في ولايـة هامبشـاير. (انظـر: الموسوعة العربية العالمية).

قال رجل منا: كيف تزور الكنيسة، وأنت لا تهتم باللاهوت؟

قال: أصدقك القول في هذا.. فأنا مع زيارتي للكنيسة، وانتمائي لجمعية من جمعياتها أبعد الناس عن الله.. ولهذا لم أنظر إلى الكنيسة إلا كمؤسسة يمكنني أن أستثمرها وأتعاون مع أفرادها في تحقيق ما تهفو إليه نفسي من العدل والحب والسلام.

أما الله.. فقد رأيت من خلال قراءاتي للكتاب المقدس أن الحديث عنه لن يزيدني إلا بعدا عن رفاقي الذين ألفتهم وألفوني.. فلذلك كنا في مجالسنا لا نتحدث إلا عن العدل، وعن ترقب المسيح الذي سيأتي بالعدالة المطلقة.. أما الله فلم نكن نتحدث عنه أبدا.

قال الرجل: لم؟

قال: لقد رأيت أن (الله) – بحسب ما تلقننا إياه الكنيسة- تتناقض صفاته مع العدل الذي تنتسب إليه طائفتنا.. ولم نشأ جميعا أن نعكر صفوها بذلك.

قال الرجل: هلا زدتنا توضيحا.

قال: لا بأس.. ولو أن ذلك سيصرفني عما أريد أن أبثه لكم من حقيقة العدل الإلهي الذي لا تطيق العقول تصور حده.

وقبل أن أذكر لهم هذا سأقص عليكم قصة تختصر ما يرطن به قومنا من أحاديث حول الكفارة والفداء وعلاقتها بالعدل الإلهي:

كان هناك أحد الملوك، وكان عنده مجموعة من العبيد، وكان شديد المحبة لهم.. ولكنهم – ولغير سبب معقول- خانوه، وتمردوا عليه، وعصوه، ولم يتركوا شيئاً يغضبه إلا فعلوه، ولم يسمعوا ولا أمرا واحدا له، وهكذا استحقوا عقوبته.. بل إن عقوبته طالت أولادهم وأحفادهم أيضا مع كونهم لم يقعوا فيما وقع فيه آباؤهم.

لكن ذلك الملك الطيب، وبسبب حبه لهم أراد أن يعفو عنهم.. فراح إلى تصرف غريب يقوم به.

لقد كان له ولد طيب هو كأبيه تماما في رحمته وعدله.. وقد رأى الأب أنه لا يعفى عن الأحفاد الذين ورثوا الخطيئة عن الأجداد إلا بتقديم ابنا قربانا لنفسه..

ولذلك عمد إلى ابنه الوحيد، فقربه لهؤلاء العبيد، ثم قال لهم: هذا الولد هو أنا أو كأنه أنا بالضبط، لا فرق بيني وبينه، ولأني أحبكم وأريد أن أسامحكم، فخذوا ابني هذا واضربوه وأهينوه وعذبوه واقتلوه شر قتله على الصليب.. نعم اصلبوه واقتلوه، وبعد هذا سأسامحكم على الخطيئة التي فعلها أجدادكم)

قام أحدنا، وقال: عن أي خرافة تحدثنا؟.. نحن نريد أن نتعـرف على ربنا.. وليس لدينا الوقت لنسمع خرافات العجائز.

ابتسم صاحبنا الهزاز، وقال: هذه – للأسـف – ليسـت خرافـة.. هذه هي العقيدة التي تريد منا كنائسنا أن نقتنع بها، بل تريد منا أن نؤمن بها... هذه هي عقيدة الصلب والفداء..

انظـروا مـدى الانحطـاط الـذي يوقعنـا فيـه رجـال ديننـا حين يوهموننا أن رب هذا الكون العظيم بهذه الصفة..

قال رجل منا: ولكن.. ألم يكن يستطيع أن يقول لهـؤلاء العبيـد اذهبوا فقد سامحتكم؟.. فيسامحهم بكل بساطة كما نفعـل عنـدما نشاء.

قال آخـر: مـا علاقـة ابنـه بهـؤلاء العبيـد؟.. مـا ذنب ذلـك الابن المسكين الذي ما جاء أساساً إلا ليقتل بلا ذنب ولا خطيئة فعلها؟

قال آخر: كيف يصدق عاقـل أن اللـه يفعـل ذلـك؟ أين العـدل الإلهي في ذلك؟ ألم يكن الله يستطيع أن يقول اذهبوا فقد غفرت لكم؟.. ألم يكن يستطيع ذلك الإلـه الضـعيف أن يغفـر للبشـر دون أن يصلب ابنه أو يصلب نفسه على الصليب؟ ولماذا يحاسـبنا اللـه على ذنب لم نرتكبه أساسا؟

قال آخـر: لا.. لا.. لا يمكن أن يقـول هـذا الكلام مسـيحي يقـرأ الكتاب المقدس.. لاشك أن ما تقوله غير صحيح.

قال الهزاز: ليت الأمر كما تقول.. لقد ذكرت لكم أني كنت ابنا للكنيسة.. وقد كان من أول الدروس التي ألزمنا حفظهـا مـا يمكن تسميته بالمفهوم الكنسى للخطيئة الموروثة، وهـو أن كـل إنسـان يولد خاطئاً، لأن أبانا آدم وأمنا حواء عصـيا اللـه وأكلا من الشـجرة المحرمة، فوقعا في الخطيئة، وبـذلك يكـون آدم وزوجتـه ونسـلهم يستحقون جميعاً العقاب على مقتضى العدل الإلهي.

ولكن بمـا أن رحمـة للـه تسـتوجب العفـو، فقـد نتج عن هـذا تناقض بين عدل اللـه وبين رحمتـه، فتطلب الأمـر شـيئاً يجمـع بين الرحمة والعدل، فكانت الفدية التي يتم بها ناموس العدل ويتحقـق بها ناموس الرحمة!

هذا هو القانون الذي فرضه رجال ديننا على الله..

بل زادوا، فذكروا أن من شروط هذه الفدية أن تكـون طـاهرة غير مدنسة.. وبمـا أنـه ليس في الكـون مـا هـو طـاهر بلا دنس إلا الله.. وبما أن الله لا يمكن أن يكـون فديـة.. فقـد أوجبت المشـيئة أن يتخذ الله جسداً يتحد فيه اللاهوت والناسـوت؛ أي جسـداً يكـون

إلها وبشراً في الوقت نفسه، فاتحد اللاهـوت والناسـوت في بطن العذراء، فنتج عن هذا الاتحاد إنساناً كاملاً، من حيث هو ولدها وكان الله في الجسد إلهاً كاملاً(1)، وقد تمثل هذا كله في المسيح الــذي أتى ليكون فديه لخلقه.. وكان ذلك هو الفداء.

ثم قدم هذا الإله ذبيحة ليكون ذبحـه إعفـاء البشـر من جريمـة الخطيئة، فمن أجل ذلـك مـات المسـيح على الصـليب.. وهـذا هـو الصلب.

وكان هذا كله كفارة لخطايا البشر وتخليصهم من الهلاك.. وهذا هو الخلاص.

ولما كان البشر كلهم خطاه بخطيئة أبيهم آدم وأمهم حواء فهم هالكون، ولا ينجيهم من هذا الهلاك سوى إيمانهم بالمسيح الفادي.

قال رجل منا: ولكن هؤلاء يتناقضون مع أنفسهم..

قال آخر: بل يتناقضون مع الكتـاب المقـدس.. ففيـه النصـوص الكثيرة التي يمكن أن نكتشـف من خلالهـا أن اللـه عـادل.. ففيـه: (أصغي أيتها السماوات فـأتكلم ولتنصـت الأرض إلى أقـوال فمي. لينهمر تعليمي كالمطر، وليقطر كلامي، فيكـون كالطـل على الكلإ وكالغيث على العشب. باسم الرب أدعو، فمجدوا عظمة إلهنا. هــو الصخر، وصنائعه كلها كاملة، سبله جميعهـا عـدل. هـو إلـه أمانـة لا يرتكب جورا، صديق وعادل هو. لقـد اقـترفوا الفسـاد أمامـه، ولم يعودوا له أبناء بل لطخة عار، إنهم جيل أعوج وملتو أبهذا تكــافئون الرب أيها الشعب الأحمق الغبي؟ أليس هو أبـاكم وخـالقكم الـذي عملكم وكونكم؟ اذكروا الأيام الغابرة، وتأملوا في سنوات الأجيــال الماضية. اسألوا آباءكم فينبئوكم، وشيوخكم فيخبروكم) (تثنية 32: 1- 7)

وفيه: (وقال عن سبط جاد: لتحل البركة على من وسـع تخـوم جاد حيث يربض جاد هناك كالأسد، يفترس الذراع مع قمة الــرأس. اختار خير الأرض لنفسه، واحتفظ لنفسـه بنصـيب القائـد: وعنـدما اجتمـع شـيوخ الشـعب أجـرى حـق الـرب العـادل وأحكامـه مـع إسرائيل) (تثنية 33:20- 21)

وفيه: (والآن بعد كل ما جرى علينـا من جـراء أعمالنـا السـيئة وآثامنا العظيمة، نعلم أنك عاقبتنا يا إلهنـا بأقـل من آثامنـا، ووهبتنـا نجاة مثل هذه. أنعود بعد ذلك ونتعدى على وصاياك ونصــاهر الأمم

---

1) طبعا تختلف الفرق المسيحية في الموقف من هذا.. ولكن قصـدنا هـو اتفاقهـا في الموقف من الفداء.

الذين يرتكبون هذه الرجاسات؟ ألا تسخط علينا آنئذ حتى تفنينا فلا تبقى منا بقية ولا نجاة؟ أيها الرب إله إسرائيل، أنت عادل لأننا مازلنا بقية ناجية إلى هذا اليوم، وها نحن نمثل أمامك في آثامنا، مع أنه لا حق لنا في ذلك) (عزرا 10: 13 -15)

وفيه: (والآن يا إلهنا، أيها الإله العظيم الجبار المرهوب حافظ العهد ومغدق الرحمة، لا تستصغر كل المشقات التي أصابتنا نحن وملوكنا ورؤساءنا وكهنتنا وأنبياءنا وآباءنا وكل شعبك، منذ أيام ملوك أشور إلى هذا اليوم، فقد كنت عادلا في كل ما حل بنا، لأنك عاقبتنا بالحق، ونحن الذين أذنبنا. ولم يطع ملوكنا ورؤساؤنا وكهنتنا وآباؤنا شريعتك، ولا استمعوا إلى وصاياك وتحذيراتك التي أنذرتهم بها. ولم يعبدوك في ملكهم، ولا حين كانوا يتمتعون بخيرك العميم الذي أنعمت به عليهم، ولا في أرضهم الشاسعة الخصيبة التي بسطتها أمامهم، ولم يرتدوا عن سيئات أعمالهم) (نحميا 9:ـ 32-35)

قال الهزاز: لقد فات هؤلاء أن هناك بدائل كثيرة مقبولة ومتوافقة مع سنن الله الماضية في البشر.. وهي جميعا أولى من اللجوء إلى صلب المسيح تكفيرا للخطيئة ووفاء بسنة الانتقام والعدل.. ومن أهم هذه البدائل ما تعرضه مصادرنا المقدسة من التوبة، والمغفرة، والعفو، وصكوك الغفران، والاكتفاء بعقوبة الأبوين على جريمتهما.. وكل ذلك من السنن التي يقرها الكتاب المقدس.

لست أدري ما الذي دعا بولس لأن يقول:(بدون سفك دم لا تحصل مغفرة) (عبرانيين 9/22)؟

هل غفل المسكين عن نصوص الكتاب المقدس الكثيرة.. التي تتحدث بإسهاب عن التوبة وقصصها وقبول الله لها؟

ألم يسمع أخبار المسيح.. وكيف كان يجلس مع العشارين والخطاة، فيتذمر الفريسيون والكتبة لذلك قائلين: (هذا يقبل خطاة ويأكل معهم) (لوقا 15/2) لكن المسيح كان يعلمهم حرصه على توبتهم؟

ألم يسمع بما أخبر به لوقا من كلام المسيح.. فقد ورد فيه (لوقا 15/3-7): (وكلمهم بهذا المثل قائلا: أي إنسان منكم له مائة خروف وأضاع واحدا منها، ألا يترك التسعة والتسعين في البرية ويذهب لأجل الضال حتى يجده، وإذا وجده يضعه على منكبيه فرحا ويأتي إلى بيته، ويدعو الأصدقاء والجيران قائلا لهم:

افرحوا معي، لأني وجدت خـروفي الضـال.. أقـول لكم: إنـه هكـذا يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب)؟

ألم يسـمع بـالمثلين اللـذين ضـربهما بـالابن الضـال والـدرهم الضائع (لوقا 15/8 - 32)؟

ألم يسمع بوعد الله التائبين بالقبول كما في (حزقيال 18/21-23): (فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها، وحفظ كـل فرائضي وفعل حقا وعدلا، فحياة يحيا، لا يموت، كل معاصـيه الـتي فعلها لا تذكر عليه، بره الذي عمل يحيـا، هـل مسـرة أسـر بمـوت الشرير)

ألم يسمع بما قال يوحنا المعمدان مخاطبا اليهود مـذكرا إيـاهم بأهمية التوبة.. لقد قال لهم ـ كما في (متى 3/7 -9) ــ: (يـا أولاد الأفـاعي من أراكم أن تهربـوا من الغضـب الآتي، فاصـنعوا أثمـارا تليق بالتوبة، ولا تفتكـروا أن تقولـوا في أنفسـكم لنـا إبـراهيم أبـا) فالتوبة هي الطريق، وليس النسب كما ليس الفداء؟

ألم يسمع بما قال الرب ـ كما في (الأيام (2)ـ 7/14) ــ: (فـإذا تواضـع شـعبي الـذين دعي اسـمي عليهم وصـلوا وطلبـوا وجهي ورجعوا عن طرقهم الردية فإنني أسمع من السماء)؟

ضرب كفيه بعضـهما ببعض، ثم قـال: رغم كـل هـذه النصـوص المقدسة وغيرها.. يقول قومنا: (التوبـة مهمـا كـان شـأنها ليسـت بكافية للصفح عما مضى من خطايانا)

***

قلنا: دعنا من كل هذا.. فنحن نعرفه جميعا.. وحـدثنا بمـا أردت أن تحدثنا عنه.

قال: بعد أن امتلأت نفسي بالغثاء الذي ذكرته لكم حنت روحي لإلهها.. إلهها الحقيقي الذي لم تدنسه يد الأهواء.

وقد صادف أن شعرت بذلك الحـنين في جـزر ممتلئـة بـالطهر والعفاف والجمال.. لعلكم تعرفونها.. إنها (جُزُر القُمُر)(1)

لقـد سـرت إليهـا في مهمـة تبشـيرية.. لكـني ظفـرت فيهـا ببشارات أغنتني عن كل البشارات التي كنت أحملها.

---

1) هي قطر عربي إفريقي، يتكون من عدة جزر تقع في المحيط الهندي محصورة مـا بين أراضي قارة إفريقيا غربًا، وجزيرة مدغشقر شرقًا، أي أنها تقع عند المدخل الشمالي لمضيق موزمبيق.

وهي تتكون من أربع جـزر بركانيـة كبـيرة ورئيسـية.. وهي في مقدمـة جهـات إفريقيـا المدارية التي دخلها الإسلام.. ولهذا، فإن معظم سكان هذه الجزر من المسلمين.

وقد اخترناها هنا تنبيهـا على أهميتهـا من جهـة، ولكـون حاكمهـا الحـالي حـاكم مسـلم ملتزم داعية عادل، لكنه لا يجد أعوانا على الهمة العظيمة التي يحملها.

كان أول من صادفني عند نزولي من القارب الذي نقلني إليهـا رجل وضيء ممتلئ هيبة ووقارا، كان النـاس يطلقـون عليـه (عليـا الهادي)(2).. لقد كان – كمسماه – عليا وهاديا.. وقد اسـتفدت منـه في الفترة القصيرة الـتي صـحبته فيهـا مـا لم أسـتفد مثلـه طـول عمري.. ولولا أن الدنيا جذبتني بكلاليبهـا لمـا رضـيت لحيـاتي خـيرا من صحبته والتتلمذ عليه.

عندما نزلت من القارب، ورآني، قال لي: أهلا بأخينا الذي يريـد أن يبشرنا بالخلاص.

فرحت كثيرا لقوله هذا، وظننت أني قد ظفـرت بـأول مسـتعد للخلاص الذي يبشر به قومنـا.. بـل طمعت في أن أحـول من هـذا الصيد السهل شباكا أصطاد به غيره.

لكن أملي خاب من أول الكلمات التي بدأ يخاطبني بها..

نعم أملي خاب في ذلك الحين.. لكـني شـعرت بعـدها أن تلـك الرحلة قلبت حياتي رأسا على عقب.

لقد محت كلماته الممتلئـة بالحكمـة والإيمـان جميـع مـا حـاول رجال الكنيسة أن يشحنوه في عقلي من وساوس.

كان أول ما قال لي عندما جلست معه في حديقـة من حـدائق تلك الجزيرة الجميلة: لقد سمعت من بعض إخوانك المبشرين أنـه بعد أن هزمت الخطيئة آدم سلب الله منه الحرية والإرادة، فأصـبح حراً في إتيان الإثم، غير حرٍ في صنع المعروف.

قلت، كما تعودت أن أقول من غـير أن أعي مـا أقـول: أجـل.. فالعقاب المعقول للذنب هـو الـذنب بعـده، بعـد تخلي رحمـة اللـه عنه.

---

2) أشير به إلى الإمام (علي الهادي) (212ـ 254هـ)، وهو الإمـام العاشـر من الأئمـة الاثني عشر – حسب مذهب الإمامية – وهو ابن محمد الجواد بن علي الرضـا بن موسـى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي السـجاد بن الحسـين الشـهيد بن علي أمير المؤمنين.

كان المثل الكامل للـورع والإيمـان والتقـوى، معظمـاً عنـد العامـة والخاصـة، ذا هيبـة ووقار.

قال ابن شهر آشوب: كان أطيب الناس بهجة، وأصـدقهم لهجـة، وأملحهم من قـريب، وأكملهم من بعيـد، إذا صـمت عَلَتْـه هيبـة الوقـار، وإذا تكلّم سـماه البهـاء، وهـو من بيت الرسالة والإمامة، ومقرّ الوصيّة والخلافة.

قال اليافعي: كان متعبّداً فقيهاً، إماماً، استفتاه المتوكل.

وقال ابن حجر: كان علي الهادي وارث أبيه علماً وسخاءً.

توفي في زمن المعتز العباسي في الثالث من رجب، وقيـل: لخمس بقين من جمـادى الآخرة سنة أربع وخمسـين ومـائتين، ودفن في داره بسـامراء.. وذكـر بعضـهم أنـه مـات مسموماً. (انظر: حياة الإمام علي الهادي، وموسوعة أصحاب الفقهاء)

قال: وسمعت أنهم يذكرون أن الخطيئة أصبحت مركبة من طبيعة الأبوين، وانتقلت منهما وراثة إلى سائر أبنائهما.. فلذلك يولد الطفل وهو ملطخ بأوزار الذنوب.

قلت: صدقوا في ذلك.. فوباء الخطيئة قد سرى إلى هذا الطفل وراثة.. لقد ذكر ذلك، ونص على سببه القديس أوغوسطينوس، فقد قال يشرح ذلك: (إن آدم هو ـ كما يروي سفر التكوين ـ أول إنسان خلقه الله على الأرض، وهذا الإنسان قد ارتكب الخطيئة الأولى التي يروي الفصل الثالث من سفر التكوين أحداثها، وبسبب وضعه المميّز في الفردوس ومسؤوليته الشاملة كجدّ للبشرية كلها، فقد انتقلت الخطيئة بالوراثة منه إلى جميع الناس)

وصور القديس (توماس أكويناس) ذلك بالذنب تذنبه الروح، لكنه ينتقل إلى أعضاء وجوارح الإنسان.

وشبه (كالوني) أحد علماء البروتستانت انتقال الخطيئة لبني آدم بانتقال الوباء، فقال:(حينما يقال: إننا استحققنا العذاب الإلهي من أجل خطيئة آدم، فليس يعني ذلك أننا بدورنا كنا معصومين أبرياء، وقد حملنا ظلماً ذنب آدم.. الحقيقة أننا لم نتوارث من آدم العقاب فقط، بل الحق أن وباء الخطيئة مستقر في أعماقنا، على سبيل الإنصاف الكامل، وكذلك الطفل الرضيع تضعه أمه مستحقاً للعقاب، وهذا العقاب يرجع إلى ذنبه هو، وليس من ذنب أحد غيره)

وبرر (ندرة اليازجي) هذه العقيدة تبريرا حسنا، فقال: (آدم هو مثال الإنسان، الإنسان الذي وجد في حالة النعمة وسقط، إذن سقوط آدم من النعمة هو سقوط كل إنسان، إذن خطيئة آدم هي خطيئة كل إنسان، فليس المقصود أن الخطيئة تنتقل بالتوارث والتسلسل لأنها ليست تركة أو ميراثاً.. إنما المقصود أن آدم الإنسان قد أخطأ، فأخطأ آدم الجميع إذن، كل واحد قد أخطأ، وذلك لأنه إنسان)

قال: وهكذا أصبح البشر جميعاً خطائين.

قلت: صحيح ذلك، وللأسف.. لقد قال عوض سمعان في كتابه (فلسفة الغفران في المسيحية) يفسر ذلك: (وبما أن آدم الذي ولد منه البشر جميعاً كان قد فقد بعصيانه حياة الاستقامة التي خلقه الله عليها، وأصبح خاطئاً قبل أن ينجب نسلاً، إذن كان أمراً بدهياً أن يولد أبناؤه جميعاً خطاة بطبيعتهم نظيره، لأننا مهما جُلنا

بأبصارنا في الكون لا نجد لسنة اللـه تبـديلاً أو تحـويلاً، ولـذلك قـال الوحي: (بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم) (رومية 5/12 - 21)

ابتسم، وقال: بعد أن ذكرت لي ما ذكرت هل تـأذن لي في أن أطرح بعض التساؤلات الثقيلة التي لم أجد لها جوابـا؟.. اسـمح لي فأنا ثقيـل بطبعي.. لا أسـتطيع أن أجامـل، ولا أن أكتم.. ربمـا كـان هذا من دلائل إخلاصي وصدقي في البحث.. وربمـا كـان نوعـا من الهرطقة..

على العموم.. أنا لا أقصد إلا البحث عن الحقيقة..

قلت: تحدث كما يحلو لك.. فلن تجد عندي إلا الجواب الكـافي، والمرهم الشافي.

قال: أنا – كأهل هذه البلاد- ولـدت مسـلما، ونشـأت مسـلما.. ولكـني – مـع ذلـك- أبحث عن الحقيقـة، وأحن إلى الخلاص.. وقـد رأيت من خلال تأملات عميقة أن الحقيقة يختزنها العدل.

فالعدل هو القيمة الكبرى التي تحكم الوجود.. تصور لو لم يكن هناك عدل في الكون.. فهل يمكن أن تراه بالصورة التي هو عليهـا الآن..

قلت: أنا مثلك أحب العدل.. بل أنـا من جماعـة مسـيحية لا هم لهـا إلا البحث عن العـدل، والتبشـير بـه.. بـل لم آت هـذه البلاد إلا للتبشير بالعدل الذي جاء به المسيح.

قال: جيد جدا.. فأنا وأنت إذن نتفق في الهـدف، ولكنـا نختلـف فقط في الوسيلة إليه.. ولست أدري هل الحق مع ما نشأت عليه، أم مع تلك العقيدة التي سمعت إخوانك المبشرين يدعون إليها.

قلت: لقد عرضت علي ما يذكره إخواني من المبشرين، لكنـك لم تعرض علي العقيـدة الـتي نشـأت عليهـا.. أم أنـك تسـتحي من ذكرها.. لا تستحي.. قل ما تشاء.. فالباحث عن الحقيقة لا يستحيي من شيء.. لقد مـررت على بـدائيين كثـيرين.. ربمـا كـان لهم من العقائد ما هو أغرب من العقيدة التي تريد أن تحدثني عنها.

قال: ما دمت قد ذكرت ذلك، فسأذكر لك الأركـان الـتي تقـوم عليها عقيدتنا في هذا الباب.. ربما نستطيع جمعها في أربع كلمات: البراءة، والتكليف، والمدد، والمجازاة.

1 ـ البراءة

قلت: فحدثني عن الركن الأول.. حدثني عن البراءة.

قال: إن نصوصنا المقدسة تدل على أن الإنسان خلق بريئـا لم

يتلبس بأي معصية.. بل إن المعصية عارضة عليه، وهي لا تعرض عليه إلا بسبب ما يكتسبه من عمل..

وبالرغم من أننا نتفق معكم في أن آدم وقع في المعصية إلا أننا نختلف في آثارها..

فنحن نرى أن معصية آدم قاصرة عليه.. بل نرى فوق ذلك أن آدم عليه السلام استغفر الله، وتاب إليه، وأن الله تعالى برحمته قبل توبته..

لقد ورد في القرآن الكريم النص على توبة الله على آدم عليه السلام، ففيه:﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (البقرة:37)

قلت: ولكن آدم نزل من الجنة.. وقد اشتركت معه ذريته في هذا النزول.. ألا تعتبر ذلك عقوبة؟

قال: لا.. ليس ذلك عقوبة.. لأن آدم أصلا خلق ليمتحن في الأرض.. فلا يمكن أن يمتحن في الجنة.. لقد ذكر القرآن الكريم هذا، ففيه:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30)﴾ (البقرة)

قلت: لكنه مع ذلك ورث ذريته الاستعداد للخطيئة.

قال: هو لم يورثهم ذلك.. بل هم أصلا خلقوا مستعدين لذلك.. فالوظيفة التي كلفوا بها تقتضي هذا.. لقد ذكر النبي ﷺ هذ، فقال: (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)(1)

قلت: فأنت تتفق معي إذن في أن الإنسان خلق ملطخا بالمعصية.

قال: أنا لم أقل هذا.

قلت: لقد كنت تذكره.

قال: فرق كبير بين استعداد الإنسان للمعصية، وبين تلطخه بها.. لقد ذكرت لك أن الإنسان خلق بريئا من التلطخ بأي معصية.. هو كالصفحة البيضاء.. ولكنه باختياره وإرادته قد يلطخ صفحته..

لقد ذكرت نصوصنا المقدسة هذا، ففي الحديث: (كل مولود يولد على الفطرة - وفي رواية: على هذه الملة - فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون

1) رواه مسلم وغيره.

فيها من جدعاء)[1]

وفي حديث آخر: (يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم، عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم)[2]

وفي حديث آخر: (يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به؟ قال: فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئًا، فأبيت إلا أن تشرك بي)[3]

إن هذا حقيقة من حقائق الإسلام الكبرى.. فالأصل في الإسلام براءة الإنسان من كل ذنب لم يفعله..

لقد ورد في القرآن الآيات الكثيرة الدالة على هذا.. سأسوق لك منها ما يكفي لدلالتك على ذلك.. ففيه:﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (15)﴾ (الأعراف).. أي لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه.

وفي آية أخرى:﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ (فاطر: 18)

وفي آية أخرى:﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إلا مَا سَعَى) (لنجم:39)

وفي آية أخرى:﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً) (مريم:80)

وفي آية أخرى:﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إلا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95)﴾ (مريم)

إن هذه النصوص وغيرها كثير تقرر المسؤولية الفردية، وأن كل إنسان مسؤول عن خاصة نفسه في عمله وسلوكه وحياته، ثم هو نتيجة هذه المسؤولية سيحاسب وحده، وسيلقى الله وحده.

وقد حدثني آبائي عن آبائهم أن أبا حنيفة خرج ذات يوم من عند الصادق، فاستقبله موسى بن جعفر، فقال له: ياغلام! ممّن المعصية؟ فقال: (لا تخلو من ثلاثة: إمّا أن تكون من الله عزّوجلّ وليست منه فلا ينبغي للكريم أن يعذّب عبده بما لم يكتسبه، وإمّا أن تكون من الله عزّوجلّ ومن العبد فلا ينبغي للشريك القوي أن يظلم الشريك الضعيف، وإمّا أن تكون من العبد وهي منه فإن عاقبه الله فبذنبه وإن عفا عنه فبكرمه وجودِه)

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه مسلم.
3) رواه البخاري ومسلم.

وقيل لموسى بن جعفر: أيكون العبد مستطيعاً؟، فقال: نعم بعد أربع خصال: أن يكون مخلّى السرب، صحيح الجسم، سليم الجوارح، له سبب وارد من الله عزّوجلّ، فإذا تمّت هذه فهو مستطيع.. فقيل له: مثل أي شيء؟.. فقال: يكون الرجل مخلّى السرب، صحيح الجسم، سليم الجوارح لا يقدر أن يزني إلاّ أن يرى امرأة فإذا وجد المرأة فإمّا أن يعصم فيمتنع كما امتنع يوسف، وإمّا أن يخلي بينه وبينها فيزني وهو زان ولم يطع الله بإكراه، ولم يعص بغلبة)

وقال موسى بن جعفر: (في التوراة مكتوب مسطور: ياموسى! إنّي خلقتك واصطفيتك وقوّيتك وأمرتك بطاعتي، ونهيتك عن معصيتي، فإن أطعتني أعنتك على طاعتي، وإن عصيتني لم أعنك على معصيتي، ولي المنّة عليك في طاعتك، ولي الحجّة عليك في معصيتك)

وقال الحسين: (الناس في القَدَر على ثلاثة أوجه: رجل زعم أنّ الله عزّوجلّ أجبر الناس على المعاصي فهذا قد ظلم الله عزّ وجلّ في حكمه وهو كافر، ورجل يزعم أنّ الأمر مفوّض إليهم فهذا وهن الله في سلطانه فهو كافر، ورجل يقول: إنّ الله عزّوجلّ كلّف العباد ما يطيقون، ولم يكلّفهم ما لا يطيقون، فإذا أحسن حمد الله، وإذا أساء استغفر الله فهذا مسلم بالغ)

وسئل الرضا عن قول الله عزّوجلّ:﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17)﴾ (البقرة)، فقال: إنّ الله تبارك وتعالى لا يوصف بالترك كما يوصف خلقه، ولكنّه متى علم أنّهم لا يرجعون عن الكفر والضلال منعهم المعاونة واللطف، وخلّى بينهم وبين اختيارهم)

وسئل عن قول الله عزّوجلّ:﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7)﴾ (البقرة)، فقال: (الختم هو الطبع على قلوب الكفّار عقوبة على كفرهم كما قال تعالى:﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155)﴾ (النساء)

وسئل عن الله عزّوجلّ هل يجبر عباده على المعاصي، فقال: (بل يخيّرهم ويمهلهم حتّى يتوبوا)

قيل له: فهل يكلّف عباده ما لا يطيقون؟ فقال: (كيف يفعل ذلك وهو يقول:﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (46)﴾ (فصلت)

قلت: ولكن ألم تقرأ هذه الآية:﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَعَ

أَثْقَالِهِمْ ﴾ (العنكبوت: 13).. وهذه الآية:﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (النحل: 25)

قال: هاتان الآيتان لا تعارضان النصوص السابقة.. بل هي تؤيدها وتقويها.

قلت: كيف ذلك.. أنا أراهما متعارضتان.

قال: أجبني.. أرأيت لو أن شخصا أخطأ فشرب الخمر أو ارتكب أي معصية.. ألا يحاسب على ذلك؟

قلت: بلى..

قال: أرأيت لو أنه لم يكتف بشربه ولا بمعصيته.. بل راح ينشر المعاصي ويدعو إليها ويستعمل كل الأساليب لذلك، فغر بسببه ناس كثيرون.

قلت: يحاسبون جميعا على ما فعلت أيديهم.

قال: ألا ترى أنه سيتميز عنهم بمزيد من العقاب؟

قلت: بلى.. فهو لم يكتف بأن يعصي.. بل راح يحرض عليها.. وربما كان التحريض أكبر من الخطيئة نفسها.

قال: ولذلك نصت تينك الآيتين على أن الإنسان قد يتحمل أوزار غيره إن كان سببا فيها..

وقد وردت النصوص الكثيرة تدل على هذا.. وتعتبر أن الداعية للأعمال حسنة أو سيئة ينال جزاء دعوته أو إثمها:

ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)(1)

وفي حديث آخر:(إن هذا الخير خزائن، ولتلك الخزائن مفاتيح، فطوبى لعبد جعله الله مفتاحا للخير مغلاقا للشر، وويل لعبد جعله الله مفتاحا للشر مغلاقا للخير)(2)

ابتسمت، وقلت: فأنت تريد أن تنسخ ما ذكره الآباء والقديسون بما ورد في القرآن..

قال: لا.. لم أقصد ذلك.. ليس القرآن وحده هو الذي يقرر هذا.. لقد قرأت الكتاب المقدس.. فوجدته يقرر هذه الحقيقة تقريرا قطعيا لا شك فيه.. ولست أدري كيف غاب ذلك عن قديسينا الأجلاء..

---

1) رواه مسلم وغيره.

2) رواه ابن ماجه وغيره بسند فيه لين.

سأقرأ عليك بعض ما أحفظه من نصوص الكتاب المقدس التي تدل على هذا، كما قرأت لك من نصوصنا المقدسة ما يدل عليه:

لقد ورد في (حزقيال 18/20 -ـ 21): (النفس التي تخطيء هي تموت، الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون)

وفي (التثنية 24/16): (لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يقتل)

وفي (إرمياء 31/30): (بل كل واحد يموت بذنبه، كل إنسان يأكل الحصرم تضرس أسنانه)

وفي (إرميا 32/19): (الذي عيناك مفتوحتان على كل طرق بني آدم لتعطي كل واحد حسب طرقه، وحسب ثمرة أعماله)

وفي (الأيام (2)ـ 25/4): (لا تموت الآباء لأجل البنين، ولا البنون يموتون لأجل الآباء، بل كل واحد يموت لأجل خطيته).

وفي (حزقيال 18/17): (فإنه لا يموت بإثم أبيه)

وفي (التكوين 18/23 ـ 25): (أفتهلك البار مع الأثيم، عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة، أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه، حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر: أن تميت البار مع الأثيم، فيكون البار كالأثيم. حاشا لك، أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً)

كما أنكر المسيح الخطيئة الأصلية بقوله ــ كما في (يوحنا 15/22 -ـ 24) ـ: (لو لم آت وأكلمهم، لم تكن لهم خطيئة، وأما الآن فليس لهم حجة في خطيئتهم... لو لم أعمل بينهم أعمالاً لم يعملها آخر، لما كانت لهم خطيئة، أما الآن فقد رأوا وأبغضوني).. إن هذا النص لا يتحدث عن خطأ سابق عن وجوده، بل عن خطأ وقع فيه بنو إسرائيل تجاهه، هو عدم الإيمان بالمسيح، وليس فيه أي ذكر للخطيئة الموروثة، بل هو ـ كما يبدو ـ لا يعرف شيئاً عنها.

2 ـ التكليف

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن الكلمة الثانية.. حدثني عن التكليف.

قال(1): المراد بالتكليف - - على حسب المصطلح الإسلامي - الوظيفة التي ندب الله لها البشر على هذه الأرض، وقد عبر عن

1) تحدثنا بتفصيل عن هذه المسألة في رسالة (أسرار الأقدار)، وبعض ما نذكره هنا ملخص منها بحسب ما يقتضيه المقام.

هذه الوظيفة في القرآن الكريم تعابير مختلفة، لكل منها دلالته الخاصة، ولكل منها علاقته بالعدل الإلهي في التكليف.

فقد عبر عن التكليف بكونه أمانة، كما قال تعالى:﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب:72)، ثم قال بعدها:﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الأحزاب:73)

فهاتان الآيتان تجمعان جميع دلائل العدالة الإلهية في تكليف الإنسان:

وأول ذلك أن الإنسان خير في قبول التكليف، فقبله عن طواعية تامة ورضى خالص، بل إنه تعالى ــ من باب العدالة المطلقة ــ قدم عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، ليكون للإنسان أسوة في حال الامتناع، ولكنه رضي عن طواعية تامة بهذا التكليف.

وجاء في الآية الثانية الإخبار بالجزاء الذي يرتبط بالقدر الذي تؤدي به الأمانة لا بأي ارتباط آخر، وهو ما يقتضيه العدل.

أما إخباره تعالى بأن الإنسان ظلوم جهول، ففيه دلالة قوية على السر الذي جعله مستعدا لتحمل الأمانة، فظلمه يحمل بذور العدل، وجهله يحمل طاقة التعلم، فكانت طاقاته التي وهبها تؤهله لهذا التكليف.

وعبر عن التكليف - أيضا- بالخلافة، كما قال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:30)

فليس المراد بالخلافة التي تتحدث عنها الآية الكريمة الخلافة الممثلة في شخص آدم عليه السلام، بل هي شاملة للجنس البشري كله، بدليل أن ما تخوف منه الملائكة من الإفساد في الأرض وسفك الدماء لم يتحقق في آدم عليه السلام، وإنما تحقق في البشرية على امتدادها التاريخي.

وقد أشارت آيات كريمة أخرى إلى هذا الإستخلاف العام، ومنها قوله تعالى على لسان هود عليه السلام لقومه:﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ (لأعراف: من الآية69)، وقوله تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ

الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً﴾ (فاطر:39)

وهذه النصوص جميعا، والتي ورد التعبير فيها عن التكليف بالخلافة تشير إلى عدالة الله المطلقة:

فالتعبير بالخليفة، أو اصطلاح (الخلافة) نفسه يقتضي حرية المكلف فيما استخلف فيه وعدم تقيده إلا بالموازين التي أمره مستخلفه بإقامتها.. فالخلافة مسؤولية، والمسؤولية لا يقوم بها إلا الكائن الحر، فبدون الاختيار والحرية لا تتحقق المسؤولية.

ولهذا استنتجت الملائكة من إخبار الله لها بأنه سيجعل خليفة على الأرض أنه سيجعل الكائن الحر المختار، ومثل هذا يمكن أن يصلح في الأرض، ويمكن أن يفسد فيها، لأن الاختيار والإرادة تسويان بين الجهتين.

وفي قوله تعال:﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس:14)، وقوله تعالى على لسان موسى ﴿:عليه السلام عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (لأعراف: من الآية129) إشارة إلى هذه الحرية التي أوتيها الإنسان ليستقيم تكليفه، فقد عبر تعالى عن غاية التكليف بأنها مجرد النظر إلى أعمالهم، لا حملهم على أعمالهم أو إجبارهم عليها، كما قال ﷺ:(إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء)(1)

والله تعالى مع إخباره عن علمه بحقيقة هذا الخليفة والذي رد به على الملائكة، لم يحاسب الخلق على علمه فيهم، بل ترك لأعمالهم المجال لذلك.

ثم إن الله تعالى أشار في هذه الآيات إلى أن نتيجة الاستخلاف هي التي تحدد مصير الإنسان، فتجعله من الكافرين أو من المؤمنين قال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً﴾ (فاطر:39)

وعبر عن التكليف - كذلك- بالعبادة،كما قال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذريات:56)، فقد حصر الله تعالى غاية الخلق في هذه الآية في العبادة.

وقد وردت النصوص الكثيرة في القرآن الكريم تخبر عن هذه

---

1) رواه مسلم.

الغاية التي هي تفسير للأمانة والخلافة السابق ذكرهما، ومن ذلك قوله تعالى في إخباره عن الغاية من إرسال الرسل:﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: من الآية36)، وقال تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الانبياء:25)، وقال تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الانبياء:25)

قلت: فالتكليف الذي كلف البشر بأدائه إذا هو العبادة.. فما معنى العبادة؟.. وهل للتكليف بالعبادة علاقة بالعدل الإلهي؟

قال: لقد اتفقت هذه الأمة على أن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والاعمال الباطنة والظاهرة، كالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الامانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها من ألوان العبادات.

وتشمل كذلك ما له علاقة بالأحوال والمعارف كحب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وغيرها.

وهذه الألوان جميعا، والتي تتلون بها عبادة الله تعالى، تستلزم ركنين:

الركن الأول هو الذلة المطلقة لله، كما يقال: طريق معبد اذا كان مذللا قد وطئته الاقدام.

والركن الثاني هو كون ذلك الخضوع ناشئا عن طواعية تامة لله تعالى، وهذا هو الجانب الذي أبته السموات والأرض من تحمل الأمانة، لأن الركن الأول من العبادة، وهو الخضوع المطلق لله،والذي لا سلطة للخاضع فيه ولا اختيار هو عمل الكون جميعا، كما قال تعالى:﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (الانبياء:19)، وقال تعالى:﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (الرعد:15)، وقال تعالى:﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران: من الآية83)

***

قلت: فما علاقة العبادة بعدالة التكليف؟

قال: إنها علاقة واضحة ظاهرة..فالله تعالى لم يكلف خلقه أن يعبدوه أو يعرفوه أويحبوه رغم أنوفهم، بل ترك ذلك لعقولهم وقلوبهم لتعبد الله عن طواعية تامة واختيار تام، ثم تتحمل بعد ذلك نتيجة اختيارها.

قلت: ولكني سمعت بأن من المسلمين من يقولون بالجبر، معللين بذلك بأن من أركان الإيمان الإيمان بالقضاء والقدر.

قال: لقد أساء هؤلاء فهم الإيمان بالقضاء والقدر.. فليس المراد منه ما يفهمون.

قلت: لقد قرأت لعلماء كبار يقولون هذا.

قال: إما أنك لم تفهمهم وإما أنهم مخطئون..

لقد حدثني آبائي عن آبائهم من آل رسول الله ﷺ.. وهم أعرف الخلق بالله، وبمراد الله، وبدين الله.. أن رجلا دخل على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فقال: أخبرنا عن خروجنا إلى أهل الشام أبقضاء من الله وقدر؟ فقال له أمير المؤمنين: (أجل ياشيخ! فوالله ما علوتم تلعة ولا هبطتم بطن واد إلاّ بقضاء من الله وقدر)، فقال الشيخ: عند الله أحتسب عنائي ياأمير المؤمنين! فقال: (مهلا ياشيخ! لعلّك تظنّ قضاءاً حتماً وقدراً لازماً، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والأمر والنهي والزجر، ولسقط معنى الوعد والوعيد، ولم تكن على مسيء لائمة، ولا لمحسن محمدة، ولكان المحسن أولى باللائمة من المذنب، والمذنب أولى بالإحسان من المحسن، تلك مقالة عبدة الأوثان وخصماء الرحمن، وقدريّة هذه الأُمّة ومجوسها، ياشيخ! إنّ الله عزّوجلّ كلّف تخييراً، ونهى تحذيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعص مغلوباً، ولم يُطع مكرهاً، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا، ذلك ظنّ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار)

فنهض الشيخ وهو يقول:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته
يوم النجاة من الرحمن غفرانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً
جزاك ربّك عنّا فيه إحسانا

وذكر بعضهم الجبر والتفويض عند الإمام الرضا، فقال: ألا أُعطيكم في هذا أصلا لا تختلفون فيه ولا يخاصمكم عليه أحد إلاّ كسرتموه؟ قلنا: إن رأيت ذلك.. فقال: (إنّ الله عزّوجلّ لم يُطع بإكراه، ولم يُعص بغلبة، ولم يهمل العباد في ملكه، هو المالك لما

ملّكهم، والقادر على ما أقدرهم عليه، فإن ائتمر العباد بطاعته لم يكن الله عنها صادّاً، ولا منها مانعاً، وإن ائتمروا بمعصيته فشاء أن يحول بينهم وبين ذلك فعل، وإن لم يحل وفعلوه فليس هو الذي أدخلهم فيه)، ثمّ قال: (من يضبط حدود هذا الكلام فقد خصم من خالفه)

وسأل زنديق الحسين، فقال: أخبرني عن الله عزّوجلّ كيف لم يخلق الخلق كلّهم مطيعين موحّدين وكان على ذلك قادراً؟ فقال: (لو خلقهم مطيعين لم يكن لهم ثواب، لأنّ الطاعة إذا ما كانت فعلهم لم تكن جنّة ولا نار، ولكن خلق خلقه فأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته واحتجّ عليهم برسله، وقطع عذرهم بكتبه ليكونوا هم الذين يطيعون ويعصون، ويستوجبون بطاعتهم له الثواب، وبمعصيتهم إيّاه العقاب)

قال الزنديق: فالعمل الصالح من العبد هو فعله، والعمل الشرّ من العبد هو فعله؟

قال الحسين: العمل الصالح العبد يفعله والله به أمره، والعمل الشرّ العبد يفعله والله عنه نهاه..

قال الزنديق: أليس فعله بالآلة التي ركّبها فيه؟

قال الحسين: نعم، ولكن بالآلة التي عمل بها الخير قدر بها على الشرّ الذي نهاه عنه.

قال الزنديق: فإلى العبد من الأمر شيء؟

قال الحسين: ما نهاه الله عن شيء إلاّ وقد علم أنّه يطيق تركه، ولا أمره بشيء إلاّ وقد علم أنّه يستطيع فعله لأنّه ليس من صفته الجور والعبث والظلم وتكليف العباد ما لا يطيقون.

قال الزنديق: فمن خلقه الله كافراً يستطيع الإيمان وله عليه بتركه الإيمان حجّة؟

قال الحسين: إنّ الله خلق خلقه جميعاً مسلمين، أمرهم ونهاهم، والكفر اسم يلحق الفعل حين يفعله العبد، ولم يخلق الله العبد حين خلقه كافراً، إنّه إنّما كفر من بعد أن بلغ وقتاً لزمته الحجّة من الله فعرض عليه الحقّ فجحده، فبإنكاره الحقّ صار كافراً.

قال الزنديق: فيجوز أن يقدّر على العبد الشرّ ويأمره بالخير وهو لا يستطيع الخير أن يعمله ويعذّبه عليه؟

قال الحسين: إنّه لا يليق بعدل الله ورأفته أن يقدّر على العبد الشرّ ويريده منه، ثمّ يأمره بما يعلم أنّه لا يستطيع أخذه، والإنزاع

عمّا لا يقدر على تركه، ثمّ يعذّبه على تركه أمـره الـذي علم أنّـه لا يستطيع أخذه)

وسئل: هل منع الله عمّـا أمـر بـه؟ وهـل نهى عمّـا أراد؟ وهـل أعان على ما لم يرد؟

فقال: أمّا ما سألت: هل منع الله عمّا أمر بـه؟ فلا يجـوز ذلـك، ولو جاز ذلك لكان قد منع إبليس عن السجود لآدم، ولو منع إبليس لعذره ولم يلعنه.

وأمّا ما سألت: هل نهى عمّا أراد؟ فلا يجوز ذلك، ولو جاز ذلـك لكان حيث نهى آدم عن أكل الشجرة أراد منه أكلها، ولـو أراد منـه أكلها ما نادى عليه صبيان الكتاتيب:﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121) ﴾ (طه)، والله تعالى لا يجوز عليه أن يأمر بشيء ويريد غيره.

وأمّا ما سألت عنه من قولـك: هـل أعـان على مـا لم يـرد؟ فلا يجــوز ذلــك، وجــلّ اللــه تعــالى عن أن يعين على قتــل الأنبيــاء وتكذيبهم، وقتل الحسين بن علي والفضلاء من ولـده، وكيـف يعين على مـا لم يـرد، وقـد أعـدّ جهنّم لمخالفيـه، ولعنهم على تكـذيبهم لطاعته، وارتكـابهم لمخالفتـه ; ولـو جـاز أن يعين على مـا لم يـرد لكان أعان فرعون على كفـره وادّعائـه أنّـه ربّ العـالمين! أفـترى أراد الله من فرعون أن يدّعي الربوبية؟)

***

قلت: لا بأس.. سلمت لك بهذا.. ولكن كيـف يكـون العـدل في التكليف، والبشر يتعرضـون لاختبـارات مختلفـة متناقضـة؟.. فهـذا يختبر بالفقر.. وهذا يختبر بالغنى.. وهذا يبتلى بالصحة.. وهـذا يبتلى بــالمرض.. وهــذا يعيش في الصــحارى القاحلــة أو في الأراضــي المتجمـدة.. وهـذا يعيش في السـهول اليانعـة، والجنـان الوارفـة.. وهذا يعمر إلى أن تمل الأيام مرآه.. وهذا يختطف، فلا يكاد تبصـره الحياة، ولا يكاد يبصرها.. وهذا يقبل عليه الخلق، بـل يتفـانون فيـه، وهذا يعرضون عنه، بل يسارعون في أذاه.

ألا تحمل هـذه الاختبـارات المتناقضـة علامـات الجـور والظلم؟ فكيف يستوي في الامتحان كل هؤلاء وحياتهم لم تستو؟ (1)

قال: إن ما نـراه ممـا نتوهمـه تناقضـا هـو في الحقيقـة منتهى العدالة والحكمة والرحمة الإلهية..

قلت: كيف ذلك؟

---

1) ذكرنا الجواب المفصل على هذا في رسالة (أسـرار الأقـدار)، ومـا نـذكره هنـا هـو ملخص مختصر منه.

قـال: ألم تخـرج يومـا لرؤيـة المباريـات الـتي تقـام للرياضـات المختلفة؟

قلت: بلى.. لقد خرجت كثيرا.. فأنـا من هـواة الرياضـة بجميـع أنواعها.. هل علي في ذلك من حرج؟

قال: لا.. لا حرج عليـك في ذلـك.. ولكن أجبـني هـل رأيت في بعض تلك المباريات مبـاراة في الملاكمـة بين العـداء الـذي يبـاري الضباء في عدوه مع بطل العالم في الملاكمة؟

قلت: لا.. ولو حدث هذا.. فسيكون نوعا من المزاح.. فلا طاقة للعداء أن ينازل الملاكم في اختصاصه.

قال: ألا ترى ذلك عدلا؟

قلت: لا شك أن ذلك مجاف للعدل.

قال: وهل من العـدل أن يكلـف السـباح المـاهر بمسـايفة من تمرن على المسايفة حتى صارت رياضته التي اختص فيها؟

قلت: لا يعقل هذا.. كما لا يعقل أن يختبر الطبيب في الهندسة، أو يختبر المهندس في التشريح.

قال: ومثل هـذا يقـال في كـل اختبـارات الـدنيا، فيسـتحيل أن يتساوى الخلق جميعا في اختبار واحد لتعدد مواهبهم وطاقاتهم.

قلت: ما غرضك من كل هذا؟

قال: ما ذكرناه في اختبـارات الـدنيا هـو نفسـه مـا يحصـل في اختبارات الله تعالى لخلقه.. فبمـا أن طاقـاتهم مختلفـة ومـواهبهم مختلفة، فلذلك من عدل الله تعالى أنه يعـاملهم بحسـب أحـوالهم المختلفة.

وهذه المعاملة ترجع إلى خبرة الله بخلقه، كما قال تعالى عنـد ذكر التنوع في بسط الرزق وقبضه:﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الـرِّزْقَ لِعِبَـادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَـدَرٍ مَـا يَشَـاءُ إِنَّهُ بِعِبَـادِهِ خَبِـيرٌ بَصِـيرٌ﴾ (الشورى:27) أي لو أعطاهم فوق حاجتهم الـتي تختلـف بـاختلاف طبائعهم وأحوالهم لحملهم ذلك على البغي والطغيان.

والشاهد هنا هو ختمـه الآيـة بإرجـاع علـة ذلـك إلى خـبرة اللـه وبصره بخلقه، كما ورد في الحديث القدسـي:(إن من عبـادي من لا يصلح إيمانه إلا بالغنى ولـو أفقرتـه لكفـر، وإن من عبـادي من لا يصلح إيمانه إلا بالفقر ولو أغنيته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالسقم ولو أصححته لكفـر، وإن من عبـادي من لا يصـلح إلا بالصحة ولو أسقمته لكفر)(1)

1) رواه الخطيب.

ويدل على هذا ما ورد في الحديث من اختبار الله لثلاثة نفر في بني إسرائيل أبرص، وأقرع، وأعمى، ليخرجوا ما يخفيه جوهرهم من صفات، فبعث ملكا فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن، قد قذرني الناس، فمسحه فذهب، وأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل، فأعطي ناقة عشراء، فقال: يبارك لك فيها.

وأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال شعر حسن، ويذهب هذا عني، قد قذرني الناس، فمسحه فذهب وأعطي شعرا حسنا، فقال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر فأعطاه بقرة حاملا، وقال: يبارك لك فيها.

وأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال، يرد الله إلي بصري، فأبصر به الناس، فمسحه فرد الله إليه بصره، فقال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم فأعطاه شاة والدا.

وبعد مدة أنتجت تلك الأنعام التي اختبروا بها، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من غنم.

وعندما اكتملت لهم النعمة عاد الملك ليختبرهم من جديد، فأتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين، تقطعت به الحبال في سفره، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ عليه في سفري، فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا؛ فأعطاك الله، فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له: مثل ما قال لهذا ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال له: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته، فقال رجل مسكين، وابن سبيل وتقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثم بك أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله بصري، وفقيرا، فخذ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك(1).

فهذا الحديث يدل على أسرار تنوع البلاء سواء للشخص الواحد

---

1) رواه البخاري ومسلم.

أو للمجتمع ككل، ولهذا يوجد في كل مجتمع من المجتمعات، بل في حياة كل شخص الاختبارات المختلفة المتناقضة التي قد يتصورها عشوائية بينما هي تسيير من الله ليظهر الإنسان ما يخفيه جوهره من صفات.

زيادة على هذا، فإن الله تعالى يختبر عباده بعضهم ببعض، فيختبر القوي بضعف الضعيف ليرى هل يعينه أم يتسلط عليه، ويختبر الغني بالفقير، هل ينفق عليه أم يستسخره، ويختبر الصحيح بالمريض هل تطغيه نعمة الصحة أم تجعله متواضعا لربه.

وإلى هذا الإشارة بالآيات القرآنية التي تذكر سر اختلاف البشر في المتاع الدنيوي كقوله تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام:165)

فقد ربطت الآية الكريمة بين التكليف الذي هو الخلافة في الأرض والاختبار باختلاف الدرجات الذي يعني التفاوت في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان، وكأنه يشير بذلك إلى ان الخلافة تقتضي هذا التفاوت.

وتشير إلى ذلك آية أخرى تبين أثر هذا التفاوت في العلاقات بين البشر والتي يتمحص عنها جوهر الإنسان وحقيقته التي تؤهله للثواب او العقاب، قال تعالى:﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف: من الآية32)

أي أن العلة في ذلك التفاوت هي أن يسخّر بعضُهم بعضاً في الأعمال، لاحتياج بعضهم لبعض.

وفي نفس الوقت، فإن الله تعالى بحكمته جعل هذه الدار مثالا مصغرا عن الدار الآخرة، فلذلك ينبه القرآن الكريم الضمائر إلى أن هذا التفاوت المحدود سيعقبه في الآخرة تفاوت لا محدود، فلذلك يقترن ذكر المتاع الدنيوي بالمتاع الأخروي، كما قال تعالى:﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ (الاسراء:21)

وقال تعالى بعد ذكر المتاع الدنيوي الذي يحرص على جمعه المترفون:﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران:15)، وقال تعالى:﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾

(الأنعام:32)

وأعطى مثالا لهذا التفاوت المحدود في الدنيا بالمقارنة مع ما ينتظر الإنسان في الآخرة من نعيم أو عقاب، كما قال تعالى:﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد:20)

ثم إن الله تعالى بعد كل هذا أخبر أنه لا يختبر الإنسان إلا في حدود ما آتاه من أشياء، كما قال تعالى:﴿ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ (المائدة: من الآية48)، وقال في الآية السابقة جامعا بين الخلافة والبلاء:﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الأنعام:165)

ولهذا تقترن العبادات بالاستطاعة، بل إن الله تعالى برحمته نوع التكاليف لينال كل امرئ ما يتناسب مع وضعه وطبيعته وحاله، فلا يميز الإنسان إلا بحسب عمله.

بل إن الله تعالى عوض من لا يستطيع عملا من الأعمال بأعمال أخرى يمكنه من خلالها أن يتدارك ما فاته، ومما يقرب هذا المعنى ما روي في الحديث أن ناسا من الفقراء قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور(1) بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به: إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة)(2).. فالنبي ﷺ في هذا الحديث أرشد الفقراء إلى ما يكنهم فعلهم ليعوضهم عن الصدقات التي لا يملكون إخراجا.

بل إن الرسول ﷺ في تقسيمه لأصناف الناس اعتبر هذه الناحية، فقال:(مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالا وعلما، فهو يعمل بعلمه في ماله، ينفقه في حقه، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا، وهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما ولا مالا وهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي

1)الدثور بالثاء المثلثة: الأموال، واحدها: دثر.

2) رواه مسلم.

يعمل، فهما في الوزر سواء) (1)

ولهذا ورد في الحديث اعتبار النية من أهم أصول الجـزاء، قـال رسول الله ﷺ:(يا أيهـا النـاس إنمـا الاعمـال بالنيـات، وإنمـا لكـل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرتـه إلى اللـه ورسـوله، فهجرتـه إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصـيبها أو امـرأة يتزوجهـا فهجرته إلى ما هاجر إليه) (2)

وبذلك.. فإن أي شخص حتى ولو كان مقعدا يمكنه أن ينال من الفضل والجزاء ما ينال أي عامـل مهمـا أوتي من قـوة، وقـد قـال النبي ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات:(لقد تـركتم بالمدينـة أقوامـا ما سرتم مسـيرًا، ولا أنفقتم من نفقـة، ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه)

فتعجبـوا، وقـالوا: يـا رسـول اللـه، وكيـف يكونـون معنـا وهم بالمدينة؟

فقال رسول الله ﷺ مبينا أن السـير إلى اللـه قـد لا يحتـاج أي جارجة من الحوارح:(حبسهم العذر)(3)

***

قلت: وعيت هذا.. ولكن لم اختلفت الشرائع التي هي الإجابات الصحيحة على اختبارات الله تعـالى، فكـان في الشـرائع مـا يميـل إلى التشـديد، ومنهـا مـا يتطلـع إلى رفـع الحـرج، بـل يجعـل ذلـك قاعدته العامة؟ أليس البشر كلهم عبيدا لرب واحـد، ويقعـون تحت اختبار واحد؟ فلماذا تختلف الإجابات؟ ولمـاذا يفضـل بعضـهم على بعض؟

قـال: الإجابـة على هـذا كالإجابـة على مـا سـبق، فاللـه تعـالى العالم بأحوال عباده ومـا يختزنـه خلقهم من مواصـفات هـو الـذي شرع لهم ما يتناسب مع تلك الأحوال.

وكمثال بسيط يقـرب هـذا المعـنى أن موسـى عليه السلام أمـر قومـه بأمر واضح بسيط هو أن يذبحوا بقرة، كما قال تعالى على لسـانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ (البقرة: من الآية67) وقـد جـاء بهـا منكـرة لتـدخل أي بقـرة في هـذا الأمـر كمـا روي عن عبيـدة السلماني قال:(لو لم يعترضوا لأجـزأت عنهم أدنى بقـرة، ولكنهم شدَّدوا فشـدَّد عليهم حـتى انتهـوا إلى البقـرة الـتي أمـروا بـذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال:(واللّه لا أنقصها من

1) رواه أحمد وهناد وابن ماجة والبيهقي والطبراني في الكبير.
2) رواه البخاري ومسلم.
3) رواه أبو داود وغيره.

ملء جلدها ذهباً، فأخذوها بملء جلدها ذهباً) (1)

وكان أول جواب لهم ينم عن سوء أدبهم أن قالوا:﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ﴾، فرد عليهم ﴿:عليه السلام أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (البقرة: من الآية67)

فعادوا إلى جدالهم ليقولوا:﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ (البقرة: من الآية68)

فقال موسى ﴿:عليه السلام إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ (البقرة: من الآية68)

فلم يكفهم هذا، بل عادوا ليسألوا:﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ (البقرة: من الآية69)

فقال موسى ﴿:عليه السلام إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ (البقرة: من الآية69)

فلم يكفهم هذا، فالأمر في تصورهم لا زال مشتبها يحتاج إلى تفصيل وتوضيح، فقالوا:﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: من الآية70)

فقال موسى ﴿:عليه السلام إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا ﴾ (البقرة: من الآية71)

وبعد هذا التردد الطويل، وتكليف موسى عليه السلام أن يرجع إلى ربه من أجل الاستفسار عن بقرة، قالوا بسوء أدبهم:﴿ الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ (البقرة: من الآية71) وكأنهم كانوا يعرفون البقرة من قبل، واكتفى القرآن الكريم بأن عقب عليهم بقوله تعالى: ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (البقرة: من الآية71)

فمثل هذا النموذج الذي يكاد يملي اختياره على الله كيف لا يشدد عليه، بل إنهم هم الذين شددوا على أنفسهم، والله الرحمن الرحيم تعامل معهم كتعامله مع الخلق جميعا برحمته التامة الشاملة.

ومن الأمثلة على هذا مما يتعلق بشريعة بني إسرائيل أن ما طبعوا عليهم من عصيان وتمرد اقتضى أن تكون شريعتهم متناسبة مع هذه الطبيعة حتى أنهم بمجرد مجاوزتهم البحر طلبوا أن يجعل لهم موسى عليه السلام شريكا مع الله، كما قال تعالى:﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (لأعراف:138)

---

1) رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه.

ولـذلك فـإنهم لم يقبلـوا شـريعة اللـه إلا بعـد أن رفـع فـوقهم الطور، كما قال تعالى:﴿ وَرَفَعْنَـا فَـوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَـاقِهِمْ وَقُلْنَـا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ (النساء:154)، وقال تعالى:﴿ وَإِذْ نَتَقْنَـا الْجَبَـلَ فَـوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَـا فِيـهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (لأعراف:171)

وكـان سـر هـذه المعاصـي أن طـبيعتهم المتأبيـة كـانت تـأبى الخضوع لغير هواها، ولذلك قالوا لموسى عليه السلام في قصة البقرة بعـد الأخذ والـرد:﴿ الْآنَ جِئْتَ بِـالْحَقِّ ﴾ (البقـرة: من الآية71)، وكـأنهم هم الـذين يحـددون الحـق، أو كـأنهم هم الـذين يحـددون للـه مـا يأمرهم به.

وهذا ما فعلوه مع رسول اللـه ﷺ حين أبـوا على اللـه أن يغـير القبلة، فسماهم الله لذلك سفهاء، فقال تعالى:﴿ سَيَقُولُ السُّـفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ (البقـرة: من الآية 142)، ثم رد عليهم بقوله تعالى:﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة: من الآية142)

انطلاقـا من هـذا أخـبر اللـه تعـالى أن هـذه الطبيعـة القاسـية المتأبيـة هي السـر فيمـا لحـق شـريعتهم من التشـديد، كمـا قـال تعـالى:﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَـادُوا حَرَّمْنَـا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً وَأَخْـذِهِمُ الرِّبـا وَقَـدْ نُهُـوا عَنْـهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَـذَاباً أَلِيمـاً﴾ (النسـاء: 160ـ 161)، أي بسبب ظلمهم وصدهم عن سبيل الله وغير ذلـك من الآثام شدد عليهم فحرمت عليهم الطيبات كان أصلها حلالا.

وقـد ذكـر القـرآن الكـريم بعض النمـاذج عن هـذه الطيبـات المحرمة، كما قال تعالى:﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُـلَّ ذِي ظُفُـرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَـا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَـا أَوِ الْحَوَايَـا أَوْ مَـا اخْتَلَـطَ بِعَظْمٍ ذَلِـكَ جَزَيْنَـاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَـادِقُونَ﴾ (الأنعام:146)

فعلة هذا التحريم كما نصت الآية الكريمة هو أنه جزاء يتناسـب مـع بغيهم وعـدوانهم، كمـا قـال تعـالى في الآيـة الأخـرى:﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (النحل:118)

والقرآن الكريم ينص على أن هذه المحرمات كـان أصـلها حلالا لبني إسرائيل لولا أن تدخلوا بأهوائهم أو ألحوا في السـؤال فحـرم

عليهم ما أحل لهم، كما قال تعالى:﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران:93)

هذا نموذج عن أثر الطبيعة في نوع الأحكام والشرائع..

وهو أمر غير مستغرب عقلا ولا واقعا، فالقوانين المنظمة لحياة المساجين ليست نفس القوانين المنظمة لحياة الطلبة، لأن طبيعة كل واحد تحتم أن يوضع لها قانون خاص يتناسب معها.

ومن رحمة الله أن الشريعة الخاتمة، والتي لم تكن معلقة بطائفة معينة أو زمن معين كان من خصائصها رفع الإصر الذي وجد في الشرائع السابقة، كما قال تعالى:﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: من الآية157)

ولذلك عبر عنها بأنها شريعة الفطرة، أي تتناسب مع الفطرة السليمة التي لم تتأثر بالمؤثرات الخاجية، كما قال تعالى:﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم:30) بخلاف شريعة بني إسرائيل التي شرعت لفطرة انتكست وانحرفت عن مسارها.

ولهذا عندما عرض على رسول الله ﷺ ليلة الإسراء الخمر واللبن، فتناول رسول اللّه ﷺ اللبن، فقال له جبريل عليه السلام:(أصبت الفطرة) (1)فاللبن باق على أصل خلقته، بخلاف الخمر الذي تحول بالتخمر عن طبيعته.

3 ـ المدد

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن الكلمة الثالثة.. حدثني عن المدد.. ما تريد به؟

قال: أمن العدل أن يرسل الجندي إلى المعركة من غير أن يدرب على خوضها، أو من غير أن يحمل السلاح الذي يعينه على خوضها؟

قلت: لا.. ليس من العدل ذلك.. بل إن من يفعل ذلك يوشك أن لا يريد به إلا إصابة الجندي في مقاتله.

قال: وكذلك من عدل الله أن أمد الله جنده من المكلفين بما

1) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

يعينهم على المعركة التي كلفوا بخوضها.
قلت: أي معركة؟
قال: ألم تعلم أن الله استودع للإنسان أمانة، وطالبه بأدائها؟
قلت: ولكن هذه ليست معركة.. فتحمل الأمانة ليس فيه شيء من الصراع.
قال: لا.. فيه صراع كبير.. هناك صراع من داخل النفس.. وهناك صراع من خارجها.
قلت: صراع من داخل النفس!؟
قال: أجل.. لقد ذكرت لنا النصوص المقدسة أن الإنسان زود بطاقات يمكن أن تستعمل في الخير، ويمكن أن تستعمل في الشر(1).. ولذلك فإن الإنسان سيحتاج إلى نوع من الحرب مع نوازع الشر التي تريد أن تزاحم نوازع الخير فيه.
قلت: وعيت هذا.. فما العدو الخارجي الذي يتربص بالإنسان.
قال: الشيطان.. الشيطان هو العدو الأكبر الذي أقسم أن يغوي الإنسان لينصر طاقات الشر فيه.. لقد ذكر الله لنا ذلك، وحذرنا منه.. قال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (116) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (117) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (118) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (119) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (120)﴾ (النساء)، وقال مخبرا عن مقالة الشيطان يوم أمر بالسجود لآدم:﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85)﴾ (ص)
قلت: وعيت هذا.. فما المدد الذي أعين به الإنسان على خوض هذه المعركة.. وما مدى العدل الذي في هذا المدد؟
قال: مدد كثير.. كله من فيض الله الهادي..
قلت: فاذكر لي منه ما يجعلني أعي ما تقول.
قال: سأذكر لك أربعة أنواع من المدد الإلهي وردت بجميعها

---

1) سنرى التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (أسرار الإنسان) من هذه السلسلة.

نصوصنا المقدسة.

طاقات:

قلت: فما المدد الأول؟

قال: المدد الأول هو ما زود به الإنسان من طاقات لأداء ما طلب منه من تكليف، ومواجهة ما يواجهه من صراع.. لقد ذكر الله تعالى لنا هذا بعد ذكره إرادته في جعل الإنسان خليفة على الأرض، فقد قال بعدها: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:31)

ففي هذه الآية الكريمة نستشف الكثير من الحقائق المرتبطة بمؤهلات التكليف، ومنها أن الله تعالى ــ لجعل آدم عليه السلام خليفة ـ وفر له من العلم ما يستطيع أن يؤدي بها مهمة الخلافة.

وقد عبر الله تعالى عن هذا العلم الذي أوتيه الإنسان في بدء الخلق بأنه علم الأسماء كلها.. وهي تعني معاني كثيرة كلها لها علاقة بالطاقات التي يحتاج إليها الإنسان لأداء وظيفتها.

قلت: فما هذه الأسماء؟

قال: منها الأسماء التي تتعلق بما استخلف فيه، وهو كل ما يتعلق بحياته على الأرض من معارف أساسية، ومن لغة يستطيع بواسطتها بناء علاقاته وإنماء معارفه.

وإلى هذا النوع الإشارة بالروايات الواردة عن سلفنا الصالح، ومن ذلك ما روي عن ابن عباس من قوله:(علمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها)، وعن سعد مولى الحسن بن علي قال:(كنت جالسا عند ابن عباس فذكروا اسم الآنية واسم السوط، قال ابن عباس (وعلم آدم الأسماء كلها)، وقال ابن عباس:(علمه أسماء كل شيء حتى الجفنة والمحلب)(1)

وهذه الروايات كلها تدل على أن اللغة مأخوذة توقيفا، وأن الله تعالى علمها آدم عليه السلام جملة وتفصيلا، ولم يرد في النصوص ما يحدد هذه اللغة التي علمها آدم عليه السلام، لعدم الحاجة إلى ذلك.

وروي من جهة أخرى ما يدل على أن آدم عليه السلام عرف بخصائص الأشياء التي يتعامل معها ومنافعها ومضارها، وفي هذا روي عن قتادة قال: علم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يعلم الملائكة، وسمي كل شيء باسمه وأنحى منفعة كل شيء إلى جنسه.

وهذا يدل ـ كذلك ــ على ان المعارف الأساسية للإنسان في جميع المجالات معارف توقيفية لا اجتهادية.

---

1) انظر في هذه الروايات: الدر المنثور:1/120.

ومنهـا الأسـماء المتعلقـة بالمسـتخلف عليـه.. وهـو أيضـا من المعارف الأساسية التي يحتاج إليها في أداء وظيفة الخلافة..

قلت: ما تعني بهذا؟

قال: لقد ورد في نصوصنا المقدسة الإخبار بـأن جميـع الكـون، دقيقه وجليله يستند إلى أسماء اللـه الحسـنى الـتي تمـده بمعـاني الوجود التي هو عليها.

ويدل على هـذا أن القـرآن الكـريم لم يـذكر كلمـة (الأسـماء) معرفـة إلا وأراد بهـا الأسـماء الحسـنى، كمـا قـال تعـالى:﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْـمَاءُ الْحُسْـنَى فَـادْعُوهُ بِهَـا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِـدُونَ فِي أَسْـمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف:180)، وقال:﴿ قُلِ ادْعُـوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلا تَجْهَرْ بِصَـلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ (الاسراء:110)، وقال:﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (طـه:8)، وقـال:﴿ هُـوَ اللَّهُ الْخَـالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَـوِّرُ لَـهُ الْأَسْـمَاءُ الْحُسْـنَى يُسَـبِّحُ لَـهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر:24)

أما الأسماء الواردة نكـرة، فلهـا بعض الدلالـة، لأنهـا وردت في التسميات الخاطئة للأوثان التي عبدت من دون الله، وكـأن أسـماء الله بذلك أعيرت ـ من باب الشرك ـ لتلك الأوثان، قـال تعـالى عن يوسف ﴿:عليه السلام مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَـمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَـاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُـلْطَانٍ﴾ (يوسـف: من الآية40)، وقـال:﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَـا مِنْ سُـلْطَانٍ﴾ (لنجم: من الآية23)

قلت: وعيت هذا، ولكن كيـف ذكـر قـرآنكم أن الملائكـة جهلت معرفة الأسماء مع ما لها من القرب من الله؟

قال: ذلك يرجع إلى أن أسـماء اللـه لا يحصـرها الحاصـر، وهي تتعلق بكل الأشياء.. ولذلك لا يعرف شيء منها إلا من له علاقة به.

فالملائكة ـ عليهم السلام ـ مفطورون على الطاعة، وتسـتحيل في حقهم المعصية، فلـذلك قـد لا يـدركون من أسـماء اللـه الـتي يعرفونهـا مـا يتعلـق بـالمغفرة والتوبـة، فـذلك لمـا عرضـت هـذه الأسماء أخـبروا عن جهلهم بهـا وردوا العلم فيهـا إلى اللـه.. ولعلـه لأجل هذا أسرع آدم عليه السلام بالتوبة بمجرد اقتراف المعصية لمـا علمـه من أسماء الله المقتضية لذلك.

رسل:

قلت: إن كـل مـا ذكـر من مـؤهلات التكليـف يخص آدم عليه السلام،

فكيف يكون العدل في تكليف البشرية جميعا بمؤهلات وهبت لفرد منها؟

قال: مع أن المعارف التي تلقاها آدم ﷺ ورثها لذريته، إلا أن رحمة الله تعالى لم تكتف بهذا التوريث الذي قد يدخل فيه من التحريف ما ينحرف به مسار الإنسان، بل زودت الإنسان بمدد آخر هو المدد الثاني.. وهو من أهم الأمداد.

قلت: فما هو؟

قال: لقد زود الله الإنسان بمعلمين دائمين للأسماء والحقائق، ولهذا قال تعالى لآدم ﷺ بعد نزوله إلى الأرض:﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: من الآية38)

ولذلك أخبر تعالى أنه لم يخل القرى من الأنبياء والرسل المقومين لأقوامهم والمعرفين بالفطرة الأصلية، والمعلمين للأسماء، والهادين إلى الإجابات الصحيحة على اختبارات التكليف، قال تعالى:﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر:24)، وقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل:36)

فهاتان الآيتان الكريمتان تدلاَّن على أن كل الأمم السابقة أرسل الله لها من ينذرها، ويعرفها بوظيفتها، وبمقتضيات هذه الوظيفة، ولذلك نبه من قد يتصور أن الأنبياء مقصورون على ما ورد ذكرهم في القرآن الكريم إلى وجود غيرهم، فقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (غافر: من الآية78)

ولذلك من الأخطاء الشائعة اعتقاد النبوة خاصة بمناطق معينة كالشام والحجاز ونحوها، بل على سلالات معينة كسلالة إبراهيم ﷺ، بل إن النبوة تشمل الأرض جميعا، ولكن القرى لم تلق بالا لهؤلاء الأنبياء، فلذلك نسوا، وأهمل ذكرهم،أو حرفت تعاليمهم (1).

---

1) للأسف، فإن المؤرخين المسلمين ــ ابتداء من الطبري وغيره ــ تأثروا بالتاريخ الإسرائيلي، فراحوا ينقلونه حرفيا معتبرين أنه حقائق ثابتة، وقد نقله عنهم كثير من كتاب قصص الأنبياء.

والناظر في هذا التاريخ يكاد يحصر الخير والنبوة في محل معين من العالم.. وأن ما عداه كأنه لا علاقة له بالله، ولا بالتكاليف.. وقد ورد في الحديث عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: (مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا). قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: (ثلاثمائة وثلاثة عشر جَمّ غَفِير) قلت: يا رسول الله، من كان

ولذلك كان من عدل الله ورحمته بخلقه أن لا يحاسبهم إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالى:﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (الأنعام:131) أي إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب لئلا يؤاخذ أحد بظلمه وهو لم تبلغه دعوة، ولكن أعذرنا إلى الأمم وما عذبنا أحد إلا بعد إرسال الرسل إليهم.

ولهذا تستفهم الملائكة ـ عليهم السلام ـ المعذبين عن إرسال الرسل إليهم بمجرد إلقائهم في العذاب، كما قال تعالى:﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ (الملك:8 ـ 9)، وقال تعالى:﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (الزمر:71)، وقال تعالى:﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (فاطر:37)

وقد بين الله تعالى سنته في ذلك ـ والتي لا تبديل لها ــ فقال تعالى:﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الاسراء: من الآية15)

قلت: ولكن الرسل معدودون ومحدودون.. وأنت ترى أن أجيالا مرت على البشرية لم يرسل لها فيها رسول واحد.

قال: لقد تفضل الله على عباده برحمته، فأنزل عليهم كتبا فيها كلامه لهم.. ليعرفهم فيها بنفسه، وبحقيقتهم، ووظيفتهم، ويدعوهم بكل الأساليب ليتخلصوا بها من كل الحجب، ويقضوا على كل العصابات التي تحول بينهم وبين الامتحان العظيم الذي أعده لهم.

وكتب الله لا تعد ولا تحصى، وكلمات الله إلى خلقه لا تنفذ، قال تعالى:﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً) (الكهف:109)، وقال تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (لقمان:27)

والله تعالى ـ برحمته ـ أمد عباده في أول لحظة احتاجوا فيها إلى كلماته ليضمدوا بها الجراح التي أحدثتها فيهم عصابات الغفلة،

أولهم؟ قال: (آدم) قلت: يا رسول الله، نبي مرسل؟ قال: (نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ثم سَوَّاه قِبَلا) رواه ابن مردويه وغيره.

قال تعالى:﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (البقرة:37)

وظلت هذه الكلمات هي السيف الأعظم الذي يحطم حجب الغفلة، ويقضي على عصاباتها، قال تعالى:﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) (يونس:82)

وسر ذلك يرجع إلى التأثير العظيم الذي جعله الله في هذه الكلمات، قال تعالى:﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (الحشر:21)

والبشرية التي تاهت عن الله، فاستحقت بذلك أن تطبق عليها قوانين العدالة الإلهية لم تته لأن الله حرمها من كلماته، وإنما تاهت لأنها احتقرت كلمات الله، أو تدخلت فيها كما يتدخل المجرمون، فيحولون من القوانين وسائل إجرام، قال تعالى عن المبدلين الذي تدخلوا في كتب ربهم ينسخونها بما ينسجم مع أهوائهم:﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (78)﴾ (آل عمران)

وقال تعالى:﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80)﴾ (البقرة)

ولو أن هذه البشرية تخلصت من أهوائها، وراحت تقرأ رسائل ربها بصدق، فإنها تجد الحق أمامها أقرب إليها من كل شيء، قال تعالى:﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (43) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44)﴾ (المائدة)

وقال تعالى:﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (46) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (

47) ﴾ (المائدة)

وفي تلك اللحظات ستنزل عليهم جميع بركات الله التي حجبتها عنهم عصابات الغفلة، قال تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (66)﴾ (المائدة) (1)

قلت: ولكن كلمات الله قد يساء فهمها، وهي على العموم لا تغني عن المبلغين والشارحين.

قال: ولذلك كان من رحمة الله وعدله بين عباده أن جعل في البشر خلفاء للرسل يحفظون هديهم.. ولا يخلو منهم زمان.. لتقوم بهم الحجة على عباده، قال تعالى:﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) (فاطر:32)

وقال رسول الله ﷺ:(لا نزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله)(2)

وقال:(لن تخلو الارض من ثلاثين مثل ابراهيم خليل الرحمن، بهم تغاثون، وبهم ترزقون، وبهم تمطرون)(3)

وقال:(إن أبدال أمتي لم يدخلوا الجنة بالاعمال ولكن إنما دخولها برحمة الله، وسخاوة الانفس، وسلامة الصدر، ورحمة لجميع المسلمين)(4)

فهذه الأحاديث وغيرها كثير يثبت لطف الله بعباده.. فكل من احتاج الوصول في أي لحظة وجد من يدله عليه(5).

ولهذا، فإن الله تعالى لا يقيم الساعة إلا بعد أن تنفذ الأرض من أوليائه، قال ﷺ:(لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الارض: الله الله)(6)، وقال: (لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس)(7)

أجواء:

قلت: وعيت هذا.. فما المدد الثالث؟

---

1) يسيء كثير من المبشرين فهم مثل هذه النصوص، فيتصورون بذلك أن القرآن الكريم الذي نص على تحريف كتبهم هو الذي دعاهم إلى الرجوع إليها، وأنهم بذلك على الحق، وقد رددنا على هذه الشبهات بتفصيل في رسالتي (أنبياء يبشرون بمحمد)، و(الكلمات المقدسة)

2) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي.

3) رواه ابن حبان في تاريخه عن أبي هريرة.

4) رواه البيهقي في الشعب.

5) انظر تفاصيل ذلك في رسالة (أهل الله) من هذه المجموعة.

6) رواه أحمد ومسلم والترمذي.

7) رواه أحمد.

قال: المدد الثالث هو تفريغ الإنسان للاختبار بتيسير حياته على الأرض، بحيث لا يستهلك وقته في رعاية جسده وحفظ وجوده.. ويشير إلى هذا قوله تعالى عقب الآية المخبرة عن غاية الخلق:﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ (الذريات:57)، ثم تعقيبها بقوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (الذريات:58)

ففي ذلك كله إشارة إلى تفريغ الإنسان إلى ما طلب منه من مزاولة الخلافة، وأداء ما أمر به من عبادة.

وقد ورد في القرآن الكريم الكثير من النصوص الدالة على تيسير الحياة على الأرض وتوفير ما يحتاجه الإنسان من مرافق ليتفرغ للتكليف.

وهذا سر من أسرار تسخير الأشياء للإنسان ليتناول منها باسم الله ما يحتاجه وجوده على هذه الأرض، وليكون اختبارا من جهة أخرى، ولذلك يعرض القرآن الكريم أنواع المسخرات لتشير إلى مدى التفرغ الذي أوتيه الإنسان لمزاول التكليف:

ومن المسخرات المذكورة في القرآن الكريم تمهيد الأرض وتيسير الحياة عليها حتى صارت كالدابة الذلول، كما قال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك:15)

ومنها تسخير الوسط والأجواء التي يعيش فيها الإنسان كما قال تعالى:﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (ابراهيم:33)، وقال تعالى:﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل:12)، وقال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحج:65)

ومنها تسخير جميع الكائنات الحية التي على الأرض للإنسان، كما قال تعالى:﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الحج:37)، وقال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:14)

بل إن القرآن الكريم يخبرنا عن تسخير ما في السموات كتسخيره ما في الأرض للإنسان، كما قال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ

سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (لقمان:20)، وقال تعالى:﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية:13)

ومن خلال ما ورد في النصوص، فإن الغرض من هذا التسخير ليس هو تفريغ الإنسان لعبودية الله فقط، بل هناك غرض آخر يرتبط بالتكليف، وهو اختبار سلوك الإنسان مع هذه المسخرات، هل يتعامل معها باسم الله، أم باسمه هو، وهل ينسبها إلى الله أم ينسبها إلى نفسه، ولذلك عقب تعالى على تسخير الحيوانات المركوبة بقوله تعالى:﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف:13)

وقد ورد في النصوص ما يدل على أن المقصد من تفريغ الإنسان عبادته لله، كما قال تعالى:﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴾ (الشرح:7)، أي إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها، وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة، وقم إليها نشيطاً فارغ البال، واخلص لربك النية والرغبة.

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ (المزمل:8)، أي أكثر من ذكره، وانقطع إليه، وتفرغ لعبادته.

وقد ورد في الحديث القدسي:(يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك)(1)

وإلى هذا المعنى أشار الأثر الإلهي المشهور:(ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، فاطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء)

ولذلك يشير العارفون إلى هذا المعنى في تربية السالكين حتى لا ينشغلوا بما ضمن لهم عما طلب منهم، كما قال ابن عطاء الله معبرا عن ذلك:(اجتهادُكَ فيما ضَمِنَ لكَ، وتقصيرُكَ فيما طَلَبَ منكَ، دليلٌ على انْطماسِ البصيرةِ منْكَ)

أنوار:

قلت: وعيت هذا.. فما المدد الرابع؟

---

1) رواه أحمد والترمذي والحاكم.

قال: مـا بثـه اللـه من أنـوار الهدايـة.. فهي كالمصـابيح تضـيء للسالكين إلى الله دروب الهدى.

قلت: فما هذه الأنوار؟

قال: أعظمها نور الله.. فمن عرف الله تعالى رأى كـل مـا في الكون أنوارا من أنوار الهدايـة، فكـل شـيء يـدل على اللـه، وكـل شيء يعرف بالله، حتى ما نتصوره من حجب تحجب عن اللــه هي في حقيقتها أدلة على الله وهادية إليه.

فإن من أسمائه تعالى النور والظاهر والهادي، فهو النـور الـذي اسـتمدت منـه جميـع الأشـياء وجودهـا، قـال تعـالى:﴿ اللَّهُ نُـورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (النور: من الآية35)

وهو الهادي الذي دل على نفسه بكل شيء ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَـاقِ وَفِي أَنْفُسِـهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَـقُّ أَوَلَمْ يَكْـفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت:53)

فكيف بعد هذا يتصور أن يحتاج إلى ما يـدل عليـه و﴿ هُـوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد:3)

وكيف يتصور أن يحتاج إلى ما يدل عليه، و(جميع ما في العالم شـواهد ناطقـة وأدلـة شـاهدة بوجـود خالقهـا ومـدبرها ومصـرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته) (1)

فإن كان البشر يستدلون بعقولهم التي يتيهون بها على الكــون على حياة الكاتب وليس لها من شاهد إلا ما أحسسنا به من حركـة يده، (فكيف لا يظهر عندنا مـا لا يتصـور في الوجـود شـيء داخـل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمتـه وجلالـه، إذ كـل ذرة فإنها تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودهـا بنفسـها ولا حركتهـا بذاتها، وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها يشهد بذلك)

ولهذا لا يرى العارف الذي أعمـل مـا أعطـاه اللـه من طاقـات ومــواهب (إلا اللــه تعــالى، ولا يعــرف غــيره، يعلم أنــه ليس في الوجود إلا الله، وأفعاله أثر من الآثار قدرته فهى تابعة له، فلا وجود لها بالحقيقة دونه، وإنما الوجود للواحد الحق الذى به وجود الأفعال كلها، ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويــرى فيــه الفاعـل، ويـذهل عن الفعـل من حيث إنـه سـماء وأرض وحيـوان وشجر،بـل ينظـر فيـه من حيث أنـه صـنع الواحـد الحـق فلا يكـون نظره مجاوزا له إلى غيره)(2)

---

1) الإحياء:6/382.

2)الإحياء:6/382.

ولهذا، فإن أول نور من أنوار الهداية هـو اللـه، فاللـه هـو النـور الذي يستدل به، ولا يحتاج للاستدلال عليه.

ولهذا يقول العارفون في مناجاتهم:(إلـهي! كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور مـا ليس لك حتى يكون هو المظهر لـك؟ مـتى غبت حـتى تحتـاج إلى دليـل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟)

ويرددون مع أبي الحسن الشاذلي:(كيف يعرف بالمعـارف من به عرفت المعارف؟ أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده وجـود كل شيء)

فهذا النور من أنوار الهداية كاف واحده لإضاءة جميـع ظلمـات الكـون، وكـاف وحـده لخـرق جميـع حجب الغفلـة، ولحـرق جميـع عصابات الغواية.

قلت: أنعم به من نور.. فما غيره؟

قال: أكوان الله..

قلت: أليست الأكوان هي سبب الغفلة؟

قال: عندما ننظـر إلى الأكـوان بمنظـار الغفلـة تكـون من جنـد الغفلة ومددها.. لكنا إن نظرنا إليهـا بمنظـار اليقين والإيمـان، فإنـا سنراها مرائي تتجلى فيها الحقيقة بأكمل صورها..

ولهذا اعتبر القرآن الكريم الكون جميعا هاديا إلى اللـه ومعرفـا بالله.. ولهـذا دعـا الخلـق الغـارقين في أو حـال الجـدل إلى إغلاق أسـفارهم الـتي تبحث عن وجـود اللـه لينظـروا:﴿ إِلَى الْإِبِـلِ كَيْـفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّــمَاءِ كَيْــفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَـالِ كَيْـفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20)﴾ (الغاشية)

والله تعالى يخاطب العقـول جميعـا الـتي يتفـق البشـر جميعـا على أن لهم منها النصيب الأوفر، بل إن أكبر مسبة لهم أن يتهمهم أحـد في عقـولهم ليقـول لهم:﴿ إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْـرِ بِمَـا يَنْفَـعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:164)

ويعــرفهم بـ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَــقَ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْــزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً فَـأَخْرَجَ بِـهِ مِنَ الثَّمَـرَاتِ رِزْقـاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْـكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ (ابراهيم:32)

ويسأل عقولهم التي تشـق الشـعر بـذكائها، ليقـول لهـا:﴿ أَمَّنْ

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَـدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَـانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُـوا شَـجَرَهَا أَإِلَـهٌ مَـعَ اللَّهِ بَـلْ هُمْ قَـوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (النمل:60)

ويقول لها:﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَـا أَنْهَـاراً وَجَعَـلَ لَهَا رَوَاسِـيَ وَجَعَـلَ بَيْنَ الْبَحْـرَيْنِ حَـاجِزاً أَإِلَـهٌ مَـعَ اللَّهِ بَـلْ أَكْثَـرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (النمل:61)

ويقـول لهـا:﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْـطَرَّ إِذَا دَعَـاهُ وَيَكْشِـفُ السُّـوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (النمل:62)

ويقول لها:﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَـاتِ الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ وَمَنْ يُرْسِـلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَـعَ اللَّهِ تَعَـالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْـرِكُونَ﴾ (النمل:63)

ويقول لها:﴿ أَمَّنْ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَـرْزُقُكُمْ مِنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (النمل:64)

بعد هذا، وهو رشحة من محيـط الـدلائل على اللـه، هـل يمكن لعاقل أن يقول بأن الكون حجاب عن الله، وهـو كتـاب اللـه الـذي تجلى لعباده من خلاله.

وهـل يمكن أن نجعـل أولئـك المسـدلين حجب الغفلـة أصـلا، ونجعـل كـل هـذه الـدلائل أنـوارا كاسـفة؟.. أم نتصـور أن شـمس الكون تحجبها تلك الأكف الهزيلـة الـتي تريـد أن تحـول بين الخلـق وإبصارها؟

***

قلت: أنعم بما ذكرت من أنواع المدد.. ولكن ألا ترى أن كتابكم المقدس الذي ينص على ما ذكرت من معان هـو نفسـه من يخـبر بـأنواع كثـيرة من السـدود تمنـع الضـال من الهدايـة والكـافر من الإيمان!؟

فكيف يحطم الضال أو العاصي حصـون الختم والطبـع والأكنـة والغطاء والغلاف والحجاب والوقرة والغشاوه والران والغل والسد والقفل والصمم والبكم والعمي والصد والصرف والضلال والإغفال والمرض والخذلان والأركاس والتثبيط والتزيين التي يحدثنا القـرآن الكريم أنها حواجز منيعة تحول بين الكافر والإيمان(1)!؟

وكيف تفسـر مـا ورد في القـرآن من أن اللـه هـو الـذي وضـع الحجب التي تحول بين عباده والإيما.. فقد ورد فيه:﴿ إِنَّا جَعَلْنَـا فِي

1) انظر الإجابة المفصلة على هذه الشبهة في رسالة (أسرار الأقدار)

أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ (يّس:9) ثم ذكر نتيجة هذه السدود بقوله:﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (يّس:10)

وفيه الإخبار عن ختم الله على القلوب والأسماع:﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة:7)، وفيه:﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية:23)

قال: ألا ترى أن المجرم في أي قانون من قوانين الدنيا يحاسب ويعاقب بحسب جرائمه، فقد يكتفى بحجزه أياما معدودة، قد يتلقى فيها بعض التوجيهات، ثم يطلق لحال سبيله.

وقد تزيد جريمته، فيشتد عليه بحسبها، بل قد يحكم عليه بأن يقضي حياته محجوبا في السجن، أو يقضى عليه بالإعدام؟

قلت: صحيح هذا.. ولكن ما علاقته به؟

قال: أهذا السلوك الذي سلك مع المجرم بسبب جرائمه سلوك عادل أو ظالم؟

قلت: بل هو سلوك عادل.. وكل الفطر تسلم لذلك.

قال: فما ذكره القرآن الكريم من المصطلحات الحسية المرتبطة بهذا لا يعني إلا هذا.

قلت: لم أفهم.. كيف يحبس القلب أو كيف يختم عليه.. ثم يكون ذلك الحبس والختم عقوبة عادلة.

قال: أرأيت لو وهب للمتحنين في أي امتحان ورقة بيضاء نقية كنقاوة الفطرة الإنسانية، فاشتغل بعض الطبة بتلطيخ تلك الورقة إلى أن أصبحت ورقة سوداء لا محل فيها لأي إجابة صحيحة أو خاطئة، فهل يقال بأن مراقب الامتحان إن أخبر الممتحن العابث بأن ورقته قد طبع عليها أو ختم عليها، فليس فيها محل لأي جواب يكون المراقب قد أجبره على ذلك الطبع والختم؟

قلت: لا.. المراقب هنا يصف الحقيقة..

قال: فمثل ذلك تماما ورقة الفطرة الإنسانية، وصفحة القلب إن ملأها صاحبها بصنوف المعاصي..

لقد ورد في نصوصنا المقدسة الإشارة إلى هذا.. فالله تعالى عندما حدثنا عن شخصية المطفف المحتال الذي يتعامل مع الحقائق الكبرى انطلاقا من مصالحة الضيقة المحدودة، فتختصر

الدنيا والآخرة عنده في تلك المكاييل التي يكيل بها، وفي تلك الفوائد التي يجنيها.. بدأ فأخبرنا بمصيرهم الأخروي الذي ينتهي بهم إلى سجين، وهي السجن الضيق، وهو سجن يتناسب مع قلوبهم التي ضاقت عن الحقائق واكتفت بالمكاييل، قال تعالى:﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (8) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (9)﴾ (المطففين)

والآيات الكريمة لا تقتصر على عادة القرآن الكريم في ذكر العقوبة دون ذكر التهم الموجهة لأصحابها، فلذلك جاء بعد هذه الآيات ما يبين انسجام العقوبة مع نفسية وسلوك صاحبها، فقال تعالى:﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (16) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (17) ﴾ (المطففين)

فالآيات الكريمة تتحدث عن علة تلك العقوبة العظيمة، وهو أن هؤلاء الذين يتعرضون لصنوف الهداية من المرسلين أو من ورثتهم ينحجبون بالغفلة التي أفرزتها الأهواء في قلوبهم عن رؤية الحق أو الاستماع له، فلذلك ينسبون تلك الآيات التي يتلوها المؤمنون إلى أساطير الأولين.

وهم في ذلك يشبهون ذلك الممتحن الذي يلطخ صفحته البيضاء الطاهرة بصنوف العبث والعشوائية.

ثم بينت الآيات السبب لذلك، وهو لا يختلف عن السبب الذي جعل الممتحن يلطخ ورقة إجابته، وهو ما نص عليه قوله تعالى:﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (المطففين:14)، أي أن كسبه وعمله وحركة قلمه هي التي ملأت فطرته بقعا منحرفة حالت بينها وبين التعرف على الحق أو سلوكه.

وقد فسر ﷺ الآية بقوله:(إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك قول اللّه تعالى:﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾)(1)

وإن أردنا تمثيلا واقعيا آخر على هذا، وهو ما يكاد ينطق به هذا الحديث الشريف هو ما نعرفه في الواقع من تأثير الإدمان على الجسد، بحيث لا يملك صاحبه دفع آثاره، فالمدمن هو الذي أقبل على ما أدمن عليه باختياره، ولكنه نتيجة للمبالغة فيه وصل إلى

1) رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

حالـة المتحكم فيـه بعـد أن كـان متحكمـا في نفسـه، كمـا قـال الشاعر:

تولع بالعشق حتى عشق
فلما استقل به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة
فلما تمكن منها غرق

والقلب في ذلك كالجسد، قد يتمكن منه ما بالغ فيـه إلى الحـد الذي لا يبقى في قلبه محلا لغيره، وحينذاك يغلق قلبـه أو يقفـل أو يختم عليه، ويكون ما حاق به من ذلك أمرا غـير مسـتغربا، ويكـون هو الجاني على نفسه في كل ذلك.

ولذلك لم ترد هذه التعابير في القرآن الكريم إلا مـع من اشـتد في كفره وبالغ فيه إلى درجت محقت من قلبه كل استعداد للخير، أما الكفار العادي، فإن أكثر من تبع الأنبيـاء ونـالوا فضـل صـحبتهم كانوا كفارا، وانتقلـوا إلى الإيمـان لأنـه لم يختم على قلـوبهم بختم الإدمان.

4 ـ المجازاة

قلت: وعيت هـذا.. فحـدثني عن الكلمـة الرابعـة.. حـدثني عن المجازاة.

قال: لقد نصت جميع نصوصنا المقدسة على أن كل جزاء يناله الإنسان خيرا أو شرا، في الدنيا أو الآخرة هو ثمرة من ثمار كسبه، وحصاد من نبت زرعه، فلا ينال الإنسـان إلا مـا كسـبت يـداه، قـال تعالى:﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـاهُمْ لِيَـوْمٍ لا رَيْبَ فِيـهِ وَوُفِّيَتْ كُـلُّ نَفْسٍ مَـا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران:25)

قلت: إن في نصوصنا المقدسة مـا يـدل على هـذا أيضـا.. فمـا أسهل الدعاوى.. وما أسهل نقضها.

قال: لا.. ليس في نصوصنا المقدسة أي تنـاقض في هـذا.. بـل إنها جميعا في منتهى التكامل والتوافق والعقلانية.

أعجبتني أحاديثه، فرحت أسـتفزه بقـولي: فمـا الكلمـات الـتي تعلمتها من نصوصك المقدسة في هذا؟

قال: كلمات كثيرة.. سأقتصر لك منها على أربع كلمات.

أما أولاها فهي المساواة.. فالجزاء الإلهي يتساوى فيه الجميـع، فلا يفضـل فلان من النـاس على غـيره.. ولا تفضـل فيـه أمـة على غيرها.. فالخلق كلهم خلق الله.. والعـدل يقتضـي أن يعـاملوا كلهم معاملة واحدة.

وأما الثانية، فهي المـوازين.. فـالجزاء الإلهي مـوزون بمـوازين دقيقة تسجل كل شيء، ولا يغيب عنها شيء.

وأما الثالثة، فهي المحاكمة.. فالجزاء الإلهي لا ينالـه صـاحبه إلا بعد أن يحاكم محاكمة عادلة، يتاح لـه فيهـا أن يستشـهد من يشـاء من الشهود، ويدافع عن نفسه بما استطاع أن يدافع.

وأما الرابعة، فهي التوافق.. فالجزاء الإلهي متوافـق تمامـا مـع الأعمال، وكأنه حصاد لبذور الأعمال، فمن زرع شـوكا لن يجـني إلا شوكا.

المساواة:

قلت: أنعم بما ذكرت.. فحدثني عن أولاها..

قال: إن الوصف الأول للجزاء الإلهي هو المساواة، فالله تعالى يعامل عباده معاملة واحدة، والمعاملة الواحدة تقتضـي أن يجـازى كل شخص بحسب عمله، لا بحسب هواه.

ولهذا كانت آخر آية من القرآن الكريم، أو آخـر وصـية من اللـه لعباده هي قوله تعالى:﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيـهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُـوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة:281)

وهو المعنى الذي أكدته بتعابير مختلفـة كثـير من آيـات القـرآن الكريم، قال تعـالى:﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسـاً إِلَّا وُسْـعَهَا لَهَـا مَـا كَسَـبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقـرة: من الآية286)، وهـذه الآيـة الكريمـة جمعت بين العدالتين: عدالة التكليف وعدالة الجزاء.

وبهذا، فإن كسب الإنسان وحده هو الذي يحدد مصيره، والعدل يقتضي تفرد الكسب بتحديد المصير حتى لا ينجح في هذا الامتحان إلا الجادون المجتهدون الصـادقون، كمـا قـال ﷺ: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والفاجر من أتبع نفسه هواهـا وتمـنى على الله)(1)

والمراد بالهوى هنا هو كل ما يتصوره الإنسـان فكـرا سـليما أو ذوقا رفيعا أو كشفا صادقا يحول بينـه وبين ممارسـة العمـل الـذي كلف به الخلق جميعا، أو يجعل له من المزية مـا ليس لغـيره ممـا يتناقض مع نظام العدل الذي بني على أساسه الكون.

ولهذا ما ذكر الهوى في القرآن الكـريم إلا مـذموما، وقـد قـال ابن عباس:(ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمه، قال الله تعالى:﴿ وَاتَّبَعَ هَـوَاهُ فَمَثَلُـهُ كَمَثَـلِ الْكَلْبِ﴾ (لأعـراف: من الآية176)، وقـال تعـالى:﴿ وَاتَّبَـعَ هَـوَاهُ وَكَـانَ أَمْـرُهُ فُرُطـاً﴾ (الكهـف: من الآية28)،

1) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم.

وقال:﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ (الروم: من الآية29)، وقال:﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ﴾ (القصص: من الآية50)، وقال:﴿ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (صّ: من الآية26)) (2)

ولهذا نفى القرآن الكريم كل ما يتوهمه الإنسان من الأهواء والعلل التي يتصور أنها قد تلغي عدالة الله:

ومنها تصوره ارتباط مصيره بمجرد أمانيه وأحلامه وأوهامه، وكأن أوهامه هي التي تملي على الله ما يطلبه، أوكأنه يريد أن يساوي لذات أمانيه بعرق ودماء وجهد العاملين المخلصين، قال تعالى نافيا هذا الوهم:﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ (النساء:123 ـ 124)

وقال منكرا على من غرته الأماني:﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ (لنجم:24)أي ليس كل من تمنى خيراً حصل له، وقد عقبت هذه الآية بقوله تعالى:﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ (لنجم:25)، وكأنها تشير إلى أن عجز الأماني وقصورها عن تحقيق مطالب الإنسان في الدنيا هو نفسه عجزها وقصورها عن تحقيق مطالبه في الآخرة.

ومنها الفهم الخاطئ لحقيقة الشفاعة، حيث حولتها الأماني القاصرة إلى وساطة كوساطات الدنيا تعمق الجور، وتولد الظلم، فلذلك عقبت الآيات السابقة من سورة النجم بقوله تعالى:﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (لنجم:26)

والشفاعة في حقيقتها ـ والتي تدل عليها النصوص ـ هي جزاء كسائر أنواع الجزاء التي ينالها الخلق في الآخرة لأعمال عملوها أو صفات اتصفوا بها، وليست كما يتوهم من أنها وساطة ينجو على أساسها قوم في الوقت الذي يحرم منها غيرهم مع تساوي الاستحقاق، لأن ذلك لا يتناسب مع العدل المطلق الذي بنيت عليه قوانين الآخرة.

ولذلك أخبر ﷺ أنه لا ينتفع من لا يستحق من أمته من هذه الشفاعة، فقال ﷺ في موعظة جمع لها الصحابة ﷺ:(أيها الناس إنكم محشورون إلى اللّه عزَّ وجلَّ حفاة عراة غرلا ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ (الانبياء: من الآية104)، وإن أول الخلائق يكسى يوم

2) القرطبي:16/167.

القيامة إبـراهيم، ألا وإنـه يجـاء برجـال من أمـتي فيؤخـذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي، فيقـال: إنـك لا تـدري مـا أحـدثوا بعـدك فأقول كما قال العبد الصـالح:﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَـهِيدًا مَـا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ شَـهِيدٌ (117) إِنْ تُعَـذِّبْهُمْ فَـإِنَّهُمْ عِبَـادُكَ وَإِنْ تَغْفِـرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ (118)﴾ (المائدة)، فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم) (1)

ومن الأهواء التي تصـورها الخلـق بـديلا عن الكسـب الاغـترارا بالأنساب، وتوهم أنها من القوة بحيث تحول بين اللـه وعقوبـة من يستحق العقوبـة، فيتسـاوى في منطقهـا الصـائم القـائم بالسـكير الفاجر لأن نسب الفاجر ـ على حسب هذا الـوهم ــ من القـوة مـا يلغي عدالة الله بين عباده.

ولهذا أنكر تعالى على الأمم قبلنـا هـذا الـوهم، فقـال تعـالى:﴿ وَقَـالَتِ الْيَهُـودُ وَالنَّصَـارَى نَحْنُ أَبْنَـاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُـلْ فَلِمَ يُعَـذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَـقَ يَغْفِـرُ لِمَنْ يَشَـاءُ وَيُعَـذِّبُ مَنْ يَشَـاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة:18)

وأخبر تعالى أن لكل أمة مـا كسـبت، فلا يسـأل إلا المكتسـب، قال تعالى:﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَـا مَـا كَسَـبَتْ وَلَكُمْ مَـا كَسَـبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:134)، أي أن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصـالحين لا ينفعكم انتسـابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوهـا ولكم أعمالكم.

وقد أشار تعالى إلى هـذا عـدم جـدوى هـذا الـوهم بقولـه على لسـان يعقـوب ﴿:عليه السلام يَـا بَنِيَّ لا تَـدْخُلُوا مِنْ بَـابٍ وَاحِـدٍ وَادْخُلُـوا مِنْ أَبْـوَابٍ مُتَفَرِّقَـةٍ وَمَـا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَـيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (يوسف: من الآية 67)

وإلى هذا أيضـا يشـير قولـه تعـالى مخاطبـا رسـوله ﷺ من أن الأمر لله وحده، قال تعـالى:﴿ لَيْسَ لَـكَ مِنَ الْأَمْـرِ شَـيْءٌ أَوْ يَتُـوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (آل عمران:128)

ولهذا ورد في الحديث قوله ﷺ:(مـا من رجـل يسـلك طريقـا يطلب فيه علما إلا سهل الله له طريق الجنة ومن أبطـأ بـه عملـه لم يسرع به نسبه)(2)

---

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه مسلم.

وفي هذا الحديث جمع لطيف بين المجتهد الذي يسلك طريق العلم، فيسلك بسلوكه طريق الجنة، وبين من يكتفي بالقعود مع التغني بأمجاد سلفه التي لا تغني عنه شيئا.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يشتد في نفي هذه الأنواع من الأوهام، وقد قرأ مرة قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات:13)

ثم قال:(فليس لعربى على عجمى فضل، ولا لعجمي على عربي فضل، ولا لاسود على أبيض فضل، ولا لابيض على أسود فضل، الا بالتقوى، يا معشر قريش لا تجيئوا بالدنيا تحملونها على أعناقكم، ويجئ الناس بالاخرة، فانى لا أغني عنكم من الله شيئا) (1)

وهذا القانون الإسلامي هو الفاصل بين فهم الإسلام لدور الكسب، وبين فهم المسيحية التي تربط مصير الخلق جميعا بخطيئة أبيهم آدم عليه السلام، ثم تربط تكفير الخطيئة بمن لم يعملها.

ومنها وهم الانتساب إلى مذاهب أو أديان مع الخلو من الأعمال، فيتصور المتوهم أن انتسابه وحده كاف في نجاته، ولذلك قال تعالى رادا على بني إسرائيل في قولهم:﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى ﴾ (البقرة: من الآية111)

وقد رد الله تعالى على هذا الوهم بقوله تعالى:﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: من الآية111)

ويدخل في هذا الوهم هذه التصنيفات الكثيرة التي امتلأت بها أسماع الأمة من تقسيمها إلى سنة وشيعة وغيرها.. فيحسب كل سني أنه قد ظفر بالفردوس الأعلى ما دام قد احتكر سوق السنة..ويحسب الشيعي أن غيره عامة لن يرقى إلى رتبته ما دام قد احتكر سوق أهل البيت..

وهذه كلها أوهام..

فالله تعالى قسم عباده أقساما كثيرة.. وليس منها واحد من هذه الأقسام، فقد قال تعالى:﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) (فاطر:32)

فكل صنف من هذه الأصناف قد يكون سنيا، وقد يكون شيعيا، وقد يكون من غيرهما.

---

1) رواه الطبراني في الكبير.

فالله تعالى بعدله لن يسأل الناس يوم القيامة عن متون العقائد، وهل حفظوها، وإنما يسألهم عما انطوت عليه جوانحهم من الإيمان، وعما كسبته جوارحهم من السلوك.

ولهذا ورد في الحديث قوله ﷺ:(إن رجلا كان قبلكم رغسه(1) الله مالا وولدا، فقال لبنيه لما أحتضر: إي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب، قال: إني لم أعمل خيرا قط فإذا مت فأحرقوني ثم اسحقوني، قم اذروني في يوم عاصف، ففعلوا، فجمعه الله فقال: ما حملك؟ قال مخافتك فتلقاه برحمته)(2)

فهذا الرجل ـ على حسب هذا الحديث الصحيح ـ كان يحمل عقيدة منحرفة في قدرة الله تعالى (3).. فهو تصور أنه إن فعل به ما فعل لن يقدر الله على جمعه، ومع أن هذه العقيدة عقيدة كفر إلا أن الله تعالى برحمته نظر إلى قصده ونيته، فغفر له.

ومنها وهم من ألفوا الرشوة في الدنيا، فيتصورون أن بإمكانهم رشوة الملائكة، أو ربما رشوة الله تعالى، قال تعالى:﴿ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الحديد:15) أي لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدي به من عذاب اللّه ما قبل منه.

ومنها أوهام كثيرة تخالف سنة الله في التعامل مع خلقه، والذي أثبته في الكتب السالفة كما أثبته في القرآن الكريم، قال تعالى في آخر سورة النجم التي جمعت أوهام القاعدين عن الكسب:﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (34) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (35) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41)﴾ (النجم)

فهذه سنة الله التي لا تحتمل التغيير ولا التبديل، وكل ما يتوهم أنه شذوذ عنها، فسببه اختلاط المفاهيم أو تدخل الأهواء فيها.

---

1)رغس: أي أكثر له منهما ويبارك له فيهما، والرغس: السعة في النعمة والبركة والنما (النهاية:2 / 283).

2) رواه البخاري ومسلم.

3) وقد ورد في طرق أخرى ما يؤكد هذا، فقد روى أحمد والحكيم والطبراني في الكبير عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده يرفعه قال: كان عبد من عباد الله آتاه الله مالا وولدا، فذهب من عمره عمر وبقي عمر، فقال لبنيه: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب، قال: إني والله ما أنا بتارك عند أحد مالا كان مني إليه إلا أخذته أو تفعلون بي ما أقول لكم، فأخذ منهم ميثاقا قال: أما الاول فانظروا إذا أنا مت فأحرقوني بالنار، ثم اسحقوني، ثم انظروا يوما ذا ريح فأذروني لعلي أضل الله، فدعي واجتمع، فقيل: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشية عذابك، قال: استقل ذاهبا فتيب عليه.

وبناء على هذا فإن الخلق في الدنيا والآخـرة يصـنفون بحسـب أعمالهم، ويجازون بحسب أصـنافهم، فلا يـدخل في كـل صـنف إلا من وفر من دلائل انتسابه ما يؤهله لذلك.

ولهـذا نفت الآيـات القرآنيـة الكثـيرة أي مسـاواة بين العامـل والمتكاسل، أو بين المصلح والمفسد، قال تعالى:﴿ أَمْ نَجْعَـلُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ كَالْمُفْسِـدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَـلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (صّ:28)

وفي آيــة أخــرى يســتفهم مســتنكرا:﴿ أَفَنَجْعَــلُ الْمُسْــلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (القلم:35)

وقد شبه الله تعالى ـ لتقريب الصورة للأذهان ـ ولإقناع العقـل المجادل بصحة هذا التصنيف ـ بعدم تسـاوي التعامـل مـع مـا نـراه من المحسوسات، فقال تعالى:﴿ قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ (المائدة: من الآية100)

وشبه ذلك بالبحار المختلفة الطعوم والمنافع، قال تعالى:﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَـرَابُهُ وَهَـذَا مِلْحٌ أُجَـاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَـرَى الْفُلْـكَ فِيـهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (فاطر:12)

وشبه ذلك بالتمايز الذي نراه بين الحي والميت، فقال تعالى:﴿ وَمَـا يَسْـتَوِي الْأَحْيَـاءُ وَلا الْأَمْـوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْـمِعُ مَنْ يَشَـاءُ وَمَـا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر:22)

وشبه الفريقين من المؤمنين وغيرهم بالمنعم عليهم بـالحواس والفاقـدين لهـا، قـال تعـالى:﴿ مَثَـلُ الْفَـرِيقَيْنِ كَـالْأَعْمَى وَالْأَصَـمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (هـود:24)،وقـال تعالى:﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِـيرُ أَمْ هَـلْ تَسْـتَوِي الظُّلُمَـاتُ وَالنُّورُ﴾ (الرعد: من الآية16)

وشبه الفريقين بالأحرار والعبيد، فقال تعالى:﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْـدِرُ عَلَى شَـيْءٍ وَهُـوَ كَـلٌّ عَلَى مَـوْلاهُ أَيْنَمَـا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ﴾ (النحـل:76)، وقـال تعـالى:﴿ ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيـهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُـلٍ هَـلْ يَسْـتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْـدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر:29)

ولهذا، فإنه لا يستوي ـ في ميزان العقل ـ المجتهـد بالمتكاسـل والعامل بالمقعد والقائم بالنائم، قال تعـالى:﴿ أَمَّنْ هُـوَ قَـانِتٌ آنَـاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُـو رَحْمَـةَ رَبِّهِ قُـلْ هَـلْ يَسْـتَوِي

الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر:9)

ولا يستوي المجاهدون المضحون بأنفسهم في سبيل الله بالراكنين إل مخادع الرخاء، قال تعالى:﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء:95)

وهذا التفريق شامل لأجزية الدنيا والآخرة، قال تعالى:﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الجاثية:21)

فحكمة الله وعدالته التي قام عليها السموات والآرض تأبى المساواة بين المسيء والمحسن، قال تعالى:﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (لنجم:31)

قلت: وعيت هذا.. ولكن هذا خاص بالمكلف.. فكيف يتحق العدل مع غير المكلف؟ مع ذلك الصبي الذي مات وهو يحمل بذور الخير والشر، والتي لم تسق بعد فتنبت.. أو مع ذلك الفلاح الذي عاش في أقاصي الأرض منهمكا مع محراثه لا يعلم بإله، ولا يعرف نبيا.. أو مع ذلك المعتوه الذي يرمى بالحجارة، ولو كان عاقلا لتبين معدنه، وتحقق خبثه أو طيبه.. إن قلنا بأنهم يدخلون الجنة، فبأي عمل عملوه؟ وإن قلنا بأنهم يدخلون النار، فبأي جناية جنوها؟ وإن قلنا: إن أمرهم للمشيئة، أو لعلم الله فيهم، فلماذا لم يكن أمر الخلق جميعا للمشيئة، فلم تقم محكمة القيامة، ولم يكن هناك حساب ولا كتب ولا موازين؟ وإن قلنا: إن أمرهم للرحمة، فقد يقول البالغ: لماذا يارب لم تتوفني صبيا لتشملني رحمتك التي شملت الصبي؟ ويقول العاقل: لم يارب لم تذهب عقلي لأبصر من الرحمة ما يبصره المجنون؟ ويقول الفيلسوف: لم يا رب لم تجعلني في غياهب الجهل التي حميت بها ذلك الفلاح البسيط من التعرض لمقتك وعقابك؟ (1)

قال: لقد ورد في نصوصنا المقدسة أن هؤلاء الذين لم تتح لهم فرصة التكليف في الدنيا تتاح لهم هذه الفرصة في الآخرة.. فقد ورد فيها أن الله تعالى يرسل إليهم رسولا، وإلى كل من لم تبلغه

1) ذكرنا المسألة بتفاصيلها والأقوال الواردة فيها في رسالة (أسرار الأقدار)، وقد اكتفينا هنا بذكر ما ترجح لدينا من الأقوال مما نرى انسجامه مع العدالة الإلهية.

الدعوة، فمن أطاع الرسول دخل الجنـة، ومن عصـاه دخـل النـار، وبناء على ذلك يكون بعضهم في الجنة وبعضهم في النار(1).

ومما ورد في هذا أن رسول الله ﷺ قال:(أربعة يمتحنون يوم القيامة: رجل أصم لا يسـمع، ورجـل أحمـق، ورجـل هـرم، ورجـل مات في الفترة، أما الأصم فيقـول:(يـا رب قـد جـاء الإسـلام ومـا أسمع شيئا) وأما الأحمق فيقول:(يا رب قد جاء الإسلام والصـبيان يرمونني بالبعر) وأما الهرم فيقـول:(يـا رب قـد جـاء الإسـلام ومـا أعقل شـيئا) وأمـا الـذي مـات في الفـترة فيقـول:(مـا أتـاني لـك رسول)، فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم رسـولا أن ادخلـوا النار، قال ﷺ:(فوالذي نفسي بيده لو دخلوهـا لكـانت عليهم بـردا وسلاما، ومن لم يدخلها سحب إليها)(2)

قلت: ولكن الدار الآخرة دار جزاء لا دار التكليف.. فكيف يكلف هؤلاء بالعمل؟

قال: مع أن لهؤلاء أحوالهم الخاصة الـتي قـد لا يشـاركهم فيهـا غيرهم إلا أن الأدلـة متظـافرة على أن هـذا الاعتقـاد السـائد ليس على عمومه، فقد قال تعالى:﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَـاقٍ وَيُـدْعَوْنَ إِلَى السُّـجُودِ فَلا يَسْـتَطِيعُونَ﴾ (القلم:42)، وقـد ثبت في الحـديث أن المؤمنين يسجدون للّه يوم القيامة، وأن المنـافق لا يسـتطيع ذلـك ويعود ظهره كالصفيحة الواحدة طبقاً واحداً، كلما أراد السجود خـر لقفاه (3).

وفي حديث الآخر ورد في الرجل الـذي يكـون آخـر أهـل النـار خروجاً منها، أن اللّه يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأل غـير مـا هـو فيه، ويتكرر ذلك مراراً، ويقول اللّه تعالى:(يا ابن آدم ما أغـدرك!) ثم يأذن له في دخول الجنة(4).

زيادة على ذلك مـا ثبت في النصـوص الكثـيرة من الامتحانـات والأسئلة التي يتعرض لها أهل القبور.

قلت: ولكن ألا تـرى غرابـة واسـتحالة أن يكلفهم اللّـه دخـول

---

1) وقد تكلم العلماء بالإنكار على هذه الأحاديث واعتبارها من الضـعف بحيث لا تنهض للاستدلال بها، وقد رد ابن كثير على ذلك بقوله:(إن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء، ومنها مـا هـو حسـن، ومنهـا مـا هـو ضـعيف يتقوى بالصحيح والحسن، وإذا كـانت أحـاديث البـاب الواحـد متصـلة متعاضـدة على هـذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها) (تفسير ابن كثير: 5/58)

2) رواه النسائي والحاكم وابن مردويه.

3) رواه البخاري.

4) الحديث طويل رواه البخاري ومسلم وعبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والنسـائي والدارقطني في الرؤية والبيهقي في الأسماء والصفات.

النار، لأن ذلك ليس في وسعهم؟

قـال: ولكن ذلـك في وسـعهم من جهـة، وهـو مـع مشـقته لا يختلف كثيرا عن الكثير من التكاليف التي يطلب بها الفوز بسـعادة الأبد:

ومنهـا أن اللـه تعـالى يـأمر العبـاد يـوم القيامـة بـالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم كـالبرق، وكـالريح، وكأجاويـد الخيل، والركاب، ومنهم الساعي ومنهم الماشـي، ومنهم من يحبـو حبـواً، ومنهم المكـدوش على وجهـه في النـار، وليس مـا ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم.

ومنها ما ثبت في السنّة بأن الدجال يكون معه جنـة ونـار، وقـد أمر ﷺ المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحـدهم من الـذي يـرى أنه نار فإنه يكون عليه برداً وسلاماً(1)، وهذا يشبه إلى حد كبير هذا الامتحان الذي تعرض له هؤلاء.

ومنها أن الله تعالى أمر بني إسرئيل أن يقتلوا أنفسـهم، فقتـل بعضهم بعضاً حتى قتلوا فيمـا قيـل في غـداة واحـدة سـبعين ألفـاً، يقتل الرجل أباه وأخاه وهم في عماية غمامة أرسـلها اللّـه عليهم، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل (2)، وهو لا يقل مشـقة على النفوس مما تعرض له هؤلاء.

زيادة على ذلك كله، فإن أن أمرهم بـدخول النـار ليس عقوبـة لهم، وكيف يعاقبهم على غير ذنب؟ (وإنما هو امتحان واختبـار لهم هل يطيعونه أو يعصونه، فلو أطاعوه ودخلوهـا لم تضـرهم وكـانت عليهم بردا وسـلاما، فلمـا عصـوه وامتنعـوا من دخولهـا اسـتوجبوا عقوبة مخالفة أمره، والملوك قد تمتحن من يظهر طاعتهم هل هو منطو عليهـا بباطنـه فيأمرونـه بـأمر شـاق عليـه في الظـاهر، هـل يوطن نفسه عليه أم لا؟فإن أقـدم عليـه ووطن نفسـه على فعلـه أعفوه منه، وإن امتنع وعصى ألزمـوه بـه أو عـاقبوه بمـا هـو أشـد

---

1) الحديث طويل، وهو مروي في أكثر أصول السنة، وموضـع الشـاهد منـه قولـه ﷺ: (إنه يبدأ فيقول: أنا نبي ولا نـبي بعـدي ثم يثـني فيقـول: أنـا ربكم ولا تـرون ربكم حـتى تموتوا وإنه أعور وإن ربكم عز و جل ليس بأعور وإنه مكتوب بين عينيه كـافر يقـرأه كـل مؤمن كاتب وغير كاتب وإن من فتنته أن معه جنة ونارا فناره جنة وجنتـه نـار فمن ابتلي بناره فليستعن بالله وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه بردا وسـلاما كمـا كـانت النـار على إبراهيم)، وبهذا اللفظ راه أبو داود وابن ماجه.

2) كما قال تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (البقرة:54)

منه)[1]

ومن هذا الباب أمر الله تعالى الخليل ﷺ بذبح ولـده، ولم يكن مراده تعالى من ذلك سـوى امتحانـه على مـدى امتثالـه وتسـليمه وتقديمه محبة الله على محبة الولد، فلما فعل ذلك رفع عنه الأمــر بالذبح.

بل إن عباد النار ـ مع كفرهم ـ يتهافتون فيهـا ويلقـون أنفسـهم فيها طاعة للشيطان، ولا يقولون: ليس ذلك في وسعنا مع تـألمهم بها غاية الألم، (فعباد الرحمن إذا أمـرهم أرحم الـراحمين بطاعتـه باقتحامهم النار كيف لا يكون في وسعهم وهـو إنمـا يـأمرهم بـذلك لمصلحتهم ومنفعتهم)[2]

بل إن اقتحامهم النـار المفضـية بهم إلى النجـاة لا تختلـف عن الكي الذي يحسم الـداء، أو هي بمنزلـة تنـاول الـداء الكريـه الـذي يعقب العافية.

فليس أمـرهم بـدخول النـار من بـاب العقوبـة في شـيء، لأن (الله تعالى اقتضت حكمته وحمده وغناه ورحمتـه ألا يعـذب من لا ذنب له، بـل يتعـالى ويتقـدس عن ذلـك كمـا يتعـالى عمـا ينـاقض صفات كماله، فالأمر باقتحام النـار للخلاص منهـا هـو عين الحكمـة والرحمـة والمصـلحة، حـتى لـو أنهم بـادروا إليهـا طوعـا واختيـارا ورضي حيث علموا أن مرضاته في ذلك قبل أن يـأمرهم بـه لكـان ذلـك عين صـلاحهم وسـبب نجـاتهم، فلم يفعلـوا ذلـك ولم يمتثلـوا أمره، وقد تيقنوا وعلموا أن فيه رضـاه وصـلاحهم، بـل هـان عليهم أمره وعـزت عليهم أنفسـهم أن يبـذلوا لـه منهـا هـذا القـدر الـذي أمرهم به رحمة وإحسانا لا عقوبة)[3]

الميزان:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن الثانية.

قال: كما أن العدل سار في جميع المكلفين، فلا يقـدم أحـدهم على غيره إلا بما كسبت يداه، فإن العدل كذلك سار في المـوازين التي توزن بهـا الأعمـال، فلا يظلم أحـد مثقـال ذرة، قـال تعـالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَـةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَـيْئاً وَإِنْ كَـانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الانبياء:47)

وهذه الموازين تعتمد على الأعمـال الـتي أحصـاها اللـه تعـالى على عباده، فلم يغادر صغيرة ولا كبـيرة، قـال تعـالى في موعظـة

1) أحكام أهل الذمة:2/1152.
2) أحكام أهل الذمة:2/1155.
3) أحكام أهل الذمة:2/1156.

لقمان ﷺ لابنه:﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:16)

وقد أخبر تعالى عن مقالة المكلفين حين يبصرون دقة موازين الله، فقال تعالى:﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (الكهف:49)

ولذلك فإن الإنسان يرى في القيامة كل ما كسبت يداه ابتداء من مثاقيل الذر، وهذا من العدل الذي يجعل المتهم مبصرا لجرائمه وذنوبه التي يحاكم على أساسها، قال تعالى:﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ (الزلزلة:7 ـ 8)

وقد أخبر تعالى أن ثقل هذه الموازين بالأعمال الطيبة هو الكفيل بالنجاة، قال تعالى:﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (لأعراف:8)، وقال تعالى:﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المؤمنون:102)

وبخلافه من خفت موازينه، قال تعالى:﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (لأعراف:9)، وقال تعالى:﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون:103)

ومن مظاهر العدل الإلهي التي لا يمكن وصفها أن الله تعالى لا يزن الأعمال فقط، كما نفعل في الدنيا حين نكتفي بتقييم الأعمال دون نظر إلى ما يحيط بها من ملابسات، فنقع بذلك في أخطاء كثيرة وجور عظيم.

لكن الله ـ بعدله ـ يزن العمل، وكل ما يرتبط بالعمل من قريب أو من بعيد، ولهذ ورد التعبير عن الميزان في القرآن الكريم بلفظ الجمع.

فمن موازين الله العادلة **ميزان الأعمال**، وهو ميزان مختص بوزن الأعمال التي يقوم بها الإنسان، فلكل عمل عند الله تعالى وزنه الخاص، وقيمته الخاصة.

وقد ورد في النصوص أن هذا الميزان يزن كل شيء.. الصغير والكبير.. الجليل والحقير.. ذلك أن الملائكة الكتبة يكتبون كل شيء.. كما قال تعالى:﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)﴾

(ق)

وقد روي في الحديث عن بلال بن الحارث المـزني قـال: قـال رسول الله ﷺ:(إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضـوان اللـه تعـالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يـوم يلقـاه، وإن الرجـل ليتكلم بالكلمـة من سـخط اللـه مـا يظن أن تبلـغ مـا بلغت، يكتب الله عليـه بهـا، سـخطه إلى يـوم يلقـاه) قـال: فكـان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث(1).

ومن الأحاديث التي رويت فيما يـوزن في هـذا المـيزان ويثقلـه قولـه ﷺ:(كلمتـان خفيفتـان على اللسـان ثقيلتـان في المـيزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)(2)

وفي حديث آخر، يقول رسول الله ﷺ:(والذي نفسي بيـده لـو جيء بالسموات والأرض ومن فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضـعن في كفـة المـيزان ووضـعت شـهادة أن لا إلـه إلا اللـه في الكفـة الأخرى لرجحت بهن)(3)

ويـروى أن رسـول اللـه ﷺ لقي أبـا ذر فقـال:(ألا أدلـك على خصلتين هما خفيفتان على الظهر وأثقل في الميزان من غيرهمـا؟ قـال: بلى يـا رسـول اللـه، قـال:(عليـك بحسـن الخلـق، وطـول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما)(4)

وفي حديث آخر، يقول رسـول اللـه ﷺ:(مـا من شـيء يوضـع في الميزان يوم القيامة أثقل من خلق حسن)(5)

ومن موازين الله العادلة التي تقـام في يـوم المحاكمـة الأكـبر **ميزان آثار الأعمال**، وهو ميزان مختص بوزن آثار الأعمال التي يقوم بها الإنسان، وهو من دلائل العدل المطلق، وأنه لا يظلم أحد.

وهـذا المـيزان يسـتحيل أن تقيم مثلـه أي محكمـة من محـاكم الدنيا، ذلك أن محاكم الدنيا ـ في جزائهـا الإيجـابي أو السـلبي ــ لا تسـتطيع أن تمـد من تريـد أن تجازيـه بـالعمر الـذي يكفي لـذلك الجزاء.

ويشـير إلى هـذا المـيزان قولـه تعـالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَـوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) (يّـس: 12)

---

1) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن.
2) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة واللالكائي.
3) رواه الطبراني.
4) رواه ابن أبي الدنيا والبزار وأبو يعلى والطبراني والبيهقي بسند جيد.
5) رواه أبو داود والترمذي وصحح وابن حبان واللالكائي.

ويشير إليه قولـه تعـالى:﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَـالَهُمْ وَأَثْقَـالاً مَـعَ أَثْقَـالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ عَمَّا كَـانُوا يَفْتَـرُونَ) (العنكبـوت:13)، وقولـه تعـالى:﴿ لِيَحْمِلُـوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَـةً يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) (النحل:25)

فهـذه النصـوص تخـبر أن اللـه تعـالى لا يحاسـب على العمـل فقط.. بل يحاسب على آثاره سواء كـانت سـلبية أو إيجابيـة، وقـد ورد في الحديث قوله ﷺ:(من دعا إلى هـدى كـان لـه من الأجـر مثـل أجـور من اتبعـه إلى يـوم القيامـة، من غـير أن ينقص من أجورهم شيئا، وَمَنْ دعا إلى ضلالة كان عليه مِنَ الإثم مثل آثام مَنِ اتبعه إلى يوم من غير أن ينقص من آثامهم شيئا)(1)

ويشير إلى هذا الميزان من الحديث من قول رسـول اللـه ﷺ: (من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرهـا وأجـر من عمـل بهـا من بعـده من غـير أن ينقص من أجـورهم شـيء، ومن سـن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بهـا من غـير أن ينقص من أوزارهم شيء)(2)

ففي هـذا الحـديث يخـبر رسـول اللـه ﷺ عن هـذا النـوع من الموازين، ذلك أن أثر العمل الصالح لا يقل عن العمل نفسه، وأثـر الجريمة لا يقل عن الجريمة نفسها.

وهذا من العدل الذي لا يمكن لبشر أن يطبقه.

فالجريمة عندنا جريمـة ترتبـط بحادثـة معينـة تبـدأ بهـا، وتنتهي عندها، فالقاتل يتهم بجريمة واحدة هي قتـل ضـحيته فقـط.. بينمـا آثار تلك الجريمة قد تكون أخطر بكثير من تلك الجريمة الوحيدة.

وعن هـذا عـبر قولـه ﷺ:(ليس من نفس تقتـل ظلمـا إلا كـان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل)(3)

بل إنه ـ يوم القيامة ـ يأتي بعض الناس ممن لم يقتـل حشـرة، فيحشـر في خانـة كبـار المجـرمين.. لا لأنـه قتـل، ولكن لأنـه كتب رواية ملأها بالدماء المسـفوكة، أو أخـرج فيلمـا ضـمنه مـا تخـتزن نفسه الشريرة من جرائم..

وهكـذا بالنسـبة للعامـل الصـالح.. فقـد يعمـل الرجـل العمـل الواحد، ويكون له جـزؤه لكن اللـه الشـكور الكـريم يشـكر عبـده، فيجازيه بالآثار الإيجابية لذلك العمل.

وهذا مـا يشـير إليـه قولـه تعـالى معـبرا عن أدعيـة الصـالحين

1) رواه أحمد ومسلم.
2) رواه مسلم وغيره.
3) رواه البخاري ومسلم.

الممثلة لأمانيهم:﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ (الفرقان:74)

فهؤلاء الصالحون لم يقصدوا بالإمامة إلا هذا.. فيكونوا قدوة صالحة لغيرهم.. ثم يجيئون يوم القيامة في موازين حسناتهم.

ومن هذا الباب استحب علماء السلوك المسلمين إظهار الأعمال الصالحة، ليكون الصلاح هو السلوك العام الذي يحكم المجتمع المسلم.

وقريب من هذا ما روي من الأعمال التي لا تنقطع بعد موت صاحبها، فقد ورد في الحديث قوله ﷺ:(إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علما علمه ونشره، وولدا صالحا تركه، أو مصحفا ورثه أو مسجدا بناه، أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته)(1)

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ:(سبع يجري أجرهن للعبد بعد موته وهو في قبره: من علم علما أو أجرى نهرا أو حفر بئرا أو غرس نخلا أو بنى مسجدا أو ورث مصحفا أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته)(2)

وهذه الأحاديث وغيرها كانت سببا في ازدهار الحضارة الإسلامية..

فالحضارة الإسلامية لم يقمها الساسة(3)، وإنما أقامها أفراد المجتمع الذين امتلأوا بمثل هذه القيم.. فراحوا يقفون أموالهم كلها في سبيل الله مما نشط العلوم والصحة والنظام.. وقضى على الفقر والتخلف والمرض والجهل.

ومن الموازين التي ورد ذكرها في النصوص، والتي تبين عظم العدل الإلهي (**وزن العامل**).. فالموازين الإلهية لا تكتفي بوزن الأعمال، فقد تصدر مظاهر الخير من قلب مليء بالأمراض، أو قد تصدر بعض الذنوب من القلوب الطيبة، فلذلك يوزن الإنسان نفسه بمقاييس العدالة المطلقة.

ولذلك ورد في الحديث قوله ﷺ:(يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة)(4)، ثم قرأ قوله تعالى:﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾ (الكهف: من الآية105)

---

1) رواه ابن ماجه.
2) رواه أبو نعيم.
3) بل شوهوها، انظر في هذا رسالة (ثمار من شجرة النبوة)
4) رواه ابن عدي والبيهقي.

وبخلاف هذا السمين الهزيل قال ﷺ في عبد الله بن مسعود عندما تعجب الصحابة ﷺ من دقة ساقيه:(أتعجبون من دقة ساقيه والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد)(1)

ويفهم بسر هذا الميزان ما ورد من النصوص في الذين يدخلون الجنة بغير حساب، ففي الحديث يقول رسول الله ﷺ: (عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل، والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الافق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، قيل: من هم؟ قال هم الذين: لا يرقون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون)(2)

فهؤلاء الذين نالوا هذا الشرف لم ينالوه إلا بتوكلهم على الله، وثقتهم في الله، ولذلك جوزوا بأن لا يحاسبوا، كما جوزي الصابرون بأن ينالوا من الأجور ما لا يمكن حسابه، قال تعالى:﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (الزمر: 10)

فالصابرون الذي ثبتوا في وجه البلاء وكل ما يصرفهم عن الله ـ والذين جعلهم الله حجة على غيرهم ــ ينالون من الأجور ما لا يمكن تصوره.

وقد روي في الأحاديث التي تذكر موازين الآخرة قوله ﷺ: (تنصب الموازين يوم القيامة، فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الصيام فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينتشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر صباً بغير حساب) (3)

ومن الموازين العادلة التي تنصب في ذلك اليوم **الميزان المختص بالأجور**، ولعله آخر الموازين، أو هو نتيجة سائر الموازين، وانطلاقا من نتيجته تكون النجاة أو الهلاك.

---

1) رواه ابن جرير.
2) رواه البخاري ومسلم.
3) رواه أبو نعيم.

وقد روي عن عبد الله بن مسعود قال: يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ:﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103)﴾ (المؤمنون)(1)

المحاكمة:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن الثالثة.

قال: من سمات الجزاء الإلهي أنه لا يتم إلا بعد محاكمة عادلة تتسم بكل ما تتسم به المحاكمة العادلة من أوصاف.. بل لا يمكن لأي محكمة أن تتسم بما تتسم به محكمة العدل الإلهي.

فمع أن الله تعالى يعلم ما فعله عباده من خير أو شر، إلا أنه تعالى ـ عدلا منه ــ لا يحاسبهم بمجرد علمه، بل يحاسبهم كما يحاسب الند نده.. وذلك من عدل الله ورحمته بعباده.

فأول ما تستند إليه هذه المحاكمة العادلة هي الكتب التي كتبها الملائكة ـ عليهم السلام ـ بتوكيل من الله تعالى..

فالله تعالى بحكمته وعدله جعل مع كل إنسان شهودا على أعماله، وجعل لهم سجلات خاصة تتناسب مع طبيعتهم يسجلون فيها حركات الإنسان، وأعماله، ولهذا سماهم الله تعالى (كراماً كاتبين)، فقال تعالى:﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الانفطار:10 ـ12)

وقد سمى الله تعالى هؤلاء الملكة الكتبة شهودا، فقال:﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ) (قّ:21)

وأخبر عن كلام الملاك الذي يقدم شهادته يوم القيامة بقوله:﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ) (قّ:23)، قال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذي وكلتني به قد أحضرته.

وأخبر أن هؤلاء الكتبة يسجلون كل أعمال الإنسان، فقال تعالى:﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) (قّ:18)

وقد ورد ما يدل على أن هذين الملكين يقفان في جانبي الإنسان، ليكون لهما من القرب ما يسجلان به كل شيء كما قفعله تماما رعاية للعدل، قال تعالى:﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ) (قّ:17)

وتستند هذه المحاكمة العادلة أيضا على أنواع

---

1) رواه ابن المبارك.

الشـهود.. وقـد ورد في النصـوص الجمـع بين الكتب المحصـية للأعمال والشـهود، أو التهم والـدلائل، حـتى لا يؤاخـذ العبـد إلا بعـد إقامة الحجة الكاملة عليه، قال تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَـا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِـالنَّبِيِّينَ وَالشُّـهَدَاءِ وَقُضِـيَ بَيْنَهُمْ بِـالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (الزمر:69)

فالآية الكريمة ذكرت ثلاثة أركان للعدالة، وهي الكتاب الحـاوي للتهم، والشهود المثبتة لها، ثم القضاء بينهم بـالحق حـتى لا يؤاخـذ العبد إلا بمقدار جريمته.

والقرآن الكريم يخبرنا عن أنواع الشهود حتى نأخذ حذرنا:

وأولهم الملائكة الموكلون بإثبات أعمال العباد، كما قال تعـالى: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ) (قّ:21)، وقال تعالى:﴿ مَـا يَلْفِـظُ مِنْ قَـوْلٍ إِلَّا لَدَيْـهِ رَقِيبٌ عَتِيـدٌ) (قّ:18)، وقـال تعـالى:﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12)﴾ (الانفطار)

ومن الشهود الأنبياء، كما قال تعالى حاكيـاً عن عيسـى ــ عليـه السـلام ـ:﴿) وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَـهِيداً مَـا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَـوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ شَـهِيدٌ)(المائـدة: من الآية 117)

وقال في حق محمد ﷺ وأمته في هذه الآية: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) (البقرة:143)، وقال:﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَـا بِـكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً) (النساء:41)

ويدخل في هـذا البـاب قولـه تعـالى عن الأرض:﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَـدِّثُ أَخْبَارَهَا) (الزلزلة:4)، أي: تحدث بما عمل العاملون على ظهرها.

وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قرأ هـذه الآيـة:﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ (الزلزلة:4)، ثم قال: أتدرون ما أخبارهـا؟ قـالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عَمِل على ظهرها، أن تقول: عمل كـذا وكـذا، يـوم كـذا وكـذا، فهذه أخبارها)(1)

وفي حديث آخـر، قـال رسـول اللـه ﷺ:(تحفظـوا من الأرض، فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليهـا خـيرًا أو شـرًا، إلا وهي مُخبرة)(2)

---

1) رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.
2) رواه الطبراني من حديث ابن لَهِيعة.

بعد كل هذا، فإن الله تعالى ــ بعدله ــ يتيح كل الفرص للإنسان للدفاع عن نفسه، حتى أن له الحق في الطعن في الشهود أنفسهم، حتى لو كانوا ذوي مكانة عالية، ففي الحديث يقول رسول الله ﷺ:(يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلّغت؟ فيقول نعم، فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم؟ فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح من يشهد لك؟ فيقول محمد وأمته، قال فذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ (البقرة: من الآية143) قال: والوسط العدل، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم)(1)

وفي حديث آخر تصوير مفصل لمحاورات ذلك المشهد، قال ﷺ:(يجيء النبي يوم القيامة، ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعي قومه فيقال: هل بلّغكم هذا؟ فيقولون: لا فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول نعم: فيقال من يشهد لك، فيقول محمد وأمته فيدعى محمد وأمته: فيقال لهم هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون نعم. فيقال وما علمكم؟ فيقولون جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ (البقرة: من الآية 143)، قال عدلاً ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة: من الآية143))(2)

لكن بعض المتهمين من أهل جهنم يستغل هذه الفرصة المتاحة له ــ والتي لم يكن يظفر بمثلها في محاكم الدنيا ــ فلا يكتفي برفض كل الشهود، مع كونهم صفوة الله من عباده، بل يحتال بالكذب الذي كان يحتال به في الدنيا، بل يحتال بالقسم بالله الذي كان لا يعترف به، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:23)، وقد قال ابن عباس في تفسيرها:(إنهم لما رأووا يوم القيامة أن الله لا يغفر إلا لأهل الإسلام ويغفر الذنوب ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا يغفر شركاً، جحد المشركون فقالوا:﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِين﴾)(3)

وحينما يبلغ إنكارهم للشهود منتهاه، ويجادلون في الطعن فيهم كما كانوا يجادلون في الدنيا يأتيهم الله تعالى بما لا يطيقون دفعه، فيقيم عليهم الحجة من أنفسهم، قال تعالى:﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يّس:65

1) رواه البخاري والترمذي والنسائي.
2) رواه أحمد عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.
3) رواه عبد الرزاق.

)

فهـذه الآيـة تشـير إلى أن هـذا حـال الكفـار والمنـافقين يـوم القيامة حين ينكرون ما اجـترموه في الـدنيا، ويحلفـون مـا فعلـوه، فيختم اللّه على أفواههم ويستنطق جوارحهم بما عملت.

وقد صور لنا رسول الله ﷺ بعض مشاهد ذلك، وهي تـدل على قمة العدالة التي تتيح للمجرم أن يناقش القاضي الأكبر ملـك يـوم الـدين ويجادلـه وهـو يعلم أنـه لا يعـزب عنـه من مثقـال ذرة في السموات ولا في الأرض، فعن أنَس بن مالك قال: كنـا عنـد النـبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال ﷺ:(أتـدرون مم أضـحك؟) قلنا:(اللّه ورسوله أعلم)، فقال ﷺ:(من مجادلـة العبـد ربـه يـوم القيامة، يقول: رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقـول: لا أجيز عليَّ إلا شاهداً من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليـوم عليـك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيختم على فيـه، ويقـال لأركانـه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لكن وسحقاً، فعنكن كنت أناضل)(1)

فقـول المتهم في الآخـرة:(رب ألم تجـرني من الظلم) يـدل على الضمانات الكثيرة التي أخذها العباد لإقامـة العدالـة المطلقـة في ذلـك اليـوم، وقولـه:(فعنكن كنت أناضـل) دليـل على مـدى الحرية التي أتيحت له للدفاع عن نفسه.

وقـد ورد في بعض الأحـاديث إشـارة إلى هـذا الصـنف الـذي تستنطق جوارحه، وهم المنـافقون الـذين حـاولوا أن يحتـالوا على قلب الحقـائق في الـدنيا، وخـداع الخلـق بهـا، فلـذلك تبقى هـذه الأحبولة في أيديهم يوم القيامة، ويتصـورون أنهم سـيخادعون اللـه كما خادعوا الخلق،، قال ﷺ في حديث القيامـة الطويـل:(ثم يلقى الثالث فيقول: ما أنت؟ فيقول: أنا عبدك آمنت بك وبنبيك وبكتابـك وصمت وصلّيت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع ـ قال ـ فيقال له ألا نبعث عليك شاهدنا؟ ـ قال: فيفكـر في نفسـه من الـذي يشـهد عليه، فيختم على فيه، ويقال: لفخذه انطقي ـ قال ـ فتنطق فخـذه ولحمه وعظامه بما كان يعمـل، وذلـك المنـافق، وذلـك ليعـذر من نفسه، وذلك الذي يسخط اللّه تعالى عليه)(2)

وحينذاك يندم الجاحـد على جحـوده، ويـود لـو أنـه اعـترف في البدء لعـل ذلـك أن يخفـف عنـه، وهـذا هـو وجـه الجمـع بين قولـه

---

1) رواه ابن أبي حاتم ورواه مسلم والنسائي بنحوه.
2) رواه مسلم وأبو داود.

تعالى:﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً﴾ (النساء:42) والتي تفيد بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ولا يكتمون منه شيئاً، وبين ما رأيناه من صنوف الإنكار.

وكما أن المحاكمة العادلة تقتضي توفر المحامين الذين يدافعون عن المتهم، فإن الله تعالى بعدله نصب المحامين الكثيرين من عباده، والذين سماهم الشفعاء.

ولكن هؤلاء الشفعاء لا يشفعون إلا فيمن رضي الله أن يشفع فيه، فهناك من الجرائم ما لا يمكن معه هؤلاء الشفعاء شيئا، قال تعالى:﴿ يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ (طه:109)، وقال:﴿ وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) (سبأ: من الآية23)، وقال:﴿ وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (الزخرف:86)

التوافق:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن الرابعة.

قال: السمة الرابعة للجزاء الإلهي هي أنه جزاء متوافق تماما مع نوع العمل، كما قال تعالى:﴿ جَزَاءً وِفَاقاً﴾ (النبأ:26)، أي: هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وَفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا (1).

بل إن النصوص الكثيرة تدل على أن الجزاء المعد في الآخرة هو الصورة المجسدة للكسب، كما قال تعالى:﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ (الأنعام:31)

وقد ورد في الآثار عن أبي مرزوق في تفسير هذه الآية قال: (يستقبل الكافر أو الفاجر عند خروجه من قبره كأقبح صورة رأيتها أنتنه ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أو ما تعرفني؟ فيقول: لا واللّه، إلاّ أنَّ اللّه قبح وجهك وأنتن ريحك، فيقول: أنا عملك الخبيث، هكذا كنت في الدنيا خبيث العمل منتنه، فطالما ركبتني في الدنيا، هلم أركبك)(2)

وإلى ذلك أيضا يشير قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا

---

1) قاله مجاهد، وقتادة، وغير واحد، ابن كثير:8/307.
2) رواه ابن أبي حاتم.

يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران:161)

وقد قال ﷺ لرجل استعمله على الصدقة، فجاء فقال:(هذا لكم وهذا أهدي لي)، فقام رسول اللّه ﷺ على المنبر، فقال:(ما بال العامل نبعثه على عمل فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحدكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته، وإن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر؟؟، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه، ثم قال: اللهم هل بلغت؟ ثلاثاً(1).

وأخبر ﷺ أن المتكبرين يحشرون يوم القيامة محتقرين ممتلئين ذلة، قال ﷺ:(يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر، في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الانيار، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال)(2)

ولذلك وردت آيات القرآن الكريم تربط بين أصناف الجزاء والأعمال المتعلقة بها، سواء كان ذلك الجزاء في الدنيا أو الآخرة:

أما في الدنيا، فقد ورد في النصوص الكثيرة بيان بعض جزاء الله لعباده على أعمالهم ليكون ذلك إشارة إلى ما ينتظرهم في الآخرة من الجزاء الخالص.

أما أجزية المؤمنين، فقد ورد في القصص القرآني ما يشير إلى ما تعرض له عباد الله الصالحين من فضل الله في الدنيا جزاء وفاقا على أعمالهم الصالحة:

فقال تعالى عن يوسف ﴿:عليه السلام وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:56)، فقد ذكرت الآية الكريمة أن سبب استحقاقه للتمكين هو الإحسان الذي لا يضيع جزاؤه عند الله تعالى.

وقال تعالى عن نوح ﴿:عليه السلام ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ (الاسراء:3) فقد عقب الجزاء بكونه عبدا شكورا.

وقال تعالى عن آل لوط ﴿:عليه السلام إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ (القمر:34) ثم قال بعدها:﴿ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ (القمر:35)

وقال تعالى عن الصابرين من بني إسرائيل:﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ

1) رواه الطبراني في الكبير وغيره.
2) رواه أحمد والترمذي.

الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (لأعراف:137)، فهذا الجزاء الكريم ثمرة من ثمار صبرهم.

وبمثل ذلك، وعلى ضده جاء الإخبار عن الكفار من السابقين من قوم نوح وعاد وثمود وفرعون ولوط ومدين وغيرهم الذين أهلكوا بذنوبهم في الوقت الذي نجى الله فيه الأنبياء ومن اتبعهم بإيمانهم وتقواهم، كما قال تعالى مبينا تلك السنة:﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (لأعراف:165) فالجزاء الذي تعرضوا له هو نتيجة طبيعية لفسقهم.

أو هو نتيجة حتمية لظلمهم، كما قال تعالى:﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (العنكبوت:40)، وقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (العنكبوت:14)

أو هو نتيجة حتمية لبغيهم، كما قال تعالى:﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (الأنعام:146)

أو هو نتيجة حتمية لكفرهم، كما قال تعالى:﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ (سبأ:17)، وقال تعالى:﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (لأنفال:52)، وقال تعالى:﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (غافر:22)

أو هو نتيجة حتمية لتكذيبهم، كما قال تعالى:﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (آل عمران:11)، وقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (النحل:113)، وقال تعالى:﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء:189)

أو هو بعبارة جامعة نتيجة حتمية لذنوبهم، كما قال تعالى:﴿

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ (غافر:21)، وقال تعالى:﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (لأنفال:54)

وأول ذنوبهم وأخطرها هو معصية الرسل الذين كلفوا بتبليغهم رسالات الله، وقال تعالى:﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ (الحاقة:10)، وقال تعالى:﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:139)

قلت: ولكن ألا ترى أن من الكفار من يعيش مرغدا ويموت مترفا لا يصيبه جرائر ذنوبه ولا تهلكه كثرة معاصيه.. فهل لهذا المتمرد من الوجاهة ما جعله بمنأى من عدالة الجزاء الإلهي؟ وما السر في هذا التمييز الذي تحيرت له الألباب، بل صار فتنة تصد القلوب عن دين الله؟

قال: إن عدالة الله المطلقة، ورحمته التامة الشاملة، والتي سبقت غضبه تتيح لهذا المتمرد من الفرص، وتبلغه من الحجج ما يكفي لعودته، فإن استمر على بغيه أخذ أخذ عزيز مقتدر بمجرد تسليم روحه.

ولذلك علل الله تعالى عدم تعجيله بالعقوبة بمغفرته ورحمته، فقال تعالى:﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ (الكهف:58)

وأخبر تعالى أن كل القرى التي نزل عليها العذاب لم ينزل عليها إلا بعد الإمهال الكافي لإقامة الحجة، قال تعالى:﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (الرعد:32)، وقال تعالى:﴿ وَكَأَيِّنْ مَنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (الحج:48)

ويضرب تعالى الأمثلة على ذلك بالأمم التي أصابها العذاب، ولم يصبها إلا بعد فترة طويلة من الإمهال وإقامة الحجة، قال تعالى مسلياً نبيه ﷺ في تكذيب من خالفيه من قومه:﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (الحج:44)

بل قد أخبر القرآن الكريم أن الله تعالى أمهل قوم نوح عليه السلام كل تلك الآماد الطويلة، وبعد تلك الفرص الكثيرة، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً

فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (العنكبوت:14)

فالإمهال إذن رحمة من الله، أو هو فرصة ممنوحة من الله للظالمين، قد يستغلونها بالرجوع إلى الله، وقد ينتكسون بأن يضاعف لهم العذاب، كما قال ﷺ:(إن اللّه ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)، ثم قرأ قوله تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود:102))(1)

والأمر الثاني أن امتحان الخلق يقتضي ستر أكثر ما يتعرض له الخلق من الجزاء، لأن تعجيل الجزاء قد يجعل الخلق جميعا في صف واحد، صف الخير أو صف الشر بحسب الجزاء، كما قال تعالى:﴿ وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (الزخرف:33) أي لولا أن يعتقد كثير من الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال لجعلنا للذين كفروا ذلك الترف الموصوف في الآية.

ولهذا ورد في النصوص الكثيرة الإخبار بأن ما أعطي الكفار من النعيم لا يدل على مرضاة الله، بل قد يدل على سخطه،، قال تعالى مصححا فهوم الكفار الخاطئة:﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون:55 ـ 56)، وقال تعالى:﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (آل عمران:178)

ولهذا ورد بعد هذه الآية الإخبار بأن هذا الابتلاء هو الذي يميز الخبيث من الطيب، ويميز بين الراغب في الله، والراغب في المتاع الأدنى، قال تعالى:﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:179)

ففي الآية الكريمة إشارة إلى أن تعجيل الجزاء قد يؤثر في الابتلاء، ولذلك قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾

ولهذا يرد في القرآن الكريم الإخبار بأن الجزاء الحقيقي هو الجزاء المعد في الآخرة، قال تعالى مخبرا عن جزاء المؤمنين:﴿ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف: من الآية35) وقد ورد هذا المعنى عقب ذكر زخارف الحياة الدنيا التي يتهافت عليها

1) رواه البخاري ومسلم.

الغافلون.

وفي نفس الوقت ينهى تعالى المؤمنين من الإعجاب بما أوتي الكفار من النعيم، قال تعالى:﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (التوبة:55)

فهذا الإمهال ـ إذن ـ كما ينطوي على معاني الرحمة والعدل، وينطوي على معاني الانتقام ممن لم يعرف للنعمة حقها ولا للإمهال حقه، ينطوي كذلك على سر الامتحان الذي يقتضي ستر الجزاء حتى لا يكون الناس أمة واحدة في الخير أو في الشر.

قلت: وعيت هذا.. فكيف يكون الجزاء وفاقا في الآخرة؟

قال: لقد ربط الله تعالى بين الجزاء المعد للكفار والعصاة، وبين أعمالهم، كما ربط بين الجزاء المعد للمؤمنين، وبين أنواع أعمالهم، فكلا من السعادة والشقاوة في الآخرة منوط بالأعمال:

أما ارتباط الجزاء المعد للمؤمنين بالعمل، فتنص عليه الآيات الكثيرة في معرض التهنئة للمؤمنين على أعمالهم، قال تعالى:﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الطور:19) وقال تعالى:﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ (الحاقة:24) وقال تعالى:﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (المرسلات:43)

ويذكر القرآن الكريم فرح المؤمنين بما قدموه من أعمال بعد أن رأوا أنواع الجزاء المعدة لهم، قال تعالى:﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: 43)

وعدل الله المرتبط برحمته، لا ينقص لهم أي جزاء يجازيهم به، ولو أضيف من ذلك الجزاء لأبنائهم، قال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (الطور:21)

ويربط الله تعالى بين صبرهم على تحقيق حكمة الله من خلقهم وبين جزائهم، فيقول تعالى:﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (المؤمنون:111) ويقول تعالى:﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ (الانسان:12)

ولا يتعارض هذا مع ما ورد من النصوص من أن دخول الجنة هو بمحض الرحمة، كما قال ﷺ:(لن يدخل أحداً منكم عملُه

الجنـةَ)، قـالوا:(ولا أنت يـا رسـول اللّـه؟)، قـال:(ولا أنـا إلا أن يتغمدني اللّه تعالى برحمة منه وفضل)(1)

بل كما أخبر تعالى عن مقالة المؤمنين بعد دخـولهم الجنـة من أنهم يقولـون:﴿ الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَـزَنَ إِنَّ رَبَّنَـا لَغَفُـورٌ شَـكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَـا دَارَ الْمُقَامَـةِ مِنْ فَضْـلِهِ لا يَمَسُّـنَا فِيهَـا نَصَـبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (فاطر:34 ـ 35)

فإن أقل نعمة من نعم الله تعـالى على عبـاده لا تكفئهـا جميـع طاعـات العبـد، بـل إن الطاعـة نفسـها نعيم من نعم اللـه، فكيـف يكون النعيم جزاء على النعيم، وقد ورد في الحديث عن جابر قال: خرج علينا رسول اللّه ﷺ فقال: خرج من عندي خليلي جبريل آنفـا فقال: يا محمد! والذي بعثك بالحق إن لله عبدا من عباده عبد اللـه تعالى خمسـمائة سـنة على رأس جبـل في البحـر عرضـه وطولـه ثلاثون ذراعا في ثلاثين ذراعا والبحر المحيط به بأربعة آلاف فرسخ من كل ناحية، وأخرج الله له عينا عذبة بعرض الاصـبع تـبيض بمـاء عذب فتستنقع في أسفل الجبل، وشجرة رمان تخرج في كل ليلـة رمانة فتغذيه يومه، فإذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء وأخذ تلـك الرمانة فأكلها ثم قام لصلاته فسأل ربه عند وقت الاجل أن يقبضه ساجدا وأن لا يجعل للارض ولا لشئ يفسده سبيلا حتى يبعثـه وهـو ساجد، ففعل، فنحن نمر عليه إذا هبطنا وإذا عرجنـا، فنجـد لـه في العلم أنه يبعث يوم القيامة

فيوقف بين يدي اللـه تعـالى فيقـول لـه الـرب تبـارك وتعـالى: أدخلوا عبدي الجنة برحمـتي، فيقـول: يـا رب! بـل بعملي، فيقـول الله: حاسبوا عبدي بنعمتي عليه وبعملـه، فتوجـد نعمـة البصـر قـد أحاطت بعبادة خمسـمائة سـنة وبقيت نعمـة الجسـد فضـلا عليـه، فيقول: ادخلوا عبدي النار، فيجر إلى النـار فينـادي: رب! برحمتـك أدخلني الجنة، فيقول: ردوه، فيوقـف بين يديـه فيقـول: يـا عبـدي! من خلقك ولم تكن شيئا؟ فيقول: أنت يـا رب! فيقـول: من قـواك لعبادة خمسمائة سنة؟ فيقول: أنت يا رب! فيقول: من أنزلـك في جبل وسط اللجة وأخرج لك الماء العذب من الماء المـالح وأخـرج لك كل ليلة رمانة وإنما تخرج في السنة مرة؟ وسألتني أن أقبضك ساجدا ففعلت ذلك بـك؟ فيقـول: أنت يـا رب! فقـال اللـه: فـذلك برحمتي، وبرحمتي أدخلك الجنة، قال جبريل: إنما الاشـياء برحمـة

1) رواه أحمد ومسلم وغيرهما.

الله يا محمد(1).

وهذه النظرة النافية للغرور هي التي تقي المؤمن من انحراف بعض الناس والطوائف الذين جرهم فهمهم الخاطئ لمعنى العـدل الإلهي إلى أن يطلبـوا الجـزاء من اللـه، كمـا يطلبـه الأجـير من المستأجر، متكلين على حولهم وقوتهم وعملهم.

وكأنهم يتصورون أن الجنة عـوض حقيقي عن العبـادة، أو كـأن العبادة عوض حقيقي ينتفع به الله تعالى عما يقولـون علـوا كبـيرا، فالله تعالى غني عن العـالمين إن أحسـنوا أحسـنوا لأنفسـهم، وإن أسـاؤا فلهـا، لهم ماكسـبوا وعليهم مـا اكتسـبوا، من عمـل سـالحا فلنفسه ومن أساء فعليها.

وقد ورد في الحديث القدسي الجليل قول اللـه تعـالى لعبـاده: (ياعبادى أني حرمت الظلم على نفسي وجعلتـه بينكم محرمـا فلا تظـالموا ياعبـادى أنكم تخطئـون بالليـل والنهـار وأنـا أغفرالـذنوب جميعا ولا أبالي فاستغفروني أغفر لكم يا عبادى كلكم ضال إلا من هديتـه فاسـتهدونى أهـدكم ياعبـادي كلكم جـائع إلا من أطعمتـه فاستطعموني أطعمكم ياعبـادي إنكم لن تبلغـوا ضـري فتضـروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ياعبادى لو أن أولكم وآخـركم وإنسـكم وجنكم كـانوا على أتقي قلب رجـل منكم مـا زاد ذلـك في ملكى شيئا ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم مانقص ذلك من ملكي شيئا ياعبادي لـو أن أولكم وآخـركم وإنسـكم وجنكم إجتمعـوا في صـعيد واحـد فسـألونى فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك في ملكي شـيئا إلا كما ينقص البحر أن يغمس فيه المخيط غمسة واحدة ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجـد خـيرا فليحمـد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)(2)

فهذا الحديث الجـامع لحقيقـة علاقـة اللـه بعبـاده هـو الأسـاس الذي يفهم به المـؤمن المـراد من العـدل الإلهي المـزين بالرحمـة الإلهية.

ولكن العدل الإلهي مع ذلك يقتضـي اختلاف أصـناف العـاملين، ولـو دخلـوا جميعـا برحمـة اللـه إلى الجنـة، فلا يسـتوي الطـائع والمقصر، ولا القريب مع البعيد.

ولذلك صنف المؤمنون في القرآن الكـريم بتصـنيفات مختلفـة

---

1) رواه الحكيم الترمذي، والحاكم، وابن حبان.
2) رواه مسلم.

كلها ثبت لها دخول الجنة، قال تعالى:﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾(فاطر: 32)

ثم قال تعقيبا على هذا التصنيف:﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (فاطر:33)

لكن درجات النعيم تختلف بحسب الأعمال، وذلك من مقتضيات العدل الإلهي، حتى لا ينال كل امرئ إلا ما كسبت يداه.

ولعله لأجل هذا خوطب المؤمنون في الجنة وهنئوا بأن أعمالهم هي التي أهلتهم لذلك، فقد ورد ذلك عند ذكر المقربين الطيبين، كما قال تعالى:﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (النحل:32)

وفي سورة الرحمن بعد ذكر نعيم المقربين قال تعالى:﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (60)﴾ (الرحمن) بينما لم يذكر ذلك عند نعيم غيرهم.

وفي سورة الواقعة بعد ذكر نعيم المقربين قال تعالى:﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24)﴾ (الواقعة)، وعندما ذكر نعيم غيرهم من أهل اليمين لم يذكر ذلك.

وبذلك، فإن الأعمال لم تؤهلهم لدخول الجنة، وإنما أهلتهم لدرجات الجنة، كما قال عبد الله بن مسعود:(تجوزون الصراط بعفو الله، وتدخلون الجنة برحمة الله، وتقتسمون المنازل بأعمالكم)(1)

وقد نص القرآن الكريم في مواضع كثيرة على استحقاق المؤمنين للدرجات بحسب أعمالهم، فقال تعالى:﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:132)

بل أخبر أن درجات الجنة أكثر بكثير من درجات التفاضل في الدنيا، قال تعالى:﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ (الاسراء:21)

وأخبر أن الدرجات العليا من استحقاق من تحققوا بحقيقة الإيمان، فقال تعالى:﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (لأنفال:4)

وهذا القانون الذي يتقاسم المؤمنون على أساسه نعيم الجنة ودرجاتها هو نفس القانون الذي يتقاسم به أهل جهنم دركات النار، والذي عبر عنه قوله تعالى:﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ

1) رواه هناد بن السري وعبد بن حميد في الزهد.

أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (الاحقاف:19)

فلا يتساوى أهل جهنم في العذاب كما لا يتساوى المؤمنون في النعيم، بل لكل حسب عمله وجهده ووسعه، قال تعالى:﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ (الاسراء:21)

هذا عن نعيم أهل الجنة.. وعلاقة عملهم بها..

أما ارتباط الجزاء المعد لأهل جهنم من الكفار والعصاة بالعمل، فتنص عليه الآيات القرآنية الكثيرة في مواضع مختلفة:

منها أن يعرض ذلك على صيغة الوعيد الإلهي الذي لا يتخلف، قال تعالى:﴿ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يونس:8)

أو أن يعرض على صيغة التبكيت والسخرية، كقوله تعالى:﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (التوبة:82)، أو قوله تعالى:﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الحجر:84)، أو قوله تعالى:﴿ وقال تعالى:﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المطففين:36)

أو على صورة إجابة أهل النار أنفسهم، كما في هذا المشهد القرآني، قال تعالى:﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ (المدثر:42 ـ 47)

وهذا يدل على قناعة أهل النار باستحقاقهم لها على مقتضى العدل الإلهي، فعدل الله تعالى الذي يقيم عليها أصناف الحجج، ويدع لهم فرص الدفاع عن أنفسهم بما شاءوا من الأساليب يضطرهم في الأخير إلى التسليم، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (الكهف:49)

فهذه الآية الكريمة تدل على ان الكفار يرون أعمالهم، وهي توزن، فيتعجبون من إحصاء الله لكل شيء مع إقرارهم بما عملوه.

ومن عدالة الله في أهل جهنم أن جعل لكل ذنب جزاءه الخاص وعقوبته التي تتناسب معه، فلا يعاقب العبد إلا بما عمل، كما قال ﷺ في الحديث القدسي:(ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد

غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) (1)

ولذلك جعل الله تعالى جهنم دركات مختلفة بعضها فوق بعض، كما قال تعالى:﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (الاحقاف:19)

وقال في الفرق بين الطرق المختلفة لتعاملهم:﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ﴾ (آل عمران: من الآية75)

بل ورد في السنة ما يدل على أن أهل جهنم مقسمون بحسب نفسياتهم وأسباب إعراضهم عن الله، وذلك في قوله ﷺ:(المرء مع من أحب) (2)، وقوله ﷺ:(خمس صلوات من حافظ عليهن كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليهن لم يكن له نور يوم القيامة ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع فرعون وقارون وهامان وأبي بن خلف)(3)

***

التفت إلينا صاحبنا الهزاز، وقال: هذا حديثي مع ذلك الرجل الفاضل.. لقد عشت في رحاب كلماته أياما جميلة.. ولكني.. سرعان ما تثاقلت إلى الأرض بعد أن عرضت علي بعض المناصب الرفيعة.. فصرت بدل أن يهتز قلبي لله محبة وشوقا وأنسا أحرك أعضائي وأرقص بها في حركات هي أقرب إلى البهلوانية منها إلى الإيمان.

لكن الله الرحمن الرحيم تداركني بلطفه، فأعاد إلى ذاكرتي الساعة تلك الأيام الجميلة التي نعمت فيها بتلك الصحبة الشريفة..

---

1) رواه مسلم.
2) رواه البخاري ومسلم.
3) رواه محمد بن نصر.

ثامنا ـ الرحيم

في اليوم التالي.. ومع طلوع الفجر الصادق قام رجل منا، وأخذ يصيح فينا بأن نقوم، وهو ممتلئ بشرا وسرورا.

وقد كان هذا الرجل ألطفنا بنا، وأحننا علينا.. وكان صاحب مشاعر حساسة، وخلق رفيع..

قمنا إليه، ونحن مثله ممتلئون بشرا وسرورا، وقلنا: هات.. بشرنا.. عرفنا بربنا.

قال - وثغره يفتر عن ابتسامة عذبة -: الحمد لله.. لقد هداني الله رب العالمين اليوم إلى معارف كثيرة.. لعلها أهم المعارف المرتبطة بما نحن فيه.. لقد تذكرتها الآن، وكأنها رأي العين.. ولست أدري ما الذي كان يحجبها عني.

قلنا: فما موضوعها؟

قال: رحمة الرحيم.. ولطف اللطيف.. وكرم الكريم.. وحنان الحنان.. ومنن المنان.. إن المعارف المرتبطة بهذه الأسماء هي العيون التي تنفتح بها خزائن رحمة الله على عباده..

وقد وفقني الله في فترة من فترات حياتي أن أتعرض لمن علمني علومها، وكشف لي أسرارها.. ولكن الغفلة حجبتني عنها.. والحمد لله الذي أتاح لها أن تعود إلى وعيي من جديد ليعود معها ذلك الأنس الجميل الذي تنعمت به عندما تعرفت عليها.

سأعرفكم بنفسي أولا قبل أن أعرفكم بالمعارف التي هداني الله إليها..

أنا (جون ماسفيلد)(1).. وقد كنت شاعرا رقيقا.. وكان قلبي كقلب كل شاعر ممتلئا بالأحاسيس المتدفقة..

ولا يجذب الشاعر الرقيق شيء مثلما تجذبه الرحمة.. ولذلك كنت أبحث عن إلهي من خلال سر الرحمة.

---

1) أشير به إلى (جون ماسفيلد) (1878 ـ 1967م)، وهو شاعر وروائي وناقد وكاتب مسرحي إنجليزي.. أصبح شاعر البلاط في إنجلترا عام 1930م لمدة 37 عامًا.. وُلد في مقاطعة هيرفورد ووستر.. ويشتهر بشاعر البحر، وشاعر تراب وغثاء الأرض وشاعر الكسيح والأعرج والضرير في المطر والزمهرير.. وكثير من أعماله يدور حول الحب والمأساة بين الناس في شروبشاير، وبين المتشردين ورجال البحر.

وقد كتب أكثر من 100 كتاب، واشتهر لأول مرة بمجموعة شعره أغنيات المياه المالحة (1902م). وأكثر أعماله ذيوعًا في أشعاره القصصية الطويلة الرحمة الأبدية (1911م)؛ الأرملة في الشارع الجانبي (1912م)؛ الملوث (1913م)؛ رينارد الثعلب (1919م) (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

ولا يخفى سر اختياره في هذا المحل.

وبمـا أني في بدايـة حيـاتي كنت أدمن على قـراءة الكتـاب المقدس.. فقد أثر ذلـك في علاقـتي باللـه تـأثيرا خطـيرا.. عشـت بسببه متألما فـترة طويلـة من حيـاتي.. كنت حينهـا أحمـل صـورة مشوهة عن الله.. صورة ممتلئة بالقسوة والغلظة والجفاء..

لقد تحول الله – بسبب تلك القـراءات المتتاليـة - في خـاطري قاسيا ظالما متعديا.. لا يملي إلا الأوامر الممتلئـة بالقسـوة والظلم والتعدي.

قال رجل منا: كيف تقول ذلك، وقـد ورد في الكتـاب المقـدس النص على كون الله رحيما بعباده:

لقد ورد في (مزمور: 103:ـ 1-ـ 19) هذه الفقرات الجميلـة.. (باركي يا نفْسي الرّبَّ، ويا كُلَ أحشائي اَسـمَهُ القـدُّوسَ بـاركي يـا نفْسي الرّبَّ ولا تَنسَي جميعَ حسَناتِهِ، يغفِـرُ جميـعَ ذنـوبي ويشْـفي جميعَ أمراضي. يفتَدي مِنَ الهُوَّةِ حياتي، وبالرَّحمةِ والرَّأفـةِ يُكلِّلُـني. يُشبِعُ بالطَّيِّباتِ جوعي، فيَتَجدَّدُ كالنَّسْرِ شبابي. الرّبُّ يُجـري العَـدلَ. ويَقضي لِجميعِ المظلـومينَ. عَـرَّفَ موسـى طُرُقَـهُ وبَـني إِسـرائيلَ أعمالَهُ. الرّبُّ رحومٌ حنـونٌ، صَـبورٌ وكثـيرُ الرَّحمـةِ. لا يُخاصِـمُ على الدَّوام، ولا إلى الأبدِ يحقُدُ. لا يُعامِلُنا حسَبَ خطايانا ولا حسَبَ ذُنُوبِنا يُجازِينا. كارتِفاعِ السَّماءِ عَنِ الأرضِ ترتَفِعُ رَحمتُهُ على خائِفيهِ. كبُعـدِ المشـرقِ مِنَ المغـربِ يُبعِـدُ عنَّا معاصـيَنا. كرحمَـةِ الأبِ على بَنيـهِ يرحَمُ الـرَّبُّ أتقيـاءَهُ، لأَنَّهُ عـالِمٌ بِجبلتِنـا ويـذكُرُ أننـا تُـرابٌ. الإنسـانُ كالعُشْبِ أيّامُهُ، وكزهرِ الحقلِ يُزهِرُ. تعبُرُ رِيحٌ فلا يكـونُ، ولا يُعـرَفُ مَوضِعُهُ مِنْ بَعدُ. أَمَّا رَحمةُ الرّبِّ فمِنَ الأزَلِ وإلى الأبدِ على خائِفيهِ. عَدلُهُ لِبَني البنينَ، للذينَ يُراعونَ عَهدَهُ ويذكُرونَ فيَعمَلـونَ بـأوامِرِهِ. عرشُ الرّبِّ ثابِتٌ في السَّماءِ، وملكوتُهُ يسُودُ على الجميعِ)

قال: نعم.. لقد كنت أقرأ هذه النصـوص فـأمتلئ فرحـا.. ولكن فرحي سرعان ما يمتلئ بالكآبة عندما أقرأ النصوص الأخرى الـتي ترتد على تلك النصوص، فتنسخ معانيها الجميلة.

سأقرأ عليك منها لتكتشف الحقيقة بنفسك..

لقـد ورد في (أشـعياء66 /ـ 16): (لأن الـرب بالنـار يعـاقب وبسيفه على كل بشر ويكثر قتلى الرب)

لقد كنت أقرأ هذه النصوص المقدسة.. فأكاد أفر من الله هربا منه.. وهربا من قسوته:

لقد جـاء في وفي (ارميـا: 48/10): (ملعـون من يعمـل عمـل الرب برخاء وملعون من يمنع سيفه عن الدم)

وقد وجدت فوق ذلك أن الكتاب المقـدس هـو الكتـاب الوحيـد فى العالم الذى يـأمر بقتـل الأطفـال.. حـتى كتب النازيـة لم تـأمر بقتل الأطفال الرضع أو شق بطون الأمهـات وإخـراج مـا فيهـا من أجنة وقتلهم.. بل حتى الأطفال والشيوخ والنسـاء والحمـير والغنم والبقر لم يسلموا من القتل والذبح على ضـوء تعـاليم إلـه الكتـاب المقدس:

لقــد ورد في (حزقيــال:9 /6): (الشــيخ والشــاب والعــذراء والطفل والنساء اقتلوا للهلاك. ولا تقربوا من إنسـان عليـه السـمة وابتدئوا من مقدسي. فابتدأوا بالرجال الشيوخ الذين أمام البيت)

وفي (يشوع: 6 /21): (وحرّموا كل مـا في المدينـة من رجـل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف)

وفي (صموئيل 1:15 /2): (هكـذا يقـول رب الجنـود. إني قـد افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل حين وقف له في الطريـق عنـد صعوده من مصر)

وفي (صــموئيل 1:15 /3): (فــالآن اذهب واضــرب عمــاليق وحرمــوا كـل مـا لـه ولا تعـف عنهم بـل اقتـل رجلا وامـرأة. طفلا ورضيعا. بقرا وغنما. جملا وحمارا)

وفي (صموئيل 1:15 /8): (وأمسك اجـاج ملـك عمـاليق حيّـا وحرّم جميع الشعب بحد السيف.وعفا شـاول والشـعب عن اجـاج وعن خيـار الغنم والبقــر والثنيــان والخــراف وعن كــل الجيــد ولم يرضـوا ان يحرّموهـا. وكـل الأملاك المحتقـرة والمهزولـة حرّموهـا وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلا: نـدمت على أني جعلت شـاول ملكا لأنه رجع من ورائي ولم يقم كلامي. فاغتاظ صـموئيل وصـرخ إلى الرب الليل كله)

انظروا.. فمن فرط قسوة الرب ندم وغضب على شـاول لأنـه عفى عن الملك (أجاج) وبعض الحيوانات؟

وفي (هوشع:13 /16):(تجازى السامرة لأنها قد تمـردت على إلهها. بالسيف يسقطون. تحطم أطفالهم والحوامل تشقّ)

وفي (مزمـور:137 /8): (يـا بنت بابـل المخربـة طـوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا.. طوبى لمن يمسك أطفالك ويضـرب بهم الصخرة)

وفي (إرميا45 /4): (هكذا تقول لـه. هكـذا قـال الـرب. هانـذا اهدم ما بنيته واقتلع ما غرسته وكل هذه الأرض)

وفي (عـاموس:2 /3): (واقطـع القاضـي من وسـطها واقتـل

جميع رؤسائها معه قال الرب)

وفي (إرميا 16 /3): (لأنه هكذا قال الرب عن البنين وعن البنات المولودين في هذا الموضع وعن امهاتهم اللواتي ولدنهم وعن آبائهم الذين ولدوهم في هذه الارض ميتات امراض يموتون.لا يندبون ولا يدفنون بل يكونون دمنة على وجه الارض وبالسيف والجوع يفنون وتكون جثثهم أكلا لطيور السماء ولوحوش الارض)

بل حتى النصوص التي نفخر بها، ونتصور من خلالها رحمة الله المطلقة بعباده كما في (رومية:8 /32): (الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا أيضا معه كل شيء) كنت أراها نصوصا ممتلئة بالقسوة، فكيف يقسو والد على والده بتلك القسوة التي حصلت للمسيح بالصلب(1).

قلنا: كلنا يعرف ما في الكتاب المقدس من أمثال هذه النصوص.. ولكنا اجتمعنا بك لتحدثنا عن ربنا الحقيقي.. ربنا الذي لم تشوه صفاته أقلام الكتبة الكذبة.

قال: أجل.. سأحدثكم عن ذلك.. فلأجله جمعتكم..

ففي يوم من أيام الله لا أزال أذكره جيدا التقيت رجلا لم ألتق مثله في حياتي.. تعلمت على يده من أسرار رحمة الله ما نسخ عني تلك الأباطيل التي ملأني بها الكتاب المقدس..

قلنا: أين التقيت به؟

قال: في السجن..

قلنا: عجبا.. أمثلك دخل السجن؟

قال: لم أدخله مسجونا.. بل دخلته شاعرا.

قلنا: أراك تزيد الإغراب إغرابا.. فأوضح.

قال: لقد ذكرت لكم أني شاعر.. وشاعر يحن إلى تصوير الألم أكثر من حنينه إلى تصوير الأمل.. ولذلك جعلت قبلتي لليتامى والمساكين والمستضعفين والمحرومين..

في تلك الأيام التي التقيت فيها من تعلمت على يده أسرار الرحمة الإلهية.. بدا لي أن أزور السجن..

وهناك استقبلني من كان يعرفني من مسؤوليه.. وقدموا لي كل قرابين الاحترام.. وقد سألتهم أن يضعوني بين يدي السجناء.. لأحدثهم، ويحدثوني.. وقد استغربوا ذلك مني كما استغربتم أنتم

---

1) طبعا هذا على ما يعتقد المسيحيون، وسنرى الأدلة الكثيرة المثبتة لخلاف ذلك في هذه السلسلة.

ذلك مني.

لكن أحـدهم قـال لي: لاشـك أنـك سـمعت بالسـجين العجيب الذي دخل سجننا هذه الأيام.

قلت: لا.. لم أسمع.. ولكن ما قصته؟

قال: لقد زارنا في هـذه الأيـام سـجين عجيب لم نـر مثلـه في حياتنا..

قال آخر: أجل.. إنـه سـجين أسـرنا بكلماتـه.. لقـد صـرنا نـرى أنفسنا سجناء بالنسبة للجنة الفسيحة التي يعيش فيها.

قال آخر: أجل.. منذ سمعت كلماته، وأنا لا أحن لشـيء حنيـني للعمـل في هـذا السـجن.. ولسـت أخـاف من شـيء خـوفي من خروجه منه.

قلت: لقد شوقتموني.. فمن هذا السجين العجيب؟

قال مسؤول السجن: إنه رجل تجرع كل الآلام.. لقد ذاق وأهل بيته من الألم ما لم يذق مثله أحد.. ومع ذلك تراه كـالبحر المحيـط لا يتحرك، ولا يتزعزع.

قال آخر: بل إن الإعدام ينتظره.. فلم يبق بينه وبين المـوت إلا أيام معدودة.. ومن حسن حظك أننا لم نعدمه قبل حضورك.

قلت: فهل يعلم بأنه سيعدم قريبا؟

قال المسؤول: أجـل.. وقـد تعجبت من موقفـه عنـدما أعلمتـه بالخبر.. لقد ظللت وقتـا طـويلا أتـردد في إخبـاره، وفي الأسـلوب الذي أخبره به.. ولكني ما إن دخلت عليه، وهـو يحـدث رفاقـه في السجن، وأخبرته حتى نظر إلي بابتسامته المعهودة، وشكرني كمـا كان يشكرني كل حين.. ثم راح يواصـل حديثـه.. وكـأني لم آت لـه بما تتزعزع له قلوب الرجال.

قلت: لقد رغبتموني في الجلوس إليه.. فما اسمه؟

قـال المسـؤول: لقـد اختـار أصـحابه أن يطلقـوا عليـه لقب (الكاظم)(1)

---

1) أشير به إلى الإمام الجليل (موسى الكاظم بن جعفـر الصـادق) (128 ـ 183 هــ)، وهو سابع أئمة أهل البيت – على مـذهب الاثنـا عشـرية- ويعـرف بألقـاب متعـددة منهـا: الكاظم ـ وهو أشهرها ـ والصابر والصالح.

كان أعبد أهل زمانه وأزهدهم وأفقههم، وكان يدعى العبد الصالح من عبادته واجتهاده، وقد أخذ عنه العلماء فأكثروا، ورووا عنه في فنون العلم ما ملأ بطون الدفاتر، وألّفـوا في ذلك الموَلّفات الكثيرة، المروية عنهم بالآسانيد المتصلة، وكان يعرف بين الرواة بالعالم.

وكان جليـل القـدر، عظيم المنزلـة، مهيب الطلعـة، كثـير التعبّـد، عظيم الحلم، شـديد التجاوز حتى لقّب بالكاظم، وقد لاقى من المحن ما تنهدّ لهولها الجبـال، فلم تحـرك منـه طرفاً، بل كان صابراً محتسباً كحال آبائـه وأجـداده.. وكـان أحمـد بن حنبـل إذا روى عنـه قال: حدثني موسى بن جعفر، قال: حدثني أبي جعفر بن محمد، قال: حـدثني أبي محمـد

قال آخر: ليس هناك لقب يصدق عليه كما يصدق عليه هذا اللقب.. لكأنه بحر محيط لا يكدر، ولا يتغير.

نهضت من الكرسي الذي كنت أجلس عليه.. وقلت: لا.. لا يمكنني الصبر أكثر من هذا.. مر يا صديقي.. يا صاحب السجن بإيداعي معه هذه الأيام.. أريد أن أسجن معه إلى أن يأتيه أجله.

ابتسم مسؤول السجن، وقال: لقد أصابك ما أصابنا.. إن كل من تراهم من رفاقنا يحلمون بما تحلم به.. كلهم يستعمل كل الأساليب والوسائل ليتصنت على تلك الكلمات العذبة التي يتفوه بها ذلك الفم الطاهر.

قلت: هيا.. أسرع.. مر بي إلى السجن.. أريد أن لا يشعر إلا بأني سجين كسائر السجناء.. فأنا أخشى إن عرف حقيقتي أن يتغير عن الصفة التي حدثتموني عنها.

ابتسم المسؤول، وقال: لا تزال لا تعرفه.. والله لو حضر ملك هذه البلاد بنفسه لما اهتز له عرق، ولا تحرك له جفن.. إنه كالجبل

بن علي، قال: حدثني أبي علي ابن الحسين، قال: حدثني أبي علي بن أبي طالب، قال: قال رسول اللّٰه ﷺ ، ثم قال أحمد: (وهذا إسناد لو قرئ على المجنون لأفاق)

وقد روي عن أبي حنيفة أنّه حجّ في أيّام الصادق، فلمّا أتى المدينة دخل داره وجلس ينتظر فخرج صبي، فسأله أبو حنيفة عن مسألة، فأحسن الجواب، قال أبو حنيفة: فأعجبني ما سمعت من الصبي، فقلت له ما اسمك؟ فقال له: (أنا موسى بن جعفر..) فقلت له: ياغلام ممّن المعصية؟ فقال: (إنّ السيئات لا تخلو من إحدى ثلاث، إمّا أن تكون من اللّٰه وليست منه، فلا ينبغي للرب أن يعذب العبد على ما لا يرتكب، وأمّا أن تكون منه ومن العبد وليست كذلك، فلا ينبغي للشريك القوي أن يظلم الشريك الضعيف، وأمّا أن تكون من العبد وهي منه، فإن عفا فبكرمه وجوده، وإن عاقب فبذنب العبد وجريرته)

وكان يسكن المدينة، فأقدمه المهدي بغداد وحبسه، فرأى في النوم الإمام عليّا وهو يقول: يامحمد: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إن تَوَلَّيْتُمْ أن تُفْسِدُوا في الأَرض وتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُم ﴾ (محمّد: 22) فأطلقه وردّه إلى المدينة، فأقام بها إلى أيام هارون الرشيد.

من كلامه: (وجدت علم الناس في أربع: أوّلها: أن تعرف ربك، والثانية: أن تعرف ما صنع بك، والثالثة: أن تعرف ما أراد منك، والرابعة: أن تعرف ما يخرجك عن دينك)

وقال: (المؤمن مثل كفتي الميزان كلّما زيد في إيمانه زيد في بلائه)

وقال: (تفقّهوا في دين اللّٰه فإنّ الفقه مفتاح البصيرة وتمام العبادة، والسبب إلى المنازل الرفيعة والرتب الجليلة في الدين والدنيا، وفضل الفقيه على العابد كفضل الشمس على الكواكب، ومن لم يتفقه في دينه لم يرض اللّٰه له عملاً)

وقد اتفقت كلمة المؤرّخين على أنّ هارون الرشيد قام باعتقال الإمام الكاظم وإيداعه السجن لسنين طويلة، مع تأكيده على سجّانيه بالتشديد والتضييق عليه، وذكر أنّه لما طال به الحبس كتب إلى الرشيد يقول:(إنّه لم ينقضِ عني يوم من البلاء إلاّ انقضى عنك يوم من الرخاء، حتى يفضي بنا ذلك إلى يوم يخسر فيه المبطلون)

ولم يزل ذلك الأمر بالإمام يُنقل من سجن إلى سجن حتى انتهى به الأمر إلى السّندي بن شاهك،وكان فاجراً فاسقاً، لا يتورّع عن ارتكاب أي شيء تملّقاً ومداهنة للسلطان، فغالى في التضييق عليه حتى جاء أمر الرشيد بدسّ السم له، فأسرع السندي إلى إنفاذ هذا الأمر العظيم، فاستشهد بعد طول سجن ومعاناة، وذلك في سنة ثلاث وثمانين ومائة. (انظر: موسوعة أصحاب الفقهاء)

الصامد.. يفعل ما يراه صوابا.. لا يهمـه من يكـون معـه.. ولا يهمـه من يكون ضده.

قال آخر: وهذا الذي جعله يتردد على السجون كل حين..

قال آخـر: لقـد حـاول كـل الطغـاة إغـراءه.. لكنهم كـانوا كمن يحاول أن يحرك الجبل عن مكانه.

قلت: هيا.. أنا ذاهب إليه.. أمرتم أو لم تأمروا.

ضحك صديقي صاحب السجن، وقال: مهلا.. هل تريد أن تدخل السجن بثيابك.. لأهل السجن ثيابهم.. ولا يمكنـك أن تكـون سـجينا من دونها.

قلت: هلم لي بها.

***

دخلت إلى السجن.. فرأيته كالشـمس أو قريبـا من الشـمس.. وكان المحيطون به منشغلون تماما بالنظر إليه، وبسماع كلماته..

عندما دخلت نظر إلي، والابتسامة على شـفتيه، وقـال: مرحبـا بشاعر المستضعفين.. هلم لأدلك على رب المستضعفين..

تعجبت من معرفته بي.. لكني حاولت أن أظهر أمامـه بوصـف المستكبر المتعجرف، فقلت: ومن أنت حتى تعرفني بـربي؟.. لقـد قـرأت الكتـاب المقـدس.. واكتفيت بمـا عرفـني بـه أنبيـاء اللـه وقديسوه.

قال: في أي سفر؟.. أفي سفر (حزقيـال:9 /6) الـذي يقـول: (الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء اقتلوا للهلاك. ولا تقربوا من إنسان عليـه السـمة وابتـدئوا من مقدسـي. فابتـدأوا بالرجـال الشيوخ الذين أمام البيت)؟

أم في سفر (يشوع: 6 /21) الذي يقول: (وحرّموا كل مـا في المدينـة من رجـل وامـرأة من طفـل وشـيخ حـتى البقـر والغنم والحمير بحد السيف)؟

أم في سفر (صـموئيل 1:15 /3) الـذي يقـول: (فـالآن اذهب واضرب عماليق وحرموا كل مـا لـه ولا تعـف عنهم بـل اقتـل رجلا وامرأة. طفلا ورضيعا. بقرا وغنما. جملا وحمارا)؟

في أي هذه الأسفار؟

لم أجد مـا أجيبـه بـه، فقـال: ليس هـذا وحـده مـا في الكتـاب المقدس.. فهو وإن حوى الضلال، فقد حوى الهدى..

ففيه أن الرب:(حنونٌ رحومٌ. بطيءٌ عنِ الغضَبِ، كثيرُ الرَّحمةِ) ((يوئيل 2: 7)

لست أدري كيف تخليت عن كبريائي، وقلت: فكيف تحكم في هذا التناقض؟

قال: لاشك أن النصوص التي تشوه الرب من كتابة الكذبة.. والنصوص التي تمدحه من كتابة الكتبة.

قلت: وما أدراك.. لعل النصوص التي تشوهه هي النصوص التي تذكر الحقيقة.

قال: لا.. يستحيل ذلك.. يستحيل أن تتناقض كلمات الله مع أكوان الله.

قلت: ولكن الكل ورد في كتاب واحد.

قال: إن عناية الله بعباده تداركتهم فأرسلت من التصحيحات ما لم تفطنوا إليه.

قلت: أين هي؟

قال: في القرآن الكريم في عهد الله الأخير لعباده.. لقد تدارك الله الرحيم عباده بعدما حرفوا وغيروا وبدلوا بكتاب يصحح ما وقعوا فيه من أخطاء.

قلت: إن التسليم لكلامك يقتضي بحوثا كثيرة.. فما أدراني أن محمد نبي حتى أصدق أن له كتابا قد أوحي إليه.

قال: ومن أخبرك أن أنبياء الكتاب المقدس أنبياء حتى تسلم لهم؟

قلت: لقد آتاهم الله من المعجزات والدلائل ما يبرهن على ذلك؟

قال: وقد آتى الله محمدا من الآيات والبراهين ما آتاهم.. ولا تزال آياته تسطع كل يوم بجديد.

قلت: فأنت الآن تبشر بذلك؟

قال: أنا الآن بين أصحابي من السجناء أبشرهم بالله الرحمن الرحيم اللطيف الكريم الذي من علي وعليهم من المنن ما لا يعده العاد، ولا يحيط به المحيط.. فإذا عرفوا رحمة الله وشربتها أرواحهم أدركوا أن الله الرحيم الرحمن يستحيل أن يترك عباده هملا دون أن ينقذهم برسول يخلصهم من أهوائهم ونفوسهم وشياطينهم ليزج بهم في بحار رحمة الله.

قلت: فأنت تتخذ إذن من الدعوة لربك الرحيم وسيلة للدعوة لدينك ونبيك؟

قال: إن كان ديني هو الدين الحق.. وإن كان نبيي هو النبي الصادق الذي دلت على نبوته كل الدلائل.. فما الحرج في أن أدعو

إليه، وأستعمل كل الأساليب المشروعة لذلك..
هل ترى أن الطبيب الذي وفقه الله، فهداه لأنواع من الدواء عجز عنها غيره من الأطباء مخطئا إن عرف الناس بجدوى الأدوية التي وفقه الله لاكتشافها؟
قلت: بل هو مخطئ إن قصر في ذلك.
قال: فذلك الطبيب هو أنا.. لقد سرت في الأرض.. وبحثت في الأديان والمذاهب.. ولم أترك أحدا إلا سألته.. ولكني لم أجد دينا انسجم مع الكون.. ولم أجد معارف ترتبط بمصدر هذا الكون تنسجم مع قوانين الكون وسننه مثلما وجدت في الإسلام، وعند نبي الإسلام.
قلت: والمسيحية؟.. لعلك لم تطلع على تلك الرحمة العظيمة التي يذكرها الكتاب المقدس عن إله المسيحيين..
لعلك لم تقرأ ما ورد في رسالة يوحنا، فقد قال: (أيها الاحباء لنحب بعضنا بعضاً، لأن المحبة من الله وكل من يحب الله فقد ولد من الله)(يوحنا1/4:7)
وقد كتب يوحنا هذه العبارة التي لا يوجد مثلها في أي كتاب من الكتب المقدسة: (لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به) (يوحنا 3: 16)
ابتسم، وقال(1): لقد أصابني في فترة من حياتي بعض الانبهار من هذه العبارات الجميلة.. لكني عندما حاولت أن أعيش معانيها لم أجد فيها من المعاني الروحانية اللذيذة ما يمكن أن أعيشه.. بل عندما طبقت تلك العبارة على موازين الكون لم أجد لها أي وزن.
قلت: لكني وجدتها تزن كل شيء.
قال: لا بأس.. لنترك الجدل.. ولنترك الأنا.. ولنبحث فيما يقول العقل.. العقل الذي وضع برنامجه ربنا ورب الخلائق جميعا..
لاحظ بعين العقل والمنطق والروح تلك العبارة الأخيرة التي بهرتك كما بهرت الملايين من غير أن يعرفوا معناها.
ألا ترى أنها تحمل تصويرا مشوها عن الله يصرف القلوب عنه.. بل قد يملؤها ببغضه!؟
قلت: ما تقول؟.. إنها تدل على رحمة الله التي لا حدود لها.
قال: سنطبق مقاييس عقولنا على هذا.. أجبني.. أرأيت لو أنك.. وأنت صاحب الدار.. دعوت ضيوفا إلى بيتك لتطعمهم من

---

1) بعض ما نذكره هنا من حوار ذكرنا مثله أو قريبا منه في رسالة (ثمار من شجرة النبوة) من هذه السلسلة، فصل (روحانية)

طعامك، وتسقيهم من شرابك.. ثم بدر من أحد ضيوفك ما أساء إليك.. فنظرت إليهم نظرة غضب تريد أن تبطش بهم.. ثم سرعان ما تحولت إلى حليم رحيم.. ولكنك لم تعف عنهم.. وإنما ذهبت إلى ولدك الوحيد لتضعه على الصليب، وتقتله شر قتلة أمام أعين ضيوفك، فإذا سألوك عن سر ما تفعله، قلت لهم: لأجل أن أكفر عن خطاياكم.

فإذا سألوك: لم؟.. ألا يمكن أن تكفر عن خطايانا بغير هذا الأسلوب؟

قلت لهم: لقد وضعت قانونا، بأني لا أكفر الخطايا إلا بالدم..

فإذا سألوك: ألا يمكن أن تتنازل عن قانونك هذه المرة؟

قلت: لا..

فإذا سألوك: لم؟

قلت: لأني عادل.

فإذا سألوك: فلم عاقبت من لم يستحق العقوبة إذن؟

قلت: لأني رحيم.

التفت إلي، وقال: ألا ترى هذا نوعا من الجنون!؟

هل الذي يحب العالم لا يحب ابنه الوحيد.. ثم كيف يحب الله العالم، ولا يحب ابنه؟.. ثم.. هل الذي يحب العالم يقتل ابنه الوحيد!؟

ثم.. كيف نثق بإله لم يشفق على ابنه من أجل غفران خطيئة مذنب آخر؟ كما يقول بولس في (رومية 8: 32): (الذي لم يشفق على ابنه، بل بذله لأجلنا أجمعين)

لقد نسب بولس إلى الله عدم الشفقة.. أي القسوة.

ألا توجد طريقة أخرى عند إله المحبة بدلاً من قتل ابنه المزعوم لإنقاذ غيره!؟

وهل اقتضت رحمته ألا يُعالج هذه الجريمة إلا بجريمة أبشع منها؟

وهل صحيح ما يقوله بولس الذي حجر على الله المغفرة في رسالته إلى العبرانيين (9:ـ 22)، فقال: (وكل شئ تقريبا يتطهر حسب الناموس بالدم وبدون سفك دم لا تحصل مغفرة).. أهذا إله يمكن أن يكون محبوبا.. الإله العاشق للدماء.. الذي لا يكفر الخطايا إلا بعد أن يسفك الدماء؟

ثم كيف يتطهر العباد الذين لم يجاهدوا أنفسهم في ذات الله.. أبالانتحار.. حتى يقدموا قرابين لله الذي يحب الدماء.. أم بالإيمان

والذكر والعبادة والتوجه!؟

لم أجد ما أقول، فقال: لا بأس.. ففي الكتاب المقدس ما يفند كل هذه الأباطيل التي نسبت لربنا ورب المسيحيين ورب الخلائق جميعا.. لقد جاء فيه ما يبين أن الله الرحيم الرحمن أكرم من أن يحتاج إلى الذبيحة حتى يطهر عباده.. اسمع ما ورد في (هوشع: 6 : 6-7): (إني أطلب رحمة لا ذبيحة، ومعرفتي أكثر من المحرقات. ولكنكم مثل آدم، نقضتم عهدي)

وفيه (هوشع 14:ـ 1-3): (ارجع تائبا يا إسرائيل إلى الرب إلهك، لأنك قد تعثرت بخطيئتك. احملوا معكم كلام ابتهال وارجعوا إلى الرب قائلين له: انزع إثمنا، وتقبلنا بفائق رحمتك، فنزجي إليك حمد شفاهنا كالقرابين. إن أشور لن تخلصنا، ولن نعتمد على خيول مصر لإنقاذنا، ولن نقول للأوثان صنعة أيدينا: (أنتم آلهتنا) لأن فيك وحدك يجد اليتيم رحمة)

وفي (ميخا 6:ـ 6-8): (يارب: بماذا أتقدم عندما أمثل أمام الرب وأسجد في حضرة الله العلي؟ هل أتقدم منه بمحرقات وبعجول حولية؟ هل يسر الرب بألوف أنهار زيت؟ هل أقرب بكري فداء إثمي وثمرة جسدي تكفيرا عن خطيئة نفسي؟ لقد أوضح لك الرب أيها الإنسان ما هو صالح. وماذا يبتغي منك سوى أن تتوخى العدل، وتحب الرحمة، وتسلك متواضعا مع إلهك)

وفي (مزمور 40:ـ 6): (لم ترد أو تطلب ذبائح ومحرقات عن الخطيئة، لكنك وهبتني أذنين صاغيتين مطيعتين)

وفي (مزمور 51: 16 – 17): (فإنك لا تسر بذبيحة، وإلا كنت أقدمها. بمحرقة لا ترضى. إن الذبائح التي يطلبها الله هي روح منكسرة. فلا تحتقرن القلب المنكسر والمنسحق يالله)

وفي (مزمور 69: 30 –31): (أسبح اسم الله بنشيد وأعظمه بحمد. فيطيب ذلك لدى الرب أكثر من محرقة: ثور أو عجل)

وفي سفر (إرمياء: 7:ـ 22): (هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: ضموا محارقكم إلى ذبائحكم وكلوا لحما، لأني لم أكلم آبائكم ولا أوصيتكم يوم أخرجتهم من أرض مصر بشأن محرقة وذبيحة، بل إنما أوصيتهم بهذا الأمر قائلا: إطيعوا صوتي فأكون لكم إلها وأنتم تكونون لي شعبا، وسيروا في الطريق الذي أوصيتكم به ليحسن إليكم)

نظر إلي، وقال: هذه الحقائق التي ذكرها الأنبياء تنقض تلك الدعاوى التي ادعاها بولس.. فالله أرحم من أن يحتاج إلى ذبيحة.

قلت: لا بأس.. فلنفرض أني سلمت لك بهذا.. لكن ألم تــر في سائر الأديان ما تجد فيه ضالتك؟

قال: بلى.. لقد وجدت..

قلت: فلم لم تلتزم بها.. وذهبت إلى هذا الذي يدعونه محمدا.

قال: لقد وجدت فيها الحق مختلطـا بالباطـل.. والخـير معجونـا مع الشر.. والأهواء متلبسة بالحكمة..

وقد قلت لنفسي عندما وجدت كل هذا: يســتحيل على من ملأ هذا الكون بمظاهر رحمته التي لا حـدود لهـا أن يـدع الأمـر هكـذا.. لابــد أن يرســل إلينــا من يمــيز الحــق من الباطــل، والطيب من الخبيث..

قلت: وقد وجدت ذلك في الإسلام؟

قال: أجل.. لقد وجدت القـرآن الكـريم.. كلام اللـه العظيم.. لا يفتأ كل حين من التذكير برحمة الله..

لقد كانت أول آية صادفتني هي:﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) ﴾ (الفاتحة).. ثم وجدت هذه الآيـة الكريمـة تـردد في بدايـة كـل سـورة.. وكأنهـا تقـول لنـا: إن صـاحب هـذا الكلام هـو إلـه رحيم رحمن..

ثم قرأت القرآن تحت ظلال هـذا الاسـم.. فوجـدت أن القـرآن كله كتاب رحمة..

اسمع لهذه السورة التي سميت في القرآن بسورة الــرحمن.. اسمع..

راح يقـرأ: ﴿ الـرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُـرْآنَ (2) خَلَـقَ الْإِنْسَـانَ (3) عَلَّمَـهُ الْبَيَـانَ (4) الشَّـمْسُ وَالْقَمَـرُ بِحُسْـبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّـجَرُ يَسْـجُدَانِ (6) وَالسَّـمَاءَ رَفَعَهَـا وَوَضَـعَ الْمِـيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَـوْا فِي الْمِـيزَانِ (8) وَأَقِيمُـوا الْـوَزْنَ بِالْقِسْـطِ وَلَا تُخْسِـرُوا الْمِـيزَانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) فِيهَـا فَاكِهَـةٌ وَالنَّخْـلُ ذَاتُ الْأَكْمَـامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْـفِ وَالرَّيْحَـانُ (12) فَبِـأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ (13) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَـانَّ مِنْ مَـارِجٍ مِنْ نَارٍ (15) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (16)﴾ (الرحمن)

هذا بعض ما في هـذه السـورة من تعـداد مظـاهر رحمـة اللـه بعبـاده.. إنـك إن تأملتهـا وتـأملت المعـاني العظيمـة الـواردة فيهـا والواردة في القرآن جميعا تجدها جميعا تصب في ناحيتين: كلاهمـا لا غنى عنهما للإنسان.. بل لا غنى عنهما للكون جميعا..

إنهما: العناية بما يجتاجه الكائن في جانبـه التكويـني.. والهدايـة

التي يحتاجها الكائن ليبصر الحياة بالصورة الحقيقية التي صورها الله..

لقد ذكر القرآن كلا الأمرين في الحوار الذي جرى بين موسى وفرعون، فقال:﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51)﴾ (طه)

إن قوله:﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ يدل على العناية.

وقوله:﴿ ثُمَّ هَدَى ﴾ يدل على الهداية.

قلت: فهل ستحدثني عنهما؟

قال: أجل.. سأحدثك، وأحدث أصحابي عنهما من خلال قراءة اسمين من أسماء الله الحسنى دلت عليهما أكوان الله، وكلمات الله.

قلت: فما هما؟

قال: الرب.. والهادي.

1 ـ الرب

قلت: فحدثني عن الرب.

قال: لقد امتلأ كتابنا المقدس بذكر ما أفاض الله على عباده من نعم عنايته بهم..

ومن ذلك منته عليهم بالتكريم، وما يتطلبه التكريم من أنواع التسخير، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70) ﴾ (الإسراء)

ومن ذلك ما هيأه لهم من أنواع الألطاف المرتبطة بالبيئة التي وجدوا فيها، فهي مهيأة لهم أرضا وسماء، قال تعالى:﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18)﴾ (النحل)

ومن ذلك ما أخرج لهم من الأرض، وما أنزل لهم من السماء، وما سخر لهم من البحار والأنهار.. قال تعالى:﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ

وَالنَّهَارَ (33) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)﴾ (إبراهيم)

ومن ذلك ما سخر لهم من أسباب الحياة، وأسباب حفظ الحياة، قال تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)﴾ (الأنبياء)

ومن ذلك ما هيأه لهم من وجود الجنسين جميعا، وما يثمر ذلك من بقاء النسل وحفظه، قال تعالى:﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72)﴾ (النحل)

ومن ذلك هذا المعرض من النعيم الذي من الله به على عباده، فقال:﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (16)﴾ (النبأ)

***

بعد أن قرأ علي الكاظم هذه النصوص المقدسة وغيرها سألته: ما السر في ترديد كتابكم المقدس لهذه المعاني مع أنها ملاحظة بالعين.. معروفة بالبديهة.. فكلنا رأى الجبال والأنهار والبحار.. وكلنا تنعم بشرب الماء، واستنشاق الهواء، وأكل الطعام؟

قال: إن القرآن ينقلنا بما يذكره من نعم الله من تناولها من يد نفوسنا أو يد أهوائنا أو يد الطبيعة العمياء لتتناولها من يد الله مبدعها وصانعها والمان بها على عباده.

وبذلك يضعنا القرآن بين يدي الحقيقة.. فلا يتحرر الإنسان ولا يتنعم بغير الحقيقة..

ولهذا، فإن هناك فرقا كبيرا بين نظرة المؤمن للأشياء ونظرة الغافل الجاحد لها.. فالمؤمن نسب النعم لأصحابها، وتنعم بتلك النسبة.. أما الجاحد فهو في تخرصاته وكبريائه وتيهه عن الحق لا يستشعر شيئا من اللذة التي يستشعرها المؤمن وهو يتناول

الأشياء من يد الله، قال تعالى:﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ ﴾ (يونس:66)

وقال عن الذين اتخذوا من دونه أولياء:﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (الرعد:16)

وهؤلاء خبطوا وخلطوا، فـ:﴿ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (الأنعام:136)

ونتيجة خلطهم وخبطهم أنهم يعبدون السراب، ويدعون من لا يملك شيئا، قال تعالى:﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ (سبأ:22)

بل لو كان بيد هؤلاء أي ملك، فإن ملكهم سيبقى قاصرا عليهم، قال تعالى:﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً ﴾ (النساء:53)، وقال تعالى:﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً ﴾ (الاسراء:100)

وهؤلاء الجاحدون ــ الذين غفلوا عن ملكية الله للأشياء في الدنيا ـ سيدركونها يوم القيامة، ولذلك يجيئ التعبير القرآني مخبرا عن ملكية الله للأشياء في الآخرة، وهو لا يعني عدم ملكيته لها في الدنيا، وإنما هو إخبار عن تعرف الجاحدين والغافلين حينها على هذه الملكية، كما قال تعالى:﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (الفاتحة:4)

وهؤلاء الجاحدون ــ كما يخبر القرآن الكريم ــ يقرون بهذه الملكية:﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (غافر:16)

بالإضافة إلى هذا، فهناك من المعاني الذوقية ما لا يجده المؤمن إلا بهذه المعاني التي ذكرها القرآن الكريم.

قلت: مثل ماذا؟

قال: سأضرب لك مثالا يقرب لك هذا.. أرأيت لو أن شخصا محبوبا لك تقدم لك بهدية.. مهما كانت قيمتها.. هل يقتصر نظرك

للهدية على ما تحويه من منفعة، فتقيمها على أساس ذلك.. أم أنك تنظر إليها نظرة خاصة؟

قلت: بل أنظر إليها نظرة خاصة.. ففي الهدية دلالة على العلاقة الحميمة التي تربطني بالمهدي.. ولذلك لا أنظر إليها بالمقاييس المادية.. بل أنظر إليها بمقاييس لا يمكن التعبير عنها..

قال: فهكذا المؤمن في تناوله لنعم الله.. وهذا ما دلنا عليه القرآن الكريم وربانا عليه.. فالمؤمن ينظر إلى النعم ويتناولها كهدايا من ربه.. ولذلك يجد لها من المتعة والنعمة ما لا يجد لها غيره.

2 ـ الهادي

بعد أن جعلني الكاظم أشعر بالنعم الكثيرة التي أنستنيها الغفلة، سألته: لقد حدثتني عن المنعم.. فحدثني عن الهادي.

التفسير:

قال(1): لقد دلني عقلي أن كل نعمة تحتاج إلى منعم.. فوصف دواء لمريض نعمة وراءها طبيب.. وتأمين طعام لجائع نعمة وراءها مطعم.. ورعاية الطفل حتى يكبر ويستغني نعمة وراءها أب وأم.. ووجود بيت فيه كل وسائل الراحة نعمة وراءها ناس عملوا.. وهكذا نجد أن المعطيات المصطنعة للإنسان كلها وراءها مباشرة من أعطى واعتنى.

أترى هذه المعطيات الكثيرة التي ليست من صنع الإنسان للإنسان ليس وراءها منعم أنعم بها؟

قلت: بلى.. وأنا وأنت جميعا ننسب ذلك لله..

قال: فالكون إذن يدل على أن الله رحيم رحمن..

قلت: ذلك صحيح..

قال: فالعقل إذن يدل على هذا؟

قلت: ذلك صحيح.

قال: والكتاب المقدس الذي يتضمن تعليمات الله لعباده لابد أن يحوي هذا، ويدل عليه، ولا يتناقض معه.. فإن تناقض معه دل ذلك على أن صاحب الكلمات ليس هو صاحب الأكوان.

قلت: إن هذا يفتقر إلى دليل.

قال: سأضرب لك مثالا يقرب لك المسألة، ويكون في نفس الوقت دليلا عليها.

أرأيت لو أن جيشا من الجيوش كان يتولاه قائد حكيم ممتلئ

---

1) انظر: كتاب (الله جل جلاله) لسعيد حوى.

بالرحمة والرأفة واللطف.. كما يمتلئ في نفس الوقت بكل ما تتطلبه القيادة من طاقات وخصال..

وقد عرف جيشه منه هذا مدة طويلة.. ولذلك كان يتلقى أوامره بنفس منشرح، وطواعية تامة..

ولكن الجيش فجأة يفاجأ برسائل تأتيه يزعم أصحابها أنه من ذلك القائد الرحيم يطلب منهم فيها قتل المستضعفين المظلومين.. واستئصالهم وإبادتهم.. فما ترى موقف الجيش من ذلك؟.. هل تراه يشك في أولئك الرسل، وفي الرسالة التي يحملونها؟

قلت: أجل.. لابد أن يتسرب إليهم من ذلك.. وهذا يدعوهم إلى الاتصال بالقائد للتأكد من مدى صحة الأوامر التي أرسل بها.

قال: فهذا الجيش حكم على الأوامر التي أتته من طرف الرسل انطلاقا من معرفته الشخصية بالقائد؟

قلت: ذلك صحيح.

قال: فطبق هذا على المعنى الذي طرحته لك.. فالله الذي عود عباده على رأفته ورحمته ولطفه وكرمه يستحيل أن يصدر منه من الأوامر ما يتناقض مع هذا..

قلت: أسلم لك أن في بعض الكتاب المقدس ما يتناقض مع ما يدل عليه الكون من رحمة الله.. ولكن هل ترى في القرآن ما يتوافق مع الكون في هذه الناحية؟

قال: في الفترة التي قطعت فيها قيود التقليد، ورحت أسس عقيدتي على ما يقتضيه العقل.. بحثت في جميع ما يسميه الناس كتبا مقدسة.. فلم أجد كتابا ممتلئا بمعاني الرحمة واللطف والكرم مثل القرآن الكريم.. إنه كالمرآة التي تتجلى على صفحتها الكائنات بأجمل صورها وأوضحها وأدقها..

لكأن الكون جميعا اختصر في حروف القرآن وكلماته..

في تلك الأيام.. التقيت رجلا ممتلئا بأنوار الحكمة.. كان اسمه (بديع الزمان).. وكان رجلا ينتهج منهج القرآن الكريم في ضرب الأمثال.. وقد حدثني حينها عن أسرار التوافق بين القرآن والكون،

فـذكر لي(1) – على سـبيل التمثيـل- أن حاكمـا عظيمـا ذا تقـوى وصلاح وذا مهارة وإبـداع أراد أن يكتب القـرآن الحكيم كتابـة تليـق بقدسية معانيـه الجليلـة، وتناسـب إعجـازه البـديع، فـأراد أن يُلبس القرآن الكريم ما يناسب إعجازه السامي من ثـوب قشـيب خـارق مثله.

فطفق بكتابـة القـرآن، وهـو مصـور مبـدع، كتابـة عجيبـة جـداً مستعملاً جميع أنواع الجواهر النفيسة ليشير بهـا إلى تنـوع حقائقـه العظيمة، فكتب بعض حروفه المجسمة بالألماس والزمرد، وقسماً منها باللؤلؤ والمرجان، وطائفة منها بالجوهر والعقيق، ونوعـاً منهـا بالذهب والفضة.. حتى أضفى جمالاً رائعـاً وحسـناً جالبـاً يعجب بهـا كل من يراها سواء أعلم القراءة أم جهلها.. فـالجميع يقفـون أمـام هذه الكتابة البديعة مبهوتين يغمرهم التبجيل والإعجـاب، ولا سـيما أهل الحقيقة لما يعلمون أن هذا الجمال الباهر يشف عما تحته من جمال المعـاني، وهـو في منتهى السـطوع واللمعـان وغايـة اللـذة والذوق.

ثم إن هذا الحـاكم العظيم عـرض هـذا القـرآن البـديع الكتابـة، الرائع الجمال، على فيلسوف أجنبي، وعلى عالم مسلم.. وأمر كل واحد منهمـا بتـأليف كتـاب حـول حكمـة هـذا القـرآن.. ملمحـاً الى اختبارهما ليكافئهما.

وقد استجاب كلا الرجلين لهذا الطلب:

أمـا الفيلسـوف - وقـد كـان بالإضـافة إلى خبرتـه بالفلسـفة مهندسا بارعا، ومصورا فنانا، وكيميائيا حاذقا، وصائغا مـاهرا - فقـد كتب كتابه وفق ما يتقنه من مهارات، وما يجيده من فنـون.. ولهـذا اقتصـر كتابـه على البحث عن نقـوش الحـروف وجمالهـا، وعلاقـة بعضها ببعض، وأوضاع كل منها، وخواص جواهرها وميزاتها وصفاتها فحسب.. ولم يتعـرض في كتابـه إلى معـاني ذلـك القـرآن العظيم قط، إذ أنه جاهل باللغة العربية جهلاً مطبقاً، بل لم يـدرك أن ذلـك القرآن البديع هو كتاب عظيم تنم حروفـه عن معـان جليلـة، وإنمـا حصر نظره في روعة حروفه وجمالها الخارق..

---

1) انظر: كليات رسائل النـور (لبـديع الزمـان النورسـي)، الكلمـات، الكلمـة الثانيـة عشرة.. وقد قدم لها بـديع الزمـان بقولـه: (هـذه الكلمـة تشـير الى موازنـة اجماليـة بين حكمة القرآن الكريم المقدسة وحكمة الفلسفة، وتشـير أيضـاً الى خلاصـة مختصـرة لمـا تلقنه حكمة القرآن من تربية الانسـان في حياتيـه الشخصـية والاجتماعيـة فضـلاً عن انهـا تضم اشارة الى جهة تـرجح القـرآن الكـريم وأفضـليته على سـائر الكلام الإلهي وسـموه على الاقوال قاطبة)

أما العالم المسلم، فما إن نظر الى تلـك الكتابـة البديعـة حـتى علم أنه: كتاب مبين وقرآن حكيم.. فلم يصرف اهتمامه الى زينتــه الظاهرة، ولا شغل نفسه بزخارف حروفه البديعة، وانما توجه كليـاً ـ وهو التواق للحق ــ الى مـا هـو أسـمى وأثمن وألطـف وأشـرف وأنفع وأشمل مما انشغل به الفيلسوف الاجنبي بملايين الأضـعاف، فبحث عما تحت تلك النقـوش الجميلـة من حقـائق سـامية جليلـة وأسرار نيرة بديعة فكتب كتابه تفسيراً قيمـاً لهـذا القـرآن الحكيم، فأجاد وأتقن.

بعـد أن أنهيـا كتابيهمـا.. قـدّم كـلٌ منهمـا مـا كتبـه الى الحـاكم العظيم..

فتناول الحاكم أولاً مؤلَّف الفيلسوف ونظر اليه ملياً.. فـرأى أن ذلك المعجب بنفسه والمقدس للطبيعـة، لم يكتب حكمـةً حقيقيـة قط، مع أنه بذل كل ما في طوقه، إذ لم يفهم معاني ذلك الكتاب، بل ربما زاغ واختلط عليه الأمر، وأظهـر عـدم توقـير وإجلال لـذلك القـرآن، حيث أنـه لم يكـترث بمعانيـه السـامية، وظن أنـه مجـرد نقوش جميلة وحروف بديعة، فبخس حق القرآن وازدراه من حيث المعنى.. لذا رد الحاكم الحكيم مؤلّف ذلك الفيلسوف وضربه على وجهه وطرده من ديوانه.

ثم أخـذ مؤلّف العـالم المسـلم المحقـق المـدقق، فـرأى أنـه تفسير قيم جداً، بالغ النفع.. فبارك عمله، وقدر جهده، وهنّـأه عليـه وقال: (هذه هي الحكمة حقاً، وانما يطلق اسم العالم والحكيم حقاً على صاحب هـذا المؤلّف، وليس الآخـر إلاّ فنـان صـنّاع قـد أفـرط وتجاوز حدّه)

قلت: ما يقصد صاحبك بهذا المثال؟

قال: لقـد ذكـر لي أن ذلـك القـرآن الجميـل الـزاهي، هـو هـذا الكـون البـديع.. وذلـك الحـاكم المهيب هـو سـلطان الأزل والأبـد سبحانه وتعالى.

أمـا أول الـرجلين- أي ذلـك الأجنـبي – فيمثـل وعلم الفلسـفة والحكمة وسائر ما نعرفه من علوم مادية..

وأما الثاني.. فهو القرآن الكريم وتلاميذه..

قلت: لا أزال لا أفهم قصدك من إيراد هذا المثال.

قـال: لطالمـا أقـول لنفسـي: إن صـاحب هـذا الكـون البـديع يستحيل أن يتركنا هملا لا يعرفنا بنفسه.. بل يستحيل أن يترك هـذا الكون من غير تفسير.. ولذلك رحت أبحث عن تفسير يفسـر هـذا

الكون.. ولم أجد في جميع ما يطلق عليه الناس كتبا مقدسة ما يفي بهذا بهذا الغرض سوى القرآن الكريم.

لقد قال لي بديع الزمان حينها: (نعم، ان القرآن الكريم المقروء هو أعظم تفسير وأسماه، وأبلغ ترجمان وأعلاه لهذا الكون البديع، الذي هو قرآن آخر عظيم منظور.. إن ذلك الفرقان الحكيم هو الذي يرشد الجن والإنس الى الآيات الكونية التي سطَّرها قلمُ القدرة الإلهية على صحائف الكون الواسع ودبجها على أوراق الأزمنة والعصور.. وهو الذي ينظر الى الموجودات - التي كل منها حرف ذو مغزى - بالمعنى الحرفي، أي ينظر اليها من حيث دلالتها على الصانع الجليل. فيقول: ما أحسنَ خلقه! ما أجملَ خلقه! ما أعظم دلالته على جمال المبدع الجليل.. وهكذا يكشف أمام الأنظار الجمالَ الحقيقي للكائنات.

أما ما يسمونه بعلم الحكمة وهي الفلسفة، فقد غرقت في تزيينات حروف الموجودات، وظلّت مبهوتة أمام علاقات بعضها ببعض، حتى ضلت عن الحقيقة.. فبينما كان عليها أن تنظر الى كتاب الكون نظرتها الى الحروف - الدالة على كاتبها - فقد نظرت اليها بالمعنى الاسمي، أي أن الموجودات قائمة بذاتها، وبدأت تتحدث عنها على هذه الصورة فتقول: ما أجمل هذا! بدلاً من:ما أجمل خلق هذا، سالبة بهذا القول الجمال الحقيقي للشئ.. فأهانت باسنادها الجمال الى الشئ نفسه جميع الموجودات حتى جعلت الكائنات شاكية عليها يوم القيامة..)

ثم قال لي: (نعم! إن الفلسفة الملحدة إنما هي سفسطة لا حقيقة لها وتحقير للكون وإهانة له)

الشكر:

سكت قليلا، ثم قال: ألا ترى من واجب العقول أن تنسجم كلمات الله المقدسة مع النعم التي أنعم بها؟

قلت: كيف تعتبر ذلك واجبا؟

قال: ألست ترى الذي يحسن إليك أقل إحسان يسوؤه أن تجحده، وتكفر نعمه عليك؟

قلت: ذلك صحيح.. ولكننا نفعل ذلك بسبب قصورنا البشري.. أما الله، فهو أعلى وأجل.

قال: صحيح.. ما قلته عن تنزيه الله صحيح.. فالله الكريم الجواد لا يضره سخط الساخطين كما لا ينفعه شكر الشاكرين.. ولكن ألا ترى أن تعريف الله لعباده بأنه هو مصدر ما هم فيه من

النعم ليشكروه فضل منه عليهم؟

قلت: لم أفهم هذا.

قال: أرأيت لو أثقلتك الديون.. وتربص أصحابها بك الشر بسببها.. ثم فجأة يأتيك ظرف يحوي من المال ما يسد ديونك.. ثم تأتيك بعدها الظروف من أصناف الأموال لتسد جميع حاجاتك.. ألست تشتاق لمعرفة هذا المنعم الذي من عليك بجميع هذه المنن؟

قلت: بلى.. ذلك صحيح.

قال: فهكذا الفطر السليمة.. فإنها إن تأملت النعم المفاضة عليها جعلتها تبحث عن صاحبها لتشكره(1)..

قلت: ما قصدك من كل هذه المقدمات؟

قال: أقصد منها أن كلمات الله المقدسة لابد أن تحتوي على هذه المعاني.. لابد أن تذكر عناية الله بعباده.. لأن كلمات الله للإنسان كنعمه كلاهما إما يغطي حاجاته، أو يجيب عن تساؤلاته.

قلت: صدقت في كل هذا.. فهل في كتابكم المقدس ما يدل على هذا؟

قال: بل جميع كتابنا المقدس يدل على هذا.. جميع القرآن الكريم ذكر لنعم الله على عباده، ومطالبة منه لهم بشكرها..

بل إن القرآن الكريم يخبرنا أن هذا ديدن جميع أنبياء الله.. فكلهم عرف الخلق بنعم الله، وكلهم دعاهم إلى شكرها:

---

1) هذه المسألة تسمى في (علم الكلام) بمسألة (شكر المنعم)، وقد اختلف المتكلمون فيها، فذهب المتكلمون من السنة إلى توقف وجوب شكر المنعم على السمع، بينما ذهب الإمامية والمعتزلة إلى وجوب شكر المنعم عقلا.. ومن الأدلة التي استدلوا بها على ذلك:

1 - أن شكر المنعم واجب بالضرورة وآثار النعمة علينا ظاهرة، فيجب أن نشكر فاعلها، وإنما يحصل بمعرفته.

2 - أن معرفة الله تعالى واقعة للخوف الحاصل من الإختلاف، ودفع الخوف واجب بالضرورة.

3- أنه يلزم المخالفين - القائلين بأن معرفة الله تعالى واجبة بالسمع لا بالعقل - ارتكاب الدور المعلوم بالضرورة بطلانه، لأن معرفة الإيجاب تتوقف على معرفة الموجب فإن من لا نعرفه بشيء من الإعتبارات البتة نعلم بالضرورة أنا لا نعرف أنه أوجب، فلو استفيدت معرفة الموجب من معرفة الإيجاب لزم الدور المحال!

4- أنه لو كانت المعرفة إنما تجب بالأمر لكان الأمر بها إما أن يتوجه إلى العارف بالله تعالى أو إلى غير العارف والقسمان باطلان، فتعليل الإيجاب بالأمر محال.. أما بطلان الأول فلأنه يلزم منه تحصيل الحاصل وهو محال.. وأما بطلان الثاني: فلأن غير العارف بالله تعالى يستحيل أن يعرف أن الله قد أمره وأن امتثال أمره واجب، وإذا استحال أن يعرف أن الله تعالى قد أمره وأن امتثال أمره واجب استحال أمره وإلا لزم تكليف ما لا يطاق.

ومع أن المسألة أخروية إلا أن الأحوط فيها ما ذكره الإمامية والمعتزلة.. وقد تحدثنا عن مسائل لها علاقة بهذا في رسالة (أسرار الأقدار)

لقد أخبر الله عن إبراهيم ﷺ، فذكر أنه:﴿ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(121) ﴾ (النحل)

وذكر خطاب موسى ﷺ لقومه الجاحدين المخاصمين لربهم، الذين غمر القنوط حياتهم، فصاروا ينظرون بعين سوداوية لكل الأشياء، فلا يرضيهم شيء، ولا تسعدهم نعمة، فقال:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (ابراهيم:6)

وأخبر عن موسى ﷺ ذكره لنعمة ربه، وعدم استسلامه لقومه بسببها، قال تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ(17)﴾ (القصص)

وفي آية أخرى يأمرهم ﷺ بذكر نعم الله المعنوية عليهم، قال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (20)﴾ (المائدة)

ولجحود بني إسرائيل بقي الأمر بذكر نعم الله وعدم التطاول بها على عباده مستمرا بعد موسى ﷺ إلى خاتم النبيين، قال تعالى:﴿ سَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(211)﴾ (البقرة)

ويخبر عن سليمان ﷺ ـ وهو الذي أوتي من الملك ما لم يؤت أحد ـ فيثني عليه بوصف الشكر لابوصف الملك، قال تعالى:﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ(19)﴾ (النمل)

وبمثل ذلك أخبر عن رسول الله ﷺ، فقد أمره ربه بذكر النعم، بل بالتحدث بها، قال تعالى:﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى: 11)، فالتحدث بالنعمة التالي لذكرها منبئ عن قمة الشكر.

وهكذا أمر هذه الأمة.. قال تعالى:﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7)﴾ (المائدة)

ويأمرها بذكر نعمة خذلان الأحزاب، وانتصار المؤمنين، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً(9)

﴾ (الأحزاب)

وفي آية أخرى يأمر بـذكر نعمـة الحفـظ من الظـالمين، الـذين هموا أن يبسطوا أيديهم على المؤمنين، قال تعالى:﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَـوْمٌ أَنْ يَبْسُـطُوا إِلَيْكُمْ أَيْـدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْـدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُـوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُـونَ(11)﴾ (المائدة)

والقرآن الكريم يذكر وجدان المـؤمن بـأن كـل شـيء من نعم الله، قال تعالى:﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَـةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّـكُمُ الضُّـرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ (النحل:53)

ويعـدد اللـه بعض نعمـه على عبـاده، إلنعم الظـاهرة والباطنـة ليشكروه عليهـا، قـال تعـالى:﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَـخَّرَ لَكُمْ مَـا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْـبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَـهُ ظَـاهِرَةً وَبَاطِنَـةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَـادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْـرِ عِلْمٍ وَلا هُـدىً وَلا كِتَـابٍ مُنِـيرٍ ﴾ (لقمان:20)

ومن النمـاذج على هـذه النعم، والـتي قـد لا يلتفت لهـا، نعمـة الاستواء على المركـوب، والقـرآن الكـريم يـذكرها عقب الاسـتواء مباشرة، ليـدل بـذلك على وجـوب مصـاحبة الشـكر للنعمـة، قـال تعالى:﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَـهُ مُقْـرِنِينَ ﴾ (الزخـرف: 13)

وهذه النعم المذكورة في القرآن الكـريم مجـرد نمـاذج، أو هي جوامع النعم، أما تفاصيلها، وعدها، فهو مستعص غـير ممكن، قـال تعالى:﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُـوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (ابراهيم:34)

وتأتي الفاصلة في آية أخرى لتخبر بأن اللـه غفـور رحيم، قـال تعـالى:﴿ وَإِنْ تَعُـدُّوا نِعْمَـةَ اللَّهِ لا تُحْصُـوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُـورٌ رَحِيمٌ ﴾ (النحل:18)

وكأن الأولى تشير إلى الإنسان الجاحد المقصر في ذكـر النعم، والثانية تشير إلى الشاكر العاجز عن إحصائها.

السلوك:

قلت: وعيت كل مـا ذكرتـه.. ولعلي أسـلم لـه.. ولكـني لسـت أدري علاقته برحمة الله.

قال: إن ما ذكرته لك مظهر عظيم من مظاهر الرحمـة.. لكننـا – للأسف - نجد أنفسنا تنشغل عنه بمتاع زائـل قليـل كمـا انشـغل

ذلك الفيلسوف بوصف الجواهر عن الاهتمام بالمعاني الـتي تكتبهـا الجواهر.

قلت: أنا لا أزال في غفلتي.. ولذلك أنا أحتاج منك أن تفسر لي علاقة ذلك بالرحمة.

قال: لقد شغلني في بداية طلبي ما شغلك.. وقـد سـألت عمـا سألتني عنه بديع الزمان.. أذكر ذلك اليوم جيدا..

لقد نظر إلي حينها، وقال مخاطبا لي كما تعود أن يخاطبني(1): إن مَثَل بناء هذا العالم وإدخال العالم الانساني فيه، كمثل سـلطان له خزائن فيها أصناف الجواهر، وله كنـوز مخفيـة، ولـه مهـارة في صنع الغرائب، وله معرفة بعجائب فنـون لا تعـد وبغـرائب علـوم لا تحـد.. فـأراد ذلـك الملـك أن يظهـر على رؤس الأشـهاد حشـمةَ سلطنتِهِ، وشعشعة ثروته، وخوارقَ صنعتِه، وغرائبَ معرفته، أي أن يشهد كماله وجماله وجلاله المعنوية بالوجهين؛ بنظره، ونظر غيره.

فبنى قصراً جسـيماً ذا منـازل وسـرادقات.. فزينهـا بمرصـعات جواهر كنوزه، ونقشـها بمزينـات لطـائف صـنعته، ونظمهـا بـدقائق فنون حكمته، ووسمها بمعجزات آثار علومه، وفـرش فيهـا سـفرة ضمت لذائذ نعمه.

ثم دعا رعيته للسير والتنزه، وأضافهم بضيافة لا مثل لهـا، كـأن كل لقمة منها أنموذج لمئات من صنعته اللطيفـة.. ثم عين أسـتاذاً لتعريف ما في ذلك القصر من رموز تلك النقـوش وإشـارات تلـك الصّنائع، ووجوه دلالات تلك المرصعات على كمالات صـاحبها، ومـا ينبغي أن يعامل به من أدب.

وكان مما علمـه أن يقـول لهم قولـه: (أيهـا النـاس! إن مليكي يتعرف إليكم بإظهـار مـا في هـذا، فـاعرفوه.. ويتـودد إليكم بهـذه التزيينـات فتـوددوا إليـه بالاستحسـانات.. ويتحبب إليكم بهـذه الإحسـانات فـأحبوه.. ويـرحم إليكم فاشـكروه.. ويتظـاهر إليكم فاشتاقوا اليه..)

وهكذا.. وعندما دخل الناس افترقوا إلى فريقين:

أما الفريق الأول، فنظـر الى مـا في القصـر، فقـالوا: لابـد أن يكـون لهـذا القصـر شـأن عظيم.. ثم نظـروا الى المعلم الأسـتاذ فقالوا: السلام عليك! لابد لمثل هذا، من مِثلِكَ.. فَعَلِّمْنَا ممّا علمـك سيدُك.. فنطق فاستمعوا فاستفادوا فعملوا بمرضـيات الملِـك.. ثم دعاهم الملك لقصـر خـاص لا يوصـف، فـأكرمهم بمـا يليـق بمثلـه

1) انظر: المثنوي العربي النوري:380. (بتصرف)

لمثلهم في مثل ذلك القصر..
أما الفريق الثاني، فما التفتوا إلى شئ غير الأطعمة، فتعاموا وتصاموا، فأكلوا أكلَ البهائم، ثم شربوا من الإكسيرات التى لا تشرب، فسكروا.. ثم راحوا يشوشون على الناظرين، فأخذهم جنود الملك فطرحوهم في سجن يليق بهم.
ضرب لي بديع الزمان هذا المثال، ثم قال: إذا تفطنت لسر التمثيل فانظر إلى صورة الحقيقة..
فأما القصر فهذا العالم الذي نوّر سقفه بمصابيح متبسمة، وزيّن فرشه بأزاهير متزينة.
وأما الملك فهو سلطان الأزل والأبد الذي ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (44)﴾ (الإسراء)
وأما المنازل، فالعوالم المزينة.. كل بما يناسبه.. وأما الصنائع الغريبة فهي معجزات قدرته.. واما الأطعمة فهي خوارق ثمرات رحمته.. وأما المطبخ والتنور فالأرض وسطحها.. وأما الكنوز المخفية وجواهرها فالأسماء القدسية وجلواتها.
وأما الاستاذ المعلم ورفقاؤه وتلامذته، فسيدنا محمد والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام – وورثتهم من الهداة والأولياء.
وأما المسافرون المدعوون للسير والضيافة؛ فالإنسان مع حواشيه من الحيوانات.
وأما الفريقان؛ فأحدهما أهل الإيمان والقرآن الذي يفسّر لأهله معاني آيات كتاب الكائنات.. والآخر؛ أهل الكفر والطغيان التابعون للنفس والشيطان لا يعرفون من الحياة إلا الحياة الدنيوية..
نظر إلي الكاظم، ثم قال: هل ترى من الرحمة أن يترك الله عباده هملا من دون أن يدلهم على حقيقتهم ووظيفتهم والمصير الذي يصيرون إليه..؟
قلت: لكنه دلهم على ذلك في الكتاب المقدس؟
قال: ولكنهم حرفوا وانحرفوا.
قلت: هم يتحملون مسؤولية ذلك.
قال: إنما يقول هذا القساة.. أما الرحيم الرحمن فإن رحمته التي وسعت كل شيء لن تضيق بهذا البشر المحدود من خلقه.. ولذلك أرسل رسله تترى ليهدي عباده ويخاطبهم بكل أصناف الخطاب..
انظر كيف رحم الله قرية واحدة، فأرسل لها رسولين.. فلما

لم يكفيا عزز بثالث.. بل عززهم برابع من الصالحين.. قال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (17) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) ﴾ (يس)

أترى الذي رحم هذه القرية الواحدة يترك أمما كثيرة من الناس دون أن يرسل لهم من الهداية ما يدلهم على سبيل السلوك إليه؟

التفت إلى رفاقه، ثم قال: ما بالي أذهب بعيدا.. لقد كنت تحدثني عن الكتاب المقدس..

قلت: أجل.. إنه وحي الله لأنبياء كثيرين..

قال: لمن أرسلهم الله؟

قلت: لبني إسرائيل.. كل أنبياء الكتاب المقدس من بني إسرائيل..

قال: ألا ترى أن تخصيص شعب واحد بأنبياء كثيرين، وبأسفار كثيرة.. وفي أوقات متقاربة رحمة من الله بذلك الشعب؟

قلت: بلى.. ولهذا هم يزعمون لأنفسهم أنهم شعب الله المختار.

قال: ذلك لعدم فقههم عن ربهم.. وإلا فإن الله الذي رحم ذلك الشعوب بأولئك الأنبياء يستحيل أن لا يرحم غيرهم من الشعوب..

قلت: ولكنكم معشر المسلمين تزعمون أن رسالات الله ختمت بمحمد؟

قال: ذلك لأن شريعة محمد ﷺ قد شملت كل حاجات البشرية.. وقد ضمن لها مع ذلك الحفظ.. فلذلك أغنت عن تعدد الرسل.. لأن الهدف ليس تكثير الرسل، وإنما الهدف بلوغ الرسالة.

السعادة:

قلت: لا بأس.. فلنفرض أني سلمت لك بكل ما ذكرته.. فما الرحمة التي ينطوي عليها هذا النوع من الهداية؟

قـال: إن الرحمـة الـتي تنطـوي عليهـا هـذه الهدايـة لا يمكن تصورها.. إنها ولادة جديـدة للإنسـان.. ولادة أهم بكثـير من الـولادة التي خرجت به من العدم إلى الوجود..

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا، فقال في السورة التي تعـدد مظـاهر رحمـة اللـه بعبـاده:﴿ الـرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُـرْآنَ (2) خَلَـقَ الْإِنْسَانَ (3)﴾ (الرحمن).. انظر كيف قدم الله نعمـة تعليم القـرآن على نعمة خلق الإنسان.

قلت: ما السر في ذلك؟

قال: في فترة بحـثي عن اللـه.. وبعـد أن التقيت بـديع الزمـان سألته هذا السـؤال، فأجـابني بمـا تعـود أن يجيبـني بـه.. لقـد قـال يحكي عن نفسه: في يوم من الأيام الاخيرة للخريف، صـعدت إلى قمّة قلعة أنقرة، التي أصابها الكبر والبلى أكثر مـني، فتمثّلت تلـك القلعة أمامي كأنها حوادث تأريخية متحجرة، واعتراني حزن شـديد وأسى عميق من شيب السنة في موسم الخريف، ومن شيبي أنا، ومن هـرم القلعـة، ومن هـرم البشـرية، ومن شـيخوخة الـدنيا.. فاضطرتني تلك الحالة الى النظر من ذروة تلـك القلعـة المرتفعـة إلى أودية الماضي وشواهق المستقبل، أنقب عن نور، وأبحث عن رجاء وعزاء ينير ما كنت أحسّ به من أكثف الظلمات التي غشـيت روحي هناك وهي غارقة في ليل هذا الهرم المتداخل المحيط.

فحينمـا نظـرت إلى اليمين الـذي هـو الماضـي باحثـاً عن نـور ورجاء، بدت لي تلك الجهة من بعيـد على هيئـة مقـبرة كـبرى لأبي وأجدادي والنوع الإنساني، فأوحشتني بدلاً من أن تسلّيني.

ثم نظرت الى يسـار الـذي هـو المسـتقبل مفتشـاً عن الـدواء، فتراءى لي على صورة مقبرة كبرى مظلمة لي ولأمثـالي وللجيـل القابل، فأدهشني عوضا من أن يؤنسني.

ثم نظرت إلى زمني الحاضر بعـد أن امتلأ قلـبي بالوحشـة من اليمين واليسار، فبدا ذلك اليوم لنظري الحسير ونظرتي التأريخيـة على شكل نعش لجنازة جسمي المضطرب كالمذبوح بين المـوت والحياة.

فلما يئست من هذه الجهـة أيضـاً، رفعت رأسـي ونظـرت إلى قمة شـجرة عمـري، فـرأيت أن على تلـك الشـجرة ثمـرة واحـدة فقط، وهي تنظر اليّ، تلك هي جنـازتي، فطأطـأت رأسـي نـاظراً إلى جذور شجرة عمري، فرأيت أن التراب الذي هنـاك مـا هـو إلاّ رميم عظامي، وتراب مبدأ خلقتي قد اختلطـا معـاً وامتزجـا، وهمـا

يُداسان تحت الاقـدام، فأضـافا الى دائي داء من دون أن يمنحـاني دواءً.

ثم حوّلتُ نظـري على مضـض إلى مـا ورائي، فـرأيت أن هـذه الدنيا الفانية الزائلة تتدحرج في أوديـة العبث وتنحـدر في ظلمـات العـدم، فسـكبتْ هـذه النظـرة السـمَّ على جـروحي بـدلاً من أن تواسيها بالمرهم والعلاج الشافي.

ولما لم أجد في تلـك الجهـة خـيراً ولا أملاً، ولّيت وجهي شـطر الأمام ورنوت بنظري بعيداً، فـرأيت أن القـبر واقـف لي بالمرصـاد على قارعة الطريق، فاغراً فاه، يحدق بي، وخلفه الصراط الممتـد إلى حيث الأبـد، وتـتراءى القوافـل البشـرية السـائرة على ذلـك الصراط من بعيد. وليس لي من نقطة استناد أمام هذه المصـائب المدهشة التي تأتيني من الجهـات السـت، ولا أملـك سـلاحاً يـدفع عني غير جزء ضئيل من الإرادة الجزئية.. فليس لي إذن أمـام كـل أولئك الأعداء الذين لا حصر لهم، والأشياء المضرة غير المحصورة، سوى السلاح الإنساني الوحيد وهو الجزء الاختياري. ولكن لما كـان هذا السلاح ناقصاً وقاصراً وعاجزاً، ولا قـوة لـه على إيجـاد شـيء، وليس في طوقه إلاّ الكسب فحسب، حيث لا يسـتطيع أن يمضـي إلى الزمان الماضي ويـذبّ عـني الاحـزان ويسـكتها، ولا يمكنـه أن ينطلق إلى المستقبل حتى يمنع عنّي الأهـوال والمخـاوف الـواردة منه، أيقنت ألاّ جدوى منه فيمـا يحيـط بي من آلام وآمـال الماضـي والمستقبل.

وفيما كنت مضـطرباً وسـط الجهـات السـت تتـولى عليّ منهـا صـنوف الوحشـة والدهشـة واليـأس والظلمـة، إذ بـأنوار الإيمـان المتألقـة في وجـه القـرآن المعجـز البيـان، تمـدني وتضـيء تلـك الجهات الست وتنورهـا بـأنوار بـاهرة سـاطعة مـا لـو تضـاعف مـا انتابني من صنوف الوحشة وأنواع الظلمات مائة مرة، لكانت تلـك الانوار كافية ووافية لإحاطتها.

فبدّلت تلك الانوار السلسلة الطويلة من الوحشـة إلى سـلوان ورجـاء، وحـولّت كـل المخـاوف الى انس القلب، وأمـل الـروح الواحدة تلو الاخرى.

نعم، إن الإيمان قد مـزق تلـك الصـورة الرهيبـة للماضـي وهي كـالمقبرة الكـبرى، وحوّلهـا إلى مجلس منـوّر أنـوس وإلى ملتقى الأحباب، وأظهر ذلك بعين اليقين وحق اليقين...

ثم إن الإيمان قد أظهر بعلم اليقين أن المستقبل الذي يـتراءى

لنا بنظر الغفلة، كقبر واسع كبير ما هو إلاّ مجلس ضيافة رحمانية أعدّت في قصور السعادة الخالدة.

ثم إن الإيمان قد حطّم صورة التابوت والنعش للزمن الحاضر التي تبدو هكذا بنظر الغفلة، وأشهدني أن اليوم الحاضر إنما هو متجر أخروي، ودار ضيافة رائعة للرحمن.

ثم إن الإيمان قد بصّرني بعلم اليقين أن ما يبدو بنظر الغفلة من الثمرة الوحيدة التي هي فوق شجرة العمر على شكل نعش وجنازة. أنها ليست كذلك، وإنما هي انطلاق لروحي – التي هي أهل للحياة الابدية ومرشحة للسعادة الأبدية – من وكرها القديم إلى حيث آفاق النجوم للسياحة والارتياد.

ثم إن الإيمان قد بيّن بأسراره؛ أن عظامي ورميمها وتراب بداية خلقتي، ليسا عظاماً حقيرة فانية تداس تحت الأقدام، وإنما ذلك التراب باب للرحمة، وستار لسرادق الجنة.

ثم إن الإيمان أراني - بفضل أسرار القرآن الكريم - أن أحوال الدنيا وأوضاعها المنهارة في ظلمات العدم بنظر الغفلة، لا تتدحرج هكذا في غياهب العدم – كما ظنّ في بادىء الأمر – بل إنها نوع من رسائل ربانية ومكاتيب صمدانية، وصحائف نقوش للأسماء السبحانية قد أتّمت مهامها، وأفادت معانيها، وأخلفت عنها نتائجها في الوجود، فأعلمني الإيمان بذلك ماهية الدنيا علم اليقين.

ثم إن الإيمان قد أوضح لي بنور القرآن ان ذلك القبر الذي أحدق بي ناظراً ومنتظراً ليس هو بفوهة بئر، وانما هو باب لعالم النور. وأن ذلك الطريق المؤدي إلى الأبد ليس طريقاً ممتداً ومنتهياً بالظلمات والعدم، بل إنه سبيل سوي إلى عالم النور، وعالم الوجود وعالم السعادة الخالدة.. وهكذا أصبحت هذه الأحوال دواء لدائي، ومرهماً له، حيث قد بدت واضحة جلية فأقنعتني قناعة تامة.

ثم، ان الإيمان يمنح ذلك الجزء الضئيل من – الجزء الاختياري – الذي يملك كسباً جزئياً للغاية، وثيقة يستند بها إلى قدرة مطلقة، وينتسب بها إلى رحمة واسعة، ضد تلك الكثرة الكاثرة من الأعداء والظلمات المحيطة، بل إن الإيمان نفسه يكون وثيقة بيد الجزء الاختياري. ثم إن هذا الجزء الاختياري الذي هو السلاح الإنساني، وإن كان في حد ذاته ناقصاً عاجزاً قاصراً، إلاّ أنه اذا استعمل باسم الحق سبحانه، وبذل في سبيله، ولأجله، يمكن أن ينال به –

بمقتضى الإيمان – جنة أبدية بسعة خمسمائة سـنة. مَثَـلُ المـؤمن في ذلك مثل الجندي إذا استعمل قوته الجزئية باسـم الدولـة فإنـه يسهل له أن يؤدي اعمالاً تفوق قوته الشخصية بألوف المرات.

وكما أن الإيمان يمنح الجزء الاختياري وثيقة، فإنه يسلب زمامه من قبضـة الجسـم الـذي لا يسـتطيع النفـوذ في الماضـي ولا في المستقبل، ويسلمه الى القلب والروح، ولعدم انحصار دائـرة حيـاة الروح والقلب في الـزمن الحاضـر كمـا هـو في الجسـد، ولـدخول سنوات عدة من الماضي وسنوات مثلها من المسـتقبل في دائـرة تلك الحياة، فإن ذلك الجزء الاختياري ينطلق من الجزئيـة مكتسـباً الكلية.. فكما أنـه يـدخل بقـوة الإيمـان في أعمـق أوديـة الماضـي مبدداً ظلمات الاحزان، كذلك يصعد محلقـاً بنـور الإيمـان إلى أبعـد شواهق المستقبل مزيلاً اهواله ومخاوفه.

***

بعد أن أجابني الكاظم على كل تساؤلاتي من غـير أن يتـبرم أو يضجر، سألته قائلا: اسمح لي أن أسألك سؤالا قد يكون محرجا..

قال: تفضل.. لا حرج عليك.

قلت: لقد أخبرني مسؤول السجن بأنك ستعدم بعد أيام.

ابتسـم، وقـال: يسـتحيل ذلـك.. يسـتحيل أن يعـدمني إلا الـذي أوجدني.. ورحمة الرحمن الرحيم تأبى أن تقضــي على من أنعمت عليه بنعمة الوجود بالإعدام.

قلت: لقد ذكر لي مسؤول السجن هـذا.. وذكـر لي أنـه عنـدما أبلغك شكرته.. ثم لم تهتم بقوله.

قال: ذلك لأنه تكلم بشيء مستحيل.

قلت: هل عندك من العلاقات ما يؤمنك من حكم الإعدام؟

قال: أنا عبد الله.. من الله علي بنعمـة الوجـود.. ويسـتحيل أن يسلبها مني أحد إلا الذي أعطاني إياها.. وقد ذكـرت لـك أنـه أرحم من أن يسلبها مني.

قلت: ولكنا نرى كل يوم القتلى.. فهل ترى أن القتلة ليسوا هم القتلة.

قال: فرق كبير بين القتل والإعدام.. القتل ينقلك من حيـاة إلى حياة.. أو يخرجـك من رحم ضـيق إلى فضـاء أوسـع وأفسـح.. أمـا الإعدام والإفناء فذلك مستحيل لأن الذي تكرم بالوجود يستحيل أن يسلبه منا.

قلت: فأنت لا ترى الموت إعداما إذن.

قال: لأنه ليس إعداما.. الموت – يا أخي – هو رحلة أنتقل بها من هذه الأرض المحدودة الضيقة إلى حياة أكرم وأوسع.. فالذي رحمني في هذه الحياة لا شك أنه سيرحمني في الحياة الأخرى.

قلت: أنت واثق كثيرا في نفسك؟

قال: بل أنا واثق كثيرا في ربي.. فالله الرحمن الرحيم الذي لم يعودنا إلا الكرم يستحيل أن نرى منه إلا الكرم.

لقد رأى رسول الله ﷺ امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها، فجعلت كلما وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقته بصدرها وهي تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليه وألقمته ثديها، فقال رسول اللّه ﷺ:(أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدرُ على أن لا تطرحه؟)، قالوا:(لا يا رسول اللّه)، قال: (فواللّهِ، للّه أرحمُ بعباده من هذه بولدها) (1)

بل إن رسول الله ﷺ أخبرنا بأن هذه الرحمة التي وقفتها هذه الأم ليست سوى تجل من تجليات رحمة الله، قال ﷺ:(جعل اللّه الرحمة مائةِ جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه) (2)

قلت: ألهذا لم تتأثر عندما ذكر لك هذا؟

قال: وكيف أتأثر، وهو يبشرني بأفضل يوم انتظرته في حياتي جميعا؟.. إن أفضل يوم ينتظره المؤمن هو لقاؤه لربه..

قلت: أنا لا أزال لا أعي ما تقول.. فهلا زدتني توضيحا.

قال: عندما يموت الإنسان الموت المتعارف عليه، والذي يحزن الناس من أجله، ويترقبون مجيئه، ويختلفون في ترقبهم، تولد حينذاك الروح في عالم أكمل من هذا العالم.

وصفات مولود الروح الذي تمخض عن فترة الحياة الدنيا، كصفات الجنين الذي تمخض عن رحم الأم، فقد يكون سليما معافى ترتسم في وجهه براءة الطفولة العذبة، وقد يكون جنينا مشوها مريضا منفرا يود من حوله لو تلقفه باطن الأرض قبل أن يتلقفه مهد أمه الذي أعد له.

ولكن الفرق بين الحالين عظيم، فجنين الدنيا لا خيار له، ولا تكليف، فليس له أي دخل في تحديد جيناته، ولا التميز بصفاته، ولكن جنين الآخرة ملوم معاتب على كل الأحوال، لأن صفة روحه

---

1) رواه البخاري.
2) رواه البخاري ومسلم.

التي قدم بها على الملأ الأعلى هو الذي حددها، وهو الذي اختارها، وهو الذي رغب فيها.

فلذلك كانت الدنيا محطة للآخرة، أو هي بتعبير آخر رحم الحياة الأبدية، تتحدد من خلالها معالمها وصفاتها وصورها، فصور الأرواح في الآخرة هي صور الأعمال والتوجهات والهمم في الدنيا.

وهذه الحياة الآخرة، والتي يفصل الموت بينها وبين النشأة الأولى، ليست شيئا مخيفا أو محزنا للصالحين، فيوم الموت هو يوم عيدهم الذي يلاقون فيه ربهم الذي طال اشتياقهم له، وهو يوم خلاصهم من سجن الجسد وضيقه، وهو يوم روحهم وريحانهم.

لقد قال رسول الله ﷺ يذكر ذلك: (تحفة المؤمن الموت)(1)، وقال: (الموت ريحانة المؤمن)(2)

ثم التفت إلي، وقال: لقد ذكر القرآن الكريم مواقف الخلق في لحظة الاحتظار، وهي اللحظة التي سيعيشها كل مخلوق مهما طال عمره:

فذكر المقربين فقال عنهم:﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ(89)﴾ (الواقعة)

وذكر أهل اليمين، فقال عنهم:﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ(91)﴾ (الواقعة)

وذكر المكذبين الضالين، فقال عنهم:﴿ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93)وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ(94)﴾ (الواقعة)

قلت: دعني من حديث القرآن.. وحدثني بما يقول العقل.. كيف يتحول الموت من شبح مزعج إلى صديق مؤنس؟.. ألا ترى هذا محالا في موازين العقول؟

قال: أرأيت لو قيل للناس.. لجميع الناس: إن هناك فترة من حياتكم بعد بلوغكم الشيخوخة، أو بعد إصابتكم بمرض خطير يشل أعضاءكم جميعا تولدون من جديد.. لا شيبا كما كنتم، بل شبابا أقوياء.. ويمتد شبابكم أمدا لا ينتهي.

قلت: أيمكن أن يكون ذلك؟

قال: لو قيل ذلك، ورآه الناس بأعينهم.

قلت: يرون الشيخ الكبير ينام أمامهم، ثم في الصباح يرونه، وقد اخضر عوده، واشتدت أوصاله، وقام قوامه.

قال: نعم.. لو رأو ذلك بأعينهم، كيف يكون حالهم؟

---

1) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني والحاكم.

2) رواه الديلمي.

قلت: إنهم حينها يبدلون كل أشعارهم التي قالوها عن الشـباب ليمدحوا بها الشيخوخة، وحينها لن يقول أبو العتاهية:

فياليتَ الشبابَ يعودُ يوماً فأخبرَهُ بما فعل المشيبُ

بل سيقول:

فياليتَ الشباب يعودُ يوماً فأخبرَهُ بأفضال المشيبُ

قال: لماذا، أليست الشيخوخة ضعفا؟

قلت: بلى، هي ضعيف، ولكنها – بما ذكرته – تصبح طريقـا إلى القوة.. والخلق مجمعـون على حمـد الضـعف المـؤدي إلى القـوة، وعلى ذم القوة المؤدية إلى الضعف.

قال: فكيف لو اقتنع هذا الخلق بأن المـوت لا يختلـف عن نـوم ذلك الشيخ، وأن ذلك الشيخ سيستيقظ ليرى نفسه، وقد عاد شـابا يافعا قويا.. ليس هذا فقط، وإنما يرة أمامه كل شيء كان يحلم به ولا يصل إليه.. ليس هذا فقط، وإنما يطمأن بأنه لن يـدب الضـعف إليه، ولن يصيبه الألم ولا الحزن ولا اليأس ولا الجوع ولا العــري ولا ما كان يصيبه في الدنيا من الآفات.

قلت: حينهـا سـيكون المـوت أكـبر أمنيـة، وأعظم طريـق من طـرق السـعادة، وحينهـا لن يبعث الأعـداء على أعـدائهم بالقنابـل، وإنما يبعثون لهم بالطعام والدواء ليستبقوا حياتهم.

قلت ذلـك فرحـا فقـد كـاد يسـتخفني الطـرب، ولكـني عـدت فقلت: ولكن هل هذا ممكن؟

قال: من عرف رحمة الله الـتي دل عليهـا كـل شـيء لا يقتنـع عقله فقط بذلك، وإنما يراه رأي العين..

قلت: فما ذكر كتابكم المقدس في هذا؟

قــال: لقــد أخبرنــا كتابنــا المقــدس بكــل التفاصــيل الدقيقــة المرتبطة بهذا حتى صرنا نرى الجنة رأي العين(1).. ونرى معها من رحمة الله ولطفه وكرمه ما لا يمكن لجميع حبر الدنيا أن يعبر عنه.

قال ذلك، ثم التفت إلى من معه، وقال: لقد كنت قبل أن تأتي إلينا أحدث هؤلاء الأصدقاء عن بعض ما أعد الله لعبـاده الصـالحين في جنانه من كرمه وفضله..

انظر إلى السرور يكسو وجوههم.. وإلى السكينة الـتي تنتشــر في محياهم..

قلت: فحدثني كما حدثتهم.. فإني أشعر أن الحقيقـة تتجلى في كتابكم المقدس بأنصع صورها وأجملها.

---

1) انظر فصل (السعادة) من رسالة (أسرار الحياة) من هذه السلسلة.

رفع رأسه إلى السماء، ثم راح يرتل في خشوع:﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (47) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (48) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (50) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (51) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (52) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (53) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (55) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (57) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (59) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (60) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (61)﴾ (الرحمن)

ثم رتل بعدها:﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (19) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (25) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (26) وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (27) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (28) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (29) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (30) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (31) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (33) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (34) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (35) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (36) عُرُبًا أَتْرَابًا (37) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (38) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (39) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (40)﴾ (الواقعة)

ثم رتل بعدها:﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (5) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (6) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (7) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (9) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (12) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (13) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (14) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (15) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (16) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (18) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ

وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (19) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22)﴾ (الإنسان)

كان يرتل بخشوع آسر.. وكنا كمن يشاهد تلك المشاهد الجميلة التي تحكي صورها تلك الآيات المقدسة(1).

***

بعد أن غمرنا بأنوار تلك المشاهد المقدسة.. وبعد أن لاحت أنوارها علينا، التفت إلي، وقال: هل تشعر الآن برحمة الله الرحيم الرحمن؟

قلت: إني أشعر بها الآن أكثر مما شعرت بها في حياتي جميعا.

قال: لو أني.. وجميع الخلق.. وجميع ذرات الرمال.. وجميع قطر الأمطار.. استحلن ألسنا، ورحن نحاول أن نعبر عن بحار رحمة الله، فلن نجد لها قرارا، ولن نحد لها حدا..

***

بقيت في صحبته إلى أن أمر به إلى المقصلة، وقد كنت حاضرا حفلة تتويجه بتاج الشهاده.. وقد كان منظرا لا يمكن تصوره.. لقد كنا جميعا حزانى متألمين ما عدا الكاظم فقد كان ممتلئا سعادة وسرورا.. وقد جعلنا في ذلك الموقف نوقن تمام اليقين أنه يملك من المعرفة بالله ما كنا جميعا نفتقر إليه.

***

التفت إلينا صاحبنا (جون ماسفيلد)، وقال: هذا حديثي مع ذلك الرجل الفاضل.. لقد عشت في رحاب كلماته أياما جميلة.. ولكن كلاليب الدنيا سرعان ما جذبتني، فنسيت تلك الأيام.. ونسيت معها تلك المعاني..

لقد بعتها جميعا بثمن بخس حقير..

لقد كان ثمن بيعي لها هو قيد ذهبي قيدني به الملوك حين جعلوني شاعرا للبلاط.. فنسيت صاحبي.. ونسيت المعارف العظيمة التي علمني إياها.. ورحت أسرع إلى البلاط.. وبدل أن أكتب القصائد في مدح ربي الرحمن الرحيم رحت أكتبها في مدح من رماني بعد ذلك في الشارع بقسوة وغلظة.

ولكن الله الرحمن الرحيم تداركني بلطفه، فأعاد إلى ذاكرتي

---

1) سنرى التفاصيل المرتبطة بمعانيها في (فصل السعادة) من رسالة (أسرار الحياة) من هذه السلسلة.

الساعة تلك الأيام الجميلة التي نعمت فيها بتلك الصحبة الشريفة..

تاسعا ـ الودود

في اليوم التالي(1).. ومع تنفس الصبح سمعنا صوتا يصيح بتأوه وشوق (الله.. الله.. الله)(2).. يمد بها صوته، وكأن روحه كانت تنطق بكل حرف من حروفها.

أسرعنا إلى مصدر الصوت، وقد تعجبت كما تعجب رفاقي جميعا إذ كان الصائح بذلك الصوت رجل من قومنا كان اسمه

---

1) كما ذكرنا في الفصول الماضية السبل النقلية والعقلية للتعرف على الله، فإنا سنحاول في هذا الفصل التعرف على المنهج العرفاني أو الصوفي، وهو منهج من المناهج الشرعية.. بل هو أقرب المناهج إلى الشريعة، وأيسرها على العامة والخاصة.. وقد اخترنا أن نجعله في خاتمة الفصول باعتبار هذا المنهج هو المنهج الذي آل إليه الكثير من المتكلمين.. وهذا لا يعني الانتقاص من سائر المناهج.. بل نرى تكاملها.. فالمناهج العقلية والنقلية تخاطب العقل.. وهذا المنهج يخاطب الوجدان.. ولا تناقض إن اختلف محل الخطاب.

2) يعترض البعض على ذكر الله بهذه الصيغة، وهو اعتراض غير وجيه من وجوه متعددة:

منها أنه ورد في الحديث عن النبي ﷺ مشروعية هذا الذكر، ففي الحديث عن النبي ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله، الله)، وفي رواية عنه:(لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله، الله) (رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان)

وروى أحمد في الزهد عن ثابت قال: كان سلمان في عصابة يذكرون الله فمر النبي ﷺ فكفوا فقال: ما كنتم تقولون؟ قلنا: نذكر الله ، الله، فقال: إني رأيت الرحمة تنزل عليكم فأحببت أن أشارككم فيها ثم قال: الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر معهم.

ومنها أن الكثير من العلماء أفتوا بمشروعية ذلك بناء على ما ورد من النصوص، فقد قال العلامة ابن عابدين في حاشيته الشهيرة عند شرح البسملة وتبحثه عن لفظ (الله) روى هشام عن محمد عن أبي حنيفة أنه أي الله اسم الله الأعظم، وبه قال الطحاوي: وكثير من العلماء وأكثر العارفين حتى أنه لا ذكر عندهم لصاحب مقام فوق الذكر به كما في شرح التحرير لابن أمير حاج. (حاشية ابن عابدين ج1ص5 -7)

وقال الخادمي:(واعلم أن اسم الجلالة (الله) هو الاسم الأعظم عند أبي حنيفة والكسائي والشعبي وإسماعيل بن إسحاق وأبي حفص وسائر جمهور العلماء وهو اعتقاد جماهير مشايخ الصوفية ومحققي العارفين فإنه لا ذكر عندهم لصاحب مقام فوق مقام الذكر باسم الله مجردا قال الله لنبيه المصطفى ﷺ: ﴿قل الله ثم ذرهم﴾.

وقال الجنيد: (ذاكر هذا الاسم (الله) ذاهب عن نفسه متصل بربه قائم بأداء حقه ناظر إليه بقلبه قد أحرقت أنوار الشهود صفات بشريته)

وقال ابن عجيبة:(فالاسم المفرد (الله) هوسلطان الأسماء وهو اسم الله الأعظم ولا يزال المريد يذكره بلسانه ويهتز به حتى يمتزج بلحمه ودمه وتسري أنواره في كلياته وجزئياته..)(تجريد ابن عجيبة على شرح متن الأجرومية ص 15)

وقال أبو العباس المرسي:(ليكن ذكرك (الله، الله) فإن هذا الاسم سلطان الأسماء وله بساط وثمرة فبساطه العلم وثمرته النور وليس النورمقصودا لذاته بل لما يقع به من الكشف والعيان فينبغي الإكثار من ذكره واختياره على سائر الأذكار لتضمنه جميع ما في (لا إله إلا الله) من العقائد والعلوم والآداب والحقائق) (نور التحقيق ص 174)

ومن المعاصرين يقول محمد سعيد رمضان البوطي: (ولكن عامة المسلمين من غيرهم أي الذين ينكرون الذكر بالاسم المفرد (الله) لا يجدون حرجا من ان يذكروا الله بأي من أسمائه وصفاته المفردة أو يذكروه بشيء من الصيغ أو الجمل الدالة على معنى

(جاستن مارتن)(3).. وقد كان مسيحيا، صوفيا في مسيحيته.. وكان دائم الذكر لـ (جاستن الشهيد)، ولم نكن نسمع عنه الحديث عن الإسلام، ولا عن إله المسلمين.

لكنا في ذلك اليوم سمعناه يصيح بما ذكرته لك، فلذلك تعجبت غاية العجب.

مكث مدة، وهو يتأوه بشوق منشدا اسم الله بأصوات رخيمة لذيذة..

بعد فترة انتبه إلينا، فرآنا ملتفين حوله قد ملأنا العجب من حاله، فقال، والبسمة تملأ شفتيه: عذرا.. لم أنتبه لحضوركم.. هل من جديد؟

قال رجل منا: أنت هو الجديد.. وقد جئناك لنسمع منك كما سمعنا من رفاقك.

يتضمن حكما من أحكام التوحيدأو التنزيه ودليلهم على ذلك صريح قول الله عز وجل ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا﴾ (الأعراف:25).. ومن المعلوم أن أول أسمائه تعالى الله، وقال تعالى ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين﴾(الأعراف: 205)

وذكر الله في النفس أعم من أن يقيد بمدلول جملة ذات معنى متكامل يتضمن حكما من أحكام التوحيد او التنزيه فإن الجملة من مستلزمات التراكيب اللفظية والذكر النفسي قد لا يعتمد على شيء من هذه التراكيب وإنما يكون بإجراء اسم الجلالة أو أي صفة من صفات الله تعالى كالخالق الرزاق المصور الحكيم.. وغيرها على القلب بحيث يكون يقظا لشهود الله تعالى ففي اسمه المفرد أو أي صفة من صفاته المعروفة. (السلفية، البوطي، ص 193-194)

أما ما يورده بعضهم من أن الاسم الله المفرد لا يؤلف جملة مفيدة تامة يحسن السكوت عليها كقولنا الله غفور، فقد أجاب العلماء على ذلك بأن الذاكر باسم الله المفرد إنما يخاطب الله وحده وهو جل جلاله عالم بما في نفسه مطلع على سريرته فلا يشترط في الخطاب معه ما يشترط في الخطاب مع البشر من جعل الكلام تاما مفيدا يحسن السكوت عليه.

وقول (الله ، الله) إنما هو نداء بحذف أداة النداء وأصله (يا الله، يا الله) كقوله تعالى ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾(يوسف: 29)، وأصله يا يوسف، ثم إن المنادى عند النحويين مفعول به لفعل محذوف وأصل الكلام (أدع الله) وقد يكون المبتدأ الله والخبر الله أو اسم من أسماء الله عز وجل، ويكون هناك في القلب (العفو، الرحيم..) وذلك كما أراد أحدهم أن يشبه شجاعة زيد بشيء آخر فلم يستطع فقال: زيد زيد.

3)أشير به إلى (جاستن مارتن)، وهو المعروف بـ (جاستن الشهيد) ، وقد وُلد في إحدى مدن السامرة في فلسطين سنة 89م، وآمن بالمسيحية سنة 133م، واشتهر في سنة 140م إلى أن استُشهد سنة 168.. وقد كتب عدَّة كتب دفاعاً عن المسيحية، منها رسالة للإمبراطور (تيطس أنطونيوس بيوس)، ورسالة للإمبراطور (ماركوس أنطونيوس) ولأعضاء مجلس الشيوخ في روما ولسكانها.. وله محاورة مع (تريفو اليهودي) باقية إلى الآن، وهي تُظهر تبحّره في فلسفة فيثوغورس وأفلاطون، وأنه رأى أن الأسلم التمسّك بالمسيحية.. وتكلم عن الأناجيل الأربعة، وقال: إن المسيحيين كانوا يتعبدون بتلاوتها في معابدهم، وتكلم عن رسائل بولس وبطرس ويوحنا وسفر الرؤيا.. (انظر: شبهات وهمية، للدكتور القس منيس عبد النور)

وقد اخترناه هنا لبيان أن الأديان في أصلها لا تختلف في كون الله ودودا، وسنرى في هذا الفصل من النصوص من الكتاب المقدس ما يدل على ذلك.

قال جاستن: وما تريدون أن تسمعوا مني؟
قال الرجل: كيف وصلت إلى هذه الحال؟.. أخبرنا.. فإننا نشعر بأننا من خلال كلماتك التي كنت ترددها نكاد نقترب من ربنا.
قال جاستن: صدقت.. أنا نفسي أشعر بما تشعرون به..
قال الرجل: فكيف لم تخبرنا من قبل؟
قال جاستن: تلك قصة طويلة حجبتني عنها حجب كثيرة.. ولن تفهموا آخرها حتى تسمعوا أولها.
قال الرجل: فهلم حدثنا، فما أشوقنا لحديث يوصلنا إلى ربنا.
قال جاستن: لاشك أنكم تعرفون أن اسمي هو (جاستن مارتن)
قال الرجل: أجل.. وهذا ما زاد في عجبنا من حالك.. فجاستن رجل من المسيحية.. ونراك الآن تتغنى باسم إله المسلمين.
قال جاستن: إله المسلمين هو نفسه إله المسيحية الحقيقي قبل أن يلحقها من التحريف ما لحق.. لقد ذكر قرآن المسلمين هذا، فقال:﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46)﴾ (العنكبوت)
بل إن إله المسلمين هو نفسه إله جميع هذه الأمم.. وهذه المذاهب.. وهذه الأفكار.. قبل أن يلحقها دنس التشبيه، والتمثيل والتحريف.. وقبل أن يتخذ أحبارها ورهبانها (الله) وسيلة لمكاسبهم وأهوائهم ودنياهم.
قال الرجل: فكيف تعرفت على إله المسلمين.. وأنت جاستن المسيحي الذي لا يعرف إلا المسيحية؟
قال جاستن: في البداية.. وفي مقتبل عمري عندما فتحت عيني على الحياة بأبعادها الكثيرة كنت أشعر بشوق عظيم لمصدر وجودي، ومصدر وجود هذا الكون جميعا.
وقد قلبت طرفي في الكون أبحث عنه.. وأبحث عن سبل الاتصال به.. لكني لم أظفر في فترة طويلة من حياتي على غير السراب.
في البداية سقطت على بعض الملحدين الذي راح يزين لي عبادة الطبيعة.. وهي في الحقيقة ليست إلا عبادة السراب والوهم الذي إذا جئته لم تجده شيئا.
ثم انتقلت من السراب إلى عبادة الأنداد.. فامتلأ قلبي بأهواء

كثيرة لم تزده إلا ألما(1).

وبعد أن شببت عن الطوق، وتخلصت من القفص الـذي أرادت الشياطين أن أقضي عمري بين قضبانه رحت أبحث عن الله.. فقد علم عقلي أنه لابد لهذا الكون من إله.. بل لابد له من إله في غاية الجلال والجمال.. وأنه إلـه يسـتحق أن يكـون محبوبـا لكـل عاقـل كامل في عقله.

وقد كان أول ما شدني إلى الدين – بسبب تنشـئتي الأسـرية – هـو نصـوص من الكتـاب المقـدس رحت أكررهـا كـل حين إلى أن حفظتها عن ظهر قلب..

كان منها صلاة يسوع الكهنوتية، والتي يقول فيها: (يـا أبت، قـد أتت الساعة: مجد ابنك ليمجدك ابنك بما أوليتـه من سـلطان على جميع البشر ليهب الحياة الأبدية لجميـع الـذين وهبتهم لـه. والحيـاة الأبديــة هي أن يعرفــوك أنت الإلــه الحــق وحــدك ويعرفــوا الــذي أرسلته يسوع المسيح. إني قد مجدتك في الأرض فأتممت العمــل الذي وكلت إلي أن أعمله فمجدني الآن عندك يا أبت بمـا كـان لي من المجد عنـدك قبـل أن يكـون العـالم. أظهـرت اسـمك للنـاس الذين وهبتهم لي من بين العالم. كانوا لك فوهبتهم لي وقد حفظوا كلمتك وعرفوا الآن أن جميع ما وهبته لي هو من عندك وأن الكلام الذي بلغتنيه بلغتهم إياه فقبلوه وعرفوا حقا أني من لـدنك خـرجت وآمنوا بأنك أنت أرسلتني. إني أدعو لهم ولا أدعــو للعـالم بــل لمن وهبتهم لي لأنهم لك. وجميع ما هو لي فهو لك وما هو لك فهــو لي وقد مجدت فيهم.لست بعد اليـوم في العـالم وأمـا هم فلا يزالـون في العالم وأنا ذاهب إليك. يا أبت القدوس احفظهم باسمك الــذي وهبته لي ليكونوا واحـدا كمـا نحن واحـد. لمـا كنت معهم حفظتهم باسمك الذي وهبته لي وسهرت فلم يهلك منهم أحـد إلا ابن الهلاك فتم ما كتب. أما الآن فإني ذاهب إليك. ولكني أقـول هـذه الأشـياء وأنــا في العــالم ليكــون فيهم فــرحي التــام. إني بلغتهم كلمتــك فأبغضهم العالم لأنهم ليسوا من العالم كما أني لسـت من العـالم. لا أسـألك أن تخــرجهم من العــالم بــل أن تحفظهم من الشــرير. ليسـوا من العـالم كمـا أني لسـت من العـالم. كرسـهم بـالحق إن كلمتـك حـق. كمـا أرسـلتني إلى العـالم فكـذلك أنـا أرسـلتهم إلى العالم وأكرس نفسي من أجلهم ليكونوا هم أيضا مكرسين بالحق. لا أدعو لهم وحدهم بل أدعو أيضـا للـذين يؤمنـون بي عن كلامهم.

---

1) انظر رسالة (سلام للعالمين)، فصل (القلب)

فليكونوا بأجمعهم واحدا: كما أنك في، يـا أبت، وأنـا فيـك فليكونـوا هم أيضا فينا ليؤمن العالم بأنـك أنت أرسـلتني. وأنـا وهبت لهم مـا وهبت لي من المجد ليكونوا واحدا كمـا نحن واحـد: أنـا فيهم وأنت في ليبلغوا كمال الوحدة ويعـرف العـالم أنـك أنت أرسـلتني وأنـك أحببتهم كما أحببتني. يا أبت، إن الـذين وهبتهم لي أريـد أن يكونـوا معي حيث أكون فيعاينوا ما وهبت لي من المجد لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم. يا أبت البار إن العالم لم يعرفك أما أنـا فقـد عرفتـك وعرف هؤلاء أنك أنت أرسلتني. عـرفتهم باسـمك وسـأعرفهم بـه لتكون فيهم المحبة الـتي أحببتـني إياهـا وأكـون أنـا فيهم) (يوحنـا: 17/1-26)

بــالرغم من أن الكثــير من النصــوص في الكتــاب المقــدس متناقضة إلا أنها كانت بالنسبة لقلبي ملاذا يشـعرني بـالأنس.. فقـد كنت أشعر بالحاجة إلى رب محب.. وقد كان في هذه النصوص ما يدلني على أن ربي محب.

لكني مع ذلك كنت أتألم كثيرا عندما أقرأ في الكتاب المقـدس التناقضات الكثيرة التي تصور ذلـك الحب أحيانـا بصـور لا تتناسـب مع جلال الإله وكماله.. ولذلك كنت أميـل إلى وجـود التحريـف في الكتاب المقدس.. وقد كان أول من دلني عليه هو سميي (جاسـتن مـارتن).. فقـد كـان من الآبـاء الأوائـل الـذين أشـاروا إلى وجـود التحريف وخاصة في حواره مع تريفو(1).

---

1) ومما ورد في ذلك الحورا قوله: (وانا بعيد كل البعد من أن اضع ثقتي في معلميك (اليهود) الذين يرفضون الإعتراف بالنسخة السبعينية التي ترجمها السـبعون الـذين كـانوا مع بطليموس (بأمر من بطليموس) ملك مصر، وأخذوا في تلفيق نسـخة أخـري. وأرغب منك أن تدرك انهم حذفوا كليا نصوصا كثيرة من تلك النسخة الـتي ترجمهـا السـبعون ان هذا الرجل الذي صلب عبر عنه بتعبيرات تثبت انه إله وانسان وانه يصلب ويمـوت، ولأني أعلم أنكم لا تقـرون بـذلك فسـوف أتجنب تلـك النقـاط وسـوف أناقشـك معتمـدا علي النصوص التي مازلتم تعترفون بها.

لقد أقررت بالنصوص التي ذكرتها لك لكنـك تعـارض المعـني (هـا العـذراء تلـد) لكنـك تقول ان النص يقرأ (ها امراة شابة تحبل)، وقد وعدتك أني سوف ابـرهن لـك ان النبـوة لا يشير الي حزقيا كما علموك ولكن تشير الي المسيح والآن اليك الدليل..

وهنا قال تريفو: نسألك أولا، وقبل أي شيء أن تخبرنا عن تلـك النصـوص الـتي تـزعم أنها مسحت كليا؟

قال جاستن: سوف أفعل كما تحب: من نص عزرا الذي ذكر فيـه شـرائع عيـد الفصـح أزالوا عنه ما يلي:(وقال عزرا للناس , هذا الفصح هـو مخلصـنا وملجأنـا, إن فهمتم ذلـك وآمنت قلوبكم , وتواضعنا له وكان رجاءنا فيه فلن يهجـر هـذا المكـان الي الأبـد , هكـذا يقول السيد رب الجنود، ولكن ان لم تؤمنوا ولم تسمعوا له تكونون سـخرية الأمم) (هـذا النص اختفي تماما. أشار اليه آدم كلارك في تفسيره لعزرا 10:44)

ومن أرميـا أزالـوا النص التـالي (انـا (كنت) كشـاة سـيقت الي الـذبح، ولم أعلم انهم تآمروا علي قائلين لنفسد عليه خبزه ونقطع ذكره من أرض الاحياء)(يبـدوا أن محـاولات إخفاء هذا النص فشلت فلم يختف، فهو في(ارميا 11:19)

ولهذا كنت أناضل بكل قوة على أن النصوص التي ورد فيها مـا يشوه محبة الإله مدسوسة في الكتاب المقدس، وليست منه، وقد جمعت من الأدلـة على ذلـك مـا قضـيت طـول عمـري في البحث عنه.

ولكني مع ذلـك كلـه كنت أتـألم.. لأني لم أسـمع كلمـات الإلـه السليمة من أي تحريف.

وقد ظللت على هذا مدة طويلة من عمري.. إلى أن جاء اليوم الذي أذن الله فيه أن أجد غايتي.. ولكـني بعـد أن وجـدتها، وأيقنت بما فيها من الحقائق والجمال أعرضت عنها.. ولم أتذكرها إلا هــذه اللحظات..

لقد حق في ما قاله قرآن المسلمين فيمن أتتـه آيـات اللـه، ثم انسلخ عنها.. لقد قال في حقه:﴿ وَاتْـلُ عَلَيْهِمْ نَبَـأَ الَّذِي آتَيْنَـاهُ آيَاتِنَـا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَـهُ الشَّـيْطَانُ فَكَـانَ مِنَ الْغَـاوِينَ (175) وَلَـوْ شِـئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُـهُ كَمَثَـلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَـلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)﴾ (الأعراف)

***

قال ذلك، ثم غرق في صمت عميق، فنبهناه إلى ما كان يرمي الحديث عنه، فقال: لا أزال أذكـر ذلـك اليـوم جيـدا.. إن المشـاعر الجميلة التي شعرتها فيه لم أشعر بمثلها في حياتي أبدا..

لقد كنت فيه قريبا جدا من الله.. ولولا الأهواء التي تثاقلت إليها لكنت الآن وليا من الأولياء.. أو قديسا من القديسين.

كنت في إسـطنبول قـرب مسـجد أياصـوفيا(1).. وهنـاك خطـر

ولكن نص ارميا مازال يوجد في بعض النسخ اليهود لأن ازالتهـا تمت حـديثا، ومن هـذا النص يتضح ان اليهود تشاوروا عن المسيح ليصـلبوه ويقتلـوه، وهـو أيضـا الـذي تنبـأ عنـه اشعياء في انه سـوف يسـاق كـالخروف إلى الـذبح مصـورا ايـاه في شـكل حمـل وديـع، وكونهم في موقف صعب منها أجدفوا.

ومن أرميا ايضا أزالوا النص القائل: (الرب الإله تذكر شعبه الميت من اليهود الراقدين في القبور فصعد يبشرهم بالخلاص)

وكلمة الخشب حذفت من (مزمور 96)

ومن مزمور 95 (ـ 96) قطعوا هـذه العبـارة الصـغيرة (من الخشـب) من قـول داود: (قولوا أنتم بين الأمم الرب قد ملك بالخشـب (يقصـد الصـليب) وأبقـوا (قولـوا انتم بين الأمم)

إلى آخر الحوار، وقـد ذكرنـا التفاصـيل الكثـيرة المرتبطـة بهـذا في رسـالة (الكلمـات المقدسة) من هذه السلسلة.

1) أيا صوفيا أروع وأشهر نموذج للعمارة البيزنطية في العالم.. وكانت كاتدرائية بناهـا جسـتنيان الأول بين عـامي 532 و537م في إسـطنبول. وبُـنيت قبّـةٌ أعلى من القبـة الأصلية، بين عامي 558 و 563م بعـد أن تشـوّهت القبـة الأولى، إثـر زلـزال. واسـتعمل

على بالي تلك الأجيال الكثيرة من المسيحيين والمسلمين التي مرت على ذلك المكان.

وقلت في نفسي: يا ترى.. أين هم الآن.. وهل ظفروا بمقصودهم.. أم أنه حيل بينهم وبينه؟

بينما أنا كذلك إذ ربت على كتفي رجل، وقال: ابحث عن مكان لك في العربة المقدسة التي تريد أن ترحل إلى الله.. فلا يهمك من قعد ولم يركب فيها.

قلت: أيمكن أن نرحل إلى الله، ونحن نحتفظ بهذه الأجساد؟

قال: إن كنت تتعلق بجسدك، وترتبط به.. فلا يمكنك أن ترحل.. لا يمكن أن يركب في العربة المقدسة إلا من طرح جميع الأكفان التي تحول بينه وبين ربه.

قلت: كيف ذلك؟.. وأنى ذلك؟

قال: إن كنت صادقا فسترى بجانب هذه الديار من الهداة والمرشدين ما لا يراه إلا الصادقون.

قلت: أيمكن أن أرى ما لا يرى غيري؟

قال: الصادق يرى ما لا يرى الكاذب.

قلت: كيف هذا؟

قال: ألا ترى أن الجاحدين حيل بينهم وبين معرفة الله حتى أنكروا وجوده؟

قلت: بلى.. ولكن ما علاقة ذلك بهذا؟

قال: أما العارفون فلم يروا في الأكوان غير مولاهم.

قلت: ذلك صحيح.

قال: فقد أجبت على سؤالك إذن.. الصادق يرى ما لا يرى غيره.. فالله يكشف له من أسرار الخصوصية ما ينحجب عن رؤيته الغافلون.

قال ذلك، ثم انصرف عني..

***

ما هي إلا لحظات قليلة حتى ربت على كتفي رجل آخر، وقال: هلم إلينا إن كنت تريد أن تركب العربة المقدسة.. فلا يمكن أن يجد مولاه أو يطمع في وصاله من لم يتشرف بالركوب فيها.

قلت: من أنتم؟.. فلا يمكنني أن أركب مع من لا أعرفهم.

المبنى مسجدًا بعد عام 1453م، عندما فتح الأتراك المدينة. وأصبحت أيا صوفيا مُنْحَفًا عام 1935م. وتعني عبارة أيا صوفيا في اليونانية القديمة الحكمة المقدسة.

ونرمز بها هنا إلى ما يرمي إليه هذا الفصل من محاولة بيان المنهج العرفاني الصوفي في البحث عن الله.

قال: نحن قوم عرفنا أن ربنا أعظم من أن تحيط بـه العقـول.. فرحنا نبحث عنه بقلوبنا وأرواحنا.. لقـد سـمعناه يقـول:﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ (مـريم:96).. وسمعناه يخبرنـا بـأن من أسـمائه الحسـنى (الـودود)(1) كمـا قـال تعالى:﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ (الـبروج:14).. وأخبرتنـا آيـات كثـيرة بطريق الوصول إلى محبة الله.. فرحنا نجاهد أنفسـنا على التخلـق بهـا.. فلا يمكن أن يمكّن اللـه أحـدا من التعـرف عليـه إلا إذا كـان محبا.. فالمعرفة بذر الحب.. كما أن الحب بذر المعرفة:

لقد جعلنا الطريق إلى ربنـا - بـدل الجـدل العقلي - هـو البحث عن تلك المظان..

قلت: وما تلك المظان؟

قال: كثيرة.. يـتربع على عرشـها (**الإحسـان**).. فهـو الخصـلة الجامعة لجميع مجامع الخـير، قـال تعـالى:﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقـرة:195).. وقـال:﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُـونَ فِي السَّـرَّاءِ وَالضَّـــرَّاءِ وَالْكَـــاظِمِينَ الْغَيْـــظَ وَالْعَـــافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران:134).. وقـال:﴿ فَآتَـاهُمُ اللَّهُ ثَـوَابَ الـدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران:148)..

قلت: فما ترى السر في هذه المحبة؟

قـال: لقـد عرفنـا بـه نبينـا ﷺ فقـال: (إن اللـه جميـل يحب الجمال)، والمحسن هو الذي اكتمل جمال روحه حـتى صـار مجلاة للحق، وصار بذلك أهلا لمحبة الحق، كما قـال تعـالى:﴿ هَـلْ جَـزَاءُ الْإِحْسَـانِ إِلَّا الْإِحْسَـانُ (60)ـ ﴾ (الـرحمن) وقـال: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَـنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُـوهَهُمْ قَتَـرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْـحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (26) الحسنى وزيادة﴾ (يونس)

قلت: صدق قرآنكم في هذا.. فلا يمكن أن يكشف أحد منا عن أسـراره إلا لمن يحبـه ويثـق فيـه ويـرى منـه مـا يدلـه على صـدق محبته.. ولاشك أن الإحسان هو من أهم دلائل هـذا الصـدق.. فهـل هناك غير هذا؟

قال: أجل.. لقد ذكر لنا ربنا **الطهارة** بجميع معانيهـا، فقـال:﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222)﴾ (البقرة)، وقال لنا:

1)الودود من أسماء الله تعالى يحتمل معنيان:
أحدهما: أنه الواد لعباده ، أي المحب لهم ، ولهذا قرنه باسمه الغفور إعلاما بأنـه يغفـر الذنب ويحب التائب منه، ويوده.
والثاني: أنه المودود ، وعلى هذا يكون سر اقتران الودود بالغفور ، هو استدعاؤه مودة العباد له ومحبتهم إياه باسم الغفور.
ولاشك في اقتران كلا المعنين، فالله يحب عباده، وهم يحبونه.

﴿ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (التوبة:108).. فلذلك رحنا نسارع إلى الطهارة بكل أنواعها.. طهارة الحس وطهارة المعنى.. وطهارة الجسد، وطهارة القلب.

قلت: صدق قرآنكم في هذا.. فالقلب الذي طهره ماء التوبة والإنابة قلب قد بذرت فيه شجرة الجمال، وصفيت مرءاته لتستعد لتجلي أنوار الحق.

لقد صدق قرآنكم في نصحكم.. فهل ذكر لكم غير هذا؟

قال: لقد ذكر لنا **التقوى الحاجزة عن معصية الله**، فقال: ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: 76)، وقال: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة:4)

قلت: صدق قرآنكم في هذا.. فلا شك أن المعصية هي الحجاب الحائل بين الحق وعباده، فإن أزيل هذه الحاجز بالتقوى تقرب القلب من الرب، وصار أهلا لمحبته.

صدق قرآنكم في نصحكم.. فهل ذكر لكم غير هذا؟

قال: لقد ذكر لنا **الصبر**، فقال: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران:146)

قلت: صدق قرآنكم في هذا أيضا.. فلا شك أن جميع مجامع الخير مرتبطة بصبر صاحبها في ذات الله، أو في طاعته، أو عن معصيته، أو على مقاديره.

لقد صدق قرآنكم في نصحكم.. فهل ذكر لكم غير هذا؟

قال: أجل.. لقد ذكر لنا **التوكل على الله**، فقال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران:159)

قلت: صدق قرآنكم في هذا أيضا.. فلا شك في ارتباط التوكل بمحبة الله.. ذلك أن التوكل هو ثقة العبد في الله وإحسان الظن به، وهو صادر عن التوحيد المحض الذي يغيب فيه القلب عن غير الحق.

لقد صدق قرآنكم في نصحكم.. فهل ذكر لكم غير هذا؟

قال: أجل.. لقد ذكر لنا **القسط**، فقال: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ

بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (المائدة: من الآية42)
وقال:﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة:8)

قلت: صدق قرآنكم في هذا أيضا.. فلا شك أن المقسط الذي أخلص في عبوديته لربه، وذبح بسيف الحق جميع أهوائه أهل لكل خير.. فهل ذكر لكم غير هذا؟

قال: أجل.. لقد ذكر لنا **التضحية**، فقال:﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ (الصف:4)

قلت: صدق قرآنكم في هذا أيضا.. فلا شك أن التضحية، مع توحد المضحين هو قمة سمو العلاقات بين المؤمنين، وكلاهما دليل على التوجه الخالص لله.

لقد صدق قرآنكم في نصحكم.. فهل ذكر لكم غير هذا؟

قال: أجل.. لقد ذكر لنا **اتباع رسول الله** ﷺ، فقال:﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (آل عمران:31)

فكل ما ورد عن رسول الله ﷺ طريق من طرق محبة الله، فرسول الله ﷺ هو محبب العباد إلى الله، ومحبب الله إلى عباده، فهو واسطة الحب المقدس.

لم أجد ما أجيبه به عندما ذكر لي هذا.. فرحت أقول له: وعيت هذا.. ولكن هل يمكن للقلوب والأرواح أن تتشرف بمعرفة ربها؟

قال: لقد سمعنا رسول الله ﷺ يقول حاكيا عن ربه تعالى: (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، وإن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن: يكره الموت، وأنا أكره مساءته)(1)

لقد رأينا ربنا في هذا الحديث يرسم لنا المنهج الصحيح الذي نصل به إليه.

إنه منهج بسيط.. وفيه بعض الجهد.. ولكنه جهد لذيذ.. والنتائج فيه محتمة.

---

1) رواه البخاري وغيره.

قلت: ما تقصد بذلك؟

قال: أنت تعلم أن البشر يختلفون في الطـرق الـتي يسـلكونها إلى اللـه.. وقـد ارتضـى كـل قـوم منهجـا من المنـاهج.. وللـه من الطرائق بعدد أنفـاس الخلائـق.. أمـا نحن، فقـد ارتضـينا مـا ذكـره الحديث منهجا.. إن هذا الحديث يرسم هذا المنهج بدقة.

قلت: فما هو هذا المنهج؟

قال: الحب.. الحب هو أقرب الطرق التي تصل بهـا إلى ربـك.. ذلك أن ربك ودود.. والودود يقرب من تودد إليـه.. ومن تقـرب إلى الله عرفه..

ألم تسمع إلى ربنا.. وهو يقول لنا:(وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع بـه وبصـره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشـي بهـا، وإن سألني لأعطينه) (1)

***

لسـت أدري الوجهـة الـتي ذهب إليهـا بعـد أن حـدثني بتلـك الأحاديث.. ولكن الذي أعلمـه هـو أنـه بـذلك الكلام قـد أشـعل في قلبي من الأشواق مـا جعلـني أرى مـا لم أكن أرى، وأسـمع مـا لم أكن أسمع.

كان أول ما سمعت بعد أن انصرف عني صوت امرأة تنشد:

أحبــك حُــبين حب الهــوى وحبــا لأنّــك أهــل لــذاكا

فأما الـذي هـو حُب الهـوى فشـــغلي بـــذكرك عَمّن سِواكا

وأمــا الــذي أنت أهــلٌ له فلَسـت أرى الكـون حـتى أراكا

فمــا الحمــدُ في ذا ولا ذاك ولكن لــك الحمــد في ذا وذاكا

اقتربت من مصدر الصوت، فإذا امرأة في مقتبل شبابها.. كـان على وجهها من أنوار الإيمان ما لم أر مثله في حياتي.. وقد تعجبت من ذلك غاية العجب، فتقدمت إليها، وقلت لها: أي حبيب هذا الذي ملك عليك قلبـك، فلم ترضـي بـأن تحبيـه حبـا واحـدا حـتى أحببتـه حبين؟

قالت: لا يحب حبين إلا الجميل الذي لا يفنى ولا يزول، ولا يتغير

1) رواه البخاري وغيره.

ولا يتحول.

قلت: ليس ذلك إلا الله.

قالت: فما أبخس بضاعة من باع قلبه لغير اللـه، أو أنس بغـير مولاه..

قلت: لم؟

قالت(1): إن في القلب شعثاً لا يلمه إلا الإقبال على الله.. وفيه وحشة لا يزيلهـا إلا الأنس بـه في خلوتـه.. وفيـه حـزن لا يذهبـه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته.. وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتمـاع عليه والفرار منه إليه.. وفيه نـيران حسـرات لا يطفئهـا إلا الرضـى بأمره ونهيه وقضـائه ومعانقـة الصـبر على ذلـك إلى لقائـه.. وفيـه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليـه ودوام ذكـره وصـدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبداً.

قالت ذلك، ثم راحت تنشد بصوت عذب:

خَطَـرَاتُ ذِكْـرِكَ تَسْتَسِـيغُ فَـأُحِسُّ مِنْهـا في الفُـؤادِ

لَاَ عُصْو لِي إِلاَّ وَفِيـهِ صَـبَابَةٌ فَكَأَنَّ أَعْضَائِي خُلِقْنَ قُلَوبَا

غنى بهم حـادي الأحبـة في فأطار منهم أنفسـا وقلوبا

فأراد مقطـوع الجنـاح بثينة وهمـــو أرادوا الواحـــد

قلت: عهدي بمن هن مثلك في مثل سـنك وجمالـك الانشـغال بحب آخر غير هذا الحب الذي تنشدينه؟

قالت: لقد كنت كذلك إلى أن رزقني الله زيارة بيته الحرام(2)، وبينما أنا أطوف في هزيع الليل المظلم سمعت صوت فتـاة شـابة تطوف بالبيت، وهي تقول:

أبى الحب أن يخفى وكم قـــد فأصـبح عنـدي قـد أنـاخ وطنبا

إذا اشـتد شـوقي هـام قلـبي وإن رمت قربا من حبيبي تقربا

ويبـدوا فـأفنى ثم أحيـا بـه لهَ ويسـعدني حـتى ألـذ وأطربا

فقلت لها: يا أختـاه.. أمـا تتقين اللـه.. أفي مثـل هـذا المكـان تتكلمين بمثـل هـذا الكلام؟ فـالتفتت إلي، وقـالت: يـا نفيسة(3)

---

1) من كلام جميل معروف لابن القيم.

2) الحكاية في الأصل رواها الجنيد، وقد تصرفنا فيها بما يقتضيه المقام.

3) أشير به إلى السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طـالب (145 - 208 ه = 762 - 824 م) ها، وعن آبائها، وهي صاحبة المشهد المعروف بمصر،

الخير..

إن التقى شردني كما تري عن وطني

أفر من وجدي به فحبه هيمني

ثم قالت: يا نفيسة.. أتطـوفين بـالبيت أم بـرب الـبيت؟ فقلت: أطوف بالبيت.. فرفعت رأسها إلى السماء، ثم قالت: سـبحانك مـا أعظم مشيئتك في خلقك.. خلق كالأحجار يطوفون بالأحجار..

ثم أنشأت تقول:

يطوفون بالأحجــار يبغــون إليك وهم أقسى قلوبا من

وتاهوا فلم يدروا من التيه وخلــوا محــل القــرب في

فلــوا أخلصــوا في الــود وقامت صفات الود للحـق

ثم تعلقت بأستار الكعبة، وقالت:

أنت تدري يا حبيبي من حبيبي أنت تدري

ونحول الجسم والدمع يبوحان بسري

يا عزيزي قد كتمت الحب حتى ضاق صدري

ثم قالت: إلهي.. بحبك لي إلا رددت علي قلبي، فقلت لهـا: من أين تعلمين أنــه يحبــك؟ فقــالت: ألا تــرين كيــف جيش من أجلي الجيوش، وأنفق الأموال، وأخرجني من دار الشـرك، وادخلـني في التوحيد، وعرفني نفسـه بعـد جهلي إيـاه، فهـل هـذا إلا لعنايـة بي؟ فقلت لها: كيف حبك له؟ فقالت: أعظم شيء وأجلـه.. فقلت لهـا: وتعرفين الحب؟ فقالت: فإذا جهلت فأي شيء أعرف؟ إنــه الحلــو المجتنى ما اقتصر، فـإذا أفـرط عـاد خبلا قـاتلا، أو فسـادا معطلا.. وهو شجرة غرسها كريه، ومجناها لذيذ.. ثم ولت وهي تقول:

وذي قلق لا يعرف الصــبر له مقلــة عــبرى أضــر بهــا

وجســم نحيــل من شــجى فمن ذا يــداوي المســتهام

وهي تقية صالحة، عالمة بالتفسير والحديث.. ولدت بمكة، ونشأت في المدينة، وتـزوجت إسـحاق المـؤتمن بن جعفـر الصـادق..وانتقلت إلى القـاهرة فتـوفيت فيهـا.. حجت ثلاثين حجة.. وكانت تحفظ القرآن.. وسمع عليها الامام الشافعي، ولما مات أدخلت جنازتـه إلى دارها وصلت عليه.. وكان العلماء يزورونها ويأخذون عنها، وهي أمية، ولكنها سمعت كثيرا من الحديث.. ولي أبوها إمرة المدينـة للمنصـور، ثم حبسـه دهـرا..ودخلت هي مصـر مـع زوجها (انظر: الأعلام، للزركلي)

ولا سـيما والحب صـعب إذا عطفت منه العواطـف والغزل

عندما سمعت منها ذلك تحرك في قلبي من الحب المقدس ما كان ساكنا.. واشتعل فيه ما كان خامـدا.. والحمـد للـه أن من علي ربي بتشـريفي بالسـلوك إليـه.. وشـرفني بعـد ذلـك، فملأ قلـبي بمحبته.

قالت ذلك، ثم رفعت يـديها إلى السـماء، وأخـذت تقـول: إلهي وسيدي ومولاي لو أنـك عـذبتني بعـذابك كلـه لكـان مـا فـاتني من قربك أعظم عندي من العذاب.. ولو نعمتني بنعيم أهل الجنة كلهم كانت لذة حبك في قلبي أكثر.

إلهي لو أمرت بي إلى النار ما وجدت للنـار حـرارة مـع حبـك.. ولو أمرت بي إلى الجنة لما وجـدت للجنـة لـذة مـع حبـك.. فحبـك غلب كل شيء.

قلت: إنك تبالغين في وصفك للحب.. ألـه كـل مـا تـذكرين من قيمة؟

قالت(1): لولا الحب مـا دارت الأفلاك.. ومـا تحـركت الكـواكب النبــيرات.. ولا هبت الريــاح المســخرات.. ولا مــرت الســحب الحاملات.. ولا تحركت الكواكب النبيرات.. ولا تحـركت الأجنـة في بطون الأمهـات.. ولا انصـدع عن الحب أنـواع النبـات، واضـطربت أمواج البحار الزاخرات.. ولا تحـركت المـدبرات والمقسـمات.. ولا سـبحت بحمـد فاطرهـا الأرضـون والسـماوات، ومـا فيهـا من المخلوقات.

قـالت ذلـك.. ثم انصـرفت عـني إلى ذكـر ربهـا، والانشـغال بمناجاته.

***

ما سـرت قليلا حـتى سـمعت صـوتا يقـول(2): (إلهي إني مقيم بفنائك مشغول بثنائك، صغيراً أخذتني إليـك، وسـربلتني بمعرفتـك، وأمكنتني من لطفـك، ونقلتـني وقلبتـني في الأعمـال سـتراً وتوبـةً وزهـداً وشـوقاً ورضـاً وحبـاً، تسـقيني من حياضـك، وتهملـني في رياضك، ملازماً لأمرك، ومشـغوفاً بقولـك، ولمـا طـر شـاربي ولاح طائري فكيف أنصـرف اليـوم عنـك كبـيراً وقـد اعتـدت هـذا منـك صغيراً، فلي ما بقيت حولـك دندنـة وبالضـراعة إليـك همهمـة لأني محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف)

1) هذا الذي نذكره من قولها من كلام ابن القيم في الجواب الكافي، ص 38.
2) هذا الكلام الحكيم ليحيى بن معاذ.

لسـت أدري كيـف صـحت فيـه من حيث لا أشـعر: اللـه يطلب أعمالا لا أقوالا.

ابتسم، وقال: لأن يمتلئ قلـبي بمثقـال خردلـة من الحب أحب إلي من عبادة سبعين سنة بلا حب.

قال ذلك، ثم التفت إلي، وقال: لو سمع الخلـق صـوت النياحـة على الـدنيا في الغيب من ألسـنة الفنـاء لتسـاقطت القلـوب منهم حزنا، ولو رأت العقول بعيون الإيمان نزهـة الجنـة لـذابت النفـوس شوقا، ولو أدركت القلوب كنـه المحبـة لخالقهـا لانخلعت مفاصـلها ولها، ولطارت الأرواح إليـه من أبـدانها دهشـا.. سـبحان من أغفـل الخليقة عن كنه هـذه الأشـياء وألهـاهم بالوصـف عن حقـائق هـذه الأنباء.

ثم طأطأ رأسه، وقال: يـا (جاسـتن) الليـل طويـل فلا تقصـره بمنامك.. والنهار نقي فلا تدنسه بآثامك.

***

تركته، وسرت إلى محل آخر وجدت فيه رجلا كأنه الشـمس أو قريب من الشمس، وقد أحاط به قـوم كـأنهم الهالـة الـتي تحيـط بالشمس، وكان مما سمعته منه قوله لهم(1): الوجـود ينقسـم إلى ما للشيء من ذاته وإلى ماله من غيره.. وما له الوجـود من غـيره فوجوده مستعار لا قوام لـه بنفسـه.. بـل إذا اعتـبر ذاتـه من حيث ذاته فهو عدم محض.. وإنما هو موجود من حيث نسبته إلى غـيره، وذلك ليس بوجود حقيقي.. فالموجود الحق هو الله تعالى، كمـا أن النور الحق هو الله تعالى.

لقد قال الشاعر العارف يعبر عن ذلك:

اللـه قـل وذر الوجـود ومـا	إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
فالكـل دون اللـه أن حققته	عـــدم على التفصـــيل الا
واعلم بأنـك والعـوالم كلها	لـــولاه في محـــو وفي اضمحلال
من لا وجـود لذاتـه من ذاته	فوجوده لولاه عين محـال
والعـــارفون بـــربهم لم	شـــيئاً ســـوى المتكـــبر المتعال
ورأوا سـواه على الحقيقـة	في الحـــال والماضـــي والاستقبال

1) هذا التحليل العقلي كما هو ظاهر للغزالي من (مشـكاة الأنـوار)، بتصـرف اقتضـاه المقام.

ومن هنا ترقى العارفون من حضيض المجاز إلى يفاع الحقيقة، واستكملوا معراجهم، فرأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس في الوجود إلا الله تعالى، وأن:﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ.. (88)﴾ (القصص) لا أنه يصير هالكا في وقت من الأوقات، بل هو هالك أزلا وأبدا لا يتصور إلا كذلك، فإن كل شيء سواه إذا اعتبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض ؛ وإذا اعتبر من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأول الحق رؤى موجودا لا في ذاته لكن من الوجه الذي يلي موجده فيكون الموجود وجه الله تعالى فقط.. فلكل شيء وجهان: وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه ؛ فإذن لا موجود إلا الله تعالى ووجهه. فإذن كل شيء هالك إلا وجهه أزلا وأبدا.

إن هؤلاء لم يفتقروا إلى يوم القيامة ليسمعوا نداء الباري تعالى:﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16)﴾ (غافر).. بل هذا النداء لا يفارق سمعهم أبدا.. ولم يفهموا من معنى قوله (الله أكبر) أنه أكبر من غيره، حاش لله، إذ ليس في الوجود معه غيره حتى يكون أكبر منه ؛ بل ليس لغيره رتبة المعية، بل رتبة التبعية.. بل ليس لغيره وجود إلا من الوجه الذي يليه.. فالموجود وجهه فقط.. ومحال أن يقال إنه أكبر من وجهه.. بل معناها أنه أكبر من أن يقال له أكبر بمعنى الإضافة والمقايسة، وأكبر من أن يدرك غيره كنه كبريائه، نبيا كان أو ملكا.. بل لا يعرف الله كنه معرفته إلا الله.. بل كل معروف داخل في سلطة العارف واستيلائه دخولا ما.

ثم سكت قليلا، وقال: العارفون - بعد العروج إلى سماء الحقيقة - اتفقوا على أنهم لم يروا في الوجود إلا الواحد الحق.. لكن منهم من كان له هذه الحال عرفانا علميا، ومنهم من صار له ذلك حالا ذوقيا، وانتفت عنهم الكثرة بالكلية واستغرقوا بالفردانية المحضة واستوفيت فيها عقولهم فصاروا كالمبهوتين فيه، ولم يبق فيهم متسع لا لذكر غير الله ولا لذكر أنفسهم أيضا، فلم يكن عندهم إلا الله، فسكروا سكرا دفع دونه سلطان عقولهم، فقال أحدهم:(أنا الحق)، وقال الآخر:(سبحاني ما أعظم شأني).. وكلام العشاق في حال السكر يطوى ولا يحكى.

فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذي هو ميزان الله في أرضه، عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد بل شبه الاتحاد مثل قول العاشق في حال فرط عشقه (أنا من أهوى ومن أهوى أنا)

***

بعدها سرت في نـواحي ذلـك المسـجد.. فـرأيت حلقـة يجلس فيها رجل عليه هالة من نور كان يقال له (الجيلاني)(1)

وقد سمعته يقول مخاطبا أحد المحيطين به(2): كن مع الله عزّ وجلّ كأن لا خلق، ومع الخلق كأن لا نفس، فإذا كنت مـع اللـه عـزّ وجلّ بلا خلق وجـدت، وعن الكـل فـنيت.. وإذا كنت مـع الخلـق بلا نفس عدلت وبقيت ومن التبعات سلمت، واتـرك الكـل على بـاب خلوتك، وادخل وحدك تر مؤنسك في خلوتك بعين سرّك، وتشـاهد ما وراء العيان، وتزول النفس، ويأتي مكانها أمر الله وقربـه.. فـإذا جهلك علم، وبعدك قرب، وصمتك ذكر، ووحشتك أنس.

يا هذا: ما ثم إلا خلق وخالق، فإذا اخترت الخالق فقل للخلق: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء:77)

ثم التفت إلى آخـر، وقـال: يـا هـذا: الفنـاء إعـدام الخلائـق، ثم لحوقك بالمنهاج الأول، وحينئذ يسقيك ربّك ما يسقيك، ويزرع فيـك ما يزرع.

إن أردت هذا فعليك بالإسلام، ثم الاستسلام، ثم العلم بالله، ثم المعرفة، ثم الـوجود. وإذا كان وجودك له كان كلك له.

الزهد عمل ساعة، والورع عمل ساعتين، والمعرفة عمل الأبد.

ثم التفت إلى آخـر، وقـال: ضـاق أبى الأمـر يومـاً فتحـرك في النفس، فقيل لي: ماذا تريد؟ فقلت: أريد موتاً لا حياة فيه وحيـاة لا موت فيها؟ فقيل لي: ما الموت الذي لا حياة فيه وما الحيـاة الـتي لا موت فيها؟قلت: الموت الذي لا حياة فيه مـوتى عن جنسـي من الخلـق فلا أراهم في الضـر والنفـع، ومـوتى عن نفسـي وهـوائي وإرادتي ومنـائى في الـدنيا والأخـرى فلا أحس في جميـع ذلـك ولا

---

1)أشير به إلى الشيخ الجليل (عبد القادر الجيلاني)، وهو عبد القـادر بن أبي صـالح بن عبد الله الجيلي ثم البغدادي، ولد بجيـــلان في ايـران، ووفـد بغـداد شـاباً سنـة 488هـ، وتفقه على عدد من مشايخها خاصـة أبي سـعيد المُخَـرَّمي.. جلس للوعـظ سـنة 520هـ، وحصل له القبول من الناس، واعتقدوا ديانته وصلاحه، وانتفعوا بكلامه ووعظه.

صنف مصنفات كثيرة في الأصول والفروع وفي أهـل الأحـوال والحقـائق منهـا مـا هـو مطبوع ومنها مخطوط ومنها (إغاثة العـارفين وغايـة مـنى الواصـلين)، و(أوراد الجيلاني)، و(آداب السـلوك والتوصـل إلى منـازل السـلوك)، و(تحفـة المتقين وسـبيل العـارفين)، و(جلاء الخاطر في الباطن والظاهر)، و(حـزب الرجـاء والانتهـاء)، و(رسـالة في الأسـماء العظيمة للطريق إلى الله)، و(الغُنية لطالبي طريق الحـق)، وهـو من أشـهر كتب الشـيخ في الأخلاق والآداب الإسلامية وهو جزءان، و(الفتح الرباني والفيض الرحماني): وهـو من كتب الشيخ المشهورة وهو عبـارة عن مجـالس للشـيوخ في الوعـظ والإرشـاد.. و(فتـوح الغيب)، ومن هذه الكتاب استفدنا ما نذكره عنه.

2) من (فتوح الغيب) المقالة السابعة والسبعون فـي الـوقـوف مـع اللـه و الـفـنـاء عـن الـخـلـق (بتصرف)

أجد.

و أما الحياة التي لا موت فيها: فحياتي بفعل ربى عـزّ وجـلّ بلا وجودي فيه، والموت في ذلـك وجـودي معـه عـزّ وجـلّ، فـكـانـت هـذه الإرادة أنـفـس إرادة أردتـهـا مـنـذ عـقـلـت.

ثم التفت إلي، وقـال(1): اصرف نظرك عن الجهـات كلهـا.. ولا تبصبص على شئ منها.. فما دمت تنظر إلى واحدة منها لايفتح لك جهة فضل الله عـز وجـل وقربـه.. فسـد الجهـات جميعـا بتوحيـده وإمحاء نفسك ثم فنائك ومحوك وعلمك.. فحينئـذ يفتح عين قلبـك جهة فضل اللـه العظيم، فتراهـا بعيـني رأسـك إذا ذاك شـعاع نـور قلبـك وإيمانـك ويقينـك فيظهـر عنـد ذلـك النـور من باطنـك على ظاهرك كنور الشمعة التي في البيت المظلم في الليلـة الظلمـاء، يظهر من كوى البيت ومنافذه فيشـرق ظـاهر الـبيت بنـور باطنـه، فتسكن النفس والجوارح إلى وعد اللـه وعطائـه عن عطـاء غـيره ووعـد غـيره عـز وجـل.. وارحم نفسـك ولا تظلمهـا ولا تلقهـا في ظلمات جهلك ورعونتك، فتنظر إلى الجهات وإلى الخلـق والحـول والقوة والكسب والأسباب فتوكل إليهـا، فتسـد عنـك الجهـات ولم تفتح لك جهة فضل الله عز وجل عقوبـة ومقابلـة لشـركك بـالنظر إلى غيره عز وجل، فإذا وجدتـه ونظـرت إلى فضـله ورجوتـه دون غيره وتعاميت عما سواه، قربك وأدناك، ورحمك وربـاك وأطعمـك وسقاك، وداواك وعفـاك، وأعطـاك وأغنـاك، فلا تـرى بعـد ذلـك لا فقرك ولا غناك.

***

بعد أن سمعت تلك الكلمـات العذبـة من ذلـك الـولي الممتلئ بأنوار الإيمان سرت من غير أن أعلم أين ولا لماذا.. وهل أنا أسـير في المكان أم أسير في الزمـان.. أم أسـير على الأرض، أم أحلـق في أجواء السماء.

فجـأة سـمعت صـوتا عـذبا يـترنم بأجمـل مناجـاة سـمعتها في حياتي.. لقد كنت نسيتها.. ولكني الآن.. وبعد أن حرك اللـه لسـاني بذكره أذكرها جيـدا.. أذكرهـا حرفـا حرفـا.. وكلمـة كلمـة.. وكـأني أسمعها لأول مرة..

لقد كـانت في ظاهرهـا مناجـاة لكنهـا في باطنهـا كـانت تمتلئ بالإجابة الشافية عن كل التساؤلات الخطيرة التي شغلت الفلاسفة

---

1)انظر: المقالـة الثامنـة والخمسـون فـي صـرف الـنـظـر عـن كـل الـجـهـات، و طـلـب جـهـة فـضـل الله تـعـالـى (بتصرف)

والمفكرين أجيالا طويلة.
لن أطيــل عليكم.. ســأقرأ عليكم المناجــاة كمــا ســمعتها.. واســمحوا لي أن أتفاعــل معهــا.. فلا يمكن لكلمــات الربــانيين أن تسرد كما يسرد سائر الكلام..
قال ذلك.. ثم رفع يديه إلى السماء، وأخـذ يـترنم بهـذه الأغنيـة المضمخة بعطر الإيمان(1):
إلهي، أنا الفقير في غناي، فكيف لا أكون فقيرا في فقري؟!
إلهي، أنا الجاهل في علمي، فكيف لا أكون جهولا في جهلي؟!
إلهي، إن اختلاف تدبيرك وسرعة حلول مقـاديرك منعـا عبـادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء واليأس منك في بلاء.
إلهي، مني ما يليق بلؤمي، ومنك ما يليق بكرمك.
إلهي وصفت نفسك باللطف والرأفـة بي قبـل وجـود ضـعفي، أفتمنعني منهما بعد وجود ضعفي؟!
إلهي، إن ظهرت المحاسن مـني فبفضـلك، ولـك المنـة علي.. وإن ظهرت المساوي مني فبعدلك، ولك الحجة علي.
إلهي، كيف تكلني إلى نفسي وقـد تـوكلت لي؟! وكيـف أضـام وأنت الناصر لي، أم كيف أخيب وأنت الحفي بي؟!
ها أنا أتوسل إليك بفقري إليـك.. وكيـف أتوسـل إليـك بمـا هـو محال أن يصـل إليـك؟! أم كيـف أشـكو إليـك حـالي وهـو لا يخفى عليك؟! أم كيف أترجم بمقالي وهو منك برز إليك؟! أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك؟! أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت إليك؟!
إلهي، ما ألطفك بي مع عظيم جهلي، وما أرحمك بي مع قــبيح فعلي!
إلهي، ما أقربك مني وما أبعدني عنك!
إلهي، ما أرأفك بي، فما الذي يحجبني عنك؟!
إلهي، علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك مني أن تتعرف إلي في كل شيء حتى لا أجهلك في شيء.
إلهي، كلمـا أخرسـني لـؤمي أنطقـني كرمـك.. وكلمـا آيسـتني أوصافي أطمعتني مننك.
إلهي، إن القضـاء والقـدر غلبـني. وإن الهـوى بوثـائق الشـهوة أسرني.. فكن أنت النصـير لي حـتى تنصـرني وتنصـر بي. وأغنـني

1) هذه المناجاة مروية عن الإمام الحسين، وعن ابن عطاء الله السكندري.. ولا حاجة للتحقيق في الأصح منهما، لأن المعـاني الـواردة فيهـا معـان ورد مثلهـا عن أهـل الـبيت.. والعبرة بالمعاني لا بكسوة الألفاظ.

بفضلك حتى استغني بك عن طلبي.

أنت الـذي أشـرقت الأنـوار في قلـوب أوليائـك حـتى عرفـوك ووحـدوك.. وأنت الـذي أزلت الأغيـار عن قلـوب أحبائـك حـتى لم يحبـوا سـواك. ولم يلجـأوا إلى غـيرك.. أنت المـونس لهم حيث أوحشتهم العوالم. وأنت الذي هديتهم حيث استبانت لهم المعـالم.. ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك؟!

لقـد خـاب من رضـي دونـك بـدلا، ولقـد خسـر من بغى عنـك متحولا.

كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان؟!

وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان؟!

يا من أذاق أحباءه حلاوة مؤانسـته فقـاموا بين يديـه متملقين.. ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقـاموا بعزتـه مسـتعزين.. أنت الذاكر قبل الذاكرين، وأنت البادي بالإحسان قبـل توجـه العابـدين، وأنت الجواد بالعطـاء قبـل طلب الطـالبين، وأنت الوهـاب، ثم لمـا وهبت لنا من المستقرضين.

إلهي، اطلبني برحمتك حتى أصل إليك.. واجـذبني بمنـك حـتى أقبل عليك.

إلهي، إن رجائي لا ينقطع عنك وإن عصيتك.. كمـا أن خـوفي لا يزايلني وإن أطعتك.. فقد دفعتني العوالم إليك. وقد أوقفني علمي بكرمك عليك.

إلهي، كيف أخيب وأنت أملي، أم كيف اهان وعليك متكلي؟!

إلهي، كيف أستعز وفي الذلة أركزتني، أم كيف لا أستعز وإليك نسبتني؟!

إلهي، كيـف لا أفتقـر وأنت الـذي في الفقـر أقمتـني! أم كيـف أفتقر وأنت الذي بجودك أغنيتني!

إلهي أنت الذي لا إلـه غـيرك، تعـرفت لكـل شـيء فمـا جهلـك شيء.. وأنت الذي تعرفت إلي في كل شـيء فرأيتـك ظـاهرا في كل شيء وأنت الظاهر لكل شيء.

يا من احتجب في سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار.. يا من تجلى بكمـال بهائـه فتحققت عظمتـه الأسـرار.. كيـف تخفى وأنت الظـاهر؟! أم كيـف تغيب وأنت الـرقيب الحاضـر؟! إنـك على كـل شي قدير.. والحمد لله وحده.

***

بعد أن ألقى جاستن هـذه المناجـاة بانفعـال وتواجـد عظيمين،

التفت إلينا، وقال: بعد أن سمعت هذه المناجاة الرقيقة دخلت إليه.. فوجدته جالسا كالشمس المتربعة في فلكها يحيط بها مريدون كالأقمار.. زيتهم يكاد يضيء، ولو لم تمسسه نار.

قال أحدهم: يا سيدنا.. لقد ذكر المتكلمون أدلة كثيرة على الله.. وقد حصل بينهم الخلاف في بعضها.. فما ترى الدليل على الله؟

قال: الله هو الدليل على الله..

قال المريد: كيف ذلك؟

قال: معرفة الله على قسمين: معرفة برهان، ومعرفة عيان.. أما البرهان، فللمتكلمين.. وأما العيان فللمشاهدين.. ففي الوقت الذي يتيه فيه العلماء بحثا عن الأدلة، ويتنازعون وفق ما تقتضيه أنظارهم يجلس العارفون المتخلصون من كثافة حجاب العقل المقيد بقيود الحس والوهم في أرائك جنة المشاهدة والمكاشفة واليقين.

قال المريد: من هم المشاهدون؟

قال: من لم تحجبهم الأكوان عن ربهم.. ومن استدلوا بالله على الله(1).. فشَتَّانَ بَينَ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِاللهِ ومن يَسْتَدِلُّ على الله.. المُسْتَدِلُّ بالله عَرَفَ الحَقَّ لأَهْلِهِ، فأَثْبَتَ الأَمْرَ مِنْ وُجودِ أَصْلِهِ.. ومن استدل على الله، فذلك مِنْ عَدَمِ الوُصولِ إليَهِ.. وَإلّا فَمَتى غابَ حَتّى يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ؟!.. وَمَتى بَعُدَ حَتّى تَكونَ الآثارُ هِيَ الّتي تُوْصِلُ إلَيْهِ؟!

قال المريد: فكيف يتحققون بهذا؟

قال: بالصفاء.. فإنه:

إذا سكن الغدير على صفاء ... وجنب أن يحركه النسيم

بدت فيه السماء بلا امتراء ... كذاك الشمس تبدو والنجوم

كذاك قلوب أرباب التجلي ... يرى في صفوها الله العظيم

قال المريد: ولكن الحجب التي تحول بيننا وبينه كثيرة..

قال: الحق ليس بمحجوب، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه.. إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصرا، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر، والله هو القاهر فوق عباده.

---

1) سنذكر هنا ـ بتصرف ـ بعض ما أورده ابن عطاء الله في حكمه من الطريق إلى معرفة الله على منهج أهل المحبة.

ثم رفع رأسه إلى السماء(2)، وقال: الكـون كلـه ظلمـة ،وإنمـا أناره ظهور الحق فيه.. فمن رأى الكون ولم يشـهده فيـه أو عنـده أو قبله أو بعده فقد أعـوزه وجـود الأنـوار.. وحجبت عنـه شـموس المعارف بسحب الآثار.

فهو سبحانه كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهـر كـل شـيء!.. وكيـف يتصـور أن يحجبـه شـيء وهـو الـذي ظهـر بكـل شيء!.. وكيف يتصور أن يحجبـه شـيء وهـو الـذي ظهـر في كـل شـيء!.. وكيـف يتصـور أن يحجبـه شـيء وهـو الـذي ظهـر لكـل شيء!.. وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجـود كـل شيء!.. وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شـيء!.. وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شـيء!.. وكيـف كيـف يتصـور أن يحجبـه شـيء وهـو أقـرب إليـك من كـل شيء!.. وكيف يتصور أن يحجبه شيء ولـولاه مـا كـان وجـود كـل شيء!

ثم التفت إلى محدثه، وقـال: ألا تـرى أن من العجب أن يظهـر الوجود في العـدم؟.. ألا تـرى أن من العجب أن يثبت الحـادث مـع من له وصف القدم؟

قال المريد: إن ما تقوله، وما يقوله جميـع أوليـاء اللـه جميـل.. ولكن عموم الناس لا يرون ما تذكره..

قال: لا يصل إلى هذه المعرفـة إلا من محـا صـور الأكـوان من مرآته.. فلا يمكن أن يتجلى الله في قلب ممتلئ بالأصنام.

قال المريد: لم؟

قال: لأن الله واحد.. ولا يعاين الواحد إلا من تخلى عن الأنداد.

قال المريد: لم؟

قال: كيف تريـد لقلب أن يشـرق وصـور الأكـوان منطبعـة في مرآته؟ أم كيف تريده أن يرحل إلى الله وهو مكبل بشـهواته؟.. أم كيـف يطمـع أن يـدخل حضـرة اللـه وهـو لم يتطهـر من جنابـة غفلاته؟.. أم كيف يرجو أن يفهم دقـائق الأسـرار وهـو لم يتب من هفواته؟!)

قال المريد: فقد أيأستنا من أنفسنا إذن؟

قال: لا.. فلولا ميادين النفوس ما تحقق سـير السـائرين.. إذ لا مسافة بينك وبينـه حـتى تطويهـا رحلتـك.. ولا قطيعـة بينـك وبينـه

---

2) لا نريد بهذا ما يفهمه البعض من الجهة، فقـد ذكرنـا أن اللـه تعـالى عنهـا وتقـدس، ولكنا نريد ما تعارفنا عليه مما هو من باب تعظيم الله، لا من باب تحديد الجهة.

تمحوها وصلتك.
قال المريد: فكيف نصل إلى الله، ونحن ممتلئون بالمساوئ؟
قال: لو أنك لا تصل إلى الله إلا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك فلن تصل إليه أبدا.. ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه ستر وصفك بوصفه، وغطى نعتك بنعته، فوصلك إليه بما منه إليك لا بما منك إليه.

***

بعد أن سمعت تلك المعاني العظيمة شعرت بأن الكثافة التي كانت تمسك بي إلى الأرض تكاد تزول.. وصرت أشعر وكأني أرفرف مع الطير في السماء.. ثم لم أجد نفسي إلا وأنا أحمل رسالة لم أعرف من صاحبها، ولا لمن يراد إرسالها.
فتحتها لأعرف ما فيها.. فوجدت فيها هذه العبارة التي حفظتها من طول ترددي لها: (إلى شيخي وقدوتي ومولاي ودليلي إلى ربي حجة الإسلام أبي حامد الغزالي.. سلام الله عليكم ورحمته وبركاته..
سيدي.. لقد طوتني ظلمات الأكوان.. وحجبتي أنواء الأزمان عن السير إلى ربي.. فصف لي من الطرق أخصرها، وعلمني من الأسرار أدقها.. لعلي أفتح بها من أبوابي ما انغلق، وأرتق بها من حالي ما انفتق)
عندما قرأت الرسالة شعرت بداع عميق في نفسي يدعوني إلى البحث عن هذا الذي أرسلت له الرسالة..
فرحت أسير في ذلك المحل الممتلئ بالغرابة..
وقد استوقفت بعضهم فيه، وسألته عن هذا الغزالي الذي أرسلت له تلك الرسالة، فقال لي: ألا تعرف الغزالي؟.. إنه أحد قواد العربة المقدسة.. إنك أمام بيته.. وليس عليك إلا تدق بابه ليفتح لك.
ما إن مددت يدي إلى الباب لأدق عليه حتى سمعت صوتا جهوريا يقول لي: ادخل با جاستن؟
تعجبت من معرفته باسمي، فقلت: كيف عرفت اسمي؟
قال: ادخل وافتح الرسالة واقرأها علي..
ازداد عجبي منه، لكني لم أجد إلا أن أدخل، وأفتح الرسالة، كما طلب مني.. ثم قرأتها له كما قرأتها لكم.
سار خطوات قليلة، وأحضر الدواة والقلم، ثم سلمهما إلي،

وقال: اكتب على ظهر الرسالة ما أمليه عليك.

أمسكت بالقلم والدواة، فراح يملي علي قوله(1): (اعلم أن سعادة كل شيء ولذته وراحته تكون بمقتضى طبعه، وطبع كل شيء ما خلق له؛ فلذة العين في الصور الحسنة، ولذة الأذن في الأصوات الطيبة، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة. ولذة القلب خاصة بمعرفة الجوارح بهذه الصفة. ولذة القلب خاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى لأنه مخلوق لها.

وكل ما لم يعرفه ابن آدم إذا عرفه فرح به، مثل لعبة الشطرنج، إذا عرفها فرح بها، ولو نهى عنها لم يتركها ولا يبقى له عنها صبر. وكذلك إذا وقع في معرفة الله سبحانه وتعالى، وفرح بها، ولم يصبر عن المشاهدة؛ لأن لذة القلب المعرفة.

وكلما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر. ولذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير فرح، ولو عرف الملك لكان أعظم فرحاً.

وليس موجودا أشرف من الله سبحانه وتعالى؛ لأن شرف كل موجود به ومنه، وكل عجائب العالم آثار صنعته؛ فلا معرفة أعز من معرفته، ولا لذة أعظم من لذة معرفته، وليس منظر أحسن من منظر حضرته.

وكل لذات شهوات الدنيا متعلقة بالنفس، وهي تبطل بالموت.

ولذة معرفة الربوبية متعلقة بالقلب، فلا تبطل بالموت؛ لأن القلب لا يهلك بالموت، بل تكون لذته أكثر، وضوؤه أكبر؛ لأنه خرج من الظلمة إلى الضوء.

أما الطريق إلى هذه المعرفة.. فقد اختلفت فيها الخلائق.. وقد طلبت مني أن أصف لك أخصر الطرق وأيسرها، وأقربها إلى تحصيل المراد.. وأنا سأجيبك إلى طلبك..

فاعلم أن أقرب الطرق إلى الله هو طريق اسمه (الودود).. فبهذا الاسم يتقرب العباد إلى ربهم.. وبه يسيرون إليه.. وبه يصلون إليه.

فلا يمكن لقلب أن يعرف ربه ما لم يعرفه ربه.. هكذا تحدث جميع الأولياء..

وقد وصفوا الطريق المختصر لذلك، فذكروا أن أن القلب مثل المرآة، وأن فيه استعدادا جبليا لمطالعة أنوار الملكوت.

فإذا جلس في مكان خال، وعطل طريق الحواس، وفتح عين الباطن وسمعه، وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت، وقال

---

1) هذه الرسالة ملخصة بتصرف من (كيمياء السعادة) للغزالي.

دائما: (الله - الله – الله) بقلبه، ولسانه، إلى أن يصير لا خير معه من نفسه، ولا من العالم، ويبقى لا يرى شيئا إلا الله سبحانه وتعالى انفتحت تلك الطاقة، وأبصر في اليقظة الذي يبصره في النوم؛ فتظهر له أرواح الملائكة، والأنبياء، والصور الحسنة الجملية، وانكشف له ملكوت السماوات والأرض، ورأى ما لا يمكن شرحه ولا وصفه، كما قال النبي ﷺ: (زويت لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغربها)، وقال الله عز وجل:﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75)﴾ (الأنعام)، لأن علوم الأنبياء - عليهم السَلام - كلها كانت من هذا الطريق، لا من طريق الحواس، كما قال تعالى:﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8)﴾ (المزمل)، معناه: الانقطاع عن كل شيء، وتطهير القلب من كل شيء، والابتهال إليه سبحانه وتعالى بالكلية.

وهذه الدرجة الكبيرة مختصرة من طريق النبوة، وكذلك علم الأولياء؛ لأنه وقع في قلوبهم بلا واسطة من حضرة الحق، كما قال تعالى:﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65)﴾ (الكهف)

وهذه الطريق لا تفهم إلا بالتجربة، وإن لم تحصل بالذوق لم تحصل بالتعليم.. والواجب التصديق بها حتى لا تحرم شعاع سعادتهم، وهو من عجائب القلب. ومن لم يبصر لم يصدق، كما قال تعالى:﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39)﴾ (يونس)، وقوله:﴿.. وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11) ﴾ (الأحقاف)

ولا تحسب أن هذا خاص بالأنبياء والأولياء؛ لأن جوهر ابن آدم في أصل الخلقة موضوع لهذا كالحديد لأن يعمل منه مرآة ينظر فيها صورة العالم، إلا الذي صدأ فيحتاج إلى إجلاء، أو جدب فيحتاج إلى صقل أو سبك لأنه قد تلف.

وكذلك كل قلب إذا غلب عليه الشهوات والمعاصي لم يبلغ هذه الدرجة وإن لم تغلب عليه تلك الدرجة، كما قال النبي ﷺ: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة)(1)، وقال تعالى:﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا..(172)﴾ (الأعراف).. وكذلك بنو آدم في فطرتهم التصديق بالربوبية كما قال تعالى:﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ

1) رواه البخاري ومسلم.

لِخَلْـقِ اللَّهِ ذَلِـكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُـونَ (30)﴾ (الروم)، والأنبياء والأولياء هم بنو آدم، قال تعالى:﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ.. (110)﴾ (الكهف)

فكل من زرع حصد، ومن مشى وصل، ومن طلب وجد)

قال: هل كتبت كل ما طلبت منك كتابته؟

قلت: أجل.. لقد كتبت كل ما طلبت مـني.. ولكـني محتـار في صـاحب الرسـالة.. لقـد وجـدتها في يـدي فجـأة، وأنـا لا أعلم لمن أوصلها.

قال: فاحتفظ بالكتاب لنفسك.. وسيأتي اليوم الذي تعرف فيـه أصحاب الرسالة.

قلت: ولكنهـا أمانـة.. ولابـد أن أوصـلها إلى أهلهـا في أقـرب وقت.. ولا يمكنني أن أفعل ذلك ما لم أعرف صاحبها الآن.

قال: لكل شـيء أوانـه.. خـذ هـذه الرسـالة.. وخزنهـا عنـدك.. وارحل بها إلى كل محل.. فربمـا تـرى أهلهـا في يـوم من الأيـام.. وحينذاك اقرأها عليهم، وبلغهم سلامي.

***

أخرج لنا جاستن ورقة من جيبه، وقال: هذه هي الرسالة الـتي أملاها علي الغزالي.. وهي التي جعلتني أذكـر تلـك الأيـام الجميلـة التي تحركت فيها للبحث عن ربي..

قلنا: فكيف وجدتها؟

قال: عندما ذكر لي ذلك خبأتهـا في حقيبـة من الحقـائب الـتي أضع فيها حاجاتي النفيسة.. وقد غفلت عنهـا بسـبب الأهـواء الـتي اجتذبتني.. وبينما كنت اليوم أنظر في تلـك الحقيبـة إذا بي أجـدها، وأجد معها كل تلك الذكريات الجميلة التي ذكرتها لكم.

قلنا جميعا بصوت واحد: لاشك أن الغزالي كتب هـذه الرسـالة لنا.. فهلم نفعل ما أمرنا به.. فلعل الله أن يفتح علينـا بـذكر اسـمه ما فتح على أوليائه وقديسيه.

***

قلنا ذلك، ثم رحنا جميعا نردد بصوت واحد (الله.. الله.. اللـه).. وبقينا على ذلك إلى أن مر اليوم جميعا من غير أن نشـعر بـه.. ولا أن نشعر بمـا حولنـا.. لقـد عرفنـا بالـذوق مـا لم نسـتطع معرفتـه بتقليب الأدلة.. ووجوه النظر..

لقـد تجلى لنـا في ذلـك الحين مـا لا تسـتطيع قـراطيس الـدنيا جميعا أن تعبر عنه.

عاشرا ـ الصمد

بعد أن أمضينا ما يقرب من اليوم نلهج مع صاحبنا (جاستن مارتن) بذكر اسم الله.. وفي الثلث الأخير من الليل.. شعرنا بروحانية تسري في كل خلية من خلايانا، بل في كل ذرة من ذراتنا.. فاستحال كل شيء أمامنا أنوارا صرفة تدلنا على الله، وتعرفنا به.

في ذلك الحين، وفي ظلال تلك اللذة الروحانية العميقة، قام صاحبنا الأول الذي ذكرته لك في بداية حديثي عن رحلتي هذه..

قام، وقال: أبشروا أيها الجمع المبارك.. فالرب الذي عرفتموه هو (الله) الحقيقي الذي إذا دعي أجاب، وإذا سئل أعطى، وإذا استعيذ أعاذ.. وقد من الله علي، فعرفت من أسرار إجابته ما أريد أن أحدثكم به اليوم، على درب من سبقني من المتحدثين.

لقد حدثكم من قبلي عن الله الواحد القدوس الحميد البديع الملك العدل الرحيم الودود.. وأنا سأحدثكم عن الله الصمد المجيب الذي لا يرد من سأله، ولا يخيب من أمل فيه وفي فضله.

وقبل أن أحدثكم حديث هذه الأسماء، أحب أن أعرفكم باسمي.. وسر علاقتي بهذه الأسماء.

أما اسمي فهو (محمد)..

أما مسماي، فهو مسمى رجل سار في كل الأرض يبحث له فيها عن ملجأ ممن يحاربونه ويطاردونه.. وهو ينتظر بكل شوق ذلك اليوم الذي يتقدم فيه لرفع رفع راية الله لتنشر أنوارها على العالم أجمع.

اندهشت الجماعة المحيطة به من قوله هذا، ورددوا جميعا: فأنت مسلم إذن؟

قال: أجل.. أنا مسلم بفضل الله وحمده ومنته.

قال واحد من الجمع: فلم لم تبادر بتعريفنا بربنا؟

قال آخر: لم تركتنا نخوض غمار البحث الشاق المجهد بنفوسنا الضعيفة القاصرة؟

قال آخر: لم تركت لعقولنا الحرية في البحث عن ربنا، وأنت تعرفه.. ألم يكن الأولى بك أن تتقدم، فتقود جمعنا لتسير به إلى الله؟

ابتسم محمد، وقال: أولا.. لقد استننت في هذا بسنة أبي

إبراهيم – عليه السلام -.. فقد ذكر الله من أساليب دعوته لقومه هذا الأسلوب، فقال:﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)﴾ (الأنعام)

انظروا كيف مهد إبراهيم – عليه السلام – بهذه التمهيدات جميعا ليعرف الخلق بالخالق.

هذا أولا.. أما ثانيا.. فقد رأيت أني لو بدأت وبادرت بالحديث عما علمني ديني من المعارف المرتبطة بربي.. لانتفض كل واحد منكم وثارت فيه من النخوة ما يدعوه إلى الدعوة لدينه والتعصب له، لذلك آثرت أن تكونوا أنتم أول المتحدثين.

والحمد لله.. فإني أرى الله قد فتح عليكم من المعارف ما جعلكم أهلا لأن تحقق لكم المطالب، وترفع لكم الحاجات.. وهذا الوقت وقت مبارك أخبرنا رسول الله ﷺ أن الله يجيب فيه من سأله، ويعطي فيه من طلبه.

قال رجل منا: أهذا هو الوقت الوحيد الذي يجيب الله فيه السائلين؟

قال محمد: لا.. الله جواد كريم يجيب عباده في كل الأوقات.. ولكل الحاجات.. ولكن هذا الوقت كأوقات أخرى كثيرة يمتلئ بالنورانية.. وهي مناسبة جليلة لصفاء النفس، ورقة القلب وسمو الروح.. والدعاء لا يرفع إلا إذا صدر من روح سامية ونفس صافية وقلب رقيق.

ولذلك أدعوكم –إخواني – لترفعوا أيديكم إلى الله.. وادعوه.. وناجوه(1).. فقد ألهمني الله بأنه سيستجيب في هذا الحين لكل ما تطلبونه.

***

1) آثرنا أن نقتصر في هذا الفصل على ذكر بعض ما أثر من مناجاة أولياء الله الرقيقة.. وخاصة مناجاة سجاد آل محمد ﷺ.. فهي مناجاة تجمع ألوان المعرفة.. بل هي تعبر عن الحقائق الإيمانية بمنتهى الرقة والجمال.. وهي في قوتها الدلالية أقوى بكثير من كثير من الصيغ الجدلية الممتلئة بالجفاف.

رفع أحدنا يديه، وقال(1): إلهي ألبستني الخطايا ثوب مذلتي، وجللني التباعد منك لباس مسكنتي، وأمات قلبي عظيم جنايتي، فأحيه بتوبة منك يا أملي وبغيتي، ويا سؤلي ومنيتي، فو عزتك ما أجد لذنوبي سواك غافرا، ولا أرى لكسري غيرك جابرا، وقد خضعت بالانابة إليك، وعنوت بالاستكانة لديك، فإن طردتني من بابك فبمن ألوذ!؟ وإن رددتني عن جنابك فبمن أعوذ!؟ فوا أسفا من خجلتي وافتضاحي، ووالهفا من سوء عملي واجتراحي!

إلهي هل يرجع العبد الآبق إلا إلى موالاه!؟ أم هل يجيره من سخطه أحد سواه!؟

إلهي إن كان الندم على الذنب توبة، فإني وعزتك من النادمين، وإن كان الاستغفار من الخطيئة حطة فإني لك من المستغفرين، لك العتبى حتى ترضى.

يا مجيب المضطر، يا كاشف الضر، يا عظيم البر، يا عليما بما في السر، يا جميل الستر استشفعت بجودك وكرمك إليك، وتوسلت بجنابك وترحمك لديك، فاستجب دعائي، ولا تخيب فيك رجائي، وتقبل توبتي، وكفر خطيئتي بمنك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

***

رفع آخر يديه، وقال(2): إلهي إليك أشكو نفسا بالسوء أمارة، وإلى الخطيئة مبادرة، وبمعاصيك مولعة، ولسخطك متعرضة، تسلك بي مسالك المهالك، وتجعلني عندك أهون هالك، كثيرة العلل، طويلة الامل، إن مسها الشر تجزع، وإن مسها الخير تمنع، ميالة إلى اللعب واللهو، مملوء ة بالغفلة والسهو، تسرع بي إلى الحوبة، وتسوفني بالتوبة.

إلهي أشكو إليك عدوا يضلني، وشيطانا يغويني، قد ملأ بالوسواس صدري، وأحاطت هواجسه بقلبي، يعاضد لي الهوى، ويزين لي حب الدنيا، ويحول بيني وبين الطاعة والزلفى.

إلهي إليك أشكو قلبا قاسيا، مع الوسواس متقلبا، وبالرين والطبع متلبسا، وعينا عن البكاء من خوفك جامدة، وإلى ما يسرها طامحة.

إلهي لا حول ولا قوة إلا بقدرتك، ولا نجاة لي من مكاره الدنيا إلا بعصمتك. فأسألك ببلاغة حكمتك، ونفاذ مشيتك، أن لا تجعلني

---

1)من دعاء السجاد في مناجاة التائبين (ببعض تصرف)

2) من دعاء السجاد في مناجاة الشاكين (ببعض تصرف)

لغـير جـودك متعرضـا، ولا تصـيرني للفتن غرضـا، وكن لي على الاعداء ناصرا، وعلى المخازي والعيـوب سـاترا، ومن البلايـا واقيـا، وعن المعاصي عاصما، برأفتك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

***

رفع آخر يديه، وقال(1): إلهي أتراك بعد الايمـان بـك تعـذبني!؟ أم بعـد حـبي إيـاك تبعـدني!؟ أم مـع رجـائي لرحمتـك وصـفحك تحرمـني!؟ أم مـع اسـتجارتي بعفـوك تسـلمني!؟ حاشـا لوجهـك الكـريم أن تخيبـني، ليت شـعري أللشـقاء ولـدتني أمي، أم للعنـاء ربتـني!؟ فليتهـا لم تلـدني ولم تربـني، وليتـني علمت أمن أهـل السعادة جعلتني؟ وبقربك وجوارك خصصـتني؟ فتقـر بـذلك عيـني وتطمئن له نفسي.

***

رفع آخر يديه، وقال(2): يا من إذا سأله عبد أعطاه، وإذا أمل ما عنده بلغه مناه، وإذا أقبل عليه قربه وأدناه، وإذا جـاهره بالعصـيان ستر على ذنبه وغطاه، وإذا توكل عليه أحسبه وكفاه.

إلهي من الذي نزل بك ملتمسا قراك فمـا قريتـه!؟ ومن الـذي أناخ ببابك مرتجيا نـداك فمـا أوليتـه!؟ أيحسـن أن أرجـع عن بابـك بالخيبة مصروفا، ولست أعرف سواك مولى بالاحسان موصـوفا!؟ كيف أرجو غيرك والخير كله بيدك!؟ وكيـف أؤمـل سـواك والخلـق والامـر لـك!؟ أأقطـع رجـائي منـك وقـد أوليتـني مـالم أسـأله من فضلك؟ أم تفقـرني إلى مثلي وأنـا أعتصـم بحبلـك!؟ يـا من سـعد برحمته القاصدون، ولم يشـق بنقمتـه المسـتغفرون كيـف أنسـاك ولم تزل ذاكـري!؟ وكيـف ألهـو عنـك وأنت مراقـبي!؟ إلهي بـذيل كرمـك أعلقت يـدي، ولنيـل عطايـاك بسـطت أملي، فأخلصـني بخالصة توحيدك، واجعلني من صفوة عبيدك.

***

رفع آخر يديـه، وقـال(3): إلهي إن كـان قـل زادي في المسـير إليك، فلقد حسن ظني بالتوكل عليك، وإن كان جرمي قد أخـافني من عقوبتك، فإن رجائي قد أشعرني بالأمن من نقمتـك، وإن كـان ذنبي قـد عرضـني لعقابـك، فقـد آذنـني حسـن ثقـتي بثوابـك، وإن أنامتني الغفلة عن الاستعداد للقائك، فقد نبهتني المعرفـة بكرمـك وآلائك، وإن أوحش ما بيني وبينك فـرط العصـيان والطغيـان، فقـد

1) من دعاء السجاد في مناجاة الخائفين (ببعض تصرف)
2) من دعاء السجاد في مناجاة الراجين (ببعض تصرف)
3) من دعاء السجاد في مناجاة الراغبين (ببعض تصرف)

آنسني بشرى الغفران والرضوان.

إلهي استشفعت بك إليك، واستجرت بك منك، أتيتك طامعا في إحسانك، راغبا في امتنانك، مستسقيا وابل طولك، مستمطرا غمام فضلك، طالبا مرضاتك، قاصدا جنابك، واردا شريعة رفدك ملتمسا سني الخيرات من عندك، وافدا إلى حضرة جمالك، مريدا وجهك، طارقا بابك، مستكينا لعظمتك وجلالك، فافعل بي ما أنت أهله من المغفرة والرحمة ولا تفعل بي ما أنا أهله من العذاب والنقمة برحمتك يا أرحم الراحمين.

***

رفع آخر يديه، وقال(1): اللهم ألهمنا طاعتك، وجنبنا معصيتك، ويسر لنا بلوغ ما نتمنى من ابتغاء رضوانك، وأحللنا بحبوحة جنانك، واقشع عن بصائرنا سحاب الارتياب، واكشف عن قلوبنا أغشية المرية والحجاب، وأزهق الباطل عن ضمائرنا، وأثبت الحق في سرائرنا، فإن الشكوك والظنون لواقح الفتن، ومكدرة لصفو المنائح والمنن.

اللهم احملنا في سفن نجاتك، ومتعنا بلذيذ مناجاتك، وأوردنا حياض حبك، وأذقنا حلاوة ودك وقربك، واجعل جهادنا فيك، وهمنا في طاعتك، وأخلص نياتنا في معاملتك، فإنا بك ولك، ولا وسيلة لنا إليك إلا أنت. إلهي اجعلني من المصطفين الاخيار، وألحقني بالصالحين الابرار، السابقين إلى المكرمات المسارعين إلى الخيرات، العاملين للباقيات الصالحات، الساعين إلى رفيع الدرجات، إنك على كل شئ قدير، وبالاجابة جدير، برحمتك يا أرحم الراحمين.

***

رفع آخر يديه، وقال(2): سبحانك ما أضيق الطرق على من لم تكن دليله! وما أوضح الحق عند من هديته سبيله! إلهي فاسلك بنا سبل الوصول إليك، وسيرنا في أقرب الطرق للوفود عليك، قرب علينا البعيد، وسهل علينا العسير الشديد، وألحقنا بعبادك الذين هم بالبدار إليك يسارعون، وبابك على الدوام يطرقون، وإياك في الليل والنهار يعبدون، وهم من هيبتك مشفقون الذين صفيت لهم المشارب، وبلغتهم الرغائب، وأنجحت لهم المطالب، وقضيت لهم من فضلك المآرب، وملات لهم ضمائرهم من حبك، ورويتهم من

---

1) من دعاء السجاد في مناجاة المطيعين (ببعض تصرف)

2) من دعاء السجاد في مناجاة المريدين (ببعض تصرف)

صـافي شـربك، فبـك إلى لذيـذ مناجاتـك وصـلوا، ومنـك أقصـى مقاصدهم حصلوا، فيامن هو على المقبلين عليه مقبـل، وبـالعطف عليهم عائد مفضـل، وبالغـافلين عن ذكـره رحيم رؤوف، وبجـذبهم إلى بابه ودود عطوف.

***

رفع آخر يديه، وقـال(1): إلهي من ذا الـذي ذاق حلاوة محبتـك فرام منك بدلا، ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا.

إلهي فاجعلنا ممن اصطفيته لقربـك وولايتـك، وأخلصـته لـودك ومحبتك، وشوقته إلى لقائك، ورضيته بقضائك، ومنحته بـالنظر إلى وجهك، وحبوته برضـاك، وأعذتـه من هجـرك وقلاك، وبوأتـه مقعـد الصدق في جوارك، وخصصـته بمعرفتـك، وأهلتـه لعبادتـك وهيمت قلبـه لارادتـك، واجتبيتـه لمشـاهدتك، وأخليت وجهـه لـك، وفـرغت فؤاده لحبك، ورغبته فيما عندك، وألهمته ذكـرك وأوزعتـه شـكرك، وشغلته بطاعتك، وصيرته من صـالحي بريتـك واخترتـه لمناجاتـك، وقطعت عنـه كـل شـئ يقطعـه عنـك. اللهم اجعلنـا ممن دأبهم الارتيـاح إليـك والحـنين، ودهـرهم الزفـرة والأنين، جبـاهم سـاجدة لعظمتـك، وعيـونهم سـاهرة في خـدمتك ودمـوعهم سـائلة من خشيتك، وقلوبهم متعلقة بمحبتك، وأفئدتهم منخلعة من مهابتك. يـا من أنوار قدسه لابصار محبيه رائقة، وسبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة. يا منى قلوب المشتاقين، ويا غاية المحـبين. أسـألك حبـك، وحب من يحبك، وحب كل عمـل يوصـلني إلى قربـك،. أن تجعلـك أحب إلي مما سـواك، وأن تجعـل حـبي إيـاك قائـدا إلى رضـوانك، وشوقي إليك ذائدا عن عصـيانك، وامنن بـالنظر إليـك علي وانظـر بعين الود والعطف إلي، ولا تصرف عني وجهك، واجعلني من أهـل الاسعاد والحظوة عندك، يا مجيب يا أرحم الراحمين.

***

رفع آخر يديه، وقال(2): إلهي ليس لي وسيلة إليك إلا عواطف رأفتك، ولا لي ذريعة إليك إلا عوارف رحمتـك وشـفاعة نبيـك، نـبي الرحمـة، ومنقـذ الامـة من الغمـة، فاجعلهمـا لي سـببا إلى نيـل غفرانك، وصيرهما لي وصلة إلى الفور برضوانك، وقد حل رجـائي بحرم كرمك، وحط طمعي بفناء جودك، فحقـق فيـك أملي، واختم بالخير عملي، واجعلني من صفوتك الذين أحللتهم بحبوحـة جنتـك،

---

1) من دعاء السجاد في مناجاة المحبين (ببعض تصرف)
2) من دعاء السجاد في مناجاة المتوسلين (ببعض تصرف)

وبـوأتهم دار كرامتـك، وأقـررت أعينهم بـالنظر إليـك يـوم لقائـك، وأورثتهم منازل الصدق في جـوارك. يـا من لا يفـد الوافـدون على أكرم منه، ولا يجد القاصدون أرحم منه، يـا خـير من خلا بـه وحيـد، ويا أعطف من آوى إليه طريد. إلى سعة عفوك مددت يدي، وبذيل كرمـــك أعلقت كفي، فلا تولـــني الحرمـــان، ولا تبلـــني بالخيبـــة والخسران، يا سميع الدعاء يا أرحم الراحمين.

***

رفـع آخـر يديـه، وقـال(1): إلهي كسـري لا يجـبره إلا لطفـك وحنانك وفقري لا يغنيه إلا عطفك وإحسانك، وروعتي لا يسكنها إلا أمانك، وذلتي لا يعزها إلا سـلطانك، وأمنيـتي لا يبلغنيهـا إلا فضـلك، وخلتي لا يسـدها إلا طولـك، وحـاجتي لا يقضـيها غـيرك، وكـربي لا يفرجه سوى رحمتك، وضري لا يكشفه غير رأفتك، وغلتي لا يبردها إلا وصلك، ولوعـتي لا يطفيهـا إلا لقـاؤك، وشـوقي إليـك لا يبلـه إلا النظر إلى وجهك، وقراري لا يقر دون دنوي منك، ولهفتي لا يردهـا إلا روحك، وسـقمي لا يشـفيه إلا طبـك، وغمي لا يزيلـه إلا قربـك، وجــرحي لا يبرئــه إلا صــفحك، ورين قلــبي لا يجلــوه إلا عفــوك، ووسواس صدري لا يزيحه إلا أمـرك. فيـا منتهى أمـل الآملين، ويـا غاية سؤل السائلين، ويـا أقصـى طلبـة الطـالبين، ويـا أعلى رغبـة الراغبين، ويا ولي الصالحين، ويا أمان الخـائفين، ويـا مجيب دعـوة المضـطرين، ويـا ذخـر المعـدمين، ويـا كـنز البائسـين، ويـا غيـاث المسـتغيثين، ويـا قاضـي حـوائج الفقـراء والمسـاكين، ويـا أكـرم الاكــرمين، ويــا أرحم الــراحمين. لــك تخضــعي وســؤالي، وإليــك تضرعي وابتهالي. أسألك أن تنيلني من روح رضـوانك وتـديم علي نعم امتنانك. وها أنا بباب كرمـك واقـف، ولنفحـات بـرك متعـرض، وبحبلـك الشـديد معتصـم، وبعروتـك الـوثقى متمسـك. إلهي ارحم عبدك الذليل، ذا اللسان الكليل والعمل القليل وامنن عليه بطولـك الجزيل، واكنفه تحت ظلـك الظليـل، يـا كـريم يـا جميـل، يـا أرحم الراحمين.

***

بقينـا على هـذه الحـال إلى أن طلعت الشـمس من غـير أن نشعر بها، ولا أن نشعر بشـيء ممـا حولنـا.. فقـد جعلنـا ذكـر اللـه ومناجاته نعيش في عوالم من الأنس لم نر مثلها طيلة حياتنا.

لكنا فجأة.. ونحن على تلـك الحـال الـتي وصـفتها لـك، سـمعنا

1) من دعاء السجاد في مناجاة المفتقرين (ببعض تصرف)

شهيقا وبكاء كثيرا استغربنا له.. فقد كان له من الصدى ما لم يكن لأصواتنا المحدودة أن تحدثه.

فتحنا أعيننا، والتفتنا إلى ما حولنا، فوجدنا ناسا كثيرين يحيطون بنا، وهم يرفعون أيديهم إلى السماء كما نرفعها، وتنحدر الدموع من مآقيهم مثلما تنحدر من مآقينا.

لقد ملأنا ذلك المشهد بالعجب.. فراح أحدنا يسألهم عن سرهم وسر حضورهم، فقام أحدهم، وقال: نحن قوم من أهل هذه البلاد.. طردتنا الأرض، أو طردنا أهل الأرض، فلم نجد ملجأ إلا هذه الأرض الوعرة التي وقعتم فيها، وقد كنا نسأل رب هذا الكون كل حين أن يدلنا عليه، وأن يعرفنا به، وأن يأوينا إذ طردنا الناس، وأن يحمينا إذ قهرنا الناس، وأن يقربنا إذ قلانا الناس.. وها قد استجاب لنا ربنا.. فقد سمعنا من ذكركم لربكم ومناجاتكم له ما زادنا معرفة به، وحبا له، وأنسا به.

ونحن نشعر الآن أننا قد ولدنا ولادتنا الحقيقية.. فلا خير في حياة لا يعرف صاحبها ربه.. ولا خير في عيش لا يأنس صاحبه فيه بملك هذا الوجود ومالكه ومدبر أمره.

قال آخر: أنتم أهل الله الذين ظللنا نحلم بأن نراكم، ونسمع كلامكم، ويسري إلينا من أحوالكم ما يخرجنا من أوهام النفوس ودجل الشياطين.

قال آخر: لقد من الله علينا أخيرا فأرسل لنا من دلنا عليه، ونحن شاكرون فضله، حامدون نعمته، ولا نطلب منه إلا أن يذيقنا من الأنس به والشوق له ما أذاقكم، وأن يسقينا من الشراب الذي سقاكم.

قال آخر: بينما كنا في بيوتنا نأوي إلى الظلمة والفناء.. ونحلم بالعدم والألم.. سمعنا صياحكم باسم (الله).. لقد كانت صيحات حارة قوية أشعلت في قلوبنا من الأشواق ما لم تشعله أي صيحة.. فلذلك جئنا على رؤوس أقدامنا نسعى لنشرب معكم من ذلك النبع الذي لا يظمأ من شرب منه.

بعد أن تحدث الجمع بهذه الأحاديث طلبوا منا أن نسير معهم إلى المحل الذي يقيمون فيه، وقد عجبنا إذ رأيناه لا يبعد عنا كثيرا.. ولكن القدر صرفنا عن البحث عنه.. لنبحث بدله عن الله.. وقد حمدنا الله على ذلك.. وعرفنا ما تختزنه الآلام من أنواع النعم التي يحجب عنها الغافلون.

الخاتمة

بعد أن حدثني الشيخ الصالح عن نبأ هذه الرحلة، وما حصل لـه فيها استغرق في صمت عميق، قطعته عليه بقـولي: فكيـف انتهى أمركم بعد أن دلكم الله على سبيل النجاة، وبعد أن شـرفكم قبـل ذلك، فعرفكم بـه، ورفعكم إلى تلـك المقامـات السـنية.. مقامـات الأولياء والصديقين.

قال: لقد ذهبنا إلى أولئك القوم الكرام، فوجدنا معادنهم أصفى المعـادن وأكرمهـا.. فمـا إن لاح لهم من نـور اللـه مـا لاح حـتى اسـتحالوا أنـوارا صـرفة.. فكـان منهم العـارفون والعابـدون والزاهدون.. وقـد أبى رفـاقي جميعـا أن ينصـرفوا عنهم أو يرضـوا بحياة بديلة عن حياتهم.. إلا أنا..

قلت: كيف ذلك؟

قال: بعد أن مكثنا في صحبتهم أياما سمع قومنا بنبئنا، فأرسلوا لنا طائرة خصوصية لتنقذنا، وتعيدنا إلى بلادنا.. لكن رفـاقي جميعـا أبوا أن يعودوا.. لقد التصقوا بالمكان الذي عرفوا فيـه ربهم، فـأبوا أن ينصرفوا عنه، أو يرضوا بمكان آخر بدله.

قلت: ولكنك ذكرت لي أنه كان مكانا وعرا شاقا.

قال: وقد ذكرت لك أنهم عرفوا الله فيه..

قلت: فما في ذلك؟

قال: كل أرض عرفت الله فيها، فهي عرفات أنسـك، ومعـراج روحك، وكعبة قلبك.. ولا يشقى من عرف ربه، ولا يحـزن من أنس بمولاه.

قلت: ولكن الله يعرف في كل مكان.

قال: الله لا يحجبه المكـان ولا الزمـان.. ولا يحويـه المكـان ولا الزمان.. ولكن النفس قد تختلف لديها المحال.. والعاقل هـو الـذي يختار من الأرض ما يأنس فيه بربه، ويتفرغ فيه لمـولاه.. لقـد ذكـر الله ذلك، فقال:﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (98) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (99)﴾ (النساء)

ثم قـال بعـدها:﴿ وَمَنْ يُهَـاجِرْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ يَجِـدْ فِي الْأَرْضِ

مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (100)﴾ (النساء)

فهذه الهجرة إلى الله.. وهذا هو الفرار إلى الله.

ألسنا نفر من أرض إلى أرض طلبا للرزق.. أو طلبا للجاه.. أو طلبا للعافية؟

قلت: بلى.. ولا حرج علينا في ذلك.

قال: ليس الحرج في ذلك.. ولكن الحرج أن نرحل لأجل كل شيء، ثم لا نكلف أرجلنا خطوة واحدة من أجل البحث عن ربنا أو الاتصال به.

قلت: ذلك لأن ربنا معنا في كل المحال.. ألم يقل الله تعالى:﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7)﴾ (الحديد)؟

قال: ذلك صحيح.. ولكن الشأن ليس في أن يكون ربنا معنا، وإنما الشأن في أن نكون نحن مع ربنا.. فربنا تستوي لديه المحال، ولكنا نحن الذين تحجبنا الغفلة، ويحتوينا الهوى، فيمنعنا من السير إلى ربنا.. لقد قال أولياء الله في ذلك:(الحق ليس بمحجوب، وإنما المحجوب أنت عن النظر، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر:﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ.. ﴾ (الأنعام:18)

قلت: صدق أولياء الله في ذلك.. ولكنهم هم أنفسهم يذكرون أن السير إلى الله سير القلوب لا سير الأقدام.. لقد قال ابن عطاء الله في ذلك:(لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين، إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك)

قال: صدق ابن عطاء الله في ذلك.. ولكن النفس الراكنة إلى الهوى المتثاقلة إلى الأرض تحتاج إلى طي مسافات الأجسام لتصل إلى الذي لا تحجبه المسافات، ولا تحول دونه الحوائل.

لقد ذم الله المتثاقلين إلى الأرض القاعدين عن البحث عن مولاهم، أو عن السلوك إليه، وذكر لهم نموذجا عن ذلك، فقال:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ

مَثَـلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا فَاقْصُـصِ الْقَصَـصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)﴾ (الأعراف)

قلت: سلمت لك بهذا، وقد ذكـرني حـديثك هـذا بأبيـات جميلـة من الشعر كنت أسمعها وأنا صبي تنشد في حلقات الذكر، فتهزني هزا.. كان الحادي يترنم بقوله:

أخاطر في محبتكم بـروحي ... وأركب بحـركم أمـا وأما

وأسلك كـل فج في هـواكم ... وأشرب كأسكم لـو كـان آلا

ولا أصـــغى إلى من قـــد ... ولي أذن عن العـــــذال

أخـــاطر بـــالخواطر في ... وأتـرك في رضـاكم أبـا

سـقطت دمـوع حـارة من عيـني الشـيخ الصـالح عنـد سـماعة الأبيات، فمسحها بيده برفـق، ثم قـال: لقـد آثـر رفـاقي جميعـا أن يعيشـوا مـع أولئـك الصـالحين ليقضـوا مـا بقي لهم من عمـر مـع مولاهم إلا أنا، فقد تثاقلت إلى الدنيا، وركنت إلى الهوى.

قلت: فماذا فعلت؟

قال: لقد امتطيت الطائرة إلى حيث كان أخي في الفاتيكان..

قلت: ألم تسلم بعد كل هذا؟

قال: بلى.. لقد من الله علي فنطقت بما عجزت طول عمـري أن أنطق به.. لقد أسمعت تلك الجبال جميعا أكبر شـهادة في هـذا الوجود (شهادة أن لا إله إلا الله.. وأن محمدا رسول الله)

لقـد صـحت بهـا.. فشـعرت عنـد صـياحي بهـا من السـرور والسعادة ما لم يستطع جسمي تحمله.

وعندما زرت أخي في مكتبه، كان أول مـا نطقت بـه بين يديـه هو تلك الشهادة..

وقـد عجبت عجبـا شـديدا إذ رأيت أخي ثابتـا لم يتحـرك، ولم يصبه ما كنت أتوقعـه منـه، بـل اكتفى بقولـه: لقـد كنت أعلم أنـك ستنطق بها.. ولم يكن لك إلا أن تنطق.. فيستحيل على من تعرض لتلك الشمس العظيمة أن يعرض عنها.

قلت: فهلم ننطق بها جميعا.

قال: وددت لو أني فعلت ذلك.. ولكن أنت تراني الآن كما ترى نفسك على أعتاب ذلك الكرسي الذي ظللنا طول عمرنا نحلم بأن نجلس عليه.

قلت: أنت الـذي تحلم بـه، أمـا أنـا فقـد نطقت بهـا أخـيرا..

ويستحيل أن أكون بابا بعدها.
ابتسم، وقال: لكأني بك نسيت من أنا.. ونسـيت من أنت.. أنـا وأنت شيء واحد..
نعم.. لقد تحديتني، فصحت بتلك الشـهادة بين الجبـال والآكـام والصخور.. ولكنك لا تستطيع أن تنطق بها في غير تلك المحال..
صحت: بل سأنطق بها.. سأصرخ بها ليسمعها العالم أجمع.
ضحك بصوت عال، وقال: فجرب إذن.. اخـرج إلى الخـارج.. أو اكتف بأن تصيح بها هنا في مكتبي.
أردت أن أصيح، فإذا بي أشعر بتلك الخرسـانة المسـلحة تقـف بيني وبين الصراخ.
قلت: ما الذي فعلت بي حتى منعتني من النطق بمـا اقتنـع بـه كل كياني؟
قال: أنـا لم أفعـل لـك شـيئا.. ولكن صـراخك في هـذا المحـل يحتاج إلى موافقتي.. وبما أني لم أوافق، فإنـه يسـتحيل أن تنطـق بكلمة واحدة.
قلت: فهيا نصيح بها جميعا.
قال: أتريدنا أن نضحي بذلك المنصب الرفيع؟
قلت: إن الله الكـريم المنـان سـيمن علينـا بالمناصـب الـتي لا يمكن لأي كرسي في الدنيا أن يعوضها.
قال: لقـد نبت حب ذلـك المنصـب في قلـبي.. ولا يمكنـني أن أعيش لحظة واحدة بعد أن يزول حبه من قلبي.
قلت: فماذا أفعل أنا؟
قال: كن مسلما كما تشـاء.. قم الليـل.. وصـم النهـار.. واذكـر ربك آناء الليل وأطراف النهار.. ولكن شيئا واحدا لن أسمح لـك بـه ما حييت..
قلت: الصراخ في الملأ بتلك الشهادة العظيمة؟
قـال: أجـل.. يمكنـك أن تـذهب إلى الجبـال، وتصـيح بهـا بين الصخور.. بل يمكنك أن تسـمعها لنبـات الأرض، ولنجـوم السـماء.. ولكني لن أسمح لك أبدا أن تحدث بها، أو تصيح بها بين الناس.

***

شـعرت أني في محاولـة إقنـاعي لأخي كمن يحـاول أن يحـول من الحجارة ذهبا، فلـذلك ركنت إلى الصـمت.. وفي ذلـك المسـاء سرت إلى ضاحية المدينة حيث تتربع بعض الجبال العالية.. وهنـاك رفعت صوتي كما لم أرفعه من قبل ناطقا بتلك الشهادة العظيمة.

وقد ظللت على هذا فترة من عمري.. ثم إني جعلت في بيـتي خلـوة منفـردة عن النـاس كنت أردد فيهـا مـا تعلمتـه من أذكـار.. وكنت أناجي فيها الله بما كان يلهمني الله من مناجاته.

وقد وجدت في ذلك من السعادة والأنس ما لا يمكن لأحــد في الدنيا أن يجده.

هذا الكتاب

هـذه الروايـة تحـاول أن تنشـر في قلب المـؤمن وغـير المؤمن أهمية معرفة الله وضرورتها، وأن الحياة لا تسـتقيم من دونها، وأن القلب لا يدرك ضالته من دونها.

وهي تتوسـل لـذلك بكـل أنـواع الحجج العقليـة والعاطفيـة وغيرها..

وتدور أحداثها حول رجـل دين مسـيحي يـزور المؤلـف، ثم يحكي له قصة اهتدائـه للـه، والـتي بـدأت من خلال تكليفـه من طرف الكنيسة بالذهاب صـحبة هيئـة علميـة أرسـلها الفاتيكـان لحضور مـؤتمر علمي حـول اللـه في الأديـان المختلفـة.. وقبـل الوصول إلى المؤتمر نزلت الطائرة الـتي تقلهم اضـطراريا في مكان مجهول، وحين ييأسس الركاب من أن ينقذهم أحد يقفون مواقـف مختلفـة.. أمـا الملاحـدة واللاديـنين، فمنهم من ينتحـر، ومنهم من يصاب بالجنون.. وأما غيرهم، فيتضرعون إلى اللــه.. كل حسب دينه الذي يعتقده.. لكن شخصا منهم خاطبهم بقوله: (نحن من بلاد مختلفة.. منا من يؤمن باللــه.. ومنـا من لا يـؤمن به.. ونحن نختلف فيما بيننا اختلافا شديدا في معارفنا المرتبطة بالله.. ولا يمكن لـدعواتنا أن ترتفـع للآلهـة المزيفـة.. فلـذلك لا منــاص لنــا من البحث عن الإلــه الحقيقي حــتى نرفــع أكفنــا بالضراعة إليه)

وهنـا يبـدأ كـل بـاحث من الهيئـة العلميـة يـدلي بشـهادته الصـادقة عن معارفـه الـتي وصـل إليهـا من خلال زيارتـه لبلاد المسلمين..

وفي الأخير.. وبعد اهتدائهم للـه.. ودعـائهم لـه، قيض اللـه لهم من ينقذهم..